

عالم الفكر

- الهجرة وأسطورة العودة
- الهجرة وانتقال الأيدي العاملة
- الهجرة بين الماضي والمستقبل
- البيانات الإحصائية لظاهرة الهجرة

"مجلة عالم الفكر" قواعد النشر بالمجلة

- (١) « عالم الفكر » مجلة ثقافية فكرية محكمة ، تخاطب خاصة المثقفين وتهتم بنشر الدراسات والبحوث الثقافية والعلمية ذات المستوى الرفيع .
- (٢) ترحب المجلة بمشاركة الكتاب المتخصصين وتقبل للنشر الدراسات - والبحوث المتعمقة وفقا للقواعد التالية :-
- (أ) أن يكون البحث مبتكرا أصيلا ولم يسبق نشره
- (ب) أن يتبع البحث الأصول العلمية المتعارف عليها وبخاصة فيما يتعلق بالتوثيق والمصادر مع إلحاق كشف المصادر والمراجع في نهاية البحث وتزويده بالصور والخرائط والرسوم اللازمة .
- (ج) يتراوح طول البحث أو الدراسة ما بين ١٢,٠٠٠ ألف كلمة ، ١٦,٠٠٠ ألف كلمة .
- (د) تقبل المواد المقدمة للنشر من نسختين على الآلة الطابعة ولا ترد الأصول الى أصحابها سواء نشرت أو لم تنشر .
- (هـ) تخضع المواد المقدمة للنشر للتحكيم العلمى على نحو سرى .
- (و) البحوث والدراسات التى يقترح المحكمون اجراء تعديلات أو اضافات اليها تعاد الى أصحابها لاجراء التعديلات المطلوبة قبل نشرها .
- (٣) تقدم المجلة مكافأة مالية عن البحوث والدراسات التى تقبل للنشر ، وذلك وفقا لقواعد المكافآت الخاصة بالمجلة كما تقدم للمؤلف عشرين مستلة من البحث المنشور .

ترسل البحوث والدراسات باسم :

وكيل الوزارة المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة

وزارة الاعلام - الكويت - ص.ب ١٩٣

الرمز البريدي 13002

عالم الفكر

رئيس التحرير: حمد يوسف الرومي
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الاعلام في الكويت * يوليو - أغسطس - سبتمبر ١٩٨٦
المراسلات : باسم الوكيل المساعد لشئون الثقافة والصحافة والرقابة - وزارة الاعلام - الكويت : ص . ب ١٩٣

المحتويات

الهجرة والهجرة المعاكسة

- النهيد : الهجرة وه أسطورة العودة بقلم : منتار التحرير ٣
الهجرة وانتقال الأيدي العاملة الدكتور باقر سلمان التجار ١٣
الهجرة والهجرة المعاكسة الدكتور عبد الرسول علي الموس ٢٤
ه نواذج دول الخليج العربية ودول المغرب العربي
الهجرة والهجرة المعاكسة في الكويت الدكتور محمد صادق ٧٥
البيانات الاحصائية لقاهرة الهجرة الدولية الدكتورة أمل يوسف الصياح ١٠٩

...

شخصيات وآراء

- اللغة للحكمة في أدب الجاحظ الدكتور عمر الدقاق ١٦٣

...

مطالعات

- حضرة الحسرم الدكتور محمد اسويقي ١٨٧

...

من الشرق والغرب

- بداية الكتابة العربية السيد محمود حلمي ٢٢٢
مصر والولادة الثانية الدكتور مصطفى أحمد الصمد ٢٦١

...

صدر حديثا

- تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم تأليف الأستاذ : عبدالمعتمد السيد عطري ٢٩٩
نظام الخطاب وإرادة العروة عرض وتحليل : الدكتور تارم السيد غنيم
عرض وتحليل : السيد عليوط محمد ٣١٩

مجلس الإدارة

- حمد يوسف الرومي (رئيساً)
- د. أحمد أبو زيد
- د. رشاد محمد الصباح
- د. عبد المالك التميمي
- د. علي المشووط
- د. نورية الرومي

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء أصحابها وحدهم والمجلة غير ملزمة بإعادة أي مادة تلقاها للنشر .

تمهيد

كانت الهجرات البشرية - ولا تزال - تؤلف واحدة من أهم الظواهر التي ارتبطت بالإنسان منذ ظهوره ، ولذا فإنها استمرت - ولا تزال تسترعي انتباه المتخصصين في مختلف مجالات الدراسات الانسانية ويوجه أخص الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع ، نظرا لما ينشأ عنها من أوضاع ومشكلات تؤثر في المجتمع الذي خرجت منه والمجتمع الذي انتهت اليه على السواء . وعلى الرغم من قدم هذه الظاهرة فإن هذه التحركات البشرية تتم الآن على نطاق أوسع بكثير جدا مما كان يحدث في الماضي ، ربما باستثناء بعض حالات قليلة ، وأصبحت تتعدى كل الحدود الوطنية والإقليمية وتشمل فئات متفاوتة ومتباينة من الناس من كل الأعمار والجنسيات والأعراق والسلالات والمستويات الثقافية والاقتصادية والتخصصات المهنية . وساعد على ازدياد هذه التحركات ظهور مناطق جديدة للجذب السكاني تتيح فرصا طيبة للعمل والنجاح وتحقيق الذات والتخلص - ولو الى حين - من قسوة الظروف المادية أو الاقتصادية أو السياسية أو الاجتماعية في الوطن الأصلي كما تتيح الحياة المستقرة - ولو بقدر - في الوطن الجديد رغم كل ما قد يحيط بهذه الحياة من صراع وكفاح وإحباط ونجاح أو فشل وقدرة على التكيف مع الأوضاع الجديدة أو عجز عن التأقلم والتكيف ، بل ومن رغبة المجتمع الجديد نفسه في استيعاب الوافدين الجدد وامتصاصهم أو تقييد حركتهم ووضع العوائق والعراقيل والقواعد والقوانين التي تحول دون اندماجهم فيه ودون إتمام عملية التمثيل مما قد يدفعهم ، أو يدفع بعضهم ، إلى العودة الى مجتمع الأصل والبدأة . وكل هذا يجعل

الرجعة وأسطورة العودة

« الهجرة احتجاج ضد اللامساواة »

(يول هاريسون)

« لا يرحم الأطباء والحساقون أحدا ، لأن المهاجرين أنفسهم يحتاجون إلى حلاقين وإلى مختلف الخدمات الطبية »

(الفرد سوفي)

من هذه الهجرات البشرية المتواصلة موضوعاً متجدداً يحتاج إلى دراسات جديدة تتناول « الموضوع / الظاهرة » في كل أبعادها الإيكولوجية والاقتصادية والسياسية والقانونية والثقافية في مختلف المجتمعات والثقافات . فكأن تعقد هذه المشكلات وتنوعها واستمرارها وتجدها هي السبب وراء كل ذلك القدر الضخم من البحوث والدراسات التي ظهرت في السنوات الأخيرة بوجه خاص حول الهجرة وآثارها وأسبابها ، وهي بغیر شك أحد الأسباب الرئيسية التي تدفعنا إلى تخصيص هذا العدد لمشكلة الهجرة والهجرة المعاكسة . وقد يكون في ذلك رد مقنع لمن قد يتساءل : لماذا هذا العدد من المجلد ؟ ولماذا هذا الموضوع أو المحور الذي كثر الكلام فيه ؟

ولقد كانت هذه التحركات السكانية التي نطلق عليها هنا اسم « الهجرة » والتي لازمت الإنسان منذ وجوده هي العامل الفعال المؤثر في انتشار الجنس البشري من موطنه الأصلي الأول - إن كان هناك موطن أصل واحد فقط - أو من مواطن ظهوره الأولى ، وبالتالي ارتياده لمناطق جديدة وعمران الأرض وظهور المجتمعات والثقافات الإنسانية المختلفة . والأغلب أن هذه الهجرات « البدائية » القديمة كانت تنشأ بفعل عوامل « الدفع » أو « الطرد » التي تتمثل في قسوة قوى الطبيعة الماثلة وضراوة الجماعات المعادية ، وعجز الإنسان عن الصمود في وجه هذه القوى المادية والبشرية وعدم قدرته على التحكم فيها وإخضاعها وتذليلها وتطويعها لصالحه ، أو على الأقل التعايش معها ، وبذلك لم يكن أمامه سوى الهروب منها والفرار عن موطنه . ولكن الملاحظ في الوقت نفسه أن هذه الهجرات « البدائية » لم تكن هجرات أفراد كما هو الحال في معظم الهجرات الحديثة وإنما هي هجرات « جماعية » تقوم بها جماعات كبيرة أو شعوب وقبائل بأكملها بصرف النظر عن مستواها الحضاري أو الفترة الزمنية التي عاشت فيها . وبذلك يمكننا أن نسلک ضمن هذه الهجرات « البدائية » تحركات جماعات الصيد والقبض في العصور المبكرة من تاريخ الجنس البشري ، ونزوح الجماعات التي تعيش على الزراعة المتنقلة والتي تضطر إلى تغيير مكان إقامتها كل بضع سنين بعد أن يتم استنزاف خصوبة الأرض فتنتقل إلى مناطق جديدة وهكذا . بل إنه يمكن أن ندخل في هذا النمط من الهجرة انتقال بعض الجماعات البدائية في أفريقيا الآن حين يموت أحد أفراد القبيلة وتخشى من أذى شبح الميت فتنتقل الجماعة كلها إلى موطن جديد بعيد عن متناول الشبح وهكذا . بل وقد يمكن أيضاً أن ندخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » هجرة القبائل الجرمانية بين القرنين الرابع والسادس من منطقة بحر البلطيق جنوباً بحثاً عن الأراضي الزراعية ، وهجرات بعض القبائل العربية الشهيرة وبخاصة تلك التي اتجهت نحو شمال إفريقيا والتي سجلتها بعض الملاحم والسير الشعبية ، والتحركات القبلية التي قامت بها بعض القبائل الأفريقية الكبيرة مثل قبائل الباتوين القرنين السابع والثاني عشر من منطقة بحيرة فيكتوريا إلى الغرب نحو الكونجوب بعد ذلك ، وفيما بين القرنين الثاني عشر والثامن عشر نحو الجنوب حتى منطقة نताल وجنوب غربي أفريقيا . فهذه كلها هجرات تاريخية شملت جماعات قبلية كبيرة العدد - على الأقل بجماعات تلك الأزمنة والعصور - وكان لها كلها آثار ونتائج هامة وملحوسة في التاريخ . ولذا فقد يكون أفضل مصطلح يصدق على هذه الهجرات « البدائية » هو المصطلح الألماني *Volkerwanderung* التي تعني الهجرة القبلية أو هجرة الشعوب . بل إن هناك من يدخل في هذا النمط من الهجرة هجرة الأيرلنديين والزراع الألمان الشهيرة بعد أزمة محصول البطاطس عامي ١٨٤٥ و ١٨٤٦ ، وهي الهجرات التي حملت عدة ملايين من البشر إلى أمريكا ، وكذلك التحركات السكانية (الاضطرابية) التي تمت بعد الحرب العالمية الثانية في شبه القارة الهندية بعد قيام دولتي الهند والباكستان وتبادل ملايين السكان بين الدولتين^(١) .

^(١) "Human Migration" in Encyclopaedia Britannica, Vol. 12 p. 186.

والأمثلة كثيرة ، ولكننا نكتفي بهذا القدر لتوضيح ما يراد بالهجرة « البدائية » التي تضم أعدادا كبيرة جدا من البشر الذين يضطرون لتغيير موطنهم الأصلي نتيجة لمعجزهم عن التصدي بنجاح لبعض العوامل والقوى القاهرة ، سواء أكانت هذه القوى طبيعية أو بشرية . ولكن لا تدخل ضمن هذه الهجرات « البدائية » الحركات السكانية التي تُفرض بالقوة على الناس كما هو الحال مثلا في نفي الأعداد الكبيرة من الروس والذين يقدر عددهم بحوالي مليون نسمة الى سيبيريا في القرن التاسع عشر ، أو نقل ملايين العبيد من أفريقيا الى أمريكا والتي تذهب بعض التقديرات الى تقديرها بعشرين مليون نسمة ، وإن لم تكن كل هذه الأعداد وصلت بالفعل الى الشواطئ الأمريكية نتيجة لموت أعداد كبيرة جدا منهم أثناء الرحلات البحرية القاسية . كذلك يميل بعض العلماء الى التمييز بين هذه الهجرات « البدائية » الجماعية وبين نزوح مئات الآلاف من (اللاجئين) الذين تضطربهم الظروف والأوضاع السياسية ، أو الغزو العسكري ، الى ترك أوطانهم والفرار بحياتهم الى مواطن أخرى . والمثل الواضح أمامنا لذلك هو خروج مئات الآلاف من الفلسطينيين من وطنهم في ظل الظروف التي أدت الى قيام إسرائيل .

ولكن يبقى بعد هذا كله الشرطان الأساسيان اللذان يميزان الهجرات « البدائية » وهما « جماعية » الحركة والانتقال ، والمعجز عن التصدي لعوامل الطرد أو الدفع أو التكيف معها . ومن هذه الناحية تختلف الهجرات « البدائية » اختلافا جديرا عن النمط الغالب الآن على الهجرة . فرغم أن ملايين الناس يتحركون ويتروكون أوطانهم وينزحون إلى مناطق وأوطان أخرى فإن هذه التحركات تتم في العادة على أساس فردي كما سبق أن ذكرنا . وحتى إذا اتخذت شكلا جماعيا فإنها لا تشمل شعبا بأكمله . وعلى الرغم من أن كثيرا من الهجرات الحديثة يتم تحت ظروف قاسية وعوامل طارئة يصعب تدليلها أو التكيف معها فإن المهاجرين الأفراد يجدون في الأغلب أهدافهم ويتخرون المكان والزمان المناسبين لتنفيذ ما استقر عليه رأيهم . والأغلب أيضا أنهم يعرفون مقدما الشيء الكثير عن المكان الذي سوف يذهبون اليه وأوضاعه وظروفه ومقومات الحياة فيه ويُعدّون لهذه الهجرة إعدادا كافيا ويجهزون على أمل الإقامة هناك لفترات طويلة أو حتى للعمر كله . وإن كان البعض يخطط أيضا منذ البداية للعودة إلى الوطن الأصلي بعد أن تزول الظروف والعوامل المناوئة أو بعد تحقيق الأهداف التي رسموها لأنفسهم منذ البداية .



وقد يكون من الصعب وضع تعريف دقيق وواضح ومقبول لمفهوم « الهجرة » . ولذا يكتفي الكثيرون بتعريفها بأنها النقلة « الدائمة » أو الانتقال « الدائم » الى مكان يبعد عن الموطن الأصلي « بعدا كافيا » . ولكن هذا التعريف - إن صح اعتباره تعريفا على الإطلاق - يفترض إلى الدقة والوضوح فيما يتعلق بالبعد الزمني المتمثل في كلمة « دائم » والبعد المكاني المتمثل في عبارة « بعدا كافيا » . وصحيح أن هيئة الأمم حددت المقصود بالانتقال الدائم بأنه الانتقال الذي يستمر لمدة سنة واحدة على الأقل ، ولكن تبقى مع ذلك مشكلة تحديد المسافة التي تفصل بين الموطن الأصلي أو موطن النشأة والإرسال الذي بدأت منه الهجرة وموطن الإقامة الجديد أو موطن الاستقبال الذي انتهت الهجرة اليه . وكما يقول ويليام بيترسن William Petersen إن الشخص الذي يترك وطنه إلى وطن آخر ويقيم فيه بقية حياته يعتبر (مهاجرا) بينما الشخص الذي يذهب الى مدينة مجاورة أو قرية وعُضي فيها بضع ساعات يعتبر مجرد (زائر) . وبين هذين الطرفين

التقيضين يوجد صف طويل جدا من الحالات والأوضاع الوسيطة يصعب التمييز بينها تمييزا قاطعا . فهي إذن تميزات تتم على وجه التقريب وباستخدام محكات تصفية . فالإقامة في بلد الاستقبال لمدة لا تقل عن شهر ولا تزيد عن عام تعتبر هجرة مؤقتة بينما الإقامة في ذلك البلد لأي فترة تزيد عن العام ولو ببضعة شهور تعتبر هجرة دائمة وتستوي في ذلك مع الإقامة لطول العمر^(٢) . لكن هذه المحكات لا تأخذ في الاعتبارية الشخص المهاجر والظروف التي قد تظهر فجأة وتمنع من تحقيق هذه النية أو القصد . فقد يخرج الشخص من موطنه الأصلي وفي نيته أن تكون هجرته لفترة موقوتة قد تكون بضع سنين يعود بعدها إلى وطنه . فهو ينظر من البداية إلى هجرته على أنها هجرة مؤقتة ولكنها تعتبر بحسب تلك المعايير والمحكات هجرة دائمة . ثم إن الكثيرين ممن يهاجرون هجرة دائمة تمتد لمدة سنين لا يقطعون علاقاتهم تماما بالأهل والوطن بل يظلون مرتبطين بهم وبه عاطفيا ويتمنون لو أتيت لهم الفرصة للعودة . وكثيرا ما تظل هذه العودة مجرد أسطورة لا تتحقق في عالم الواقع ، ولكنهم يتمسكون بها مع ذلك أشد التمسك ويظلون بذلك موزعين بين ولائهم للموطن الأصلي أو الوطن الأم وللاهم للموطن الجديد أو المجتمع (المضيف) أو مجتمع الاستقبال . كذلك تغفل هذه المحكات والمقاييس نظرة المجتمع المضيف إلى هؤلاء الوافدين ومدى تقبله لهم ومدى السماح لهم بالتكيف مع المجتمع بحيث يتم غمطهم فيه . وإغفال هذه الأمور يمنع من الوصول إلى تعريف أكثر دقة وإحكاما من تلك التعريفات السريعة السطحية التي تقتنع بالنظر إلى عملية الانتقال والإقامة من حيث المدة التي يمضيها الشخص في الوطن الجديد والمسافة التي تفصل بين الموطنين^(٣) .

ومع ذلك فإن هذه المحكات لما فائدتها في التمييز بين « الهجرة » باعتبارها تغييرا لموطن « الإقامة » وبين بعض

(٢) William Peterson; "Migration: Social Aspects"; I.E.S.S., Vol. 10, p. 286.

(٣)

(٣) الواقع أن مفهوم المصطلحات الأجنبية فيه واضح في أذهان الكثيرين عن يكتيون عن الموضوع باللغة العربية . وليس أدل من ذلك من أن قاموس علم الاجتماع والذي قام بتأليفه ليف من أساتذة علم الاجتماع بجامعة الاسكندرية يستخدم كلمة « هجرة خارجية » في مقابل الكلمات الانجليزية الثلاث : Immigration و Emigration و Migration لم يقدم التعريفات التالية لهذه الكلمات :

أ . Emigration و هجرة خارجية : انتقال الأفراد أو الجماعات من موطنهم الأصلي لكي يسقطوا موطناً آخر » (صفحة ١٥٦) .
 ب . Immigration و هجرة خارجية : زحف أفراد أو جماعات تاركة موطنها الأصلي نحو موطن آخر تجعل منه مكاناً جديداً للإقامة الدائمة ، وتعتبر الهجرة الخارجية هجرة دولية لأنها تقوم على هجرة من دولة إلى دولة أخرى ، (صفحة ٢٣٧) .
 ج . Migration و هجرة خارجية : حركة دائمة نسبياً يقوم بها شخص أو جماعة تتخطى الحدود السياسية نحو منطقة أو مجتمع جديد ، (صفحة ٢٨٩) .
 (راجع : قاموس علم الاجتماع ، حرره وراجع : الدكتور محمد حافظ طيت ، الجزء المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٩) .
 كذلك نلاحظ عدم الدقة في ترجمة هذه المصطلحات الثلاثة في قاموس الأترولوجيا ، الذي قام بتأليفه الدكتور شاكر مصطفى سليم وشره بالكتاب عام ١٩٨١ حيث نجد التعريفات التالية :

أ . هجرة خارجية Emigration : و هجرة الجماعة إلى موطن آخر خارج موطنها وحدودها الإقليمية التقليدية بهدف الإقامة الدائمة في الموطن الجديد . وتجعدت الهجرة الخارجية مادة بسبب كوارث طبيعية أو حروب أو هجير من قوة غاربية ، أو طلباً لمستوى معيشي أفضل .
 ب . هجرة داخلية Immigration : و تحركات سكانية داخل حدود الدولة أو الاقليم تحت حاداة بين موطنين يكون (أحدهما) موزعها بالسكان وفيه عوامل سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية مفرطة ، ويكون التالي أقل ازدهاراً بالسكان وفيه عوامل جاذبة ، (صفحة ٤٨١) .
 ج . هجرة Migration : و حركة واسعة لجموعة سكانية داخل موطنها أو إلى موطن آخر . وقد تكون الهجرة موسمية طلباً للقاء والكلال . كما قد تكون دائمية بسبب الكوارث الطبيعية أو التبدلات الاجتماعية أو الحروب أو لتخليق مستوى معيشي أفضل ، (صفحة ٢٣١) .
 وظل هذا الخلط في فهم مدلول المصطلحات يوجد في كثير من الكتابات الأخرى التي تقع بالمعنى المصحح للكلمة ولا تنظر إلى اتجاه سير الهجرة migration : هجروما باعتبارها حركة سكانية (تخرج من مجتمع معين emigration وتوجه إلى مجتمع آخر حيث تدخل) في immigration .

أشكال التنقل أو التحركات البشرية الأخرى مثل تحركات البدو الرحل أو تحركات الرعاة من أشباه الرحل بحثا عن الماء والكلا . فهذه تحركات موسمية تختلف كل الاختلاف في طبيعتها عن الهجرة بالمعنى الذي تحدده هيئة الأمم ، لأنها تفتقر إلى عنصر الإقامة والاستقرار لفترة معينة من الزمن . والشئ نفسه يصدق على تحركات وتنقلات « عمال الترحيل » الذين ينتقلون بين مراكز العمل المختلفة وتتوقف إقامتهم في أي مركز منها على توفر العمل دون أن يرتبطوا بأي مركز منها ارتباطا (دائما) حتى يمكن اعتباره موطن إقامة لهم . ففي كل هذه الأنماط من التحركات البشرية التي قد تستغرق فترات طويلة لا تقوم علاقة قوية بين الناس والمكان تكفي لنمو الشعور بالانتماء إلى ذلك المكان أو لتمثل المجتمع هؤلاء الوافدين (الطائرين) .

وهذا كله معناه أنه إلى جانب عنصري الزمان والمكان أو البعد الزماني والبعد المكاني اللذين يصعب الاكتفاء بهما في تعريف الهجرة توجد عناصر أخرى قد يكون من الصعب قياسها ولكن يحسن أن تؤخذ في الاعتبار ، وهي عناصر ذاتية واجتماعية وثقافية ترتبط بإحساس الفرد نفسه ونظرة إلى عملية انتقاله والهدف منها وتكييفه لهذه العملية وشعوره بالانتماء إلى المجتمع الجديد وتكييفه معه وتقبله لقيم ذلك المجتمع وعاداته وتقاليده ومثله العليا والانفعال بها ، أو على الأقل رغبته في أن يستوعب هذا كله حتى يتم اندماجه وتمثله في المجتمع . فالهجرة ليست مجرد نقلة (جسدية) من موطن لآخر ، وإنما هي أيضا موقف عقلي واتجاه ذهني وتوجه نفسي من الشخص ذاته . ودراسة هذا الجانب الهام تتطلب من الباحث الاتصال المباشر والوثيق بالمهاجرين أنفسهم وإقامة تلك العلاقة الحميمة التي يطلق عليها علماء الانثروبولوجيا كلمة rapport والتي تعتبر مبدأ أساسيا لأي دراسة مركزة متعمقة ^(١) .

وبالمثل ليس هناك ما يبرر الاقتصاد في دراسة الهجرة على إبراز الدور الذي تلعبه الأوضاع الاقتصادية السائدة في الموطن الأصلي في تزوج العناصر المهاجرة وإغفال النظم والأنماط الاجتماعية الأخرى التي قد تتعاون فيها بينها بحيث تجعل من ذلك الموطن الأصلي منطقة دافعة أو طاردة لسكانها . وهذا لا يعني التهورين من شأن الأسباب الاقتصادية ، ولكن الدور الذي تلعبه هذه العوامل يبدو أكثر وضوحا حين تدرس ضمن البناء الاجتماعي الكلي وفي علاقتها ببقية النظم والعلاقات التشابكية التي تؤلف ذلك البناء . فالأوضاع الاقتصادية ليست وحدها المسؤولة دائما وفي كل الأحوال عن الهجرة ، ويستوى في ذلك الهجرات الخارجية التي ينتقل فيها المهاجرون إلى مجتمعات أخرى غريبة تنتمي إلى دول أخرى بعيدة ، أو الهجرات الداخلية التي ينتقل فيها المهاجرون من مجتمع محلي معين إلى مجتمع محلي آخر ضمن حدود الدولة . ففي الولايات المتحدة الأمريكية مثلا قليلا ما تكون تحركات السكان أو هجراتهم من منطقة لأخرى أو من

(١) ورغم ذلك فإنه يمكن القول بشكل عام إن عدد المهاجرين إلى بلد ما يرتبط عكسيا مع طول المسافة التي تفصل بين هذا البلد والموطن الأصلي خرجت منه هذه الهجرات ، بغض النظر عما يعرضه مع فرص العمل المتاحة ، وإن كان ذلك يتوقف أيضا على مدى توفر هذه الفرص في المراحل الوسيطة بين موطن (الأرسال) وموطن (الاستقبال) . وقد قامت عدة محاولات لصياغة هذه الحقائق في شكل قديما أو حتى في شكل معادلات يمكن إعطاؤها للإحصاء بإجراء دراسات وبحوث في مجتمعات وثقافات مختلفة ، على أمل التوصل إلى تلك الأمل إلى ما يمكن اختيار (نتائج) أو (أنماط) للهجرة . ومع ذلك فقد يكون من الصعب أوحى من الخطأ ، التصميم من دراسة علاقات قليلة للهجرة لأن في ذلك تبسيط شديد للأمور والمظاهر نفسها . وهذا لا يقلل بحال من شأن أو من أهمية الدراسات المركزة المتمثلة بحياة معينة للهجرة من بلد معين بالذات إلى بلد آخر ، لأن مثل هذه الدراسات المتمثلة للظاهرة ككل ومعالجتها من كل جوانبها وعلى كل أبعادها سواء من حيث الترتيب أو الأهداف أو الوسائل الدافعة إليها أو حصصها وإيجابياتها بالإضافة إلى كثير من المسائل المتعلقة ببناء المجتمع الأصلي أو المجتمع المضيف هي التي تؤلف الأساس الأول الذي تقوم عليه الدراسات القارئة التي يمكن الوصول منها إلى بعض التصميمات وإقامة النتائج والأنماط التي تسترشد بها في إجراء مزيد من الدراسات .

ولاية أخرى متأثرة بعوامل اقتصادية بحث . بل قد يكون العكس هو الصحيح ، بمعنى أن العوامل الاقتصادية تلعب في هذه التحركات دورا أقل بكثير مما يظن في العادة . وثمة بعض الدراسات المسحية التي يشير إليها بيترسن والتي أجراها مكتب الإحصاء للولايات المتحدة عام ١٩٤٧ و١٩٦٦ ، وقد تبين منها أن حوالي ٢٢,٦٪ من أفراد العينة هاجروا لأسباب اقتصادية بحثا عن العمل ، بينما تنوزع بقية الإجابات بين عدد كبير من الأسباب الاجتماعية المختلفة بل وبعض الأسباب الصحية أو حتى بطبيعة الطقس السائد في « موطن » الإرسال ، وإن كان بعض الأسباب (الاجتماعية) التي ذكرت لها جانب اقتصادي واضح مثل سوء وسائل المواصلات . وليس من الضروري أبدا أن يكون وراء كل هجرات الزوج من جنوب الولايات المتحدة إلى شمالها وغربها أسباب اقتصادية أو مجرد الرغبة في تغيير حياة الزراعة إلى حياة أفضل تستند إلى ممارسة أعمال أخرى في المدن يكون لها مردود اقتصادي أعلى من فلاحة الأرض . إنما هناك أن جانب ذلك كله الرغبة في الهروب من كل الأوضاع الاجتماعية السائدة في الجنوب بكل ما تمثله من ضغوط ومعاناة اجتماعية ونفسية يقاسيها الأمريكيون السود من جراء التفرقة العنصرية .^(٩) فأسباب الهجرة هنا أوسع وأكثر تعقيدا من الوضع الاقتصادي ، بل إن هذا الوضع الاقتصادي نفسه الذي يجد الأمريكيون السود فيه أنفسهم هو مجرد مظهر واحد من مظاهر التمييز العنصري في الولايات الجنوبية من أمريكا . وقد يكون ذلك مثالا متطرفا ولكن له دلالة بغير شك .

هذه النظرة الشاملة التي تدرس الهجرة في كل أبعادها تؤلف المدخل البنائي الوظيفي الذي يتبعه غالبية علماء الأنثروبولوجيا وعدد كبير من علماء الاجتماع وبخاصة العلماء الذين يحرصون على دراسة الظاهرة في مجتمع معين بالذات ، سواء أكان هذا المجتمع هو الوطن الأصلي - أو مجتمع الإرسال الذي ينزح أعضاؤه متجهين إلى مواطن جديدة مختلفة ومتفرقة - أو كان هو الوطن الجديد أو المجتمع المضيف الذي يستقبل أعدادا كبيرة من المهاجرين الذين يفدون إليه من مجتمعات وثقافات مختلفة ومتباينة . ولكن أيما ما يكون المجتمع الذي يركز عليه الباحث فلا بد من أن ينظر في البحث إلى المجتمع الآخر بشكل من الأشكال . فالهجرة « عملية » ذات طرفين ، يؤلف مجتمع الإرسال أحد هذين الطرفين ويؤلف مجتمع الاستقبال الطرف الثاني ، بينما يقوم المهاجرون بدور « حلقة الوصل » بين الطرفين . فالمسألة تتعدى إذن مجرد الاهتمام بتبيين عوامل الطرد أو عوامل الجذب والآثار الناتجة عنها وتحديد أنماط الهجرة المختلفة الناشئة عن هذه العوامل وإذا ما كانت هي هجرة دائمة أو مؤقتة ، أو هجرة قسرية إجبارية أو إرادية اختيارية ، أو هجرة كاملة أو غير كاملة ، أو هجرة أولية أو ثانوية ، أو هجرة قصيرة الأمد أو طويلة الأمد وغير ذلك من التصنيفات التي يجب بعض علماء الاجتماع إبرازها وتوكيدها . بل إن المدخل البنائي الوظيفي الذي ينظر إلى الهجرة نظرة شاملة كلية لا يكاد يعطي كثيرا من الاهتمام لبعض الجوانب التي يعنى بها أصحاب المناهج الأخرى في دراسة الهجرة مثل حجم الهجرة وفئات المهاجرين بحسب الجنس أو السن أو المهنة أو الجنسية الأصلية ، وأسباب الهجرة وآثارها على كل من المجتمعين ، والعائد الاقتصادي من الهجرة سواء بالنسبة للمهاجرين أنفسهم أو المجتمعات التي خرجوا منها ، والحشادة التي تحرق بقية العمل في بلد المنشأ وأثر ذلك في بعض مجالات الإنتاج ، وظهور أنماط استهلاكية جديدة والإقبال الشديد - مثلا - على اقتناء الأجهزة الكهربائية الحديثة ، ومجالات استثمار التحويلات التي يرسلها المهاجرون إلى مواطنهم الأصلية وما

إلى ذلك . وعدم الاهتمام بهذه الأمور لا يعني بحال من الأحوال عدم أهميتها أو التهوين من شأنها ، ولكنها تعتبر في نظر الباحثين البنائين الموظفين معلومات أولية تؤلف الخلفية الأساسية التي يركز اليها التحليل البنائي الذي يتم أكثر ما يتم بالعلاقات الاجتماعية . فالإكتفاء بهذه المعلومات الرقمية أو الكمية يعني في آخر الأمر دراسة الظاهرة من (الخارج) فحسب . ومن هنا يتم المدخل البنائي الوظيفي بدراسة التفاعل الاجتماعي المعقد الذي يقوم داخل مجتمع الاستقبال أو الوطن الجديد الذي يستقبل هؤلاء المهاجرين ، بحيث يتناول بالتحليل مثلاً علاقات التعاون والصداقة أو الصراع والعداء بين المهاجرين من مختلف الجنسيات ونظرة بعضهم إلى بعض في ضوء انتماءاتهم العرقية والسلالية والدينية ، بل ونظرتهم إلى أهل المجتمع وسكانه الأصليين ونظرة المجتمع إليهم ومدى تقبله أو رفضه لهم ، والمجهود التي يبذلونها للانتماء في المجتمع أو رغبتهم على العكس من ذلك في التمسك بتقاليدهم الأصلية والإحتفاظ بمقوماتهم التقليدية التي تنتمي إلى المجتمع الذي جاءوا منه ، بل ونظرة كل جماعة من هذه الجماعات العرقية إلى نفسها وتقييمها للمكانة التي تحتلها في الوطن الجديد ومقارنة ذلك بالمكانة التي كانت تتمتع بها في موطنها الأصلي مع تعرف آرائهم في ذلك المجتمع القديم بكل نظمته وأناقته وأغماطه السلوكية وقيمه الاجتماعية التي تركوها وراءهم .



وقد يحسن أن نشير هنا إلى إحدى الدراسات التي أجريت في الخارج وتناولت بالتحليل الدقيق المشاكل الناجمة عن نزوح أعداد كبيرة من المهاجرين الذين يتمتعون إلى ثقافة تختلف كل الاختلاف عن الثقافة السائدة في بلد المهجر أو بلد « الاستقبال » . والدراسة التي أعينها قامت بها الدكتورة باتريشيا جيفري Patricia Jeffery الزميلة الباشحة بقسم الأنثروبولوجيا الاجتماعية بجامعة أديرة على العائلات المهاجرة من باكستان إلى بريطانيا والتي أقامت بعد ذلك في بريستول . وقد ظهرت الدراسة تحت عنوان « مهاجرون ولاجنون : دراسة للعائلات الباكستانية المسلمة والمسيحية في بريستول » . والذي يمتنا في هذه الدراسة إلى جانب المشكلات التي تعرضت لها هو أنها بدلا من أن تدرس هجرة الباكستانيين إلى بريطانيا بشكل عام ركزت على العائلات الثمينة في مجتمع محلي محدد هو مدينة بريستول وبذلك جاءت الدراسة على درجة كبيرة من العمق والقدرة على التحليل ، كما أنها بدلا من أن تتبع الأسلوب السوسيولوجي المعتاد في الدراسات المماثلة والذي يعتمد في المحل الأول على جمع المعلومات من عينة مختارة من المهاجرين اتبعت الأسلوب الأنثروبولوجي الذي يعتمد على الإقامة الطويلة في مجتمع البحث وجمع المعلومات عن طريق الملاحظة المباشرة والمعايشة والمشاركة في مختلف أوجه النشاط اليومي ، كما عززت ملاحظاتها بعدد من « دراسات الحالة » المتعمقة فضلا عن ذهابها إلى باكستان لدراسة اللغة الأردية حتى تستطيع أن تستخلصها في الحديث مع النساء الباكستانيات اللاتي لا يعرفن الانجليزية ، وحتى تتعرف أيضا ملامح الثقافة التقليدية في باكستان ومكونات البناء الاجتماعي التقليدي . وهذه كلها أساليب وطرق للبحث تكفل التغلغل في أعماق الظاهرة أو النظام الاجتماعي موضوع الدراسة . وهذه مسألة سوف نعود إليها فيما بعد ، ولكن يكفي أن نشير هنا إلى أن الكتاب لم يشتمل على جدول واحد وأن الأرقام فيه قليلة . وذلك على عكس الدراسات السوسيولوجية حول الموضوع والتي يبدو أن لها ولعا كبيرا بالأرقام والجداول . وهذا لا يعني الاستهانة ببلغة الأرقام ، وكل ما يعنيه هو أن هناك أساليب وطرائق مختلفة لدراسة الموضوع الواحد ، وأن اختيار

المشكلة هو الذي يجسد المنهج والأسلوب وطريقة التحليل الملائمة . ومعظم الدراسات التي أجريت على المهاجرين من الكومنولث إلى بريطانيا كانت تفترض أن هؤلاء الوافدين المقيمين قطعوا علاقاتهم مع وطنهم الأصلي ومع ثقافتهم التقليدية وأنه يمكن بالتالي دراسة وفهم هذه الجماعات فيها دقيقا من خلال ملاحظة وتحليل سلوكهم العادي في حياتهم اليومية في مجتمع الإقامة ، ودراسة الأعمال التي يقومون بها وظروف الحياة التي تحيط بهم مثل المسكن والدخل وغيرها . ولكن هذه الدراسة تعتبر ذلك نظرة ضيقة إلى الموضوع وأن الهجرة عملية معقدة فيها كثير من الأطراف المتشابكة التي يجب تتبعها بدقة وتفصيل ، وأن الفهم الحقيقي لهذه المشكلة لن يتحقق إلا إذا رجع الباحث إلى الثقافة الأصلية التي ينتمي إليها هؤلاء المهاجرون الذين يتجاوزهم بذلك نوعان من الانتباه : الانتباه إلى الوطن الأصلي بكل قيمه وتراثه وتقاليد ، والانتباه إلى المجتمع الجديد أو الوطن المضيف ، مع الرغبة الشديدة طيلة الوقت في العودة إلى أرض المنشأ . وهي رغبة قلما تتحقق ، بل وقلما يعمل المهاجرون بإخلاص لإخراجها إلى حيز التنفيذ .

وهجرة الباكستانيين إلى بريطانيا جزء من هجرات أكبر وأوسع وأشمل وتضم أعدادا كبيرة جدا من الملونين والزنوج الذين وفدوا على بريطانيا من شبه القارة الهندية ومن أفريقيا وعدد من المستعمرات البريطانية التي نالت استقلالها بعد الحرب العالمية الثانية . وقد ظهر حول هذه الهجرات عدد كبير من الدراسات التي أجراها علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا على هؤلاء الوافدين في مواطن إقامتهم الجديدة . وقد نجم عن هذه الهجرات كثير من المشكلات وأثير حولها كثير من التساؤلات كما ظهرت بعض الاتجاهات العدائية السافرة ضد هؤلاء الوافدين ، وهي اتجاهات تعبر عن الرضا الشديد والإحساس بخطر هذه الهجرات على غط الحياة والقيم والثقافة البريطانية التقليدية وعلى أسلوب الحياة « البريطاني » . ومعظم الدراسات التي أجريت حول هذا الموضوع والتي أدلى علماء الأنثروبولوجيا فيها بنصيب وافر تكشف عن مشكلة هامة بدأ المجتمع البريطاني يعاني منها نتيجة هذه الهجرات ، وهي مشكلة الحاجز اللوني والتمايز السلافي والعنصري وما صاحب ذلك من الالتجاء إلى كثير من أساليب العنف التي لم تكن معروفة في بريطانيا من قبل^(١) .

والواقع أن هجرة الملونين والسود إلى بريطانيا ليست الا مظهرا آخر للتاريخ الامبريالي البريطاني وامتدادا لهذا التاريخ حتى وإن كان هذا الامتداد قد اتخذ بعد انتهاء عصر الاستعمار اتجاهات مخالفا لما كان عليه من قبل . فأسلوب الحكم البريطاني في المستعمرات ، والاستغلال الاقتصادي لمصادر الثروة الطبيعية وتسخير الأفارقة في المزارع الكبيرة الواسعة وفي المناجم ، وحركات التبشير أدت كلها إلى ظهور تصنيفات سلالية وعرقية تضع الرجل الأبيض على رأس

(١) من الدراسات الهامة التي ظهرت حول هجرة الملونين إلى بريطانيا والعلاقات الاجتماعية والعرقية المشقة والصراع العنصري التي نجحت كلها من هذه الهجرات الدراسات والبحوث التالية التي سوف نعتمد عليها هنا بشكل مباشر أو غير مباشر :

William W. Daniel; Racial Discrimination in England, Penguin Books, 1968; Nicolas Deakin, Colour, Citizenship and British Society, Panther Books, London 1970; Roland Littlewood and Maurice Lapsedge; Aliens and Alienists, Penguin Books 1982; Ivor Moorish, The Background of Immigrant Children, Allen and Unwin 1971; Sheila Patterson, Dark Strangers, A Study of West Indians in London, Penguin Books 1965; Peter Ratcliffe, Racism and Reaction, R.K.P. 1981;

ولكن الكتاب الذي سوف نعتمد به معظم أبحاثنا هنا هو البحث الأنثروبولوجي المنار الذي ظهر عام ١٩٧٦ بعنوان :

Patricia Jeffery, Migrants and Refugees: Muslim and Christian Families in Bristol, Cambridge University Press 1976.

الجنس البشري . وقد ظهر ذلك واضحاً في كل كتابات القرن التاسع عشر وعلى الأخص الكتابات الأنثروبولوجية التي اهتمت بتصنيف البشر وكل الكائنات الحيوانية وتصنيف الثقافات والمجتمعات والنظم والأساق تبعاً لفلسفة تطورية تقوم على ترتيب الأشياء حسب درجة رقيها وتقدمها أو تخلفها وانحطاطها . والظاهر أن هذه النظرة لا تزال سائدة في بريطانيا إلى حد كبير ويعتقها كثير من الناس وإن كانت لا تطفو على السطح إلا حين تنهبا الظروف لذلك . وعلى أي حال فإن الذي يبعنا هنا هو أن معظم الذين درسوا الحركات الهجرية إلى بريطانيا كانوا يضعون نصب أعينهم ذلك التاريخ الاستعماري البريطاني الذي كان جزءاً من التوسع الأوربي الذي امتد إلى أطراف بعيدة من العالم من أجل السيطرة والتحكم في الأسواق ونقل ثروات تلك المستعمرات إلى أوروبا ، ثم لم يلبث بعد ذلك أن احتكر بعض مناطق العالم لتصريف الصناعات والمنتجات الأوربية فيها . وهذه السياسة الاستعمارية هي التي أدت إلى تقسيم العالم إلى دول ومجتمعات صناعية وأخرى زراعية فقيرة هي التي تؤلف « العالم الثالث » بكل ما يعنيه من فقر وسوء تغذية وجهل ومرض وبطالة . ومعظم المهاجرين الملونين السود الذين يعيشون الآن في بريطانيا جاءوا من دول ومجتمعات تعاني من بعض المشكلات التي لحقتها على أيدي بريطانيا ذاتها . وهذه حقيقة يعترف بها معظم الباحثين في كثير من التجرد والموضوعية^(٧) .

ولقد كانت شبه القارة الهندية قبل تقسيمها إلى دولتي الهند والباكستان واحدة من أهم المناطق التي خضعت للحكم البريطاني وكانت تعتبر أجمل وأغلى جوهرة في التاج البريطاني . وقد أفادت بريطانيا من هذه (العلاقة) إلى أبعد الحدود سواء من الناحية الاقتصادية أو حتى من الناحية العسكرية حيث كان (الهند) يحاربون لها حروباً ، بينما لم تكن شبه القارة الهندية تفيد شيئاً يذكر من (المدنية) الغربية التي جلبها البريطانيون لهم في مقابل استنزاف خيرات بلادهم وثرواتها . وكما تقول بارتريشا جيفري (صفحة ٢) فإنه لا يمكن الفصل من الناحية التاريخية بين تطور بريطانيا وتقدمها كدولة صناعية وتخلف الهند وفقرها واعتمادها اقتصادياً على الزراعة ، وأن تحكم بريطانيا في أسواق الهند كان من أهم العوامل التي ساعدت على قيام الثورة الصناعية في بريطانيا .

وربما كانت هذه الحقيقة ماثلة في أذهان الكثير من الهنود والباكستانيين الذي اضطرتهم ظروف بلادهم إلى الهجرة إلى بريطانيا بحثاً عن العمل ، فقد كانوا يرون أن هذه الهجرة أمر طبيعي وأن من حقهم أن يجدوا في بريطانيا العمل الذي يحتاجون إليه . ولم تكن بريطانيا على أي حال نجد في أوائل الخمسينيات ما يمنع من قبول تلك الأعداد الكبيرة الوافدة إليها ، إذ كانت تجد فيهم الأيدي العاملة الرخيصة اللازمة لتشغيل مصانعها بعد أن انصرف كثير من العمال البريطانيين عن العمل فيها نظراً لانخفاض الأجور . وهكذا نجد أنه بعد أن أفلحت بريطانيا في استنزاف الموارد الطبيعية من شبه القارة الهندية أيام الاستعمار أخذت تستنزف قواها البشرية بعد أن نالت استقلالها وانقسمت إلى دولتين كبيرتين هما الهند والباكستان . ولقد كان النازحون من هاتين الدولتين يدخلون بريطانيا بغير عوائق أو صعوبات حتى عام ١٩٦٢ حين تغير الوضع وأصبحت بريطانيا تقبل أصحاب المهارات والكفاءات فقط ، أي أنها لم تكن تقبل سوى الفئات التي تحتاج إليهم بلادهم الأصلية ولا تستطيع الاستغناء عنهم بسهولة . وربما كان ذلك وراء ما قالته إحدى

(٧) انظر على سبيل المثال :

Patricia Jeffery, op. cit. pp. 7-43; R. Littlewood and M. Lipsedge, op. cit. Ch. 4; Ratcliffe, op. cit. pp. 1-18.

السيدات المهاجرات حين سئلت في شيء من العداء عما يدفعها هي وأمثالها إلى المجيء إلى بريطانيا فأجابت بأنها هي وأمثالها إنما يأتين إلى بريطانيا من شبه القارة الهندية لاسترداد ماسة كوهي نور Koh-i-noor الشهيرة . ولكن لا يمكن القول إن كل المهاجرين من شبه القارة الهندية إلى بريطانيا يعرفون ذلك التاريخ ويعرفون تلك الماسة الشهيرة أو يدركون الأبعاد التاريخية والبنائية لهجرتهم ، وإنما هم يرون أنفسهم مجرد أفراد كانوا يعيشون في بلد فقير لا يستطيع أن يوفر لهم ولعائلاتهم العيش الكريم وأنه لم يكن أمامهم إزاء ذلك إلا أن يحاولوا الأفاذة بقدر الامكان من الفرص التي تتيحها لهم الحياة ، وأن الهجرة إلى بريطانيا كانت إحدى هذه الفرص .^(٨)

ولقد كانت تلك الاعتبارات وراء اختيار باتريشيا جيفري للمنهج الذي اتبعته في دراسة المهاجرين الباكستانيين في بريستول ، وهو منهج يقوم ليس فقط على معايشة الناس ومشاركتهم كثيرا من أوجه النشاط اليومي والاعتماد على الملاحظة المباشرة التي تتطلب الإقامة الطويلة في المجتمع وعدم الالتجاء إلى صحائف الاستبيان وقوائم الأسئلة القصيرة المباشرة إلا في أضيق الحدود ، ولكنه أيضا منهج يقوم على التعاطف مع الناس ومحاولة فهم وجهة نظرهم والتعبير عنها بأمانة لدرجة قد تصل بالباحث إلى أن ينكر ذاته تماما ويختفي من الصورة بقدر الامكان لكي يترك للناس أنفسهم الفرصة للتعبير عن آرائهم وعرض دقائق حياتهم وشرح تجربتهم الخاصة وتقييم هذه التجربة في ضوء الظروف والأوضاع التي ساءوها ، وبدون تدخل أو توجيه من الباحث إلا في أضيق الحدود . وهذا هو بالضبط ما فعلته باتريشيا جيفري في هذه الدراسة التي نحن بصدها . وربما كان هذا المدخل الذي يقوم على التعاطف والذي يجب بعض علماء الأنثروبولوجيا تسميته بالمدخل المعرفي هو أهم ما يميز هذه الدراسة . والواقع أن الستينات والسبعينات شهدت اتجاهًا واضحًا في البحوث الأنثروبولوجية في الخارج نحو اتباع هذا المدخل الذي لم يطبق عندنا على أي حال إلا في حالات قليلة معدودة وبالدات في بعض الرسائل الجامعية التي لم تنشر بعد

ومع التسليم بتعدد الأسباب وراء الهجرة فإن الشجرة من أجل العمل - أي لأسباب اقتصادية في المحل الأول - تشكل نسبة كبيرة من هجرات البشرية في العالم . وتبدأ هذه الهجرات في العادة على أنها مسألة مؤقتة لا يلبث المهاجر أن يعود بعدها إلى وطنه الأصلي . أو هذا على الأقل هو ما يعتقد الكثيرون في بداية الأمر ، خاصة وأن كثيرا من مجتمعات المستقبل لا تحب إقامة الوافدين من أجل العمل بصفة دائمة فيها ، ولكن ذلك لم يمنع من تزايد حركات الهجرة في كثير من مناطق العالم . فتقارير مكتب العمل الدولي مثلا تشير إلى أنه في عام ١٩٦٩ كان المهاجرون من أجل العمل كله حوالي عشرة ملايين نسمة ولكن في عام ١٩٧٣ كان ٩٪ من القوة العاملة في ألمانيا الغربية يتهمون إلى جنسيات

(٨) كان لأبناء دول الكومنولث الحق في الإقامة والعمل في بريطانيا ، بل إن ذلك كان مسددا لهم أكثر ما كان بالنسبة للوافدين من جنوب أوروبا ، خلا الذين كانوا يعتبرون أجانب من الناحية القانونية ، وبذلك لم يكن في استطاعتهم العمل هناك بحري الحصول على ترخيص . وحتى بعد الحرب العالمية الثانية خرجت أعداد متزايدة من شبه القارة الهندية ومن بعض دول الكومنولث الجديد وانضممت للحركة في بريطانيا بما أدى إلى ظهور جيل من «البريطانيين» الملونين الذين كانوا في حال حيال يحتلون مكانة أدنى من الناحية الاقتصادية من البريطانيين البيض الذين يؤلفون السكان الأصليين . والواقع أنه حتى عام ١٩٦٦ في كثير من الفترات المعاصرة في بريطانيا غير مشروعة ، بل إنه حتى عام ١٩٦٨ حين صدرت القوانين المنظمة للعلاقات السلافية كان من المفهوم أن يضع أصحاب منزل ملائمت لنيل أهم لا يقبلون سكانا من الملونين . وحتى بعد صدور القوانين لم يتغير الموقف تغيرا جذريا إلا ببطء وباتجاه دمج . وقد عاش الباكستانيون بقدرات من ذلك أكثر من غيرهم إذ كان يفضل بينهم وبين السكان البيض عامل التمييز إلى جانب عامل اللون . وقد لاحظنا هذه الظاهرة عند من العلماء الذين درسوا الهجرة في بريطانيا ومنهم باتريشيا جيفري . انظر على سبيل المثال كتاب -

أجنبية ، كما أن فرنسا تعتمد على العمال المهاجرين من الجزائر والمغرب بحيث أنه في عام ١٩٧٤ كان حوالي ٥٪ من كل القوى العاملة الجزائرية تعمل في فرنسا . وقد سبق أن أشرنا إلى أن بريطانيا كانت في سنوات الازدهار في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات تستقبل أعدادا كبيرة من العمال المهاجرين الذين كانوا يقدون إليها من الدول التي أدت السياسة البريطانية الاستعمارية ذاتها إلى تحطيم اقتصادها . ويشير تعداد عام ١٩٧١ إلى أن ١,١٦ مليون نسمة في بريطانيا كانوا من مواليد دول الكومنولث الجديد وبوجه أخص من الهند وباكستان وبنجلاديش . ولكن حين دخل الغرب في مرحلة الكساد في السبعينات بدأت النزعات العنصرية والتفرقة بين السلالات وما يرتبط بها من توتر وصراع عنصري تظهر بعنف وقوة على ما ذكرنا وبشكل لم يكن مألوفاً من قبل^(٩) . وقد دفع ذلك باتريشيا جيفري إلى القول بأن (دعوى) التسامح الذي يفخر به البريطانيون هي في الحقيقة (ادعاء) فيه كثير من الزيف والسلطوية والحداد (صفحة ٣) . وهذا الحكم الذي تصدره باتريشيا جيفري يكشف عن نوع التعاطف الذي تبديه مع الباكستانيين الذين ركزت عليهم دراستها في بريستول ، وهو مستمد على أية حال من أقوالهم هم أنفسهم ويعبر بذلك عن وجهة نظرهم ورأيهم في المجتمع البريطاني بعمامة ويجمع بريستول الذي يعيشون فيه بخاصة ، وإن كانت ملاحظاتها هي الخاصة أثناء البحث تمزج من هذا الرأي .

بل إن اختيار باتريشيا جيفري للموضوع يكشف هو أيضاً عن الدور الذي يلعبه التعاطف في الدراسة . ففي البداية كان الموضوع الذي يشغل بالها وتريد التركيز عليه والذي جذب انتباهها بحكم اقتناعها في بريستول كطالبة في الجامعة هناك كان هو حياة الفتيات الباكستانيات في ضوء خضوعهن لبعض التقاليد وقواعد العرف الباكستانية ، مثل رغبة الوالدين في أن تحفظ الفتيات بالحجاب أو (البردة) رغم إقامتهن في مجتمع غربي حديث (بريطانيا) ، وكذلك نظام الزواج الذي يتولى الوالدان ترتيبه لأولادهم وبخاصة الفتيات منهم . وعكفت على دراسة التعارض الذي يبلغ أحيانا حد الصراع بين وجهتي نظر الوالدين والفتاة الصغيرة ، واسترعى نظرها في ذلك قدرة الباكستانيين على الاحتفاظ بالهوية أو الذاتية الباكستانية عن طريق التمسك بتلك العادات وقواعد السلوك والقيم والنظم التقليدية ، وبذلك تحول اهتمامها إلى دراسة الأساليب والوسائل التي تتم بها المحافظة على تلك العناصر الثقافية الهامة وأسلوب تربية وتنشئة الأطفال في البيت في جو باكستاني تقليدي . وهكذا اتجهت الدراسة نحو العمليات التي يتم عن طريقها (عدم التمثل) - وليس التمثل - والمحافظة على المقومات والأسس والملاح العرفية وليس اختفاء هذه الملاح وانتثارها عن طريق الاحتكاك والتفاعل مع الثقافات الأخرى على ما تفعل كثير من الدراسات الأخرى حول الهجرة . فبينما يتم معظم الباحثين بتعرف الوسائل والأساليب التي يتم بها تكيف المهاجرين مع المجتمع الجديد وتقلص الثقافة ، اتجهت باتريشيا جيفري على العكس من ذلك إلى البحث عن عوامل (عدم) التكيف و (عدم) التمثل والاحتفاظ بالشخصية الاجتماعية والهوية الثقافية الخاصة للمهاجرين الباكستانيين في مجتمع الدراسة .



الهجرة على نطاق واسع من باكستان إلى بريطانيا ظاهرة حديثة نسبياً . فلم يكن يوجد في بريطانيا عام ١٩٥٠

سوى عدد قليل من الباكستانيين ، وحتى عام ١٩٦٠ لم يكن العدد قد وصل إلى عشرين ألف مهاجر ، وحتى الآن لا يزال معظم الباكستانيين المهاجرين في بريطانيا من الرجال وإن كانت هناك نسبة معينة من النساء يلحقن كل عام بأزواجهن ، وهي على أي حال نسبة ضئيلة نظرا للقيود المفروضة على الهجرة والاقامة . والطريف هنا هو أن بعض المهاجرين الباكستانيين إلى بريستول هم من المسيحيين - أي أن الهجرة الباكستانية ليست هجرة إسلامية خالصة . وعلى الرغم من أن المسيحيين في باكستان لم يكونوا حسب إحصاء عام ١٩٦١ يزيدون عن ١,٣٦٪ من مجموع السكان وإن عددهم في بريستول قليل جدا فإن باتريشيا جيفري وجدت أن من المستحسن أن تجري على بعضهم البحوث المركزة المتعمقة فيما يعرف باسم دراسة الحالة ، على أساس أن ثمة فوارق ثقافية هامة تميزهم عن الباكستانيين المسلمين وأن لهم نظرتهم وآراءهم ومواقفهم الخاصة المتميزة من الهجرة .

وكما هو الحال في أغلب حالات الهجرة فإن الهجرة من الباكستان إلى بريطانيا تكمن وراءها في أغلب الحالات دوافع اقتصادية ، ولذا فإن معظم الوافدين يتوجهون أولا إلى المناطق التي تعاني نقصا في الأيدي العاملة حتى يضمنوا لهم عملا يستطيعون الاعتماد عليه ولو مؤقتا إلى أن تتاح لهم الفرصة الكافية للتعرف على الموقف بشكل أفضل ويستطيع كل منهم أن يتخير أفضل مكان للعمل والاقامة فيستقر فيه . وعلى ذلك فإن أغلب الباكستانيين المقيمين في بريستول لم يصلوا إليها إلا بعد أن مروا بعدد من مراكز العمل الأخرى في بريطانيا ومارسوا عددا من الأعمال المختلفة . ومع ذلك فإن هناك إلى جانب الدوافع الاقتصادية أسبابا أخرى اجتماعية وراء عدد كبير من حالات الهجرة وبلاصة هجرة المسيحيين . وقد ظهرت هذه الأسباب الاجتماعية نتيجة للدراسة المركزة التفصيلية لحياة بعض الأفراد لمعرفة العوامل الذاتية والشخصية التي تخفف وراء الدوافع الاقتصادية العامة مثل الشكوك التي يحملها المسيحيون إزاء وضعهم ومكانتهم الاجتماعية في الوطن الأصلي ، وهي شكوك تقول باتريشيا جيفري أنه لم يتوفر لديها معلومات كافية تجعلها تطمئن إلى صدق ما يقوله هؤلاء المهاجرون المسيحيون . ولكن ليس المهم هنا إن كان ما يزعمونه صحيحا أو غير صحيح ، وإنما المهم هو أن الشعور بالتمييز والفرقة بين المسيحيين والمسلمين في باكستان والاحساس بالظلم الواقع عليهم هو شعور واحساس موجودان عند المسيحيين بالفعل ولهما دخل كبير في تقييم المسيحيين لوضعهم في المجتمع وفي اتخاذهم القرار بالمigration من باكستان . وإذا كان المسلمون قد اختاروا الذهاب إلى بريطانيا في المحل الأول نظرا لتوفر امکانات العمل فيها فإن اختيار المسيحيين لبريطانيا كان ناجما عن شعورهم بأنها أشبه شيء (بالأرض المقدسة) - حسب التعبير الذي استعمله أحد المسيحيين الذين درست باتريشيا جيفري حالتهم دراسة تفصيلية (صفحة ٥٧) . ولكن الظاهر أن الدين لم يكن شغيا كافيا للباكستانيين المسيحيين يساعد على قبول المجتمع البريطاني في بريستول لهم أو يشجعهم على البقاء طويلا في بريطانيا ، وإن كان فتح أمامهم أبواب بعض العائلات البريطانية . فعدد من العائلات الباكستانية المسيحية تفكر الآن في الهجرة إلى كندا ، وذلك في الوقت الذي تفكر فيه عدد من العائلات المسلمة في ترك بريطانيا أيضا ولكن عائلة إلى باكستان . وهذا الاختلاف في الاختيار له دلالة . ولكن يمكن القول بوجه عام أنه إذا كان الباكستانيون المسيحيون يشعرون بالتمييز ضدهم على أساس ديني في باكستان فإن هذا الوضع تغير إلى حد كبير في بريطانيا حيث يتقبل المجتمع المهاجرين المسيحيين بسهولة أكثر مما يتقبل المهاجرين المسلمين ، وهذا دليل آخر تسوقه باتريشيا جيفري على التمييز العنصري الديني في بريطانيا إزاء المهاجرين (صفحات ٦٦ - ٦٨) .

وليس معنى هذا أن الفصل العنصري هو سياسة مرسومة من الدولة بقدر ما هو شعور عام بين الناس يتعكس في العلاقات الاجتماعية بين الأفراد في المجتمع المحلي الذي يضم جماعات عرقية مختلفة . كذلك ليس من الضروري أن يتخذ ذلك الشعور بالتنافر بين الجماعات العرقية شكل العنف كما حدث في بعض المدن في بريطانيا أو في بعض أحياء لندن ، وإنما قد يتخذ شكل التباعد ووضع الحدود على العلاقات الاجتماعية بحيث لا يتم التفاعل الاجتماعي الا في أضيق الحدود . وكذلك ليس من الضروري أن يقتصر ذلك التباعد الذي يعبر عن التمييز العنصري على البريطانيين البيض من ناحية والزنوج والمولدين ككل من الناحية الأخرى ، وإنما يقوم ذلك التمييز بين مختلف الجماعات العرقية على السواء وبغير تفرقة كما تشير الى ذلك الأوضاع العامة السائدة في بريستول . فالاختلاط بين البريطانيين والباكستانيين الذين يشتركون في عمل واحد لا يتم الا في أضيق الحدود وأثناء أوقات العمل فقط . ويزيد من ذلك أن الكثيرين من العمال الباكستانيين يأخذون معهم طعامهم ويتناولونه بالتالي على حدة وانفراد وبذلك لا تتاح لهم فرصة الاتصال بزملائهم من الجماعات السلالية والعرقية الأخرى - وليس فقط زملائهم من البريطانيين - أثناء فترة تناول الغذاء . ولقد حرّمهم ذلك من فرصة الحديث باللغة الانجليزية وبالتالي إتقان اللغة التي هي أداة اتصال وتواصل في المجتمع البريطاني والتي بدونها يزيد شعورهم بالوحدة والعزلة والاعترا ب . وليس من شك في أن طبيعة الطعام (البريطاني) لها دخل كبير في ذلك . فالباكستانيون المسلمون مجرّصون على تناول اللحم (الحلال) وهو مالا يتوفر في الطعام البريطاني العادي ، وذلك فضلا عن الفكرة العامة الشائعة بينهم ولدى الكثيرين من الأعراب من مختلف الجنسيات والسلالات من أن الطعام البريطاني بوجه عام لا طعم له وغير مستساغ لغير البريطانيين (باتريشيا جيفري ، صفحات ٩٠ - ٩٣) بل إن الباكستانيين مجرّصون وقت تناول الطعام في يوتهم أن يسدلو الستائر حتى لا يراهم المارة في الشارع وهم يأكلون بينما لا يعطي البريطانيون لهذه المسألة أدنى اعتبار . وهذا التباعد نفسه يقوم حتى بين الجماعات العرقية التي يفترض أن بينها كثيرا من أوجه الشبه والتي تشترك معا في كثير من العناصر الثقافية كما هو الحال مثلا بين الباكستانيين والهند ، وبخاصة الذين ينتمون في الأصل الى البنجاب حيث تشابه الفتنان في اللغة والملابس وألوان الطعام (ربما باستثناء اللحم الحلال) . فالاختلافات الدينية والسياسية القائمة في باكستان تنعكس على العلاقات بين الفتنين في بريطانيا وتقف عقبة دون اختلاطهما بشكل أكبر فعالية في الحياة اليومية ، لدرجة أن باتريشيا جيفري التي عنيت بتتبع هذه العلاقات تقول انه في بريستول لم تنشأ أي علاقة قوية سوى بين عائلتين اثنتين فقط احدهما باكستانية والأخرى هندية من مدينة أمرتسار ، وحين تتبع الموضوع لمعرفة سر هذه العلاقة اكتشفت أن الرجل الباكستاني جاء في الأصل من أمرتسار نفسها (صفحة ٩٣) ، أي أن وحدة الوطن الأصلي كانت هي العامل الأساسي في التقريب بين هاتين العائلتين اللتين تخطان بذلك حالة استثنائية وفريدة .

ويعتد هذا الانفصال بين الجماعات العرقية المختلفة إلى الاطفال الصغار في المدارس . فالاطفال الباكستانيون يلتحقون بطبيعة الحال بالمدارس البريطانية خاصة وأنه لا توجد مدارس باكستانية تعمل طوال الوقت ويمكنها أن تتولى وحدها مهمة تعليمهم وتربيتهم وتنشئتهم . وصحيح أن هناك بعض المؤسسات والمدارس الدينية الملحقة بالمساجد ولكنها لا تقدم للأطفال سوى التعليم الديني ولبعض الوقت فقط . وهذا لا يعني عن الالتحاق بالمدارس البريطانية من أجل التعليم الرسمي المنهجي المنتظم . ومع أنه لا يوجد فصل أو تمييز عنصري داخل المدارس فلا يكاد يوجد اختلاط

بين التلاميذ الباكستانيين والبريطانيين خارج المدارس . وتذكر لنا باتريشيا جيفري (صفحة ٩٣) أنها خلال كل الوقت الذي استغرقته الدراسة الميدانية لم تلتق بأطفال بريطانيين في زيارة بيوت (أصدقائهم) من الأطفال الباكستانيين سوى مرتين اثنتين فقط

ويزيد من حدة هذه الانفصال الذي يكاد يصل إلى حد الانفلاق أو التفوق على الذات وجود برامج اذاعية وتليفزيونية باللغة الأردية إلى جانب صدور عدد من الصحف بتلك اللغة أيضا ، وهي صحف تهتم بأخبار الوطن وأحداثه في المحل الأول ولا تكاد تولي الشؤون البريطانية أو أحداث الغرب بوجه عام أدنى عناية أو اهتمام . ولكن من الإنصاف مع ذلك أن نقول ان ما تعرضه وسائل الاعلام والاتصال الجماهيري المختلفة وبخاصة التلفزيون من ملامح الحياة في بريطانيا يساعد كثيرا على تكوين فكرة صحيحة عن المجتمع البريطاني ، أو أنه يسهم على الأقل في تصحيح كثير من الأفكار المسبقة التي جاء بها الباكستانيون (وغيرهم من الجنسيات الأخرى) حول العادات والأخلاقيات والسلوك والعلاقات بين أفراد المجتمع البريطاني وبخاصة فيما يتعلق بسلوك المرأة والتحرر الأخلاقي والجنسي وتعتبر هذه الأفكار المسبقة من أهم عوامل تباعد الباكستانيين بالذات وانصرافهم عن إقامة علاقات مع البريطانيين . ولم تقلع وسائل الاعلام على أي حال رغم ذلك في إزالة كل الشكوك والريب . ولا تزال علاقات الباكستانيين مع البريطانيين علاقات سطحية إلى حد كبير وفي حدود ضيقة للغاية .

والطريف في الأمر هنا هو أن كل جماعة عرقية تُصَب من نفسها حكما على سلوك وقيم الجماعات الأخرى وتحضنها لمحاكياتها ومعاييرها ومقاييسها هي الخاصة ، وتنتظر إلى هذه الأنماط السلوكية والثقافية من زاوية معينة تحمل في طياتها كثيرا من الشك والريبة وعدم التقدير بل وأحيانا عدم الاحترام . وقد تكون هناك أسس لهذه الريبة والشكوك في بعض الأحيان ، كما هو الحال مثلا في تقييم الباكستانيين المسلمين لبعض جوانب الحياة العائلية في بريطانيا ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات الجنسية غير الشرعية والأطفال غير الشرعيين والعلاقات بين الآباء والأبناء وواجبات كل منهما نحو الآخر وما إلى ذلك . وتنعكس هذه الشكوك أحيانا في المقارنات التي يعقدها الباكستانيون بالذات (في بريستول) بين ما يحدث في بريطانيا وبين الأوضاع والعلاقات والروابط العائلية القوية التي عهدوها في بلادهم ، وكثيرا ما يبالغون في أحكامهم حول هذا الموضوع . فمن ذلك ما تذكره باتريشيا جيفري مثلا من أن أحد الإخباريين informant الذين كانت تعتمد عليهم اعتمادا كبيرا لفهم طبيعة علاقاتهم بمجتمعهم الأصلي وبالمجتمع الجديد كان يؤمن بشكل قاطع وحاسم بأن نسبة الطلاق في بريطانيا هي ٧٥٪ من حالات الزواج ، وأن الحياة الزوجية في المجتمع البريطاني هي حياة تعيسة وبعيدة كل البعد عن السعادة الحقيقية التي تعيش فيها العائلة الباكستانية حيث لا تزيد حالات الزواج غير الموفق عن حالة واحدة في كل مليون زيجة (صفحة ٩٥) . وبصرف النظر عن مدى مطابقة ذلك للحقيقة والواقع فالهم هو أن مثل هذه الأحكام إنما تصدر عن موقف معين يحمل نظرة تقويمية معينة ويعبر عن اتجاه معين أيضا إزاء الجماعات العرقية الأخرى . وفي في آخر الأمر أحكام ناتجة عن عدم فهم الثقافات الأخرى نتيجة لقلّة . أو حتى انعدام - الاتصال والاحتكاك بتلك الثقافات والاغراق أو الانحصار كلية في الثقافة الخاصة التي تسود في المواطن الأصلي ، كما تكشف عن مدى الارتباط القوي بتلك الثقافة الأصلية على الرغم من العيش في مجتمع آخر له ثقافته ونظمه وقيمه علاقة قوية ليس من التحرر من تأثير هذه الثقافة الأصلية . فالعلاقة بين المهاجرين والوطن الأم بكل ثقافته ونظمه وقيمه علاقة قوية ليس من

السهل فصحها أو التنكر لها . والأجبال التي نشأت في الهند أو الباكستان (أو غيرها من المجتمعات التي تخرج منها هجرات كبيرة إلى بريطانيا) إنما تأتي إلى المجتمع المضيف أو الوطن الجديد عملة بكل ذلك التراث الثقافي والاجتماعي السائد في الوطن الأصلي . وهذا التراث يؤثر بغير شك في سلوك هؤلاء المهاجرين في المجتمع الجديد ويحدد علاقاتهم بغيرهم من الجماعات العرقية .

من هنا فإن أي دراسة للجماعات المهاجرة التي تعيش في بلد « الاستقبال » أو الوطن الجديد يجب أن تأخذ في الاعتبار تلك العلاقات والروابط التي تظل قائمة بين هؤلاء المهاجرين وبلد « المنشأ » أو بلد « الإرسال » الذي خرجوا منه . وهذا في الواقع هو ما فعله كثير من الباحثين الذين اهتموا بدراسة وضع المهاجرين في أوطانهم الجديدة ، وهذا أيضا هو ما فعلته باتريشيا جيفري في دراستها للعائلات الباكستانية في بريستول ، وذلك على اعتبار أن الوطن الأصلي يعتبر - كما سبق أن ذكرنا - أحد طرفي عملية الهجرة . والواقع أن علماء الأنثروبولوجيا بوجه عام كانوا يرون دائما أن دراسة أي نظام اجتماعي أو أي ظاهرة اجتماعية يجب أن تتخطى حدود المجتمع المحلي الذي يدرسون فيه ذلك النظام أو تلك الظاهرة حتى يمكن التعرف المؤثرات الخارجية التي يخضع لها ذلك النظام أو تلك الظاهرة . وهذا يصدق بطبيعة الحال على دراسة الجماعات الانسانية التي كثيرا ما تمتد علاقاتهم إلى ما وراء حدود المجتمع المحلي الذي يعيشون فيه . وهذا هو ما فعله - على سبيل المثال إيفانز بريشارد في دراسته لقبائل النوير في جنوب السودان ، حيث لم يكتف بدراسة أي قبيلة من تلك القبائل على حدة وإنما درسها في علاقاتها بعضها ببعض ثم تخطى ذلك إلى دراسة علاقاتها بالقبائل الأخرى التي تحيط بها ، والتي ترتبط بها بروابط الصداقة أو العداء وكيف أن هذه الروابط تحدد نوع البناء الاجتماعي السائد عند قبائل النوير^(١٠) . وهذا مثال تقليدي قديم يسترشد به الباحثون في تتبعهم العلاقات بين المجتمع الذي يركزون على دراسته والمجتمعات الأخرى التي ترتبط به بعلاقات اجتماعية أو سياسية اقتصادية تتدخل في تشكيل بنائه وثقافته .

في ضوء هذه الاعتبارات لم تكتف باتريشيا جيفري بجمع المعلومات من الاخباريين في بريستول أو من الأشخاص الذين اعتبرتهم « حالات » تدرس حياتهم دراسة تفصيلية متعمقة ، وإنما حملتها الدراسة إلى باكستان نفسها حتى تستكمل دراسة الموضوع في كل أبعاده . وتقول في ذلك :

« لقد كانت هناك بعض مزايا واضحة ترجع إلى كوني امرأة . فقد كانت النساء والفتيات يشعرن بالسعادة للقاءني حتى وإن لم يكن في استطاعتهم الكلام بالانجليزية بينما كان الرجال يعاملوني على أنني (رجل شرف) . ولم يكن مثل هذه الأمور أن تحدث بالنسبة للباحث الذكر . ولقد كانت اللغة هي المشكلة الكبرى إذ لم يكن يتكلمها إلا الرجال والنساء المسيحيات ، وكان من الواضح أن اتصالني بالمسلمات وبالفتيات اللاتي وصلن حديثا لن يكتب لها النجاح إلا إذا تعلمت أنا اللغة الأردية . . . وكانت أفضل وسيلة لحل مشكلة اللغة هي أن أقيم أنا نفسي في باكستان . وعلى ذلك فإني عشت في لاهور في الفترة من نوفمبر عام ١٩٧٠ إلى إبريل عام ١٩٧١ ، وهناك تلقيت دروسا منتظمة في اللغة الأردية وأقمت علاقات

(١٠) الإشارة هنا إلى كتاب :

E.E. Evans Pritchard; The Nuer, Oxford University Press, 1940.

واتصالات مع أكبر عدد ممكن من أقارب المهاجرين . وبطبيعة الحال فإن معرفتي باللغة الأردية معرفة قاصرة وحين عدت إلى بريستول عمدت إلى توطيد علاقتي من جديد مع الاخباريين . وقد أسعدهم - وبخاصة النساء - أن وجدوا أن بإمكانني الآن أن أتكلم الأردية معهم - وأنني أصبحت أهتم اهتماما كافيا بلبلدهم لدرجة حملتي على الذهاب إليها . وقد ساعد ذلك على أن يشعر النساء بالارتياح والاطمئنان ، فقد كن يرينني أنني أصبحت باكستانية وامرأة تعرف عاداتهم وتحمل لهم أخباراً من وطنهم . « (صفحة ٧٢) .

وهذا أسلوب متبع على أية حال في الدراسات الأنثروبولوجية . والأساتذة الرواد كانوا يشترطون إجادة لغة المجتمع موضوع الدراسة حتى يمكن إجراء البحث دون الاستعانة بالترجمين نظراً لما قد يضع من معان أثناء الترجمة . ولكن المسألة تتعدى مجرد معرفة اللغة في هذه الحالة ، لأن كثيراً من أنماط السلوك التي يتبعها الباكستانيون في بريطانيا لم يكن يتيسر فهمها تماماً إلا بالرجوع إلى الثقافة التقليدية التي نشأوا فيها ومعرفة العلاقات والروابط التي لا تزال تربطهم بتلك الثقافة وبالمجتمع القديم . يظهر هذا إذا نحن قارنا على سبيل المثال أوجه الصرف والانفاق بالنسبة للعامل البريطاني والعامل الباكستاني اللذين يمارسان نفس العمل . فبينما يعتبر دخل العامل البريطاني ملكاً له ولأفراد أسرته ويمكن للباحث أن يتتبع بدقة كل تفاصيل أوجه الانفاق والأبواب التي يتم إنفاق الدخل فيها بالنسبة للأسرة ككل وبالنسبة لكل فرد من أفرادها فإن ذلك لا يصدق على العمال المهاجرين لأن جزءاً من ذلك الدخل لا يمكن اعتباره بحال ملكاً للعامل نفسه أو أسرته لأنه يرسل بالفعل خارج البلد إلى الأقارب في باكستان . ولن يمكن للباحث فهم ذلك إلا عن طريق - تتبع شبكة العلاقات الاجتماعية المعقدة وما يرتبط بها من التزامات ومسؤوليات لا نجد لها مثيلاً في المجتمع البريطاني أو الثقافة الغربية بوجه عام . وتضرب لنا باتريشيا جيفري مثالاً بأحد المهاجرين الذي كان ينفق على أسرته الموجودة معه في بريستول والتي تتألف من زوجة وثمانية أطفال ، ولكنه كان يعول في الوقت ذاته أبناً آخر له وأختاً أرملة يعيشان في باكستان ، وذلك فضلاً عما كان يرسله من نقود لشراء بيت يمكن أن يأوي إليه حين يعود إلى موطنه الأصلي . فمعظم المهاجرين الباكستانيين يضعون ذلك اليوم في اعتبارهم ويؤملون في العودة على الرغم من أن الكثيرين من الكتاب الذين اهتموا بهذا الموضوع يرون أن هذه أسطورة كما سبق أن ذكرنا^(١١) . بل أن أولويات الانفاق تختلف عند الباكستانيين عنها عند البريطانيين . فالباكستانيون يسارعون في الأغلب إلى تسديد أقساط البيوت التي يشترونها في بريطانيا بأكثر مما يفعل البريطانيون بحيث يتم تسديد كل الثمن في فترة أقصر بكثير ، لأن ذلك يعني أنهم يصبحون بسرعة ملاكاً فعليين للبيوت . وليس من شك في أن ذلك يعني أنهم يتحملون كثيراً من المشقة ويعانون كثيراً من الحرمان حتى يمكنهم سداد أقساط أكبر حجماً ، ولكن هنا أيضاً تندخل الاعتبارات الثقافية في تحديد الأولويات لأن ملكية المقار بالذات عنصر مهم في تحديد المكانة الاجتماعية في باكستان (باتريشيا جيفري ، صفحتا ٨٠ - ٨١) .



(١١) انظر على سبيل المثال :

وهذا الارتباط القوي بالموطن الأصلي ليس قاصرا في الحقيقة على الباكستانيين وإنما هو أمر لاحظته الكثيرون من العلماء من أمثال أنوار Anwar الذي صاغ عبارة «أسطورة العودة» في كتابه الذي أشرنا إليه ، ويتر راتكليف في دراسته للمهاجرين السود والملونين من عدد من المستعمرات السابقة الى بريطانيا كما درسهم في حي Handsworth في مدينة برمنجهام^(١٢) . وهذا الارتباط القوي دليل واضح ومؤشر هام على أن المهاجرين لم يتم تمثلهم تماما في المجتمع الجديد ، كما أنهم لم يستوعبوا الثقافة الجديدة كل الاستيعاب ولم يتكيفوا بعد مع الأوضاع الجديدة . ولذا كانت عملية التمثل والاستيعاب والتكيف من أهم الموضوعات التي تنطرق إليها البحوث الأنثروبولوجية حول الهجرة والإقامة في مجتمعات محلية معينة ومحددة ، وبخاصة حين تكون هذه الهجرة هجرة متعددة تشمل أشخاصا وعائلات ينتمون إلى جماعات عرقية وثقافية متفاوتة ومتباينة كما هو الحال في بريستول أو في برمنجهام . وهذا في الحقيقة يمكن أن يصدق على الهجرة في منطقة الخليج بالذات حيث تشمل أشخاصا ينتمون إلى عدد كبير من الجنسيات والسلالات والثقافات ويعيشون معا ، أو على الأصح يتعايشون جنبا إلى جنب ، في مجتمعات صغيرة الحجم وكانت إلى عهد قريب تتميز ببساطة البناء الاجتماعي وتعكس درجة عالية من التجانس الثقافي . وإذا كان علماء الأنثروبولوجيا والاجتماع يميزون بين التمثل التام والتمثل غير التام أو غير المكتمل ، ويرون أن التمثل التام يتحقق حين يفلح المهاجرون بعد طول إقامة في الوطن الجديد في التحرر تماما من ثقافتهم القديمة الأصلية ويتقبلون ثقافة المجتمع الجديد ويندمجون تماما في المجتمع وتتشابه علاقاتهم وتنوع وتتعدد مع أفراد ذلك المجتمع الأصليين ، فإن كثيرا من الشكوك تنتاب هؤلاء العلماء في مدى إمكان تحقيق ذلك النوع من التمثل بالنسبة للمهاجرين وبخاصة من الجيل الأول^(١٣) .

من ناحية أخرى يذهب بعض العلماء من أمثال جوردون M.M. Gordon في كتابه عن «التمثل في الحياة الأمريكية» Assimilation in American Life (وهو كتاب قديم نسبيا حيث نشر منذ أكثر من عشرين سنة - عام ١٩٦٤ - ولكنه لا يزال يحتفظ بأهميته في هذا المجال) - إلى التمييز بين بعدين أساسيين للتمثل هما البعد البنائي والبعد الثقافي . فالبعد الثقافي يترتب عليه تقبل واستيعاب القيم وأنماط السلوك السائدة في المجتمع الجديد ، بينما يتضمن التمثل البنائي إنشاء ثم توطيد العلاقات الاجتماعية ، وبالذات العلاقات الاجتماعية الأولية ، مثل روابط القرابة وعلاقات الصداقة مع أعضاء ذلك المجتمع . ويضرب لنا جوردون مثلا على ذلك من الولايات المتحدة حيث يبدو التمثل الثقافي واضحا على نطاق واسع بعكس الحال بالنسبة للتمثل البنائي . وهذا هو السبب في أن المجتمع الأمريكي يتميز بالتعددية البنائية وليس بالتعددية الثقافية . فهناك فئات وجماعات كبيرة متميزة مثل البروتستانت والكاثوليك واليهود والزنج ، ويميل أفراد كل فئة أو جماعة من هذه الفئات أو الجماعات إلى الزواج فيما بينهم وبذلك يقيمون علاقات وروابط قرابية واجتماعية قوية ولكنها خاصة بهم ومتميزة عن غيرها من العلاقات المماثلة التي تقيمها الفئات والجماعات الأخرى . فهذه إذن فئات متميزة بنائيا على الرغم من أنها كلها تشارك في ثقافة واحدة أو يسودها نوع موحد من الثقافة . وهناك من يوجه بعض الانتقادات إلى جوردون ويرون - مثليا فعل جريلي A.M. Greeley في

London 1979, Peter Ratcliffe; Racism and Reaction: A Profile of Handsworth, op. cit.

(١٢)

(١٣) يمكن للقرء أن يرجع في ذلك إلى الفصل الرابع من «البناء الاجتماعي والثقافة» في كتابنا «البناء الاجتماعي» ، مدخل دراسة المجتمع ، الجزء الأول من القهومات ، الهبة المصرية العامة للكتاب - القاهرة والإسكندرية .

كتاب نشره عام ١٩٦٩ تحت عنوان طريف هو « لماذا لا يمكن أن يكونوا مثلنا ؟ » Why Can't They Be Like Us إلى أنه - أي جوردون - بالغ في إبراز عنصر التشابه الثقافي بين تلك الجماعات المتميزة بنائيا ، وأن ثمة في حقيقة الأمر اختلافات ثقافية كبيرة بينها وبخاصة فيما يتعلق بقواعد ومحكات القرابة ، وأن هذه الاختلافات والفوارق الثقافية توجد لدى الجماعات التي عاشت في أمريكا منذ عدة أجيال ولا يقتصر وجودها على الجماعات التي وفدت حديثا أو منذ عهد قريب .

فكان التمثل الثقافي عملية صعبة للغاية ولا تتحقق إلا بعد عدة أجيال ، ولكنها مع ذلك أسرع في الحدوث من التمثل البنائي ، وأن العملية كلها على أي حال بالغة التعقيد . وهذا يصلق بغير شك على المهاجرين الباكستانيين إلى بريطانيا . وإذا كان بعض الكتاب يذهبون إلى أن المجتمع البريطاني مجتمع متجانس بنائيا وثقافيا على السواء فإن هناك من يرفض هذه الدعوى ويرى أن ثمة تعقيدات وتنوعات ثقافية هائلة ، كما أن هناك تقسيمات واضحة تتمثل في الاختلافات الاقليمية والتفاوت الطبقي والتمايز بحسب التعليم والاختلافات في الدين وما إلى ذلك ، وهي اختلافات تنعكس في كثير جدا من مظاهر الحياة الاجتماعية مثل الحياة العائلية وأوجه النشاط المختلفة بما في ذلك النشاط الترفيهي وفي التطلعات المهنية والتوجهات السياسية وما إليها . وإذا كان الأمر كذلك فكيف يمكن أن نوقع أن يتم تمثيل المهاجرين الباكستانيين سريعا في النمط الثقافي والاجتماعي البريطاني أو يتم تمثيل هؤلاء المهاجرين في الوقت ذاته لهذا النمط مادام لا يوجد نمط واحد معين وعدد وواضح المعالم ومادام المجتمع البريطاني التقليدي هو ذاته مجتمعا غير متجانس على عكس الشائع ، وأن فيه اختلافات وفوارق ثقافية وبنائية هائلة ؟ (باتريشيا جيفري ، صفحات ٨٣ ، ٨٤) .

فإذا كانت عملية التمثل الثقافي تعني اختفاء الملامح والعناصر الثقافية الأصلية تماما فإنه يكون إذن من الخطأ الكلام عن استيعاب مجتمع الاستقبال أو الموطنة الجديد للمهاجرين استيعابا كاملا ، أو اندماج المهاجرين في المجتمع اندماجا كاملا ، خاصة وأن التمثل بهذا المعنى يلقى مقاومة من الجانبين : جانب الأهالي الأصليين الذين يضعون حواجز اجتماعية عالية يعجز المهاجرون عن تخطيها أو القفز فوقها ، وجانب المهاجرين أنفسهم الذين يحتفظون بكثير من ملامح ثقافتهم الأصلية التقليدية التي تميزهم عن غيرهم من الجماعات وتعطيهم هويتهم الثقافية والاجتماعية التي يعتزون بها والتي يأملون أن تكون هي مفتاح عودتهم إلى وطنهم الأصلي في يوم من الأيام . وإذا كانت هناك صعوبات وعوائق تمنع - أو على الأقل تعرقل - تحقيق التمثل الثقافي التام بالنسبة للمهاجرين فإن القيود التي تفرضها الجماعة العرقية على قيام كثير من العلاقات الاجتماعية وبخاصة فيما يتعلق بالزواج وعلاقات القرابة ، والتي تخضع في حالة الباكستانيين المسلمين بالذات لأحكام الدين الاسلامي ، تمنع من تحقيق التمثل البنائي . والمحصلة النهائية من كل ذلك هو أن يصبح المجتمع الذي يستقبل المهجرات البشرية مجتمعا متعددا تتجاوز فيه الثقافات والأبنية الاجتماعية المتمثلة في تكوين وتنظيم الجماعات العرقية المختلفة التي يكاد كل منها يؤلف مجتمعا مغلقا ومنعزلا ، أو ما يطلق عليه علماء الانثروبولوجيا تعبير social isolate . وقيام علاقات اجتماعية بين الأفراد الذين ينتمون إلى جماعات عرقية مختلفة لن يؤدي بالضرورة إلى اختفاء هذه الجماعات مهما بلغ من تشابك هذه العلاقات وتنوعها وتعقدتها ، لأن هناك دائما قواعد تحكم العلاقات بين الجماعات العرقية والسلالات المختلفة ونضع فواصل في الوقت ذاته بين أشكال معينة من التصرفات بحيث يعتبر تجاوز

هذه الحدود تصرفا معنا ينجح للمساءلة والمؤاخلة^(١٤). فالتمسك بهذه الحدود هو طريقة لفرض قيود على العلاقات والاتصالات مع الجماعات الأخرى ، ونوع من الدفاع عن الذاتية الثقافية والاجتماعية . فالبريطانيون في بريستول يتمسكون بهذه الحدود وبذلك يمنعون الباكستانيين من أن يخترقوا حياتهم الخاصة أو يتغلغلوا فيها . فهناك على سبيل المثال اللامبالاة التي يبدونها إزاء جيرانهم من الباكستانيين ، وهناك التمييز من جانب سماسرة العقارات الذين قد يخفون على الباكستانيين البيوت المعروضة للبيع أو الايجار في مناطق معينة ، وغير ذلك من أساليب الابعاد التي تكاد تصل إلى حد النبذ ، وإن كان الباكستانيون الذين درستهم باتريشيا جيفري لا يتكلمون في العادة عن هذه الأمور ولا يكادون يشيرون إليها . ولقد سبق أن رأينا على أي حال كيف أن الباكستانيين من جانبهم يتمسكون هم أيضا بتلك الحدود ويأبون على الجماعات الأخرى سواء في ذلك البريطانيين أو الهنود أو الباكستانيين المسيحيين أو غيرهم أن يخترقوا تلك الحواجز ويتغلغلوا في حياتهم الخاصة . (باتريشيا جيفري صفحة ٨٩) . وليس المجتمع البريطاني كما يتمثل في بريستول فريدا في ذلك ، وإنما هي ظاهرة عامة وعنصر أساسي يميز سلوك أهل المجتمع الأصليين إزاء الغرب - خاصة إذا كان هذا الغرب وافدا من أجل العمل . ولكن المجتمعات تختلف في طريقة التعبير عن هذا الموقف وفي نوع القيود والحدود التي تفرضها على هؤلاء الوافدين والتي قد تصل في بعض الأحيان إلى حرمانهم من الإقامة الدائمة مهما طال مكوثهم في البلد المضيف . وهذه ظاهرة نجدها في كثير من البلاد العربية التي تستقبل أعدادا كبيرة من الأيدي العاملة ، وفي بعض الدول الأوروبية على السواء . بل إن بعض الدول تحرم على الأيدي العاملة الوافدة اصطحاب عائلاتهم معهم على أساس أن ذلك سوف يدفع بهم إلى عاجلا أو آجلا إلى العودة إلى أوطانهم^(١٥). ولكن هذا الموقف يختلف تماما عن وضع المهاجرين الدائمين الذين يقصدون الوطن الجديد بقصد الإقامة الدائمة ومعاولون الحصول على حق المواطنة ، وإن كانت تداعيمهم طيلة الوقت أحلام العودة إلى الوطن .



والذي نريد أن نقوله هنا هو أن نظرة المهاجرين أنفسهم أثناء إقامتهم الفعلية في موطنهم الجديد ، وتقويمهم لتلك التجربة التي يمرون بها وبخاصة فيما يتصل بعلاقتهم بالمجتمع الأصل الذي نزحوا منه ، ومدى ارتباطهم به ، ونوع هذه العلاقات والروابط لا تزال كلها بحاجة إلى مزيد من الدراسة المتعمقة عن طريق الاتصال المباشر وتطبيق مناهج وأساليب البحث الاثنوبولوجي . ومثل هذه الدراسات خلية بأن تكشف لنا عن جوانب إنسانية قلما يعطيها الباحثون ما تستحقه من عناية واهتمام . والدراسات العديدة التي أجريت في الخارج والتي أشرنا إلى بعض منها هنا كلها تكشف عن قوة الرابطة التي تربط بين هؤلاء المهاجرين وأوطانهم الأصلية وعن صدق الرغبة في العودة إلى الوطن ، وإن كانت هذه الرغبة لا تتحقق بالفعل في كل الحالات ، بل وقلما يبذل المهاجرون جهوداً حقيقية لإخراجها إلى حيز التنفيذ . وكما يلاحظ اندريه جاك Andre Jacques في كتاب حديث يعرض فيه للمهاجرين واللاجئين في عدة مناطق من العالم

(١٤) Fredrick Barth, (ed) Ethnic Groups and Boundaries: The Social Organization of Culture Difference, Allen and Unwin, London 1969

(١٥) Annie Phizackee and Robert Miles; Labour and Racism, R.K.P. 1980 pp. 10-13.

اعتباراً من أمريكا الوسطى إلى أفغانستان إلى اليهود والفلسطينيين إلى نزيف الهجرة في جنوب شرق آسيا إلى منطقة الخليج إلى هجرة الأيدي العاملة في إفريقيا ، فإن كل هذه الجماعات التي « تقطعت جذورها » - حسب التعبير الذي يستخدمه في الكتاب - لا تزال مع ذلك تحمل هاجس العودة إلى الوطن الأصلي مهما طال بها الزمن في الوطن الجديد ، وأن أعداداً كبيرة منهم يفلحون في تحقيق ذلك بعد أن يكونوا قد حققوا أهدافهم من الهجرة أو نتيجة لتغير الظروف في المجتمع الأصلي وزوال الأسباب والعوامل التي دفعتهم في الأصل إلى الهجرة ، أو لعدم رغبة المجتمع المضيف في الاحتفاظ بهم نتيجة لبعض الأزمات الاقتصادية التي يعاني منها ، أو بعد أن يكون قد استنفذ هو نفسه أغراضه منهم^(١٦) . وعلى أي حال فإن مثل هذه الدراسة تحتاج إلى مناهج واساليب تختلف تماماً عن الأساليب السوسولوجية والاحصائية المتبعة حالياً في معظم الدراسات التي يأيدنها وتطلب الاتصال المباشر وتوطيد الثقة المتبادلة بين الباحث والأشخاص أو الجماعات الذين يُجرى عليهم دراسته ، كما أنها خليقة بأن تنطرق إلى موضوعات تبدو شائكة في ظاهرها ولكنها تدور دأبها في أذهان المهاجرين واللاجئين بل وإيضاً في أذهان واضعي السياسات وأصحاب القرار في المجتمعات المضيفة ، مثل حق المهاجرين الذين أسهموا بقسط وافر في تنمية هذه المجتمعات في الإقامة الدائمة إذا رغبوا في ذلك ، ومثل إزالة الحواجز التي يقيمها المجتمع المضيف بين هؤلاء الوافدين بحيث يشعرهم طيلة الوقت بالغرابة وبالتالي عدم الاطمئنان وعدم الاستقرار والامساك عن العطاء كما يجب أن يكون العطاء .

دكتور احمد ابو زيد

Andre Jacques, Les Deracines: Refugies
et migrants dans le monde, Editions La Decouverte, Paris 1985.

المقدمة :-

البحث في قضايا الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية يعتبر واحداً من القضايا ذات الارتباط المباشر بالكثير من المعطيات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي شهدتها المنطقة العربية خلال الخمس عشرة سنة الماضية. ومن المهم القول أن هذه المعطيات أو « الآثار » أو « العواقب » - كما يذهب البعض في تسميتها - لم تكن مقتصرة على تلك الدول ذات العلاقة المباشرة بعملية انتقال العمالة - الدول المصدرة والمستوردة للعمل - وإنما امتدت لتشمل النظام الإقليمي العربي كما في بعض دول العالم الثالث ذات العلاقة المباشرة مع دول المنطقة العربية.

وهي - أي عملية الهجرة - لم تكن ظاهرة منعزلة عن مجمل التغيرات المجتمعية الأخرى التي ضربت نسيج المجتمع العربي - وعلاقته بل هي في الواقع إحدى أهم إفرازات التشكيل الجديد للنظام الاجتماعي العربي وسبب له .

وتقاسمت المدرستان السائدتان في الفكر الاجتماعي الغربي معالجة هذه الظاهرة : المدرسة الكلاسيكية الجديدة وهي الأسبق من حيث المعالجة والأكثر رواجاً في معالجات قضايا الهجرة ومثلتها بشكل واضح الدراسات التي قادها فريق جامعة درهم ، بيركس وسنكلير وكتابات البنك الدولي وبعض الكتابات العربية (١)

الهجرة وانتقال الأيدي العاملة في المنطقة العربية عبر في منظومات نظرية أهم إشتالية مجتمعة

بإشراف

استاذ علم الاجتماع المساعد
كلية البحرين الجامعية

(١) انظر في ذلك مثلاً :

J.S. Birks and C.A. Sinclair, Arab Manpower : The Crisis of Development, London, Croom Helm, 1980; J.S Birks and C.A. Sinclair, International Migration and Development in the Region, World employment Programme, Geneva, I.L.O. 1980, The Middle East Journal, Vol. 38, No. 4, Autumn, 1984;

المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية - تدور السكان والعمالة والهجرة في دول الخليج العربي الكويت ١١ - ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ ، الكويت ، ١٩٧٩ ، أمل العتيق الصباح ، الهجرة إلى الكويت من عام ١٩٥٧ - ١٩٧٥ ، دراسة في جغرافية السكان - الكويت - جامعة الكويت ، ١٩٧٨ .

ومدرسة الاقتصاد السياسي والتي مثلتها بشكل جلي دراسة فرد هوليداي وبعض الدراسات الصادرة عن مركز دراسات الوحدة العربية وبعض الدراسات الحديثة. (٢)

وتهدف هذه الدراسة لمعالجة طبيعة وخصائص الهجرة في المنطقة العربية والعوامل المؤثرة فيها واختيار مدى مصداقية الأدوات النظرية التي وظفت لمعالجة الظاهرة .

أولاً - الهجرة العمالية : مشكل النظر :-

في البدء لابد من تأكيد حقيقة يشاركنا فيها الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية ، وهي ان معظم الدراسات الكلاسيكية ذات النحى الديموجرافي والسوسولوجي والاقتصادي - المعالجة لقضايا الهجرة وانتقال العمالة في الغرب وابعادها على متغيرات فردية لم تساعد على تطوير فهمنا لمشكل الهجرة في المنطقة العربية . فليس أسهل من صياغة قوائم لمتغيرات - لانشك في صحتها طبعاً - لأفراد غادروا لأسباب متعددة مثل تحسين الأوضاع المعيشية ، تعليم الأطفال ، الالتحاق بالمعالة ، ... الخ كمتغيرات فاعلة في عملية الهجرة . وبدون شك فان الاعتماد على محدودية وسكونية بعض هذه المداخل المنهجية في معالجة قضايا الهجرة قد أدى الى صياغة مفهومية Conceptualization خاطئة لمشكل الهجرة .

فالتصورات النظرية الأولى مثلاً ، تبنت ما يسمى بمعادلة التوازن السكاني بين الوحدات الجغرافية المختلفة كما صاغها جون ميلز John S. Mills والذي يفترض أن الهجرة ما هي إلا شكل من أشكال إعادة التوازن السكاني بين الوحدات الكونية . أي بمعنى آخر أن الهجرة تساعد على تخفيف الضغط السكاني في مناطق العسر ، مقابل تلبية حاجة الوحدات الجغرافية الأخذة في النمو Growing Units من الأيدي العاملة وبهذا فإن الهجرة تعتبر إحدى العمليات المساعدة على إعادة التوازن بين الحاجة للمصادر البشرية وتوفر رأس المال (٣) .

ويقدم الاقتصاديون التقليديون Conventional Economists تصورا لعملية الهجرة قائما على فكرة عملية التنظيم الذاتي Self-Regulating Process حيث تكيف الحاجة للطلب على العمالة مع العرض في الوحدات الجغرافية المختلفة ضمن إطار الاقليم الواحد . فارتفاع الرواتب في المدن وكذا ارتفاع مستوى المعيشة وتوفر الخدمات يساعد على ارتفاع معدلات الهجرة من الريف للمدن (٤) . من ناحية أخرى تذهب نظرية التجارة الدولية - Interna-tional Trade Theory فتقدم تصورا مشابها للهجرة إذ أن الدولتين غير المتساويتين في الإمكانيات والسعة

(٢) لمزيد من الاطلاع حول هذه الكتابات انظر :

Fred Halliday, Migration and the Labour Force in the oil Producing states of the Middle East, Development and change Vol. 8, No. 3, July 1977;

لأدر لرجاني وأغرون ، السالة الأجنبية في أنظار المخرج العربي ؛ بحوث وثقافات التدية الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية بالتعاون مع المعهد العربي للتخطيط ، يناير ١٩٨٣ ، بيروت . مركز دراسات الوحدة العربية ، ١٩٨٣ ؛ سعد الدين إبراهيم النظام الاجتماعي العربي الجديد ، دراسة عن الآثار الاجتماعية للثروة النفطية ، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٢ ، لندر لرجاني ، الهجرة الى النفط ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ١٩٨٣ . (٣)

John S. Mills, Principles of Political Economy, London, Langmans, 1909.
Alejandro Portes and John Walton, Labor, Class and the International System, London, Academic Press, 1981. p. 26. (٤)

الإنتاجية بإمكانها التمتع بنوع من التبادل الثنائي لأمكانياتها المتاحة : السلع الرأسمالية والعمالة . وقد يكون باستطاعة إحدى هاتين الدولتين توظيف رأسمال وقوة عمل الدولة الأخرى بإنتاجية أكبر ، أو أن يكون لاحتدامها ميزة إنتاج بعض السلع على الأخرى . بمعنى آخر فإن التجارة والهجرة سيساهمان في رفع دخول الدولتين أو الدول الداخلة فيها .^(٥)

أما نظرية التحديث Modernization في علم الاجتماع فلأنها تقدم شكلاً آخر من نظرية التوازن - equilibrium حيث تفترض هذه النظرية أن الهجرة وانتقال العمال بشئ أشكالها ما هي إلا إنتاج لثلاثية ما أسمته بالنسق القيمي Value System السائد في دول المنشأ Countries of origin^(٦) . فالتوازن لدى هذه النظرية يتحقق عن طريق هجرة أفراد المجتمعات المتخلفة الأكثر تعلقاً بالحضارة المتقدمة لدول المركز تاركين وراءهم السكان التقليديين . وتعتقد نظرية التحديث هذه أن التعرض لمنطق القيم الغربية ، التغريب (الوسترنة) وغط السلوك الاستهلاكي يساهم في خلق الانقسام ضمن سكان الدول المتخلفة . فالأكثر تعلقاً بمنطق وحياة الماضي يسمون بالتقليديين Traditionals مقابل المحدثين Moderners ، أي الراغبين في التكيف أو التكيفيين مع مخط الحياة الجديدة في شكلها الغربي . وباستخدام كلمات دانييل ليرنر Daniel Lerner فإن اكتساب ما أسماه « والحداثة الدينية » أو التعاطف مع الآخرين empathy يعين أفراد المجتمع على التكيف والعمل بكفاءة في عالم متغير . ويعلق ليرنر على ذلك قائلاً أن سكان المجتمعات المتطورة وبخلاف سكان « الدول النامية » يتميزون بخاصية القدرة العالية على تقبل الجديد والتعاطف مع الآخرين .^(٧)

وبشكل عام فإن معظم النظريات السابقة والتي انطلقت أساساً من خبرة الهجرة العمالية في المجتمعات الغربية تدعي أن الهجرة ذات مضمون إيجابي لكلا طرفي الهجرة : الدول المصدرة والمستوردة للعمالة . وبإخص لنا رأي رست هذا الرأي بالقول :

« إنه لوضع لا يوجد فيه أي خاسر ، فالمهاجر في انتقاله لدولة أخرى يتلقى بالإضافة للأجر العالمي التدريب الفني والمهني الذي فيما بعد يساهم في عملية التنمية في دول المنشأ . أما دول الاستقبال فلأنها باستقبالها لقوة العمل الوافدة فلأنها في هذه الحالة تحصل على عمالة لم تتحمل في نشأتها أية تكاليف تذكر » .^(٨)

(٥) Philip L. Martin and Alan Richard, International Migration, Monthly Labour Review, october, 1980, p. 6.
(٦) Andrew Webster, Introduction to the Sociology of Development, London, Macmillan, 1984.
(٧) Daniel Lerner, The Passing of Traditional Society : Modernizing the Middle East, N.Y., Free Press, 1965, pp. 49/50.
(٨) Ray C. Rist, The European Economic Community (E.E.C.) and Manpower Migration Policies and Prospects, Journal of International Affairs, Vol. 33, No. 2, fall/Winter, 1979, p. 207.

فالمؤيدون لعملية الهجرة أو الفائلون بعائدها الإيجابي يرون فيها أحد العوامل الرئيسية المساهمة في تخفيف التضخم السكاني في المناطق المزدحمة بالسكان وقيم ذلك عن طريق اتحاد العائلات بأفرادها المهاجرين في دول الاستقبال يساهم في انخفاض عدد سكان الدول الطاردة للعمالة ، ارتفاع معدلات هجرة العزاب أو المتزوجين غير المصحوبين بعائلاتهم ساعد على ارتفاع من الزواج وبالتالي تقليل الانجاب كما هو في الحالة الأولى أو تقليل الانجاب كما هو في الحالة الثانية ويؤكد هذا أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية .

وذلك من دراسة لبعض الإحصاءات الخاصة بالانجاب في أوساط أسر المهاجرين في الجزائر حيث وجد أن معدل الانجاب في الأسر ذات العائل المهاجر "انخفض إلى نحو ٢.٥٪ كما أن معدل انجاب الأطفال انخفض هو الآخر من ٤.٧ إلى ٣.٥" (٩). إلا أننا نضيف على ذلك فنقول أن الاستقرار النسبي والمؤقت لبعض الأسر المهاجرة في الدول الأوروبية ، من مناطق الاكتظاظ السكاني في العالم الثالث لا يمكن اعتباره بأي شكل من الأشكال عاملاً مهماً في انخفاض حجم التضخم السكاني في دول مثل الهند وباكستان وتركيا والجزائر ومصر .

بالإضافة لذلك فقد قيمت الهجرة على أنها ذات تأثير إيجابي على أسواق العمل في دول الإرسال . لذا فقد اعتبرت البطالة وعلى الدوام من القوى الطاردة للعمالة . من هنا جاء تشجيع الكثير من أصحاب القرار لهجرة الفائض من الأيدي العاملة كعامل مساهم في تخفيف حدة البطالة في دول المنشأ ، كما أنها من ناحية أخرى وكما قال كنزلي بيركر : « ستساعد على تنشيط عملية النمو بازاحتها للمعوقات في السوق » (١٠)

وتذهب لوتس Lutz مذهباً آخر وذلك بافترضها أن الهجرة العمالية لغرب أوروبا شرط أساسي لأي توسع صناعي لدول جنوب أوروبا المرسله للعمالة . فإزاحة الفائض السكاني هنا سيساهم في رفع معدلات الدخل والتي بدورها ستساهم في زيادة الطلب على السلع المصنعة (١١) .

وعلى العكس من ذلك فإن الشواهد المتاحة أماناً لم تدعم الادعاء السابق ، حيث أن بعض الدول الأوروبية وجدت نفسها مضطرة أمام تزايد هجرة قوة عملها لوقف هجرة السكان من بعض المناطق وذلك لضمان استمرارية تقديم بعض الخدمات المجتمعية التي أصيبت بالقصور نتيجة لهجرة قوة العمل المحلية (١٢) . بالإضافة لذلك فإن هجرة

(٩) Organization for Economic Co-operation and Development, Migration and Transfer of Technology Case Study : Algeria, Morocco, Tunisia and France, development Centre, Paris, 1975, P. 72.

(١٠) C.P. Kindleberger, Europe's Post-War Growth : The Role of Labour Supply, Cambridge, Harvard University Press, 1967- P. 106.

(١١) V. Lutz, Some Structural aspects of the Southern problem the Complementarity of emigration and industrialization, Banca Nazionale del Lavoro Quarterly Review No. 59, 1961, PP. 367-402, In B. S. AL-NAJJAR, Aspects of Labour Market Behaviour In An Oil Economy, A study of underdevelopment and Immigrant Labour in Kuwait, Ph. D Thesis, University of Durham, 1983, P. 39.

(١٢) Stephen Castles and Godula Kosack, Immigrant Workers and Class Structure in Western Europe, London, Oxford University Press, 1973, P. 413.

الفائض السكاني من المناطق الفقيرة لدول الشمال الأوروبي يعتبر انتقالاً لبعض عناصر فائض القيمة هذه الدول وذلك بافتراض حجم المدخلات المادية التي تم اتفاقها على هؤلاء من سن الطفولة حتى دخولهم سوق العمل ، وكذا يمكن القول أن ما يسمى بالفائض السكاني في دول العالم الثالث لم يكن أبداً هكذا بل إنه نتاج لطبيعة الأغاط التنموية المتبناة وانعدام التكافؤ في توزيع ناتج فائض القيمة داخلياً من ناحية ومحصلة لولوج هذه الدول منظومة عمل النظام الرأسمالي العالمي من ناحية أخرى وهو ما سنشرحه فيما بعد .

وأخيراً تأتي التحويلات النقدية المرسلة من المهاجرين للدويم في دول المنشأ على أنها إحدى أهم ميزات الهجرة لدول الغرب وقد علق أحد تقارير منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي الأوروبية على هذه الظاهرة في حالة الجزائر بالقول :

« تعتبر مساهمة العمال المغتربين في ميزان المدفوعات الجزائري من أهم مصادر الدخل فالتحويلات النقدية هؤلاء العمال تعتبر إحدى مصادر تغطية العجز في الميزان التجاري وبالتحديد في الفترة السابقة لارتفاع أسعار النفط (قبل خريف عام ١٩٧٣) : أما في المغرب فإن التحويلات النقدية للمغتربين من المغاربة إحدى أهم مصادر ميزان المدفوعات وكذا في تمويل التنمية » .^(١٣)

أما في حالة التحويلات النقدية للمهاجرين والعمال الأتراك فان نيرمن أبدان Nermin Abdan تنحو في معالجتها له منحى حلوا إذ تقول :

« قد يكون من الحق القول بأن التحويلات النقدية للمهاجرين من الأتراك ساهمت في رفع المستويات المعيشية لبعض الفئات الفقيرة من المجتمع التركي ، وتخطت العجز في الميزان التجاري ، وأنعشت من قوة التوجهات الاستهلاكية لهذه الجماعات ، إلا أنها نادراً ما ساهمت في الاستثمارات الإنتاجية » .^(١٤)

وبشكل عام ، فلو قبلنا جزئياً فكرة أن التحويلات النقدية قد تساهم في تحسين الأوضاع المعيشية لبعض أسر المهاجرين في دول المنشأ وتغطية العجز في ميزان المدفوعات ، إلا أن كل هذه التغيرات التي اعتبرت على أنها إيجابية ليست ذات علاقة بإنتاجية الاقتصاديات المعنية وإنما بالبقاء المؤقت للعمالة المهاجرة وبطبيعة تطور اقتصاديات دول الاستقبال . بالإضافة لذلك ، فإننا لم نجد من الشواهد العملية ما يؤكد ما ذهب إليه بعض الدراسات من أن

Organization For Economic Co-Operation and Development, Op. Cit, P. 66.

N. Abadan-Unat et al., Migration and Development, Ankara-Ajamstwrk Press, 1975, P. 380.

(١٣)

(١٤)

التحويلات النقدية للمهاجرين تم استثمارها إنتاجيا خصوصا إذ ما عرفنا أن الكثير من الأموال النقدية تم تحويلها عن طريق قنوات رسمية وغير رسمية لا تمتلك الجهات الرسمية أية سلطات بخصوص طبيعة ومجالات توظيفها .

باختصار فإن وجهات نظر الجهات المؤيدة لعملية الهجرة قد اعتمدت على محركات اقتصادية غير مدعومة بشواهد أمبريقية . أي بتعبير آخر إن هذه الاتجاهات رغم أهميتها في تفسير الظاهرة ، إلا أنها قد اعتمدت على متغيرات فردية منسلخة عن سياقها الاجتماعي والاقتصادي الذي اشتقت منه ، وهذا ما حاول نقاديه الاتجاه الآخر المسمى بالاتجاه النقدي أو اتجاه الاقتصاد السياسي .

أ - اتجاه الاقتصاد السياسي في تفسير الهجرة :

دفعت العواقب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي خيبتها دول الاسرار في العالم الثالث بعض مفكرها من المهتمين بالتنمية لمناقشة قضية الهجرة من منظور اجتماعي - اقتصادي أوسع يأخذ في اعتباره ظروف التشكل الاقتصادي والسياسي لدول الاسرار وموقعها ضمن منظومة عمل السوق الاقتصادي العالمي .

وترجع بدايات بروز هذا الاتجاه إلى كونر ميردال Gunner Myrdal والذي بخلاف السابق يرى في هجرة عمال العالم الثالث لأوروبا نوعا من الاقترار Impoverishment وإزاحة للمصادر البشرية من سكان العالم الثالث . فالهجرة العملية لأوروبا في العقود الخامس والسادس لم تساهم في تنمية دول الاسرار كما تذهب الاتجاهات السابقة بل على العكس من ذلك كرست من واقعها المتخلف وتبعيتها للغرب .^(١٥)

أما رواد مدرسة التبعية وبالتحديد بول بوران Baul Baran فيؤكد أن العلاقات التجارية بين الدول الفقيرة والدول الغنية وكذا حركة الاستثمارات الأخيرة لم تساهم في تضيق الهوة بين الدول المتقدمة والدول النامية في تكريس خضوع الدول الأضعف . وتقوم فكرة باران هذه على أن تقدم العالم المتطور جاء بعد مصادرة فائض القيمة في الدول النامية التي خضعت في البداية لشروط التجارة الغربية ومن ثمة للاستعمار الغربي . وقد طور أندرو فرانك Andre Frank هذه الافتراضات إلى نظرية في التخلف . ويمكن صياغة الافتراض الرئيسي لاتجاه مدرسة التبعية في التالي : و أن التخلف لم يكن حالة وجدت عليها اقتصاديات العالم الثالث قبل إخضاعه للنموذج الأوروبي ، بل نشأ وتطور في لحظة تاريخية واحدة مع نشأة وتطور التقدم في المراكز الرأسمالية المتقدمة ، أي أن التخلف والتقدم هما وجهان لعملة تاريخية واحدة بدأت مع ولادة النظام العالمي للرأسمالية منذ القرن السادس عشر^(١٦) .

أي أن مدرسة التبعية لا تعتبر التخلف نتيجة لصيقة بطبيعة الهيكل السياسي والاقتصادي والاجتماعي للبلدان العالم الثالث بقدر ما هو نتاج لتلك العلاقات التاريخية التي ربطته بمنظومة الدول الرأسمالية المتقدمة . لذلك فالنظام الرأسمالي العالمي - بالنسبة لأصحاب هذه النظرية - يتكون من منظومتين من الدول ، الأولى وتتكون من عدد صغير من الدول المسيطرة والمتطورة المستغلة - بكسر الغين - التي تشكل المركز Centre أو المتروبول Metropolis ، والثانية ويتكون من عدد كبير من دول العالم الثالث المستغلة - بفتح الغين - تشكل المحيط Prephiry أو التواابع

Gunner Myrdal, Rich Lands and poor, N. Y. Harper Row, 1957.

(١٥) انظر مثلاً :

(١٦) محمد السيد سعيد . نظرية التبعية وتفسير تخلف الاندساتيات العربية ، للنسجل العربي ، العدد ٦٢ ، أبريل ١٩٨٤ ، ص ٢١ .

Satellite . واستنادا لهذه النظرية ، فالهجرة من دول المحيط إلى دول المركز تمثل استمرارية لواقع الاستغلال ونزوحا لفائض القيمة لصالح الدول المتقدمة^(١٧) وبهذا المعنى جاء اعتبار الهجرة شكلا من اشكال الاستعمار الجديد Neo-Colonialism على أساس أنها جزء من فائض القيمة المنقول لدول المركز والمساهم في تنمية العالم المتطور . وقد علقت دراسة حديثة ، حول هجرة الجزائريين لفرنسا على ذلك بالتالي : -

« تمثل هجرة العمال الجزائريين لفرنسا ودول الرأسمالية المتقدمة (في أوروبا) أحد العوامل الرئيسية في استمرارية تبعية الجزائر لهذه الدول . فحرية انتقال اليد العاملة تمثل أحد المتغيرات الهامة للعلاقة (غير المتكافئة) بين الدول المتخلفة والدول المتقدمة » .^(١٨)

بشكل عام فإن مدرسة التبعية في تناولها لمشكل الهجرة لا توضح لنا بالقطع مدى إمكانية تغيير الشروط الحالية للعلاقة القائمة بين الشمال والجنوب كما أنها في الوقت ذاته الذي تفسر هجرة عمالة العالم الثالث لأوروبا على أنها نزوح لفائض القيمة واستمرارية لواقع الاستغلال والتخلف لا تقدم تفسيراً واضحاً لطبيعة الهجرة من وإلى العالم الثالث .

وحاولت الدراسات الحديثة وخصوصاً تلك التي عالجتها في بعضها قضايا الهجرة من وإلى العالم الثالث ، تجاوز هذا المعضل بتبني ما يسمى بمدخل المنظومة العالمية World-System Approach وذلك باعتبار أن الهجرة لا تحدث بين وحدات جغرافية منفصلة وإنما هي جزء من الديناميات الداخلية لنظام متجدد . فالنظام الرأسمالي العالمي نظام دائم التجدد لكن دون تغير أساسي في ديناميات تراكم رأس ماله . وهذا ما سنحاول توضيحه في الصفحات القادمة ولكن من أين نبدأ ؟

ب - تدويل رأس المال :

يعتبر نمط الانتاج الرأسمالي أول نمط إنتاجي يخضع الكرة الأرضية Globe لشروطه كنظام يقوم النمط الرأسمالي في الإنتاج على خاصية تراكم رأس المال وهي بطبيعتها ذاتية التوسع Self-expansion . إلا أن هذه العملية - أي الطبيعية الاضطرابية أو الامتدادية للنظام الرأسمالي ليست بالعملية السهلة فهي قد مرت بمراحل مختلفة اتسمت كل منها بخصائص وديناميات معينة . فالقوى المحركة الخاصة بكل مرحلة من المراحل في تنافسها ثم في اضمحلالها تدفع باتجاه التحول في النظام وبالتالي بروز لقوى محركة جديدة وإيدان بعده مرحلة أو حقبة جديدة منه . وكحصيلة لذلك فقد تم إخضاع معظم دول العالم - وكما أشرنا سابقاً - لشروط عمل النظام الرأسمالي ، لذا فتاريخ الدول النامية هو في الواقع تاريخ اختراق النمط الانتاجي الرأسمالي وتنافسه مع الأنماط الإنتاجية « التقليدية » القائمة والذي قاد ويقود بالتالي إلى تدويل رأس المال .^(١٩)

(١٧) مدنان الماري - ملاحظات نقدية حول نظرية التبعية ، مجلة الفكر ، العدد الأول ، ١٩٨٤ ، ص ١٣١

(١٨)

Kader Ammut, et, al., Les Contradictions d'un Développement National, Paris, Maspro, 1974, P. 102, in B.S. AL-NAJJAR Peter Nore and Teresa Turner, Oil and class Struggle, London, Zed Press, 1980, P. 44.

(١٩)

Op. Cit. P. 44.

من هنا جاء اعتبار البعض ، النظام الرأسمالي من خلال هيمنته على الكون العامل الأساسي المؤثر في شكل ومسيرة التنمية في العالم الثالث ، فأصحاب الاتجاه البرجوازي الليبرالي يعتقدون أن تحقيق التنمية في الدول النامية يتم عن طريق تخصيص اهوة بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة والذي بناء عليه سيتاح لدول العالم الثالث التمتع بنفس ثمار التطور الرأسمالي مثل انخفاض معدل النمو السكاني ، زيادة في دخل الفرد ، تراكم في رأس المال المحلي ، وتطور في مستوى التطبيق والصحة والمشاركة . . الخ . أي بتعبير آخر ، فإن في اعتقاد أصحاب نظرية التحديث -Mod-ernization Theory ان تخلف دول العالم الثالث هو ناتج لقلة مصادر الثروة ، وضعف المشاركة في التجارة الدولية كمنتج أو مصدر للغلات والسلع أو كليهما ، . . . وإن الدول النامية حتى تتخطى ما يسمى بهوة التخلف فإن عليها تبني الأسلوب الغربي في التنمية . . . بالإضافة لذلك فإن أصحاب مدرسة التحديث يؤكدون دائماً أن معوقات التنمية في العالم الثالث غير ذات صلة بطبيعة ومنطق النظام الرأسمالي العالمي وإنما هي ذات طبيعة علائقية بالانساق القيمية السائدة في هذه الدول وسيادة الشخصية السلطوية وهيمنة العائلة البطركية .

وبالمقابل فإن الاتجاه الراديكالي يرى في النظام الرأسمالي نظاماً مؤسسا لعدم التكافؤ على الصعيد العالمي . فمآزق العالم الثالث ، وحسب تفسير هذا الاتجاه ، نتاج لسيادة النظام الرأسمالي الذي أسرع من تطور دول المركز على حساب منظومة العالم الثالث ، كما أن ما يسمى « بمشاريع التحديث » المقامة في الأخيرة ، وبإغفال الكم الهائل من المديح الرسمي لها ، ساهمت في زيادة هيمنة الدول الرأسمالية مما عزز بالتالي من اتجاه عدم التكافؤ على الصعيد العالمي الذي من نتاجه تطور كبير في دول الشمال الرأسمالية ركود Stagnation أو اضمحلال في منظومة الدول النامية .

وفي تفسيره لظاهرة التخلف يفترض هذا الاتجاه أن بروز ظاهرة الاحتكار في إطارها الرأسمالي في بعض من مجتمعات العالم الثالث أخضع من أنماطها الانتاجية التقليدية لمنطق إعادة انتاجه - أي الرأسمالية العالمية - ويسجل تاريخ هذه الدول منذ أن برز فيها النمط الرأسمالي في الانتاج ، استمرارية لعمليات الاستعباد السياسي والاقتصادي لرأس المال العالمي ، أي بشكل مقتضب تدويل لرأس المال الغربي :

« فظاهرة التخلف ليست هي مؤشراً للجمود والتقليدية

فحسب وإنما تمثل هي ايضاً انتاجاً لتطور معين مرتبطاً

أساساً بنشأة النظام الاقتصادي العالمي وعصبة مباشرة

له . لذا فإن التحليل القادر على تفسير مشكلة النمو

والتخلف في الدول النامية هو ذلك الذي يأخذ في

اعتباره تطور الاقتصاد العالمي » . (٢١)

أما مدرسة التبعية فتعتقد أن تشكل النظام الرأسمالي العالمي وخضوع المنظومات الأخرى له قد عاق من محاولات التصنيع أو نموها في العالم النامي فتبعية الأخيرة للشركات المتعددة الجنسية ، وحاجة هذه الدول للمعونات المالية والفنية الغريبة بالإضافة للفوارق الطبيعية الصارخة كلها متغيرات لعبت دوراً رئيسياً في إعاقة قيام تنمية صناعية حديثة في

الدول النامية* . لذا فإن الحل بالنسبة لهذا الاتجاه يتمثل في الانفصال التام عن النظام الرأسمالي أو بما سماه البعض بالتنمية المتغلقة أو المتكفئة على ذاتها Blocked Development^(٢١) .

إلا أننا مع ذلك نضيف ونقول أن حركة التصنيع التي حدثت في بعض بلدان العالم الثالث وبالتحديد جنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية خلال العقدين الماضيين السادس والسابع ، وكذا في انتقال فائض القيمة ضمن المنظومة المحيطة ، قد أضعفت من مصداقية تحليلات مدرسة التبعية . فليس بإمكان اتجاه الانفصال عن السوق العالمي ولا تصور التنمية المتغلقة على الذات تقديم تحليلات مستمدة من فهم تغير ديناميات النظام الرأسمالي العالمي . فالانحياز الأول يعتقد أن تنمية العالم الثالث مرتبطة أساسا برغبة البرجوازية المحيطة فهي أي حركة التصنيع والتنمية وفي ضوء تحليلات هذا الاتجاه تعتمد أساسا على رغبة البرجوازية المحلية وليست خاضعة لقوانين موضوعية تختص بطبيعة غط الانتاج الرأسمالي العالمي وبخلال ذلك فإن الاتجاه الآخر الغائل بالتنمية المتغلقة على ذات يعتقد أن تحقيق التصنيع والتنمية في العالم الثالث يعتمد أساسا على اتجاه الرأسمالية الغربية . .^(٢٢)

ج - المنظومة العالمية : المدخل البديل ؟

كما ذكرنا سابقا فإن تشكل النظام الرأسمالي في أوروبا الغربية - أقام نظاما جديدا للتجارة يركز على أسس جديدة ، فالعالم مقسم وفق أسس هذا النظام* إلى منظومتين دول : الأولى دول نامية والثانية دول صناعية متقدمة أما منظومة الدول النامية فتتخصص . بإنتاج وتصدير المواد الخام وتعتبر سوقا أساسيا لبيع مصنعات العالم النظم من البضائع والسلع الرأسمالية . كما قسم العالم النامي كذلك إلى مجموعتين من الدول ، الأولى وتقوم فيها بعض الصناعات ذات التمويل والارتباط الغربي مثل صناعة السيارات في البرازيل وصناعة المنسوجات في الشمال الإفريقي وجنوب شرق آسيا . . الخ ، أما المجموعة الثانية فتقوم بدور المصدر فقط للمواد الخام كمعظم الدول الإفريقية والكثير من دول آسيا وأمريكا اللاتينية^(٢٣) ، وأما منظومة الدول الصناعية المتقدمة فقد أخضعت الأولى في البدء للسيطرة العسكرية والاقتصادية المباشرة ثم احتوتها مؤخرا ضمن آليات عمل النظام الاقتصادي الرأسمالي العالمي وهي دول مستوردة للمواد الخام ومصنعة ومصدرة له .

فهيمنة النظام الرأسمالي ساهمت في حرية انتقال رأس المال الغربي إلى الدول النامية لاقامة صناعات معتمدة أساسا على وفرة المواد الخام وعلى رخص الأيدي العاملة وكثافتها ثم إعادة مصنعاتها إلى أوروبا أو إلى الأسواق الغربية لبعض دول العالم الثالث ، كالتخليج والشرق الأوسط . أما هجرة الأموال الغربية للعالم النامي في السبعينات فقد جاءت

* قبل القطعة الأخيرة الاتجاه المحدث جدا من مدرسة التبعية والذي أعطى دورا متوازنا للعوامل الداخلية - كطبيعة دور تشكيل البرجوازية المحلية ما حجم القوارير الطبقية ، قوة الانساق القيمة . . الخ - في تحلل العالم الثالث .

هذا التقسيم يعرف في آليات الاقتصاد السياسي باسم التقسيم التقليدي أو القديم للعمل على الصعيد العالمي .

Peter Nore and Oersia Turner Ibid, P. 145.

B.S. AL-NAJJAR, Op. cit. P. 48.

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

E.A. Brett, The World Economy Since The War : The Politics of Uneven Development, London, Macmillan, 1984, PP. 182-192.

متسقة مع عدة متغيرات عاكسة أزمة النظام الاقتصادي الرأسمالي ، (١) عملية الاستثمارات الاقتصادية لرأس المال الغربي في الدول النامية وفي ظل معطيات الاقتصاد الغربي ذات عائد ربحي كبير إذا ما قورن في بعض الحالات بعائد الاستثمارات في أوروبا ذاتها ، (٢) إن توظيف هذه الأموال وفي دول معينة فمن العالم الثالث يلعب دورا مهما في المجال السياسي من حيث دوره المساعد على خلع التراكيب الطبقية التقليدية القائمة واضعاف المعارضة السياسية المحلية في هذه الدول ، كما أنه من ناحية أخرى ساعد على تقوية مواقع البرجوازية المحلية وفي تدعيم عملية دمج الدول المحيطة بالنظام الاقتصادي العالمي ، مدخل كهذا لا يساعد فقط على فهم التشكيل الجديد ، الاقتصادي - الاجتماعي للدول النامية وإنما يساعد كذلك على فهم طبيعة عمل النظام الاقتصادي العالمي ومآزقه المعاصر .

فالكثير من الكتاب وخصوصا في الغرب يؤكدون دائما ان المآزق الحالي للنظام الاقتصادي العالمي ما هو في الواقع الا نتاج مباشر لما اسموه حينذاك بأزمة النفط Oil Crisis عام ١٩٧٣ . إلا أننا مع ذلك نؤيد أندرو فرانك Andre Frank من ان مشكل اقتصاديات الدول الأوروبية يعود الى حقبة تاريخية ابعد من ذلك كما أن جذوره اعمق مما يبدو عليه وان ما اسميناه بالمشكلة البترولية ما هي الا إحدى التناجات وليست سببا للمآزق العام (٢٤) هذه الأزمة التي يمكن تحديدها ملاحظها ، في ازدياد معدلات البطالة في المجتمعات الأوروبية والتي قدرت حتى مطلع الثمانينات بحوالي ٣١ مليون متعطّل عن العمل في دول منظمة التنمية والتعاون الاقتصادي ، كما ان اغلاق الكثير من الوحدات الاقتصادية والصناعية الذي هو مؤشر آخر لم يعد عاملا آخر مساهما في زيادة معدلات البطالة وإنما في فقدان هؤلاء - أي العمال المسرحين - الكثير من مهاراتهم الفنية والحرفية . وكمحصلة لذلك انخفض معدل الاستثمار في هذه الدول مما زاد بالتالي من أعبائها المالية . (٢٥) فارتفاع معدلات البطالة في بريطانيا على سبيل المثال والتي قدرتها بعض الأوساط المطلعة بما يقارب الخمسة او الستة ملايين نتج عنه زيادة في الإنفاق وقلة في حجم الضرائب المحصلة ، وضع كهذا افترض مجموعة من المشكلات الاجتماعية والسياسية التي يعاني منها المجتمع البريطاني او ساهم في خلق مشكلات جديدة مرتبطة أساسا بالمآزق الاقتصادي العام الذي تعيشه المجتمعات الأوروبية . وبسط مثال على ذلك الاشكال الاجتماعي - الاقتصادي الذي تعيشه بريطانيا بسبب طبيعة السياسة التاتشيرية وكذا في تبعيتها المطلقة لأمريكا وفي وجهها المعادي - والذي برز مؤخرا - للنظام الديمقراطي الليبرالي . (٢٦)

إلا أننا مع ذلك يجب أن نؤكد على أن هذه المشكلات السابقة حصلت في الوقت الذي شهد فيه رأس المال العالمي اعل معدلات دوران وفي الوقت الذي حققت فيه بعض الشركات وبالتحديد الشركات المتعددة الجنسية وذلك عن طريق إعادة مواقع الانتاج معدلات ربحية عالية على الصعيد العالمي . (٢٧)

لقد كان يقال دائما أن الكثير من أزمات المجتمعات الرأسمالية وخصوصا ابان المرحلة الاستعمارية Colonial Period قد تم حلها من خلال اخضاع مجتمعات جديدة Fresh ذات النمط انتاجية سابقة على النمط الرأسمالي لذا

(٢٤) Andre Frank, Crisis In The World Economy, London, Heinemann Educational Books Ltd., 1980, P. 68.

(٢٥)

Folker Froebel, et al. The New International Division of Labour, London, Cambridge University Press, 1980, PP. 3-4.

(٢٦) فريد من الغفامير حول هذا الموضوع انظر : Philip Armstrong, et al, Capitalism Since World War II, London, Fontana, 1984.

(٢٧)

Folker Froebel, et al, Ibid, P. 4.

فإن ما يميز المآزق الحالي للنظام الرأسمالي انتفاء بقع جغرافية جديدة غير رأسمالية قابلة للاستعمار . لذا كان على النظام الرأسمالي تجاوز معضلاته بإعادة تشكيل النظام الاقتصادي العالمي . بعض من هذه التغيرات يمكن ملاحظتها في (١) بتبني سياسة الانفتاح الاقتصادي open door Policy في أكثر من قطر في العالم الثالث ، (٢) ارتفاع عدد المراكز التجارية والصناعية الحرة Free Industrial and Trade zone (٣) نزوح بعض من الصناعات الأوروبية - لمواقع إنتاجية أكثر ربحية كما هو في حالة صناعة النسيج في الشمال الأفريقي وجنوب شرق آسيا ، وصناعة الإلكترونيات في جنوب شرق آسيا وبعض الصناعات الثقيلة (الحديد والصلب . . الخ) ذات التمويل المحلي والإدارة الغربية في مجتمعات الخليج والجزيرة العربية المنتجة للنفط وأخيرا ، (٤) ترشيد آليات الإنتاج في المراكز الصناعية التقليدية . (٢٨)

وبتعبير أكثر دقة فإن أزمة الاقتصاد الغربي قد دفعت باتجاه تشكيل شروط جديدة لتراكم رأس المال العالمي ، من الغرب يهاجر رأس المال العالمي للبحث عن مصادر جديدة للاستثمار في بعض من مواقع العالم الثالث ، أو من العالم الثالث على وجه التحديد - المجتمعات النفعلية في الشرق الأوسط تهاجر أموال العالم الثالث لإعادة دورة الحياة للنظام الاقتصادي العالمي . بمعنى آخر إن تغيرا في الشروط التاريخية لتراكم رأس المال في المجتمعات الغربية منذ مطلع السبعينات قد استدعى أساليب وطرقا جديدة أدخلت من خلالها منظومة الدول المتخلفة من جديد في عملية إعادة إنتاج رأس المال الغربي . وكمحصلة لذلك فإن تزايداً في القوة قد طرأ ليس بين الدول المتقدمة والدول المتخلفة وإنما بين دول الأطراف بعضها ببعض : -

« تقسيم العمل على الصعيد الدولي لم يكن تغيرا في استراتيجيات تنمية لبعض الدول الغربية ، أو خيارات جديدة لما يسمى بالشركات متعددة الجنسية ، إنما هو في الحقيقة نظام « مؤسسي » مبتدع للنظام الرأسمالي أمله طبيعة الظروف المتغيرة ، فهو بهذا محصلة وليس سببا لهذه الشروط التي حتمت على هذه الشركات والدول أن تفيد صياغة تراكم رأس المال الغربي وفقا لهذه الشروط الجديدة » . (٢٩)



ثانيا - الهجرة العمالية ومآزق الاقتصاديات الغربية منذ السبعينات :

يمكن القول أن تبني الدول الغربية لسياسات متشددة على صعيد الهجرة والاستقدام منذ مطلع السبعينات حتى الآن ما هو إلا نتاج للمآزق البنائي للاقتصاديات الغربية وكذا التطور الكبير - سياسيا - الذي لحق بالهجرة العمالية الوافدة في المجتمعات الغربية : هذا على التحديد يمكن ملاحظته في التالي :-

B. S. AL-NAJJAR, Op. Cit, P. 50.
Folker Froble, et al, Ibid, P. 46.

(٢٨)

(٢٩)

١ - عملية التسييس التي خضعت لها قوة العمل الوافدة كنتاج لتردي ظروفها المعيشية وشروط الاستخدام وكذا تردى الأوضاع الاقتصادية والكبت السياسي في بلدان المنشأ فالاضطرابات العمالية التي اجتاحت أوروبا وقادها عمال وافدون هي انعكاس واضح لتنامي الوعي السياسي في صفوفها . فمثلا إضراب عمال المغرب العربي في فرنسا في الأول من مايو عام ١٩٧٣ وكذا إضراب العمال المهاجرين في منطقة الدور Ruhr-area في ألمانيا الغربية ، بالإضافة الى الاضطرابات التي اجتاحت بريطانيا في الفترة الممتدة من ١٩٨١ حتى عام ١٩٨٥ والتي كانت الجاليات الوافدة طرفا رئيسيا فيها وبالتحديد الجاليات الآسيوية وجماعات الوست انديز West Indies كلها أحداث مثلت نقلة نوعية في تاريخ الحركة العمالية الوافدة في أوروبا^(٣٠) . من ناحية أخرى ، فانه لا بد من التأكيد على ان هذه الاضرابات السابقة الذكر كانت أحداثا خاصة بالعمالة الوافدة لأسباب غير تلك المتعلقة بظروف العمل والأجور ، انه تطور في الوعي السياسي الخاص بالفئات العمالية الوافدة وهو نتاج طبيعي لأوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية المعيشة . وضع كهذا زاد من مخاوف حكومات المنشأ ودول الاستقبال الغربية والذي عبر عنه في أكثر من مناسبة وعلى مستويات مختلفة . احد المضطلمين بصناعة القرار في أوروبا عبر عن هذه المخاوف بالتالي : « أصبحت الانكاسات السلبية السياسية والاجتماعية للعمالة الوافدة تفوق في ذلك عائدها الاقتصادي »^(٣١) .

٢ - زيادة معدلات الانفاق الرسمي على قطاع الخدمات بزيادة اعداد الوافدين القادمين مما شكل بالتالي - وحسب تفسير الحكومات الغربية - عبئا على الدولة وضغطا على الخدمات المقدمة مما انعكس سلبا على الخدمات المقدمة كما ونوعا .

٣ - التغيرات الحاصلة في ظروف تراكم رأس المال الغربي ولوج المنظومة المحيطة ضمن اطار النظام الاقتصادي العالمي .

مرة أخرى ، ورغم كل ما قيل وما قد يقال ، فلا بد من تأكيد حقيقة ان حاجة المجتمعات الأوروبية للعمالة المهاجرة ليست هي حاجة مؤقتة أو بأنها ظرف فرضه التوسع الذي طرأ على الاقتصاديات الأوروبية عقب الحرب العالمية الثانية . فالعمالة الوافدة هي قوة عمل ضرورية لاستمرارية اداء النظام الاقتصادي الرأسمالي رغم تزايد معدلات البطالة في اوساط الجماعات المحلية . فهم ، أي العمال الوافدون يشكلون بحق ما سمي في بعض الأدبيات الفكرية « بالجيش الاحتياطي » Reserve Army المدعم لاستمرارية وظيفة النظام الرأسمالي . بالإضافة لذلك فان العمالة الوافدة تقوم بتأدية وظيفة اجتماعية - سياسية مهمة للنظام الرأسمالي ، فهي بكثرتها العديدة وتنوعها الاثني والثقافي تزيد من واقع الفقرة بين افراد الطبقة الواحدة ، بين الجماعات الوافدة والسكان المحليين لاعتبارات عرقية وظروف الاستخدام الافضل الذي تخضع له العمالة المواطنة^(٣٢) . من هنا جاء اعتبار الهجرة العالمية كاحدى السمات البنائية

(٣٠)

Mario Nikotinkos, The New Dimension in the Employment of Foreign Workers, Berlin, International Institute For Comparative Social Studies, April, 1975, P. 4.

(٣١)

Ibid. P. 4.

(٣٢)

S. Castle and Kosack Godula, The Function of Labour Immigration in Western European Capitalism, in Theodor Nikos (ed) Capital and Labour, Glasgow, Fontana, 1980, P. 119.

لنمط الانتاج الرأسمالي باعتبار ان اعادة انتاج النمط الرأسمالي لعلاقات الانتاج يعتمد اساسا على استيراد قوة عمل من خارج اطار الحدود الاقليمية .



ثالثا - الهجرة العمالية في المنطقة العربية : سمات وخصائص الظاهرة :

تقدم الدراسات الرائدة لفريق جامعة درهم (١٩٨٠) وكذا دراسة البنك الدولي لعام ١٩٨٣ تقديرات الهجرة والاستخدام في المنطقة العربية حتى منتصف السبعينات حيث قدرتها باكثر من المليون ونصف المليون شكلت الجماعات العربية حوالي الثلثين ، وتشير الدراسات اللاحقة الى تزايد حركة تنقل العمل العربي والأسويي الى الدول العربية المنتجة للنفط في الفترة الممتدة من منتصف السبعينات حتى مطلع الثمانينات ، ويقدر البنك الدولي ومنظمة العمل الدولية اجمالي العمالة الوافدة بـ ٢,٨ مليون عامل عام ١٩٨٠ ، اما ابراهيم سعد الدين وعمود عبد الفضيل فيقدرانها بحوالي ٣,٤١ مليون عامل لنفس العام . اما محمد ليبب شقير فيقدم تقديرا اكثر معقولة (حوالي ٥,٧ مليون عامل) نظرا لتصحيحه ما ورد في التقديرات السابقة من تقليل لحجم العمالة المصرية واليمنية المهاجرة . واخيرا تشير أحدث التقديرات المتوفرة الى أن اجمالي حجم العمل المستورد الى الأقطار العربية المنتجة للنفط عام ١٩٨٣ قد بلغ ٥,٣ مليون عامل . (٣٣)

واذا ما صدقت هذه التقديرات فإن هذا يعني انخفاضا في حجم العمل الوافد بما يقارب ٥٠٠ ألف عامل في الفترة ٨٠ - ١٩٨٣ . كما ان احتمالات انخفاض حجم الهجرة اقرب الى القبول بسبب الركود الاقتصادي الذي تعرضت له الدول النفطية وخصوصا مع مطلع عام ١٩٨٦ بسبب الانخفاض الشديد في اسعار النفط الذي وصل الى ما دون الخمسة عشر دولارا . وتعد أسعار النفط إحدى المتغيرات الهامة في صياغة سياسة استخدام العمالة بالمنطقة العربية وذلك لارتباطها الوثيق بالعائدات النفطية في دول الاستقبال نظرا لطبيعة العلاقة بين عائدات النفط وحجم الاستثمارات المحتملة في تلك البلدان من جهة أخرى . (٣٤) وكمحصلة لذلك فإن المؤشرات تشير الى الاستمرار في انخفاض حجم العمل المستورد او في تركيبة المهني والوظيفي خصوصا في القطاعات التي شهدت توسعا كبيرا في الفترة السابقة وذات الصفة الاقتصادية المؤقتة .

من ناحية أخرى ، فإن التوقيت الذي تعاضمت فيه عمليات الهجرة في المنطقة العربية (٧٣ - ١٩٨٣) بالإضافة للظروف التي جرت الهجرة في اطارها وكذلك مصاحبتها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على الصعيد المحلي (دول الاستقبال ودول الارسال) وعلى الصعيد الاقليمي القومي جعل منها ظاهرة فريدة في نوعها اذا ما قورنت بمثلاتها من عمليات الهجرة الكلاسيكية في مناطق أخرى من العالم . وخصوصا في المنطقة الأوروبية وأمريكا . بعض هذه الاختلافات يمكن تحديدها في التالي :

أ - بخلاف عمليات الهجرة الأخرى في العصر الحديث والتي تمت بين تشكيلات اجتماعية - اقتصادية مختلفة جندريا حيث انتقل العمالة من دول العالم الثالث والدول الأقل تقدما في جنوب أوروبا ، اليونان ، يوغسلافيا . . الخ

(٣٣) لى أحمد الحواجبة : سياسات استخدام وانتقال الأيدي العاملة العربية من بلدان الارسال : مراجعة نقدية ، ورقة مقدمة لاجتماع خبراء سياسات استخدام وانتقال العمالة العربية ، نوفمبر ١٩٨٥ ، المعهد العربي للتخطيط ، ص ١٥ - ١٦ .

(٣٤) نفس المصدر السابق ، ص ١٧ .

الى الدول الصناعية الكبرى في اوروبا وامريكا ، تتم الهجرة الى المنطقة العربية بين بلدان وان تفاوتت الانماط الانتاجية في كل منها الا انها تنسم جميعا بكونها تشكيلات اقتصادية واجتماعية تابعة ومتخلفة وتحتل مواقع متشابهة في التقسيم العالمي للعمل . (٣٥)

ب - بعكس حركة انتقال الأيدي العاملة الكلاسيكية والتي شملت قوة عمل احتلت الأعمال الدنيا وبسيطة العائد المالي في قطاعات التشغيل ، فان حركة انتقال العمالة في الدول العربية المنتجة للنفط تشمل جميع فئات القوى العاملة المؤهلة وغير المؤهلة ، ذات الخبرات والمهارات أو التي يفتقر إليها وتوزع على كل قطاعات التشغيل في اقتصاديات المنطقة (٣٦) . بمعنى آخر ، إن قوة العمل الوافدة في بلدان الاستقبال المنتجة للنفط في الشرق الأوسط تشكل العمود الفقري الذي تعتمد عليه استمرارية النشاط الاقتصادي في هذه الدول . أحد كبار المسؤولين في المنطقة علق على الاعتماد المطلق لبعض دول المنطقة على العمل المستورد وبالتحديد في النصف الثاني من السبعينات بالقول :

« إذا ما قدر للمصريين أن يذهبوا ،
لأغلقت الكثير من المرافق المدرسية
أبوابها ، وإذا ما أجبر الفلسطينيون على
مغادرة البلاد ، لكفت وسائل الإعلام عن
القيام بوظيفتها ، وإذا ما جرى تسريح
(رجال الأمن والدفاع من بعض
الجنسيات) انهارت شبكة الدفاع والأمن
الداخلي ، وإذا ما أرسل الإيرانيون
والبلوش والباتان ، الذين يشكلون عماد
القوة العاملة ، الى أوطانهم ، لتوقف سير
المشاريع الحيوية التي يتواصل العمل
فيها ، كبناء الطرق والموانئ وشبكات
الري ومشاريع الإسكان والمدارس
والعيادات الطبية (٣٧) » .

ورغم محاولات بعض دول المنطقة وبالتحديد بعد الانحدار الشديد في أسعار النفط ، إعادة التوازن لتركيبها السكانية وتقليص حجم الاعتماد على العمل المستورد الا أن طبيعة النشاطات الاقتصادية المقامة وكبر حجم الاعتماد على العمالة الوافدة خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة بالإضافة إلى الطريقة التي تتم بها عملية الإحلال ، حيث يتم استقبال عمالة أجنبية بمستوى الفني والمهني نفسه ، ومن القطر نفسه - وربما من القرية أو الوحدة القروية ذاتها يجعلها

(٣٥) مكرم صادر وجبيل ورجية ، الجداول الاقتصادية والاجتماعية لنقل قوة العمل العربية بين البلدان العربية ، ورقة مقدمة لندوة السكان والتنمية في الوطن العربي ، الكويت ، للهدى العربي للتخطيط ، ص ٧٠٠ .

(٣٦) نفس المصدر السابق ، ص ٧٠٠ .

(٣٧) إبراهيم إبراهيم ، أثر المنزوين العرب على التنمية الاجتماعية والسياسية في دول الخليج العربي ، في انطوان زحلان وآخرون ، هجرة الكفاءات العربية ، بيروت ، مركز دراسات الوحدة العربية ، ط ٢ ، ١٩٨٢ ، ص ١٢٤ .

رغم ما يقال من وجودها المؤقت عمالة دائمة وأساسية لاستمرارية النشاط الاقتصادي والخدمي لدول المنطقة ، لا يمكن الاستغناء عنها في المستقبل المنظور^(٣٨) .

ولا بد هنا من التأكيد على حقيقة أن طبيعة الأنساق القيمة ذات العلاقة بالنشاط الاقتصادي والمشكلة خلال الحقبة الأخيرة تعيق أي استراتيجية حقيقية لتصحيح المسار / المسارات الاقتصادية والإمماج أكبر لقوة العمل المحلية في عمليات التنمية .

ويلاحظ أن الهجرة الحديثة لمنطقة الخليج لم تكن وليدة الطفرة النفطية في السبعينات وإنما تذهب حتى مطلع هذا القرن . ومرت الهجرة المعاصرة للمنطقة حتى الآن بأربع مراحل ، المرحلة الأولى وتمتد منذ اكتشاف النفط في الثلاثينات وربما قبل ذلك بقليل في العشرينات مع بدء عملية التحديث الإداري والتشريعي حتى مطلع الخمسينات . وتتميز هذه المرحلة بمحدودية العمل المستورد من حيث الكم والدور ، وشكل القادمين من الساحل الإيراني وشبه القارة الهندية غالبية العمل المستورد والذي تركز على وجه التحديد في قطاع النفط . أما المرحلة الثانية فبدأت من العقد الخامس حتى مطلع السبعينات وهي المرحلة التي شهدت بداية بناء الهياكل الأساسية لمجتمعات الخليج العربي - وتميزت هذه المرحلة بالتدفق الكبير نسبياً لقوة العمل العربية وبالتحديد الفلسطينية والمصرية وجزء من قوة العمل الشامية التي تم على عاتقها بناء واستمرارية عمل الكثير من الأجهزة الرسمية الحديثة كما شهدت هذه المرحلة انخفاصاً في نسب مشاركة قوة العمل الآسيوية ، الإيرانية والهندية رغم الارتفاع في أعدادها المطلقة . وتوصف المرحلة الثالثة بالحقبة الآسيوية للهجرة وهي الفترة التي تُوّج من ارتفاع أسعار النفط في خريف عام ١٩٧٣ وتنتهي بمطلع عام ١٩٨٣ . وتميزت هذه المرحلة بضخامة حجم الاتفاقات الرسمية والذي كمحصلة له ارتفعت معدلات تدفق العمل المستورد وبالتحديد الآسيوية . أما المرحلة الرابعة والأخيرة فقد بدأت مع انخفاض أسعار النفط في مطلع عام ١٩٨٣ حتى الآن . وهي المرحلة التي شهدت عودة قطاع كبير من العمل المستورد تقدره بعض الأوساط بقرابة المليون والنصف والمليونين نتيجة للتقلص الكبير والمفاجيء في حجم الاتفاقات الرسمية بفعل انخفاض الإيرادات النفطية والتي تقلصت خلال الخمس سنوات الأخيرة بما يقارب ٦٠٪ إذ انخفضت إيرادات دول مجلس التعاون من ١٧٠ مليار عام ١٩٨١ إلى أقل من ٦٥ مليار حتى العام الحالي ١٩٨٦^(٣٩) .

ج - عوامل الجذب والطرده المؤثرة في عمليات الهجرة في المنطقة العربية :

تؤكد أن تتفق معظم الدراسات الرائدة التي عالجت قضايا الهجرة وانتقال العمالة بين البلدان العربية على أن الهجرة وخصوصاً في ذروتها في العقد الثاني من السبعينات - ما هي، الإنتاج للعوامل والمتغيرات الاجتماعية والسياسية الفاعلة في خلق الظاهرة . بعض من هذه العوامل تم تحديدها في فروقات الأجور بين الدول المستقبلة والمصدرة للعمالة ، معدلات البطالة والتضخم الوظيفي في دول الفائض السكاني وأخيراً ندرة القوى العاملة المؤهلة والمدربة في الدول المستوردة للعمالة .

(١) العامل الاقتصادي : يتلخص الاعتقاد السائد لدى الكثير من دارسي الهجرة في المنطقة العربية وهو بأن الهجرة عبارة عن قرار فردي يقوم بتنفيذه الشخص المهاجر نتيجة لتردي الأوضاع الاقتصادية وانخفاض الأجور في

(٣٨) باقر النجار ، آثار العمالة وافدة لم عوائل ملائذ تنموي ، المستقبل العربي ، العدد ٨٢ ، ديسمبر ١٩٨٥ ، ص ١١٧ .
(٣٩) جريدة أخبار الخليج البحرينية ١٧/٤/١٩٨٦ .

الدول المصدرة للعمالة عنها في الدول المستوردة لها . بمعنى آخر أن الهجرة وانتقال الأيدي العاملة بين الدول العربية . قد حدثت في ضوء الاختلافات الاقتصادية بين دول العسر ودول اليسر من المنظومة العربية وفي ضوء طموحات الأفراد لتجسين أحوالهم المعيشية وقد أكد بيركس وستكلير في دراسة لها ذلك بالقول :

« فحجم ونمط الهجرة الدولية في المنطقة العربية حددت أساساً بالتوزيع اللامتساوي لمصادر الدخل النفطي . كما أن الأوجه التي وظفت فيها العائدات النفطية في هذه الدول أدت الى المزيد من التنمية » اللامتكافئة وإلى فروقات في الدخل بين الدول العربية . وفروقات الدخل هي العامل الأساسي في حركة التنقلات الدولية للعمل^(٤٠) .

من ناحية أخرى ، وجد من دراسة حديثة أجريت على عينة من أساتذة المدارس والجامعات المصرية العاملين في الدول النفطية أن فروقات الأجور والظروف الشخصي كانا وراء سفر هؤلاء للخارج . فمثلاً وجد أن الحد الأقصى لمرتب أستاذ جامعي هو ١٥٠ جنياً مصرية في الشهر بمصر وأن ما يكسبه (من راتبه) على مدى ثلاثين عاماً من العمل المتواصل سيكون ٤٨٦٠٠ جنياً . أما الأستاذ المعار للعمل في إحدى الجامعات الخليجية فيقدر راتبه بـ ٩٠٠ ديناراً في الشهر أي وبمعنى آخر أن الأستاذ الجامعي المصري المعار للتدريس في إحدى الجامعات الخليجية سيكسب خلال سنوات إعارته الأربع ، وهي المسموح له بها من قبل السلطات المصرية ، ما يقارب من ١٢٩,٦٠٠ جنيه مصري ، أي أكثر من ضعف ما سيتقاضاه الأستاذ المصري ثلاثين عاماً من العمل المتواصل في إحدى الجامعات المصرية مع ثبات المتغيرات الأخرى^(٤١) . لذا فانا نجد أن بعض المعارين للعمل في هذه الدول يبقون فترات أطول من مدة الإعارة وبعضهم الآخر ينهي خدماته في دول المنشأ رغبة منهم بالبقاء مدد أطول في دول الاستقبال .

وبالمثل يتكرر المثال المصري ولكن بصورة أخرى في دول الإرسال العربية منها وغير العربية ، دراسة حديثة قام بها البنك الدولي عزت هجرة البنغاليين لدول الشرق الأوسط النفطية إلى الاختناقات الاقتصادية التي يعاني منها المجتمع البنغالي ، كالبطالة ومحدودية السعة الاستيعابية للاقتصاد البنغالي على خلق فرص عمل جديدة بالإضافة لفشل الخطة الخمسية في تحقيق أهدافها وبالتحديد في خلق فرص عمل جديدة لمخرجات التعليم وتاركيه والمهاجرين من الريف للمدن . أي بمعنى آخر أن أوضاع الاستخدام المحلي لقوة العمل بالدول المصدرة للعمالة الفقيرة نسبياً قد ساهمت في الاستجابة السريعة بها لهذا الطلب الخارجي المتزايد .

(٤٠) J. S. Birks and C. A. Sinclair, Economic and Social Implication of Current Development in the Arab Gulf, The Oriental Connection, in Tim Niblock (ed), Social and Economic Development in the Arab Gulf, London, croon Helm, 1980.

(٤١) محمد الدين إبراهيم ، مصدر سابق ، ص ١١٥ ، هذا وقد طرأت بعض تغييرات هامة على دخل الأستاذ الجامعي في مصر منذ صدور هذه الدراسة .

وفي الدول المستوردة للعمالة فإن الأسباب الاقتصادية قد تغري إلى اتساع فرص العمل التي خلقها الاقتصاد النفطي وخصوصاً في طفرته السبعينية ، وصغر حجم قوة العمل المحلية كما وكيفاً بالإضافة إلى برامج بناء الهياكل الأساسية البالغة الطموح ، وتعزيز وتوسعة الخدمات الاجتماعية كالصحة والتعليم والإسكان . الخ . وأخيراً رغبة هذه الدول في تنوع مصادر الدخل فيها وبناء قاعدة صناعية معتمدة في إدارتها فنياً وتكنولوجياً على الخارج^(٤٢) .

(٢) - العامل الاجتماعي والسياسي : قد تعزي كذلك عملية انتقال العمل من دول العسر والفاقر السكاني لدول اليسر المالي والعسر البشري للقرب الجغرافي والتشابه الثقافي كاللغة والدين المشترك وأحياناً تدخل علاقات القرابة والدم وكذا في طبيعة التوجه الاجتماعي والسياسي لدول الاستقبال حيال الكثير من القضايا القومية المعاصرة في المنطقة العربية ، فكثر وجود العربي في كل من الكويت وليبيا والعراق وكذا تزايد حجم المهاجرين من العمال المسلمين من أفريقيا والباكستان والهند في المملكة العربية السعودية لا يخرج عن هذا الإطار* .

أما على صعيد الدول المصدرة للعمالة ، فالهجرة قد تكون أحد أهم العوامل المساعدة على استمرارية شكل معين من الاستقرار السياسي الداخلي وذلك (بهجير) أو هجرة المعارضين لهم سياسياً لدول الاستقبال العربية . وبالنظر لمقدار الثروة التي قد يكون فيها بعض هؤلاء ، فإن الكثير منهم قد جذبت حياة رجال الأعمال والمال وقد عالج سعد الدين إبراهيم . هذا الجزء من المشكلة في مناقشته لأثر الهجرة على استقرار النظام السياسي في مصر قائلاً :

« إن وجود عناصر المعارضة المصرية في بلدان النفط المجاورة ، يمثل نعمة ونقمة بالنسبة للنظام السياسي فعن ناحية ، يمثل غيابهم عن الساحة المصرية إضعافاً لصفوف المعارضة الداخلية والنظام يرحب بذلك ، اعتقاداً أو أملاً منه أن هؤلاء المعارضين يركزون على « جمع الثروة » بدلاً من « إشعال الثورة » . وقد حدث بالفعل أن بعضهم تحول من مجال السياسة إلى ميدان التجارة والنشاطات المهنية خارج مصر ، إلا أن هناك قلة لا تزال ترفع صوتها بانتقاد (النظام) ، وقد وجدت منفذاً سهلاً لتمرير أفكارها من خلال وسائل الاعلام في البلدان المضيفة^(٤٣) . »

* يقدر حجم العمالة العربية في الكويت بحوالي ٦٠٪ من إجمالي قوة العمل ولي ليبيا ٢٥٪ ، أما في المملكة العربية السعودية فيقدر حجم العمالة الإسلامية العربية وغير العربية بحوالي ٩٠ إلى ٩٥٪ من قوة العمل الوالدة .

(٤٢)

B. S. AL-NAJJAR Op. Cit. P. 24.

(٤٣) سعد الدين إبراهيم ، مصدر سابق ، ص ١٤٧ .

هذا يعني أن الهجرة لبلاد النفط والمال سواء تلك القادمة من الدول العربية كمصر ، العراق والشام واليمن الشمالي والسودان ، أو من الدول الآسيوية الفقيرة كالأندونيسيا وبنغلاديش والفلبين وتايلاند . . الخ قد أزاحت جزءاً من عناصر عدم الاستقرار بتصدير المشكل بعيداً عن الحدود الجغرافية لدول المنشأ .

على صعيد الفرد فإن الهجرة لدول النفط تبدو وكأنها المخرج الوحيد لحل الكثير من الصعاب والمشاكل الشخصية كالزواج مثلاً أو شراء مسكن وتأثيثه . . الخ وقد وجد من دراسة أخرى حديثة أجريت على أساتذة الجامعات السودانية أن أحد أسباب الهجرة بالإضافة لتزدي الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وضيق دائرة التعبير السياسي هو محاولة البعض البحث عن المال في الدول العربية المنتجة للنفط لبناء أو لشراء منزل أو شقة وتأثيثها . ويكاد أن ينطبق هذا على معظم المهاجرين من الدول العربية الأخرى وبالتحديد مصر والأردن وسوريا . . الخ^(٤٤) .



رابعاً - الهجرة في المنطقة العربية : في البحث عن التفسير :

كما هو أوضح من سياق النقاش السابق أن فكرة « سوق العمل » شكلت محور أدبيات الهجرة في المنطقة العربية . فرغم قناعتنا بأهمية هذا المنحى في تفسير المشكل إلا أنه لم يقل على تفسير ظواهر ذات علاقة جدلية بظاهرة الهجرة مثل لماذا وفي هذا الوقت بالذات يتم استثمار جزء من رأس المال الغربي في بعض من أجزاء العالم الثالث رغم الفائض من العمالة ومعدلات البطالة العالية في الغرب . . الخ ؟ كما أنه لم يفسر لنا مثلاً لماذا في الغرب لا يهاجر المال النفطي للاستثمار في دول الفائض البشري في آسيا وأفريقيا . . ؟ أو لماذا تقوم الشركات الغربية العاملة في مصر واليمن وغيرها من دول الفائض البشري العربية بتوظيف عمالة آسيوية رغم توفر عمالة مثلها من الناحية الفنية في هذه الدول . . ؟ فهذه التساؤلات وغيرها الكثير يفسر لنا عجز المداخل غير المستندة للمتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية الفاعلة داخلياً وخارجياً في صناعة المشكل . .

بالإضافة لذلك فإن مفهوم سوق العمل قد يكون أقرب لتفسير الظواهر المثيلة في المجتمعات المتقدمة - حيث تم اشتقاقه نظراً لتوفر المقومات الضرورية لعمل آلياته إلا أن توظيفه لتفسير أوضاع التشغيل ومستواه في الدول العربية وربما في الكثير من دول العالم الثالث ، وفي الكثير من حالاتها غير موفق . فمفهوم الاستخدام يختلف جوهرياً في حالة مجموعتي الدول المتقدمة في مقابل المتخلفة . فهو في الأولى ينصرف إلى العمل لدى الغير بأجر نقدي وفي ظل أنظمة مقننة ومعايير يفرض أنها تستند إلى أسس البيروقراطية الحديثة . أما في مجموعة الدول النامية فتبرز أنماط من العمل والمشاركة قد لا تقوم على أسس العمل المأجور أو أن يكون لها صفة الاستمرارية والانتظام وإنما يعتمد أداء العمل فيها على اندماج الفرد ضمن منظومة عمل الأطر القرابية المألوفة لوسائل الإنتاج الكمال في كنف الأسرة مالكة وسائل الإنتاج في قطاع الزراعة أو الغوص أو الرعي أو الحرف الأسرية الأخرى كالنجارة والحداثة . . الخ إذ يتم إنجاز العمل وتلبية احتياجاته من القوى العاملة ضمن أطر الوحدات القرابية دون أن يتم عرضها في سوق العمل^(٤٥) .

B. S. AL-NAJJAR, Ibid, P. 24.

(٤٤) .

(٤٥) (بل أحد الهجرة ، مصدر سابق ، ص ٢-٣ .

وبالمثل يمكن القول بالنسبة لمفهوم العرض والطلب اللذين يقدمهما المدخل الكلاسيكي الجديد . فمفهوما العرض والطلب لا يتلاءمان مع واقع التشغيل وظروفه في الدول العربية ودول العالم الثالث ذلك أن مفهوم عرض العمل مبني على افتراض الحرية التامة لأفراد قوة العمل في المفاضلة بين العمل والتمتع بأوقات الفراغ في ظل معدل الأجر السائد . أما مفهوم الطلب فهو الآخر يقوم على افتراض حرية الوحدات الاقتصادية القائمة في اختيار الفن الانتاجي المستخدم بها وفقاً للأسعار النسبية لكل من عنصري العمل ورأس المال وبافتراض إمكانية إحلال لا نهاية بينها . وفي الواقع فإننا نجد أن عملية المفاضلة غير قائمة في ظل مجتمعات العمر واليسر على السواء في المنطقة العربية حيث أن الحصول على مطلب أساسي لاستمرارية البقاء . أما من حيث الاختيارات التكنولوجية فالدول العربية كما الدول النامية الأخرى هي مستوردة للفن الانتاجي وغير متبعة له . فننون الإنتاج السائدة تكونت وتشكلت في الدول الصناعية المتقدمة وفقاً لظروفها ومواردها المختلفة عن تلك التي في منظومة دول العالم الثالث^(٤٦) .

وبعيداً عن مقولات المدرسة الكلاسيكية الجديدة والتي لم تخرج في تفسيرها لعملية الهجرة في المنطقة العربية عن متغيرات الجذب والطرود المتناهية في تفسير ظاهرة الهجرة الكلاسيكية لأوروبا وأمريكا . فمتغيرات مثل الحاجة لبناء مسكن أو تآثيثه ، والرغبة في زيادة الدخل ، أو الالتحاق بالعائلة في دول المهجر ، وارتفاع معدلات البطالة والضغط السكاني في الدول المرسله للعمالة وضعف المورد البشري في الدول المستقبلية . . . رغم أهميتها النسبية إلا أن مصداقيتها لا تستقيم إلا في إطار السياق التاريخي ، الاجتماعي والاقتصادي للدول ذات العلاقة بالمشكل وموقعها في السوق الاقتصادي العالمي .

فحركة الهجرة الكبيرة التي اجتاحت المنطقة العربية خلال العقد السابق ٧٣ - ١٩٨٣ لا يستقيم فهمها إلا في ضوء المعطيات الجديدة التي أفرزها الارتفاع الكبير في أسعار النفط خلال الحقبة السابقة ، أي أن مؤشرات الزيادة المطردة في تنقلات العمل بين وإلى المنطقة العربية لم تعد محكومة بمتغيرات عرضية أو وقتية بل هي أساساً مرتبطة بالتغيرات الجوهرية في أجهزة الإنتاج والأهمية النسبية للبلدان المستوردة والمصدرة للعمالة وطبيعة ارتباطها بالسوق الاقتصادي العالمي^(٤٧) .

فالأحداث السياسية والاقتصادية التي عاشت المنطقة العربية غمارها وبالتحديد انقسام دول المنظومة العربية ويفعل عامل النفط إلى دول اليسر مقابل دول العسر وكذا ضغوط القوى القومية وقوى الستينات في مقابل بروز القوى التقليدية والمحافظة قد تزامن وربما ارتبط بالنظام الجديد لتقسيم العمل على الصعيد العالمي ، بعض من شواهد هذا الارتباط المتسق Articulation يمكن تحديدها في طبيعة العلاقة غير العادية التي تطورت بين دول المجموعة الأوروبية وأمريكا والمنطقة العربية . فصادرات أوروبا الغربية للمنطقة العربية ازدادت بشكل كبير خلال العقد المنصرم مقارنة بال عقود السابقة ، حيث ارتفعت صادرات أوروبا الغربية أو المجموعة الاقتصادية الأوروبية للمنطقة العربية ، خصوصاً الدول العربية المنتجة للنفط من ٢١٩٥ مليون Ecu (وحدة التعامل النقدي لدول السوق) عام ١٩٥٨ إلى ٣٢، ١٣٧ مليون (Ecu) عام ١٩٨٠^(٤٨) . بالإضافة إلى ذلك فقد زاد اعتماد المنطقة العربية على الغرب في تلبية

(٤٦) نفس المصدر السابق .

(٤٧) باقر التيجار ، ظروف عمل ومعيشة العمال الأجانب - في نادر فرجاني وآخرين - مصدر سابق . ص ٨٤ .

B. S. AL-NAJJAR Ibid, P. 3.

(٤٨)

الكثير من حاجاتها، وتبرز خطورة هذا الاعتماد في الانكشاف الغذائي للمنطقة العربية للمخارج، إذ ارتفع العجز في الميزان الغذائي من ٨٤٤ مليون دولار عام ١٩٧٣ إلى أكثر من ١٨ مليار دولار عام ١٩٨١. ونشير الأرقام المتوفرة حول هذا الجانب، إلى أن نسبة الاكتفاء الذاتي من الحبوب في الوطن العربي في تدهور متواصل حيث انخفضت من ٦٩٪ خلال الفترة ٧٤-١٩٧٩ إلى ٥٠٪ خلال الفترة ١٩٨٠-١٩٨٢. ويكاد يزداد ذلك في بعض السلع الهامة كالقمح، حيث انخفضت نسبة الاكتفاء الذاتي من القمح من ٤٩٪ خلال الفترة الأولى إلى ٣٥٪ خلال الفترة الثانية. وكذا يمكن القول بالنسبة للاكتفاء الذاتي من اللحم الذي انخفض من ٩٣٪ خلال الفترة الأولى إلى ٦٧٪ خلال الفترة الثانية، ولو جمعنا حجوم وإدرات الوطن العربي من السلاح ومن الغذاء وهما أخطر الميادين المؤثرة على الأمن الشامل لوجدنا أن نسبتها من إجمالي واردات المنطقة في عام ١٩٨٠. تبلغ حوالي ٥٣,٤٪^(٩٩).

أما السمة الأخرى لهذا الارتباط، فهي طبيعة وأسلوب تخصيص allocation المثلثات النفطية في الدول العربية المنتجة للنفط في تشييد الهياكل الأساسية وفي خطط التنمية الطموحة. هذه المشاريع والتي بضخامتها استثمارات كماً هائلاً من العمل الوافد للعمل في قطاعات التشغيل « المستجدة » لاقتصاديات هذه الدول*.

هذه المتغيرات وأخرى اقتصادية واجتماعية تمت الإشارة إلى بعضها خلال العرض السابق هي في الواقع مؤشرات فاعلة للأخطار الجديدة لتراكم رأس المال. بشكل محدد، إنها تتيح له الاستفادة من الفائض العمالي الرخيص في دول الفائض العمالي وكذا توظيف الفائض المالي للدول النفطية ضمن حدودها الجغرافية وبطرق « أكثر انتاجية ». أي أنه في الوقت الذي تواجه رؤوس الأموال الغربية بعض الخطورة في سبل استثماراتها في بعض الدول الآسيوية (شبه القارة الهندية مثلاً) فإن في توظيف الفائض العمالي الآسيوي في مشاريع « التنمية » في الدول العربية النفطية فائدة عظيمة وريحاً مميّزاً. فالمجرة للمنطقة العربية تعتبر المعطى الذي تم في ضوءه ربط أو ارتباط المال النفطي بالتقسيم الجديد للعمل وكذلك بالأخطار الجديدة لتراكم رأس المال. وقد لا تكون مبالغين إذا قلنا أن الهجرة العمالية هي الدعامات التي تم عليها تشكل النظام الجديد لتقسيم العمل وكذا الأخطار الجديدة في عملية تدويل رأس المال خلال النصف الثاني من السبعينات ومطلع الثمانينات^(١٠٠).

وخلاصة القول، فإن الهجرة إلى المنطقة العربية وبالتحديد في حقبتها الآسيوية، وطبيعة البرامج التنموية المقامة بالإضافة للإخفاق الشديد الذي واجهته برامج التنمية في مصر والشام والشمال الأفريقي فضلاً عن التحولات الاجتماعية والاقتصادية التي ضرت بنسيج المجتمع العربي والمتمثل في ضعف المركز التفاوضي العربي قبالة الغرب وضعف قوى التغيير العربية كلها أمور ساعدت على ولوج دول المنظومة العربية بل والكثير من دول العالم الثالث ذات الارتباط المباشر بفعل عامل الهجرة أو غير مباشرة بها بالتقسيم الجديد للعمل على الصعيد العالمي^(١٠١).

* تمت مناقشة هذا الموضوع في أوراق سابقة عديدة أعدها معاليه الدكتور / تاجر فرجاني لهذا الموضوع في كتابه - الهجرة إلى النفط

(٩٩) جلال محمد خالد، - التقسيم الدولي الجديد للعمل واحتمالات التنمية العربية، ورقة مقدمة للمحللة الطاشية التالية، العرب والأزمة الاقتصادية العالمية، المعهد العربي لتنظيم، فبراير ١٩٨٥، ص ٣٧

(١٠٠)

B. S. AL-NAJJAR, Ibid P. 3.

(١٠١) باقر النجار - السبيل العربي، مصدر سابق، ص ١١٥.

مقدمة :

تعتبر الهجرة من القضايا المهمة في الدراسات السكانية والحضرية بالإضافة الى استجواها على حيز كبير من الادبيات المختلفة وتتم الجغرافيا بشكل خاص في قضية الهجرة كأحد المحاور الرئيسية في الحيز السكاني ، فالهجرة تعني بمضمونها البسيط حركة سكانية سواء على المستوى الفردي أم الجماعي من مكان الى آخر وبهذا تحدث تغيرا في التوازن الاقليمي في طريقها ، وفي الاساس فقد تسببت الهجرة في اكتشاف كثير من اجزاء كوكبنا وبالتالي الى اعمارها وتطوره ، ومثلها كانت الهجرة سببا في اعمار كثير من اجزاء الارض وتخفيف العبء عن الارض للمهاجر منها^(١) فانها في وقتنا الحاضر ونتيجة للتزايد الهائل في السكان اضافة الى الفوارق الاقتصادية والفنية والاجتماعية بين بلدان العالم المختلفة ادت الى بروز مشاكل وتعقيدات نتج عنها صدور قوانين وانظمة تتعامل مع الهجرة كاحدى القضايا المهمة بجوانبها المختلفة .^(٢) لقد اصبحت الحركة السكانية عملية سهلة من ناحية ، نظرا للتقدم في وسائل المواصلات والطرق واصبحت معظم اجزاء العالم بين طرفي خطها في متناول الانسان ولم تعد الحواجز الطبيعية تشكل عائقا امام تحرك الانسان من جزء الى آخر . وقد استطاع التطور التقني ان يحل كثيرا من المشكلات الصعبة ويتغلب عليها كما ساعد من جهة اخرى على سهولة التحرك السكاني . فترتب على ذلك بروز مشكلات من نوع آخر وهي مشكلات اجتماعية واقتصادية وسياسية اعطت للهجرة ابعادا جديدة مختلفا عنها في المراحل السابقة ، ان هذه المشاكل وصلت الى درجة التشابك في

الهجرة والهجرة العاكسة نموذج دول الخليج العربية ودول المغرب العربي

عبدالرسول على الموسى

قسم الجغرافيا جامعة الكويت

Wrong, D. H., "Population and Society", Random House, New York, 1969, PP. 87-90.

(١) انظر دراسة آثار هجرة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، إصدار منظمة العمل العربية التي قدمها حافظ شير وجون باركرسون ١٩٨٠ ، كذلك دراسة return Migration to the Maghreb : People and Policies. التي قدمها ريتشارد لوس ، واثن فيلداي والسيدة آن ليدلاي ، إصدار مركز الدراسات العربية لندن ، ١٩٨٢

العلاقات الدولية واهتمامها بها وأصبحت إحدى عناصر العلاقات بين الدول . فقد فرضت طبيعة التعامل بين الدول النظر إلى قضية الهجرة على أنها موضوع رئيسي من منظور سياسي^(٣) .

إن من الأمور المتعلقة في عملية الهجرة فقدان الدول لعدد من سكانها يمثلون مستويات عالية في العلم والخبرة وهو ما يطلق عليه بهجرة العقول وتعتبر الدول النامية - والتي هي في أمس الحاجة إلى مثل هؤلاء - أكثر الدول التي تتعرض للخسارة في هذه الكفاءات البشرية . فالهجرة لم تعد مقصورة على الأفراد الذين يريدون تحسين أوضاعهم المادية أو الحصول على عمل بل أصبحت تتعلق بقضايا الحرية والديمقراطية والحياة الاجتماعية التي تشغل بال الإنسان المتعلم ونتمه ولذلك نجد أن نسبة ملحوظة من الذين يواصلون تعليمهم في الدول المتقدمة يفضلون البقاء ومواصلة حياتهم هناك ، كما أن نسبة من المتعلمين أصبحت تسبب قلقاً للدولتين المهاجر منها والمهاجر إليها . إن الأمور بالنسبة للهجرة أصبحت أكثر تعقيداً لأنها - كما قلنا - أصبحت قضية متعددة الأوجه ولذلك فأننا نجد في الربع الأخير من القرن العشرين أن التكتلات الإقليمية سواء السياسة منها أو الاقتصادية أخذت تؤثر في الهجرة كما حدث للمهاجرين من المغرب العربي في فرنسا بعدما انضمت إسبانيا والبرتغال إلى منظمة السوق الأوروبية المشتركة وحاولت فرنسا استبدال المهاجرين المغاربة بالمهاجرين من الدول الأعضاء في هذه المنظمة . وكذلك الدول العربية مثله في الجامعة العربية ، بدأت تهتم بمنافسة المهاجرين العاملين من آسيا للعمال العرب . وقد أصدرت قرارات هذا الشأن^(٤) . وإذا كان في عصرنا الحديث قد صدرت تنظيمات تتعلق بالهجرة على أساس عنصري مثل اللون « الهجرة البيضاء في استراليا » وعرقى مثل ما حدث في أمريكا وذلك بتوزيع حصص الهجرة على الدول الأوروبية وفي جنوب إفريقيا حفاظاً على النسيج الاجتماعي فإنه نظراً لتطور دور المنظمات العالمية وبخاصة منظمة حقوق الإنسان ، وكذلك نظراً لتشابك العلاقات السياسية والاقتصادية من ناحية وتطور التخطيط من ناحية أخرى ، وهذا التخطيط يهتم بالبنية الاجتماعية والاقتصادية للسكان . والعلاقة بينهما وبين الانتاجية والتطور الاقتصادي فإن هذا كله أدى إلى الاهتمام بعملية التنمية وبالتالي أصبح الاهتمام بخصائص المهاجرين لا حسب اللون والفرق وإنما من حيث كفاءتهم وخبرتهم وقدرتهم على لعب دور إيجابي في عملية التنمية .

إذا فالبنية السكانية مهمة جداً في سلوكيات المجموعات السكانية تجاه كثير من القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية^(٥) . ومنها بدأ اتجاه جديد من قبل الدول المستقبلية للهجرة للتعامل مع المهاجرين مراعية بذلك خصائصهم الاجتماعية والاقتصادية ولذلك نجد فعلاً في الكويت عندما بدأت الهجرة الآسيوية الصغرى تدخل ضمن قائمة المهاجرين ، بدأت معها التحذيرات من قبل كثير من المنظمات والباحثين نظراً للاختلاف بين اللون هؤلاء المهاجرين والمجتمع الكويتي كمجتمع عربي مسلم وبدأت سلبيات هذه الهجرة تبرز مع قصرها الزمني فعملية التنمية في الكويت تحتاج إلى تمكين الكويتيين من الاستفادة من خبرات المهاجرين في العمل وكذلك إلى التقليل قدر الإمكان من التصادم

(٣) زيارة رئيسة وزراء الهند انديرا غاندي إلى دولة الإمارات للبحث في موضوع الإجراءات المتعلقة بالهجرة وكذلك مؤتمر العلاقات بين الجزائر وفرنسا بعد صدور القوانين في فرنسا المتعلقة بالمهاجرين وحركة بعض المهاجرين الجزائريين من فرنسا .

(٤) قرارات وزراء العمل العرب عام ١٩٦٥ ، وعام ١٩٦٨ .

(٥)

Clark, D. "Urban Geography", Croom Helm, London, 1982 PP. 84-86.

الاجتماعي والفكري بين الكويتيين والمهاجرين نظرا لتعدد المائل لجنسيات وثقافات المهاجرين . وعندما جاء الكوريون والفلبينيون فان عامل اللغة اصبح حاجزا يحول دون استفاد العمالة الكويتية من خبراتهم ، كذلك فان الاختلاف العميق في سلوكيات هؤلاء المهاجرين ادى الى عزلة عميقة ليس بين هؤلاء المهاجرين وبين الكويتيين فحسب وانما بينهم وبين بقية المهاجرين وتعاني بريطانيا كذلك من هجرة الآسيويين للسبب نفسه فمثلا وجد أن الحاجز اللغوي ادى الى التقليل من عطاء الاطباء الآسيويين وانخفاض مستوى الاداء عندهم . ولا يقتصر هذا السلوك على الدول المستقبلة للهجرة او مجتمعاتها بل انه ينسحب على المهاجرين انفسهم الذين يضعون نصب اعينهم كثيرا من القضايا التي تحدد جهة الهجرة ومعطياتها^(٦) فالمهاجر ايضا يحدد جهة هجرته في ضوء معلومات عن هذه الجهة واختيار المهاجر لبلد معين يعتمد على المعلومات التي يحصل عليها عن هذا البلد من خلال ما اذا كان هذا البلد يحقق طموحاته ورغباته ام لا .

ولكن تبرز مشكلة اجتماعية واحدة تقضي على هذا القرار كان يكون المهاجر ايا لعدد من الالات قد لاتنق تربيتهم وعاداتهم وتقاليدهم مع ذلك البلد النوى الهجرة اليه وبذلك يقف ذلك حجر عثرة امام تنفيذ قراره .

اذا فالمهجرة قضية متشعبة تحيط بها كثير من العناصر التي تؤثر في طرقي خط الهجرة ومعطياتها ، وهي ليست قضية تهتم بالكلم وانما الاهمية تأتي في الكيف واذا كان الكم يسبب في الكيف فان القضية نسبية فهي تتعلق بالمحطات وخطوطها والهجرة وصلت ابعادها الى خط الخطر عندما بدأت الاصوات ترتفع لتطالب باعادة توزيع سكان العالم وحق الانسان في التحرك والى المشاركة في ثروات المجتمعات واذا كانت بعض هذه الاصوات هي باطل اريد به حق فان مآثره من اتفاقات بين كثير من الدول فيما يتعلق بالهجرة تقرر حرية السكان فيما بينا وقوانين ونظم حقوق هؤلاء المهاجرين كل ذلك يقرر مدى اهمية الهجرة .

وقد تصل خطورة الهجرة ذروتها وتعقيداتا عندما تنصف بالهجرة الظالمة التي هدفها احلال مجموعة من المهاجرين مكان شعب عريق كما حصل في فلسطين او تغير البنية السكانية سواء اكانت بنية عرقية ام ثقافية كما حصل في بعض المناطق اما الخط الثاني للهجرة وهو ما يسمى الهجرة المعاكسة فهذا موضوع يحيط به كثير من الغموض والصعوبات ولم يحظ بدراسات وبحوث كما حظيت دراسات الهجرة .

وحتى المسمى اختلف عليه كثير من الباحثين ، فاحيانا يطلق عليها الهجرة المعاكسة واحيانا هجرة العودة وهاتان التسميتان لثقتي عندها ما كتب باللغة العربية والانجليزية وهما Return Migration ويختلف هذان المسميان في المفهوم ايضا فقد تكون الهجرة المعاكسة حركة معاكسة لمحطة الوصول ، متجهة لها او خارجة منها الى اى جهة سواء الى الوطن ام الى اى جهة اخرى ، وقد تكون مسمى هجرة العودة هي فقط العودة الى الوطن الام .

ومثلا تختلف اهداف ومسببات الهجرة تختلف ايضا اهداف ومسببات الهجرة المعاكسة او العودة ، فقد تكون هذه الهجرة نتيجة لقرار ترحيل المهاجرين كما حدث في السنوات الاخيرة في اوغندا ونيجييريا والعراق نتيجة لقرارات اقتصادية او تنظيمية وكما حدث في فرنسا وفي الكويت او نتيجة لانخفاض فرص العمل ونفشي البطالة . والهجرة المعاكسة قد تثير قضايا اكثر من الهجرة في خطها الاول لانه قد تثير قضايا اقتصادية مثل عودة المهاجرين الى بلدانهم وما

(٦) منظمة العمل العربية ، مكتب العمل العربي ، اتفاق هجرة عمالة المغرب العربي الى بلدان الخليج العربي ، ١٩٨٠ ، ص ١٥ - ٢٠ .

يترتب على ذلك من بظالة وانخفاض في مستوى المعيشة وانهالك للاقتصاد الوطني كما حدث في تونس نتيجة لعودة مواطنيها من فرنسا وليبيا وقد تسببت الهجرة المعاكسة اي العودة الى الوطن الام في مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية نتيجة للفروقات الاقتصادية التي تحدث بين المجتمع الاصلي والعائدين من مجتمعات تختلف في مستوى المعيشة وسلوكياتها وما اكتسبوا من انماط الاستهلاك والقيم الاجتماعية^(٧) فضلا على انها قد تؤثر على الاقتصاد الوطني في البلد المستقل لها . فالمهاجرون قد يقبلون بأجور منخفضة ويقبلون على اعمال لا يقبل عليها المواطنون وكذلك يؤثرون في القوة الشرائية وقضايا اخرى مثل الاسكان والمرافق الاخرى . وتواجه قضية الهجرة المعاكسة من الناحية العلمية ومشكلة صعوبة قياسها وتتبعها في محطاتها المختلفة لظروفها المتعددة . فقد تفرض ظروف معينة على الانسان المهاجر من وطنه الى بلد آخر فتتمد الاقامة به مدة طويلة تصل الى عشرين او ثلاثين سنة وهذه المدة كفيلة بان ترسخ جذورا اجتماعية في هذه الارض الجديدة ، عندما يولد وترعرع ابنائه ويكتسبون عادات وتقاليدهم الجديد ، وتختلف المفاهيم النفسية والاجتماعية والسياسية عن بلدهم الاصلي^(٨) . فيصعب التفكير في العودة الى البلد الام ولا يؤدي هذا بالضرورة الى نزوح جيله الاصلي واكتساب جيل جديد وبخاصة اذا كان سكان هذا البلد يختلفون عنه عرقيا وتظل ملامحه تشكل حاجزا نفسيا بل وتؤدي الى تفرقة في التعامل ومع ذلك فان خطط الهجرة المعاكسة يظل مفتوحا ، اذا كان ذلك بالاختيار ، للجيل الاول وكذلك للاجيال التالية عندما يبلغ المهاجر سنا لا تعد فيها العناصر التي ذكرناها قبل قليل فاعلة .

هدف ومنهج الدراسة :

تهدف هذه الدراسة الى الفاء الضوء على الهجرة بخطها حركة سكانية مستمرة والتعرف على العوامل التي تلعب دورا فيها حتى يمكننا التعرف على الافرازات المختلفة للهجرة .

ولتحقيق هذه الاهداف ، فان الدراسة ناقشت هذا الموضوع في اطار شمولي للتعرف على الحركات السكانية الرئيسية والتي تركت بصمات واضحة في مناطق جغرافية مختلفة في تاريخنا المعاصر ولقد اختارت الدراسة منطقتين جغرافيتين تمثلان نوعي الهجرة المختارة للدراسة وهي دول الخليج العربية التي تمثل حالتها الهجرة ودول المغرب العربي والتي تمثل حالة الهجرة المعاكسة ثم اختارت الهجرة نموذجها محدودا هجرة نوعية معينة من السكان وهي ما تسمى بهجرة العقول .

ولقد اختارت الدراسة الفترة الزمنية الحديثة في دراسة الحالات ، هذه الهجرة التي مازالت تتفاعل وتعتبر نموذجا لتأثير الحركة السكانية في تشكيل كثير من الملامح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية .

ففي حالة دول الخليج العربية سوف تكون مجال الدراسة هي الفترة التي حدثت معها هجرة اثيرت كثيرا في ملامح مجتمعات هذه الدول وهي الهجرة التي اعقبت استقلال عوائل النفط في تحديث هذه الدول ، اما حالة المغرب العربي

(٧) : سعد شمين إبراهيم ، التعليم الاجتماعي العربي الحديث ، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، ١٩٨٢ ، ١٣٥ - ١٤٦ .

Al-Moosa, A., "Stability of the foreign labour force in Kuwait." The Arab Gulf Journal, London 6, No. 2, April (١٩) 1986, P. 55.

فالهجرة المعاكسة بتأثيرها الواضح لم تحدث الا في السنوات الاخيرة وبالذات في اعقاب استقلال دول المغرب العربي عن دول اوروبا المستوردة . للمهاجرين منها . والذي تزامن مع المشكلات الاقتصادية التي واجهتها اوروبا بعد الحرب العالمية الثانية .

الهجرة منظور عالمي :

شهد القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تحركات سكانية غير مفيدة وكانت معظم هذه التحركات باتجاه ارض جديدة مكتشفة بما كان يسمى بالعالم الجديد . وبالطبع نتيجة للعامل الجغرافي ، عامل المساحة الذي كان يلعب دورا حاسما في عملية التحرك نظرا لبساطة وسائل المواصلات وبدائية الطرق ومن ناحية اخرى يرجع الى الحالة السياسية والاقتصادية للمناطق المختلفة في العالم . ففي ذلك الوقت كانت اوروبا تشهد حروبا متواصلة وصراعات بين المجموعات البشرية سواء على اراضيها داخل القارة الاوروبية ام على اراض غيرهما عبر المحيطات ولما كان عامل المساحة مهما وكذلك مستوى وسائل النقل ، فقد اتجه الاوروبيون الى القارة الامريكية وحذت تحركات سكانية وهجرات جماعية ، ولقد وصلت الهجرة الى ذروتها في بداية القرن التاسع عشر فقد توجه ما يقارب من « ٥٧ » مليون مهاجر الى هذه القارة منهم حوالي ٣٠ مليون توجهوا الى ما يسمى الآن بالولايات المتحدة الامريكية . ولقد دخل الولايات المتحدة في فترة زمنية قياسية ما بين ١٩٠١ و ١٩١٠ حوالي تسعة ملايين مهاجر ولقد سبق ودخلتها ثاني أكبر هجرة في فترة قصيرة وهي ما بين ١٨٨١ و ١٨٩٠ وكانت حوالي خمسة ملايين مهاجر وكان حوالي ٨٥٪ من هؤلاء قد قدموا من اوروبا^(٩) وتأتي هذه الهجرة الجماعية نتيجة للفرص الاقتصادية الهائلة في الاراضي الجديدة وتطلع الاوروبيين الى نقل الاقتصاد الصناعي الى تلك الاراضي فمن هنا يمكن القول ان هذه الهجرة كانت بفعل عامل الجذب اكثر منها بفعل عامل الطرد^(١٠) مع عدم التقليل من اهميتها ، ونجد ان هذه الهجرة قد اثمرت حيث ان امريكا الشمالية بدولتها الرئيسية الولايات المتحدة الامريكية وبعد الهجرة الاوروبية الكبرى اليها أصبحت تعتبران من الدول المتقدمة ومن قوى الدول اقتصاديا لما تتمتعان به من امكانيات اقتصادية اثرت بشكل خاص في الولايات المتحدة كأحدى أكبر قوتين في العالم .

اما البيئة فلها تأثير كبير على تحرك السكان فقد دفع التغير البيئي السكان الى تغيير مكان استقرارهم بل وتغيير نشاطهم الاقتصادي مثلما حدث في ايرلندا في الاربعينات من القرن التاسع عشر وذلك بعد النكسة في محصول البطاطا والذي تسبب في ايجاد بطالة هائلة في ايرلندا مما دفع جزءا من سكانها الى الهجرة وكما حدث - أيضا - في الولايات المتحدة في الثلاثينات من القرن التاسع عشر عندما تعرضت التربة في المناطق العربية الوسطى فيها للجفاف نتيجة لسوء استغلالها من قبل المزارعين وأدى ذلك الى تعريضها للنقل بواسطة الرياح وكما تسمى بوعاء الرمل SAND BAG تلك التي أثرت على مناطق مختلفة نتيجة لهبوب الرياح المحملة بالترربة ونتيجة لذلك فقد حدثت هجرة لكثير من تلك المناطق الى مناطق اخرى في الولايات المتحدة^(١١) . ولعب التغير البيئي دورا في هجرة عدد كبير من قرى أهل النوبة التي

Wrong, D. H., 1969, P. 37.

Ibid, P. 89.

Johnes, E., and Eyles, J. "An introduction to Social Geography", Oxford University Press, Oxford, 1977, P. (١١)

كانت تقع بالقرب من بحيرة ناصر نتيجة لتحويل مجرى نهر النيل وإقامة السد العالي في مصر ومع ان هذه الهجرة قد تقع تحت مظلة الهجرة القسرية في أوقات السلم^(١٢) وذلك نتيجة لاتفاق حدث بين السودان ومصر بتهجير هؤلاء السكان انما كان في الاساس نتيجة لتغير بيئي وحتى لو لم يحدث اتفاق التهجير فان السكان سوف يهاجرون من تلك المناطق لان تحويل مجرى النهر وانشاء بحيرة ناصر أدّى الى غمر مناطق هؤلاء السكان بالمياه .

خلال الحربين العالميتين الاولى والثانية حدث تحرك سكاني ضخم ، فقد انتقل تحت التهديد والقهر والارهاب حوالي ستة ملايين شخص في الحرب العالمية الاولى وكذلك نفس الرقم تقريبا في الحرب العالمية الثانية الى مناطق غير مناطقهم الاصلية وبذلك حدثت هجرة قسرية تغير على اثرها التركيب السكاني اجتماعيا وديمقراطيا في اقاليم مختلفة في اوروبا .^(١٣)

وقد تحدثت هجرة « سياسية » وقد تسمى بحركة الحدود ، وهي تعني تبادل السكان بين الدول في المناطق التي تحدث فيها تغيرات جغرافية سياسية ونتيجة لذلك بقيت اقليات سكانية لتواجه صعوبات سياسية واجتماعية كما حدث هذا في الهند وباكستان عندما تم نقل حوالي ستة ملايين هندوسي الى الهند ومثل عددهم من المسلمين الى باكستان . وكما حدث بين اليونان وتركيا عندما تبادل السكان بعد حرب ١٩٢١ بين الدولتين فقد انتقل ثلاثمائة الف تركي الى تركيا ومليون ومائتي الف يوناني الى اليونان . ولا يمكن ان نقول انه كان هناك خيار لهؤلاء السكان في البقاء او الانتقال نظرا لانهم قاموا بهذا التحرك نتيجة لاتفاق بين الدول المعنية^(١٤) ولسنوات قليلة مضت حدث تحرك سكاني قسري عندما امرت السلطات في اوغندة جميع الاسويين الذين يحملون جوازات بريطانية بمغادرة اوغندة وكذلك من الذين لا يحملون الجنسية الاوغندية وكانت هجرة بالالاف وقد احدث ذلك ردود فعل عالمية .

اما الهجرة البشرية الحديثة التي تعتبر من أشنع انواع القسر هو ما حدث للفلسطينيين في بلدهم عندما قام الكيان الصهيوني على انقاض دولة فلسطين وحلت مجموعات بشرية من مختلف الجنسيات لا يجمعها الا الدين ، محل شعب تجمعه اصالة الموطن وحدث ذلك عام ١٩٤٨ فشرّد حوالي مليون فلسطيني من بلدهم وانتشروا في مناطق مختلفة في العالم مع تركّز جزء كبير منهم في بعض الدول العربية .^(١٥)

وقد تحدثت هجرة خارجية ولكنها تكون نتيجة لعوامل خارجية ، وذلك عندما تتعرض مناطق او مدن حدودية او استراتيجية للاحتلال الاجنبي او اضمحلال الأوضاع الاقتصادية نتيجة للحرب وتأثيرها على المناطق الاقتصادية كما حدث في جمهورية مصر العربية بعد قيام حرب سنة ١٩٦٧ فاحتلت سيناء واغلقت قناة السويس وتعرضت مدنها وموانئها كبورسعيد والسويس لخطر تلك الحرب وادى ذلك الى حدوث هجرة ضخمة من هذه المناطق الى القاهرة وإلى مدن اخرى مصرية .

(١٢) اسحق الطبق وعدد الآله أبو عايش . الاجتماعات الماسرة في الدراسات الجغرافية ، وكالة المطبوعات ١٩٨٠ ، الكويت ، ص ١٩٨ .

Johnes, E., and Eyles, J. 1977, P. 187.

Ibid, P. 187.

(١٣)

(١٤)

(١٥) اسحق الطبق وعدد الآله ، أبو عايش ، ١٩٨٠ ، ص ١٩٨ .

ونتيجة للعنف تحدث هجرة من المناطق التي تتعرض للقصف وقد تتأثر دول بالكامل بالهجرة عندما تتعرض هذه الدول للعنف مثلاً حدث للبنان عندما تعرض لحرب أهلية يصعب حتى الآن إضفاء أية صفة على هذه الحرب لأن عوامل كثيرة تشابكت في النهاية لتغطي صفحة واحدة عامة وهي عنف بلا هووية وقد أدى هذا العنف إلى هجرة اللبنانيين من وطنهم ومن الصعب تحديد اتجاهات الهجرة لأن اللبنانيين انتشروا في جهات متعددة .

وهناك هجرات تحدث نتيجة لازدهار اقتصادي وتوفر فرص عمل في مناطق مختلفة فتحدث انقلاباً اقتصادياً واجتماعياً في هذه المناطق .

ولقد تعرضت منطقة الخليج لهجرة كبيرة في فترة متباعدة من الزمن مقارنة بين حجم الهجرة وعدد السكان الوطنيين وكان دافع هذه الهجرة توفر فرص عمل كبيرة نتيجة لاكتشاف النفط واستغلال عوائده في تحديث دول الخليج العربية ونتيجة للقصور الكمي والنوعي الذي يعانيه السكان في مواجهة المستجدات في الحالات الاقتصادية والعمرائية . ولقد أدت هذه الهجرة إلى قلب الميزان السكاني وتحول السكان الوطنيين في فترة زمنية وجيزة إلى أقلية في بلدانهم ولم تقتصر مصادر هذه الهجرة على مصدر واحد أو عدد قليل وإنما جاءت من مصادر كبيرة العدد وصلت إلى مائة جنسية . وبما أن العمل هو الدافع الرئيسي لهذه الهجرة ، فقد تفوقت العمالة الوافدة على الوطنية إلى أن وصلت العمالة الوطنية في بعض دول الخليج العربية إلى أقل من ١٠٪ ، ولقد وصلت في الكويت عام ١٩٨٥ إلى حوالي ٢٢٪ ، وتغلغلت العمالة الوافدة في كل قطاع من قطاعات العمل وكثيراً ما ترتبط الهجرة بالمستوى الاقتصادي للدول المهاجرة منها أي الهجرة من الدول الفقيرة إلى الدول الغنية . وقد يكون هذا صحيحاً بشكل عام ، ولكن عندما نتعالج القضية بنفاصل أدق نجد أن أهداف الهجرة قد تدخل في تحديد المناطق المهاجرة منها بل والمهاجر إليها .

ولذلك فإن الهجرة من الدول الأوروبية كانت تشكل تقليلاً من العبء السكاني على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت هذه الهجرات تلعب دوراً في السيطرة على أراضٍ جديدة وإنشاء مجتمعات أوروبية في تلك الأراضي في الوقت الذي كانت الهجرة من الدول والقارات الأخرى ، نتيجة لضالة نسبتها إلى السكان في تلك الدول لا تشكل تحدياً على الموارد المحلية في نفس الوقت الذي كانت تقوم بأدوار ضئيلة في الدول المهاجرة لها فالمهاجرون الأوروبيون كما قلنا قاموا بأدوار كبيرة حيث أنهم بالإضافة إلى السيطرة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية على المناطق المهاجرة إليها وبخاصة أمريكا وأستراليا وأفريقيا ، أقاموا أنظمة اقتصادية امتداداً للاقتصاد الأوروبي . ولإيمانكم كما أشرنا قبل قليل انكار الدور الذي لعبته الهجرة من أوروبا في حل المشكلة السكانية التي برزت عن طريق الزيادة السكانية السريعة وعجز الموارد الاقتصادية المحلية بالمقابل .

في الدول الأخرى كان العامل الإيجابي على المدى القصير هو في التحويلات النقدية التي يرسلها المهاجرون إلى بلدانهم والتي بلا شك لعبت دوراً في اقتصادياتها^(١٦) وقد قدرت تحويلات الدول النامية لعام ١٩٨٢ بحوالي ٢٨ مليون دولار وهذا ما جعلها قادرة على زيادة الاستيراد مما وضعها ضمن إطار مشكلة الميزان التجاري لهذه الدول ، هذا على

Burkl, S., J., "International Migration Implications for Labour Exporting Countries" The Middle East Journal, (١٩٨٢) Vol. 38, No. 4 1984, P. 671.

مستوى الدول اما على مستوى الافراد فان هذا يبدو واضحا في التمايز الجغرافي بين مدن هذه الدول حيث تتميز المدن او المناطق التي تصدر المهاجرين عن المدن او تلك المناطق التي ليس لها مهاجرون من الخارج^(١٧) .

هذه الهجرات بانواعها المختلفة وبسبباتها واجهت اجراءات وسياسات لتنظيمها او لتحجيمها او لوقفها ، فالهجرة سواء اكانت داخلية ام خارجية فان لها آثارا لا يمكن اغفالها وتركها بلا ضوابط وان ما يعاينه العالم اليوم من عملية التحضر ويزور « الكيانات الحضرية » وما تسببه من تعقيد للحياة خلق للانسان مشكلات كلفته ثمنا غالبا وهو حياته النفسية اضافة الى حياته الجسمية فتكون المدن وتوسيعها وسيطرة الحياة الحضرية جاءت لاسباب في مقدمتها الهجرة من الريف الى المدن والتحول نحو الصناعة التي وجد فيها الانسان منسعا للخروج من مشاكله ثم انقلبت عليه وبلا كما ان التحرك المستمر للسكان من منطقة الى اخرى خلق مشكلات اجتماعية واقتصادية رهبة عند تأثيرها على المجموعتين المحلية والمهاجرة وتكون النتيجة تغيرات في احدى المجموعتين او ازدواجية اوحى تعددية في المجتمع . فالهجرة ليست قضية ترتبط بالارقام كعدد السكان المهاجرين وعدد المجموعات المهاجرة من المناطق المختلفة ، وكذلك مثل عدد الذكور وعدد الاناث والمجموعة الفاعلة اقتصاديا والصغيرة او الكبيرة وليست ايضا عدد العائدين ولكن الهجرة تتكون من أكبر من هذه العناصر الرقمية انها تدخل في القضايا الاجتماعية والاقتصادية وما يطلق عليه في الجغرافيا بالمشاكل الحضرية والتي تنتج عن تفاعلات اجتماعية واقتصادية في بقعة جغرافية معينة ، وهي المدينة وتلاحظ هنا في هذا الصدد ان الهجرة غالبا ما تحدث في المدن . سواء اكانت الهجرة داخلية يتحرك السكان من الريف الى المدن ام من المناطق الفقيرة الى تلك الغنية او الهجرة الخارجية والتي تصب دائما في المدن حيث المزيد من الحاجة الى الايدي العاملة والى المغريات التي تتميز بها المدينة وحيث القبول الاجتماعي للمهاجر والذي لا يجده بسهولة في المناطق الريفية . وبذلك أصبحت المشاكل الاجتماعية والاقتصادية تأخذ اتجاهات خطيرة في حياة الانسان . ان تطور الحياة الحضرية جعل السكان يتجهون للمدن ويتركزون بها ، ولتصور تجمع مجموعات مختلفة الاتجاهات اجتماعيا اقتصاديا وسياسيا في بقعة محدودة من الأرض تتنافس هذه المجموعات على الأرض والعمل والخدمات . ان توجه الانسان للحياة الحضرية يسير بسرعة هائلة وهذه السرعة المرتبطة بالحجم الكبير للمجموعات المتحركة لا يمكن ان تعطي فرصة للمنظمات الرسمية والاهلية لمواجهتها فتزداد المشكلات .

يعزى تزايد سكان المناطق الحضرية بالمعدلات العالية الى الهجرة من الريف الى المدن اضافة الى تقدم وتطور العلوم الطبية وتزايد الاهتمام الصحي بالانسان في هذه المناطق وينطبق هذا بشكل واضح على الدول النامية حيث الفروقات بين المناطق الحضرية والمناطق الريفية والتي تستهل بعوامل الطرد من المناطق الريفية وعوامل الجذب في المناطق الحضرية وتساهم الهجرة من الريف الى المدن بنسبة تتراوح ما بين ٥٠٪ - ٧٦٪ من النمو السكاني في المناطق الحضرية الكبيرة في معظم الدول النامية^(١٨) ويوضح الجدول رقم (١) ان الهجرة من الريف الى المدن ما زالت تلعب دورا مهما في النمو الحضري .

(١٧)

Ibid, PP. 671-675.

(١٨)

Mubogunje, A., "The Development Process" : Hutchison University Library for Africa, London, 1980, P. 177.

نسبة الهجرة من الريف الى الحضر في النمو الحضري ١٩٥٠ - ١٩٩٠

	١٩٨٠ - ١٩٩٠	١٩٧٠ - ١٩٧٥	١٩٥٠ - ١٩٦٠	
العالم	٣٣٠,٠	٣٢,٥	٤٨,٧	
الدول المتقدمة	٤٩,٧	٤٦,٢	٤٨,٨	
الدول النامية	٤٢,٢	٤٢,٠	٥٩,٣	

المصدر : MABOGUNJE, A., "THE DEVELOPMENT PROCESS": HUTCHISON UNIVERSITY LIBRARY FOR AFRICA? LONDON, 1980 TABLE NO. 17

ان التزايد السكاني في المناطق الحضرية يعني اضافة الى النمو السكاني الطبيعي والهجرة تلعب دورا في تطور المراكز الحضرية ، والنمو الحضري يعني مزيدا من المشكلات الاجتماعية والاقتصادية . فالمؤسسة الأساسية في التركيبة الاجتماعية هي الأسرة تتعرض للتغير وإعادة تركيب بيئتها ، كما ان البيئة الاجتماعية للسكان تتعرض للتغير . كما ان الخصائص الاجتماعية والاقتصادية للسكان يعاد صياغتها في داخل الاطار الحضري .^(١٩)

وتلعب التقنية والتطور في الأدوات المستخدمة في الانتاجية دورا في هذا المجال ، ففي الولايات المتحدة تطورت الهجرة من الريف الى المدن الى درجة كبيرة نتيجة للتطور في الاساليب التكنولوجية في الزراعة والتي أدت الى أن ١٠٪ من سكان الولايات المتحدة ينتجون غذاء لبقية السكان (٩٠٪) بل ويصدرون الفائض الى الخارج . ولهذا نجد أن المناطق الحضرية اتسعت وتطورت وكان ٥٪ من الأمريكيين يعيشون في المدن عام ١٧٩٠ فقفزت هذه النسبة الى مستوى عال في عام ١٩٦٠ وقد أشارت الاحصاءات الى أن ٧٠٪ من الأمريكيين يعيشون في المناطق الحضرية^(٢٠) .

ولذلك فالهجرة ليست قضية ديمغرافية أو حركة سكانية ترتبط بالمسافة أو المساحة المكانية ولكنها أيضا قضية لها مضامين اجتماعية واقتصادية وسياسية فوجود مجموعات سكانية تحمل معها مختلف العادات والتقاليد سواء تجاه العمل أم تجاه السكن أو تجاه العلاقات الانسانية أو في سلوكياتها الاقتصادية والمعيشية سوف يؤدي الى تصادم اجتماعي واقتصادي وسياسي ، وليس بالضرورة أن تكون النتيجة هي عملية الاستيعاب من قبل المجتمع المستقر للمجموعات المهاجرة أو العكس^(٢١) فهذا يعتمد على طبيعة المؤسسات التي تحكم المجتمع المستقبل للهجرة فإذا كانت هذه المؤسسات تعني للمهاجر الاسلوب الذي يبحث عنه ، وتأتي في المقدمة مقارنة لما يتميز به مجتمعه الاصلي ، فتأتي كحل ثم كان يراوده .

وقد تكون هناك قضايا فردية ولكنها في تراكماتها الزمنية تصبح المجاهدا عاما في سلوكيات المهاجر وترتيبه للأفضلية أمور حياته ، فقد يهاجر الانسان الى مجتمع يختلف عن مجتمعه اجتماعيا وثقافيا ودنيا ، فإذا كان مثلا في فترة سابقة لم يكون أسرة فقد تستلهم طريقة التربية وتحديد المستقبل مع عادات واتجاهات ذلك المجتمع ، ففي فترة لاحقة عندما

Clark, D., H., 1982, PP. 73-67.

(١٩)

Wrang, D., H., 1969, PP. 95-97.

(٢٠)

Johnes, E., and Eyles, J., 1977, P. 196.

(٢١)

تكون أسرة فإن هذا الانسان يجد أن استمراره يصطدم بتلك القيم والعادات والاتجاهات فيبحث عن محطة أخرى تتناسب مع المكونات الاجتماعية والثقافية وغيرها .

ولذلك فإن خطوط الهجرة قد تتقاطع بمحطات ترتبط بعوامل متغيرة ومتجددة هذه العوامل لا ترتبط بطرف معين بل انها تأتي من أكثر من طرف في قضية الهجرة . فكما قلنا قد تكون هذه العوامل نتيجة لتغيرات في تركيب الأسرة من حيث العدد أو من حيث التركيب النوعي ، فمثلا وجود الاناث في الأسرة يلعب دورا يختلف عن وجود الذكور وهذا قد يرتبط بالقيم والعادات من مجتمع الى مجتمع . وقد تكون التغيرات في بلد المهجر اذا استحدثت عوامل مثل سن تشريعات وأنظمة تتعلق بالمهاجرين تؤثر في بقاء أو تحرك هؤلاء المهاجرين . ولقد شهد التاريخ تغييرات في التعامل مع الهجرة . هذه التغيرات تنطلق من التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية .

ففي بعض الدول التي تعرضت لهجرات واسعة تعاملت في مرحلة معينة مع المهاجرين على أساس فخصصت لكل جنسية نسبة معينة من المهاجرين تستقبلهم سنويا وقد استخدمت الولايات المتحدة هذا النظام عام ١٩٢٢ . ولكن في مرحلة أخرى تالية دعت أسباب الى تغيير هذه السياسة الى نظام آخر وهو انتقاء الشخص أي حاجة البلاد الى كفاءات ومهارات وخبرات معينة بغض النظر عن جنسية هذا المهاجر وإن لم يكن هذا بشكل مطلق ، وكانت الأسباب وراء ذلك دراسات وبحوث قادت الى الانتباه الى القضايا الاجتماعية المهمة مثل القضايا العنصرية والتغيرات في البيئة الاانية للمجتمع حتى لا تطفئ مجموعة معينة على بقية المجموعات . وكان الصراع العقائدي بين بعض الدول وظهور الايدولوجية الشيوعية و بروز النظام الالاني في عهد هتلر وما أدى اليه من التعصب لعرقية معينة ، كل ذلك انعكس على سياسة الهجرة الى الولايات المتحدة وغيرها من الدول المستقبلية للهجرة بأحجام كبيرة ، أما في المرحلة الحالية فإن الهجرة بشكل عام تتحكم فيها فرص العمل وارتفاع الأجور من ناحية ومن ناحية أخرى فإن الدول المستقبلية للهجرة تفتح المجال للمهاجرين بقصد سد النقص في عمالتها الوطنية وتطوير اقتصادها واعمار أراضيها ورفع مستوى تقيتها .

ولذلك فإن سياسة الهجرة مبنية على نظام يربط بين هجرة وبين حاجة هذه الدول لقوى عاملة معينة .

ومن هنا فقد أصبح موضوع الهجرة يدخل في خطط التنمية للبلدان التي تتعامل معها سواء أكانت باعثة أم مستقبلية . وهذه الخطط لا تقتصر على حجم العمالة وتوزيعها على الأنشطة الاقتصادية المختلفة ، بل انها تدخل في الأبواب الاقتصادية للخطة من حيث الأخذ بعين الاعتبار الموائد النقدية التي يوردها المهاجرون الى دولهم . ففي جمهورية مصر العربية قدرت عوائد المهاجرين سنة ١٩٧٨ بما يعادل دخل قناة السويس اضافة الى عوائد القطن .

وفي لبنان قبل الحرب الاهلية ، كانت هجرة المغتربين تعتبر من المصادر الرئيسية للاقتصاد اللبناني وفي الفلبين تعتبر عوائد العمالة الفلبينية في الخارج مصدرا رئيسيا للدخل القومي للدولة ولهذا فإن نظاما جديدا طرأ على الهجرة من حيث التنظيم وذلك عن طريق الاتفاقيات الرسمية بين الدول لتصدير العمالة وما تتضمنه هذه الاتفاقيات من نظم لأجور القوى العاملة وتنظيم تحويل جزء من دخولهم الى بلدانهم فالهجرة اذا أصبحت تأخذ أبعادا قانونية واجتماعية وسياسية واقتصادية ولم تعد قضية تحرك سكاني ومشاكل ديمغرافية وخصائص تتعلق ببيئتهم الاجتماعية فقط .

الهجرة الى دول الخليج العربية :

الهجرة الى دول الخليج العربية تعتبر نموذجاً للهجرات في عالمنا المعاصر وتعتبر مجالاً خصباً للدراسة والبحث . فدول الخليج العربية مع انها جزء من أقدم مناطق الاستقرار في العالم الا أنها تعتبر من حيث التكوين السياسي والاجتماعي والاقتصادي حديثة فالكويت والتي تعتبر من أوائل دول الخليج في تعرضها للهجرة الحديثة ، بدأ قيامها السياسي يدخل التاريخ السياسي العالمي في ١٧٦٥ .^(٢٢)

ولقد أصبحت دول الخليج العربية محط الأنظار من قبل المهاجرين بعد اكتشاف النفط واستغلال عوائده في بناء الدولة الحديثة ، ليس من الناحية الاقتصادية والسياسية فحسب وإنما في بناء دولة حديثة وتأسيس الهيكل التنموي وارساء دعائم الخدمات الأساسية الاجتماعية وكانت المشكلة التي واجهتها هذه الدول هي أن عملية الهجرة كانت فوق طاقتها السكانية سواء من حيث الكم أو الكيف بشكل ظاهر وكانت الرغبة في القيام بهذه العملية بفترة قصيرة من الوقت سببا في فتح حدود هذه الدول للهجرة بدون أية قيود ولم تستخدم الطريق والأنظمة والتشريعات التي استخدمتها مختلف الدول على طول مراحل زمنية متعددة .

وكان الافتقار الى المؤسسات الادارية والتشريعية والفنية في بداية الأمر سببا في تعرض البلاد لتدفق المهاجرين بأعداد كبيرة في فترات زمنية قصيرة .^(٢٣)

ولقد تزامنت الهجرة مع تغيرات اجتماعية واقتصادية للسكان الوطنيين مما أضاف فرصا للحاجة الى المهاجرين كالتحول الاجتماعي الخطير الذي تعرض له السكان المحليون من تغير في البنية الاجتماعية وبخاصة في الأسرة والتركيب السكاني بشكل عام .

كذلك تعرض السكان لما نستطيع أن نطلق عليه عملية التحضر السريعة والمعقدة لمجتمع بسيط قليل العدد كل ذلك أضاف بعدا مهما للهجرة .^(٢٤)

ونمثل الكويت ودول الخليج العربية الأخرى كلها للمهاجرين في بداية الهجرة مثل ما كانت تمثله المناطق المكتشفة في غرب الولايات المتحدة عند اكتشاف الثروات المعدنية . والفارق طبعا أن دول الخليج العربية ذات كيانات اجتماعية وسياسية . فقد توفرت فرص للعمل بشكل غير محدود للمهاجرين في كل درجات السلم المهني . بل أكثر من ذلك سيطر المهاجرون على النشاطات الاقتصادية التي كان يمارسها المواطنون بأسلوب بسيط تقليدي وطورها لتتناسب مع كل المعطيات الاجتماعية والاقتصادية لمجموع السكان من محليين ومهاجرين في الوقت الذي وقف فيه المواطنون عاجزين عن أخذ زمام المبادرة نظرا لعدم وجود الخبرة في التعامل مع التغيرات الجديدة وفي مقدماتها التعامل مع جنسيات متعددة وثقافات هائلة .

ولقد لعبت الجغرافيا دورا جديرا في هذه القضية فدول الخليج العربية بشكل عام تتميز بيئة طبيعية بسيطة جدا ، إذ أنها تفتقر للتمايز الجغرافي فأرض دول الخليج والتي تؤدي الى ايجاد بنيات اجتماعية واقتصادية متباينة داخل الكيان

(٢٢) أحمد أبو حاكمه تاريخ الكويت الحديث . ذات الياصل ، ١٩٨٤ ، ص ١٧ .

(٢٣) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ١٥ - ١٦ .

(٢٤) عبد الرسول الموسى ، اثر التغيرات الجغرافية على التركيب الاجتماعي للسكان في الكويت ، بحث غير منشور .

السياسي وصغر مساحة الدول والتركز السكاني والاقتصادي والسياسي في بقعة واحدة صغيرة أدى الى قيام ما يسمى بدول المدينة فكل دول الخليج العربية تتكون من مدينة واحدة . وهذه العوامل كلها أدت الى أن الهجرة عمت كل مناطق الدول ، وكان التأثير الاجتماعي والاقتصادي والسياسي على مجموع السكان في هذه الدول . فكل المواطنين يتعاملون مع الهجرة بكل سلبيةا وإيجابياتها ولا يمكن لأي مجموعة سكانية محلية تفادي التعامل مع الهجرة .

هذا التكوين الفريد للعلاقات بين المواطنين والمهاجرين ، أدى الى سن تشريعات وأنظمة تبدو للمراقب البعيد عن حقائق الوضع تمييزا كبيرا بين المواطنين والمهاجرين . ومثال على ذلك العزلة في مناطق السكن وإنشاء مناطق سكنية للمواطنين وأخرى للمهاجرين وسن قوانين تمنع سكن المهاجرين في المناطق السكنية النموذجية وذلك بمنع التملك وقيد الاجار كما وحددت كثافة البناء وصممت الوحدات السكنية حسبا لمشاكل تماثل الكثافة السكانية وأصبحت هناك تفرقة في الأجور .

ان منطلق التعامل مع الهجرة في دول الخليج العربية هو أن المهاجرين يشكلون الأغلبية في هذه الدول وفي بعضها مثل قطر والإمارات المتحدة وصلت هذه الأغلبية الى نسبة عالية جدا (٨٠ ٪) وهذا المنطلق يدعو الى معالجة دقيقة وحذرة للهجرة . لقد تشابكت قضية الهجرة في هذه الدول مع القضية الأساسية لهذه الدول وهي الارتباط المعقد بين النفط وبين البنية الاقتصادية . (جدول رقم ٢) .

لقد واجهت الهجرة موقفا يتصف بالخصوصية . فقد كان المفترض أن الهجرة تبدأ في التضاؤل ثم تحدث الهجرة العاكسة مع انتهاء المشاريع الأساسية الكبرى وبخاصة الهياكل الأساسية الرئيسية وبذلك تقل فرص العمل ومن ثم تتحرك الهجرة في خط معاكس أو خط العودة . ولكن ما حدث هو في غير صالح الهجرة وفي غير صالح هذه البلدان في نفس الوقت .

وتتأثر الدول المرسلة للمهاجرين بالهجرة العاكسة اذا كانت في خط العودة . وهذا التأثير يصيب كثيرا من المجالات الاقتصادية والاجتماعية وحتى السياسية ، ولذلك فهذه الدول ، تحاول جاهدة أن تأخذ في الحسبان عودة مواطنيها ، سواء في مجال الاسكان ، أو في توفير فرص العمل ، ولكن الذي حدث في حالة دول الخليج العربية هو أن الذي حدث على المستوى الاقتصادي كان بعيدا عن التوقعات فدول الخليج العربية تعتمد في دخولها على عوائد النفط بنسبة كبيرة جدا . وكان القلق على المستوى الرسمي والشعبي هو نضوب النفط أو اكتشاف مصدر بديل للنفط . ولكن ما تعرضت له هذه الدول في مجاليين الأول هو التوقيت ، فقد كان في فترة مبكرة جدا بعيدا عن التوقعات . والثاني في الانخفاض الحاد في سعر النفط والذي انخفض من ٣٦ دولار الى ما يقارب ١٠ دولارات . وما حدث أثر على طرفي خط الهجرة للدول الخليجية المستقبلية للمهاجرين والدول المصدرة لها . فالدول المصدرة للعمالة تعتمد في جزء من دخولها على التحويلات النقدية لمواطنيها في دول المهجر .

وقد تأثرت دخول هذه الدول بشكل بارز فأدى الى تخفيض ميزانياتها وهذا التخفيض أثر على باب الأجور في الميزانية وبالتالي بدأت هذه الدول في تخفيض العاملين في الأجهزة الحكومية وغير الحكومية إضافة الى الركود الاقتصادي الذي أثر على العملة بشكل عام . وحدث مثل هذا الوضع وسط أزمة اقتصادية عالمية أدى الى أن يعيش المهاجرون في قلق حاد وخط العودة أو التحرك العاكس يواجه مشاكل لأن عامل الطرد يواجهونه في بلدان الخليج العربي نتيجة

للظروف التي شرحتها لا يقابله عوامل جذب لا في البلد الأم ولا في بلدان هجرة أخرى . وهذه قضية الهجرة في دول الخليج العربية والتي تحتاج الى دراسات وبحوث تعطي للهجرة الى هذه الدول خصوصية في الابعاد والمضمون .

ان الهجرة المعاكسة التي بدأت ملاحظتها تشكلت نتيجة عامل اقتصادي مفاجيء وهو الانخفاض الحاد في أسعار البترول في السوق العالمية وقلة الطلب عليه وتخفيض انتاج البترول كل هذه العوامل جاءت بدون تخطيط مسبق لمواجهة هذه النتيجة لم تكن مفاجئة في حد ذاتها وانما توقيتها جاء مفاجئة وبدون أن تكون هناك أية ترتيبات تخطيطية ففي الكويت وهي من الدول الخليجية القليلة التي تنتهج أسلوب التخطيط تعد أول من تبني مبدأ الخطط الخمسية والخطط الهيكلية القومية مع كل ما توجه اليها من انتقادات لهذه الخطط . فالكويت بهذا الوضع المتقدم نسبيا بين دول الخليج العربية صممت قبل شهور قليلة من الانهيار المفاجيء لأسعار النفط والتفقد الحاد في سوق الخططة الخمسية الثالثة . كانت الخططة تحمل أحد أهدافها الرئيسية وهو هدف الوصول الى التوازن السكاني بين المواطنين والوافدين . وقد واجهت الخططة انتقادات كثيرة أهمها ما ينصب على صعوبة تنفيذ الهدف مع وجود المعضلة الكبرى التي تتمثل بوجود أقلية حادة في العمالة الكويتية وهي نسبة تصل الى ٢٠٪ من جملة العمالة في البلاد عام ١٩٨٥ .

فكانت المفاجئة بعد شهور قليلة أن اضطرت الدولة دون الالتفات الى معدلات هذه الخططة الى تخفيض الميزانية بحدود ١٥٪ وكان معظم التخفيض يتركز على اخراج نسبة من العمالة من القطاع الحكومي وقد سبقتها مؤسسات القطاع الخاص بمبادرات واسعة في الاستغناء عن عمالها غير الكويتية .

لقد أشرنا قبل قليل الى أن قضية الرمدو المادي أصبحت مسألة عامة في المنطقة (الدول العربية اضافة الى ايران والمند وباكستان وبنغلاديش) ففي حالة القطاع الخاص عندما أعطى العاملون خيارا بين البقاء مع تخفيض أجورهم أو ترك العمل وهذا يعني وحسب قانون الإقامة مغادرة البلاد فقد اختارت الغالبية منهم الخيار الأول* .

وقد صاحب هذه الأزمة الاقتصادية انخفاضاً في تدفق العمالة المهاجرة ففي الكويت كان انخفاض في اصدار رخص العمل في الفترة ما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٤ بحوالي ٢٩,٨٪ وكان الانخفاض هذا قد بدأ في النصف الثاني من عام ١٩٨٣ ، وبلغ هذا التغير السلبي في اصدار رخص العمل أوجه في عام ١٩٨٤ ، فكان تغييرا حادا وصل الى ٥٤,٢٪ في اصدار الرخص الجديدة . ولم يقتصر الأمر على انخفاض عدد القادمين الجدد وانما في ترك العمالة المهاجرة للعمل في الكويت ، فقد ازداد عدد الرخص الملغية من ٣,٣٤٨ رخصة عام ١٩٧٧ الى ٥٤,٥٦٧ رخصة ملغية عام ١٩٨٤ (٢٥) .

ان الوضع المفاجيء يدل على أن حدوث هجرة معاكسة يحدث خلافا للتوازن الاقتصادي والاجتماعي . ويأخذ هذا بعدا أعمق عندما يحدث هذا في بلدان تعتمد فيه المشاريع على السكان المهاجرين وتشكل القوة الشرائية وزنا ملحوظا في القوة الشرائية العامة .

* اصطلاح قام به الباحث من طريق زيارة بعض الشركات والمؤسسات .

Secombe, J. I., "Economic Recession and International Labour Migration", The Arab Gulf Journal, Vol. 6, No. 1 (٢٥) April 1986. P. 47.

في منطقة الخليج العربية تشكل الهجرة هماً من هموم الدول فالمهاجرون يشكلون الأغلبية وأصبحوا محركاً رئيسياً في تدوير العجلة الاقتصادية ان الجدول التالي يوضح لنا ذلك ، فالعمالة المهاجرة تشكل أغلبية الدول الخليجية . وهذا يجعل لهم دوراً في إدارة العجلة الاقتصادية ومحركاتها . وتصل هذه النسبة أعلاها في دولة الامارات العربية المتحدة فتصل نسبة المهاجرين الى أكثر من ٧٥٪ وأدناها في سلطنة عمان وكانت النسبة ٣٠٪ عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (٢)

السكان في دول الخليج العربية وطيون ومهاجرون

الدولة	السنة	اجمالي السكان	العدد	المهاجرون (نسبة المهاجرين الى اجمالي السكان
الكويت*	١٩٨٥	١,٦٩٥,١٢٨	١٠١٥,٥٢٧	٦٠
البحرين	١٩٨١	٣٥٨,٨٥٧	١١٦,٢٦١	٣٢,٤
قطر	١٩٨٠	٢٦٠,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠	٦٧,٣
الامارات العربية المتحدة	١٩٨٠	١,٠٤٣,٢٢٥	٧٨٠,٠٠٠	٧٥,٠
سلطنة عمان	١٩٨٠	٩٠٠,٠٠٠	٢٧٠,٠٠٠	٣٠,٠
الاجمالي		٤,٢٥٧,٢١٠	٢,٣٥٦,٧٨٨	٥٤,٥

المصدر - حسن حياط ، الرصيد السكاني لدول الخليج العربية ، مركز الوثائق والدراسات الانسانية ، جامعة قطر ١٩٨٢ ، جدول رقم ٢٣ .

ان المهاجرين يمثلون تركيبة سكانية تعكس تماماً اهداف الهجرة الى هذه المنطقة ولذلك فان نسبة المجموعة النشطة اقتصادياً عالية جداً بينهم كما ان هذه المجموعة تشكل الأغلبية بين القوى العاملة في الدول الخليجية والجدول رقم (٣) يوضح ذلك ويعطي صورة صادقة للبنية السكانية التي تعتبر شكلاً لمضمون الهجرة .

ان دور العمالة المهاجرة لا يقتصر على الكم الاجمالي كما انها لا تقتصر ايضاً على الكم الخاص في القطاعات الاقتصادية المختلفة وانما على مدى مساهمة هذه العمالة في النشاط الاقتصادي وايضاً على دورها في القطاعات المهنية المختلفة التي تشكل دعائم وطيدة لواقع يقوم بعدم سهولة قيام المواطنين بدور رئيسي في هذه المحاولات في مستقبل قريب . كما يؤكد على الأوضاع الصعبة التي ستميشها هذه الدول في حالة حدوث هجرة معاكسة على نطاق واسع . فالعمالة المهاجرة تساهم بدور رئيسي في كل قسم من اقسام النشاط الاقتصادي ويشكل أغلبية في قطاعات رئيسية ويشكل أغلبية - ايضاً - في المهن العالية المستوى . ويوضح لنا الجدول رقم (٤) هذا الدور كما ان الجدول رقم (٥) يوضح لنا أهمية دور العمالة المهاجرة في تقديم اداء عال المستوى في المهن العالية والتي تحتاج لها هذه الدول لمدة طويلة على اساس الواقع الحالي .

ان دول الخليج العربية كانت تنتظر بتفؤل ل غريب ، رغم القلق الذي يسود عامة الناس فيها من جراء الاوضاع الاقتصادية ودور الهجرة ، هذه الدول كانت تنتظر بتفؤل على اساس التطور المستقبلي لدور النفط وبخاصة الاحتياطي منه دون التعمق في التعامل مع اللعبة السياسية والاقتصادية العالمية ، فكانت زيادة اسعار البترول القياسية في بداية السبعينات البساط السحري الذي خلق في هذه الدول فوق واقع الحقيقة المرة التي واجهتها في بداية الثمانينات . ان هذا قد ارتبط بالهجرة وباستمراريتها وتزايدها ولذلك نجد مثلا ان عدد المهاجرين مثلا (٢٦) في الكويت ازداد ما بين ١٩٧٠ و ١٩٧٥ بحوالي ١٣١٤٨٣ نسمة اي بمعدل ثمن سنوي يعادل ٩,٥ ٪ وبين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ ، ازداد عدد السكان المهاجرين في الكويت بحوالي ١٣,١٩١ نسمة اي بمعدل ثمن سنوي يعادل ٧,٨ ٪ فبعد الزيادة الكبيرة في اسعار النفط في السبعينات ضخت اموال هائلة في السوق لتمويل المشاريع الكبرى مثل الطرق السريعة والجسور والمجمعات الكبيرة مما ادى الى الحاجة الهائلة للقوى العاملة الجديدة لقد دخلت عمالة مهاجرة في السوق الكويتية ما بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ تقدر بحوالي ١٦٣٨٧٦ عاملا وكذلك دخل في السوق الكويتية حوالي ١٠٥٣٢٠ عاملا ما بين ١٩٨٠ و ١٩٨٥ وهذا يؤكد زيادة في اسعار البترول وازدياد عوائد البترول الكويتية .

في الكويت يعتمد المستثمر الكويتي على ما يفضحه المهاجرون في السوق الكويتية والتي تقدر بحوالي ٤٨٥,٧٦٠,٠٠٠ * .

ان هذا التعامل بين المهاجرين والاقتصاد الكويتي يجعل للمهاجرين دورا كبيرا كما يوضح لنا هذا دور الهجرة في البناء السكاني والاجتماعي .

جدول رقم (٣)

دور السكان النشيطين اقتصاديا في البناء السكاني في دول الخليج العربية (السنة ١٩٨٠)

الدولة	المواطنون (بالآلف)		الوافدون (بالآلف)		اجمال السكان والعمالة (بالآلف)	
	السكان	العمالة %	السكان	العمالة %	السكان	العمالة %
الكويت	٥٦٢	١٠٩,٢	١٩,٤	٧٩٣,٨	٣٧٨,٧	٤٧,٧
البحرين	٢٤٢,٦	٤٦,٨	١٩,٤	١١٦,٠	٧٠,٢	٦٠,٥
قطر	٨٥,٠	٢٠,٢	٢٢,٤	١٧٥,٠	٩٨,٨	٥٥,٣
الامارات						
العربية المتحدة	٢٢٩,٠	٧٧,١	٢٦,٤	٨١١,٠	٤٦٧,٢	٥٨,٢
سلطنة عمان	٦٣٠,٠	١٢٦,٠	٢٠,١	٢٧٠,٠	١٤٧,١	٥٤,٤
الإجمالي	١,٧٤٨,٦	٣٧٩,٣	٢٠,٩	٢,١٦٥,٨	١,١٦٢,٠	٥٤,٣

المصدر : حسن عياط ، ١٩٨٢ ، جدول ٣٥ .

(٢٦) المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ - الكويت .

* يعتمد هذا الاستنتاج على نتائج بحث ميزانية الأسرة الذي قامت به وزارة التخطيط ١٩٧٩ والذي اعتمد على عينة بحجم ١٤١٣ أسرة غير كويتية ، حيث توصل اليه البحث الى ان متوسط انفاق الأسرة غير الكويتية الشهري يصل الى حوالي ٣١٨ دينار كويتي وقد كان عدد الأسر غير الكويتية حوالي ١١٠,٠٠٠ أسرة .

جدول رقم (٤)

مساهمة العمالة الوافدة في القطاعات الاقتصادية المختلفة في بعض دول الخليج العربية

القطاع	* الكويت ١٩٨٠	البحرين ١٩٧٦	الامارات ١٩٧٥	قطر ١٩٧٩
الزراعة والصيد	٥٧	٣٠,٢	٥٢,٩	٥٢,٩
التعدين	٦٤	—	٨٦,٤	٨٨,٧
الصناعة	٩٢,٣	٢٩,١	٩٠,٠	—
كهرباء ماء غاز	٧٤,٧	١٢,٥	٩٧,٥	—
البناء والتشييد	٩٨,٧	٤٨,٧	٩٠	٩٧,٥
التجارة	٩٢,٢	٣٨,١	٨٢,٢	٩٠,٠
نقل بحري ومواصلات	٧٤, -	٣٦	٨٦,٥	٨٣,٠
خدمات	٦٦,٤	٣٦,٨	٧٢,٥	٧٥,١
الاجالي	٧٨,٦	٣٧,٦	٨٦,٩	٨٣,٠

المصدر: حسن خياط، ١٩٨٢، جدول ٤٤.

* المجموعة الإحصائية السنوية، ١٩٨٣، جدول ١٠٤

جدول رقم (٥)
العمالة المحلية والمهاجرة في الكويت والبحرين
موزعة حسب المستوى المهني

المجموع	الكويت*				المستوى المهني
	مهاجر	بحريني	مهاجر	كويتي	
١٠٠٪	٨١,٩	١٨,١	٤,٣	١,٢	وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في ميادين العلوم
١٠٠٪	٥٣,٨	٤٦,٢	٢,١	٥,٩	وظائف متخصصة تتطلب شهادة جامعية في التجارة والاداب
١٠٠٪	٣٥,٥	٦٤,٥	١٢,١	١١,٨	وظائف فنية تتطلب الدراسة الثانوية او التدريب الفني
١٠٠٪	١٩,٨	٨٠,٢	١٨,١	٢٤,٥	عاملون مهرة وانصاف مهرة في الوظائف الادارية
١٠٠٪	٤٠,٠	٦٠,٠	٢٩,٤	١٢, -	عاملون غير مهرة وانصاف مهرة في الوظائف اليدوية
١٠٠٪	٤٣,٠	٥٧, -	٣٤, -	٤٤,٦	وظائف غير فنية
			١٠٠,٠	١٠٠,٠	المجموع

* نسبة كل مستوى الى الاجمالي .

** نسبة مساهمة العمالة المهاجرة والوطنية الى كل مستوى .

المصدر : اسمعيل القطيب ، خصائص النمو الحضري في دول الخليج العربي ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ١٩٨٥ جدول رقم ١٣

فالمهجرة في الكويت كما هي الحال في دول الخليج العربية الأخرى هي حصيلة الحاجة الملحة للفقرى العاملة لتقوم بدور أوجدته لهم مشاريع طموحة تعادل طموح شعوب هذه الدول في أن يستفيدوا من عوائد النفط في استثمار خديمي تشابكت فيه مصالحهم مع مصالح المهاجرين ، فأصبحت الهجرة قضية عضوية في بنية هذه الدول اجتماعيا واقتصاديا ، سيكون فض هذا التشابك ليس بالأمر الهين . وبخاصة وأن قضية النفط في هذه الدول امتدت لتتعلق مع قضايا اقتصادية واجتماعية في الدول الام لهؤلاء المهاجرين حيث يستخلص الدكتور سعد الدين ابراهيم ان للبترول دورا سلبيا اكثرا مما هو ايجابي على مستوى النسيج الاجتماعي والاقتصادي لمصر حيث يوجد لها أكثر من اربعة ملايين مهاجر اذا اخذنا بعين الاعتبار المهاجرين المصريين في العراق (٧٧) ومع كل هذا التشابك فالمهجرة الى دول الخليج

العربية تتصف بانها هجرة محطات وليست مناطق استقرار او كما تسمى احيانا بلدان المهجر ولكنها تطول لبعض المجموعات وتقتصر لآخرى . وبذلك فالمهاجرون في الكويت يطلق عليهم بالوافدين على اساس انهم وفدوا الى هذه الدول لفترة معينة يعودون بعدها الى اوطانهم او الى جهات اخرى ولذلك فإن معظم هؤلاء المهاجرين لم يقطعوا علاقاتهم باوطانهم وتمثل هذه العلاقة بالتحويلات النقدية والعينية التي يقوم بها المهاجرون ، كما ان مدخراتهم في بلدانهم واستثماراتهم تعد مؤشرا على ذلك ومع ذلك فهناك مؤشرات على سلوكيات المهاجر لا الوافد مثل المطالبة المستمرة بإزالة القوانين والانظمة التي تميز المواطنين عنهم . مثل الفوارق في الاجور ونظام التملك للعقار وحتى الانخراط في المدارس والمعاهد والجامعات بشكل مفتوح والشكوى الدائمة من قانون الإقامة وقانون العمل .

فنظام التملك يضع قيودا صارمة على تملك المهاجر للعقار في هذه الدول كما ان قانون الإقامة يحتم وجود كفيل او ضمان من المواطنين للمهاجر وتحدد الإقامة بمدة اقصاها خمس سنوات تجدد بموافقة الكفيل وهذا يجعل العلاقة معقدة بين المهاجر وبين المواطن الى درجة ان الإقامة أصبحت مدفوعة بمبلغ يجدد هذا الدفع مع كل تجديد للإقامة مع عدم شرعية هذا التعامل .

كما ان قانون العمل لا يتيح للمهاجر العمل الا في ظل شراكة مع المواطن او في ظل ترخيص تجاري باسم المواطن اما اذا كان المهاجر يعمل بإدارة حكومية فان عمله هو الضمان لحصوله على إقامة . يواجه المهاجر مشاكل عديدة في حالة رغبته التخلي عن عمله او في حالة استغناء الإدارة عنه .

اما التعليم فان نسبة قليلة جدا من ابناء المهاجرين يستطيعون الانخراط في المدارس الحكومية كما ان هناك قانونا حدد تاريخا معيناً لتقديم المهاجرين الى البلاد لا يحق له الحاق ابنائه في المدارس الحكومية . (٢٨) اذا قدم الى البلاد بعد هذا التاريخ .

اما الفوارق في الاجور فانها محل تلعر من قبل المهاجرين حيث انهم يختلفون عن المواطنين في عناصر معينة مثل علاوة طبيعة العمل وعلاوة الأبناء .

ومع ان هذه المؤشرات تعد من العوامل التي تؤثر في استقرار المهاجرين بشكل عام والعمالة بشكل خاص (٢٩) الا ان هذه الظروف المحيطة بالمهاجرين الى دول الخليج العربية لم تؤثر في استمرارية الهجرة الى دول الخليج العربية وفي نموها المضطرب ، وهذا يفسر لنا انه مع كل هذه الظروف ان دول الخليج العربية ما زالت تمثل منطقة جذب مقارنة بعوامل الطرد التي تتمثل في بلدانهم الام .

ان الجدول رقم (٦) يبين ان نمو المهاجرين تطور باستمرار كذلك فان الزيادة الطبيعية للمهاجرين في دول الخليج العربية مؤشر عسسلطول فترة الإقامة .

Al-Moosa, A., and Melachian, K. S., "Immigrant Labour in Kuwait, Croom Helm London, 1985.

(٢٨)

Al-Moosa, A., 1986, Vol. 6.

(٢٩)

جدول رقم (٦)

الدولة	١٩٧٥ - ١٩٧٠ معدل النمو السنوي	١٩٧٥ - ١٩٨٠ معدل النمو السنوي
الكويت	٥,٨	٨,٥
البحرين	٩,٠	١٢,٧
قطر	٩,٩	٨,١
الامارات العربية المتحدة	٢٢,٨	١٠,٢
سلطنة عمان	٢٠,٩	٥,٩
المعدل الاجمالي	١٣,٠	٨,٠

المصدر : حسن غياط ، ١٩٨٢ جدول ٢٤

وعلى كل فان مدة الإقامة نظرا للتركيبة المتباينة للمهاجرين وعلى اساس الجنسية او المهنة او طبيعة العمل (كالخبراء مثلا) فان مدة الإقامة تختلف تبعا لهذه المجموعات ، فقد تبين من الدراسات والاحصاءات^(٣٠) ان اقامة العمال المصريين غير المهرة والعمال من البلاد العربية الاخرى ليست طويلة وتتراوح بين سنة وثلاث سنوات فمتوسط مدة اقامة المهاجر العربي اذا هي خمس سنوات كما ان متوسط اقامة المهاجر الاسيوي في قطاع البناء والتشييد قصيرة وترتبط بالمشروع حسب نظام عقود المقاولات الجديدة . وهذه الخصائص تحد كثيرا من قياس ومفهوم الهجرة المعاكسة الى دول الخليج العربية . فهذا الاختلاف في مدة الإقامة مع تطور نمو المهاجرين يعني ان هناك عملية احلال للمهاجرين وبخاصة في قطاع العمال غير المهرة وقطاع عمال البناء والتشييد وكذلك بالنسبة لقطاع المدرسين واساتذة الجامعة والمعاهد والذين يرتبط عملهم بعقود محددة مبدئية . ولذلك فالهجرة الى دول الخليج العربية تسير في طريق ذات علة اتجاهات ويجب ان توضح شيئا مهما في قضية الهجرة الى الدول الخليجية وهي التعامل مع مجموعة من المهاجرين بشكل منفرد وهي المجموعة الفلسطينية ، والفلسطينيون في هذه الدول كما في دول اخرى لهم اوضاع خاصة بهم نظرا لقضيتهم السياسية وحالتهم الاستثنائية التي تميزهم عن غيرهم من المهاجرين بجميع الخصائص الاجتماعية والاقتصادية .

فالفلسطينيون يختلفون عن المهاجرين بمدة الإقامة ، وكذلك في خصائصهم الاجتماعية مثل متوسط حجم الاسرة والخصوبة والزيادة الطبيعية . وتلعب الخصائص الاقتصادية مثل الانفاق والادخار والتحويلات النقدية دورا في الاختلاف بين المهاجرين ، ولذلك فان المهاجرين الى دول الخليج العربية يتميزون باتجاهات مختلفة بحسب المجموعات الجنسية وهذا من خصائص الهجرة بشكل عام . فكما هو معروف ان اسباب وعوامل الهجرة متعددة وكذلك سمات الهجرة تتعدد وملاحظتها تتمايز من المستوى الفردي الى المستوى الجماعي ولكن الشيء الذي يميز الهجرة الى دول

(٣٠) عبد الرسول علي الموسى ، قضايا في التنمية ، شركة كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع ، الكويت ، ١٩٨٣ ، ص ٦٠ - ٦١ .

الخليج العربية هو التعدد الهائل لجنسيات المهاجرين والذين يصلون مثلاً في الكويت الى أكثر من مائة جنسية تتعدد مصادرها الجغرافية من المناطق الحدودية مثل العراق وإيران والسعودية الى اقصى مناطق الارض مثل الفلبين واليابان والولايات المتحدة الامريكية ويتبع هذه التعددية في الجنسية تعددية في اللغات والثقافات والعادات والقيم ومستوى الانتاجية واتجاهات تطورها .

اضافة الى التفوق العددي الاجمالي للمهاجرين على عدد السكان المحليين . وهذا بحد ذاته يشكل عاملاً مهماً في عملية التعامل الاجتماعي والاقتصادي والسياسي مما يفرض على السكان المحليين ان يتعاملوا مع هذه التعددية الهائلة في كل العناصر التي ذكرناها . فالإنسان عندما يسير في الشارع في هذه الدول ، يلاحظ بشكل واضح الاقلية في الزي الوطني واللهجة التي يسمعاها . ويلفت نظره المحلات التي تعرض أحدث المبتكرات وانواع البضاعة الجديدة قبل ان تصل الى بلدان اقرب لها جغرافياً كما يلاحظ المرء تغيراً سريعاً في دول الخليج العربية ، من المطاعم التي تقدم الوجبات السريعة الى الأزياء التي تعرض في ارقى عواصم العولم .

اما من ناحية المواد الغذائية فان المحلات في دول الخليج العربية تقدم كل المواد الغذائية التي تحظر على بال الانسان .

كل هذا يجده المرء مرتبطاً بالمجرة والنقط . فدول الخليج العربية لم تفتح ابوابها واسعة على العالم الخارجي الا منذ ما يقارب ثلاثين سنة بمقارنة بما قبله من حياة بسيطة تسيطر عليها تقاليد المجتمع المنغلق على نفسه والذي يعيش على بقعة صغيرة من الارض تعانق مياه خليج صغير لا يشترك به مع دول اجنبية غير واحدة وهي ايران .

كذلك ادت هذه التعددية الهائلة في كل العناصر المذكورة الى بروز قضايا اجتماعية واقتصادية ، فهناك العزلة الاجتماعية بين السكان المحليين والمهاجرين^(٣١) وعزلة اجتماعية بين المجموعات المختلفة للمهاجرين وقد ادت هذه التعددية في العناصر ايضا الى ممارسات سلبية في العمل يتميز بالتعامل المتأثر بالجنسية^(٣٢) ففي مؤتمر صحفي لوزير الصحة الكويتي اشار الى ان الاطباء يعاملون المهاجرين من جنسيتهم معاملة خاصة وبذلك فقد برزت ظاهرة سلبية من ظواهر الهجرة وهي التمييز الجنسي في التعامل واذا كانت هذه القضية قد طرحت عن طريق مسئول كبير في احدى دول الخليج العربية فلا يمكن ان نعتبرها قضية فردية او انها تقتصر على التعامل التمييزي بين الاطباء فقط ، ان القضية التي يطرحها المهاجرون بشكل عام في دول الخليج العربية هي التعامل المميز للمواطنين والذي زاد من هوة العزلة الاجتماعية وحتى في ابسط قضايا التعامل مثل اخلاء مبنى استملكته الدولة ، فالجهات الرسمية تعطي المواطن مهلة ثلاثة شهور لاختلاء المبنى بينما المهاجر يحصل على مهلة شهر واحد فقط . وكذلك بالنسبة للحصول على اجازة قيادة سيارة فان هناك قيوداً كثيرة على حصول المهاجر على هذه الاجازة بينما ليست كذلك بالنسبة للمواطن .

لذا فعملية الاستيعاب الاجتماعي والاقتصادي للمهاجرين في هذه الدول غير ممكنة نظراً للأسباب التي ذكرناها قبل قليل كما ان هناك عوامل اخرى تجعل من عملية الاستيعاب غير ممكنة ايضا نظراً لنفس الاسباب فمع ان الغالبية الكبرى من المهاجرين هم من العرب الا ان التأثير المباشر للمهاجرين الاجانب هو اكثر وضوحاً فعندما نعرف ان

(٣١) فيصل السالم واحد الظاهر ، العمالة في دول الخليج العربية ، ذات السلاسل الكويت ، بدون تاريخ ، ص ١٢٨ .

(٣٢) في مقابلة صحفية لوزير الصحة الكويتي ، نشرت في الصحف المحلية .

متوسط عدد الخدم في الأسرة الكويتية هي ٢,٥ خادماً (٣٣) وإذا ما عرفنا أن الأغلبية المطلقة بين هؤلاء الخدم هم من غير العرب فلنا أن نعرف مدى التأثير الاجتماعي الذي يحدث للمجتمع المحلي وبخاصة على الأطفال ، فقد لاحظت دراسة عن المربيات في الكويت على الأطفال أن دور المربية دور سلبي في تأثيره على طريقة التعامل واللغة والعادات ، ويكفي أن نعرف أن المربية التي لا تتقن اللغة العربية وتحمل عادات وقيماً وتقاليدها تختلف تماماً عن تلك التي تنتمي للمجتمع المحلي . يكفي أن نعرف أنها تطعم الطفل وتنام معه وتحضنه طوال الوقت لتعرف عمق المشكلة . إذا فخصائص الهجرة إلى هذه الدول لا تسمح إلا لتلويب الملامح المختلفة للمجتمع المحلي وإيجاد خليط من الملامح من الصعب إعطاء مجموعة من المهاجرين دوراً رئيساً فيها وإذا جاز لنا أن نقول هذا فإنه في ضوء جغرافية الكويت الطبيعية فإنها لا تسمح بتشكيل مفرد لشخصية مجتمع (إقليمي) ولنا أن يترك للمستقبل أن يقرر على ضوء المعطيات التي سوف يترسخ في رسم الشخصية المستقبلية لهذا المجتمع . وهذا يعتمد على مدى استمرارية الهجرة وقوة الدفع فيها وخصائصها التي ذكرناها . وإذا كانت للقوانين المختلفة ، مثل قانون الجنسية وقانون التملك وقانون الانتخابات النيابية وقانون الانتخابات للمؤسسات الأخرى ، أن القدرة على حفظ الهوية القومية للمجتمع المحلي ، فإن احتكاك مجموعات متعددة من المهاجرين مع المجموعة المحلية في مجالات متعددة إضافة إلى التعامل اليومي المستمر لا يمكن إلا أن يحدث تغيرات اجتماعية واقتصادية وسياسية في كل المجموعات المختلفة . وفي النهاية لنا أن نذكر عاملاً آخر في موضوع الهجرة إلى دول الخليج العربية وهو أن ما يشار في الأدبيات التي تتعلق بالتنمية وهو موضوع الساعة في الربع الأخير من القرن العشرين . وهو التركيز على قضية التنمية الذاتية ، أي التنمية التي تعتمد على القدرات الذاتية للمجتمع والدولة . ولقد أثار المعهد العربي للتخطيط في الكويت هذا الموضوع في موسمه الثاني ١٩٨٦/٨٥ عندما خصصه لدولة عن التنمية العربية المعتمدة على الذات والتي أكد فيها الباحثون في هذه الندوة على هدف واحد وهو أن التنمية المعتمدة على الذات هي الطريق المأمون للوصول إلى تنمية قادرة على الاستمرار بعيدة عن الهزات والتي تأتي في مقدمتها استقرار العمالة وتفاعلها في عملية التنمية .

ودول الخليج العربية تواجه هذا المأزق الذي يتمثل في أن المتوسط (٦٠٪) من قواها العاملة والتي تتحمل عبء عملية التنمية هي من غير المواطنين . وإن الأهمية في عملية التنمية تكمن في استمرارية عناصر التنمية وتطويرها المستمر ورفع أداء العاملين فيها والتطوير المستمر للإنتاجية ، وهذا مما لا يتوفر في هذه الدول ففي خضم عملية التفتش التي تمر بها دول الخليج العربية نتيجة لانخفاض الحاد في أسعار النفط والذي تبعه انخفاض حاد في عوائده وبالتالي أيضاً في مداخيل هذه الدول وقد انتهت أعمال مجموعة من العاملين في أجهزة الدول من المهاجرين الذين أمضوا مدة طويلة ، وبالتالي فإن قضية الاستثمار والاستفادة من تطوير الأداء لهذه العمالة غير ممكن في ضوء الهزات التي يتعرض لها سوق العمل في دول الخليج العربية .

والخلاصة في هذا القول أن الهجرة إلى دول الخليج العربية تتميز عن غيرها من الهجرات بأنها وفي ظل الظروف التي ذكرناها تشكل عموداً رئيسياً في عملية البناء الاقتصادي ، وفي استمرارية هذا البناء في مستوى يحفظ لهذه الدول مستوى مستقراً واضعاف قوى الارتباط بينه وبين النفط وعوائده التزاماً للمهاجرين .

(٣٣) من دراسة قامت بها وزارة التخطيط سنة ١٩٨٣ .

كما ان الهجرة الى هذه الدول بزخها وحجمها اشتركت مع المجتمع المحلي في عملية النسيج الاجتماعي والاقتصادي لهذه الدول ولذلك فان قضية الهجرة الى هذه الدول اضافة الى اهميته وجاذبيته للباحث فانه معقد وخطير لهذا المجتمع الصغير .

دول المغرب العربي :

دول المغرب العربي تمثل حالة نقيضة لحالة الدول العربية الخليجية فقد اوضحت الدراسة ان دول الخليج العربية تمثل دولا مستقبلية للهجرة دولا فتحت ابوابها لهجرة معقدة دولا تمثل محطة استقبال للمهاجرين ، سنرى في هذه الدراسة ان دول المغرب العربي تمثل محطة ارسال للمهاجرين فهاتان المنطقتان العربيتان تلعبان في الهجرة دورا كدورها في الجغرافيا فدول الخليج العربية تقع في اقصى جنوب غرب الوطن العربي تطل على خليج ضيق يتصف بقسوة البيئة الطبيعية ، قست عليها البيئة الطبيعية في المناخ والسطح والجيولوجيا ، فكانت فقيرة في السكان ، فقيرة في الموارد الطبيعية في باطن الارض عدا النفط الذي اعلن عن مولده متأخرا - اي في نهاية الثلاثينات - فقيرة ايضا في عطائها النباتي واخيرا فقيرة في مواردها المائية الساقطة والجارية والمخزنة .

اما دول المغرب العربي فهي تقع في اقليم مناخي معتدل وهو مناخ البحر المتوسط تطل على بحر يجمع حضارات وثقافات واقتصاديات غنية مختلفة تتمتع نسبة الى دول الخليج العربية بغطاء نباتي غني وتستقبل امطارا غزيرة تحفظ اخضرار الارض وتحتضن عددا من السكان قاموا بدور اقتصادي نشط على اراضيها او عبر حدودها وتحفظ هذه الارض في باطنها بمصادر اقتصادية تعضد اقتصاديات هذه الدول كالفوسفات في المملكة المغربية والفحم والحديد والنفط في الجزائر .

الا ان كل ما قلناه عن المغرب العربي يدخل في العموميات فليس المجال متاحا للدخول بشكل مفصل في جغرافية هذه المنطقة . ويمكن القول ان فترة الاستعمار الطويلة التي تعرضت لها هذه الدول تسببت بشكل رئيسي في تنمية هذه الدول وتطوير مواردها وتأهيل قواها الاقتصادية والبشرية . فتوجيه اقتصاديات هذه الدول لخدمة الدول المستعمرة ادى الى سيطرة قطاع الزراعة على بقية القطاعات وتطورت العلاقة الاستعمارية لتصبح على محطتي الخط في كلتا الحالتين لمصلحة الدول المستعمرة والدول المستعمرة وفي مقدمتها فرنسا التي احتلت الجزائر مائة وثلاثين سنة ، استغللت الموارد البشرية لدول المغرب العربي على ارضها ومن هنا اصبحت هناك قضية بين دول المغرب العربي والدول الاوروبية الاستعمارية مثل ايطاليا وفرنسا واسبانيا حتى بعد الاستقلال وهي قضية الهجرة ، فقضية الهجرة في دول المغرب العربي ارتبطت بعامل جغرافي هو عامل تاريخي ، وهنا تبرز لنا المقولة التي تثير دائما الجدل بين الجغرافيين وطلاب التاريخ حيث للجغرافيين دائما مقولة مفادها ان الجغرافيا توجه التاريخ ، فعلاقة المغرب العربي بدول جنوب اوروبا علاقة جغرافية وهي التي ادت الى احتلال واستعمار بعض الدول الاوروبية لدول المغرب العربي الى درجة ان فرنسا كانت تعتبر الجزائر جزءا منها ولم تتخلص من ذلك الا بثورة مسلحة شعبية استمرت سبع سنوات .

وهجرة سكان المغرب العربي الى اوروبا هي هجرة وراء فرص العمل بعد ان دفعتهم سيطرة الاوروبيين على الاراضي الخصبة الى الهجرة والى المناطق الفقيرة او الصحراوية وبالتالي بدأوا يبحثون عن الرزق خارج حدود ارضهم ونظرا لطبيعة العلاقة السياسية والاقتصادية مع اوروبا كدول مستعمرة تمكن هؤلاء المهاجرون من الاختلاط بهم واتقان

اللغات الأوروبية . وقد دخلت عوامل متعددة في عمل المغاربة في أوروبا قبل قيام الحرب العالمية الأولى والثانية وإهم هذه العوامل حاجة هذه الدول للعمل في سد احتياجات الحرب^(٣٤) في عام ١٩٨٠ كان عدد العمال من المغرب العربي (تونس - الجزائر - المملكة المغربية) يقدر بحوالي ملون عامل بينهم ٩١٠,٠٠٠ في فرنسا . ويقدر عدد المهاجرين من المغرب العربي في فرنسا مليون وخمسمائة ألف نسمة (جدول رقم ٧) .

جدول رقم (٧)

المهاجرون من المغرب العربي في أوروبا عام ١٩٨٠

جملة المهاجرين في فرنسا	مجموع العمال في فرنسا	مجموع العمال في أوروبا	
١,٠١٥,٠٠٠	٦٨٠,٠٠٠	٦٩٠,٠٠٠	الجزائريون
٣٠٠,٠٠٠	١٥٠,٠٠٠	٢٣٠,٠٠٠	التونسيون
٢٥٠,٠٠٠	٨٠,٠٠٠	٩٠,٠٠٠	المملكة المغربية
١,٥٢٠,٠٠٠	٩١٠,٠٠٠	١,٠١٠,٠٠٠	جملة

المصدر : Lawless, R. , 1982, table no. 1

ويشكل مهاجرو المغرب العربي ٩٨٪ من جملة المهاجرين العرب في فرنسا وخارج فرنسا كما يوجد حوالي ٨٠,٠٠٠ مغربي في بلجيكا و ٥٠,٠٠٠ مغربي أيضا في اسبانيا .

ان الذي يهتما في دراستنا هذه عن المغرب هو الهجرة المعاكسة اي عودة ابناء المغرب الى الدول الثلاث التي ذكرناها الى وطنهم وتشكل هذه الهجرة المعاكسة هما من هموم دول المغرب العربي على اساس ان هؤلاء المهاجرين كانوا يساهمون في نمو بلادهم في الدخل القومي ، وإهم من هذا هو الحد من البطالة التي تعانيها هذه الدول والتي تحاول جاهدة خلق فرص عمل وسط صعوبات اقتصادية وان أكثر الدول معاناة من هذه القضية هي تونس حتى ان قضية الهجرة فيها تدخل ضمن اهتمامات الخطط الانمائية فمثلا في الخطة الخمسية الانمائية الرابعة ، تضمنت الخطة تشجيع الهجرة الى الخارج ، ويقدر عدد المهاجرين في هذا المشروع بحوالي ٦٠٠,٠٠٠ مهاجر ، وقد انشئت وكالة تونسية لتنظيم هجرة هؤلاء العمال وإيجاد فرص عمل لهم قبل مغادرتهم^(٣٥) . وقد قدر عدد الذين عادوا والمقدر عودتهم حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة . لقد تزامنت عدة عوامل للعمل معا على خلق مشكلة الهجرة المعاكسة ، فهناك الازمة الاقتصادية التي تواجه العالم ومنها أوروبا والتي اضطرتها الى تقليص عدد العمال وبخاصة في القطاعات المتقدمة في السلم المهني والتي يتركز فيها العمال المغاربة كما ان دخول اسبانيا والبرتغال السوق الأوروبية المشتركة أحدث توجهها عند الأوروبيين بتشغيل عمالها الأوروبية قبل كل شيء . كما ان قبول العمال المغاربة بأجور متدنية عن تلك التي تقبل بها الأوروبيون أدى الى قلاقل ومشاكل بين العمال المغاربة والأوروبيين .

Lawless, R. and others "Return Migration to the Maghrib : People and Policies", Arab Research Centre, London, (٣٤) Paper No. 10, 1982, P. O.

Ibid, 1982, P. 13.

وقد يعزى وقف الهجرة المغربية الى اوروبا « وخاصة فرنسا » بل والمطالبة بعودة المهاجرين الى زيادة اسعار البترول في منتصف السبعينات ، هذه الزيادة اثرت على الاقتصاد الاوروبي وعلى فرص العمل وادت الى خروج عدد من المؤسسات الاقتصادية من السوق وزادت البطالة في اوروبا^(٣٦) . وقد اتخذت فرنسا قرارا بوقف الهجرة عام ١٩٧٤ م . ولذلك تأثرت الهجرة المغربية وبدأت تظهر مجموعة من المشاكل .

ولقد تعرضت العمالة المهاجرة المغربية للبطالة ، فقد تعرض ١٤٪ من العمالة المهاجرة للبطالة في حين كانت النسبة التي تعرضت للبطالة بين الفرنسيين ٨ ، ٤٪ وكانت العمالة الجزائرية من بين العمالة الاجنبية التي تعرضت بشدة للبطالة حيث تعرض ٢١ ، ٩٪ من عمالتها للبطالة^(٣٧) .

كل هذا ادى الى اثاره مشكلة المهاجرين المغاربة وبرزت مشكلة الهجرة المعاكسة والتي كانت اول خطوة قامت بها الجزائر هي وقف الهجرة من الجزائر الى اوروبا . وقررت الجزائر منذ ذلك الحين البدء في خطة لاستيعاب المهاجرين الجزائريين في المجتمع الام . واشراكهم في ادارة العجلة الاقتصادية في الجزائر ، ومع كل المحاولات في معالجة هذا الامر عن طريق عقد اتفاقيات بين الجزائر وفرنسا لتنظيم عملية الهجرة الا ان عملية الهجرة المعاكسة اصبحت مستمرة بعد ان صدرت قوانين وانظمة في فرنسا تحد كثيرا من مميزات كان يستفيد منها المهاجر الجزائري . لقد كانت الحملة الموجهة ضد المهاجرين الجزائريين او المغاربة بشكل عام ذات شقين ، الشق الاول هو تضييق الشق على المهاجرين المغاربة والشق الثاني ترغيب العمال الفرنسيين في الانخراط في المهن التي يشغلها المغاربة والتي كان يرفضها الأوروبيون . ان كل المؤشرات تؤكد على تصميم الدول الاوروبية على وقف الهجرة اليها وتعرض هنا بعض قوانين الإقامة في فرنسا^(٣٨) ففي هذه القوانين شروط تقضي بالطرد الفوري للاجنبي في الحالات التالية :-

١ - عندما يهدد وجوده الامن العام والمالية العمومية .

٢ - عندما يحمل بطاقة اقامة مزورة او مشوهة او موضوعة باسم آخر غير اسمه ، او يمكث داخل البلاد بعد رفض السلطات المسؤولة تحديد اقامته ، ويشمل مشاريع القوانين هذه تجديد بطاقات العمل للمقيمين بصفة عادية وذلك بعد اجراء اختبار شخصي على ضوء حالته الفردية والتوزيع الجغرافي للمهاجرين والذي يتحدد سنويا تبعا لوضع الاستخدام واخيرا هناك حالاتان تستوجب سحب رخصة العمل من العامل المهاجر ، وهما :

١ - عندما يكون الاجنبي عاطلا عن العمل لفترة تزيد عن ستة اشهر .

٢ - عندما يلغى عقد عمله بسبب رجوعه متأخرا من اجازته

(٣٦) Ibid, 1982, P. 17.

(٣٧) Sergeldin, I., and others, "some issues related to Labour Migration in the Middle East and North Africa", The

Middle East Journal, Vol. 38, No. 4, P. 615

Mered, weekly Magazine, London, February 1986, P. 10.

(٣٨)

بل أكثر من ذلك فقد قامت فرنسا بتقديم مشاريع لمساعدة المهاجرين على العودة لأوطانهم وعرضتهم للبطالة حتى يتاح لها فرص تطبيق القوانين الجديدة .

ان هذه الاجراءات وهذا الدافع لهجرة معاكسة عرض دول المغرب العربي لمشكلات اقتصادية في الوقت الذي تعاني من ازدياد البطالة وانخفاض فرص العمل . ان معظم المهاجرين من دول المغرب العربي الى اوروبا والذين غادروا اوروبا او يخططون لذلك يتجهون الى بلدهم الام وليس الى جهة اخرى . وهذا ما يزيد المشكلة تعقيدا بالنسبة لدول المغرب العربية .

تتصف العمالة المغربية في فرنسا بانها تتكون غالبا من العمالة المتدنية (اي العمالة العادية) فهي تشكل طبقتي العمالة المهاجرة وغير المهاجرة . بالنسبة للجزائريين فهي تشكل ٧٣٪ وبين المغاربة حوالي ٧٠٪ وبين التونسيين تشكل ٦٨٪ والعمالة المغربية تعمل في الغالب في قطاع البناء والتشييد والصناعات الثقيلة . اما في قطاع الزراعة فهم يشكلون نسبة قليلة جدا بين العمالة المغربية ككل ، وقد كانت نسبة التونسيين العاملين بالزراعة ٣٠٪ والمغاربة ١٣٪ وهي اعلاها اما نسبة الجزائريين فتشكل اقل نسبة وهي ١٪ (٣٩) .

ويشكل مهاجرو المملكة المغربية العمالة الاقل مهارة يعقبها مهاجرو دول المغرب العربي وهؤلاء يمارسون نمطا تعتبر من ادنى السلم المهني . ويعتبرون اقل عددا من مهاجري تونس والجزائر وبذلك فهم لا يشكلون مشكلة بارزة كما في حالة الدولتين المغربيتين الاخرين . اذا فالهجرة لدول المغرب العربي المعاكسة من اوروبا حدثت وكأنها هجرة قسرية او على الاقل تمحكت فيها عوامل الطرد . وليس لعوامل الجذب اي دور فالصراع بين العمالة الاوروبية والمغربية وصل الى حد استخدام العنف ضد المغاربة واصبح المهاجرون المغاربة غير مرغوب فيهم وتزامن هذا العامل مع تشريع قوانين تحد من الهجرة المغربية بل انها تعمل على التخلص منها .

ان عدد التونسيين في فرنسا - هو كما قلنا في البداية - اقل من المهاجرين الجزائريين ، فقد قدر عدد التونسيين المهاجرين الى فرنسا بحوالي ٥٢,٠٠٠ الف عام ١٩٦٥ وقد ارتفع عددهم الى ٩٧,٠٠٠ الف عام ١٩٧٠ واستمروا في التزايد الى ان وصل عددهم الى ١٧٤,٠٠٠ ألف مهاجر عام ١٩٧٥ ثم بلغ عددهم حوالي ٢٠٠,٠٠٠ ألف عام ١٩٧٩ . هذا التزايد لا يميز الى تزايد حركة الهجرة من تونس الى فرنسا فقط وانما يعزى ايضا الى زيادة طبيعية وانضمام الاسر الى عائلها من جهة اخرى ويختلف المهاجرون التونسيون عن باقي مهاجري دول المغرب العربي بان بقاءهم في بلد المهجر لا تستمر مدته طويلا وقد قدر متوسط البقاء ما بين ٣ - ٤ سنوات . وفي دراسة عن المهاجرين التونسيين ابدى ٧٧٪ منهم عدم عزمهم على البقاء بشكل دائم في فرنسا (٤٠)

(٣٩) منظمة العمل العربية ، مكتب العمل العربي ، ١٩٨٠ ، ص ٨ .

Meed, 1986, P. 10.

(٤٠)

وقد تبين ان السبب في ذلك يعود الى بساطة الاهداف التي يريد ان يحققها المهاجر التونسي مثل بناء بيت او تأسيس عمل خاص في بلده . ومع ذلك فان الحكومة التونسية تتخذ اجراءات من شأنها تخير مواطنيها في البقاء مدة اطول في بلد المهجر ويتمثل هذا في القانون الذي صدر عام ١٩٨٠ والذي يسمح للمهاجر التونسي باستيراد بضائع معينة مثل السيارات والثلاجات وغيرها بشرط ان يمضي اكثر من سنتين في بلد المهجر كما ان الدولة تساعد في الحصول على مسكن في نفس الشروط . ولقد قدر حجم الهجرة المعاكسة بحوالي ١٪ سنويا من مجموع المهاجرين في فترة معينة وتمثل هذه النسبة بحوالي ٣٠,٠٠٠ الى ٤٠,٠٠٠ آلاف عائد سنوي . الا ان الهجرة التونسية على تواضع حجمها واجهت مشكلات لم تواجهها بقية المهجرات في دول المغرب العربي ، فبالاضافة الى مواجهته بشكل مشترك مع المهاجرين الجزائريين لمضايقات واجراءات رسمية من قبل السلطات الفرنسية دفعتهن للعودة الى بلدهن . نقول ان الهجرة التونسية واجهت مشكلة العودة القوية من ليبيا في عامي ١٩٧٤ و ١٩٨٦ . وقد عانت تونس من العودة الجماعية او ربما يسمى بالمجرة المعاكسة ، اجتماعيا واقتصاديا فقد واجهت مشكلة ايجاد فرص عمل هؤلاء العائدين وكذلك مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى .

اما في الجزائر فقد بدأت الهجرة المعاكسة عشية استقلال الجزائر ، وقد عاجلت معاهدة الاستقلال والتي سميت باتفاقية افيان مشكلة الهجرة الجزائرية في فرنسا ولذلك فقد كانت من ضمن اولويات السياسة الداخلية للجزائر المستقلة مواجهة عودة الجزائريين . ان الجزائر وهي التي كانت تجمع شتات نفسها بعد معركة الاستقلال وبعد ان ترك الفرنسيون الاراضي الزراعية والمصانع بدون خطوات تهديدية مع الوطنية الجزائرية اي انهم تركوا الاقتصاد الجزائري في موقف حرج ففي هذا الوقت واجهت الجزائر مشكلات معقدة نتيجة للهجرة المعاكسة ومن هذه المشكلات ان الصناعة الوطنية كانت في مراحلها الاولى ولذلك فان عودة عمالة جزائرية مدربة تدريبا عاليا في مجالات صناعية رفيعة المستوى بالنسبة للصناعة الوليدة بل اصبحت مشكلة بحد ذاتها اضافة الى مشكلة الاسكان والخدمات الاخرى والبطالة . ولكن القضية بالنسبة للجزائريين كانت ذات بعدين ، البعد الاول وطني على اساس اهمية استعادة الجزائر كفاءة ابنائها في الخارج وكذلك حفاظا على كرامة مواطنيها الذين يتعرضون لمعاملة سيئة والبعد الثاني يتمثل في اتجاه فرنسا وبقية اوروبا للتخلص من المهاجرين الجزائريين . فبالاضافة الى الاجراءات القسرية كانت هناك اتفاقات مع فرنسا تحتم عودة الجزائريين وذلك عن طريق تقديم من فرنسا المساعدات المادية للعائدين وهذا وقد حددت مدة تلك الاتفاقات بثلاث سنوات انتهت عام ١٩٨٣^(١١) وكان هدف الاتفاقية هو عودة ٣٥٠,٠٠٠ ألف مهاجر جزائري سنويا ولكن ما تحقق بالعمل هو اقل من ذلك فقد انخفض العدد الى حوالي ٢٠,٠٠٠ ألف بمن فيهم من عاد خارج اطار الاتفاقية .

ان معاناة المهاجرين الجزائريين ربما تكون اقصى من تلك المتعلقة بالمهاجرين من بقية دول المغرب العربي ، فالمهاجرون الجزائريون امضوا فترة طويلة في فرنسا وتكونت اسر بالكامل عن طريق الزيادة الطبيعية وترعرع الجزائريون هناك منذ ولادتهم وقد ادى هذا الى مشاكل اجتماعية تتمثل بصعوبة الكيف مع الحياة الاجتماعية في الجزائر وطول مدة

Lawless, R., and others, 1982, P. 22.

(١١)

عملية التفاعل والاندماج الاجتماعي اضافة الى المشاكل الاقتصادية الاخرى مثل العمل والاتفاق والادخار . ومع ذلك فان اجراءات معينة اتخذت في الجزائر حيال المهاجرين تتراوح بين التحفيز مثل تسهيل الاستيراد لبعض البضائع وتوفير السكن وفرص العمل للمهاجر العائد الذي امضى ثلاث سنوات في فرنسا وبين فرض ضريبة على الدخل في اوروا ولتوفيرها في المصارف الجزائرية .

اما في حالة المملكة المغربية فان الهجرة لها مميزات تختلف بعض الشيء عن هجرة التونسيين والجزائريين واول ما تتميز به الهجرة المغربية هي انها في الغالب هجرة في اتجاه واحد لفترة طويلة فمعظم المهاجرين من المغرب يعودون بعد ان يصلوا سن التقاعد^(٤٢) وما يميزها ايضا انه لا توجد خطط او برامج حكومية تتعلق بعودة مهاجرين من اوروا ولذلك فليست هناك اجراءات لتحفيز المهاجرين للعودة واقامة مشاريع لاستيعابهم في مجتمع الام والامر الثالث الذي يميز الهجرة المغربية انها تمارس هجرة موسمية في اوروا للعمل في النشاط الزراعي ويقضي هؤلاء المهاجرون كل سنة فترة تقل قليلا عن ثلاثة اشهر وهي الفترة التي يسمح بها للسائح في اوروا ويتراوح عدد المهاجرين الموسمين بين ٥٠,٠٠٠ آلاف و ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر بين ١٩٧٥ و ١٩٧٩ وعلى العموم فيقدر عدد المهاجرين من المغرب الى اوروا بحوالي ٢٣٠,٠٠٠ ألف في فرنسا وحدها وقد ارتفع عدد المهاجرين من المغرب من ١٤٢,٠٠٠ ألف الى ١٥٢,٠٠٠ ألف عام ١٩٧٧ وعن الهجرة المعاكسة من المهاجرين من المغرب قلنا منذ البداية انها ضعيفة ويعود ذلك الى تدني دخول المغاربة في الهجرة بسبب ممارستهم لمهن متدنية وهذا لا يساعدهم على تحقيق اهدافهم التي هاجروا من اجلها ومع ان المهاجرين من المغرب لا يفكرون في البقاء بشكل دائم بالمهاجر الا ان اقامتهم تطول هناك^(٤٣) لعدة سنوات وليس هنا احصاءات عن عدد العائدين من المهاجر الى وطنهم Lawles^(٤٤) ان هناك تعميم على هذه المعلومات الا انه يقول في مكان آخر ان ربما يكون عدد العائدين سنويا حوالي ١٠,٠٠٠ آلاف مهاجر . ويعتمد المغرب على عوائد المهاجرين ومداخيلهم في اقتصاده الوطني وقد قدرت قيمة التحويلات بحوالي ٤٢٨ مليون جنيه استرليني عام ١٩٧٩ الا ان هذه التحويلات لا تستخدم في تمويل الاستثمارات في الأنشطة الانتاجية مع عدم اغفال اهمية التحويلات على المستوى القومي والفردى كذلك وعلى العموم فان المغرب لا يستفيد من خبرة مهاجريه وما اكتسبوه من تدريب لان معظم العائدين كما قلنا يعودون وهم في سن التقاعد .

ان المهاجرين المغاربة في اوروا يمثلون بلا شك مجموعة سكانية تختلف عرقيا وثقافيا عن المجموعة الاوروبية وهذه الخصائص تلعب دورا في مدى تقبل المجتمع المستقبل فجرة المهاجرين ففي اوروا مثلا نجد ان الالماني والبلجيكي يواجه مواقف في فرنسا تختلف كثيرا عما يواجه المهاجر العربي او الافريقي سواء في التعامل اليومي او على مستوى التعامل الرسمي فالمهاجر المغربي يشعر بان لونه هو جنسيته في فرنسا وكما قال احد المغاربة في فرنسا « بوجهي ، ماذا يعني الفرق اذا ما كنت احمل الجنسية الفرنسية ام لا ، فانا اعامل هنا دائما كعربي »^(٤٥)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٢)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٣)

Ibid, 1982, P. 31.

(٤٤)

Meed, 1986, P. 10.

(٤٥)

ولهذا فإن قضية هجرة العودة أو الهجرة المعاكسة هي الشيء الحتمي بالنسبة للهجرة المغربية ففي دراسة عن الشباب من شمال أفريقيا (المغرب) أوضحت ٧٠٪ من العينة المتتقة أنهم يرغبون في البقاء في فرنسا ولكن هناك ٢٥٪ فقط يرغبون بحمل الجنسية الفرنسية^(١٦) . والحقيقة أن أسباب الهجرة تبقى هي العامل الذي يحدد مدة بقاء المهاجر أو عودته فالظروف الاقتصادية الصعبة وانتشار البطالة في المغرب العربي من الأسباب التي تدفع للمغاربة للهجرة الى فرنسا أما على الجانب الآخر فإن الظروف التي يعيشها المهاجر المغربي تؤثر أيضاً في بقاءه أو عودته فهناك دراسة^(١٧) عن أحوال المهاجرين المغاربة بينت أن هناك تفرقة بالأجور والحقوق الأخرى مثل السكن وتقلد المناصب كذلك هناك مواجهة اجتماعية بين الفرنسيين والمهاجرين المغاربة وصلت الى درجة العنف ، وقد أوضحت الدراسة ذاتها أن الأسباب الاقتصادية في المغرب العربي كانت وراء استمرارية بقاء حوالي ٨٠٪ في فرنسا لمدة أكثر من عشر سنوات .

بعد أن بينت الدراسة مفهوم الهجرة والهجرة المعاكسة استخدمت منطقة الخليج العربي كنموذج للمنطقة المستقبلية للهجرة واستخدمت دول المغرب العربي كنموذج للمنطقة المصدرة للهجرة في نفس الوقت التي تشمل منطقة مستقبلية للهجرة المعاكسة وقد أوضحت الدراسة كذلك عوامل الجذب والطرء لنوعي الهجرة والمشكلات المحيطة بها .

تنتقل الآن الدراسة لنموذج آخر وهو الهجرة النوعية والتي تتميز بخصائص معينة ونطلق عليها عام هجرة العقول أو الكفاءات العربية الى الدول المتقدمة وتأخذ بريطانيا كنموذج لهذه الهجرة .

الهجرة العربية الى المملكة المتحدة* :

ترجع الهجرة العربية الى المملكة المتحدة الى أكثر من قرن ولكنها اتخذت أبعاداً مختلفة وتبلورت في السنوات الأخيرة . فقد بدأت الهجرة الى المملكة المتحدة على مستوى الأفراد أو مجموعات صغيرة جداً ارتبطت بأنشطة محدودة مثل النشاط البحري في القرن التاسع عشر ويمثل اليمينيون والصوماليون الرواد الأوائل للمهاجرين العرب وقد كان نشاط هؤلاء المهاجرين يقوم على العمل على السفن البريطانية التي كانت تقوم بنشاط بحري بين بريطانيا والمنطقة العربية والمحيط الهندي . أما المجموعة الثانية والتي تلت المجموعة الأولى فقد كانت تضم رجال أعمال قاموا بأنشطة تجارية إبان ازدهار صناعة الغزل والنسيج في مدينة مانشستر البريطانية وكان الرواد الأوائل من هؤلاء هم السوريين واللبنانيون وتلتهم مجموعة ثالثة من اليمن وقد عمل المهاجرون من اليمن في الزراعة وفي المؤسسات الصغيرة في السهل الأوسط البريطاني - كانت هذه الهجرات صغيرة لا يتعدى عدد أفرادها ٦٠ ألف مهاجر ينخفض هذا العدد ويرتفع

Ibid, P. 10.

(١٦)

The Middle East Magazin, London October, 1984, PP. 15-19.

(١٧)

* يستند هذا الجزء من الدراسة على دراسة عن الأيدي العاملة العربية في المملكة المتحدة زومت للباحث بواسطة جامعة لندن ، بدون تاريخ ، ومؤلف ، للاطلاع راجع الباحث

بحسب الحالة الاقتصادية في بريطانيا ولقد استقر العدد في نهاية ١٩٤٥ عند ١٢,٠٠٠ ألف مهاجر عربي معظمهم من اليمن والصومال وسوريا .

لقد بدأت ملامح هذه الهجرة تتبلور ملامحها وخصائصها في بداية السبعينات وأصبحت الهجرة العربية في بريطانيا تشتمل على نوعين رئيسيين من المهاجرين ، يتكون النوع الأول من رجال مال واقتصاد حولوا نشاطهم الاقتصادي إلى بريطانيا نتيجة للأوضاع غير المستقرة في المنطقة العربية والمشكلات التي ترتبت على حرب ١٩٦٧ و للدمار الذي لحق بلبنان نتيجة للحرب الأهلية . أما النوع الثاني فيتكون من الكفاءات العربية من مهندسين وأطباء وأساتذة الجامعات وفي الحقيقة تعتبر هذه النوعية من المهاجرين خسارة كبيرة للقوى العربية في المنطقة البشرية إضافة إلى استنزاف الطاقة المادية فقد قدرت ما أنفقتة الدول النامية ومنها معظم الدول العربية على ما يزيد على ٤٠ بليون دولار خلال الخمس عشرة سنة الأخيرة مقابل تدريب هذه العناصر فقط وهذه العناصر ما زالت تفضل البقاء خارج الوطن كما قدرت الخسارة في الكفاءات العربية وحدها وحتى عام ١٩٧٧ بما يقارب ٢٤,٠٠٠ ألف طبيب بما يماثل ثلث جملة الأطباء العرب و ١٧,٠٠٠ ألف مهندس فيما يعادل حوالي ٩/١ من جملة المهندسين العرب و ٧,٥٠٠ من العاملين في المجالات العلمية ويعادل هذا الرقم ١٢/١ من مجملتهم في العالم العربي أما من الناحية المادية فقد قدرت خسارة العالم العربي السنوية نتيجة لهجرة هذه الكفاءات بما يعادل ٤٠٠ مليون دولار .

يقدر عدد المهاجرين العرب في بريطانيا في الوقت الحاضر بحوالي ربع مليون مهاجر جاءوا من إحدى عشرة دولة عربية هي مصر ، لبنان ، تونس ، الجزائر ، المغرب ، الجمهورية العربية اليمنية ، جمهورية اليمن الديمقراطية ، الأردن وفلسطين . إذا أردنا أن نعرف مدى الخسارة في الكفاءات العربية نأخذ السودان كمثال عندما نعرف أن السودان خسر ما بين ١٩٤٤ - ١٩٧٩ حوالي ٦٠٪ من الأطباء و ٥٠٪ من المهندسين و ٢٥٪ من أساتذة الجامعات إن هذه الخسارة في الكفاءات العربية تبين لنا مدى الآثار السلبية للهجرة . تشكل بريطانيا منطقة جذب المهاجرين العرب لعدة عوامل : وجود الجامعات العديدة التي اكتسبت شهرة لاهتمامها بالدراسات المتعلقة بمنطقة الشرق الأوسط والخليج العربي ونتيجة أيضاً للعلاقات التاريخية بين بريطانيا والعالم العربي وتعزو الكفاءات العربية سبب هجرتها إلى بريطانيا إلى الحرية السياسية والاقتصادية وحرية البحث العلمي وإلى ما تتمتع به لندن كأحد المراكز الرئيسية التجارية في العالم وبخاصة في مجال البنوك ومؤسسات الاستثمار وغل كل لا يتطلع معظم المهاجرين العرب في بريطانيا إلى الاستقرار النهائي وإنهاء علاقتهم بوطنهم الأم ، ولكن هناك نسبة منهم تقيم إقامة دائمة في بريطانيا وهي مقارنة بالعدد الكلي للمهاجرين تشكل نسبة ضئيلة . يوضح لنا جدول رقم (٨) أنه في عام ١٩٧٦ و ١٩٧٨ حصل ٣,٣٤٤٠ ألف على إقامة دائمة في بريطانيا ويشكل المصريون نسبة كبيرة من هؤلاء (١٥٣٢) ومن المغرب ٧٤٢ ومن العراق ٧٤٩ أما في عام ١٩٧٩ يشير جدول رقم (٩) إلى أن ١٧٧٥ مهاجراً حصلوا على إقامة في بريطانيا منهم ١٦٦٣ حصلوا على إقامة دائمة وأخذنا مثلاً هجرة الكفاءات العربية في بريطانيا نجد أن ٦٣٥٦ طبيباً عربياً يعمل في بريطانيا ويشكل المصريون أغلبية بين هؤلاء يليهم العراقيون . وخلاصة القول في هذا الجزء من الدراسة أن الهجرة العربية إلى خارج الوطن العربي تشكل استنزافاً للطاقة البشرية العربية وللمال العربي وإضعافاً لعملية التنمية التي تواجه مشكلة نقص العنصر البشري سواء في تحطيطها وإدارتها أم تنفيذها .

جدول رقم (٨)
عدد رعايا بعض الدول العربية الذين منحوا إقامة دائمة
في المملكة المتحدة ١٩٧٨/٧٦
السنة

الدولة	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	المجموع
الجزائر	٧٧	٣٧	٨١	١٩٥
مصر	٥٠٢	٤٨٢	٥٤٩	١٥٣٣
العراق	٢٧٦	٢٣٢	٢٤١	٧٤٩
المغرب	٢٤١	١٨١	٣٣٠	٧٥٢
تونس	٥٣	٤٢	١٢٠	٢١٥
المجموع	١١٤٩	٩٧٤	١٣٢١	٣٤٤٤

Source : Control of Immigration statistics, United Kingdom, 1979, cmd 7875, April 1980.

جدول رقم (٩)
عدد المواطنين العرب الذين منحوا إقامة دائمة في المملكة المتحدة
عام ١٩٧٩

الدولة	مواطنون عرب منحوا الإقامة الدائمة لدى قدومهم مباشرة				مواطنون عرب منحوا الإقامة الدائمة بعد انتهاء الإقامة المحدودة (٤ سنوات)				المجموع الكلي			
	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع	رجال	نساء	أطفال	المجموع
الجزائر	٤	٥	٤	١٣	٧٩	١٤	١	٩٤	٨٣	١٩	٥	١٠٧
مصر	٦	١٦	٢	٢٤	٣٥٤	١٢٤	٤٦	٥٢٤	٣٦٠	١٤٠	٤٨	٥٤٨
العراق	٤	٥	-	٩	١٤١	٦٦	٢٨	٢٣٥	١٤٥	٧١	٢٨	٢٤٤
الأردن	٤	٧	٣	١٤	٧٦	٢٤	١	١٠١	٨٠	٣١	٤	١١٥
لبنان	٧	١٥	١٥	١٥	٣٥	١٧	١٧	١٣٦	٩١	٤٢	١٨	١٥١
ليبيا	-	-	١	١	٥٠	٤	١٣	٦٧	٥٠	١٣	٥	٦٨
المغرب	٥	٩	-	١٤	١٣٥	٧٦	٣٢	٢٤٣	١٤٠	٨٥	٣٢	٢٥٧
السعودية	-	-	١٢	١	١٨	١	٥	١٢	١٨	١	١	٢٠
الصومال	-	٢	٧	٥	٧	١	١٣	٧	٧	٦	٧	٢٠
السودان	٢	-	-	٢	٥٣	١٩	٧	٧٩	٥٥	١٩	٧	٨١
سوريا	-	٤	-	٤	٥٠	١٥	٧	٧٢	٥٠	١٩	٧	٧٦
تونس	٣	٤	-	٩	٦٣	١٣	٥	٨١	٦٦	١٩	٥	٩٠
الاجمالي	٣٥	٦١	١٦	١١٢	١١٠٤	٤٠٩	١٥٠	١٦٣٩	١١٣٩	٤٧٠	١٦٦	١٧٧٥

SOURCE : Control of Immigration statistics, United Kingdom, 1979, cmd 7875 April 1980.

الخلاصة :

الهجرة ، كحركة سكانية ، ستبقى عنصراً من عناصر الحياة على وجه هذه الأرض . فطبيعة الأشياء في هذه الحياة لا تبقى منطقة جغرافية واحدة تعيش نمطاً بمستوى واحد لا يتغير ، والإنسان هو المحرك للعناصر الحية على وجه هذه الأرض ولذلك فإن تطور أي منطقة جغرافية بمواردها المختلفة يعتمد على الإنسان وقد تكون منطقة معينة مكتفية ذاتياً من ناحية البشرية في فترة زمنية معينة ولكنها قد تعاني سلباً أو إيجاباً في فترة أخرى . فإذا أخذنا الكويت كأقرب مثل لنا ، نجد أنها بمواردها المتواضعة قبل اكتشاف النفط كانت تضم عدداً من السكان لا يزيد عن ١٥٠.٠٠٠ ألف نسمة ومع ذلك فإن سكانها كانوا يبيتون عن الرزق في أعماق البحر وفي مناطق أخرى ، وبعد اكتشاف النفط بقي سكانها على أرضها واحتاجوا أيضاً إلى أكثر من ضعفهم حتى يقوموا بمهمة البناء الاقتصادي والإداري والعمراني . فالهجرة في الكويت ارتبطت كما بينت الدراسة بالقضية الاقتصادية ويدل على ذلك ما تواجهه الهجرة (في منتصف الثمانينات) من قيود المحاولة لتقليل عدد المهاجرين فالحركة السكانية على وجه هذه الأرض تمثل معادلة هائلة كما هو الحال في علم الفيزياء فينتجها السكان إلى حيث إعادة التوازن في بقعات من الأرض .

وقد تحدث الهجرة لإعادة التوازن ليس للأرض فقط وإنما للإنسان نفسه فالإنسان بطبيعته يحيا بعناصر متعددة اقتصادية وسياسية واجتماعية والاهتمام بالحرية في حقول مختلفة فإذا ما حدث اختلال في التوازن في هذه العناصر تحرك الإنسان جغرافياً حيث يعيد التوازن لحياته . فالهجرة هي حركة الإنسان والأرض هي مسرح هذه الحركة يتجه الإنسان حيث يجد ما فقدته أو يكاد يفقده . إن الهجرة قضية قديمة قدم الإنسان على هذه الأرض ، ولنا في دراسة الانجاس البشرية برهان على ذلك يصل إلى وقتنا الحاضر وما أعطى الهجرة في وقتنا الحاضر إهتماماً كبيراً هو ما حدث من انتشار للعلاقات الاقتصادية والسياسية بين المجتمعات متمثلة بالمناطق الجغرافية الطبيعية والتي حددت شكل وحضارة الإنسان وبذلك صار الارتباط بين الأرض وبين عرق وحضارة معينة . ومن ناحية أخرى هو رسم الخطوط على الخرائط وارتبطت المناطق التي تقع بين هذه الخطوط بجنسية معينة أعطى قضية الهجرة مضموناً معيناً هو التزايد السكاني الرهيب داخل هذه المناطق وأدى التزايد إلى عجز الموارد المحلية عن الوفاء باحتياجات السكان ونتيجة لذلك اتجهت بعض المجموعات السكانية إلى مناطق أخرى تواجه نقصاً في الموارد البشرية أدى إلى عجز السكان عن استغلال مواردها . إن حركة السكان هذه ليست مجردة من عناصر أخرى فهي ليست أرقاماً فقط مع أن كثيراً من المشكلات ترتبط بهذه الأرقام إن هذه المشاكل التي يواجهها المهاجر والمجتمع المستقل له هي مشاكل اجتماعية واقتصادية وسياسية فهناك مشاكل الإسكان ومشاكل العمل ومشاكل التعليم والصحة والاستثمار وغيرها . إن تطور الإدارة بشكل عام والتي كان من ضمن هذه التطور بروز التخطيط كمنهج ووسيلة ويصبح علماً من العلوم يدرس في المعاهد والجامعات كل هذا أعطى للهجرة اهتماماً كبيراً . إن القضية أصبحت مرتبطة بقضايا متعددة وأصبحت الحلول لا ترتبط بالظروف الآتية ولكنها توجه للمستقبل المنظور أن الهجرة أصبحت تشكل هماً من هموم سياسة الدول ومن هنا لم يعد الإنسان حراً في تحركه الجغرافي بسبب التشريعات والقوانين والنظم التي تحدد مساري وحجم الهجرة لقد أصبحت قضية الهجرة من الأهمية إلى درجة أصبحت في بعض الدول أحد المواضيع في البرامج الانتخابية وخطط التنمية ففي السويد مثلاً يحق للمهاجر الذي

أقصى مدة ثلاث سنوات فأكثر وحتى اذا لم يحصل على الجنسية السويدية يحق له أن يرشح نفسه ويتخب في المجالس البلدية وما لهذا من أهمية حيث يستطيع هذا المهاجر أن يشارك في تطوير الكثير من أوجه حياة الإنسان في هذه الدول في الولايات المتحدة تتخذ قضايا الهجرة أهمية كبيرة ولذلك فطريق التجنس للمهاجر يمر بمراحل متعددة حيث يستطيع في النهاية وبعد أن يحصل على الجنسية أن يتقلد أعلى المناصب في هذه الدولة . وفي بريطانيا يحق لكل من يوجد على أرضها أن يحصل على الجنسية البريطانية عندما يبلغ السن القانوني . إن قضية الهجرة ترتبط بالنهاية بعملية التنمية والقضايا الاقتصادية بشكل خاص ولذلك تهتم الدول بقضية الهجرة لأنها تعني إضافة سكانية على أرضها وما يتبع ذلك من توفير لكثير من متطلبات الحياة في الكويت نجد أن نصف الخطة القومية والهيكلية موجهة للسكان غير الكويتيين مثل الاسكان والطرق والخدمات الأخرى فمن حيث الاسكان نجد أن الوحدات السكنية للمهاجرين تفوق عدد الوحدات السكنية للكويتيين .

أما الجانب الاجتماعي في موضوع الهجرة فهو أعمق بكثير لأنه يهتم بالإنسان بشكل مباشر ولذلك تحاول الدول الا يغطي عدد المهاجرين على عدد السكان الأصليين لأن ذلك يؤثر في كثير من العناصر مثل الثقافة واللغة والحضارة والعادات والتقاليد فقضية العزلة الاجتماعية التي تواجهها المجموعات المهاجرة في بلدان المهجر تثير القلق وان محاولات الاستيعاب الاجتماعي تواجه كثيراً من العراقيل لقد عولجت هذه القضايا في هذه الدراسة واتضح لنا ما تتعرض له المجتمعات من مشكلات كثيرة عندما تتعرض للهجرة ومن جانب آخر أوضحت ما يتعرض له المهاجرون في دول المهجر . فالدراسة أوضحت أن الهجرة ليست طريقاً باتجاه واحد وإنما طريقان باتجاهين متضادين هما طريق الهجرة الى بلد المهجر وطريق العودة وطريق آخر ليس أسهل من الطريق الأول وليس مجرداً من المشاكل فعودة المهاجرين الى وطنهم أصبحت تشكل قضية من القضايا التي تحظى باهتمام متزايد فعودة المهاجرين تعني توفير فرص عمل هؤلاء وحل لمشكلة البطالة وتوفير المساكن والخدمات الأخرى وإن هذه العناصر تؤثر بعناصر أخرى مثل سعر الأرض ومواد البناء وتوفير المبالغ المطلوبة إما الجانب الآخر فهو بالطبع إجتماعي فعودة المهاجرين من مجتمعات لها خصائص إجتماعية وسياسية مختلفة لها بالتأكيد تأثيرات على المجتمع الأم ولا تقتصر هذه القضية على سلوكيات إجتماعية يكتسبها المهاجر بل تتعداها الى سلوكيات اقتصادية مثل اكتساب عادات الاستهلاك والادخار والانفاق فالمهاجر الذي يعود من بلد تتوفر فيه معظم مستلزمات الحياة الضرورية والكمالية ويعود على التعامل معها فإنه سيتقبلها معه الى بلد الأم وقد لا يكون هذا سهلاً عندما لا تتوفر مثل هذه المستلزمات .

الهجرة عملية مستمرة استمرار حياة الإنسان والنمو السكاني والاختلافات بين المناطق الجغرافية المختلفة وإذا كانت الهجرة في وقتنا الراهن تواجه بالنظم والقوانين فإن عدم التوازن الاقتصادي والاجتماعي بين المناطق الجغرافية المختلفة سوف يجد من فعالية هذه الأنظمة والقوانين لتستمر حركة الهجرة .

مقدمة :

بينما وفرت عائدات النفط موارد مالية يمكن استخدامها لتمويل عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية ، عجز العرض المحلي من العمالة ، بسبب صغر حجم السكان من جهة ونُدرة المهارات من جهة أخرى ، عن تلبية الطلب على العمالة منذ بداية مسيرة التنمية في الكويت في أوائل الخمسينات^(١) .

ومنذ البداية تم سد العجز بين العرض المحلي من العمالة والطلب عليها بعمالة وافدة . وأدى غو عائدات النفط وتزايد وتنوع عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية وبالتالي تزايد وتنوع الطلب على العمالة ، خاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في أواخر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات ، إلى ازدياد عجز العرض المحلي من العمالة وازدياد الاعتماد على العمالة الوافدة لمواجهة احتياجات مختلف القطاعات من مختلف أنواع ومستويات المهارات .

وأدى الانكماش الاقتصادي العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى بالتالي إلى تباطؤ النمو الاقتصادي وتباطؤ نمو الطلب على العمالة^(٢) .

وبسبب تراجع أسعار النفط في عام ١٩٨٣ ازداد اتجاه العائدات النفطية إلى الانخفاض وأدى تدهور الأسعار منذ أواخر ١٩٨٥ إلى تدهور الإيرادات النفطية . وبما أن الإيرادات النفطية كانت ، ولا زالت ، العمود الفقري لإيرادات الحكومة ، اضطرت الحكومة إلى تخفيض ميزانية ١٩٨٥/١٩٨٦ بعد اعتمادها لمواجهة الانخفاض في إيراداتها .

الهجرة والرجعة العاكسة في الكويت دروس الماضي وآفاق المستقبل

محمد صادق

(١) تم تصدير أول شحنة من النفط الخام عام ١٩٤٦ . وبدأت الحكومة في بناء الهياكل الأساسية وتوسيع الخدمات الاجتماعية خاصة في التعليم والصحة في الفترة التي تلت البدء في إنتاج وتصدير النفط الخام وحصولها على العائدات النفطية . لذا يمكن اعتبار بداية الخمسينات بداية مسيرة التنمية بشكل واضح .

(٢) تزامن تراجع العائدات النفطية مع الحرب بين العراق وإيران منذ أواخر ١٩٨٠ وأزمة سوق النفط في أواخر ١٩٨٢ . وأدت هذه العوامل معتمدة إلى تباطؤ النمو الاقتصادي .

وأدت هذه التطورات الاقتصادية إلى تنامي اهتمام الحكومة باعتماد سياسات واتخاذ إجراءات نحو توازن سكاني، وحظى تعديل التركيبة السكانية باهتمام خاص في الخطة الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ - ١٩٨٩/١٩٩٠ وشكل المحور الرئيسي لتوجهاتها .

واجه القطاع الخاص ، ولا زال يواجه ، تراجع الطلب على العمالة بإجراءات تراوحت بين الاستغناء عن العمالة الوافدة الزائدة وتخفيض الأجور والمرتبات وإلغاء بعض المزايا^(٣) . وقررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين من العاملين في مختلف الوزارات والمؤسسات والهيئات العامة في مطلع صيف هذا العام .

وما لم تتم عملية الاستغناء عن العمالة الوافدة على أساس خطة مدروسة فإنه يصعب تجنب الآثار السلبية التي قد تنجم عنها . لذا تحاول هذه الدراسة المساهمة في إثارة الطريق نحو الخيارات الممكنة لاجتياز المرحلة الراهنة والتقدم بثبات نحو المرحلة المقبلة .

تبدأ الدراسة باستعراض مدى الاعتماد على العمالة الوافدة حسب القطاعات الاقتصادية والمهن . يلي ذلك عرض لنمو السكان والتطورات التي طرأت على مختلف جوانب الهيكل السكاني .

وأخيراً تحاول الدراسة استشراف آفاق المستقبل المنظور بالنسبة لمدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة من جهة وإلغاء الضوء على بعض الأمور التي يستحسن أخذها بعين الاعتبار عند النظر في الخيارات الممكنة لمواجهة المرحلة الانتقالية الحالية والتقدم بثبات نحو المستقبل .

تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة

يبين الجدول (١) حجم ومعدلات النمو السنوية لقوة العمل حسب النوع والجنسية بين سنوات التعدادات . ومن أبرز السمات التي يواجهها هذا الجدول ما يلي :

١ - ارتفاع وتباين معدلات النمو :

بلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل الكويتية ٦,٦٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٢٪ خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ و ٨,٧٪ خلال ١٩٦٥ - ١٩٧٠ . وبلغ معدل النمو السنوي لجملة قوة العمل غير الكويتية ٨,٨٪ بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وتراوح بين ٣,٨٪ خلال ١٩٧٠ و ١٩٧٥ و ١٢,٥٪ خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ . وبلغ معدل النمو السنوي لمجموع قوة العمل ٨,٢٪ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ وتراوح بين ٤,٧٪ خلال ١٩٧٥ - ١٩٧٠ و ١٠,٩٪ خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦٥ . وتعتبر معدلات النمو السنوية لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية ومجموع قوة العمل ، على السواء ، مرتفعة ، قياساً على معدلات النمو السنوية السائدة في العالم . فكيف يمكن تفسير ارتفاع معدلات النمو ؟

(٣) لا تتوفر بيانات عن مدى تخفيض العمالة وتخفيض المرتبات والأجور وإلغاء المزايا . ولكن من الثابت أن العمالة انتفعت في قطاع التشييد والبناء وأن العديد من الشركات والمؤسسات في القطاع الخاص قامت بتخفيض الرواتب بنسب مختلفة وصلت في بعض الحالات إلى ٢٥٪ .

إن حجم السكان ، من جهة ، والهيكلة العمري والهيكلة النوعي ، من جهة أخرى ، تحدد في المقام الأول ، حجم العرض من قوة العمل .

ويمكن تفسير معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، في المقام الأول ، بارتفاع معدلات نمو السكان الكويتيين . ولكن ما الذي أدى إلى ارتفاع معدل نمو السكان الكويتيين ؟ سنحاول إلقاء الضوء على بعض العوامل التي يمكن أن تكشف عن أسبابه عند استعراض نمو السكان . أما معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية فلا يمكن تفسيرها بارتفاع معدلات نمو السكان غير الكويتيين ، إذ أن نمو السكان غير الكويتيين كان نتيجة وليس سبباً لنمو قوة العمل غير الكويتية .

وكما سنبين فيما بعد حدد حجم العمالة الوافدة من جهة ومعدل المرافقة^(٤) لها من جهة أخرى حجم السكان غير الكويتيين ، بمعنى آخر بينما كانت معدلات النمو المرتفعة للسكان الكويتيين السبب الرئيسي في معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل الكويتية ، كانت معدلات النمو المرتفعة لقوة العمل غير الكويتية السبب الرئيسي في المعدلات المرتفعة لنمو السكان غير الكويتيين .

٢ - زيادة معدل نمو الاناث عن معدل نمو الذكور :

كما يستدل من الجدول (١) ، فقد فاق معدل نمو الاناث معدل نمو الذكور بالنسبة لقوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء بين عام ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

فقد بلغ معدل النمو السنوي للاناث ١٧,٠٪ و ١٥,٨٪ و ١٦,٠٪ بينما بلغ معدل النمو السنوي للذكور ٦,١٪ و ٨,٣٪ و ٧,٧٪ في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وجملة قوة العمل ، على التوالي ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ ، وقد فاق معدل نمو الاناث معدل نمو الذكور في قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية وفي جملة قوة العمل في جميع الفترات ، وباستثناء ١٩٨٥ - ١٩٨٠ ، حيث فاق معدل الذكور معدل نمو الاناث ، ١٢,٦٪ مقابل ١٢,١٪ في قوة العمل غير الكويتية .

أدت زيادة معدل نمو الاناث عن معدل نمو الذكور إلى ارتفاع نسبة الاناث في قوة العمل ، وبالتالي إلى زيادة تانث قوة العمل الكويتية وغير الكويتية وجملة قوة العمل على السواء . فكما يتضح من الجدول (٢) فقد انجذبت نسبة الاناث إلى الارتفاع بينما انجذبت نسبة الذكور إلى الانخفاض باستمرار . فقد تزايدت نسبة الاناث في جملة قوة العمل الكويتية باستمرار وارتفعت من ١٦,٦ عام ١٩٥٧ إلى ١٣,٢٪^(٥) ، كما تزايدت نسبة الاناث في جملة قوة العمل الكويتية بين عام ١٩٥٧ و ١٩٧٥ حيث ارتفعت من ١٣,٠٪ بين نفس العامين ، ولكنها انخفضت قليلاً ، إلى ١٢,٨٪ عام ١٩٨٠ . أما نسبة الاناث في جملة قوة العمل فقد تزايدت باستمرار وارتفعت من ٢,٦٪ عام ١٩٥٧ إلى ١٢,٩٪ عام ١٩٨٠ .

(٤) يقدر من البسيط معدل المرافقة بساوي ١٠٠ - معدل المشاركة . بما أن معدل المشاركة يساوي قوة العمل كسبة مئوية من جملة السكان يكون معدل المرافقة للسكان خارج قوة العمل كسبة مئوية من جملة السكان .

(٥) تشمل قوة العمل (١٥ سنة فأكثر) :

- المشتغلون

- المتطلون الجدد

- المتطلون الذين سبق لهم العمل .

ويشمل ذوي النشاط المشتغلين والمتطلون الذين سبق لهم العمل .

جدول رقم (٢)
قوة العمل حسب النوع والجنسية
(نسب مئوية)

المجموع		غير كويتي		كويتي		
				اناث	ذكور	
٢٠٦	٩٧٤	٢٠	٩٧٠	١٦	٩٨٤	١٩٥٧
٢٠٨	٩٥٢	٥٤	٩٤٦	٢٥	٩٧٥	١٩٦٥
٦٠٩	٩٢١	٨٢	٩١٨	٢١	٩٦٩	١٩٧٠
١١٠٦	٨٨٤	١٢٠	٨٧٠	٨١	٩١٩	١٩٧٥
١٢٠٩	٨٧١	١٢٨	٨٧٢	١٢٢	٨٦٨	١٩٨٠

المصدر : تم احتساب النسب على أساس الجدول (١) .

إن تزايد نسبة الاناث في قوة العمل له مدلولات هامة . فهو مؤشر على زيادة عدد الاناث القادرات على والرغبات في العمل من جهة ، وعلى حصول تغير بالنسبة لنظرة المجتمع إلى عمل الاناث ، من جهة أخرى . وكلما ازدادت نسبة مشاركة الاناث في قوة العمل ، كلما ارتفع معدل المشاركة وانخفض بالتالي معدل الاعالة .

٣ - تناقص نسبة الكويتيين في جملة قوة العمل :

أدى التباين بين معدلات نمو قوة العمل الكويتية وقوة العمل غير الكويتية بين التعدادات إلى تباين بين نسبة كل منها في جملة قوة العمل كما يتضح من الجدول (٣) .

فبما أن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية زاد عن معدل نمو قوة العمل الكويتية ١٢,٣٪ مقابل ٧,٢٪ ، بين ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، فإن نسبة قوة العمل الكويتية انخفضت من ٣٠,٦٪ إلى ٢٣,٣٪ بين العامين . وأدى ارتفاع معدل نمو قوة العمل الكويتية عن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية خلال ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، ٨,٧٪ مقابل ٤,٦٪ وخلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، ٧,٠٪ مقابل ٣,٨٪ ، إلى ارتفاع نسبة قوة العمل الكويتية إلى ٢٧,٠٪ و ٣٠,٢٪ ، على التوالي . ولكن معدل نمو قوة العمل غير الكويتية فاق كثيرا معدل نمو قوة العمل الكويتية ١٢,٥٪ مقابل ٣,٢٪ ، خلال ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، وانخفضت بذلك نسبة قوة العمل الكويتية وبدرجة كبيرة ، من ٣٠,٢٪ إلى ٢١,٩٪ .

جدول رقم (٣)
قوة العمل حسب الجنسية
(نسب مئوية)

سنة التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٣٠,٦	٦٩,٤	١٠٠
١٩٦٥	٢٣,٣	٧٦,٧	١٠٠
١٩٧٠	٢٧,٠	٧٣,٠	١٠٠
١٩٧٥	٣٠,٢	٦٩,٨	١٠٠
١٩٨٠	٢١,٩	٧٨,١	١٠٠

المصدر : تم احتساب الجدول على أساس الجدول رقم (١) .

٤ - تزايد اعتماد مختلف القطاعات على غير الكويتيين :

يتضح من الجدول (٤) أن نسب ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين في مختلف قطاعات النشاط الاقتصادي قد تباينت ، وبدرجات متفاوتة ، بين سنوات التعدادات .

باستثناء عام ١٩٥٧ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٧,٥٪ مقابل ٤٢,٥٪ وفي التجارة والمطاعم والفنادق ، ٥٠,٥٪ مقابل ٤٩,٥٪ وعام ١٩٧٥ حيث كانت نسبة الكويتيين أعلى من نسبة غير الكويتيين في الزراعة والصيد ، ٥٣,٠٪ مقابل ٤٧,٠٪ ، كانت نسبة غير الكويتيين أعلى من نسبة الكويتيين في جميع قطاعات النشاط الاقتصادي وفي جميع سنوات التعدادات . وهذا يعني أن جميع القطاعات اعتمدت وباستمرار ، في المقام الأول ، على العمالة الوافدة .

ويذكر أن نسبة الكويتيين في جملة قوة العمل انخفضت بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . باستثناء قطاع المناجم والمحاجر حيث ارتفعت فيه نسبة الكويتيين من ٢٢,٤٪ إلى ٣٦,٠٪ بينما انخفضت نسبة الكويتيين في جميع القطاعات ، وبدرجات متفاوتة بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . وهذا يعني تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة في جميع القطاعات .

٥ - تركز الكويتيين وغير الكويتيين قطاعياً :

يتضح من الجدول (٥) أن قطاع الخدمات استأثر بأعلى نسبة من جملة ذوي النشاط الكويتيين وغير الكويتيين ، على السواء ، في جميع سنوات التعدادات . بينما ارتفعت نسبة الكويتيين في هذا القطاع من ٥١,٧٪ عام ١٩٥٧ إلى ٧٥,٦٪ عام ١٩٨٠ كما انخفضت نسبة غير الكويتيين فيه من ٤٨,٠٪ إلى ٢٤,٣٪ بين نفس العامين . واحتلت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع التجارة المرتبة الثانية في سنوات التعدادات : ١٤,٦٪ عام ١٩٥٧ و ١٢,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٤,٧٪ عام ١٩٧٠ و ٧,٣٪ عام ١٩٧٥ واتحدرت إلى ٤,٤٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل والمواصلات ، ٧,٦٪ مكانها عام ١٩٨٠ .

جدول رقم (۱)

ذوي الشاها حسب العداء والجذية

(سبب ملوحيه)

١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥		١٩٥٧		النسبة النشاط الاقتصادي
ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك	
٥٧,٠	٤٢,٠	٧٠,٠	٥٢,٠	٨٠,٢	١٩,٨	٧١,١	٢٨,٩	٤٢,٥	٥٧,٥	الزراعة والصيد
٦٢,٠	٣٦,٠	٦٢,٤	٣٦,٦	٦٦,٦	٢٢,٢	٦٦,١	١٢,٩	٧٧,٦	٢٢,١	المناجم والمحاجر
٩٢,٢	٧,٧	١٠,٨	١,٢	٨١,٠	١٩,٠	٨٩,٨	١٠,٢	٨٤,٤	١٥,٦	المصانع الحرفية
٦٨,٨	١,٢	٩٤,٦	٠,٥	٩٢,٥	٥,٥	٩٥,٦	٤,١	٩٦,٢	٢,٧	التشييد والبناء
٩٨,٧	٢,٥	٧٢,٠	٢٨,٠	٧٠,٦	٢٩,٤	٧٦,٥	٢٢,٥	(١)	(١)	السياحة والنقل والكهرباء
٩٢,٢	٧,٨	٨٤,٠	١٦,٠	٧٨,٠	٢٢,٠	٧٧,٧	٢٢,٢	٩٥,٥	٥٠,٥	تجارة الجملة والتجزئة
٧٢,٢	٢,٥	٧٠,٩	٢٩,١	٨٠,٥	١٩,٥	٧٢,٩	٢٦,١	٥٧,٦	٤٢,٤	الخدمات والتأمين والمواصلات
٧٧,٨	٢٢,٢	٧٨,٩	٣١,١	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	(٢)	التدوير والتأمين والعمارة
٦٥,٨	٢٤,٢	٦١,١	٢٨,٩	٦٤,٦	٢٥,٥	٦٦,١	٢٠,٩	٥٥,١	٢١,٩	خدمات البنوك والخدمات الاجتماعية والشخصية
-	-	-	-	٧٠,٦	٢٩,٤	٧٢,١	٢٦,٩	٤٢,٨	٥٧,٢	نشاط غير واضح
٧٨,٦	٢١,٤	٧٠,٩	٢٩,١	٧٤,٦	٢٥,٥	٧٧,٦	٢٢,٤	٦٦,٨	٢٢,٢	جملة ذوي النشاط

(١) ضمن الصناعات النحويّة .

(٢) وشمل جميع الخدمات

المصدر : س م ا - حساب النسب على اساس المجموعه الاحصائيه السنويه ١٩٨٥ ، جدول ١١١

ص ۱۲۰ ، ویدول ۱۱۲ ، ص ۱۲۲ .

وقد احتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في قطاع التشييد والبناء المرتبة الثانية في سنوات التعدادات :
 ١٧,٢٪ عام ١٩٥٧ و ١٩,٨٪ عام ١٩٦٥ و ١٨,٠٪ عام ١٩٧٠ ، وانحدرت ١٤,٤٪ ، واحتلت نسبة ذوي
 النشاط في قطاع التجارة ، ١٥,٧٪ مكانها عام ١٩٧٥ ، ولكنها ارتفعت الى ٢٥,٢٪ وعادت واحتلت المرتبة الثانية عام
 ١٩٨٠ .

وبينما كانت نسبة ذوي النشاط الكويتيين في قطاع النقل والتخزين والمواصلات في المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و
 ٦,٥٪ في ١٩٥٧ و ١٩٦٥ ، على التوالي ، انحدرت هذه النسبة إلى ٤,٠٪ واحتلت نسبة ذوي النشاط في الصناعات
 التحويلية ، ١٠,٢٪ ، مكانها ، المرتبة الثالثة ، عام ١٩٧٠ ، ولكن عادت نسبة ذوي النشاط في قطاع النقل
 والتخزين والمواصلات إلى المرتبة الثالثة ، ٥,٣٪ و ٧,٦٪ في ١٩٧٥ و ١٩٨٠ على التوالي .

واحتلت نسبة ذوي النشاط غير الكويتيين في الصناعات التحويلية المرتبة الثالثة في السنوات ١٩٥٧ ، ٩,٨٪ و
 ١٩٧٠ ، ١٤,٩٪ والمرتبة الرابعة في السنوات ١٩٦٥ ، ١١,٦٪ و ١٩٧٥ ، ١٠,٥٪ و ١٩٨٠ ، ١٠,٠٪ ، بينما
 احتلت نسبتهم في التجارة المرتبة الرابعة في السنوات ١٩٥٧ ، ٧,١٪ و ١٩٧٠ ، ١٤,٧٪ والمرتبة الثالثة في السنوات
 ١٩٦٥ ، ١٢,٩٪ و ١٩٧٥ ، ١٥,٧٪ و ١٩٨٠ ، ١٤,١٪ .

ويتضح مما سبق أن ذوي النشاط الكويتيين تركزوا في قطاعات الخدمات في المقام الأول وفي التجارة والنقل
 والمواصلات في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من
 ٧١,٦٪ عام ١٩٥٧ إلى ٨٧,٦٪ عام ١٩٨٠ . وأما ذوي النشاط غير الكويتيين فقد تركزوا في قطاع الخدمات في المقام
 الأول وفي قطاعات التشييد والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني . وقد ازدادت درجة تركيزهم في هذه القطاعات
 حيث ارتفع مجموع نسبتهم فيها من ٨٢,١٪ عام ١٩٥٧ إلى ٩٠,٠٪ عام ١٩٨٠ .

٦ - تركز الكويتيين وغير الكويتيين مهنيًا :

وكما كان الكويتيون أقل من غير الكويتيين في مختلف القطاعات كانوا كذلك في مختلف المهن .

فكما يتضح من الجدول (٦) ، باستثناء عام ١٩٧٥ ، حيث كانت نسبة الكويتيين أكبر من نسبة غير الكويتيين ،
 ٥٠,٦٪ مقابل ٤٩,٤٪ في المهن المتعلقة بالزراعة وتربية الحيوان والصيد ، كانت نسبة غير الكويتيين أكبر من نسبة
 الكويتيين في جميع أنواع المهن في جميع سنوات التعدادات . وكما تزايد الاعتماد على غير الكويتيين قطاعياً ، تزايد
 الاعتماد عليهم أيضاً مهنيًا ، بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ . فباستثناء المهن العلمية والفنية والتي تزايدت نسبة الكويتيين فيها
 من ٩,٨٪ إلى ٢٠,٦٪ والأعمال الكتابية التي تزايدت نسبتهم فيها من ٣٧,٤٪ إلى ٤٠,٩٪ وأعمال الخدمات التي
 تزايدت نسبتهم فيها من ٣١,٠٪ إلى ٣٢,٩٪ ، انخفضت نسبة الكويتيين في بقية المهن بين ١٩٥٧ و ١٩٨٠ .

وكما تركز الكويتيون قطاعياً في الخدمات في المقام الأول ، وفي التجارة والنقل والمواصلات في المقام الثاني ، فقد
 تركز غير الكويتيين في الخدمات في المقام الأول ، وفي التشييد والبناء والتجارة والصناعة التحويلية في المقام الثاني ، وكما
 يتضح من الجدول (٧) تركز الكويتيون في أعمال الخدمات في المقام الأول ، ٣٢,٨٪ وفي مجال الانتاج والعمال
 العاديين في المقام الثاني ، ٢٦,٣٪ وفي المهن الكتابية في المقام الثالث ، ١٥,٤٪ عام ١٩٦٥ .

جدول رقم (٤)
 قوى النشاط
 حسب أقسام النشاط والمهنة في سنوات التساءات
 (حسب مئوسسة)

١٩٨٠				١٩٨١				١٩٨٢				١٩٨٣				١٩٨٤				النسبة
٤	٣	ك	ز	٤	٣	ك	ز	٤	٣	ك	ز	٤	٣	ك	ز	٤	٣	ك	ز	
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	الشار والقصصاكي
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	الزراعة والصيد
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	الصناعة والحيا - سر
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	الخدمات التجارية
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	التعليم والعلوم
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	الصحة والنار والكهرباء
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	تجارة المجلة والتجارة
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	والصناعة والفن
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	العمل والتفريغ والفرانك
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	خدمات التحويل والتأمين
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	والخدمات والاعمال
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	نشاط غير واضح
١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	١٠٨	جمله قوى النشاط

(١) قسم النشاطات التجارية

(٢) التجارة مفسدة

النشاط : على عسور الجدول (٤) :

بينما ارتفعت نسبتهم في أعمال الخدمات إلى ٣٦,٣٪ واستمرت بذلك في المقام الأول ، وانخفضت نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين إلى ١٣,٥٪ وانحدرت إلى المقام الثالث ، ثم ارتفعت نسبتهم في المهن الكتابية إلى ٢٣,٨٪ واحتلت المقام الثاني عام ١٩٨٠ .

وأما بالنسبة لغير الكوئيين ، فكانت نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين في المقام الأول ، ٤٩,٥٪ ، وفي اعمال الخدمات في المقام الثاني ٢١,٩٪ وفي المهن العلمية والفنية في المقام الثالث ٨,٣٪ عام ١٩٦٥ .

وبينما انخفضت نسبتهم في عمل الإنتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات إلى ٤٤,٨٪ و ٢٠,١٪ على التوالي ، نرى أنها ارتفعت في المهن العلمية والفنية إلى ١٦,٣٪ ، عام ١٩٨٠ .

ولكن بالرغم من الانخفاض الذي طرأ على نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وارتفاع نسبتهم في المهن العلمية والفنية ، إلا أن نسبتهم في عمل الانتاج والعمال العاديين وفي أعمال الخدمات وفي المهن العلمية والفنية ، بقيت في المقام الأول والثاني والثالث على التوالي عام ١٩٨٠ .

إن نمط التوزيع القطاعي والمهني للكوئيين وغير الكوئيين ودرجة التركيز القطاعي والمهني لكل منهما ، لها مدلولات مهمة بالنسبة المستوى درجة المرونة في إحلال الكوئيين محل غير الكوئيين ، من جهة وبالنسبة لتأهيل وتوجيه الكوئيين نحو مختلف القطاعات والمهن من جهة أخرى .

فكما يتضح من الجدول (٨) ، توجهت معظم الزيادة في قوة العمل الكوئية ، . ٨٣٪ إلى قطاع الخدمات بينما توجه فقط ١٧٪ من الزيادة إلى بقية القطاعات بين ١٩٦٥ و ١٩٨٠ .

ويعود سبب الزيادة في قطاع الخدمات ، في المقام الأول ، إلى توجه الكوئيين إلى العمل بالجهاز الحكومي بسبب سياسات التوظيف التي تكفل لهم الوظائف بالجهاز الحكومي من جهة وبسبب زيادة إقبالهم على العمل بالجهاز الحكومي عن إقبالهم على العمل في القطاع الخاص من جهة أخرى .

أما بالنسبة لغير الكوئيين فقد توجه ٤٠,٤٪ من الزيادة إلى قطاع الخدمات و ٢٨,٢٪ إلى قطاع التشييد والبناء و ١٤,٨٪ إلى قطاع التجارة و ٩,١٪ إلى قطاع الصناعات التحويلية . وهذا يعني أن الزيادة في غير الكوئيين انتشرت بشكل أكثر توزاناً من انتشار الزيادة في الكوئيين .

وعما أن ذوي المهن المتعلقة بأعمال الخدمات والأعمال الكتابية والمهن العلمية والفنية يشكلون عادة نسبة كبيرة من جملة ذوي المهن في قطاع الخدمات (في حدود ٨٠٪) من جهة ، فإن معظم الزيادة في الكوئيين توجهت إلى قطاع الخدمات . من جهة أخرى ، تركزت معظم الزيادة في الكوئيين بنسبة (٨٨,٩٪) في المهن المتعلقة بالخدمات بنسبة (٣٧,١٪) وفي الأعمال الكتابية (٢٨,٤٪) وفي المهن العلمية والفنية كانت نسبتهم ٢٣,٣٪ .

ونظراً لأن انتشار الزيادة في غير الكوئيين كان أوسع من انتشار الكوئيين قطاعياً ، كان انتشارهم أيضاً أوسع مهتياً . فقد انجم ٤١,٣٪ و ٢١,٠٪ و ١٨,٩٪ و ١٠,٢٪ من جملة زيادتهم إلى المهن المتعلقة بعمال الانتاج والعمال العاديين والمهن العلمية والفنية وأعمال الخدمات والمهن الكتابية على التوالي .

جدول رقم (٦)

ذوي النشاط حسب المهنة والجنسية

(نسب مئوية)

السنة		١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠	
المهنة		ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك	ك	غ ك
١ - المهن العلمية والفنية		٩ر٨	٩٠ر٢	١٤ر٦	٨٥ر٤	٢٣ر٣	٧٦ر٧	٢٠ر٦	٧٩ر٤
٢ - المديرون والاداريون ومديرو الاعمال		٢٧ر١	٦٢ر٩	٣٤ر٢	٦٥ر٧	٣٦ر٦	٦٢ر٤	٦٤ر٠	٦٦ر٠
٣ - الاعمال الكتابية		٣٧ر٤	٦٢ر٦	٤٠ر٧	٥٩ر٢	٤٧ر٠	٥٢ر٠	٤٠ر٩	٥٩ر١
٤ - اعمال البيع		٣٠ر٤	٦٩ر٦	٣١ر٠	٦٩ر٠	٢٥ر٧	٧٤ر٣	١٦ر٧	٨٣ر٣
٥ - اعمال الخدمات		٣ر٠	٦٩ر٠	٤٠ر٢	٥٩ر٨	٤٢ر٠	٥٨ر٠	٣٢ر٩	٦٧ر١
٦ - الزراعة وتربية الحيوان والصيد		٢٠ر٧	٧٩ر٣	٢٢ر٦	٧٧ر٤	٥٠ر٦	٤٩ر٤	٣٩ر٤	٦٠ر٦
٧ - عمال الانتاج والعمال العاديون		١٣ر٩	٨٦ر١	١٣ر٩	٨٦ر١	١٤ر٥	٨٥ر٥	٧ر٦	٩٢ر٤
٨ - غير مبين المهنة		٦٢ر٢	٣٦ر٨	٧٥ر٦	٢٤ر٤	١٠٠	-	-	-
الجملة		٢٣ر٣	٧٦ر٧	٢٥ر٩	٧٤ر١	٢٩ر١	٧٠ر٩	٢١ر٤	٧٨ر٦

المصدر : تم احتساب الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية - ١٩٨٥

الجدول ١٠٩ ص ١١٧ و ١١٠ ص ١١٨ .

جدول رقم (٧)
 ذوي النشاط الاقتصادي حسب المهنة والجنسية
 (نسب مئوية)

١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥		المنصة	
ج	ك	ج	ك	ج	ك	ج	ك	ج	ك
١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١ - المهنة العلمية والفنية	٢٥٩
١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	٢ - المديرين الإداريين ومندوبي الأعمال	٢٥٤
١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	٣ - المهنة الكتابية	١٥٤
١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	٤ - أعمال البيع	١٠٨
١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	٥ - أعمال الخدمات	٢٢٨
١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	٦ - الزراعة وتربية الحيوان والصيد	١٨
١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	٧ - شمال الإنتاج والعمال العاديون	٢٦٣
١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	١٢٦٤	٨ - غير مبين المهنة	٦٦
١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	١٠٠	جسلة ذوي المهنة	١٠٠

المصدر : نفس مصدر الجدول (٦)

جدول رقم (٨)
الزيادة في جملة ذوي النشاط ، حسب اقسام
النشاط الاقتصادي والجنسية بين
١٩٦٥ و ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%
١ - الزراعة والصيد	٢٣٦٥	٥٣	٢٨٠٢	١٠٦	٧١٦٣	٢٣٢
٢ - المناجم والمحاجر	١٠٤٨	١٠٦	١٣٨١	٠٦	٢٤٢٩	٠١
٣ - الصناعات التحويلية	١٣٥٤	٢١	٢١٩٦٤	٩١	٢٣٢١٨	٧٩٦
٤ - التشييد والبناء	٥٨	٠١	٦٨٢٠٩	٢٨٠٢	٦٨٢٥١	٢٤٢٣
٥ - المياه والغاز والكهرباء	٤٢٣	٠٧	٧٥٢	٠٣	١١٧٦	٠٤
٦ - تجارة الجملة والتجزئة والطعام والفنادق	٥٥٢	٠٩	٢٥٩٢٤	١٤٠٨	٢٥٢٧٦	١١٠١
٧ - النقل والتخزين والمواصلات	٥٢١٩	٨٢	١٤٩٠٩	٦٢	٢٠١٢٨	٦٦٦
٨ - التمويل والتأمين والعقارات وخدمات الاعمال والخدمات الاجتماعية الشخصية	٥٢٧٥٨	٨٢٠	٩٧٨٤٧	٤٠٤	١٥٠٦٠٥	٤٩٢٣
جملة ذوي النشاط	٦٢٥٥٢	١٠٠	٢٤٢١٢٧	١٠٠	٣٠٥٦٨٠	١٠٠

المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية
السنوية ١٩٨٥ ، الجدول (١١) ص ١٣٠ والجدول ١١٢ ص ١٣٢

جدول رقم (٩)
الزيادة في جملة ذوي النشاط حسب الجنسية
والمهنة بين ١٩٦٥ - ١٩٨٠

النشاط الاقتصادي	كويتي		غير كويتي		المجموع	
	العدد	%	العدد	%	العدد	%
١ - المهن العلمية والفنية	١٤٨٣٥	٢٣ر٤	٥٠٤٩١	٢١ر٠	٦٥٢٢٦	٢١ر٥
٢ - الاداريون ومديرو الاعمال	٦٤٣	١ر٠	١٦٠٨	٠ر٧	٢٢٥١	٠ر٧
٣ - الموظفون التنفيليون والكتابيون	١٨٠٠٦	٢٨ر٤	٢٤٤٦٢	١٠ر٢	٤٢٤٦٨	١٤ر٠
٤ - اعمال البيع	٥٧٠	٠ر٩	١٥٢٤٦	٦ر٣	١٥٨١٦	٥ر٢
٥ - اعمال الخدمات	٢٣٤٧٤	٣٧ر١	٤٥٦٢١	١٨ر٩	٦٩٠٩٥	٢٢ر٧
٦ - الزراعة وتربية الحيوان والصيد	٣١١٦	٤ر٩	٣٠٦٩	١ر٣	٦١٨٥	٢ر٠
٧ - عمال الانتاج والعمال العاديون	٢٦٦٤	٤ر٢	١٠٠٤٤٣	٤١ر٧	١٠٢١٠٧	٣٣ر٩
جملة زيادة ذوي المهن	٦٣٣٠٨	١٠٠	٢٤٠٩٤٠	١٠٠	٣٠٤٢٤٨	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس المجموعة الإحصائية السنوية
١٩٨٥ الجدول ١٠٩ ص ١١٧ والجدول ١١٠ ص ١١٨ .

تزايد السكان غير الكويتيين والاختلالات الهيكلية السكانية

إن تزايد عدد السكان بمعدلات خارقة للعادة ، من جهة ، وما رافق ذلك من تغيرات بارزة في مختلف جوانب الهيكل السكاني ، من جهة أخرى ، يعدّ من أبرز التطورات غير المقصودة ، التي شهدتها مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في الكويت منذ الخمسينات .

١ - سرعة واتجاهات النمو :

ارتفع عدد سكان الكويت من ٢٠٦٤٧٣ عام ١٩٥٧ الى ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ ، أي بمعدل نمو ٧,٨٪ سنوياً .
وكما يتضح من الجدول (٩) تباين معدلات النمو بين سنوات التعدادات بالنسبة لجملة السكان والسكان غير الكويتيين والسكان الكويتيين .

أ - جملة السكان :

شهدت الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ، ١١,٧٪ سنوياً ، ثم انخفض معدل النمو إلى ٩,٨٪ و ٩,٦٪ و ٦,١٪ خلال الفترات ١٩٦١ - ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ - ١٩٧٠ و ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، على التوالي ، ثم ارتفع إلى ٦,٤٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ وانخفض إلى أدنى مستوى له ، ٤,٥٪ خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥ .
وباستثناء الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ فقد كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الإناث بينما كان معدل نمو الإناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

ب - السكان غير الكويتيين :

بالرغم من التباين بين معدلات نمو غير الكويتيين وجملة السكان بين سنوات التعدادات ، إلا أن الاتجاه العام لنمو السكان غير الكويتيين اتسق مع الاتجاه العام لنمو جملة السكان .
فكما في حالة جملة السكان ، شهدت الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ أعلى معدل للنمو ١٤,٥٪ سنوياً ، ثم انخفض معدل النمو إلى ١١,٥٪ و ٩,٦٪ و ٦,٠٪ خلال الفترات ١٩٦١ - ١٩٦٥ ، ١٩٦٥ - ١٩٧٠ و ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، على التوالي ثم ارتفع إلى ٨,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ وانخفض إلى أدنى مستوى له ، ٥,١٪ خلال الفترة ١٩٨٠ - ١٩٨٥ .

وكما في حالة جملة السكان ، باستثناء الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، حيث كان معدل نمو الذكور أعلى من معدل نمو الإناث ، كان معدل نمو الإناث أعلى من معدل نمو الذكور خلال جميع الفترات .

ج - السكان الكويتيون :

بلغ معدل نمو السكان الكويتيين ٩,٣٪ سنوياً خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ ، وكان بذلك أقل من معدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان . وخلافاً لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، لم يكن معدل النمو خلال هذه الفترة أعلى من معدلات النمو خلال الفترات التالية .

وكاتجاه نحو السكان غير الكويتيين وجملة السكان ، انخفض معدل نمو السكان الكويتيين الى ٨,٠٪ خلال الفترة ١٩٦١ - ١٩٦٥ ولكنه ارتفع الى ٩,٦٪ خلال الفترة ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ثم انخفض الى ٦,٣٪ خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٠ و ١٩٨٠ - ١٩٨٥ . وباستثناء الفترة ١٩٥٧ - ١٩٦١ حيث كان معدل نمو الذكور أعلى قليلاً من معدل نمو الإناث ، كان معدل نمو الإناث إما أعلى أو مساوياً لمعدل نمو الذكور خلال بقية الفترات .

د - سرعة نمو السكان الكويتيين والسكان غير الكويتيين :

باستثناء الفترة ١٩٦٥ - ١٩٧٠ حيث كان معدل نمو جملة السكان الكويتيين ٩,٦٪ سنوياً ، مساوياً لمعدل نمو جملة السكان غير الكويتيين ، والفترة ١٩٧٠ - ١٩٧٥ ، حيث زاد معدل نمو السكان الكويتيين قليلاً عن معدل نمو السكان غير الكويتيين ، ٦,٣٪ مقابل ٦,٠٪ ، كان معدل جملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدل نمو السكان الكويتيين في بقية الفترات .

وكانت معدلات نمو الذكور والإناث وجملة السكان غير الكويتيين أعلى من معدلات نمو الذكور والإناث وجملة السكان الكويتيين ، ٨,٠٪ مقابل ٦,٤٪ و ١١,٢٪ مقابل ٦,٨٪ و ٨,٩٪ مقابل ٦,٦٪ ، على التوالي ، خلال كامل الفترة ١٩٥٧ - ١٩٨٥ .

٢ - أسباب النمو :

يتأثر نمو السكان بمعدل المواليد ومعدل الوفيات وصافي الهجرة ، وعادة يتغير معدل المواليد ومعدل الوفيات ببطء ، أما صافي الهجرة فأكثر عرضة للتغير بسرعة .

أ - السكان الكويتيون :

تراوح معدل نمو السكان الكويتيين بين ٩,٦٪ سنوياً و ٦,٣٪ سنوياً خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٧٥ ، واستقر على ٣,٧٪ خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٥ . بينما يمكن اعتبار معدل نموهم خلال الفترة ١٩٧٥ - ١٩٨٥ ، طبيعياً لا يمكن اعتبار معدلات نموهم خلال الفترة ١٩٥٧ - ١٩٧٥ طبيعية . إذ بافتراض معدلات وفيات منخفضة جداً ، فمن غير المعقول أن تكون معدلات المواليد كانت مرتفعة للدرجة أناحت تحقيق معدلات نمو خارقة للعادة خلال هذه الفترة .

فكيف يمكن تفسير معدلات النمو غير الاعتيادية ؟ لا تتوفر لنا بيانات ومعلومات تتيح لنا اجابة قاطعة عن ذلك . ولكن من الممكن اقتراح بعض الأسباب بصفة أولية . فمن الممكن تفسير معدلات النمو المرتفعة جزئياً بتحسين ودقة التعدادات السكانية وجزئياً بالتحجيس .

ب - السكان غير الكويتيين :

وأما بالنسبة لمعدلات نمو السكان غير الكويتيين فكانت في المقام الأول بسبب الهجرة الصافية . فكما ذكرنا سابقاً أدت عمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى زيادات مستمرة في الطلب على العمالة أكبر بكثير من العرض منها محلياً وكان لا بد من مواجهة العجز المتزايد بعمالة وافدة ، عربية وغير عربية . وأدى تدفق العمالة الوافدة وما رافقها من أفراد أسرها إلى تزايد عدد السكان غير الكويتيين من جهة وإلى زيادة الطلب على العمالة الوافدة لمواجهة ازدياد الطلب على الخدمات من جهة أخرى .

٣ - التغيرات الهيكلية :

أدت الزيادات غير الطبيعية للسكان غير الكويتيين بسبب الهجرة الصافية ، في المقام الأول ، إلى أحداث تغيرات هامة في مختلف جوانب الهيكل السكاني .

أ - تناقص نسبة السكان الكويتيين :

أدت زيادة سرعة نمو عدد السكان غير الكويتيين عن سرعة نمو السكان الكويتيين إلى اتجاه نسبة السكان الكويتيين إلى الانخفاض واتجاه نسبة غير الكويتيين إلى الارتفاع .

فكما يتضح من الجدول (١٠) أن نسبة السكان الكويتيين قد انخفضت من ٥٥٪ عام ١٩٥٧ إلى ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ نجد أن نسبة السكان غير الكويتيين قد ارتفعت من ٤٥,٠٪ إلى ٥٩,٩٪ بين نفس العامين . وبينما كانت نسبة السكان الكويتيين أكبر من نسبة السكان غير الكويتيين ، ٥٥,٠٪ مقابل ٤٥,٠٪ عام ١٩٥٧ ، أصبحت نسبة السكان غير الكويتيين أكبر من نسبة السكان الكويتيين ، ٥٩,٩٪ مقابل ٤٠,١٪ عام ١٩٨٥ .

جدول رقم (١٠)

السكان حسب الجنسية في سنوات

التعداد - (نسب مئوية)

سنوات التعداد	كويتي	غير كويتي	المجموع
١٩٥٧	٥٥,٠	٤٥,٠	١٠٠
١٩٦١	٥٠,٣	٤٩,٧	١٠٠
١٩٦٥	٤٧,١	٥٢,٩	١٠٠
١٩٧٠	٤٧,٠	٥٣,٠	١٠٠
١٩٧٥	٤٧,٥	٥٢,٥	١٠٠
١٩٨٠	٤١,٧	٥٨,٣	١٠٠
١٩٨٥	٤٠,١	٥٩,٩	١٠٠

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على أساس نفس مصدر الجدول (٩) .

ب - الهيكل النوعي :

يتضح من الجدول (١١) أن نسبة الذكور انخفضت بينما انخفضت نسبة الإناث إلى الارتفاع بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين على السواء .

كانت نسبة الذكور ٥٢,١ ٪ ، وكانت نسبة الإناث ٤٧,٩ ٪ من السكان الكويتيين بينما كانت نسبة الذكور ٨٧,٥ ٪ ونسبة الإناث ٢١,٥ ٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٥٧ وأصبحت نسبة الذكور ٤٩,٦ ٪ ونسبة الإناث ٥٠,٤ ٪ في السكان الكويتيين ونسبة الذكور ٦١,٨ ٪ ونسبة الإناث ٣٨,٣ ٪ من السكان غير الكويتيين عام ١٩٨٥

وإن كان الاتجاه واحدا بالنسبة للسكان الكويتيين وغير الكويتيين ، إلا أن نسب الذكور والإناث بالنسبة للسكان الكويتيين ، وإن تباينت بين سنوات التعداد ، إلا أنها تعتبر طبيعة وتنسق مع الهيكل النوعي الطبيعي للسكان .

أما بالنسبة للسكان غير الكويتيين فقد كان الهيكل مختلفاً كثيراً عام ١٩٥٧ . وبالرغم من التحسن الذي طرأ على نسبة الإناث حيث ارتفعت من ٢١,٥ ٪ عام ١٩٥٧ إلى ٣٨,٢ ٪ عام ١٩٨٥ ، إلا أن الهيكل النوعي بقي مختلفاً كثيراً . وهذا يعني أن نسبة النوع الطبيعية بالنسبة للسكان الكويتيين بينما هي غير طبيعية بالنسبة للسكان غير الكويتيين . فمجتمع غير الكويتيين مجتمع ذكور . ونظراً لأن سرعة تزايد السكان غير الكويتيين كان أعلى من سرعة تزايد السكان الكويتيين ، أصبح هيكل جملة السكان مختلفاً بالنسبة للنوع والجنسية .

ويعود الاختلاف في الهيكل النوعي للسكان غير الكويتيين إلى أثر الهجرة الصافية . ففي أول الأمر لم تتخذ هجرة العمالة ، وهي من الذكور ، الطابع الأسري على اعتبار أن الهجرة ستكون مؤقتة . وعندما امتدت فترات إقامة العمالة وبدأ اتجاه الطابع الأسري لهجرة العمالة وضعت الحكومة ضوابط لاصطحاب أو إحضار أفراد أسر العمالة الوافدة . وبذلك بقيت نسبة الذكور في السكان غير الكويتيين مرتفعة .

ج - تنوع جنسيات السكان غير الكويتيين :

كما يتضح من الجدول (١٢) تشمل قوة العمل غير الكويتية رعايا من مختلف مجموعات دول العالم . وتأتي نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول ونسبة قوة العمل الآسيوية في المقام الثاني في عامي ١٩٧٥ و ١٩٨٠ . وبالرغم من استمرار نسبة قوة العمل العربية في المقام الأول إلا أنها انخفضت بشكل بارز بينما ارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية بشكل ملحوظ بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

وبما أن قوة العمل غير الكويتية تنتمي إلى مختلف مجموعات دول العالم ، فإن السكان غير الكويتيين - وكما يتضح من الجدول (١٣) - ينتمون إلى مختلف مجموعات دول العالم . وكما أن نسبة قوة العمل العربية تأتي في المقام الأول ويليهما نسبة قوة العمل الآسيوية ، تأتي نسبة السكان العرب في المقام الأول ويليهما السكان الآسيويون . وكما انخفضت نسبة قوة العمل العربية وارتفعت نسبة قوة العمل الآسيوية ، فقد انخفضت - أيضاً - نسبة السكان العرب بينما ارتفعت نسبة السكان الآسيويين بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

جدول رقم (١٢)
قوة العمل غير الكويتية حسب مجموعات الدول
التوزيع النسبي

١٩٨٠	١٩٧٥	مجموعات الدول
٥٩ر٥٥	٦٨ر٩٧	عربية
٢٧ر٩٧	٢٩ر٤٢	آسيوية
٠ر٢١	٠ر٠٥	افريقية
١ر٤٤	٠ر٩٥	امريكية واوروبية
٠ر٨٣	٠ر٦١	معطلون جديد
١٠٠	١٠٠	الجملة

المصدر : المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ١٠٠ ص ١١٠ .

جدول رقم (١٣)
السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول
(نسب مئوية)

١٩٨٠	١٩٧٥	مجموعات الدول
٧٢ر٥١	٨٠ر١٩	عربية
٢٥ر٧٦	١٨ر٧١	آسيوية
٠ر٢٠	٠ر٠٨	افريقية
١ر٢٦	٠ر٨٢	اوروبية
٠ر٢٥	٠ر١٦	امريكية
٠ر٠٢	٠ر٠٤	اخرى
١٠٠	١٠٠	الجملة

المصدر : تم اعداد هذا الجدول على اساس ، المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ -
جدول ٢٩ ، ص ٥٥ .

د . الهيكل العمري للسكان ومعدل المشاركة :

يستدل من الجدول (١٤) أن نسبة صغار السن (أقل من ١٥ سنة) في السكان الكويتيين قد تذبذبت قليلا حيث انخفضت قليلا عام ١٩٧٠ ثم ارتفعت قليلا عام ١٩٧٥ ثم انخفضت قليلا عام ١٩٨٠ ، بينما اتجهت نسبة صغار السن في السكان غير الكويتيين إلى الارتفاع تدريجياً بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ، ثم انخفضت عام ١٩٨٠ . ويعود انخفاض هذه النسبة بين عام ١٩٧٥ - ١٩٨٠ إلى القيود التي فرضت على اصطحاب أفراد أسر العمالة الوافدة . وبسبب اتجاه نسبة صغار السن إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ اتجهت نسبة من هم في سن ١٥ - ٥٩ سنة إلى الانخفاض خلال نفس الفترة ، إذ انخفضت النسبة من ٦٨,٨٪ عام ١٩٦٥ إلى ٦٠,٥٪ عام ١٩٧٥ و ٥٨,٨٪ عام ١٩٧٥ و ١٩٧٥ على التوالي ، وعلى عكس ما حصل بالنسبة لصغار السن ، ارتفعت هذه النسبة من ٥٨,٨٪ عام ١٩٧٥ إلى ٦٥,١٪ عام ١٩٨٠ ، حيث أصبح اصطحاب أفراد الأسر أو إحضارهم أقل سهولة من الفترات السابقة .

وأما بالنسبة للسكان الكويتيين فقد كانت تقلبات نسبة صغار السن أقل منها في السكان غير الكويتيين ، فبينما كانت ٤٨,٩٪ عام ١٩٦٥ نجد أنها ارتفعت قليلا ووصلت إلى ٤٩,٢٪ عام ١٩٨٠ .

وبما أن حجم السكان غير الكويتيين أكبر من حجم السكان الكويتيين فقد تأثر الهيكل العمري لجملة السكان بالهيكل العمري للسكان غير الكويتيين أكثر من تأثره بالهيكل العمري للسكان الكويتيين . لذلك اتجهت نسبة صغار السن في جملة السكان إلى الارتفاع بين ١٩٦٥ - ١٩٧٥ ، حيث ارتفعت من ٣٨,٠٪ عام ١٩٦٥ إلى ٤٣,١٪ و ٤٣,٤٪ عام ١٩٧٠ و ١٩٧٥ على التوالي - ثم انخفضت إلى ٤٠,٣٪ عام ١٩٨٠ .

ويؤثر الهيكل العمري والهيكل النوعي على معدل المشاركة (قوة العمل كنسبة مئوية من السكان) ، بافتراض الهيكل النوعي . فكلما ازدادت نسبة صغار السن كلما انخفض معدل المشاركة . وكما يتضح من الجدول (١٥) ، فقد اتجه معدل المشاركة بالنسبة لغير الكويتيين إلى الانخفاض وذلك بين (١٩٦٥ - ١٩٧٥) نظراً لأن نسبة صغار السن فيها اتجهت إلى الارتفاع خلال نفس الفترة . وبما أن نسبة صغار السن انخفضت عام ١٩٨٠ ، فقد ارتفع معدل المشاركة .

أما بالنسبة للسكان الكويتيين ، فلا يبدو أثر التغير في نسبة صغار السن على معدل المشاركة واضحاً . إذ أن اتجاهها كان واحداً بين ١٩٦٥ - ١٩٧٠ ، وبالرغم من أن نسبة صغار السن ارتفعت عام ١٩٧٥ عما كانت عليه عام ١٩٧٠ ، إلا أن معدل المشاركة ارتفع بدلاً من أن ينخفض ، كما أن اتجاه نسبة صغار السن ومعدل المشاركة كان واحداً بين ١٩٧٥ و ١٩٨٠ .

دروس الخبرة وآفاق المستقبل

يمكن استخلاص المعالم الأساسية لنموذج تفاعل العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمال من مختلف دول العالم إلى الكويت والتي أعطت ثماراً يانعة ، من جهة ، وبعض الثمار غير المرغوبة ، من جهة أخرى .

جدول رقم (١٥)

قوة العمل كنسبة مئوية من السكان

١٩٨٠	١٩٧٥	١٩٧٠	١٩٦٥	١٩٥٧	
١٩١	١٩٥	١٨٨	١٩٥	٢١٧	كويتي
٤٨٤	٤٠٧	٤٥٢	٥٧١	٦٠٠	غير كويتي
٢٦٢	٢٠٦	٢٢٨	٢٩٤	٢٨٩	المجموع

المصدر : تم اعداد الجدول على اساس المجموعة الاحصائية السنوية ١٩٨٥ ، جدول ٩
ص ٢٥ - والجدول ١ من هذه الدراسة .

١ - النموذج :

يبين الشكل ١ - تصوراً مبسطاً لنسيج الترابط بين العوامل التي أدت إلى ظاهرة الهجرة الواسعة للعمالة الوافدة إلى الكويت والآثار التي ترتبت عليها .

بدأت مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية بعد أن بدأت عائدات النفط بالتدفق في أوائل الخمسينات . وتأثر مسار وتوجهات التنمية وسرعتها منذ البداية بسرعة نمو عائدات النفط من جهة ، وبمفهوم وأهداف التنمية من جهة أخرى . وفي إطار مفهوم التنمية التي تطلعت الحكومة إلى تحقيقها ، حظي الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل وتنوع مصادر الدخل باهتمام خاص .

يعتمد تحقيق أهداف التنمية على الموارد المتاحة من جهة ، وعلى كفاءة تخصيصها واستخدامها من جهة أخرى . وتوفرت ، بفضل العائدات النفطية ، الموارد المالية اللازمة لتمويل مشروعات متزايدة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ونظراً لصغر حجم السكان من جهة ، ونُدرة المهارات من جهة أخرى ، عجز العرض المحلي من العمالة عن تلبية متطلبات عمليات التنمية منذ مستهل المسيرة . وتم سد العجز باستيراد العمالة اللازمة من دول عربية وغير عربية . ولم تقتصر الهجرة على العمالة ، بل وشملت أيضاً أفراد أسر العمال المهاجرين . أي أن حجم السكان غير الكويتيين تأثر بعاملين : حجم العمالة الوافدة ومعدل المرافقة لها . وتأثر معدل المرافقة بسياسات وإجراءات الهجرة التي تبنتها ونفذتها الحكومة ، من جهة ، وبجنسيات العمالة الوافدة من جهة أخرى .

وبما أن حجم ونوع السكان ومستوى دخلهم يحدد حجم ونوع طلبهم على السلع والخدمات ، تأثر إجمالي ونوع الطلب على السلع والخدمات بحجم السكان غير الكويتيين وجنسياتهم ومستوى دخلهم . وأصبح السكان غير الكويتيين عاملاً مهماً في الطلب على السلع والخدمات وتلبية الطلب على السواء . بمعنى آخر ، أصبحوا عاملاً مهماً في إنتاج واستهلاك السلع والخدمات على السواء .

وبسبب الزيادة المستمرة في العائدات النفطية ، وخاصة في الفترة التي تلت ارتفاع أسعار النفط في ١٦ أكتوبر ١٩٧٣ وحتى أوائل الثمانينات عندما بدأ الكساد العالمي ، أخذ الطلب على العمالة الوافدة بالارتفاع باستمرار . وأدى تزايد الاعتماد على العمالة الوافدة إلى تناقص نسبة العمالة الكويتية في جملة العمالة من جهة ، وتزايد نسبة السكان الوافدين في جملة السكان من جهة أخرى . وأصبح الكويتيون يشكلون ١٠,٤٠٪ من جملة السكان حسب تعداد ١٩٨٥ و فقط ٢,٢٣٪ من جملة المشتغلين حسب تقدير ١٩٨٣ .

٢ - الانكماش الاقتصادي وانخفاض الطلب على العمالة :

تأثر إنتاج وتصدير النفط بالكساد العالمي الذي بدأ في مطلع الثمانينات . وبما أن الاقتصاد الكويتي اعتمد ، ولا زال يعتمد ، في المقام الأول ، على قطاع النفط ، بدأ أيضاً في الانكماش في مطلع الثمانينات .

فقد انخفض إجمالي الناتج المحلي من قيمته ١٧٤٦,٧ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ إلى ١٥٧٧,٤ مليون دينار كويتي و ١٤٩٤,٠ مليون دينار كويتي و ١٤٧٣,٧ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي ^(٦) .

ولكن بالرغم من تراجع إجمالي الناتج المحلي بسبب تراجع الناتج المحلي النفطي ، استمر الناتج المحلي غير النفطي بالارتفاع . فقد ارتفع من ٨,١٥٠ مليون دينار كويتي (بالأسعار الثابتة سنة ١٩٧٢) عام ١٩٧٩ إلى ٢,١١٤ مليون دينار كويتي و ١١٧٨,٧ مليون دينار كويتي و ١٢٤٢,٣ مليون دينار كويتي عام ١٩٨٠ و ١٩٨١ و ١٩٨٢ ، على التوالي ^(٧) .

ويعود استمرار ارتفاع الناتج المحلي غير النفطي بالرغم من استمرار تراجع الناتج المحلي النفطي وبالتالي استمرار تراجع إجمالي الناتج المحلي ، في المقام الأول ، بين ١٩٧٩ و ١٩٨٢ ، إلى استمرار نمو الانفاق العام ^(٨) . فمستوى النشاط الاقتصادي خارج قطاع النفط اعتمد ، ولا زال يعتمد ، على مستوى الانفاق العام . ولكن بسبب اتجاه أسعار النفط إلى الانخفاض منذ مارس ١٩٨٣ وتدهورها منذ أواخر ١٩٨٥ ، وبالتالي تدهور الإيرادات النفطية ، أصبح لزاماً على الحكومة أن تلجأ إلى تخفيض الانفاق العام ، مما اضطرها إلى تقليص ميزانية عام ١٩٨٦/١٩٨٥ ، بعد اعتمادها .

(٦) المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ٢١٣ ص ٢٤٢ .

(٧) نفس المصدر السابق .

(٨) ارتفعت جملة المصروفات الحكومية من حوالي ٢٧٠٣ مليون دينار عام ١٩٨٠/١٩٨١ إلى ٣٢٤٨ مليون دينار عام ١٩٨٢/١٩٨٣ ، ولكنها انخفضت إلى ٣٠٢٤ مليون دينار عام ١٩٨٣/١٩٨٤ . انظر المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، الجدول ٢١٧ ص ٢٤٦ .

وكما يتوقع أدى تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ في مطلع الثمانينات إلى تراجع الطلب على العمالة وتزامن انهماج انخفاض الطلب على العمالة مع أمرين مهمين فيهما علاقة بالعمالة الوافدة . الأمر الأول ، أنه قد تم إقامة معظم ، إن لم يكن جميع الهياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية اللازمة لعمليات التنمية الاقتصادية والاجتماعية . وبما أن مشروعات الهياكل الأساسية أسهمت إسهاماً كبيراً في ازدهار قطاع التشييد والبناء خلال الفترة الماضية من جهة ، ونظراً لأن هذا القطاع اعتمد اعتماداً كلياً تقريباً ، على العمالة الوافدة واستخدام نسبة كبيرة منها ، من جهة أخرى ، أخذ الطلب على العمالة اللازمة لهذا القطاع بالانخفاض . وأما الأمر الآخر فيتعلق بقوة العمل من الكويتيين .

يتوقف حجم قوة العمل على حجم السكان ومعدل المشاركة وتتوقف نوعية قوة العمل على نوعية ومستوى مهاراتها ، أي نوع ومستوى تعليمها . وكما تبين لنا سابقاً فقد تزايد السكان الكويتيون بسرعة عالية خلال الفترة الماضية ، وتزايد عدد الاناث في قوة العمل من جهة وتراجعت نسبة الأمية وطرأ تحسن ملموس على الحالة التعليمية لقوة العمل وزادت خبرتها من جهة أخرى^(٩) . أي أن العرض المحلي من قوة العمل قد تحسن كثيراً ، كما ونوعاً .

فإذا كان النمو الاقتصادي ، الذي ارتبط بنمو عائدات النفط من جهة ، وتزايد عجز العرض المحلي من قوة العمل عن تلبية تزايد الطلب على العمالة من جهة أخرى قد أدبا إلى ظاهرة الهجرة الواسعة وما ترتب عليها من آثار مقصودة وآثار غير مقصودة في الماضي ، هل يؤدي تباطؤ النمو الاقتصادي بسبب تراجع عائدات النفط وانخفاض الطلب على العمالة من جهة ، وتحسن العرض المحلي من قوة العمل ، كما ونوعاً ، من جهة أخرى ، إلى هجرة معاكسة ؟ .

لقد أدت الهجرة التي تمت على نطاق واسع لتحقيق التنمية الاقتصادية والاجتماعية إلى خلق ترابط وثيق بين تواجد الوافدين وتوقعات استمرار وتزايد تواجدهم والعديد من مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تمت فما لم تتم الهجرة المعاكسة ، إن كان لا بد من أن تتم ، في إطار رؤيا واضحة وخطة مدروسة تنطلق من إدراك واع وتام لأوضاع الواقع وحكم سليم على احتمالات المستقبل ، فقد يترتب عليها آثار سلبية غير محسوبة يصعب احتوائها .

٣ - هل يستمر الحاجة إلى العمالة الوافدة في المدى المنظور :

يبين الجدولان ١٦ و ١٧ المشتغلين عام ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . ويتضح من الجدولين أن مجموع عدد المشتغلين ازداد بمعدل ٠,٦٣ ٪ ، سنوياً بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . بينما ازداد عدد المشتغلين الكويتيين بمعدل ٣,٦٦ ٪ سنوياً وارتفعت نسبتهم من مجموع المشتغلين ، ٢١,٢ ٪ إلى ٢٣,٢ ٪ وقد تناقص عدد المشتغلين غير الكويتيين بمعدل ٠,٢١ ٪ وانخفضت نسبتهم من ٧٨,٨ ٪ إلى ٧٦,٨ ٪ خلال هذه الفترة . فما هي احتمالات المستقبل ؟

يتضح من الجدولين أن ثلاث قطاعات ، خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية والتشييد والبناء والصناعات التحويلية ، استخدمت ٧٤,٣ ٪ من مجموع المشتغلين عام ١٩٨٠ وقد ارتفعت هذه النسبة إلى ٧٥,٨ ٪ عام ١٩٨٣ .

(٩) كان ٥١,٦ ٪ و ٣٩,٠ ٪ من جلة العمل الكويتية أمي وبقراً ويكتب على التوالي ، بينما فقط ١١,٤ ٪ من الثانية و ١,٢ ٪ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٦٥ ، وأصبح ٢٨,٣ ٪ أمي و ١٧,٢ ٪ بقراً ويكتب و ١٧,٣ ٪ من الثانية و ٢,٦ ٪ من الدرجة الجامعية وما فوقها عام ١٩٨٠ . انظر المجموعة الإحصائية للسنة ١٩٨٥ . الجدول ١٠٧ والجدول ١٠٨ ص ١١٦ .

وبناء على ذلك فإن مدى استمرار الحاجة إلى العمالة الوافدة ، مرهون ، في المقام الأول ، بما يمكن أن يطرأ على الطلب والعرض بالنسبة للقطاعات الثلاثة .

أ - قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية :

إن نمو المشتغلين في القطاع بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ لا يعني أنه سيستمر بنفس الاتجاه أو بنفس السرعة في المستقبل المنظور .

وعلى الرغم من أن نمو جملة المشتغلين في مختلف القطاعات كان بطيئاً جداً ، « ٠,٦٣٪ سنوياً » ، بلغ معدل النمو السنوي لجملة المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع والخدمات الاجتماعية والشخصية ٤,٥٪ خلال ١٩٨٠ - ١٩٨٣ . ويعود سبب نمو المشتغلين في قطاع خدمات المجتمع ، في المقام الأول ، إلى نمو السكان . حيث بلغ معدل النمو السنوي لجملة السكان ٤,٥٪ خلال نفس الفترة .

وبما أن الحكومة اعتمدت سياسات وستتخذ إجراءات لتعديل التركيبة السكانية فمن المتوقع أن تنخفض سرعة نمو جملة السكان إلى ٢,٢٢٪ ما بين عام ١٩٨٥ وعام ٢٠٠٠^(١٠) . وبافتراض استمرار نفس مستوى الخدمات من جهة ونفس مستوى إنتاجية العمالة فيه ، من جهة أخرى ، سيكون نمو جملة العمالة في القطاع في حدود ٢٪ سنوياً .

ومن الممكن مواجهة نمو طلب القطاع من النمو المتوقع في عرض العمالة الكويتية . ولكن ليس ذلك بالأمر السهل . فحسب بعض التقديرات يمثل المشتغلون في الخدمات الشخصية والمنزلية حوالي ٢٠٪ من جملة المشتغلين في القطاع ، وما لا يقل عن ٩٥٪ منهم من غير الكويتيين^(١١) . وقد ازداد الطلب على هذه العمالة بسبب نمو الرخاء من جهة وظهور قيم اجتماعية من جهة أخرى . فعند المشتغلين في الخدمات المنزلية للعائلة يعتبر مؤشراً لمكانتها في المجتمع . ومن غير المتوقع أن يتجه الطلب على هذه الفئة إلى الانخفاض .

ويتضح مما سبق أن حاجة القطاع إلى العمالة الوافدة ستستمر ، ولكن بدرجة أقل ، في المدى المنظور .

ب - قطاع التشييد والبناء :

كما يتضح من الجدولين « ١٦ » و « ١٧ » تراجع عدد المشتغلين في القطاع من ٩٧٠٩٩ إلى ٨١٣٦٢ وتراجعت نسبة المشتغلين في القطاع من جملة المشتغلين من « ٢٠,١٪ » إلى « ١٦,٥٪ » بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ .

لقد تأثر ازدهار القطاع في الفترة الماضية ، في المقام الأول ، بازدهار مشروعات المياكل الأساسية الاقتصادية والاجتماعية ومشروعات الاسكان التي نفذتها الحكومة ، كما تأثر أيضاً ببناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

وفيما يتعلق بالمياكل الأساسية فقد تم إقامة معظمها ، إن لم يكن جميعها ، ولذلك فإن أي توسع فيها سيكون في حدود بسيطة نسبياً . وكذلك الأمر بالنسبة لبناء المساكن من قبل القطاع الخاص .

(١٠) بالفرض معدل نمو سنوي مقداره ٣,٧٤٪ سيكون عدد السكان الكويتيين ١١٧٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . وبالفرض تحقيق التوازن السكاني سيكون جملة السكان ٢٣٥٧٦٤٢ عام ٢٠٠٠ . وما أن جملة عدد السكان ١٦٩٥١٢٨ عام ١٩٨٥ يكون معدل النمو السنوي لجملة السكان ٢,٢٢٪ (١١) لعدم التمييز بين العمال الأجانب في البلدان العربي للقطعة ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢/١ رقم ٤ ، ديسمبر ١٩٨٥ ، ٣٧-٣٤ .

جدول رقم - ١٦
المشتغلون حسب القطاع والجنسية ١٩٨٠

الجنس		غير كويتي		كويتي		العدد	الجملة
النسبة المئوية من	العدد	النسبة المئوية من	العدد	النسبة المئوية من	العدد		
المشتغلون	المشتغلون	المشتغلون	المشتغلون	المشتغلون	المشتغلون	المشتغلون	المشتغلون
في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع
المشتغلين	المشتغلين	المشتغلين	المشتغلين	المشتغلين	المشتغلين	المشتغلين	المشتغلين
٤٥٧	١٠٠	٣٢٠٠٤٥٢	٦٥٨	١٤٤٩٩٢	٧٢٠٦	٢٠٦	٧٥٤٦١
٢٠١	١٠٠	٩٧٠٩٩	٩٨٨	٩٥٨٩٢	١٢	١٢٠٦	١٢٠٦
٨٥	١٠٠	٤١٢٦٠	١٠٠	٢٨٠٨	٢٠١	٧٢٧	٣١٧٩
٢٥٧	١٠٠	١٣٢٨٢٩	٢٦٦	١٠١٢٠٥	٢٢١	١٨٢٣	٢٢٦٢٤
١٠٠		٤٨٢٦٤١	١٠٠	٧٨٨	١٠٠	٢١٢٣	١٠٢٤٧٠

المصدر : تم إعداد الجدول على أساس التسمية الأحصائية السوية ١٩٨٥ - جدول ٩٨ من ١٠٩

جدول رقم - ١٧
الاشتغال حسب القطاع والخبرة ١٩٨٣

المجنس				شهر كويتي		كويتي			العدد	الوظائف
النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد	النسبة المئوية من		العدد		
الاشتغال	جملة		الاشتغال	جملة		الاشتغال	جملة			
في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع	في القطاع
١٠٠	١٠٠	٢٥١٨٩٦	٤٣٥	٦٥٢	١٦٤٢٨	٧٦٨	٢٤٨	٨٧٦١٦	١٠٧٣	١٠٧٣
١٠٠	١٠٠	٨١٣٦٣	٢١٣	٩٨٧	٨٠٢٩٠	٠٩	١٠٣	١٠٧٣	١٠٧٣	١٠٧٣
١٠٠	١٠٠	٣٩٦٦٤	٩٧	٩٢٠	٣٦٤٨٢	٢٠٨	٨٠٠	٣١٨٢	٣١٨٢	٣١٨٢
١٠٠	١٠٠	١١٨٩٥٥	٢٥٥	٨١٣	٩٦٦٨	١٩٥	١٨٧	٣٣٧٤	٣٣٧٤	٣٣٧٤
١٠٠	١٠٠	٤١٨٧٨	١٠٠	٧٦٨	٣٣٧٣٣	١٠٠	٢٢٣	١١٤١٥	١١٤١٥	١١٤١٥

المصدر : تم إعداد الجدول على أساس الخبرة الاحصائية السنية ١٩٨٥ - جدول ٣٢١ من ١٧٥

ومن المتوقع أن ينشأ طلب على العمالة للقطاع لتشغيل وصيانة مشروعات الاستثمار التي بلغت ذروتها في أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات . وسيكون مزيج الطلب على المهارات مختلفاً عن مزيج الطلب في الفترة السابقة . ولكن بالرغم من تراجع طلب القطاع على العمالة ووجود أسباب قوية لتراجعها أكثر إلا أن حاجة القطاع للعمالة الوافدة ستستمر في المدى المنظور . نسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع كانت فقط ١,٣٪ و ١,٣٪ عام ١٩٨٠ و ١٩٨٣ على التوالي . إن ارتفاع النسبة من ١,٣٪ إلى ١,٣٪ لا تعني زيادة في عدد الكويتيين في القطاع . إذ أن عددهم قد انخفض من ١٢٠٦ إلى ١٠٧٣ . ويعود السبب في ارتفاع نسبتهم من ١,٣٪ إلى ١,٣٪ إلى انخفاض عدد غير الكويتيين . ونظراً لأن نسبة كبيرة من المشتغلين في القطاع من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٨٠-٨٥٪) فإن درجة مرونة الاحلال في القطاع ضعيفة جداً .

ج . قطاع الصناعات التحويلية :

تراجع عدد من المشتغلين في هذا القطاع من ٤١٢٦٠ إلى ٣٩٦٦٤ بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ ، إلا أن عدد المشتغلين الكويتيين ارتفع من ٣١٧٩ إلى ٣١٨٢ .

وبما أن الصناعات التحويلية تشمل المنتجات البترولية والمنتجات غير البترولية يعود تراجع عدد المشتغلين في القطاع إلى تراجع النشاط في قطاع النفط . ومن المعلوم أن تنوع مصادر الدخل من خلال إقامة وتطوير صناعات تحويلية حظي ، ولأزال يحظى ، باهتمام متزايد . وقد اعتمد هذا القطاع ، ولأزال يعتمد ، على العمالة الوافدة بشكل كبير . ففي عام ١٩٨٣ ، كانت نسبة الكويتيين من جملة المشتغلين في القطاع فقط ٨٪ .

وبما أن نسبة كبيرة من المشتغلين في هذا القطاع هم من عمال الانتاج والعمال العاديين (في حدود ٧٠-٧٥٪) فإن درجة مرونة الاحلال فيه ضعيفة . ولذلك فمن المتوقع أن تستمر حاجة القطاع إلى معظم العمالة الوافدة التي تعمل في القطاع حالياً ، كما من المتوقع أن تنشأ العمالة الوافدة لمواجهة أي غم في الطلب على العمالة خاصة بالنسبة لعمال الانتاج والعمال العاديين وبعض المهارات النادرة في المستقبل المنظور .

٤ - مواجهة المرحلة الانتقالية :

بينما كان العجز بين إجمالي الطلب على العمالة وعرض العمالة الكويتية يزداد باستمرار ويزداد الاعتماد على العمالة الوافدة باستمرار تسارع النمو الاقتصادي خلال الفترة الماضية وخاصة بعد ١٩٧٣ وإلى أوائل الثمانينات ، أصبحت الزيادة في عرض العمالة الكويتية أكبر من الزيادة في إجمالي الطلب على العمالة بسبب تباطؤ النمو الاقتصادي الذي بدأ منذ ١٩٨٠ .

فبينما ازداد عدد المشتغلين « ٩٢٣٧ » و شخص « ازداد عدد المشتغلين الكويتيين « ١١٦٧٥ » شخص » وانخفض عدد المشتغلين الوافدين « ٢٤٣٨ » شخص « بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ . وهذا يعني أن زيادة عدد المشتغلين الكويتيين تمت بزيادة عدد جملة المشتغلين (١٪) و بتخفيض عدد المشتغلين الوافدين (٩,٢٠) وإحلال كويتيين محلهم . ومنذ عام ١٩٨٤ قام العديد من مؤسسات وشركات القطاع الخاص في مختلف القطاعات الاقتصادية بصفة عامة وفي قطاع التشييد والبناء بصفة خاصة ، باتخاذ إجراءات لمواجهة انخفاض مستوى نشاطها وتراجع الطلب على العمالة وقد تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين لديها أو تخفيض مرتباتهم وأجورهم وإلغاء بعض المزايا التي كانت تقدمها لهم في السابق .

وقد قررت الحكومة الاستغناء عن عدد من الوافدين العاملين في الوزارات والمؤسسات العامة والمهيات العامة اعتباراً من مطلع صيف هذا العام . وهذا مؤشر على اعتماد الحكومة سياسة تخفيض حجم العمالة الحكومية . وربما كان هذا الاتجاه نابعا من شعور الحكومة بأن حجم العمالة الحكومية قد ازداد أكثر بكثير من الاحتياجات الفعلية خلال الفترة السابقة حيث أدت سهولة تمويل الانفاق العام ، بسبب تزايد العائدات النفطية ، إلى سهولة خلق وظائف جديدة باستمرار . وفي ظل تدهور العائدات النفطية واهتمام الحكومة بترشيد الانفاق العام ، فمن الطبيعي أن يكون تخفيض العمالة الحكومية بين الخيارات المتاحة لها .

وبما أن التوقعات تشير إلى استمرار تباطؤ نمو إجمالي الطلب على العمالة من جهة ، ونظراً لاتجاه زيادة العرض من العمالة الكويتية من جهة أخرى ، خلال الثمانينات على أقل تقدير ، يثور السؤال حول أفضل الخيارات الممكنة لمواجهة هذه المسألة بشكل يكفل الحد من الآثار السلبية التي قد تترتب على ذلك بالنسبة لجميع الأطراف المعنية . ويتفرع عن هذا السؤال المركزي سؤال آخران :

الأول : ما هي المعايير التي يتم بموجبها الاستغناء عن العمالة الوافدة ؟ والآخر ما هي السياسات التي ستعتمد بالنسبة لمن سيتم الاستغناء عنهم ؟ .

أ - معايير الاستغناء عن العمالة الوافدة :

يتطلب النظر في معايير الاستغناء التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة في القطاع الخاص وفي الحكومة . إذ أن الاستغناء عن العمالة في القطاع الخاص أقل إثارة للنقاش وأقل تعرضاً لتعدد وجهات النظر . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة في الحكومة فأكثر مجالا لإثارة النقاش ولتعدد وجهات النظر حوله .

١ - في القطاع الخاص :

ذكرنا أن القطاع الخاص واجه انخفاض حاجته إلى العمالة باعتماد إجراءات تراوحت بين الاستغناء عن بعض العاملين أو تخفيض المرتبات والأجور وإلغاء بعض المزايا . وهذا يعني أن المعيار ينطلق من التكلفة والمنافع . وبصفة عامة يمكن القول أن القطاع الخاص يطبق هذا المعيار على العمالة الكويتية والعمالة الوافدة على السواء في إطار تحقيق مصلحته الخاصة . ومن الطبيعي أنه في حالة تساوي التكلفة والمنافع بين الاستغناء عن عامل وافد آخر كويتي ، أن يحتفظ بالعامل الكويتي ويستغني عن العامل الوافد . فالتوظيف أصلاً في القطاع الخاص يقوم ، في المقام الأول ، على أساس الربح والخسارة وبصفة عامة لا يوظف القطاع الخاص أي شخص ، كويتي أو غير كويتي ، إلا في حدود حاجته . كما أن تحديد الرتب والمزايا ، يتم في المقام الأول ، على أساس الربح والخسارة ، أي على أساس مدى الحاجة من جهة والانتاجية من جهة أخرى .

٢ - في الحكومة :

يذكر أن مسار وتوجهات التنمية الاقتصادية والاجتماعية تأثرت بمفهوم وأهداف التنمية من جهة وبالعائدات النفطية من جهة أخرى . وتأثرت سياسات التوظيف في الحكومة بسياسات الرفاه الاجتماعي وظله وتوزيع الدخل . فكفالة الحكومة وظائف عامة للمواطنين أدت ، في كثير من الأحيان ، إلى خلق وظائف للمواطنين دون حاجة فعلية لها . وكادت أن تصبح الوظيفة بالجهاز الحكومي ، في كثير من الأحيان ، وسيلة من وسائل تعميم الفائدة من

عائدات النفط . فراتب الموظف في هذه الحالة بمثابة نصيبه من عائدات النفط ، وربما يتولد شعور لدى البعض أن نصيبه ليس كاليا مقارنا بغيره .

ونظرا لسهولة التوسع في الانفاق العام بسبب الارتفاع الكبير في عائدات النفط في السبعينات تم خلق وظائف كثيرة دون حاجة فعلية لها وتم إشغالها بمواطنين (ووافدين ايضا) وأدت هذه الظاهرة إلى سلسلة من الآثار المترابطة لعل من أهمها :

(١) إضعاف العلاقة بين الكسب والعمل المثمر وبالتالي إضعاف قيم الانتاج والانتاجية والحافز الى العمل .
(٢) تضخم بيروقراطي وبالتالي انخفاض مستوى كفاءة الجهاز الحكومي وانخفاض مستوى إنتاجية المجتمع ككل تبعاً لذلك .

(٣) زيادة تدهور التوازن بين العرض من العمالة الكويتية وإجمالي الطلب على العمالة لمختلف القطاعات الاقتصادية وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة .

ويتضح مما سبق أن مسألة اختيار أفضل المعايير الممكنة للتكثيف مع الواقع الجديد أقل سهولة منها في القطاع الخاص . فإذا كان لابد من تقييـض حجم العمالة الحكومية ينبغي أن تتم هذه العملية في إطار خطة واضحة توضع على أساس دراسات دقيقة وكافية تعالج المسألة من مختلف جوانبها بقدر كاف من التوازن .

وقبل محاولة إلقاء بعض الضوء على بعض جوانب هذه المسألة للتوصل إلى أفضل الخيارات الممكنة لابد من التوكيد على أن احلال الكويتيين محل الوافدين وتوظيف كويتيين مؤهلين لشغل وظائف جديدة يتم اعتمادها بناء على حاجة فعلية لها هو توجه سليم لتمكين العمالة الكويتية من لعب دور أكبر في مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية .

وفي هذا الإطار ينبغي التمييز بين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف تزيد عن الحاجات الفعلية وبين الاستغناء عن العمالة الوافدة التي تشغل وظائف لازالت الحاجة اليها قائمة . إن الغاء وظائف لا تدعو الحاجة الفعلية إلى وجودها والاستغناء عن شاغليها مفهوم مقبول وإجراء مألوف في جميع دول العالم لمواجهة الانكماش الاقتصادي . أما الاستغناء عن العمالة الوافدة بالرغم من أن الحاجة الى وظائفهم قائمة فامر آخر .

إذا وجد داخل الجهاز كويتي يشغل وظيفة لا لزوم لها وينفس الوقت مؤهل للاضطلاع بمسئوليات ومهام وظيفية لازمة ويشغلها وافد ، يمكن الغاء وظيفته وإحلاله محل الوافد .

وينبع التوكيد على هذا الامر لأن وجود عمالة زائدة عن الحاجة لا تقتصر على الوافدين ، بل وتوجد بين الكويتيين بدرجة أكبر . وينفس الوقت من الممكن أن يوجد وافدون يشغلون وظائف في بعض الوزارات والمؤسسات لا حاجة فعلية لها وهم مؤهلون لاشغال وظائف الحاجة اليها قائمة في نفس الوزارات والمؤسسات أو في وزارات ومؤسسات أخرى ولا يوجد كويتيون مؤهلون لاشغالها .

ويتضح من كل ذلك أن الجانب الفني في المسألة متعدد الجوانب ، وما لم تتم العملية في اطار معايير واضحة يتم اختيارها وتحديدها في ضوء مصلحة العمل قد تكون النتيجة الاستغناء عن من تقتضي المصلحة العامة بقاءهم والاحتفاظ بمن تتطلب المصلحة العامة الاستغناء عنهم .

ولكي تأتي هذه العملية بالثمار المرجوة لابد من أن تتكامل مع إعادة النظر في سياسات توظيف الكويتيين التي تم اعتمادها وتنفيذها في اطار التركيز المفرط على الرفاه الاجتماعي وظلة توزيع الدخل من جهة ومراجعة سياسات ومناهج

وبرامج التعليم والتدريب من جهة أخرى ، نحو بناء قوة عمل كويتية بالجهاز الحكومي قادرة على قيادة مسيرة التنمية الاقتصادية والاجتماعية في المرحلة القادمة .

وأما الجانب الانساني في مسألة تخفيض العمالة الحكومية لمواجهة تدهور الإيرادات النفطية واضطرار الحكومة إلى تخفيض مستوى الانفاق العام ، فأمر آخر وينبغي أن يؤخذ بعين الاعتبار في اختيار أفضل بديل ممكن . فالوافدون العاملون بالجهاز الحكومي وفي المؤسسات والهيئات العامة ساهموا في مسيرة التنمية ، ومضى على عمل البعض منهم فترات طويلة . وبالرغم من صحة المقولة بأن الوافدين قدموا إسهاماً وهم يعملون أنهم مؤثرون وأن عملهم سينتهي بانتهاج الحاجة اليهم ، إلا أن الصحيح أيضاً أنهم شغلوا وظائف دائمة وأصبح وضعهم « مؤقت دائم » .

ومن جهة أخرى ، ينبغي اعتبار الجانب الانساني لاعتبار آخر ، إذ من غير الممكن أن يتم تخفيض حجم العمالة الوافدة بدرجة كبيرة من خلال الزيادات المتوقعة في عرض العمالة الكويتية في المدى المنظور . وهذا يعني ان اعتماد الجهاز الحكومي ، وبدرجة كبيرة على العمالة الوافدة سيستمر في المدى المنظور . ومن الطبيعي أن النهج الذي سيتم بموجبه تخفيض حجم العمالة سيؤثر على المناخ الذي سيتولد لدى الوافدين الذين سيستمرّون في الجهاز الحكومي . وبقدر ما يكون النهج على أساس معايير متزنة فنياً و إنسانياً ، بقدر ما يفهم الوافدون الذين لم يأت دورهم للاستغناء عنهم مبررات الاستغناء عن الآخرين وقبولها ، وإلا فإذا كانت المعايير عرضة للطعن يتولد لديهم شعور بضعف الرضى والارتياح ، وقد يؤدي ذلك إلى انخفاض معنوياتهم وبالتالي مستوى انتاجيتهم .

ب - الخيارات المتاحة لمن يتم الاستغناء عن خدماتهم :

ترتبط إقامة العامل الوافد بالعمل كما ترتبط إقامة مرافقيه من أفراد أسرته بإقامته . وهذا يعني أن فقدان العمل يؤدي إلى فقدان الإقامة . وما لم يتمكن من يفقد عمله في جهة معينة من إيجاد عمل في جهة أخرى ، في حدود القوانين والضوابط والشروط المعمول بها من جهة وفي خلال الفترة المسموح له البقاء خلالها بعد انتهاء عمله وإلغاء إقامته من جهة أخرى ، وبالتالي نقل إقامته ، لا خيار له العودة إلى بلده .

نظراً للنمو الاقتصادي وبالتالي تزايد الطلب على العمالة الوافدة خلال الفترة الماضية كان من السهل على من تنتهي خدماته في أي جهة أن يجد عملاً آخر في جهة أخرى بسهولة . أما في ظل الانكماش الاقتصادي وتراجع الطلب على العمالة فالأمر يختلف تماماً . لذا قد يكون من مصلحة جميع المعنيين بالأمر النظر في إمكانية اعتماد سياسة بخصوص العمال المهاجرين تأخذ بعين الاعتبار ما يلي :

١ - لا يواجه من يتم الاستغناء عن خدماتهم سواء في القطاع الخاص أو الحكومة نفس الظروف .

فالبعض منهم مضى على إقامتهم في الكويت فترات طويلة نسبياً وتعودوا على نمط الحياة فيها ، وربما أصبحت جلدورهم فيها أقوى منها في بلدانهم الأصلية . ليس من الممكن إتاحة قدر من الاختيار بين العودة إلى بلده أو البقاء في الكويت لمن قضى فترات طويلة قد تزيد عن ربع قرن ؟

٢ - تختلف الظروف الاقتصادية السائدة في بلدانهم . فالعامل الاقتصادي كان ، في المقام الأول ، سبب هجرة العمالة الوافدة إلى الكويت . لذلك ستتأثر رغبتهم في العودة إلى بلدانهم أو البقاء في الكويت بالظروف الاقتصادية لبلدانهم .

٣- كما أدت الهجرة إلى ازدهار الطلب على السلع الاستهلاكية والاسكان بصفة خاصة ستؤدي الهجرة المعاكسة ، إذا ما تمت بسرعة ، إلى تراجع الطلب وبالتالي إلى زيادة حدة الانكماش الاقتصادي .
ولكن قد يقال أن الهجرة المعاكسة تنسق مع الرغبة في تخفيف عبء النفقات العامة على الخدمات . هذا صحيح ولكن علينا أن نتذكر أن تخفيض عدد المستفيدين من الخدمات لا يؤدي بالضرورة إلى تخفيض كلفة تقديم الخدمات للفرد بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين . إذ أن هناك تكاليف بغض النظر عن حجم المستفيدين . وفي ظل الإدارة الماهرة للخدمات تنخفض كلفة تقديمها للفرد الواحد بزيادة عدد المستفيدين .
٤- تراوحت السياسات التي اعتمدها بعض الدول الأوروبية بخصوص العمال المهاجرين بين العمل على استيعاب من يرغب منهم البقاء على نحو دائم وتقديم حوافز مالية لمن يختار منهم العودة إلى وطنه^(١٢) .

التوجه نحو المستقبل :

ذكرنا سابقاً أن تحقيق التوازن السكاني هو المحور الأساسي لمسار وتوجهات خطة التنمية الخمسية ١٩٨٥/١٩٨٦ - ١٩٨٩/١٩٩٠ . بافتراض استمرار نمو السكان الكويتيين بين ١٩٨٥ و ٢٠٠٠ بنفس معدل نموهم بين ١٩٨٠ و ١٩٨٥ ، ٣,٧٤٪ سنوياً ، سيبلغ عدد السكان الكويتيين ١١٧٨٨٢١ عام ٢٠٠٠ . ويتطلب تحقيق التوازن السكاني أن لا يزيد عدد السكان غير الكويتيين عن عدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ . فإذا افترضنا أن عدد السكان غير الكويتيين سيكون مساوياً لعدد السكان الكويتيين عام ٢٠٠٠ من المفروض أن لا يتجاوز معدل نمو السكان غير الكويتيين ١٪ خلال الفترة ١٩٨٥ - ٢٠٠٠ .
إن التحكم في نمو السكان غير الكويتيين في حدود معدل ١٪ سنوياً يعني هجرة معاكسة يتوقف حجمها على معدل نموهم الطبيعي . بافتراض ٢ - ٣٪ معدل نمو طبيعي لهم سيتراوح مجموع حجم الهجرة المعاكسة بين ٣٥١٢٣٨ و ٥٦٦٦٣٠ .

ويمكن التحكم في نموهم في حدود ١٪ لتحقيق التوازن السكاني من خلال تلبية الطلب على العمالة من الداخل ووقف استيرادها من الخارج وقصرها على الحالات التي يتعدّل تلبيةها من الداخل من جهة واعتماد سياسات وقوانين وضوابط من شأنها أن ترفع معدل المشاركة وبالتالي تخفض معدل المرافقة من جهة أخرى .

إن التوجه نحو تلبية نمو الطلب على العمالة من العرض المحلي منها من العمالة الكويتية أولاً ومن العمالة الوافدة الموجودة في الكويت ثانياً وقصر استيراد عمالة وافدة جديدة على الحالات الخاصة التي يعجز العرض المحلي عن تلبيةها توجه في الطريق السليم .

أما التحكم في معدل المرافقة للعمالة الوافدة فمسألة أخرى . يختلف معدل المرافقة باختلاف جنسيات العمالة الوافدة . وبصفة عامة ، معدل المرافقة للعمالة العربية أعلى بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية .

كان معدل المرافقة للعمالة العربية ٦٣,٨٪ وللعمالة الآسيوية ٣٥,٣٪ عام ١٩٧٥ . ونتيجة لتعديل الضوابط والشروط لاصطحاب أو إحضار أفراد الأسر انخفض معدل المرافقة للعمالة العربية إلى ٥٩,٧٪ وللعمالة الآسيوية إلى

(١٢) مكتب العمل الدولي ، ألباء مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والثلاثون ، مارس ١٩٨٦ ص ٩ .

٢٨,٣٪ عام ١٩٨٠. ولكن بالرغم من الانخفاض بقي معدل المرافقة للعمالة العربية أكبر بكثير من معدل المرافقة للعمالة الآسيوية^(١٣).

وجدير بالذكر أن نسبة العمالة العربية انخفضت من ٦٩,٠٪ إلى ٥٩,٦٪ بينما ارتفعت نسبة العمالة الآسيوية من ٢٩,٤٪ إلى ٣٨,٠٪ بين عام ١٩٧٠ و ١٩٨٠. وأدى ذلك إلى انخفاض نسبة السكان العرب من جملة السكان غير الكويتيين من ٨٠,٢٪ إلى ٧٢,٥٪ وارتفاع نسبة السكان الآسيويين من ١٨,٧٪ إلى ٢٥,٨٪ بين نفس العامين. يتضح مما سبق أن استخدام العمالة الآسيوية يتسق أكثر مع هدف تعديل التركيبة السكانية. ولكن يستحسن أن يؤخذ بعين الاعتبار الآثار التي يمكن أن تترتب على تفضيل العمالة ذات معدلات المرافقة المنخفضة، العمالة الآسيوية في هذه الحالة.

يؤدي انخفاض معدل المرافقة للعمالة إلى ارتفاع معدل المشاركة لها، ويتبع ذلك ارتفاع نسبة الذكور وبالتالي انخفاض مستوى النضج السكاني الذي تترتب عليه آثار اجتماعية.

ومن جهة أخرى فإن نمط حياة العامل الذي يعيش في الكويت بمفرده يختلف عن نمط حياة من يعيش وأفراد أسرته. فبحجم ونوع طلب من يعيش بمفرده على السلع الاستهلاكية وعلى السكن بوجه خاص يختلف عن حجم ونوع طلب من يعيش وأفراد أسرته. ويتبع ذلك أن نسبة اتفاق من يعيش بمفرده من دخله ستكون منخفضة جداً بينما ترتفع نسبة تحويله من دخله للخارج. وهذا يعني أن مساهمة من يعيش بمفرده في تنشيط الدورة الاقتصادية أقل بكثير من مساهمة من يعيش وأفراد أسرته.

ولعل الاهتمام بمسألة معدل المرافقة الوافدة تنبع من الاهتمام المشروع بتخفيض عبء كلفة الخدمات. إن تقديم بعض الخدمات مجاناً أو لقاء رسوم مدروسة ظاهرة عالمية ولا تقتصر على الكويت.

إن عبء توفير الخدمات لا تنخفض عادة بنفس نسبة انخفاض عدد المستفيدين بل من المفروض أن تنخفض كلفة توفير الخدمات للفرز بازدياد عدد المستفيدين منها في ظل إدارة ماهرة لها.

وطالما أن الحاجة إلى العمالة الوافدة مستمرة في المدى المنظور يكمن التحدي الكبير في خلق مناخ يسهم في تحسين أوضاعهم وزيادة الاستفادة منهم على السواء.

لقد أدى ما قيل وما نشر عن الاستغناء عن خدمات بعضهم مؤخراً إلى خلق مناخ سادته القلق وضعف الشعور بالاستقرار. إن الميل نحو الاستقرار وزيادة الشعور بالارتياح من شأنه أن يرفع من مستوى استقرارهم النفسي ويرفع بالتالي الرغبة في العمل ورفع الانتاجية، ولعل النظر في إمكانية منح الإقامة شبه الدائمة أو الدائمة خاصة لمن أمضوا فترات طويلة ومن يتضح استمرار الحاجة لهم في المدى المنظور، من جهة، ومساواتهم بالمواطنين في المعاملة والمرتبات والأجور من جهة أخرى، من أهم العوامل التي تسهم في خلق وضع أفضل لهم وللكويت على السواء.



(١٣) المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥، الجدول ٣٩ (السكان غير الكويتيين حسب مجموعات الدول والفرع وبسبب الإقامة) من ص ٥٥.

المراجع

- ١ - أنباء مكتب العمل الدولي ، العدد الثاني والستون ، مارس ١٩٨٦ .
 - ٢ - دولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٨٥ .
 - ٣ - دولة الكويت ، مجلس التخطيط ، إدارة الإحصاء المركزية ، المجموعة الإحصائية السنوية ١٩٦٤ .
 - ٤ - د. سليمان شعبان القدسي ود. موريث عوض الله جرجس ، بعض السمات والآثار الاقتصادية للعمالة الوافدة إلى الخليج العربي : حالة الكويت ، المثل والصناعة ، العدد السادس ١٩٨٥ ، ص ٧ - ٣٩ .
 - ٥ - تميم الشريفي : العمال الأجانب في البلدان العربية المنتجة للنفط : هل منصرف الدفاع التناقض ؟ ، التمويل والتنمية ، المجلد ٢١ / رقم ٤ ، ديسمبر ١٩٨٤ ص ٣٤ - ٣٧ .
 - ٦ - مركز دراسات الوحدة العربية والمعهد العربي للتخطيط ، العمالة الأجنبية في أنظار الخليج العربي ، بحوث ومناقشات لدولة العمالة الأجنبية في أنظار الخليج العربي ، الكويت ١٥ - ١٨ يناير ١٩٨٣ .
 - ٧ - المعهد العربي للتخطيط ومنظمة العمل الدولية ، تدور السكان والعمالة والمهجرة في دول الخليج العربي ، الكويت ١٦ - ١٨ ديسمبر ١٩٧٨ .
- The Economic Intelligence Unit Ltd., Assessment of Joint Sector Operations in Kuwait, Volume XVIII, Study - A Area 2, Report submitted to the Government, May 1974.

مقدمة

تعد الهجرة الدولية للسكان قديمة قدم الجنس البشري ، إلى جانب أن السجل التاريخي لظاهرة الهجرة كشف عن أن الهجرات الدولية قد نمت وتزايدت ليس في حجمها فقط ، بل في المسافات التي تغطيها من مكان إلى آخر ، وفي مستهل دراستنا لهذه الظاهرة ينبغي أن نعلم أن الهجرات - قديما وحديثا - كانت عاملا مهما في تاريخ تطور وتقدم الجنس البشري .

ولقد كانت هناك حركات سكانية كبرى نمت في وقت مبكر - أي منذ العصر الجليدي - وقد اتجهت تلك الحركات من أحد الأقاليم السكانية الكبرى في العالم والمأهولة بأعداد كبيرة بالسكان ، إلى مناطق أخرى سواء بالقرب من شمال غرب الهند أم الهند الصينية ، بالإضافة إلى ذلك فقد كانت هناك حركات سكانية كبرى حدثت بعد ذلك الوقت ، إلا أنها قديمة أيضا وشملت قلب العالم القديم وفي كلتا الحالتين كان السبب الرئيسي لحدوث تلك الحركات السكانية يتمثل في التغيرات المناخية التي كان من نتائجها تكرار فترات الجفاف النسبية . (انظر شكل رقم ١) .

أما الهجرات الحديثة فتتقسم تاريخيا إلى مرحلتين ، وفي المرحلة الأولى منها والتي امتدت منذ الكشف الجغرافية والاستعمار حتى القرن الثامن عشر ، وفي هذا المدى الزمني الذي يمتد لأكثر من ثلاثة قرون لم تزد جملة المهاجرين طوال هذه الفترة عن بضعة مئات من الألوف ، وهذا يرتبط بكثير من التغيرات مثل وسيلة الانتقال عبر المحيطات والقارات أو المرحلة التكنولوجية بصفة عامة ، ويعد تعمير الأوربيين لقارات العالم الأخرى غير قاراتهم من أعظم الهجرات البشرية في التاريخ والتي نمت في تلك الفترة الزمنية حيث بدأت منذ القرن السادس عشر (انظر شكل رقم ٢) .

البيانات الإحصائية لظاهرة الهجرة الدولية

أمل يوسف إصباح

أستاذة مساعدة بقسم الجغرافيا
كلية الآداب
جامعة الكويت

وبذلك نجد أن الفترة الزمنية السابقة للقرن الثامن عشر لم تشهد إلا القليل من الهجرات السكانية الدولية التي كان يسيطر عليها ويكبلها طغيان عامل المسافة ، إلا أن هذا الأمر لم يستمر طويلا ، حيث أنه منذ القرن الثامن عشر وما بعده وهذه الفترة تمثل المرحلة الثانية وفيها بدا يظهر بوضوح الخط الفاصل بين مجتمع ساكن مستقر وبين مجتمع كبير الحركة أي منذ الثورة الصناعية التي عمت أوروبا في تلك الفترة ، والتغيرات التكنولوجية التي أفرزتها هذه الثورة والتي ساعدت وبشكل فعال على اتساع حيز المسافة التي تم بها أو فيها بينها الهجرات البشرية ، بحيث أن تلك الظاهرة لم تشمل الدول الأوروبية التي تحقق بها التقدم الصناعي فقط بل وتعدتها إلى الدول البعيدة عن أوروبا ، وقد حدثت هذه التغيرات ولكن في وقت مبكر في كل من بريطانيا ودول غرب أوروبا ، ثم فيها بعد ذلك عمت تلك الظاهرة وبشكل أكثر وضوحا لتشمل بالفعل العالم كله خاصة وبخاصة في القرن العشرين ، (انظر شكل ٣ ، ٤) .

وقد أشار الباحث هاجيت (Haggett)^(١) وبأسلوب مختصر لكيفية وقابلية السكان على الحركة في القرن العشرين من مكان إلى آخر فذكر « أن التزايد السريع للحركات السكانية بعد احدى الصفات البارزة التي بدت في هذا القرن ، أي القرن العشرين ، بحيث أن المعلومات المتعلقة في كل من المجالات الرئيسية لحركة السكان والبضائع أيضا - قد تمت وتزايدت بثبات أكبر ، نظرا لأثر التقنيات الحديثة التي ساعدت على التقليل من القيمة النسبية للمسافة » ، وهذا يعني أن الحركات السكانية أصبحت في الوقت الحاضر بمثابة حركات عامة وشائعة بالنسبة لغالبية الناس ؛ بعد أن كانت في السابق مجرد حركات قليلة ، ولا تتم إلا بعد مرور حقبة طويلة من الزمن بين كل منها والأخرى التي تليها^(٢)

وتكمن أهمية ظاهرة الهجرة الدولية للسكان سواء أكان منها على المستوى العالمي أم على المستوى المحلي ، في أنها تعد العنصر الأساسي الثالث المؤثر في حجم السكان في أي دولة بالعالم ، حيث نجد أن تأثيرها على الحجم السكاني بدولة الكويت أي على المستوى المحلي يعد واضحا ، وبخاصة أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠ ٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥ ، أما العنصران الأول والثاني فيمثلها كل من المواليد والوفيات ، ولذلك فإن أهمية الهجرة الدولية تكمن في الأثر المباشر على نمو أو تناقص السكان في أي دولة ومن ثم فإن تأثيرها ينسحب أيضا على تلك التغيرات التي تطرأ على الخصائص الديموجرافية المختلفة للسكان في تلك الدولة ، إن كان في البلدان أو المناطق الأصلية للمهاجرين (Ares of origin) أو في البلدان أو المناطق المقصودة أو المستقبلية لهم (Destination of Areas) .

بالإضافة إلى ما سبق ذكره فإن أهمية الهجرة تكمن - أيضا - في تأثيرها على كل من النمو السكاني والقوى العاملة في أي منطقة من المناطق المستقبلية لهذه الهجرة ، أو المرسله لها .

ويركز العلماء والمتخصصون عند دراسة موضوع الهجرة الدولية على أحد الجوانب المتعلقة بتلك الظاهرة كل منهم بحسب اختصاصه ، فنجد أن علماء الاجتماع يركزون عند دراسة هذه الظاهرة على التأثيرات الاجتماعية والنفسية لتلك الظاهرة على كل من المهاجرين من جهة ، وعلى سكان المناطق المرسله أو المستقبلية لهذه الهجرة من جهة أخرى ،

Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward arnold, London, 1965, P. 42.

(١)

Zelinsky, W. The Hypothesis of The Mobility Transition" Geographical Review, 61, 1971, P. 219 - 49.

(٢)

وكذلك يتناولون بالدراسة والتحليل مدى امتصاص التبادل الثقافي للسكان المهاجرين ، أما الاقتصاديون فيركزون عند تناولهم موضوع الهجرة بالدراسة والتحليل على العلاقة المتبادلة بين الهجرة ودورة العمل ، بالإضافة إلى مدى تأثير الهجرة على سد احتياجات الدولة المستقبلية للعمال المهاجرين المهرة وغير المهرة ، وأيضاً مدى تأثير الهجرة على النمو الصناعي ، وأخيراً يركزون على دراسة الوضع المهني والوظيفي للمهاجر .

أما المشرعون والسياسيون فعندما يتناولون ظاهرة الهجرة بالدراسة والتحليل فنجدهم يركزون على صياغة القوانين ووضع السياسات ذات العلاقة المباشرة بالمجرة ، ويركزون أيضاً ولكن بدرجة أقل شأنًا على القوانين التي تسن وتسمح تجاه الهجرة القادمة وبخاصة فيما يتعلق منها بمنح المهاجرين حق الاقتراع (٣) .

ويقدم هذا البحث دراسة تحليلية لمراحل تطور الأساليب المختلفة التي تتبع عادة عند جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة الدولية للسكان على المستويين الدولي والمحلي ، وبخاصة أن تلك الظاهرة أصبحت شائعة عالمياً في وقتنا الحاضر ، بل وتعم جميع أفراد الجنس البشري ، مهما اختلفت مستوياتهم الاقتصادية أو الاجتماعية ، وأصبحت هذه الظاهرة - أيضاً - تحدث في كل لحظة وفي كل مكان وبين أعداد كبيرة من السكان في المجتمع الواحد ، وبناء على ذلك وما لهذه الظاهرة من أهمية وبخاصة في مجالات البحث المعاصر نظراً لما لها من علاقة وطيدة بحياة المجتمعات الحديثة ، فإن الهدف الأساسي إذا من هذا البحث يتلخص في متابعة التطورات التي حدثت على أساليب جمع المادة العلمية وبخاصة فيما يتعلق منها بالبيانات الاحصائية لظاهرة الهجرة على المستويين الدولي والمحلي ، أي داخل دولة الكويت ، من أجل الوصول الى معرفة الوضع الراهن لهذه البيانات ومدى توفرها ، وكيفية الحصول عليها ، وبخاصة أن لهذه الظاهرة أثراً كبيراً على كل من السكان في الدولة المرسله للمهاجرين من جهة والدولة المستقبلة لهم من جهة أخرى ، وتمثل هذه الأهمية في الآثار الناجمة عن تلك الظاهرة سواء أكان منها الآثار الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية ، التي تعم كافة المجتمع داخل الدولة على المستويين الدولي ، أو المحلي أي بدولة الكويت التي بعد أبرز أثر لهذه الظاهرة على إجمالي السكان أنها تمثل نسبة مقدارها (٦٠٪) من إجمالي سكان الدولة في عام ١٩٨٥م ، كما ذكرنا قبل قليل .

أما بالنسبة لهيكل البحث فهو ينقسم الى خمسة أقسام يتناول الأول منها تعريفاً للهجرة الدولية ، ثم يليه القسم الثاني الذي يقدم من خلاله شرحاً مفصلاً لأسباب حدوث ظاهرة الهجرة والعوامل المؤثرة فيها ، يتبعها القسم الثالث الذي يعرض وبشكل مفصل للأساليب التي تتبع عند جمع البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، يليه القسم الرابع الذي يخصص لعرض وتقييم سجلات الهجرة الدولية ، ثم القسم الخامس والأخير الذي يتناول - أيضاً - بالدراسة والتحليل لسجلات الهجرة وتطورها على المستوى المحلي .

وقد رأينا استكمالاً لهذه الدراسة إضافة ملحق يحتوي على الجداول الاحصائية الخاصة ببيانات الهجرة على المستوى المحلي ، بالإضافة الى ملحق آخر يحتوي على الأشكال البيانية والخرائط الخاصة بالهجرة على المستويين العالمي

Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, The Methods and Materials of Demography, Condensed Edition By Edward G. Stockwell, Bowling Green University, Bowling Green, Ohio, New York, 1976, P. 349. (٣)

والمحلي، لتساعد كافة تلك البيانات في إيضاح الرؤية حول كيفية تطور تيارات الهجرة السكانية في الفترات الزمنية المتتالية على المستويين العالمي والمحلي، وبخاصة من حيث حجمها واتجاهاتها والاسلوب المتبع في جمع بياناتها.

وفي خاتمة هذه المقدمة لابد من ذكر أنه لا ينبغي على الباحثين والمتخصصين أمر صعوبة الحصول على المراجع والمصادر التي عالجت ظاهرة الهجرة، وربما يكون هذا البحث بمثابة الدراسة الأولى من نوعها التي عالجت بالدراسة والتحليل وبشكل مفصل أسلوب جمع البيانات الاحصائية الخاصة بظاهرة الهجرة، ان لم يكن بالطبع على المستوى العالمي، فهو بالتأكيد على المستوى المحلي، والله الموفق.

١ - تعريف الهجرة :

الهجرة حسب تعريف قسم السكان بهيئة الأمم المتحدة هي ظاهرة جغرافية يعني بها انتقال السكان من منطقة جغرافية إلى أخرى، وبالتالي يجب عن ذلك تغير مكان الاستقرار الاعتيادي للفرد، أي تغير هذا المكان عبر الوحدات الجغرافية ذات الحدود السياسية. وإضافة إلى ذلك، وهذا النوع من الهجرة أي الهجرة الدولية هي مركز اهتمامنا في هذه الدراسة، وقد أوردنا في هذا البحث، ومثالا على ذلك أن هناك بعض التغيرات التي تطرأ على مكان إقامة الفرد ولكنها في غالب الأحوال لا تدخل ضمن نطاق التعريف السابق للهجرة، وبخاصة إذا كان التغير مؤقتا وليس له أي تأثير على مكان الإقامة المعتاد (Usual Residence)، بالرغم من أن أفراد تلك الظاهرة عبروا حدودا دولية، إلا أنهم في الوقت ذاته من الممكن أن يضموا إلى أولئك الأفراد الذين يقومون برحلات قصيرة الأمد يكون الغرض منها الزيارة أو قضاء الاجازة أو انجاز بعض الأعمال، بالإضافة إلى ذلك فإن هناك نوعا آخر من التغيرات التي تطرأ على مكان الإقامة وتتميز هذه التغيرات بأنها دائمة، وبالرغم من ذلك فإنها تعد مجرد حركات تمت عبر مسافات قصيرة، بحيث أن مجال تأثيرها يكون عادة على الهجرات الداخلية فقط، وبالتالي ليس لها أي أثر على الهجرة الدولية، وبشكل عام فإن استعمال مصطلح مدة الإقامة يقتصر على التغيرات المستمرة في مكان الإقامة وبخاصة تلك التي تتم بين المناطق ذات التصنيف السياسي المحدد بوضوح أو تلك التي تتم بين المناطق الاحصائية.

وما هو جدير بالذكر أن الدراسات الديموجرافية عادة تتناول بالدراسة والتحليل وبشكل خاص ومركز لنوعين رئيسيين من الهجرة، هما الهجرة الدولية والهجرة الداخلية، حيث يعزى السبب المهم والرئيسي في حدوث هذين النوعين من الهجرة إلى حركة السكان عبر الحدود الدولية، في النوع الأول، بينما نجد أن النوع الثاني من الهجرة لا تخضع لذلك لأن حركة السكان تتم عبر الحدود الادارية الداخلية، اللهم إلا في دول المعسكر الشيوعي الذي تخضع الهجرة الداخلية فيه للسلطات الحكومية. ويتم بعد ذلك تصنيف الهجرة الدولية كهجرة من وجهة نظر كل من الدولة المرسله أو المصدرة للمهاجرين، وكمهاجرين من وجهة نظر الدولة المستقبلة أي التي يصل إليها هؤلاء المهاجرون، إلا أنه عند احتساب مدة الإقامة في حالة الهجرة الداخلية فإنه ينطبق عليها نفس الشروط التي تستعمل في حالة الهجرة التي تتم عبر الحدود الدولية، ووجه التشابه والاختلاف بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية غير واضح المعايير في بعض الأحوال نتيجة لعدم توفر الحكم الذاتي لبعض الاقاليم، الآن بعضها الآخر يعد مستقلا، والأمثلة على ذلك

كثيرة واعتمادا على ما تعرضه البيانات الإحصائية الصادرة عن قسم السكان هيئة الأمم المتحدة والخاصة بالحركات السكانية بين المناطق المحتلة في الفترة الزمنية التالية للحرب الألمانية والتي تمت بين بورتوريكو والولايات المتحدة الأمريكية ، أو بين فرنسا والجزائر فإن هذه الحركات من الممكن أن تصنف على أساس أنها : إما هجرات دولية أو هجرات داخلية ، حيث أن التطور التاريخي لأي دولة في العالم ربما يشتمل على منطقة غير مستقلة لبعض الوقت ، إلا أن هذه المنطقة تتحول إلى منطقة مستقلة مع مرور الزمن ، وخلال فترة التحول هذه ربما لا يكون هناك أي احتمال لاعادة جدولة الأرقام وتحويلها من هجرة داخلية إلى هجرة دولية ، والمثال الأخير على ذلك أن البيانات الإحصائية الخاصة بالهجرة في المملكة المتحدة كانت تضم إليها الأرقام الخاصة بجمهورية أيرلندا في الفترة الزمنية السابقة لليوم الأول من شهر إبريل عام ١٩٢٣ .

بالإضافة إلى ما سبق فإنه حتى في حالة تعريف الهجرة الدولية نجدها تشترك في الكثير من التحديدات والأحكام الخاصة بها مع تلك الأحكام الخاصة بالهجرة الداخلية بل وتنطبق معها كلية ، وبخاصة في حالة الحوافز الاقتصادية (٤) .

وعلى الرغم من كل ما سبق ذكره فمازال هناك اختلاف واضح بين كل من الهجرة الدولية والهجرة الداخلية ، وبخاصة فيما يتعلق منها بمصادر البيانات الإحصائية ونوعيتها وقيمتها ودرجة كفاءتها بالأسلوب المتبع عند الدراسة التحليلية لهذه البيانات في كل منها (٥) .

٢ - أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها :

ذكرنا قبل قليل أن موضوع الهجرة الدولية يعد من المواضيع المهمة جدا ، ولذلك اعتمدت به كافة العلوم الاجتماعية ، نظرا لأثر الهجرة الكبير على حجم السكان في أي بقعة بالعالم الناتج عن التدفقات السكانية بنوعها أي تلك الهجرة المتجهة نحو الداخل (In Flew) أو تلك الهجرة إلى الخارج (Out Flew) في كل من الدول أو الأقاليم وبخاصة الآثار الاقتصادية منها ، كذلك تمتد أثر الهجرة على الخصائص السكانية والأنماط الاجتماعية للبنية السكانية ، وبناء على ما سبق فإن الجغرافيين مدركون تماما لأهمية المشكلات الناجمة عن الهجرات السكانية ، ولذلك يتناولونها بالدراسة والتحليل بوسائل متنوعة ومتغيرة (٦) .

وقبل أن نتناول بالدراسة والتحليل أسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها لابد من أن نوضح ونميز بين نوعين من الهجرة لكل منهما أسبابه وعوامله المؤثرة في حجم واتجاه هذه الهجرة ، النوع الأول من الهجرة الدولية يمثل في الهجرة الاختيارية (Valuntary) التي تتم بالمبادرة الفردية من الأشخاص بأن يتحركوا من مكان لآخر بغرض الهجرة سعيا وراء ظروف أفضل ، وهذا النوع هو الذي يعنينا بهذه الدراسة ، أما النوع الثاني فتتمثل الهجرة الإجبارية (Compulsory) التي تتم بوساطة قوة خارجية على غير إرادة الأفراد مثل عمليات التهجير التي تحدث في بعض

John T. Clarke, Population Geography, 2nd Edition, England, 1972, P. 140.

(١)

Henry S. Sryock, Jacob S. Siegel and Association, Op. Cit. P. 349.

(٢)

G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982, P. 99.

(٣)

الدول تنفيذاً لسياسات معينة ، وهو ما حدث في الاتحاد السوفيتي مثلاً ، أو حين قام النازيون بتجهيز جماعات مختلفة من بعض الدول الأوروبية إلى دول أخرى ، وقد فقد الناس من دولة ليمبشوا في أخرى هروباً بحياتهم أو عقيدتهم ، ومن أقدم الأمثلة الهجرة الإسلامية الأولى إلى الحبشة ، وفي العصر الحديث نجد صوراً كثيرة من هذا النوع مثل اللاجئين الذين فروا من البطش النازي في أوروبا أو من فلسطين بتأثير الأتراك الصهيو ، وكثيراً ما تحدث ظاهرة اللاجئين في أثناء الحروب ، مثل ما حدث في ألمانيا بعد التقسيم ، أو حين انشئت الهند وباكستان عام ١٩٤٧ ، أو حين انفصلت بنجلادش عن باكستان في عام ١٩٧٢ (٧) .

وعنصر الهجرة الدولية الاختيارية لا يعد بمثابة عنصر فيسولوجي كما هو الحال في عنصري الولادة والوفاة « كما ذكرنا في السابق » ، بل هو عبارة عن استجابة البشر لتسلسل التطور الاقتصادي ، كذلك تتم الهجرة نتيجة للحوافز الاجتماعية والسياسية والثقافية المتوفرة داخل البيئة أو المحيط الاجتماعي ، وهذه الحوافز جميعها سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم السياسية أم الثقافية تعطي بدورها أهمية للموقع الجديد والذي تحول بناء على توفر تلك الحوافز أو بعض منها إلى مركز جذب للسكان المهاجرين ، ونتيجة لتلك التغيرات الداخلية للبيئة التي طرأت على هذا الموقع فقد أثر ذلك بدوره على مدى التغير الذي بدأ على مبدأ التقييم الشخصي لهذا المكان ، حيث تولد الرغبة الشخصية في الهجرة ، وبخاصة إذا كان هذا الشخص يشعر بعدم الرضا عن المكان الذي يستقر فيه ، ولابد من أن نذكر أن مدى أثر الرغبة الشخصية على الهجرة سواء أتمت أم لم تتم تكون عادة متفاوتة من شخص إلى آخر وفقاً للاحتياجات الشخصية ، وبالمقابل أيضاً فإن عملية كبح جماح الرغبة الشخصية تجاه الهجرة يعتمد على مدى قوة استياء هذا الشخص أو عدم رضاءه من المكان الذي يستقر فيه (٨) . وكمثال على ذلك ، وفقاً لما ذكره الباحث لورد إيفرسلي (Lord Eversley) (٩) من أن أسباب الهجرة الجماعية الضخمة للعمال . والتي تمت بين المناطق الريفية والمناطق الحضرية أي تلك الهجرة التي خرجت من الريف واتجهت إلى المدن في إنجلترا وويلز خلال القرن التاسع عشر ، لا تعزى فقط إلى الازدهار الاقتصادي الكبير الذي ميز تلك الفترة ، أو نتيجة للارتفاع الشامل في الرواتب بالمناطق الصناعية أو مناطق التعدين ، وإنما ترجع أيضاً إلى تنامي الاستياء الذي عم بين العاملين بالمناطق الريفية تجاه العمل بالزراعة ، نتيجة لقلّة فرص العمل بالريف بالإضافة إلى ما سبق فإن هؤلاء العمال كان لديهم الرغبة في الحصول على قدر أكبر من الحركة والاستقلالية التي تكون متوفرة عادة في حياة المدن .

ويدخل ضمن العوامل المسببة للهجرة عاملان غير معروفين أو ظاهرين ، ألا هذين العاملين أثبتنا وجودهما ، وقد تمثل العامل الأول في أن حلفز الهجرة يبرز عادة لدى الفرد نتيجة للتغيرات الداخلية التي تحدث في بيئة أو محيط هذا الفرد ، أما العامل الثاني فقد تمثل في أن حافز الهجرة يظهر نتيجة للتغيرات التي تطرأ على الباعث الفردي للهجرة .

(٧) أحمد علي اسماعيل ، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٨٢ ، ص ٨٥

(٨) Pryor, R.J. The Mottration of Migration, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australian National University, Canberra, 1975, P. 10.

(٩) Eversley Lord, "The decline in The number of agricultural Laboures in Great Britain, Journal of The Royal Statistical Society, 10, England, 1907, P. 280 - 3.

كما سبق ذكره نجد أن هناك تأكيداً على أن عملية تحليل أسباب الهجرة تمثل عنصراً جديراً بالاعتناء والاهتمام ، حيث أن قرار الهجرة هو قرار شخصي ، يعتمد في الأساس على أن الشخص ذاته هو الذي يقرر - أين سيستقل ، ويغلف قراره هذا بمعايير ، بحيث أن غالبية الأبحاث التي تناولت بالدراسة والتحليل موضوع أسباب الهجرة تؤكد على أن العامل الثاني والذي تمثل في الحافز الفردي يعد السبب الرئيسي لهذه الهجرة (١٠) ، ومع ذلك نجد أنه في الفترة الأخيرة تحول المحيط أو البيئة التي يعيش فيها الفرد ويتخذ بها قراره على الهجرة ، إلى بؤرة الاهتمام كسب رئيسي . للهجرة ، بالإضافة إلى ما سبق نجد أنه على الرغم من أن هناك الكثير من الدراسات العديدة والمتنوعة التي تناولت العوامل المسببة للهجرة بالمناقشة والتحليل ، إلا أن الباحث لي (Lee) (١١) تناول بالتحليل والتقييم تلك الدراسات وظهر بنتيجة مفادها أنه يجب على المهتمين والمتخصصين بظاهرة الهجرة توخي الحذر عند مناقشة هذه الدراسات وتفسيرها لكل من أسباب الهجرة ونتائجها ، وحتى وقتنا الحاضر لم نستطع أن نصل إلى وضع تصنيف ذي صياغة أكثر تحديداً وتركيزاً لأسباب الهجرة ، حيث أنه من الممكن اعتبار تلك الأسباب كمعامل مفروضة إلا أنه وبشكل عام نستطيع التركيز أكثر على عدد قليل من العوامل المسببة للهجرة ، وبخاصة تلك التي تأخذ مكانة متميزة لأهميتها (١٢) ولكي تكون دراستنا لأسباب الهجرة والعوامل المؤثرة فيها أكثر شمولية ودقة ، إلى جانب الأسباب والعوامل السابقة ، سنتعرض بالدراسة التحليلية لعوامل الجذب والدفع المسببة للهجرة ونوردها فيما يلي :

٤ - عوامل الجذب والدفع (١٣) :

منذ فترة طويلة وبالتحديد منذ عام ١٩٣٨ فسر الباحث هيربرل (Herberle) العوامل المسببة للهجرة وذكر بأنها تكمن أساساً في أن هناك قوى جادة تتفاعل لدى الفرد وتشجعها على مغادرة المكان (الدفع Push) وتغريه على الانتقال إلى مكان آخر (الجذب Pull) ، أو بمعنى آخر ، إذا كانت الاحتياجات الفردية غير متوفرة أو غير مشبعة في المكان الذي يستقر به الفرد - أي في مكان استقراره الأصلي - فحينئذ يساور هذا الفرد التفكير المستمر في الانتقال إلى مكان آخر ، حتى لو كان هذا الفرد على قناعة تامة من موقعه الحالي أي مكان استقراره الأصلي ، إلا أن المعلومات التي تتوفر لدى الفرد ذاته حول امكانية الحصول على فرص أفضل في مكان آخر مما يساعده على الانتعاش الشخصي بأخذ قرار الانتقال ، وعلى أية حال فمن المتعارف عليه أن لكل هجرة عوامل - يذب ودفع متعددة قد تتفاعل تأثيراتها ، وبناء على ذلك فقرار الانتقال من مكان إلى آخر لا يتخذ نتيجة لعامل أو سبب معين من أسباب الهجرة ، بحيث يمكن تمييزه أو فصله عن غيره من العوامل الأخرى ، وبالرغم من ذلك فمن الدراسة والبحث في العوامل المسببة للتدفقات الضخمة للهجرة ، تبين أن الحوافز المشتركة لعامل الانتقال عند الأفراد أصبحت ثابتة ، وقد استطاع جانيير بيجو (J. Bogue) (١٤) ببراعة تلخيص عوامل الدفع والجذب التي نوردها فيما يلي :

- | | |
|---|--------|
| Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass. 1980. | (١٠) |
| Lee, E. S. A Theory of Migration, Demography, 3, 1966, P. 47 - 57. | (١١) |
| G.J. Lewis, Op. Cit. P. 101. | (١٢) |
| Herberle, R. The Causes of the rural — Urban Migration, A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938, P. 932 - 50. | (١٣) |
| Bogue, D.J. Techniques and hypotheses for The Study of differential Migration; Some notes From on experiment with United States data, Proceedings of the International Conference, 2, Session 4, No. 114, 1961. | (١٤) |

أ - عوامل الدفع (Push Factors)

- تراجع أو هبوط الثروة القومية أو الأسعار المدفوعة لها ، ونقص الطلب على الانتاج الفردي أو الخدمات في الصناعات الفردية ، كاستهلاك المناجم والغابات والزراعة .
- فقدان الوظيفة الناتج عن العجز والاعفاءات ، الذي يتولد عن تراجع الطلب على الأنشطة الفردية أو لاستخدام المكتنة أو الآلات الأوتوماتيكية لانجاز الأعمال التي كان يؤديها الأفراد .
- المعاملة التي تنصف بالقمع والظلم الناتجة عن أسباب سياسية أو دينية أو لأصول عرقية أو عضوية .
- عزل الفرد أو إبعاده عن المجموعة نتيجة الى أن هذا الفرد يكون مؤيدا لعقيدة سائدة ، وبخاصة ان كان هذا التأييد مؤثرا على أسلوب تصرفاته داخل عائلته أو مجتمعه .
- الانسحاب من المجموعة لعدم التعاون فيما بينها ، أو نتيجة لعدم توفر الفرص التي تساعد على تنمية الوظائف الفردية أو الجماعية .
- الانسحاب من المجموعة نتيجة لحدوث الكوارث كالفيفضانات أو الجفاف أو الحرائق أو الزلازل وأخيرا الأوبئة .

ب - عوامل الجذب : Pull Factors

- توفر الفرص الأفضل بالنسبة لبعض المهن أو الوظائف أو العمل في مجال يرغب فيه الفرد .
- توفر فرص الكسب كالحصول على دخل أحسن .
- توفر الفرص التي تساعد على تحقيق رغبة الفرد الشخصية في مجال علمي معين أو توفر التدريب فقط في الكليات العلمية .
- الرغبة في المعيشة بأوضاع بيئية أفضل من حيث المناخ والسكن والتعليم والخدمات الاجتماعية الأخرى .
- الانتقال من أجل اللحاق بعائل (أي المرافقة) ومثال على ذلك هجرة الشخص الذي يرتبط بعلاقة عائلية مع شخص آخر ، أو هجرة الاناث من أجل اللحاق بالزوج .
- توفر الأنشطة المتنوعة في المدن الكبيرة ومثال على ذلك تلك الأنشطة التي تجذب قاطني المدن الصغيرة أو القرى ، سواء أكان منها الثقافي أم الفكري أم الترفيهي^(١٥) .
- وبرغم من أن نظريات عوامل الجذب والدفع تناقش آراء وأفكار جيدة ، وبخاصة تلك النظريات أثناء مناقشتها لهذه الآراء والفكر تتجرد من العوامل المحددة لنشوء الهجرة ، إلا أن هناك عددا من الأبحاث التي انتقدت هذه النظريات نتيجة إلى أنها أظهرت عملية الهجرة وبشكل مبالغ فيه كعملية معقدة جدا ، ومن هذه الأبحاث ما قدمه بيرنلي توماس (Perinley Thomas) (١٦) في بحثه أثناء مناقشته وتحليله لموضوع الهجرة بطريقة مقنعة جدا ، حين ذكر في هذا

Bogue, D.J. Principle of Deography, Wiley, New York, 1969. P. 753 - 4.

(١٥)

Thomas, B. Migration and Economic Growth, Cambridge University Press, Cambridge, 1959, P. 26.

(١٦)

البحث أن كافة أنواع العوامل المسببة والحالمة على الهجرة ربما تكمن وراء القرار الفردي أو العائلي الذي يحدد على ضوءه مغادرة بلد ما والعيش في بلد آخر ، وليس الهدف من دراسة هذه العوامل وضع قائمة للعوامل المسببة للهجرة فقط ، ولكن الأمل معقود على محاولة فهم ظاهرة أو واقعة الهجرة (Phenomenon of Migration) ، وبشكل أكثر تركيزاً من أجل إمكانية التوصل الى وصف البواعث أو الحوافز العديدة التي تمثل عامل دفع للناس لشراء ما يحتاجونه من سلع يرغبون بها ، حيث أنه ليس هناك أسهل من عملية وضع صياغة لقائمة هذه العوامل أي عوامل الجذب والدفع من أجل أن تظهر بشكل مميز وواضح ، ثم بعد ذلك تذكر هذه العوامل بشكل وصفي أكثر اسهاباً من أجل أن تبدو هذه العوامل بشكل أكثر تركيزاً وبصورة محددة .

ورداً على الانتقادات والملاحظات السابقة الذكر والموجهة لنظريات عوامل الجذب والدفع ، أبدى الباحث في (Lee) (١٧) اقتراحاً أوضح فيه أن مسببات الهجرة تحتاج لرؤية أو دراسة للعوامل التي تربط بين المنطقة الأصلية أو المصدر من جهة ، والمنطقة المقصودة من جهة أخرى ، بالإضافة إلى أنه أكد على أن هناك حاجة لدراسة وتحليل العوائق التي تعترض عملية اقام هذه الهجرة ، حتى وإن كان مصدرها المهاجرين أنفسهم ، ولذلك فقد اقترح الباحث المذكور - أيضاً ، دعوة جميع الباحثين والمتخصصين المهتمين بظاهرة الهجرة الى العمل على اكتشاف وإظهار كل من العوامل السلبية والإيجابية الكامنة في كل من المكان الأصلي والمكان المقصود ، وبالتالي إيجاد الاختلافات فيما بينهما ، وما إذا كان القرار الشخصي على الانتقال سوف يعتمد عند تنفيذه على النتائج التي تظهر على تلك الدراسة ، أو بناء على تقييم لكل العوامل الكامنة داخل محيط المجموعة السكانية المتنوعة ، أو داخل نماذج اجتماعية دون تحيز ، وما هو جدير بالذكر أن هناك الكثير من العوائق التي تظهر وتكون ذات فاعلية في اعتراض وتقييد هذه القرارات المتخذة تجاه الهجرة كالقيود القانونية ، أو الحواجز العائلية ، أو القلق النفسي ، وأخيراً عائق تكاليف الانتقال ، إلا أنه من المستطاع تخطي أو اغفال الكثير من هذه العقبات التي ذكرت قبل قليل ، وبالرغم من ذلك فإن بعضها الآخر لا يمكن تخطيه أو اغفاله .

بالإضافة الى ما سبق فإن هناك عدداً من العوامل المسببة للهجرة منها الحوافز الاقتصادية والعوامل الديموجرافية والعوامل السياسية كما ذكرنا في السابق ، وبالنسبة للحوافز الاقتصادية فقد توصلت الدراسات التي تم إجراؤها على التقلبات السنوية لحجم الهجرة الدولية التي حدثت في القرن التاسع عشر - وبخاصة تلك التي تمت بين قارتي أوروبا وأمريكا الشمالية - الى أن هناك علاقة متبادلة وواضحة بين ما جتته الدول المرسلة للمهاجرين من فائدة عمت دورة العمل من جهة ، وتطور التنمية الاقتصادية في الدول المستقبلة للمهاجرين من جهة أخرى ، علاوة على ذلك فإن البيانات الخاصة بالحوافز الاقتصادية كشفت عن أنه في كثير من الأحوال ما تكون تلك الحوافز هي الأمر القاطع والسبب للهجرة ، حيث أن التباين في المستويات المعيشية للسكان في الدول المرسلة من جانب والدول المستقبلة للهجرة من جانب آخر ، تكون هي العامل المشجع على تدفقات الهجرة - كما ذكرنا عند دراستنا لعامل الجذب والدفع قبل قليل ، وكذلك فإن عامل التباين في مساحة الأرض التي تشغلها كل من الدول المرسلة والدول المستقبلة للهجرة يعد ذا أثر مشجع على الهجرة ، إلا أنه في الوقت الحاضر أصبح هذا العامل غير أساسي كمسبب للهجرة^(١٨) .

Lee, Op. Cit.

(١٧)

John I. Clarke, Op. Cit P. 140.

(١٨)

أما العوامل الثانية فهي العوامل الديموجرافية التي تعد ذات أثر في تعميم التحديدات والحوافز الخاصة بالمهجرة ، وفي مقدمتها عامل الضغط السكاني في مناطق معينة في العالم والذي شكل العامل الأساسي المسبب للتوزيعات الرئيسية للمهجرات الكبرى في العالم ، وكذلك على ذلك فقد كان للحوافز الديموجرافية المذكورة أثر على الهجرة التي تمت من أيرلندا في القرن التاسع عشر (خلال حادث المجاعة) وكذلك الهجرة التي تمت من إيطاليا وجنوب شرق أوروبا في السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بالإضافة إلى ذلك فقد كان للعامل الديموجرافي المذكور أثر كبير حيث أنه شكل حافزا رئيسا للهجرة التي خرجت من الجزر والدول الصغيرة مثل مالطا وكورسيكا ورواندا وبورنري وبورتوريكو وترنناد ، وهناك دول صغيرة في العالم تخصصت وبشكل ملاحظ بالمهجرة المغادرة ومثالا على ذلك لبنان التي أصبحت حالة مشهورة بين الدول المرسلة للمهاجرين ، وتشغل لبنان مساحة من الأرض قدرها (٤١٠٥) ميل مربع فقط ، يقطنها عدد من السكان مقداره (٢,٦) مليون نسمة ، وقد هاجر منها إلى الخارج ما يقدر بـ (١,٥) مليون لبناني موزعين الآن في جميع أنحاء العالم (منهم ٤٠٠ ألف نسمة إلى الولايات المتحدة الأمريكية ، و ٣٥٠ ألف نسمة إلى البرازيل ، و ٢٠٠ ألف نسمة إلى الأرجنتين ، وأخيرا هناك عدد كبير من اللبنانيين الذين غادروا إلى غرب أفريقيا) ، وقد تحمل غالبية هؤلاء المهاجرين عن جنسيتهم اللبنانية ، إلا أنهم ما زالوا يحتفظون بحلقات وصل بينهم وبين وطنهم الأصلي ، نذكر منها على سبيل المثال أنهم ما زالوا مستمرين في إرسال جزء من مكاسبهم الوفيرة - التي حصلوا عليها من أعمالهم بالتجارة والبنوك في بلد المهجر - إلى أقربائهم الذين ما زالوا مستقرين في وطنهم الأصلي .

ومن الواضح أن تأثير العوامل الديموجرافية لا ينحصر في أنها تعدو كعوامل مسببة للهجرة فقط بل يتعداه إلى تأثيرها - أيضا - على السياسات المتبعة تجاه هذه الهجرة ، ويعتبر مدى تأثير هذه العوامل على السياسات المتبعة تجاه الهجرة الخارجية أكبر من تأثيرها على الهجرة الداخلية ، وهناك سياسات متنوعة تتبعها الدول تجاه الهجرة ، فمثلا نجد أن هناك عددا قليلا من الدول الرئيسية المستقبلية للهجرة تتبع فعلا سياسة يكون الغرض منها هو تشجيع الهجرة ، وهذا الأمر مناقض لما هو متبع من سياسة تجاه الهجرة المتجهة إلى بريطانيا وإيطاليا واليابان ، حيث أن هذه الدول الثلاث تعمل على الحد من وفود المهاجرين إليها فتنس الكثير من القوانين التي يكون الغرض منها فرض القيود على هؤلاء المهاجرين ، ومثالا على ذلك تلك الهجرة التي تمت ما بين ألمانيا وإيطاليا ، وكذلك ما بين روسيا ودول شرق أوروبا ، في الفترة الزمنية السابقة للحرب ، وتعد السياسات المتبعة تجاه الهجرة القادمة أكثر أهمية من تلك السياسات المتبعة تجاه الهجرة المغادرة ، وما هو جدير بالذكر أن هناك تساهلا أكبر تجاه دخول المهاجرين إلى أي دولة خلال القرن التاسع عشر عما هي عليه اليوم ، ففي الوقت الحالي أصبحت هذه السياسات أكثر تشددا ، ومثالا على ذلك أن هناك دولا مستقبلية للمهاجرين مثل استراليا التي تضع العقبات أمام الهجرة القادمة ، ومن هذه العقبات أنها منعت المساعدة المالية التي كانت تمنح هؤلاء المهاجرين القادمين إليها مع أنهم يعدون من ضمن الهجرة المنتقاه ، إلى جانب ذلك نجد أنه في هذا القرن أي القرن العشرين تعد غالبية الهجرة القادمة مقيدة أثناء عبورها الحدود الدولية ، وهذا الأمر حدث وبمعدت في أكبر الدول المستقبلية هذه الهجرة ، وكذلك فإن هذه الهجرة مقيدة أيضا من حيث الحجم المحدد لها والذي يخضع عادة للخطة التي تحدد السياسة التي تتبناها كل دولة على حدة وتنتهجها عند معاملتها لتلك الهجرة ، وبنا على تلك الخطط يصبح من الممكن لأي دولة مستقبلية للهجرة المقدرة على تحديد حجم المهاجرين المصرح لهم بدخول أراضيها ، وتتبع في استراليا السياسة ذاتها التي تنتهجها الولايات المتحدة الأمريكية تجاه دخول المهاجرين إلى أراضيها ، حيث نصت تلك السياسة

على اتباع نظام الحصص النسبية (Quota) ، ويتميز هذا النظام بأنه فعال ومؤثر في إمكانية التحيز تجاه المهاجرين الوافدين إليها من شمال غرب أوروبا ، حيث تظهر تلك السياسة مدى أفضليتهم لدى السلطات في استراليا على المهاجرين القادمين إليها من جنوب أو شرق أوروبا ، والمثال الآخر على تلك النوعية من السياسة التحيزة المتبعة تجاه الهجرة التي توضح أن دول جنوب شرق آسيا تنحصر حصص قليلة للمهاجرين القادمين إليها من الصين ، والمثال الثالث يتمثل في أن هناك قيودا مفروضة على وفود المهاجرين الملونين إلى بريطانيا ، بالإضافة إلى كل الأمثلة السابقة هناك أيضا العديد من الأمثلة الأخرى التي تظهر بجلاء أن هناك تخطيطا مسبقا تضعه الدولة المستقبلية للهجرة وتتعامل به مع الهجرة الوافدة إلى أراضيها ، ويعتمد هذا التخطيط وبشكل رئيسي على تطبيق سياسة الاختيار ، ففي نيوزيلندا على سبيل المثال تعبر وجهة نظر الاتحادات المهنية عن مخاوفها من أن الهجرة الوافدة ، وتدعى بأنها تهدد مستوى الأجور التي يتقاضونها ، ولهذه الاتحادات سلطة ونفوذ على السياسة المتبعة تجاه الهجرة الوافدة ، بالإضافة إلى ذلك ففي دول أمريكا اللاتينية نجد أن الوضع على خلاف ما سبق من الأمثلة ، حيث يتضح أن القيود المفروضة على وفود المهاجرين لأراضيها تعد أقل تشددا مما هي عليه في الدول التي تناولتها الأمثلة السابقة .

أما العوامل الثلاثة والأخيرة فتمثلها العوامل السياسية حيث أنه من الملاحظ أن الهجرة الدولية أخذت بالتأثر أكثر فأكثر - مع مرور الزمن - بتلك العوامل ، مما أثر بالتالي على تراجع أهمية عامل الاختيار الفردي ، كمسبب للهجرة ، ويتمثل العامل السياسي في أن هناك عمليات تبادل سكاني واسعة النطاق تمت بين دول عديدة ، ومن أمثلة ذلك العمليات التي تمت بين اليونان وتركيا خلال الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩٧٣ إلى عام ١٩٣٣ ، كذلك تلك العمليات التي تمت بين رومانيا وبلغاريا في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٤٠ ، بالإضافة إلى ما سبق فالعوامل السياسية تتمثل في أن ظاهراً الهجرة السكانية بدأت تأخذ مكانها لمواجهة عمليات الغزو المسلح ، كتلك الهجرة التي تمت بين روسيا والصين ، حيث تم هجرة ملايين الأشخاص وقد تم نقلهم على شكل هجرة عمالية قسرية ، كان الغرض منها هو إحلال هؤلاء العمال محل الأشخاص المسجونين ، ونتيجة لما سبق فقد تم إنشاء الكثير من الهيئات والمنظمات الدولية التي عملت وما زالت تعمل من أجل المساعدة عند حدوث مثل هذه الحركات السكانية ، وبخاصة تلك الحركات التي تتم بين السكان اللاجئين في كثير من أجزاء العالم ، ومن هذه الهيئات والمنظمات على سبيل المثال كل من منظمة العمل الدولية (INTERNATIONAL Labour Organization) ومنظمة العفو الدولية (U.N. Relief and Rehabilitation Administration) وما هو جدير بالذكر أن عدد اللاجئين السياسيين في أوروبا بلغ عشرات الملايين في الوقت الحاضر ، وكذلك الحال بالنسبة لشبه القارة الهندية ، حيث أن هناك ملايين السكان الذين يتنقلون الانتقال إلى الجماعات السكانية الأخرى ، تلك التي يشتركون معها بخاصية الدين ، إلا أن ذلك لن يتم إلا برفع الحواجز السياسية ، حيث أن عامل الدين ما زال يعد ذا أثر فعال على بعض الهجرات^(١٩) .

٣ - أساليب جمع بيانات الهجرة عالمياً^(٢٠) :

عند جمع البيانات الخاصة بالهجرة عالمياً فإنه من الممكن أن تشتق تلك البيانات الإحصائية من مجموعة متنوعة من

John I. Clarke, Op. Cit. P. 141 - 142

(١٩)

Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Op. Cit. P. 350.

(٢٠)

المصادر ، إلا أن هناك مصادر رئيسية تجمع مثل تلك البيانات بحيث أنه من الممكن أيضا تبويبها الى ستة أنواع ، وعادة ما تكون تلك المصادر متشابهة ونوجزها فيما يلي :

- جمع البيانات الاحصائية الناتجة عن حركة السكان عبر الحدود الدولية ، وتعد هذه البيانات في معظم الأحوال حصرية ثانوية للعمل التنفيذي الحكومي الذي يؤديه رجال مراقبة الحدود .

- البيانات الاحصائية الخاصة بالمسافرين والتي يمكن الحصول عليها من قوائم المسافرين بحرا أو جوا .

- البيانات الاحصائية التي يكون مصدورها ادارة الجوازات والتي تقوم بجمعها من خلال الطلبات المقدمة اليها للحصول على الجوازات وشهادات عدم الممانعة ، وأذونات السفر .

- البيانات الاحصائية التي يمكن جمعها من السجلات السكانية .

- البيانات الاحصائية التي توفرها عادة التعدادات العامة للسكان أو من المسوحات الدورية ، وهذه البيانات تشتمل على الاجابة عن السؤال الذي يتعلق بالمقر السابق للشخص ، ومكان الولادة أو المواطنة .

- البيانات الاحصائية التي تجمع بشكل خاص أو استثنائي ، وهذه البيانات تشق من التحقيق والاستقصاء الدوري عن بيانات الهجرة ، كتلك البيانات الخاصة بحمل الإقامة السابق وحمل الإقامة الحالي ، أو المواطنة ، أو تسجيل الأجانب ، أو عدد المواطنين في الخارج .

بالإضافة الى الانواع الستة التي تعد كمصادر رئيسية تشق منها البيانات الاحصائية عن الهجرة الدولية السابقة الذكر ، فإن الأمر يتطلب - أيضا - اجراء التقديرات لمعرفة الحجم الكلي للهجرة الخام أو الهجرة الصافية الاجالية ، أو تقدير حجم مجموعات جنسية فقط وبشكل استثنائي .

أما بالنسبة لمصادر الهجرة المبكرة فبياناتها عادة تجمع من المعلومات المتحصلة من الاكتشافات والتنقيبات الأثرية لحركات السكان ومواطنهم عبر التاريخ ، وكذلك بيانات استثمار الأراضي واشغالها وهجرها كمؤشرات على تلك الحركات .

ومن الجدير بالذكر أن وجهة نظر قسم السكان بالأمم المتحدة تفصح عن أن المصادر الاحصائية الأربعة الأولى الخاصة بالهجرة والتي ذكرنا أنها تجمع عادة من نقاط مراقبة الحدود تعد من أكثر البيانات أهمية بمقارنتها مع غيرها من المصادر ، ويرجع ذلك الى أن تلك المصادر الأربعة لو توفرت يصبح من المستطاع اجراء قياس مباشر لحجم الهجرة ، ولذلك تأخذ الأمم المتحدة بعين الاعتبار كل ما ينشر من بيانات صادرة عن مراقبة الحدود ، وبخاصة في حالة توفر هذه البيانات تصبح بيانات التسجيل السكاني أكثر فاعلية عند الاستعانة بها للقياس على ضوئها حجم الهجرة الدولية ، وبناء على ذلك فقد أوصت الأمم المتحدة الحكومات القومية بأن تقوم بجمع وجدولة كافة الأفراد القادمين (Immigrants) والافراد المغادرين (Emigrate) ، ثم يتم بعد ذلك تقسيم هذه البيانات لتشمل مجموعات سكانية أقل لتبدو أكثر وضوحا مثل تقسيمها الى فئة القادمين وفئة المغادرين ، والغرض الأساسي من توفير البيانات الخاصة بهاتين الفئتين يتمثل في المساعدة على ترجمة وتفسير احصاءات الهجرة التي تصدر سنويا عن أي دولة ، وعلى ضوء ذلك يتم اجراء

المقارنات الصحيحة بين بلد وآخر ، أي أنه يصبح بالإمكان استعمال تلك البيانات دوليا بحيث تضاف الى البيانات الديموجرافية الدولية الأخرى^(٢١) .

٤ - سجلات الهجرة عالميا : (٢٢)

ان طبيعة ونوعية البيانات الاحصائية الخاصة بالمهجرة تكون عادة أكثر ضلالة من تلك البيانات الخاصة بالتركيبة أو النمو السكاني ، ويرجع ذلك لأسباب عديدة ، نذكر منها أن البيانات المشتقة من الهجرة تتميز بأنها ذات صيغة مركبة أي أنها تتكون من أجزاء وعناصر عديدة ، ولذلك فإنه ليس من السهل تحديدها وبالتالي يصعب اظهارها بشكل واضح ، الى جانب أنه من الصعب تصنيفها أو توبييها ، والتصنيفات الخاصة بظاهرة الهجرة تعتمد أساسا على أمور عديدة منها مدى دوام هذه الهجرة ، وعلى طول المسافة التي غطتها أو قطعها هذه الهجرة ، وعلى نوعية الهجرة هل هي هجرة منظمة أي هل هي هجرة اختيارية أو أنها هجرة قسرية ، وبالإضافة الى كل ما سبق فإن الهجرة تواجه صعوبات أخرى عند تقصي أية حقائق خاصة بها منها على سبيل المثال أنه في حالة عد المهاجرين ، فإن هذه العملية بحد ذاتها تواجه صعوبات جمة ، وبخاصة عندما لا تتم هجرتهم عبر حدود دولية واضحة .

أما بالنسبة للهجرة فقد كانت المعلومات الخاصة بها تشتت في الفترة السابقة عن مصدرين هما التعرف على الاختلاف فيما بين الزيادة الناتجة عن الزيادة الطبيعية وهذه تعد الخطوة الأولى ، ثم اجراء الدراسات المقارنة ما بين تلك المعلومات من جهة وبين بيانات التعدادات السكانية المتعاقبة (Successive Census) من جهة أخرى وهذه تعد الخطوة الثانية .

وقد لوحظ في السنوات الأخيرة أن هناك بعض التعدادات السكانية التي تتضمن بيانات احصائية هامة ومرغوب فيها عند دراسة موضوع الهجرة ، وبخاصة تلك التي تتعلق بالتغيرات التي تطرأ على مكان الإقامة ، أو مكان الولادة ، وبالرغم من أن البيان الثاني لا يعطي الا دلالة عن الحركة السكانية ، الا أنه في حالة توفر هذه البيانات تتحول الدراسة التحليلية التي يتم اجرائها عن الهجرة السكانية من الأمور السهلة .

وقد توفرت البيانات الخاصة بمكان الإقامة المعتاد ومكان العمل بحيث أصبح بالإمكان اجراء دراسة تحليلية مقارنة لتلك البيانات في كل من إنجلترا وويلز منذ تعداد عام ١٩٢١ ، وكذلك في تعدادي عامي ١٩٥١ ، ١٩٦١ ، الا أن بيانات تعداد عام ١٩٦١ تناولت فقط عينة سكانية تشكل (١٠٪) من اجمالي السكان . ويستفاد من تلك البيانات الاحصائية عند دراسة موضوع رحلة العمل اليومية ، وما هو جدير بالذكر أن تعداد عام ١٩٦١ لكل من إنجلترا وويلز قد أضيف لبياناته سؤال جديد كان الغرض منه يكمن في الحصول على المزيد من المعلومات عن مدى تكرار وحجم واتجاه وخصائص الهجرة الداخلية ، الا أنه يمكن القول وبشكل عام أن البيانات الخاصة بالمهجرة الداخلية عادة ما تكون أقل البيانات الاحصائية دقة بين البيانات الاحصائية الديموجرافية .

op. cit. p. 351.

(٢١)

John I. Clarke, Op. Cit. P. 10 - 11.

(٢٢)

وقد لوحظ وبصفة عامة أن البيانات الاحصائية المتوفرة عن الهجرة الداخلية والتي ذكرناها قبل قليل عادة ما تقتصر فقط على عدد قليل من الدول ، علاوة على ذلك ، فإن هذه البيانات عادة ما تتصف برداءتها وبالتالي تصبح غير جديرة بالثقة ، حيث أنه وحتى في حالة قابليتها للمقارنة تصبح ضئيلة ، وبخاصة أن كل دولة من هذه الدول التي تقوم بنشر بيانات عن الهجرة وهي دول قليلة العدد - كما ذكرنا قبل قليل - يكون هدفها الأساسي هو توفير وتجميع البيانات التي تكون بحاجة اليها من أجل أغراض إدارية أو تنفيذية فقط .

أما الهجرة الدولية فتصنف الى نوعين رئيسيين من الهجرة يمثل أحدهما الهجرة طويلة الأمد أو الدائمة (Permanent) ، ويمثل النوع الآخر الهجرة قصيرة الأمد أو المؤقتة (Temporary) .

والبيانات الاحصائية الأكثر تفصيلا عن الهجرة (Detailed Statistics) تعد قليلة الى جانب أنها مبعثرة أو موزعة أثناء نشرها في مجموعة منشورات قومية عديدة ، أو في مجموعة منشورات تصدرها الوكالات المختلفة ، ولذلك تعمل هيئة الأمم على تسهيل عملية استخدام هذه البيانات بأن تقوم بجمعها ونشرها على هيئة بيبليوجرافيا عن كل من المسافرين الدوليين (Internationals Travelers) والمهاجرين وتضم هذه البيانات احصاءات تفصيلية عن أربع وعشرين دولة مختارة (٢٣) ، ومن المستحسن أن تعمل كل دولة على اصدار بيانات احصائية عن الهجرة بشكل مستقل كما أوصت بذلك الأمم المتحدة ، لتكون البيانات ذات قيمة أكبر ، بالإضافة الى أن كيفية الحصول عليها تكون أكثر سهولة .

وتعتبر التصنيفات الدولية الخاصة ببيانات الهجرة متاحة وبخاصة فيما يتعلق منها بالتعريفات من أجل أن تكون هناك قاعدة موحدة عالميا عند استعمال هذه التعريفات ، وقد تم ذلك منذ الفترة الزمنية التالية للحرب العالمية الثانية ، حيث بدأ بنشرها ضمن اصدارات عديدة في الأمم المتحدة ، ومثال على هذه الاصدارات الكتاب الديموجرافي السنوي (Demographic Yearbook) الذي ما زال صدوره مستمرا كل سنتين وبشكل دوري ، باستثناء بعض السنوات التي تقع في الفترة الزمنية الممتدة من عام ١٩١٨ الى عام ١٩٤٨ ، وبالرغم من ذلك فإن البيانات الاحصائية للفترة الزمنية المذكورة قد تم نشرها في اصدارات أخرى للأمم المتحدة (٢٤) ، بالإضافة الى ذلك نشرت الأمم المتحدة بيانات احصائية خاصة بالخصائص الاقتصادية للوافدين عن تعد هجرتهم طويلة الأمد ، ولدول مختارة ضمن اصدار نشر في عام ١٩٥٨ (٢٥) .

تعد الولايات المتحدة الأمريكية خير مثال لتلك الدول التي وفرت البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية ، بالإضافة الى أنها من أقدم هذه الدول من حيث المبادرة في عملية جمع وجدولة ونشر تلك البيانات ، حيث أصبحت

(٢٣) United Nations, Analytical Bibliography of Statistics on International Migration statistics, 1925 - 1950, Population Studies, Series A. No. 24, 1955.

(٢٤) United Nations, Sex and Age of International Migrants for Selected Countries. 1918 - 1947, Population Studies, Series A. No. 11, 1953.

(٢٥) United Nations, Economic Characteristics of International Migrants, Statistics for Selected Countries, 1918 - 1954, Population Studies, Series A. No. 12, 1968.

البيانات الاحصائية الخاصة بالمهاجرين القادمين الى الولايات المتحدة الامريكية منحة وتم نشرها في مصادر عديدة ، وتعتبر ادارة العدل (U. S. Department of Justice) هي الجهة المسؤولة عن جمع وتبويب هذا النوع من البيانات ، بالإضافة الى ادارة خدمات الهجرة ومنح الجنسية ، وكل من هاتين الادارتين تعمل على ترتيب وجدولة هذه البيانات ، وما هو جدير بالذكر أن البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية والتي تقوم بجمعها ادارة العدل تشتمل عادة من حصيلة العمليات التنفيذية التي يؤديها رجال مراقبة الحدود ، وتتصف البيانات الاحصائية الخاصة بالأجانب في الولايات المتحدة الامريكية بأنها تجمع على أساس منظم وموثوق به ، بحيث أنه يمكن الاطمئنان اليها ، وكذلك تتميز تلك البيانات بالشمولية وبخاصة أن بياناتها مستقاة من جميع الوثائق الخاصة بالحركات السكانية ، مثل شهادات عدم الجمانعة أو الوثائق الرسمية الأخرى ، أما ادارة الهجرة ومنح الجنسية فتعمل أيضا على توفير البيانات الخاصة بالمسافرين جوا وبحرا والتي تجمع بواسطة رجال الحدود التي يعبرها هؤلاء المسافرون ، أو بمساعدة كل من ملاحي السفن أو الطائرات .

بالإضافة الى الادارتين السابقتين ، فإن مكتب التعدادات يعمل على نشر بيانات وتقارير خاصة بظاهرة التدفقات السكانية الى الولايات المتحدة الامريكية ضمن اصداراته ، مثل التعدادات السكانية التي يتم اجرائها كل عشر سنوات ، أو في التقارير والمسوحات السكانية ، الى جانب ذلك يعمل مكتب التعدادات على جمع كل المعلومات المحددة والمباشرة التي تتناول موضوع الهجرة في مجلد واحد ، ليكون بمثابة المصدر الأساسي في حالة القيام بعمل تقديرات للهجرة الصافية ، في الفترات الزمنية التي تتخلل السنوات التي تم بها اجراء التعدادات ، بالإضافة الى الادوات السابقة الذكر والمهتمة بجمع البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة في الولايات المتحدة الامريكية ، هناك أيضا جهات أخرى في الولايات المتحدة مهتمة بجمع تلك البيانات منها على سبيل المثال الوكالات الفيدرالية العديدة التي تعالج هذه البيانات عند قياس حجم الحركات السكانية الدولية ، وأخيرا فإن هناك البيانات الاحصائية المقارنة أو التكميلية للمهاجرين في الولايات المتحدة الامريكية ، الا أنها محدودة ، وتنتشر عادة في التقارير الخاصة بالهجرة أو في تعدادات دول أجنبية عديدة .

وقد بدأت الولايات المتحدة الامريكية بتدوين السجلات الرسمية للهجرة الوافدة اليها منذ عام ١٨٢٠ بواسطة الوكالة الفدرالية ، أما سجلات الهجرة المغادرة فقد بدأت بتدوينها منذ عام ١٩٠٨ فقط ، بواسطة قسم العمل بالولايات ، ثم تحولت تلك العمليات وأصبحت من اختصاص ادارة العدل منذ عام ١٩٤٤^(٢٦) .

كما سبق عرضه تبين لنا أن هناك عددا محدودا من الدول في العالم عملت على جمع وتبويب ونشر البيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة سواء أكان منها الهجرة القادمة أم الهجرة المغادرة ، ولذلك قام قسم السكان ببيئة الأمم المتحدة بحصر كافة الهجرات الدولية وبالتالي تم نشرها ضمن اصداراته ، الا أن ذلك الحصر لم يشمل كافة الهجرات الدولية بمعناها المفهوم والدقيق ، نتيجة الى أن هناك بعض الهجرات الدولية التي تمت بين دول يفصل بينها حدود دولية طويلة من جهة ، وغير محكمة المراقبة من جهة أخرى^(٢٧) .

Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Op. Cit. P. 351.

John I. Clarke, Op. Cit. P. 10 - 11.

(٢٦)

(٢٧)

٥ - سجلات الهجرة محليا :

منذ منتصف هذا القرن وبالتحديد منذ عام ١٩٤٦ عندما بدأت الكويت بتصدير أول شحنة من النفط ، بدأت الكويت في نهضتها الحديثة ، وحرصت الدولة على استغلال مواردها من النفط في بناء هيكل اقتصادي واجتماعي في البلاد ، وقد أدى ذلك الوضع الى نتائج عديدة من أهمها اتساع سوق العمل في الكويت وتزايد معدلات الطلب على القوى العاملة ، وبذلك لعبت الهجرة الدولية دورا حاسما في التطور الاقتصادي وبالتالي في نمو الحجم السكاني للدولة الكويت ، وفي الجداول رقم (١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) والأشكال رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) والتي تشتمل على بيانات خاصة بالتطور العددي والنسبي للسكان الكويتيين من جهة والسكان غير الكويتيين من جهة أخرى ، نستنتج أن نسبة السكان الكويتيين أخذت بالتناقص من تعداد لأخر من اجمالي السكان بدولة الكويت ، حيث تراجعت تلك النسبة من (٥٥,٠ ٪) في عام ١٩٥٧ ، الى (٤٧,١ ٪) في عام ١٩٦٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ولأول مرة نسبة تقل عن نصف السكان داخل الدولة ، واستمرت تلك النسبة في تراجعها حتى وصلت الى أدنى نسبة لها في تعداد عام ١٩٨٥ حيث بلغت (٤٠,١ ٪) من اجمالي السكان بالدولة ، وهذا يعني أن أثر الهجرة الى دولة الكويت واضح في تراجع نسبة السكان الكويتيين من تعداد الى آخر حتى أصبحت نسبتهم تشكل خمس اجمالي السكان بالدولة وذلك بحلول عام ١٩٨٥ ، وبالمقابل فقد تزايدت نسبة السكان المهاجرين من (٤٥ ٪) في عام ١٩٥٧ من اجمالي السكان بالدولة ، الى أن أصبحت نسبتهم تمثل (٥٩,٩ ٪) في عام ١٩٨٥ ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ما يقرب من ثلاثة أخماس اجمالي سكان الدولة .

وقد وفد السكان المهاجرون الى دولة الكويت من مصادر عديدة ، حيث بلغ عدد الجنسيات المتواجدة بالدولة حوالي ستين جنسية أو أكثر ، تشكل الجنسيات العربية غير الكويتية غالبية النسبة الخاصة بالسكان المهاجرين ، حيث بلغت تلك النسبة حتى عام ١٩٧٥ ما يقدر بـ (٨٠ ٪) من اجمالي السكان الوافدين ، الا أنه بحلول عام ١٩٨٠ طرأ تغير ملحوظ على مصادر المهاجرين ، ونتيجة لذلك فقد تناقصت نسبة الجنسيات العربية من النسبة الاجمالية للسكان الوافدين الى (٧٢,٥ ٪) في عام ١٩٨٠ ثم الى (٦٣,٣ ٪) في عام ١٩٨٥ ، وبالتالي فقد زادت نسبة الجنسيات الآسيوية غير العربية من (٢٢,٠ ٪) من اجمالي السكان الوافدين في عام ١٩٦٥ ، الى (٣٥,٠ ٪) من اجمالي السكان الوافدين ، أي أنهم أصبحوا يشكلون ثلث النسبة الاجمالية للسكان الوافدين بدولة الكويت .

وقد ساعد على نمو السكان الوافدين في دولة الكويت بالشكل الذي بيناه قبل قليل كل من عنصري صفاتي الهجرة والزيادة الطبيعية التي كانت تتم بين السكان الوافدين داخل الدولة وفي الجداول رقم (٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨) حيث تشير بيانات الجداول المذكورة الى أن مكونا النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت أسهما بدور متفاوت في عملية نمو السكان الوافدين من فترة تعدادية لأخرى ، حيث نلاحظ أنه خلال الفترات التعدادية التي تخللت التعدادات السكانية السبع من ١٩٥٧ الى ١٩٨٥ ، كان دور صفاتي الهجرة أكبر في نمو السكان الوافدين في الفترات التعدادية الثلاث الأولى ، بحيث أن دور صفاتي الهجرة أسهم بضعف الدور الذي أسهم به عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين في المرحلة التعدادية الأولى ، أي خلال المرحلة المتقدمة من بداية وفود السكان الى دولة الكويت ، ويعد هذا الأمر طبيعيا ، وبخاصة أن

الهجرة الى دولة الكويت كانت في بدايتها ، وكانت عملية التنمية في جميع المجالات تعاني من القصور في الايدي العاملة المحلية ، ولذلك فقد كان دور عامل الزيادة الطبيعية في نمو السكان الوافدين المتواجدين داخل دولة الكويت يأتي في المرتبة الثانية ، واستمر هذا الوضع خلال الفترتين التعداديتين الثانية والثالثة ، إلا أن دور الهجرة الصافية كعامل رئيسي في عملية النمو السكاني للوافدين بدولة الكويت خلال هاتين الفترتين بدأ يتقلص ويتجه نحو الانخفاض ، ومع ذلك فإن نسبة إسهامه تعد أكبر مما هي عليه دور عامل الزيادة الطبيعية .

وفي الفترة التعدادية الرابعة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، تفوق فيها ولأول مرة نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية في النمو السكاني للوافدين ، بل إن نسبة إسهامه بلغت ضعف ما يقابله من نسبة إسهام عامل الهجرة الصافية في النمو السكاني للوافدين ، حيث بلغت نسبة إسهام عامل الزيادة الطبيعية (٦٣,٩) % .

ويحلول الفترة التعدادية الخامسة والتي تخللت تعدادي ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، نجد أن الوضع تغير كلية بمقارنته بنظيره في الفترة التعدادية السابقة ، وكذلك بالفترات التعدادية الثلاث الأولى ، إذ أصبح دور صافي الهجرة أكبر مما كان عليه في تلك الفترات التعدادية في عملية النمو السكاني للوافدين - باستثناء الفترة التعدادية الأولى - حيث بلغت نسبة إسهامه ما يقدر بـ (٦٣,٩) % من إجمالي نمو السكان الوافدين .

وأخيراً نجد في الفترة التعدادية السادسة والأخيرة والتي تخللت تعدادي ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، أن الوضع في تلك الفترة التعدادية مشابه لما كان عليه الوضع في الفترة التعدادية الثالثة ، فقد تساوى تقريباً كل من دور صافي الهجرة ودور الزيادة الطبيعية في عملية النمو السكاني للوافدين ، نتيجة لتراجع دور الهجرة الصافية تراجعاً واضحاً في هذه الفترة بمقارنتها بما كانت عليه في الفترة التعدادية السابقة ، مسجلة نسبة مقدارها (٤٨,٧) % في حين أن النسبة المقابلة للزيادة الطبيعية بلغت (٥١,٣) % .

كما سبق ذكره تبين لنا أن كلاً من عاملي صافي الهجرة والزيادة الطبيعية بين السكان الوافدين والمتواجدين في دولة الكويت قد أسهما بدور كبير ولكن بتفاوت في عملية نمو السكان المهاجرين خلال الفترات التعدادية المذكورة مما أدى الى نمو الحجم الاجمالي للسكان بالدولة من (٢٠٦٤٧٣) نسمة في عام ١٩٥٧ ، الى (١٦٩٧٣٠١) نسمة في عام ١٩٨٥ ، وقد بلغت نسبة السكان المهاجرين (٦٠) % من إجمالي السكان بالدولة في العام المذكور ، كما ذكر قبل قليل .

وهناك الى جانب ما سبق أثر آخر ومهم للهجرة الى دولة الكويت على الخصائص الديموجرافية لاجمالي السكان بالدولة وقد تمثل ذلك الأثر بتطور حجم القوى العاملة بالدولة ، ومن بيانات الجدولين رقمي (٩ و ١٠) واللذين يوضحان التطور العددي والنسبي لقوى العمل الاجمالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد ، ومنها نستنتج ما يلي :

- سجل الحجم الكلي للقوى العاملة بدولة الكويت زيادة ملحوظة خلال الفترة الزمنية الممتدة من ١٩٦٥ الى ١٩٨٥ ، حيث بلغ العدد المطلق حوالي (١٨٤٣٠٤) في عام ١٩٦٥ ، وارتفع هذا العدد الى (٦٦٢٥٨٨) في عام ١٩٨٥ ، أي بزيادة مقدارها (٤٧٨٢٨٤) ونسبة مقدارها (٢٥٩,٩٥) % خلال الفترة الزمنية المذكورة .

١. بلغت نسبة إسهام القوى العاملة الكويتية ما يقدر بـ (٢٣,٣٪) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥، وبالرغم من ذلك فقد تناقصت تلك النسبة من سنة لأخرى حتى بلغت (١٨,٧٪) فقط من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥، وبذلك نجد أن نسبة إسهام القوى العاملة الكويتية من إجمالي القوى العاملة بالدولة بلغت ما يقل قليلاً عن خمس إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥، وهذا الوضع يعطي صورة واضحة عن مدى ضآلة نسبة إسهام القوى العاملة الكويتية في الفترة الزمنية المذكورة من إجمالي القوى العاملة بالدولة من جهة، وعن مدى أثر الهجرة بما تمثله من حجم له وزنه على الحجم الإجمالي للقوى العاملة بالدولة من جهة أخرى.

٢. مثلت نسبة إسهام القوى العاملة غير الكويتية (٦٧,٧٪) من إجمالي القوى العاملة بالدولة، أي أنها تعادل ما يزيد قليلاً عن ثلاثة أرباع الحجم الإجمالي للقوى العاملة بالدولة في عام ١٩٦٥، ثم تزايدت قليلاً تلك النسبة من سنة لأخرى حتى وصلت إلى نسبة مقدارها (٨١,٣٪) من إجمالي القوى العاملة بالدولة في عام ١٩٨٥، مشكلة بذلك حوالي أربعة أخماس القوى العاملة الاجمالية بالدولة في العام المذكور.

٣. وتعد نسبة إسهام السكان المهاجرين بالقوى العاملة متفاوتة من مجموعة جنسية لأخرى، إلى جانب أن هذا التفاوت كان متغيراً من تعداد لآخر، حيث أن نسبة إسهام مجموعة الجنسيات العربية من إجمالي القوى العاملة الوافدة قد سجل أكبر نسبة بين المجموعات الجنسية الأخرى العاملة بدولة الكويت، إلا أن تلك النسبة سجلت تناقصاً من تعداد لآخر حيث بلغت (٦٨,٢٪) من عام ١٩٦٥، ثم انخفضت نحو الارتفاع البطيء حتى عام ١٩٧٥ حين بلغت (٦٩,٠٪)، ولكن منذ عام ١٩٨٠ انخفضت هذه النسبة نحو التناقص الواضح حيث بلغت (٥٩,٦٪)، ثم تراجعت إلى (٤٦,٢٪) في عام ١٩٨٥، وفي التعداد المذكور سجلت مجموعة الجنسيات العربية وللصحة الأولى نسبة تقل عما يقابلها لدى مجموعات الجنسيات الآسيوية غير العربية، حيث بلغت النسبة الخاصة بتلك الجنسيات (٥٢,٣٪) من إجمالي القوى العاملة الوافدة في العام المذكور، مشكلة بذلك ما يزيد قليلاً عن نصف إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة، يلي المجموعتين الجنسيين المذكورتين بالمرتبة بقية المجموعات الجنسية غير العربية المتواجدة بدولة الكويت ولكن بنسب قليلة جداً لا تتعدى (١٪) أو ما يقل عن ذلك من إجمالي القوى العاملة الوافدة بالدولة، وتلك الحقيقة تطبق على كافة التعدادات السكانية المذكورة.

٤. مما سبق ذكره نرى أن الهجرة دوراً بارزاً في نمو وتطور حجم القوى العاملة الاجمالية بالدولة، حيث أن عددها المطلق قد زاد من (١٤١٢٧٩) نسمة في عام ١٩٦٥ إلى (٥٣٩٠٢٨) نسمة في عام ١٩٨٥، أي ما يزيد قليلاً عن نصف مليون نسمة.

٥. خلاصة ما سبق ذكره نجد أن ظاهرة الهجرة التي تعرض لها المجتمع الكويتي أسفرت عن تغيرات هائلة سواء أكان بالنسبة للحجم الكلي للسكان وتطور نموه داخل الدولة، أم بالنسبة لحجم القوى العاملة الاجمالية التي تزايدت بشكل سريع، والتي كان لعمل الهجرة إلى دولة الكويت الأثر الكبير في هذا التزايد، وبخاصة أنهم يمثلون غالبية النسبة الخاصة بالقوى العاملة، إلى جانب ذلك فقد ترتب على ظاهرة الهجرة إلى دولة الكويت آثار جمة، سواء أكان منها الاقتصادية أم الاجتماعية أم الديموجرافية وحتى السياسية على السكان الكويتيين، وهذا الأمر المهم يدعونا إلى دراسة سجلات الهجرة عملياً للتعرف على الأساليب المختلفة المتبعة في جمع البيانات الإحصائية الخاصة بتلك الظاهرة.

وبخلاف التعدادات العامة للسكان فإنه لا يوجد حتى الوقت الحالي نظام دقيق لجمع بيانات متكاملة عن إحصاءات الهجرة الدولية الوافدة لدولة الكويت بخصائصها الديموجرافية الأساسية وبأسلوبها المعتاد والتي تتم عن طريق إجراء المسوح بالعينة للأسر القاطنة ، أو بأسلوب الإحصاء الجاري للأفراد القادمين والمغادرين بوساطة الاستبيانات التي تصمم لهذا الغرض ، والبيانات المتوفرة حالياً عن الهجرة ما هي الا جداول محدودة مسجل بها حركة القادمين والمغادرين موزعين حسب الجنسية والنوع وطريق السفر ، وتشرف على اتمام تلك العملية وزارة الداخلية بالتعاون مع إدارة الطيران المدني ، وتزود الادارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط بهذه الجداول بصورة شبه دورية ، وتشر هذه الجداول بعد ذلك في المجموعة الإحصائية السنوية ، والبيانات الواردة بتلك الجداول لا تفي بالغرض الأساسي المطلوب من إحصاءات الهجرة والتي تكون كمؤشرات ديموجرافية أساسية ، مثل المهنة والحالة التعليمية والعمر وأسباب القدوم أو المغادرة لكل من القادمين والمغادرين ، وعادة ما تستخدم تلك الجداول كمؤشرات إجمالية لاحصاءات النقل « المواصلات » ، بالإضافة الى أنه يستعان بها عند دراسة وتحليل بيانات تلك الاحصاءات للوقوف على مدى علاقتها بالتغيرات السكانية الأخرى ذات العلاقة بالهجرة الدولية الوافدة الى الكويت أو المغادرة منها ، وبخاصة تلك البيانات التي تتيحها المسوح والاحصاءات السكانية^(٣٢) .

ولم يؤخذ بنظام تسجيل الجداول الخاصة بحركة السفر للسكان الوافدين مصنفة بحسب الجنسية الا منذ عام ١٩٦٤ ، ومع ذلك فما زالت الحاجة تدعو الى ضرورة قيام تنسيق وتعاون إيجابي أكثر بين وزارة الداخلية وإدارة الطيران المدني من جهة ، والادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط من جهة أخرى ، من أجل أن تتوفر الأرقام الدقيقة عن حجم وخصائص السكان الوافدين الى دولة الكويت بصورة دورية مفصلة . ليتمكن كل من الخبراء والمتخصصين من إجراء تقديرات أقرب الى الواقع لتطور النمو السكاني للوافدين^(٣٣) ، للتعرف على التغيرات التي من المحتمل أن تطرأ على خصائصهم في المستقبل القريب والبعيد ، اذ أنه في حالة عدم توفر تلك البيانات يكاد يكون من المستحيل وضع الخطط التنموية والاقتصادية والاجتماعية المستقبلية التي يمكن تنفيذها بنجاح ، وبخاصة أن السكان الوافدين أصبحوا يشكلون حوالي (٧٠ ٪) من إجمالي السكان بحسب نتائج عام ١٩٨٥ ، كما ذكرنا في السابق .

وبالرغم من أنه لا يوجد بدولة الكويت نظام للتسجيل المستمر للسكان ، ذلك النظام الذي يوفر إحصاءات مرضية عن المهاجرين لداخل البلاد والمهاجرين منها ، الا أن هناك عدداً غير قليل من الباحثين والمتخصصين قاموا بإعداد بحوث ودراسات تتعلق بالسكان المهاجرين لدولة الكويت ، وقد تمكنوا من تقدير عدد المهاجرين الوافدين الى دولة الكويت في فترة زمنية تقع ما بين تعدادين متتاليين باستخدام اعداد السكان الاجمالية للوافدين في كل من هذين التعدادين ، بالإضافة الى بيانات أخرى توفرها عادة التعدادات أو غيرها من المصادر^(٣٤) .

(٣٢) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، دليل نظام الإحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت ، يونيو ١٩٨٤ ، ص ٤

(٣٣) من الدراسات والبحوث الحديثة التي اتبع بها الطريقة المذكورة عند تقدير اعداد السكان المهاجرين الى دولة الكويت في الفترات المتعددة المخططة مالي .

مساعد حسن المعيم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ ، ص ٧٧ - ٧٩ .

وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات سكاني الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ - ١٩٨٠ ، المربع السابق ، ص ١

مساعد حسن المعيم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومدلات مختلف توجهات الهجرة ، (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في أغسطس ١٩٨٥

وقد تم حساب صافي الهجرة الى دولة الكويت بتلك البحوث والدراسات وبخاصة في السنوات الأخيرة بالطرق التالية :

أ - حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود : ومن المعروف أن مصدر هذه البيانات وزارة الداخلية ، وقد تم حساب صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود لكل سنة بطرح عدد المغادرين خلال السنة من عدد القادمين خلال نفس السنة ، حيث أنه إذا كانت مثل هذه البيانات على درجة معقولة من الدقة فيمكن استخدامها كأحد مؤشرات صافي الهجرة الى دولة الكويت .

ب - تقديرات صافي الهجرة ما بين التعدادات . وقد أعدت هذه التقديرات بطريقة الإحصاءات الحيوية ، حيث حُيب مقدار التغير السكاني ما بين التعداد والتعداد التالي له ، ثم حُيب مقدار الزيادة الطبيعية للسكان خلال الفترة ما بين التعدادين وبطرح مقدار الزيادة الطبيعية من الزيادة الإجمالية التي تمت في أعداد السكان نحصل على تقدير صافي الهجرة .

وبالرغم من عدم جواز الاعتماد على صافي الحركة للسكان غير الكويتيين عبر الحدود كمقياس لقيمة صافي الهجرة ، إلا أنه يمكن استخدام قيمة صافي الحركة وكونها سالبة أو موجبة للدلالة على اتجاهات التغير في صافي الهجرة نحو الزيادة أو النقصان ، وبخاصة عند دراسة صافي الهجرة لمجموعة معينة من الجنسيات ، مثل الجنسيات العربية أو الآسيوية أو عند دراسة صافي الهجرة لجنسية معينة ، وتتبع هذه الطريقة في الحالات التي لا يتاح لها بيانات تمكن من تقدير صافي الهجرة بطريقة الإحصاءات الحيوية^(٣٤) .

وبذلك نجد أنه في حالة استخدام الطرق غير المباشرة لتقدير صافي الهجرة الى دولة الكويت فمن الأفضل استخدام الطريقة الثانية التي تعتمد فيها على البيانات التي توفرها التعدادات العامة للسكان وكذلك الإحصاءات الحيوية عن السكان المهاجرين ، أما الطريقة الأولى والتي نعتد فيها على بيانات حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود ، وكما يوضحها كل من (الجدولين رقم ١١ ، ١٢) ، فلا يمكن الاعتماد على نتائجها وبخاصة أنه عند استعمالها أسفرت بياناتها عن أن حجم صافي الهجرة كان مقداره سالباً في الفترة الزمنية التالية لعام ١٩٦٩ ، وبالتحديد في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٧٠ وعام ١٩٧٤ ، بالإضافة الى عام ١٩٧٩ ، وأخيراً في الفترة الزمنية الممتدة ما بين عام ١٩٨٢ وعام ١٩٨٤^(٣٥) ، وربما تصدق تلك الحقيقة في السنوات الثلاث الأخيرة المذكورة ، إلا أنه لا يمكن حدوثها بالنسبة لفترة لسبعينات وبخاصة أن تلك الفترة الزمنية شهدت حدوث هجرة ذات حجم كبير ، ومن مصادر عديدة ، لم يرد ذكرها في السابق ، منها على سبيل المثال دول جنوب وشرق آسيا ، وبالتحديد تلك الهجرة القادمة الى الكويت لأول مرة من كل من كوريا الجنوبية والفلبين وقد تميزت تلك الهجرة بالإضافة الى ما سبق أن غالبية أفرادها يتركزون في الأعمال الانشائية ، أي في قطاع التشييد والبناء ، الى جانب ما سبق فإن تلك الهجرة تميزت عما شهدته

(٣٤) مساعد العميم ، المرجع السابق ، ص ٤ - ٥ .

(٣٥) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعة الإحصائية السنوية للاعوام ١٩٧٥ - ١٩٧٨ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٥ .

الكويت من هجرات في أن مدة الإقامة للوافدين تعد مؤقتة ، حيث أنها تنتهي بمجرد الانتهاء من تنفيذ المشروع الإسكاني الذي قدموا للكويت من أجله .

بالإضافة إلى ما ذكرنا في السابق فإن هناك عدة عوامل تجعل من البيانات الإحصائية الخاصة بحركة القدوم والمغادرة مضللة ولا يمكن الوثوق بها وبالتالي لا يعتمد عليها عند احتساب صافي الهجرة ، وفي مقدمة هذه العوامل ، ذلك العامل الذي يتمثل في أن هذه البيانات الإحصائية تغفل تسجيل البدو والمتسولين الذين يخترقون الحدود دون علم سلطات الدولة ، وبخاصة أن الداخلين إلى دولة الكويت بطريقة غير مشروعة عادة ما يتهربون من اختراق الحدود بطريقة رسمية ، ولهذا يغفل تسجيلهم مع القادمين في حين يتم تسجيلهم كمغادرين فقط أثناء خروجهم من البلاد مما يعطي في النهاية أرقاماً مضللة لصافي الهجرة ، خاصة بالنسبة للجنسيات الإيرانية والعراقية والسورية التي عادة ما يكثر بين سكانها دخول البلاد بتلك الطريقة .

بالإضافة إلى ما سبق فإن الطريقة الثانية أيضاً لتقدير حجم صافي الهجرة ما بين التعدادات والتي يعتمد عند استعمالها على كل من بيانات التعدادات العامة للسكان وبيانات الإحصاءات الحيوية يشوبها - أيضاً - نوع من الشك ، نتيجة إلى أن حجم صافي الهجرة يتأثر بالأخطاء التي تحدث في كل من عملية عد السكان وعملية التسجيل الحيوي ، إلا أنه يبدو أن عمليات عد السكان في تعدادات ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ ، وكذلك التسجيل الحيوي خلال الفترة ذاتها مكتملة تقريباً ، وهكذا فإن أرقام صافي الهجرة للداخل والمعدة باستخدام طريقة الإحصاءات الحيوية لن تكون عرضة لخطأ خطيرة ، وبخاصة أنه أثناء عملية عد السكان في التعدادات الثلاث المذكورة كان هناك زيادة في التركيز على طلب الأثبات المستندي للجنسية الكويتية ، مما قلل من حالات الادعاء بالجنسية الكويتية^(٣٦)

خلاصة ما سبق ذكره ينضح أن البيانات الإحصائية الخاصة بالمهجرة إلى الكويت نشقت من مصدرين أساسيين هما الإدارة المركزية للإحصاء بوزارة التخطيط وإدارة الجوازات والجنسية والإقامة بوزارة الداخلية ، بما توفره الإدارة الأولى من بيانات تتضمنها كل من التعدادات العامة للسكان ، والمجموعة الإحصائية السنوية ، والمجموعة السنوية للإحصاءات الحيوية ، وأخيراً التقارير والمسوحات السكانية ، بما توفره الإدارة الثانية من بيانات خاصة بالقادمين والمغادرين موزعين بحسب مجموعات الدولة التي ينتمون إليها ، وكذلك حركة الركاب في الموانئ البرية والبحرية والجوية ، بالإضافة إلى كل من البيانات التي تتعلق بحالات منح الجنسية الكويتية وحالات منح تصاريح الإقامة للوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون إليها ، وبما هو جدير بالذكر أن كافة تلك البيانات تقوم بجمعها وتبويبها الإدارات المختصة بوزارة الداخلية وبخاصة نقاط الحدود البرية والبحرية والإدارة العامة للطيران المدني وأخيراً الإدارة العامة للجوازات والجنسية والإقامة ، وقد كان هذا النوع من البيانات يصدر عن وزارة الداخلية حتى عام ١٩٦٥ ، إلا أنه بعد ذلك التاريخ أصبح مجلس التخطيط - وزارة التخطيط الحالية - هو الذي يتولى نشر وإصدار مثل تلك البيانات معتمداً في ذلك على سجلات وزارة الداخلية

(٣٦) وزارة التخطيط ، خصائص وتقديرات صافي الهجرة لدولة الكويت ، المربع السابق ، ص ٥

بالإضافة إلى هذين المصدرين هناك مصدر ثالث للبيانات الاحصائية الخاصة بالهجرة الدولية الى الكويت ومثل هذا المصدر في مراقبة الاستخدام بإدارة تنظيم القوى العاملة بوزارة الشؤون الاجتماعية والعمل وفي مطلع عام ١٩٨٠ أصبح يطلق على تلك الإدارة إدارة عمل محافظة العاصمة ، بعد صدور القرار رقم (١٩٩) لسنة ١٩٧٩ ، وقد تولت الإدارة إصدار تصاريح العمل على مستوى الدولة (٣٧) ، ويصدر عن الإدارة المذكورة تقريراً سنوياً يختص بنشر بيانات تحليلية وإحصائية عن تصاريح العمل في القطاع الأهلي وقطاع الأعمال النفطية ، ويشمل الهدف الأساسي من نشر تلك البيانات في توضيح كل ما يتعلق بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة ، وتعد تلك البيانات كمؤشر لمعرفة مدى الطلب على هذه القوى ، وما يحدث بها من متغيرات ، وبخاصة عندما تنشط قطاعات معينة كما حدث في قطاع التشييد والبناء في منتصف السبعينات ، حيث كان الطلب مركزاً على العمالة الوافدة من أجل العمل في القطاع المذكور ، وكذلك تعد تلك البيانات كمؤشر للتعرف على المهن والتخصصات التي تزود بها سوق العمل في الكويت من الدول المختلفة المصدرة للعمالة ، وما إذا كان هناك ثمة علاقة بين مصدر معين ومهن بذاتها ، أي التوقف على مدى العلاقة ما بين الجنسية والمهنة ، كما حدث في عامي ١٩٧٧ ، ١٩٧٨ حيث شهدت هاتان السنتان تغيراً جذرياً في خريطة الدول المصدرة للقوى العاملة والوافدة الى دولة الكويت ، حين أصبحت القوى العاملة غير العربية في موقف المتحدي أمام القوى العاملة العربية الوافدة ، وقد بلغت تلك الظاهرة مداها في الثمانينات . (كما أوضحنا فيما سبق) .

خلاصة لكل ما سبق ذكره فإن الهدف الأساسي من عمل الإدارة المذكورة يتلخص في تنظيم عملية استخدام القوى العاملة الى الكويت من أجل الاستفادة بأفضل الطاقات البشرية المتاحة في أسواق العمل الخارجية ، وكذلك إجراء التقديرات المستقبلية الصحيحة للاحتياجات الفعلية من قوة العمل الوافدة على أسس اقتصادية ، معتمدة في ذلك على حصيلة وفيرة من الحقائق المحيطة بسوق العمل المحلي ، وقد اعتبرت تلك الحقائق ثمانية المؤشرات الأساسية لاتجاهات سوق العمل بالكويت وتطوراتها ومتغيراته لوضع خطة نحو المعنى في إصدار تصاريح جديدة للعمل في اتجاهات اقتصادية معينة .

وتتضمن التقارير السنوية المذكورة بيانات إحصائية ودراسات وتحليلية خاصة بنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة - كما ذكرنا في السابق - ، بالإضافة الى عمل تقديرات للاحتياجات المستقبلية لتلك العمالة ، والبيانات المنشورة في تلك التقارير عن تصاريح العمل توضح أن هناك عدة أنواع من هذه التصاريح هي كما يلي : التصاريح بالدخول للعمل ، التصاريح بالعمل لأول مرة ، تجديد تصاريح العمل ، إلغاء تصاريح العمل أو تحويلها ، وأخيراً إلغائها النهائي لتصاريح العمل ، وجميع تلك الأنواع من تصاريح العمل مبدولة ومصنفة بحسب النشاط الاقتصادي والجنسية والمجموعات المهنية والنوع والعمر والحالة الاجتماعية وأخيراً الأجور .

(٣٧) وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، إدارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقدير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ ، المقدمة .

وقد اهتمت وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل بتطوير البيانات التي تتناولها هذه التقارير بالدراسة والتحليل نتيجة إلى أن القوى العاملة المستجدة سنوياً والوافدة إلى الكويت تتزايد من سنة لأخرى ، بحيث أن نتائج تعداد السكان لعام ١٩٨٠ تظهر أن السبب الرئيسي لاقامة السكان الوافدين بدولة الكويت هو المرافقة (مرافقة الأقارب العاملين بالدولة) ونسبة قدرها (٥١,٤ ٪) ، بينما تبلغ نسبة المقيمين للعمل (٤٧,٩ ٪)^(٣٨) . ولذلك فقد ركزت الوزارة المذكورة على تطوير قانون العمل في القطاع الأهلي وتنظيمه ، بحيث صدر قانون في عام ١٩٨٤ أضيف بمقتضاه عمل إجراءات جديدة عند إصدار تصاريح العمل للقوى العاملة الوافدة للعمل في القطاع الأهلي ، منها أن المادة الأولى منه تنص على قصر إصدار تصاريح العمل على قطاعات اقتصادية معينة^(٣٩) .

وفي حالة دراسة الهجرة إلى دولة الكويت هناك بيانات صادرة عن وزارة الداخلية خاصة بحالات منح الإقامة للسكان الوافدين إلى دولة الكويت ، وقد لا تفيد البيانات المذكورة الباحثين والمتخصصين بالدراسات السكانية عند قياس حجم صافي الهجرة ، إلا أن هذه البيانات تكون بمثابة مؤشر مهم عند دراسة مظاهر استقرار القوى العاملة الوافدة ، وبخاصة أن دراستنا التحليلية للقوى العاملة بدولة الكويت والتي تناولناها قبل قليل اسفرت عن أن القوى العاملة غير الكويتية تشكل ما يزيد قليلاً عن أربعة أخماس القوى العاملة بالدولة ، أي أنها تمثل غالبية القوى العاملة بالدولة حتى عام ١٩٨٥ ، لذلك أخذت الدولة على عاتقها مسئولية إصدار التشريعات الخاصة بالاقامة وما يتعلق بها منذ عام ١٩٥٩ وحتى عام ١٩٧٥ ، وتعد جميع القرارات الصادرة بهذا الشأن خاصة ببيان شروط جواز دخول الأجانب لأراضي دولة الكويت والاقامة فيها ومدتها وأسبابها .

وفي بيان الجدول رقم (١٣) نستنتج أن نصيب مجموعة الجنسيات العربية غير الكويتية من النسبة الاجمالية لتصاريح الإقامة الصادرة والمنوحة للسكان الوافدين في الفترة الزمنية الممتدة في عام ١٩٧٣ حتى عام ١٩٨٢ ، قد انحى نحو التناقص وبشكل واضح فبعد أن كانت تلك النسبة تشكل (٦١,٢ ٪) من إجمالي تصاريح الإقامة المنوحة للوافدين في عام ١٩٧٣ ، أصبحت هذه النسبة تشكل (٣٥,٦ ٪) أي الثلث فقط في عام ١٩٨٢ ، ممثلة بذلك المرتبة الثانية ، وقد احتلت تلك المجموعة هذه المرتبة منذ عام ١٩٧٩ ، بعد أن كانت ممثلة للمرتبة الأولى في السنوات السابقة للعام المذكور . في حين أن مجموعة الجنسيات الآسيوية غير العربية كانت ممثلة للمرتبة الثانية في عام ١٩٧٣ وبنسبة تقدر بـ (٣٦,١ ٪) ، إلا أن هذه النسبة انخفضت نحو الزيادة من سنة لأخرى حيث أنها فاقت ما يقابلها لدى مجموعة الجنسيات العربية منذ عام ١٩٧٩ ، ممثلة - بذلك - للمرتبة الأولى واستمرت تلك المجموعة ممثلة هذه المرتبة حتى عام ١٩٨٢ وبنسبة تقدر بـ (٥٣,٥ ٪) أي أن نصيب مجموعة الجنسيات الآسيوية غير العربية من النسبة الاجمالية لتصاريح الإقامة المنوحة زاد عن النصف بقليل في العام المذكور .

أما نصيب بقية المجموعات الجنسية غير العربية كالأفريقية والأمريكية والأوربية وغيرها فقد كان محدوداً جداً ويقل في معظم الأحوال عن نسبته (١ ٪) في جميع السنوات المذكورة .

(٣٨) مساعد حسن المعيم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، المرجع السابق ، ص ٨٤

(٣٩) وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، إدارة عمل عاتقة العامة ، مراقبة الاستخدام ، التقرير السنوي لنشاط الاستقدام والسمات الاساسية للعمالة الوافدة عام

١٩٨٤ ، الكويت في فبراير ١٩٨٥ ، ص ٣ - ٤

خلاصة لما سبق ذكره يتضح أن دولة الكويت تعد حديثة العهد بالنسبة لوفود المهاجرين إليها ، حيث بدأت ظاهرة الهجرة الدولية إلى دولة الكويت منذ بداية الخمسينات من هذا القرن ، إلا أنها ساهمت بشكل فعال في نمو حجم السكان وبالتالي أثرت وبشكل واضح على كافة الخصائص الديموجرافية السكانية ، ولم تبدأ الكويت بتدوين أو تسجيل بيانات تلك الظاهرة إلا منذ عام ١٩٥٧ ، حين أجرى التعداد الأول للسكان بالدولة ، ثم تبعه بعد ذلك استمرار هذه العملية كل خمس سنوات وكان آخرها تعداد عام ١٩٨٥ ، وبخاصة أنه كما علمنا في السابق من أن بيانات التعداد العام للسكان تعد المصدر الرئيسي لاحصاءات الهجرة إلى دولة الكويت أو منها ، أما المصدر الثاني فقد مثله البيانات الصادرة عن وزارة الداخلية ، وبخاصة تلك البيانات الوثيقة الصلة بحركة السكان والتي تجمع بواسطة الرجال القاطنين على مراقبة نقاط الحدود والمطارات ، بالإضافة إلى تلك البيانات الخاصة بحالات منح الإقامة للوافدين والتي في حالة تحليلها تعد بمثابة مؤشر هام لمدى استقرار القوى العاملة ، وأخيراً فإن المصدر الثالث يشتمل في احصاءات الهجرة التي توفرها وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل والخاصة بتصاريح العمل الممنوحة للقوى العاملة الوافدة في القطاع الأهلي .

خلاصة لما سبق ذكره يتبين لنا أن هناك جهات رسمية عديدة تعمل على جمع وجدولة ونشر البيانات الخاصة بالهجرة الدولية القادمة إلى دولة الكويت أو المغادرة منها ، وقد تمثلت هذه الجهات بثلاث وزارات هي وزارة التخطيط ، ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، وبناء على ذلك نوصي بأن يكون هناك جهة رسمية واحدة فقط تتولى تلك العملية ، ومن الأفضل أن تكون تلك الجهة ممثلة بوزارة التخطيط ، وبخاصة بالنسبة لجمع هذه البيانات والتأكد من صحتها وبالتالي تبويبها ونشرها ، لتكون أكثر فائدة بالنسبة لكافة المهتمين بظاهرة الهجرة الدولية سواء أكان منها القادمة أم المغادرة من دولة الكويت وفي مقدمتهم المسؤولين عن التخطيط الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، بمن فيهم العاملون في القطاع الحكومي أو القطاع الخاص ، أو الباحثون والدارسون لتلك الظاهرة ، بالإضافة إلى ما سبق نوصي - أيضاً - أن يكون هناك قسم خاص يعنى بشئون الهجرة ويكون تابعاً للادارة المركزية للاحصاء بوزارة التخطيط يعمل على جمع كافة البيانات الاحصائية المتعلقة بالهجرة ، وينشرها ضمن إصدار خاص يكون على هيئة مجلد يحتوي على جميع البيانات الاحصائية للهجرة ، حتى يكون أكثر فائدة وقيمة عند دراسة تلك الظاهرة من قبل جميع المهتمين بهذه الظاهرة ، وحتى يتمكنوا من خلال دراساتهم ومناقشتهم لتلك الظاهرة من حيث تحليل مسبباتها والتغيرات التي تطرأ على حجمها من فترة زمنية إلى أخرى ، والعوامل المؤثرة على حجم الهجرة الدولية إلى الكويت سواء أكان منها ، الداخلية أم الخارجية ، حتى يستطيع المهتمون بتلك الظاهرة بجمع فئاتهم الوصول إلى فهم أكثر للعوامل المحددة لمختلف نوعيات الهجرة الوافدة إلى دولة الكويت بشكل أكثر سهولة عند استخدام هذه البيانات .

أما التوصية الثالثة التي نختتم بها هذا البحث فتتلخص في أنه على الجهات الرسمية الثلاث المعنية بظاهرة الهجرة في الوقت الحالي والمتمثلة في وزارات التخطيط والداخلية والشؤون الاجتماعية والعمل أن تعطي مزيداً من الاهتمام نحو تسجيل البيانات الاحصائية المتعلقة بتلك الظاهرة ، لتكتسب مزيداً من الدقة ، وبخاصة فيما يتعلق منها بشمولية هذه البيانات ، بحيث أنه في حالة تسجيل تلك البيانات لا تغفل أي مجموعة سكانية وافدة إلى البلاد أو مغادرة منها ، نتيجة لما يمثلته حجم السكان المهاجرين من إجمالي السكان داخل الدولة ، وكما ذكرنا فيما سبق من أن هؤلاء السكان أصبحوا

يمثلون نسبة تقدر بـ (٦٠ ٪) من إجمالي السكان بالدولة كما أظهرتها نتائج التعداد الأخير - تعداد عام ١٩٨٥ ، وهذه النسبة ليست كبيرة من حيث حجمها فقط ، بل تتعدى ذلك بكثير لما لها من آثار بالغة وواضحة على الخصائص السكانية داخل الدولة ، سواء أكان منها الاجتماعية أم الاقتصادية بل وحتى السياسية ، وما يتطلبه كل ذلك من زيادة سريعة في الخدمات المختلفة التي تقدمها وتوفرها الجهات المعنية وفي مقدمتها وزارات الدولة المختلفة وجميع أجهزتها والمؤسسات التابعة لها .



ملحق الجداول

فهرست الجداول

رقسم الصفحة	عنوان الجدول	رقسم الجدول
	١ - التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتين) في سنوات التعداد .	
	٢ - التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها .	
	٣ - التطور العددي والنسبي للسكان الوافدين موزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها .	
	٤ - صافي الهجرة ومصادرها الرئيسية بين التعدادات في الفترة من (١٩٤٨ - ١٩٨٥) .	
	٥ - الواقعات الحيوية للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتين) للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٨٤ .	
	٦ - مكونا النمو السكاني للمهاجرين بدولة الكويت (١٩٥٧ - ١٩٨٥) .	
	٧ - تطور معدل النمو السنوي للسكان غير الكويتيين (١٩٥٧ - ١٩٨٥) .	
	٨ - تطور معدلات النمو السنوي للسكان موزعة بحسب المجموعات الجنسية بدولة الكويت في الفترات التعدادية الخمسة .	
	٩ - التطور العددي والنسبي لقوة العمل الاجالية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي ينتمون اليها في سنوات التعداد .	
	١٠ - التطور العددي والنسبي لقوة العمل غير الكويتية موزعة بحسب مجموعات الدول في سنوات التعداد .	
	١١ - حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود (قادمون ومغادرون) وصافي الحركة وصافي الهجرة بين التعدادات .	
	١٢ - صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود موزعة بحسب مجموعات الدول للسنوات (١٩٧٢ - ١٩٨٤) .	
	١٣ - نسب حالات منح تصاريح الاقامة للوافدين حسب مجموعات الدول في السنوات (١٩٧٣ - ١٩٨٢) .	

الطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير الكويتيين)
في سنوات التعداد من (١٩٦٥ - ١٩٨٥) (٣٩)

جملون رقم (١)

سنة التعداد والعدد والنسبة		١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠		١٩٨٥	
		العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪
كويتيون غير الكويتيين	٢٢٠٠٥٩	٤٧٠	٤٧٠	٣٤٧٣٩٦	٤٧٠	٤٧٢٠٨٨	٤٧٠	٥٦٥٦١٣	٤١٣	٦٨١٢٨٨	٤٠٩
	٢٤٧٢٨٠	٥٢٩	٥٢٩	٣٩١٦٦٦	٥٢٩	٥٢٢٧٤٩	٥٢٩	٧٨١٢٣٩	٥٨٣	١٠١٦٠١٣	٥٩٩
الجملة العمومية	٤٦٧٣٣٩	١٠٠٠	١٠٠٠	٧٣٨٦٦٢	١٠٠٠	٩٩٤٨٣٤	١٠٠٠	١٣٥٧٩٥٢	١٠٠٠	١٦٩٧٣٠	١٠٠٠

(٤٠) التعدادات العامة للسكان في السنوات المذكورة .

• النسب حيث .

جدول رقم (٢)
التطور العددي والنسبي للسكان بدولة الكويت موزعين بحسب مجموعات الدول
التي ينتمون اليها في تعدادات ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ (٤٠)

١٩٨٥	١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥		سنة التعداد العدد مجموعات الدول
العدد	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	
٤٠٠	٦٨١٢٨٨	٤١,٧	٥٦٥٦١٢	٤٧,٥	٤٧٢٠٨٨	٤٧,٠	٢٢٠٠٥٩	٤٧,١	كويتية
٣٧,٩	٦٤٢٨١٤	٤٢,٣	٥٧٤٤٦٥	٤٦,٣	٤١٩١٨٧	٤٢,٤	١٨٧٩٢٣	٤٠,٢	عربية
٦١,٠	٣٥٩٤٧	١٥,٠	٢٠٤١٠٤	١٦,٨	١٧٨١٢	١٧,٧	٥٤٥٠٤	١١,٧	اسيوية
٠,٧	١١٩٠٨	٠,٧	٩٩٨٤	٠,٤	٤٢٨٠	٠,٧	٣٨٢٩	٠,٨	اوربية
٠,٣	٥٢٤٤	٠,٣	٣٧٥٦	٠,٣	١٣٠١	٠,٢	١٠١٧	٠,٢	اخرى
—	—	—	—	—	١٦٨	—	—	—	غير مبين
١٠٠,٠	١٦٨٧٢٠١	١٠٠,٠	١٣٥٧٥٢	١٠٠,٠	٩٩٤٨٢٧	١٠٠,٠	٧٢٨٦١٢	١٠٠,٠	المجملة العمومية

(٤١) المصدر السابق .
• أخرى وتشمل الجنسيات الاريقية غير العربية والارمنية والاسرائيلية والبنغالية .

جدول رقم (٣)
التطور العددي والسكاني للبلدان الموزعين بحسب مجموعات الدول التي ينتمون إليها
في تعدادات ١٩٦٥، ١٩٧٠، ١٩٧٥، ١٩٨٠، ١٩٨٥ (٤١)

١٩٨٥	١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥		مجموعات الدول النسبة العدد
	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	
٦٣	٦٤٢٨١٤	٧٢	٥٧٤٤٩٥	٨٠	٤١٩١٨٧	٨٠	٣١٢٨٢٩	٧٢	١٨٧٩٢٣
٣٥	٣٥٥٩٤٧	٣٥	٣٠٤١٠٤	١٨	٩٧٨١٣	١٨	٧١٩١٧	٣٢	٥٤٥٠٤
١	١١٩٠٨	٨	٩٩٨٤	٢	٤٢٨٠	٢	٤٨١٦	١	٣٨٣٩
٠	٥٣٤٤	٠	٣٧٥٦	١٣	١٣٠١	٤	١٢٠٨	٠	١٠١٧
-	-	-	-	-	١٦٨	-	٧٦	-	-
١٠٠	١٠١٢٠١٣	١٠٠	٧٩٢٣٣٩	١٠٠	٥٣٣٧٤٩	١٠٠	٣٩١٢٦٦	١٠٠	٢٤٧٢٨٠

(٤١) المصدر السابق .

• أخرى تشمل السكان والمواطنين من مجموعات الدول الآتية: العربية والإيرانية وإسبانيا ونيوزيلندا .

• التي هي:

جدول رقم (٤)
صافي الهجرة ومصادرها الرئيسية بين التعدادات في الفترة من
(١٩٤٨ - ١٩٨٥)

البلدة	غير مسن	الدول الأمريكية ودول البحري		الدول الأوروبية		الدول الآسيوية		الدول العربية		مجموع الهجرة الداخلية	الهجرة الشبكة الداخلية
		العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪	العدد	٪		
١٠٠٠	١٠٠٠	٦٤٥٠٩	٠.١	٩٧	٣	٢٢٢٣	٣١	٦٤	٤١٨٨٨	١٩٥٧	٤٨
١٠٠٠	١٠٠٠	٢٠٧٨٨٦	٠.٢	٤٩٣	٣	٣٠٧٧	٢١	٧٣	١٥٨٩١٤	١٩٦٥	٥٧
١٠٠٠	١٠٠٠	٣٣١٤٢١	٠.٤	٩١٦	١	٤٤٤٢	١٩	٧٨	١٨١٢٥١	٢٢٧٠	٦٥
١٠٠٠	١٠٠٠	٢٢٠٦٨٥	٠.٥	١٠٥٣	١	٣٤٢٨	٢٢	٧٥	١٦٥٥٦٧	١٤٢١	٧٠
١٠٠٠	١٠٠٠	٣٦٩٥٩٠	٠.٩	٣٢٨٧	٢	٥٧٠٤	٣٦	٥٧	١٥٥٣٠٨	١٩٨٠	٧٥
١٠٠٠	١٠٠٠	٢٢٣٦٧٤	٠.٧	١٥٨٨	٠	١٩٢٤	٢٦	٣٠	٦٨٣١٩	١٩٨٥	٨٠

(٤٣) أحد حسن إبراهيم ، سكان الكويت ، دراسة سفرية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والهجرة العربية رقم (١٦) الكويت ١٩٨٥ ، جدول رقم (٣) ص ٤٥ .

(٤٤) وزارة التخطيط ، المجموعة الإحصائية السيرية لعام ١٩٨٥ ، والتعداد العام للسكان ١٩٨٥ .

جدول رقم (٥)
الواقعات الحيوية للسكان بدولة الكويت بحسب الجنسية (كويتيون وغير كويتيين)
للسنوات ١٩٦٥ - ١٩٨٤

السنة	الواقعات الحيوية		المواليد اصحاء		وفيات				الزيادة الطبيعية	
	عدد	المعدل	عدد	المعدل	غير كويتيين	كويتيون	عدد	المعدل	غير كويتيين	كويتيون
١٩٦٥	١١٧٩٣	٥٢,٧	١٠١٥٧	٤٠,٤	١٦٠٦	٧,١	٨٥١	٣,٣	١٠١٩٠	٤٥,٦
١٩٦٦	١٢٤٨٣	٥٠,٩	١١٢٤٩	٤٠,٩	١٧٦٦	٧,٢	١٠٤٧	٣,٨	١٠٧١٧	٤٣,٧
١٩٦٧	١٤٦٢٤	٥٠,٥	١٣٧١٠	٤٥,٥	١٨٢٢	٦,٧	١٢٨٩	٤,٢	١٢٨٠٢	٤٧,٧
١٩٦٨	١٥٧٦٢	٥٢,٦	١٣٦٦٤	٥٢,٣	١٩٢٩	٦,٥	١٤١٧	٤,٢	١٢٨٣٣	٤٧,٠
١٩٦٩	١٧٩٦٥	٥٥,٨	١٧١٧٠	٤٧,٤	١٨٧٨	٨,٨	١٥٠٠	٤,١	١٦٠٨٧	٤٩,٩
١٩٧٠	١٦٢٢٠	٤٦,٣	١٧٦٢٢	٤٤,٥	٢٠١٥	٧,٥	١٧٢٠	٤,٣	١٤٢٠٥	٤٠,٥
١٩٧١	١٧٦٦٧	٥٩,٥	١٧٨٩١	٤٢,٣	٢٢٢٥	٦,٠	١٦٠٧	٣,٨	١٥٤٤٢	٤٢,٢
١٩٧٢	١٩٢٢٢	٥٩,٢	١٨٤٥٦	٤٠,٩	٢٥٥٧	٦,٦	١٥٩٦	٣,٥	١٦٦٧٥	٤٣,٦
١٩٧٣	٢١٣٤٠	٥٠,٠	١٨٨٢٥	٤٠,٠	٢٨٤٠	٦,٧	١٧٦١	٣,٧	١٨٥٠٠	٤٣,٨
١٩٧٤	٢٢٧١٣	٥٠,٥	١٨٣٤٧	٣٦,٨	٢٩٧٨	٦,٦	١٧١٥	٣,٤	١٩٧٣٥	٤٣,٩
١٩٧٥	٢٤٣٤١	٥٢,٢	١٩١٢٠	٣٦,٠	٢٩١٧	٦,١	١٨٦١	٣,٥	٢١٤٤٤	٤١,٥
١٩٧٦	٢٤٩٣٥	٥٠,٦	٢١١٠٤	٣٦,٦	٢٧٥٧	٥,٦	١٩٠٤	٣,٣	٢٢١٧٨	٤٥,٠
١٩٧٧	٢٤٧٩٠	٤٨,٥	٢٢٠٧٤	٣٥,٢	٢١٥٠	٦,٢	٢٢١٥	٣,٥	٢١٦٤٠	٤٢,٣
١٩٧٨	٢٥١٢٨	٤٧,٤	٢٢٨٨٢	٣٣,٢	٢٨٦٨	٥,١	٢٠٦٨	٣,٠	٢٢٢٦٠	٤٦,٠
١٩٧٩	٢٥٤٩٩	٤٦,٤	٢٢٧٧٤	٣٠,٧	٢٩٢٣	٥,٤	٢٠٨٥	٢,٨	٢٢٥٥٦	٤١,٠
١٩٨٠	٢٦١٦٨	٤٧,٣	٢٤١٢٢	٣٠,٠	٢٩٠٣	٥,١	٢٠١٩	٢,٥	٢٤٠٥٥	٤٢,٢
١٩٨١	٢٧٩٩٨	٤٧,٤	٢٤٠٤٣	٢٧,٥	٢٦٨٩	٤,٦	١٩٨٩	٢,٣	٢٥٠٠٩	٤٢,٨
١٩٨٢	٢٩٠٠٤	٤٧,٤	٢٥٢٥٣	٢٦,٥	٢٨٢٨	٤,٦	٢١٦٤	٢,٣	٢٦١٧٦	٤٢,٨
١٩٨٣ (٤٤)	٣٠٠٣٢	٤٧,٣	٢٥٥٨٥	٢٤,٧	٢٦٦٣	٤,٢	١٩٩١	١,٩	٢٧٣٦٩	٤٣,١
١٩٨٤ (٤٥)	٣٠٤٤٨	٤٦,٦	٢٤٨٠٦	٢٦,٥	٢٥٢٤	٣,٨	١٩٢٣	٢,٠	٢٧٩٢٤	٤٢,٤

(٤٥) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، النشرة السنوية للإحصاءات الحيوية ، المواليد والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ ، الجدول رقم (٢) و (٧) ، ص ٢ - ٦٤ .

(٤٦) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، النشرة الإحصائية الشهرية للإحصاءات الحيوية ، مارس ١٩٨٦ ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ ، جدول رقم (٧) و (٨) ، ص ٨ - ٩ .

• حيث المعدلات

مكونات النمو السكاني للمهاجرين بدولة الكويت (١٩٥٧ - ١٩٨٥) (٤٦)

جدول رقم (٦)

[illegible]

(٤٧) الأرقام المطلقة مستحقة من التعدادات العامة للسكان

● المعدلات والنسب محسوبة.

جدول رقم (٧)
تطور معدل النمو السنوي للسكان غير الكويتيين (٥٧ - ١٩٨٥) (٤٧)

السكان	عدد السكان الوافدين	الوافدون إلى حصة السكان	مقدار الزيادة بين التعدادين السنويين	معدل الزيادة النسبية بين التعدادين	معدل الزيادة النسبية بين التعدادين	سنة التعداد
١٩٥٧	٩٢٨٥١	٤٥٠	٦٦٨٦١	١٣ ر ٦	٢ ر ٧	١٠ ر ٩
١٩٦١	١٥٩٧١٢	٤٩٦	٨٧٥٥٨	١٦ ر ٨	٣ ر ٢	٨ ر ٦
١٩٦٥	٢٤٧٢٨٠	٥٢٩	١٤٣٩٨٦	٩ ر ٦	٤ ر ١	٥ ر ٥
١٩٧٠	٣٩١٢٦٦	٥٣٠	١٣١٤٨٣	٩ ر ٥	٣ ر ٦	٢ ر ٣
١٩٧٥	٥٢٢٧٤٩	٥٣٥	٢٦٩٥٩٠	٧ ر ٨	٣ ر ١	٥ ر ١
١٩٨٠	٧٩٢٣٣٩	٥٨٣	٢٢٣٦٧٤	١ ر ٥	٢ ر ٤	٢ ر ٧
١٩٨٥	١٠١٦٠١٣	٥٩٩				

(٤٨) المربع السابق

• المدلات حيث

تطور معدلات النمو السنوية للسكان موزعة بحسب المجموعات الجنسية بدولة الكويت في الفترات التعديلية الخمس
جدول رقم (٨)

معدلات النمو السنوية									
معدل نمو إجمالي السكان	معدل نمو السكان الذكور	معدل نمو السكان الإناث	معدل نمو السكان الكهول	معدل نمو السكان الشباب	معدل نمو السكان أطفال	معدل نمو السكان ذوي الاعاقة	معدل نمو السكان ذوي الدخل المنخفض	معدل نمو السكان ذوي الدخل المتوسط	معدل نمو السكان ذوي الدخل المرتفع
١٢.٠	١٢.٧	١٢.٧	١٢.٧	١٢.٧	١٢.٧	١٢.٧	١٢.٧	١٢.٧	١٢.٧
٩.٦	٩.٦	٩.٦	٩.٦	٩.٦	٩.٦	٩.٦	٩.٦	٩.٦	٩.٦
٨.٩	٨.٩	٨.٩	٨.٩	٨.٩	٨.٩	٨.٩	٨.٩	٨.٩	٨.٩
٨.٧	٨.٧	٨.٧	٨.٧	٨.٧	٨.٧	٨.٧	٨.٧	٨.٧	٨.٧
٨.٦	٨.٦	٨.٦	٨.٦	٨.٦	٨.٦	٨.٦	٨.٦	٨.٦	٨.٦

(٤٩) وزارة التخطيط، الإدارة المركزية للإحصاء، المجموعات الإحصائية السكانية ١٩٨٥، العدد الثاني والخمسون، الكويت في التكوين ١٩٨٥، جدول رقم (٩) ص ٢٥
(٥٠) وزارة التخطيط، الإدارة المركزية للإحصاء، التعداد العام للسكان ١٩٨٥، الجزء الأول، الكويت في أبريل ١٩٨٦، جدول رقم ٢٩

التطور المندني والنسبي لقوة العمل الاجابية بدولة الكويت موزعة بحسب مجموعات الدول التي يتبعون اليها في
سنوات التعداد جدول رقم (٩)

سنوات التعداد والعسدد	١٩٦٥		١٩٧٠		١٩٧٥		١٩٨٠ (٥١)		١٩٨٥ (٥٢)	
	العسدد	٪	العسدد	٪	العسدد	٪	العسدد	٪	العسدد	٪
الكويتية	٤٢٠١٥	٢٣,٢	٦١٦٨٢	٢٥,٩	٨٢٩٧١	٢٩,٠	١٠٢٤٧٤	٢٦,٢	١٢٣٥٢٠	١٨,٧
العربية غير الكويتية	٩٦٢٧٢	٥٢,٣	١٢٠٧٨٤	٥٠,٨	١٤٢٧١٨	٤٩,٠	٢٢٨٥٢٥	٤٦,٩	٢٤٤٠٣١	٣٧,٦
الاسيوية غير العربية	٤٠٣٩٢	٢١,٩	٥٠٨٧٣	٢١,٤	٦٢٥٨٦	٢٠,٩	١٤٥٧١٦	٢٩,٩	٢٨١٨٠٦	٤٢,٤
الافريقية غير العربية	٢٧٠	٠,١	٣٠٥	٠,١	١٠٧	—	٨١٠	٠,٢	١٠٢٨	٠,٢
الامريكية والاوربية	١٩٠٧	١,٠	٢٤٨٣	١,٠	٢٠٣٣	٠,٧	٥٥١٩	١,١	٧٦٦٣	١,١
غير مبين	١٢	—	٤٧	—	—	—	—	—	—	—
متنظرون	٢٢٢٦	١,٢	٢٢٢٢	١,٠	١٢٩٤	٠,٤	٣١٧٩	٠,٧	—	—
جملة غير الكويتيين	١٤١٢٧,١	٧٦,٧	١٧٦٨٢٧	٧٤,١	٢١٢٧٢٨	٧١,٠	٢٨٣٧٤٩	٧٨,٢	٥٢٩٠٢٨	٨١,٣
الجملة العمومية	١٨٣٣٠٤	١٠٠,٠	٢٣٨٥٠٩	١٠٠,٠	٢٩٩٧٠٩	١٠٠,٠	٤٨٧٢٢٣	١٠٠,٠	٦٢٢٥٨٨	١٠٠,٠

(٥١) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المصنوعة الاحصائية النسبية ١٩٨٥ ، الربع الثاني ، جدول ١٠٠٩ ، ١١٧ - ١١٨ .

(٥٢) وزارة التخطيط ، الادارة المركزية للاحصاء ، المصنوعة الاحصائية النسبية ١٩٨٣ ، الربع الثاني ، جدول ١٠٠٩ ، ١١٧ - ١١٨ .

(٥٣) وزارة التخطيط ، المصنوعة العام للسكان ١٩٨٥ ، الربع الثاني ، جدول رقم (٢) .

- قوة العمل (١٦ سنة الفوق) في عامي ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ .

- قوة العمل (١٦ سنة الفوق) في اعوام ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .

• حيت النسب .

التطور العددي والنسبي لقوة العمل غير الكويتية موزعة بحسب مجموعات الدول في سنوات
 جدول رقم (١٠)
 ١٩٨٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٦٥

سنوات التعداد والنسبة	١٩٨٥		١٩٨٠		١٩٧٥		١٩٧٠		١٩٦٥	
	عدد	نسبة	عدد	نسبة	عدد	نسبة	عدد	نسبة	عدد	نسبة
مجموعات الدول										
الدول العربية	١٢٩١٠٢٦	٥٨	٢٢٨٥٢٥	٦٩	١٤٦٧١٨	٦٨	١٢٠٧٨٧	٦٨	٩٢٣٧٢	٦٨
الدول الآسيوية	٦٨١٨٠٦	٢٨	١٤٥٩٦٦	٢٩	٦٢٥٨٦	٢٨	٥٠٨٧٢	٢٨	٤٠٢٤٢	٢٨
الدول الأفريقية	١٠٢٨	٠٢	٨١٠	٠٢	١٠٧	٠٢	٣٠٥	٠٢	٢٧٠	٠٢
الدول الأمريكية والأوروبية	٧٦٦٣	٣	٥٥١٩	٢	٢٠٢٣	١	٢٤٨٣	١	١٩٠٧	١
غير معين	—	—	—	—	—	—	٤٧	٠٠	١٢	٠٠
مستظنون	—	—	٣١٧٩	٠١	١٢٩٤	٠١	٢٢٢٩	٠١	٢٢٢٦	٠١
المجموع العمومية	٥٢٩٠٢٨	١٠٠	٢٨٣٧٤٩	١٠٠	٢١١٣٨٨	١٠٠	١٦٨٨٢٧	١٠٠	١٤١٢٩٩	١٠٠

(٤٤) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعات الإحصائية للسنة ١٩٨٢ ، المرجع السابق . جدول رقم ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ص ١٠٦ .

(٤٥) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٥ ، المرجع السابق .

• قوة العمل ١٩٦٥ سنة ١٩٦٥ في عامي ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ .

• قوة العمل ١٩٥٠ سنة ١٩٦٥ في عامي ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ .

• قدرت النسبة .

جدول رقم (١١)
حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود (قادمون ومغادرون) وصافي
الحركة وصافي الهجرة بين التعدادات (١٩٦١ - ١٩٨٤)

صافي الهجرة في الفترة ما بين التعدادات	حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود			حركة السكان غير الكويتيين وصافي الهجرة النتيجة
	صافي الحركة	مغادرون	قادمون	
٨٢٩٩ -	٨٦٧١ -	٢٢٦٦٤٢	٢١٩-٧١	١٩٦١
	٢٠٢٠٢ +	١٦-٧٥٢	١٨١٩٥٠	١٩٦٢
	٢٧٨٢٤ -	٢٨٨٦١٢	٣٦٠٧٨٨	١٩٦٤
	٦٣١ +	٥٧٥٣٤١	٥٧٥٩٧٢	١٩٦٥ (٥٥)
٢٩٤٦٥٢ +	٣٠٧٩٠ +	٦١٥٦٤١	٦٤٦٤٣١	١٩٦٦
	١٣٦٦٨٤ +	٤٦٥٥٢٤	٦٠٢٢١٨	١٩٦٧
	١١٩٦٩٥ +	٦٤٢٠٣٨	٧٦٢٧٣٢	١٩٦٨
	٦٨٥٢ +	٦١٣٣١٧	٦٢٠١٦٩	١٩٦٩
٢١١٩٨٢ -	٤١٠١٧ -	٦٥٨٨٧٩	٦١٧٨٦٢	١٩٧٠
	١٧١٠٠ -	٦٧٤٤٩٥	٦٥٧٣٩٥	١٩٧١
	١٠١٨٩٦ -	٧٩٠٣٢٩	٦٨٨٤٣٢	١٩٧٢
	٣٨٢٨٨ -	٢٠٨٠١٠	٦٦٩٧٣٢	١٩٧٣
٣٢٠٩٢٧ +	١٣٦٨١ -	٧٧١٢٢٦	٧٥٧٥٤٥	١٩٧٤
	٥٤٢٣٠ +	٨٦٣٩٣٠	٩١٨١٦٠	١٩٧٥
	٧٥٥٦٧ +	٩٧١٧٧٧	١٠٤٧٣٤٤	١٩٧٦
	١٤٤٩٣٩ +	١١٦٢٢٥٢	١٣٠٧١٩٢	١٩٧٧
٦٩٥٨٢ -	٧١٩٧٣ +	١٢٧٧٣٠٦	١٣٤٩٢٧٩	١٩٧٨
	٢٥٧٨٢ -	١٢٨٧٠٠٣	١٣٦١٢٢١	١٩٧٩
	٣٦١ +	١٢٦٥٣٧٠	١٢٦٥٣٣١	١٩٨٠
	٩١٨٤٣ +	١٠٩٥٣٢٦	١١٨٧١٦٩	١٩٨١
٣٢٥٧١٥ +	٥٩٠٤٨ -	٩٦٠٤٦	٩٠١٥٩٨	١٩٨٢
	٧٢٣٠٧ -	٨٢٢٣٢٢	٧٩١٠٥٦	١٩٨٣
	٣٠٤٣٢ -	٩٣٠٢٣٠	٨٩٩٧٩٨	١٩٨٤ (٥٦)
	الاحصائي			

(٥٦) من عام ١٩٦١ وحتى عام ١٩٦٥ الأرقام المطابقة للقادمين والمغادرين مستقلة عن المجموعة الإحصائية الشترية لعام ١٩٦٦ ، جدول ١٨ ، ص ٣٩ .

(٥٧) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء . المجموعة الإحصائية للاموال ٧٥ ، ٧٨ ، ٨٤ ، ٨٥ .

• الأرقام المطابقة لصافي الحركة وصافي الهجرة حسب .

صافي حركة السكان غير الكويتيين عبر الحدود موزعة بحسب مجموعات الدول للسنوات
جدول رقم (١٢)
(١٩٧٢ - ١٩٨٤)

سنوات	١٩٧٢ (٥٧)		١٩٧٣	١٩٧٤	١٩٧٥	١٩٧٦	١٩٧٧	١٩٧٨	١٩٧٩	١٩٨٠	١٩٨١	١٩٨٢	١٩٨٣	١٩٨٤
	١٩٨٤	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣	١٩٨٣
الدول العربية	١٣٦٧ +	١٤٠٧٧ -	٢٥٨٠٢ -	٨٧١١٣ +	٨٥١٥ +	٧٢٨٤ -	٧١٤٩٥ +	١٣٦٦٥ +	٤٢٠٢٧ +	٧٧٠٠٣ +	١٢٣٦٤ -	٢٤٧ +	٦٥٠٥١ +	٨٩٦٦٢ -
الدول الآسيوية	٣-٢٢٤	١٠٤٥٥ -	٢٤٧٨٢ -	١٣٦٠٨ -	١٥٩٤٨ +	١٢٧١ -	٨١٨٠ +	٢٢٢٠٧ +	١٥٣٦١ -	١٨٦ +	١٢٣١٤ -	٥٢٥٥ -	١١٥٠٠ -	١١٥٠٠ -
الدول الأفريقية	١٠ -	٥١٦ -	١٨٢ -	١١٩ +	٢٦ +	٤٧ +	٧٣ +	٣٦٩ -	١٣٩ -	١١٥ +	٧٩ -	١١٥ +	١٠٠ +	١٠٠ +
الدول الأوروبية	٥١٦٦ -	٥٤٨٢ -	٢٢٢٢٢ +	١٣٣٢٢ +	٥١٢٩ +	١٧٥٨ +	٢٩٩٤ +	١٠٧٢٠ -	١٠٧٢٠ -	٩٠٧٢ +	١٣٦٦ +	١٥٠٤ +	١٣٦٦ +	١٣٦٦ +
الدول الأمريكية	٧٢٩ -	١٠٦٩ -	٧٢٠ -	٢٦٠٢ -	١١٤٦ -	٣٧٠ -	٤٢٦٠ +	١٤٥ +	١٥٩٩ -	٢٠٨ -	٢٢٦ +	٢٢٦ +	٢٨٤ +	٢٨٤ +
دول أخرى	٥ +	٣٧٨ -	١٥٨ -	٨٨٢ +	٢٧٦ +	٤٥ -	٢٢٢ -	٩٦ +	٢٢٤ +	٢٢٤ +	٢٥ -	٢٨٢ +	٧٢ -	٧٢ -
حالة غير مفككة	٢٠٠٢٢ -	٢٢٢٠٧ -	٥٩٠٤٨ -	٩١٨٨٢ +	٢٦١١ +	٢٥٧٨٢ -	٢٩٩٧٣ +	١٤٤٢٩٩ +	٧٥٥٢٧ +	٥٤٢٢٠ +	١٣٦٨١ -	٦١٧١٢ +	١٠١٨٦٦ -	١٠١٨٦٦ -

(٥٨) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية لإحصاء المجموعات الإحصائية السنوية ، ١٩٨٢ ، القاعد للناشر عشر ، الكويت في ديسمبر ١٩٨٢ ، جدول رقم ١٨٧ ، ١٨٨ ، ص ٢٢٢ .

(٥٩) وزارة التخطيط ، المجموعات الإحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المربع السابق ، جدول رقم ١٨٥ ، ١٨٦ ، ص ٢١٨ .

(٦٠) وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية لإحصاء المجموعات الإحصائية السنوية ١٩٨٥ ، المربع السابق ، جدول رقم ١٨٩ ، ١٩٠ ، ص ٢٢٦ .

جدول رقم (١٣)
نسب حالات منح تصاريح الإقامة للمواطنين حسب مجموعات الدول في السنوات ١٩٧٣ - ١٩٨٢

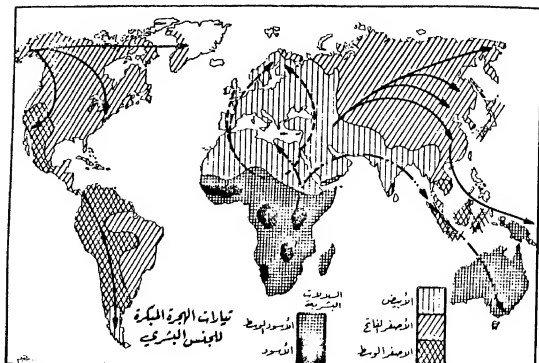
مجموع تصاريح الإقامة (مستند)	نسب حالات منح تصاريح الإقامة %						السنة
	العموم	الغربية	الشرقية	الروسية	الفرنسية	الاسبانية	
٣٤٧٨٢	١٠٠.٠	٠.٢	٠.٢	٢.٢	٠.٢	٣٦.١	١٩٧٣
٤٦٤٣٥	١٠٠.٠	٠.٦	٠.٦	٢.٠	٠.٥	٢٨.٨	١٩٧٤
٧٣٤٣٥	١٠٠	٠.٦	٠.٦	٢.٢	٠.٤	٢٤.٨	١٩٧٥
٨٠٢٤٠	١٠٠	٠.١	٠.٧	٢.٨	٠.٢	٢٩.٢	١٩٧٦
١٢٨٧١٩	١٠٠	٠.٥	٠.٩	٢.٢	٠.٢	٢٨.٤	١٩٧٧
١٤٠٦٩١	١٠٠	٠.٢	٠.٦	٢.٠	٠.٢	٤٤.٨	١٩٧٨
١٠٢١٠٩	١٠٠	٠.٣	٠.٧	٢.٠	—	٤٩.٦	١٩٧٩
٩٩١٦٢	١٠٠	٠.٤	٠.٦	١.٨	—	٤٦.٩	١٩٨٠
٩٤٧٦٢	١٠٠	٧.١	٠.٦	١.٣	—	٤٩.١	١٩٨١
١٤٥٨٤١	١٠٠	٨.٨	٠.٥	١	—	٥٣.٥	١٩٨٢

(١٣) حسب الوزارة في الجدول المرفوع إلى المصنف التالي :-
وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، الميوزيم الإحصائية السنوية ١٩٨٣ ، المربع السابق - جدول رقم (٣٣) - ص ٤٤٩ .

ملحق الخرائط والاشكال البيانية

فهرست الخرائط والأشكال البيانية

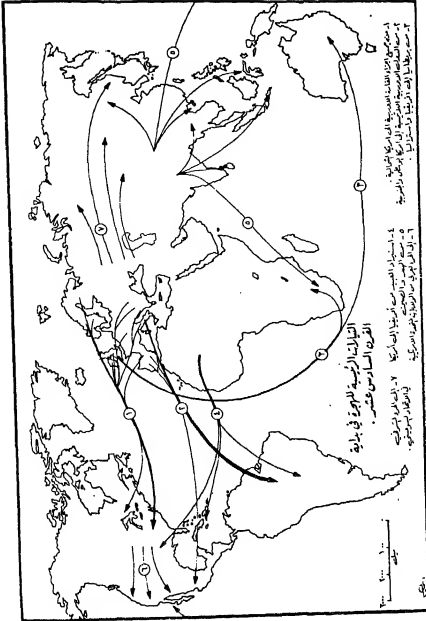
الرقم	العنوان	رقم الصفحة
١ -	تيارات الهجرة المبكرة للجنس البشري .	
٢ -	التيارات الرئيسية للهجرة في بداية القرن السادس عشر .	
٣ -	تيارات الهجرة الدولية في القرن العشرين .	
٤ -	التدفقات الدولية لهجرة القوى العاملة في بداية الثمانينات من هذا القرن .	
٥ -	مصادر الهجرة الرئيسية الى الكويت في الفترة من ١٩١٧ - ١٩٥٧ .	
٦ -	مصادر الهجرة الرئيسية الى الكويت (٧٠ - ١٩٧٥) .	
٧ -	نسبة صافي الهجرة موزعة بحسب المجموعات الجنسية في الفترة الزمنية (١٩٧٥ - ١٩٨٠) .	
٨ -	نسبة صافي الهجرة موزعة بحسب المجموعات الجنسية في الفترة (١٩٨٠ - ١٩٨٥) .	



شكل (١)

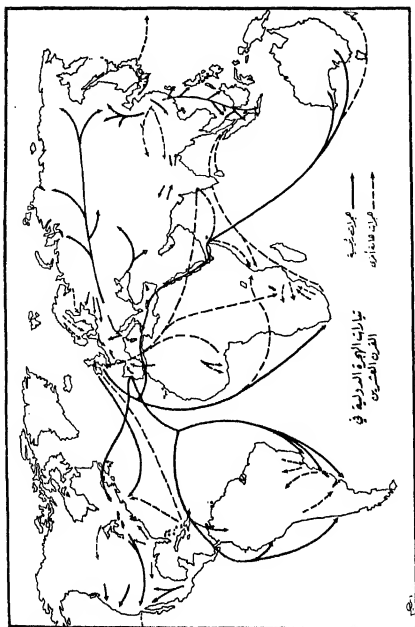
الصفحة -

— Samuel N. Dicken, Forrest R. Pitts, Introduction To Cultural Geography, u.s. of America, 1970, Figure 3.2, p. 37.



شكل (٦)

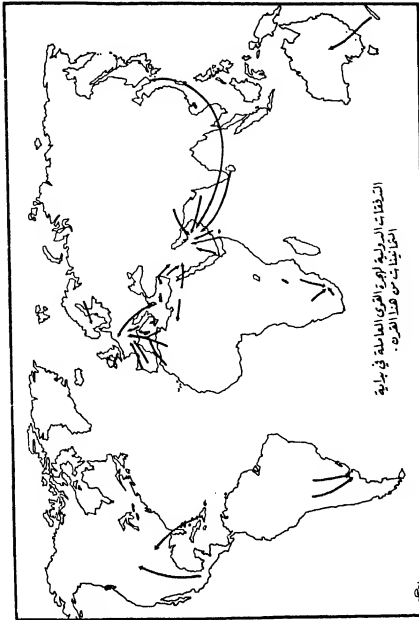
— Op. Cit. Figure 4.1, p. 45.



شكل (٣)

المصدر :

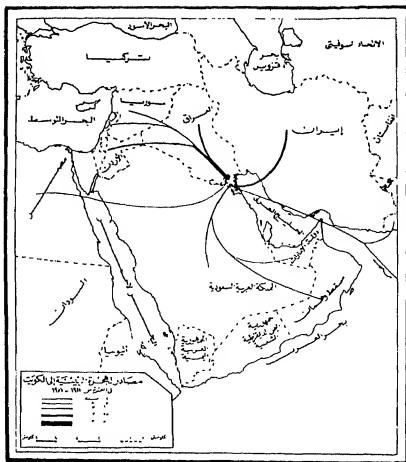
— Charles Whyte Hammond. Elements Of Human Geography, Second Edition, London, 1985, Figure 6.3, p.61.



شكل (١)

المصدر :

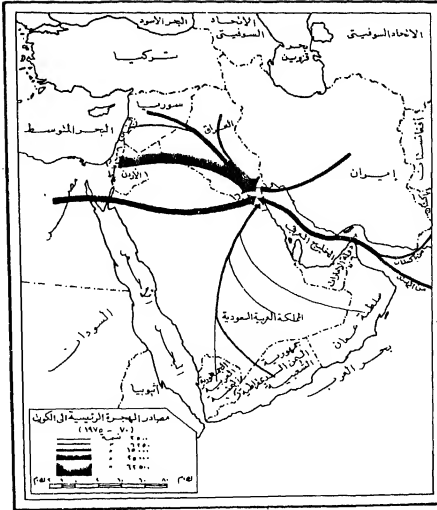
— James L. Newman, Gordon E. Matzke, *Population, Patterns, Dynamics, and Prospects*, U.S. Of America, 1984, Figure 7.13, p.185.



شكل (٥)

مصدر هذه الخريطة :

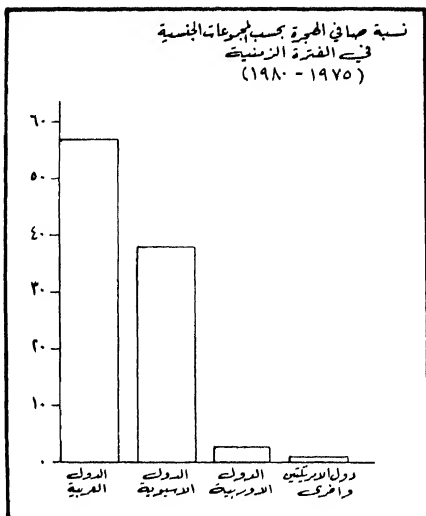
- أحمد حسن إبراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٢) ، الكويت ١٩٨٥ ، شكل رقم (٦) ، ص ٤٧ .



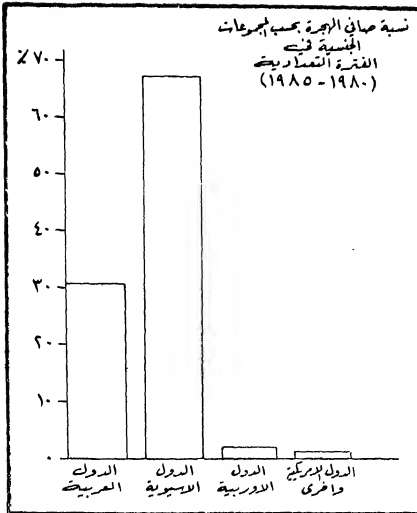
شكل (٦)

مصدر هذه الخريطة :

- احمد حسن ابراهيم ، المرجع السابق ، شكل رقم ٧ ، ص ٤٩ .



شكل (٧)



شكل (٨)

المصادر

أولاً : المصادر العربية :

- ١ - أحمد حسن إبراهيم ، سكان الكويت ، دراسة جغرافية ، منشورات مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية رقم (١٦) ، الكويت ١٩٨٥ .
- ٢ - أحمد علي إسماعيل ، أسس علم السكان وتطبيقاته الجغرافية ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ، ١٩٨٢ .
- ٣ - حسن الهادي ، الجنسية ومركز الأجانب وإسكانها في القانون الكويتي ، الكويت ١٩٧٣ .
- ٤ - محمد غانم الفريحي ، البترول والتشجير الاجتماعي في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٥ .
- ٥ - مساعد حسن العميم ، العوامل المحددة لمستويات الاستخدام ومعدلات مختلف أنواعات الهجرة . (دراسة حالة الكويت) ، الكويت في أغسطس ١٩٨٥ .
- ٦ - مساعد حسن العميم ، الوضع السكاني لدولة الكويت ، وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، الكويت في يناير ١٩٨٤ .
- ٧ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، التعداد العام للسكان ١٩٨٠ ، تحليل البيانات ، الدراسة الرابعة ، خصائص وتغيرات صافي الهجرة لدولة الكويت ١٩٧٥ .
- ٨ - الكويت في يوليو ١٩٨٣ .
- ٩ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، تعدادات السكان بدولة الكويت للاعوام ١٩٥٧ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٥ ، ١٩٧٠ ، ١٩٧٥ ، ١٩٨٠ ، ١٩٨٥ .
- ١٠ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، المجموعات الإحصائية السنوية للاعوام ١٩٦٦ ، ١٩٧٥ ، ١٩٧٨ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ ، ١٩٨٥ .
- ١١ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، دليل نظام الإحصاءات الحيوية بدولة الكويت ، الكويت في يونيو ١٩٨٤ .
- ١٢ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، النشرة السنوية للإحصاءات الحيوية ، الواليد والوفيات ١٩٨٣ ، الكويت ١٩٨٤ .
- ١٣ - وزارة التخطيط ، الإدارة المركزية للإحصاء ، النشرة الإحصائية الشهرية للإحصاءات الحيوية ، المجلد السابع ، العدد ٣ ، الكويت ١٩٨٦ .
- ١٤ - وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، إدارة تنظيم القوى العاملة ، مراقبة الاستخدام ، التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة عام ١٩٧٨ ، الكويت في يناير ١٩٧٩ .
- ١٥ - وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل ، إدارة عمل محافظة العاصمة ، مراقبة الاستخدام التقرير السنوي لنشاط الاستخدام والسمات الأساسية للعمالة الوافدة للاعوام ١٩٨٠ ، ١٩٨١ ، ١٩٨٢ ، ١٩٨٣ ، ١٩٨٤ .

ثانياً : المصادر الاجنبية :

- 1 - Bogue, D.J. Principle of Demography, Wiley, New York, 1969.
- 2 - Bogue, D.J. Techniques and Hypotheses for the study of Differential Migration: Some Notes from an Experiment with United States data, proceedings of the international conference, 2, session 4, No. 114, 1961.
- 3 - Cebula, R.J. The Determinations of Human Migration, Lexington Books, Lexington, Mass, 1980.
- 4 - Charles Zhyenne Hammond, Elements of Human Geography, second Edition, London, 1985.
- 5 - Eversley Lord, "The Decline in the Number Agricultural Labourers in Great Britain" Journal of the Royal Statistical Society, 10, England, 1907.
- 6 - G.J. Lewis, Human Migration, London, 1982.
- 7 - Haggett, P. Locational Analysis in Human Geography, Edward Arnold, London, 1965.
- 8 - Henry S. Shryock, Jacob S. Siegel and Associates, Studies in Population, the Methods and Materials of Demography, condensed Edition by Edward G. Stockwell, Academic Press, Ohio, New York, 1976.
- 9 - Herberle, R. The Causes of the rural — Urban Migration: A Survey of German Theories, American Journal of Sociology, 43, 1938.

- 10 - James L. Newman, Gordon E. Matzke, Population Pattern, Dynamics, and Prospects, U.S. of America, 1984.
- 11 - John I. Clarke, Population Geography, 2nd Edition, England, 1972.
- 12 - Lee, E.S. A Theory of Migration, Demography, 3, 1966.
- 13 - Pryor, R.J. The Motivation of Migration, Studies in Migration and Urbanization, No. 1, Department of Demography, Australian National University, Canberra, 1975.
- 14 - Samuel N. Dicken, Forest R. Pitts, Introduction to Cultural Geography, U.S. of America, 1970.
- 15 - Thomas, B. Migration and Economic Growth, Cambridge University press, Cambridge, 1959.
- 16 - United Nations: Analytical Bibliography of Statistics on International Migration Statistics, 1925 - 1950, population studies, series A. No. 24, 1955.
- 17 - United Nations, Economic Characteristics of International Migrants, statistics for selected countries, 1918 - 1954, population studies, series A. No. 12, 1958.
- 18 - United Nations, Sex and Age of International Migrants for Selected Countries, 1918 - 1947, population studies, series A. No. 11, 1953.
- 19 - Zelinsky, W. "The hypothesis of the mobility transition," Geographical Review, 61, 1971.



شخصيات وآراء

قد يكون سائداً أن بعض الأذهان أن العرب القدامى . ولا سيما في العصر الجاهلي وعصر صدر الاسلام ، كانوا على الاطلاق أرباب فصاحة وبلاغة ، ينظمون الشعر ويرتجلون الخطب ، ويتحدثون في حياتهم دون خطأ ولا لحن . هذا الاعتقاد ، إن صح في مجلته ، فإنه غير صحيح على إطلاقه ، وهو ينطوي من بعض وجوهه على نظر .

وفي اعتقادنا أن الرواة الأوائل في مستهل حركة التدوين النشطة عند العرب ، كانوا على قدر من الحيرة تجاه عدد وافر من النصوص التي كانت تنطوي على عبارات تفتقر إلى الاطراد والاتساق من الوجهة اللغوية النحوية . ثم ما لبثت هذه التركة الحافلة أن آلت إلى اللغويين والنحاة وجعلتهم في غمار ركام هائل من كلام العرب ، منظومه ومنثوره . وما كان أشق عليهم أن يلمسوا جنبات هذا الخليط من كلام القبائل ويقايها لهجاتها ، ويشرعوا في تلك المهمة التاريخية العسيرة ، مهمة الجمع ثم التقعيد .

ومعلوم في تاريخ التراث العربي أن أبا عمرو الشيباني وحده ، جمع شعر ثمانين قبيلة ، وأن أبا سعيد السكري أيضاً جمع شعر خمس وعشرين قبيلة ، عدا ما جمعه الآخرون مثل الأصمعي وابن الأعرابي .

ومع ذلك ، ومن خلال تلك الجهود العلمية الدأبية ، بدا جلياً أن أولئك النحاة واللغويين ، برغم إنجازاتهم الباهرة على ذلك الصعيد ، قد لقوا عتاً في تلك المسيرة العلمية الوعرة . لقد استوعبوا أساليب التعبير عند العرب وأقلحوا في استقراؤها ، حتى تم لهم نظمها في قواعد مطردة جمّة ، بفضل جنوحهم إلى منهج علمي شديد تجلّ باعتمادهم مبدأ القياس . على حين استعصت عليهم في الوقت نفسه أساليب قليلة أخرى ، فظلت خارج إطار التقعيد ، وكأنها الأطياف التي انشقت

اللفة المحكية في أرب الجامظ

عمر الدقاني

بلغاتهم . ولهذا كانت قبيلة هذيل التي سكنت في ربوع مكة والطائف - وهي تمت إلى قريش بأقوى نسب - في رأس القبائل التي يؤتى بشعرائها ويحتج بأقوالهم في مجال اللغة والنحو والتصريف ، شأنها في ذلك كشأن قريش وقيس وأسد وحميم ، وبعض كنانة وطىء . . . على حين امتنع هؤلاء العلماء عن الأخذ بأشعار إيراد وتغلب ، كما أحجموا عن الاستشهاد بشعراء لحجم وغسان لمجاورة المناذرة والغساسنة بلاد الأعاجم من فرس وروم .

كل ذلك يعني أن نظرة النحويين واللغويين إلى أسلافهم العرب لم تكن - برغم إجلالهم الشديد لهم - نظرة واحدة مطلقة ، وإنما كانت نظرة مفاضلة وتقويم ، أساسها التحليل والتحليل .

ومن الطبيعي في كل مجتمع أن ينظري أفراداه على تباين في المدارك العقلية ، وفي الطبايع النفسية ، والأحوال المعيشية ، وأن يستتبع ذلك أيضا تباين على صعيد التعبير اللغوي والأداء الفني . وقد روى لنا رواد التأليف الأدبي والنحوي عند العرب أن اللحن كان موجودا منذ فجر الإسلام وإلى عهد الفتح الذي شهد احتكاكا كبيرا بين العرب وسائر الأمم . . . حتى أن من الأعراب من كان يتلو بعض آيات التنزيل الحكيم على نحو خاطئ ، ينم عن جهل بمضمونها . وقد بلغ مرة مسامع عمر بن الخطاب أن أحد المسلمين كان يؤم المصلين ويلحن في بعض آيات القرآن ، فغضب الخليفة لذلك وأزاحه عن الإمامة .

وفي كتب السالفين أخبار جمة في موضوع اللحن واللاحين ولا سيما ما كان يصدر عن بعض الكبراء في تلك العصور المتقدمة . من ذلك أن زياد بن أبيه - والي العراق - أوفد ابنه عبيد الله إلى الخليفة معاوية ، فكتب إليه معاوية : « إن ابنك كما وصفت ، ولكن قوم من

عن سربها ، وانحرفت عن مسارها لتحلق في أجواء مغايرة . وقد ارتضت جهره نحاة الكوفة هذا الواقع اللغوي الموروث ، ولم تجد فيه شذوذا ولا انحرافا ، بل جعلته في منزلة تقارب منزلة المطرد . وما من ريب في أن منطلق كثير من قدامى اللغويين في هذا الصدد ، إنما كان حسن الظن المطلق بالعرب السالفين إلى مدى يقارب العصمة ، وأن كلامهم يتسم إطلافا بالصحة والسلامة والكمال ، لأنهم أهل فطرة وذو سليقة . على حين كان ثمة علماء آخرون ، ولا سيما من أصحاب المذهب البصري أقرب إلى الحقيقة ، إذ عدوا بعض ما كان من هذا القبيل شاذا لا يعتد كثيرا به . وأغلب الظن أن جهره النحاة ، تحت تأثير مشاعر الاجلال تجاه الأجداد الأقحاح ، لم يشأوا الذهاب إلى أبعد من هذا المدى ، حين كبر عليهم أن ينسبوا إلى بعض العرب الخطأ ويصومهم باللحن ، مع أن مثل ذلك قد يعرض لأي ناسق ، ولا شيء يمنع وقوعه في العقل ولا في الواقع . والمرء - مها تبلغ منزلته من الدراية - غير معصوم من الزلل ، وما كل القدامى على مستوى عال من سلامة القول ، كما أنهم ليسوا جميعا على قدر رفيع من بلاغة التعبير .

ومن جهة أخرى فإن فقهاء اللغة العرب أنفسهم لم يسووا ، في مجال الاحتجاج ، بين قبائل العرب ويجعلوهم على صعيد واحد . لقد عدوا إلى تصنيف هذه القبائل في سلم الفصاحة ، فأحلوا بعضها في منزلة عالية ، كما أباحوا الاستشهاد بأشعارها على نحو مطلق ، على حين وقفوا تجاه قبائل أخرى موقف الريب ، ونحرجوا من الأخذ بكلامها والاستشهاد بأشعارها . وكان منطلقهم في ذلك كله ركنيا ، قوامه دراسة موطن القبيلة على الصعيد الجغرافي ، وملاحظة مدى صفاء لغتها تبعا لبعدها أو قربها من تخوم الأعاجم ، واحتمال احتكاكها بهم ، وتأثير لغتها

طريقة برغم فشو العامية بينهم ، وقلة تفرسهم بأصول اللغة وقواعد النحو .

ويبدو أن سمة الفصحاة غدت في عهد مبكر من العصور العربية مطلباً بعيد المثال حتى لقد عز وجود من كانوا يارثين من اللحن بين الفصحاء ، ولا سيما من أهل المدن ، وقد روي عن أبي عمرو بن العلاء أنه قال^(١) : « لم أر قرويين أفصح من الحسن البصري والجاحج ، وكان أبو عمرو - على ما زعموا - لا يبرئها من اللحن . وزعم أبو العاصي أنه لم ير قروياً قط لا يلحن في حديثه » .

وما اللغة العربية في هذا المجال - شأنها في ذلك كشأن سائر اللغات - سوى ظاهرة اجتماعية ، ولهذا تمت وازدهرت ونضجت ، كما اعتراها في الوقت نفسه بعض الفساد وشابها شيء من الخلل . كذلك يوسعنا أن نرجح - تبعاً لذلك - أنه كانت هناك في بواكير الوجود العربي لغتان أو لهجتان ، أو بكلمة أدق ، كان هنالك على هذا الصعيد اللغوي مستويان ، إذ لم يكن يتخلو كلام بعض السالفين من الغرابة اللفظية . وهذا كله لا يسمح بالاعتقاد أن لغة العرب القدامى كانت على درجة واحدة من الاطراد والاستواء ولا من السلامة والنقاء .

كان شعر الفرزدق في عصر بني أمية يمثل الطابع الرصين بجزالة ألفاظه ، فنعته النقاد بأنه كمن ينحت من صخر ، على حين كان شعر جرير في الطرف الأسلوبى الآخر . لسهولة لفظه ورقة عبارته ، فنعته النقاد بأنه يغرف من بحر . وكان طبعياً في هذا الصدد أن تروى أشعار الفرزدق صفوة الرواة وخاصة العلماء ،

لسانه^(٢) ، وكانت فيه لكثرة إذ نشأ مع أمه بين أعاجم البصرة . وقد قال عبيد الله مرة لأعوانه : « افتحوا سيوفكم » ويريد : « سلوا . . . »^(٣) .

كذلك سأل معاوية جماعة من أهل العراق عن حال ولده عبيد الله وكان واليهيم ، فقالوا : « ظريف ، على أنه يلحن »^(٤) .

وروي أن بشر بن مروان وإلى الكسوفة وشقيق عبد الملك ، قال مرة لغلامه ، وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً : « ادع في صالحنا » فصاح الغلام : « يا صالحنا » ، فقال له بشر مصححاً : « ألق منها ألف » عندئذ تدخل عمر بن عبد العزيز لدى سماعه الخطأ ، فقال مصححاً : « وأنت فزد في ألفك ألفا » . ويشر أموي قرشي .

وقيل يوماً لأبي حنيفة : « ما تقول في رجل أخذ صخرة ، فضرب بها رأس رجل فقتله ، أتقيد ؟ » قال : « لا ولو ضرب رأسه باباً قبيس » أي بجمل في مكة اسمه أبو قبيس^(٥) . وقد عقد الجاحظ في كتابه « البيان والتبيين » فصلاً أورد خلاله الكثير من أخبار اللاحنين في تلك العهود القديمة .

وقد لاحظ الجاحظ أنه^(٦) : « لأهل المدينة السن ذلقة وألفاظ حسنة ، وعبارة جيدة . واللحن في عوامهم فاش ، وعلى من لم ينظر في النحو منهم غالب » . فالجاحظ يميز بين الفصحاة - وهي تكاد تقتصر على أهل البادية لنقاء لغتهم - وبين البلاغة ، وهي سمة أموهية قد يتحلل بها أهل المدن ، فيبدعون عبارات جميلة وصوراً

(١) البيان والتبيين ، الجاحظ ٢ : ٢١١ ت : عبد السلام هارون . القاهرة ١٩٤٨ .

(٢) البيان والتبيين ٢ : ٢١١ .

(٣) كتاب الأمالي ، أبو علي الغالي ١ : ٥ دار الكتب المصرية ١٩٥٣ .

(٤) البيان والتبيين ٢ : ٢١٢ .

(٥) البيان والتبيين ١ : ١٧٢ .

(٦) البيان والتبيين ١ : ١٨٩ .

يعكس في كلامه آراء كثيرين عن لم يجدوا أنفسهم في شعر أبي تمام .

وثمة أمثلة متناثرة في كتب المتقدمين تشير إلى هذه الثنائية في الأدب ، ثنائية العسر واليسر ، من مثل قول أحد الأعراب حين استمع إلى أبيات عويصة المعاني لأحد المحدثين فعرس عليه فهمها وتذوقها ، فقال بامتعاض : « إن كان هذا شعرا فكلام العرب باطل » .

وكانت فئة الرجاز في العصر العباسي غثلى أشد الأساط الأدبية عاقطة وأكثرهم تشبهاً بجزالة اللغة وغبابة الفاظها ، وكانهم البداية الذين استعصوا على التخصر ، وهكذا كانوا يعيشون في الظل ، ويحجون على هامش الحياة الأدبية المواراة ، لفلة احتفال جبهة الجبل بمنظومهم وإشاحة وجهه عنهم . فكانت أراجيزهم أبعد عن أن تكون فنا شعبيا يستهوي جماهير الناس .

أما تيار الشعر المحدث فقد غدا بسماحة عبارته دافقا ، إذ تجلى لدى غالبية شعراء ذلك العصر ، مثل بشار وأبي العتاهية ثم البحري وابن الرومي ، وسائر الشعراء المحدثين الذين سارت أشعارهم على السنة جيل المتأدبين . وقد ذهب بعض هؤلاء الشعراء إلى مدى أبعد حين جنحوا إلى نظم المقطعات ، وزهدوا في نظم الملولات ، وحين آثروا البحور القصيرة المجزوءة دون أن يقتصروا على البحور الطويلة التامة ، وأكثر أولئك المحدثين ولا سيما الذين عاشوا في قلب المدينة وفي صميم الحضارة راقهم نظم مقطعات من خفافت الشعر ، مواكبة منهم لتيار الحدادة ، وكان قوامها إثارة السهولة في اللفظ والتبس في التعبير . ومن هذا القبيل قول بشار بن برد في امرأة اسمها « حنى » (٧) .

لما تنطوي عليه من قوة سبك وما تحويه من جزالة لفظ ، على حين كانت جبهة الجبل عهدت لأنس بشعر جرير لما ينطوي عليه من سلاسة وعذوبة ، ورقة وسهولة ، وهكذا سارت أبياته بين الناس ، وأخذ كل فرد يترنم بها لأنها ألصق بالمشاعر ، وأقرب إلى الطبع ، وأجرى على اللسان . وهذا يعني أن لغة الشعر ازدادت قربا من أذهان العامة ومداركهم ، واشتد اختلاطها بنفوسهم وأذواقهم . . .

ثم بلغت هذه الظاهرة أشدها في العصر العباسي ، حين جنح الشعر المحدث إلى مزيد من الرقة واليسر ، كما مالت أوزانه وقوافيه إلى الاقتضاب والحقفة .

وإن ما لقيه شعر جرير من سعة الذبوع والانتشار في العصر الأموي لقيه بعد ذلك أيضا شعر البحري في العصر العباسي ، وذلك بفضل سهولة شعره وملاءمته لغالبية الأذواق . أما شعر معاصره - أبي تمام - الذي قد يشبه من بعض الوجوه شعر الفرزدق ، فكان ينطوي على قدر من غرابة الألفاظ وجزالتها فضلا عن عمق المعاني وبعد الصور ، وهذا ما حد من سيرورة شعره بين جبهة الناس وكاد يقصره على الصفوة من المثقفين والخاصة من العلماء . وربما كان من مؤشرات ذلك بالنسبة إلى شعر أبي تمام موقف أبي العميل تجاهه ، حين تصدى له خلال إلقاء بعض شعره وقال على ملا من المجلس : « يا أبا تمام لم لا تقول ما يفهم . . . ؟ » . وهذه في حقيقة الأمر كلمة حق برغم أنه ربما أريد بها باطل . كما ينبغي هنا ألا يجرفنا عن هذه الحقيقة ما تنطوي عليه عبارة الشاعر أبي تمام من استهواء ، من خلال جوابه الذكي ورده المسكت حين قال على البداية : « ولكن ، لم لا تفهم ما يقال . . . ؟ » . فأبو العميل برغم ما قد ينطوي عليه من تحامل إنما كان

شروطا واسعا ، ولا سيما حين كان يقتضيه الحال رواية الكلام منسوبا إلى أهله من أوساط الناس أو من عائلتهم أو من سوقتهم . ولعل أكثر ما يرد على قلمه من هذا القبيل ما كان يدور على ألسنة الناس في لغتهم المحكية عبر حياتهم اليومية . ومما جاء في بخلاء الجاحظ على لسان موسى بن عمران^(١٠) فيما نعهده من لغة الحديث : « طعام الاثنين يكفي الثلاثة ، وطعام الثلاثة يكفي الأربعة » ، ثم يقول : « لولا أنك تريد أكثر » ، ويقول : « مأكك رغيف ومعك رغيف » . ويقول : « ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه » .

وأهمية العبارة لدى الجاحظ أنها تشف عن طبيعة نفوس أصحابها ويتم على وضعهم الاجتماعي ، فالثوري مثلا يقول لعاليه^(١١) : « كلوا الاقالا بقشوره » ، فإن الباقي يقول : من أكلني بقشوري فقد أكلني ، ومن أكلني بغير قشوري فأنا الذي أكله » وكان في هذا الكلام نمطاً من الحكمة البسيطة المستمدة من تجربة العيش يسوقها الثوري في إطار تسويغه لظاهرة الجحرس أو البخل لديه عموماً من خلال ذلك إقناع عياله بأن المرء يكون أكلاً حقاً ومتفعلاً تمام الانتفاع بطعامه إذا أكل الاقالا مع قشورها ، ولكنه حين يكتفي بأكل اللب ويرمي القشر فقد مني بخسران ، وكأنه أصبح مأكولاً لأنه بذلك خسر من حر ماله .

ويدأب الجاحظ على إسماعنا كلام أصناف من الناس الذين يسعون إلى رزقهم وعيشون في حاراتهم ويتحدثون في بيوتهم ، كأن يقول واحد منهم : « هات شيئا من قلية »^(١٢) ، أو يقول سواه : « تعشيت الباردة

قل لحبي قريبيني أنت نفسي وحياتي وموسمي حين أغلقد وحديثي في صلاتي وقول أبي العتاهية في أرجوزته « ذوات الأمثال »^(١٣) : إن الشناب والفرافج والجددة مفسدة للمرء أي مفسدة

أو قوله في موضوع الزهد :

أحسن الله بنا أن الخطايا لا تفوح
كيف إصلاح قلوب إنما هن قروح ؟ ..
فهذه أشعار منظومة ولكنها شديدة القرب من لغة الحديث . ولعل أبا العتاهية كان يمثل قمة هذه الظاهرة ، أو ذروة هذا التيار ، حين حاول أن يتخذ في شعره من السهولة والرقّة والوضوح مذهبا ، وحرص على أن يسوق معظم مقطعاته وقصائده في هذا المنحى . والذي يزيد في أهمية ذلك أن هذا الشاعر كان يعي طبيعة النزعة الفنية المحلثة في أدب هذا العصر ولا يتفأ يقول^(١٤) : « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعرا لعلت » .

مشكلة لغة الحديث في الأدب

وفي مضممار النثر العربي حدث ما يقارب ذلك في العصر العباسي أيضا ، حين تبدلت حاله ، فتواری التجهم والتعقر ، وساد اليسر والترسل ، كما انزوت الخطابة بقوة نبراتها ، وتألقت الكتابة برقة جنباتها . ويعد الجاحظ أبرز من يمثلون هذه الظاهرة في النثر العربي ، حتى باتت بفضل كتاباته ولا سيما في نوادره عن البخلاء أشبه باتجاه مسائد وتيسار غالب . وقد خطا الجاحظ في مضممار السهولة واليسر وبجال العفوية والطبع

(٨) قبل أن هذه الأرجوزة بلغت ثلاثة آلاف بيت ، غير أن ما بين أيدينا منها يقع عشرات من الأبيات موجودة في آخر الديوان ، بتحقيق لويس شيخو ، بيروت ١٩١٤ .

(٩) البيان والنبين ١ : ١١٥ .

(١٠) كتاب البخلاء ، بتحقيق طه الجابري ١٨ - ١٩ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(١١) البخلاء ١٠٣ .

(١٢) البخلاء ٩٧ .

فأصبر عني وجهك . . . »^(١٧)، فعبارة « عينك مألحة » أو « مستصيني بعين » وما إليها ، ليست من صور التعبير عند الشعراء ولا الكتاب ، ولكنها من صور اللغة المحكية لدى جمهور الناس . ومن هذا القبيل قول الثوري لمن معه^(١٨) : « الشحم يفرح القلب ، ويبيض الوجه ، والنار تسود الوجه » أو قول آخر جلس إلى خوان فأعجبه ما رأى فوقه من خبز شهى : « كل رغيف في بياض الفضة » . . . وما إلى ذلك من صور التعبير المعهود في لغة الحياة اليومية .

والجاحظ مراعاة منه لواقع حال شخصه ، وأكثرهم من عامة الناس ، يدير على ألسنتهم ألفاظا قد تبدو للوهلة الأولى عامية وما هي بذلك ، إنه يؤثرها لما تنطوى عليه ، فضلاً عن دلالتها ، من إحياء ينم على طبيعة المتحدث ، كما أثر كلمة « نشال » على كلمة لص في إيرادها لقول أحدهم^(١٩) : « الفقى لا يكون نشالا . . . » أو استخدامه كلمة « قدام » في قول الآخر^(٢٠) : « . . . رغيف كل منا قدام صاحبه . . . » وأيضاً استعماله عبارة « تحلحل لي سن »^(٢١) . فلكل من هذه الألفاظ ظلال لا تتوفر في سواها من المترادفات الأخرى .

ويمضي الجاحظ في اصطناع اللغة المحكية مشكلة لحال شخصياته المواردة في نواذيرهم ومواقفهم ، فيبلغ في ذلك مدى بعيداً حين ينطق بعضهم باللفاظ دارجة على

في البيت^(٢٢) ، أو يطلب غيره حاجة من الآخر : « أعزني مفاكم »^(٢٣) . وقد يجاور رجل جاريته بأبسط الكلام ونحيبه بمثل ذلك ، كشأن يوسف بن كل خير بعد أن تغدى فأتاه ضيف فرحب به وقال : « باجارية هاتي لابي الحسن غداء » ، قالت : « لم يبق عندنا شيء »^(٢٤) .

وعلى هذا الغرار من لغة الحوار الجوزج الذي يدور عادة بين اثنين يقبل خراساني عابر على إبراهيم بن السندي وهو يتغذى في ركن منزول داخل بستان ، فيسأله ابن السندي بدهشة^(٢٥) : « تريد ماذا ؟ » فيقول : « أريد أن أتغدى » . إنها عبارات مقتضبة تتوالى سريعاً بين المتحاورين على هذا النحو من السرعة والبداهة . ومن هذا القبيل من اللغة المحكية ببساطتها وعفويتها قول كاتب لكاتب دولة : « اكتب لي خطين ورغيني منه » .

وكثيراً ما نثبن في كلام المتحاورين الذين ينطقهم الجاحظ ملامح لغة خاصة لفئة من المجتمع لها صفاتها وأساليب عيشها وأنماط سلوكها . فقد ينشأ شجار بين رجلين لتباين في المنازع وتعارض في المواقف ، من مثل ما حدث لاثنتين كانا وحدهما في زورق فشرع البخيل واسمه رمضان يأكل ويلتهم زاده ، ورفيقه ينظر بشرة لا يستطيع له دفعا ، ثم قال رمضان وقد أحس بنظراته : « أنا رجل حسن الأكل لا أكل إلا طيب الطعام » . وأنا أخاف أن تكون عينك مألحة وأنتك مستصيني بعين ،

(١٣) البخل ٤١ .

(١٤) البخل ٤٣ .

(١٥) الديار والتبين ١ : ١٦٢ تحقيق عبدالسلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .

(١٦) البخل ٢٥ .

(١٧) البخل ٩٣ .

(١٨) البخل ١٠٣ .

(١٩) البخل ٦٧ .

(٢٠) البخل ١٠٣ .

(٢١) في القاموس المحيط : « حلحلهم وحركهم فتحلحلوا » والمبالغة في البخل ١١٦ .

أرغفته بأنها أرغفة صغار أي تنم على بخله ، على حين أنها في زعمه كبار وأن رغيفاً واحداً كفيلاً بأن يملأ الجوف فلا يحتاج معه إلى المزيد ، فقال بانفعال^(٢٥) : « يزعمون أن خيزي صغار ؟ أي ابن زانية يأكل من هذا الخبز رغيفين ؟ » .

والجاحظ ، وقد أوتي ملكة التعبير العذب والبيان المشرق ، غدت اللغة طيبة بين يديه ، فراحت الألفاظ تنثال عليه بغزارة ، والعبارات تندلق عليه بيسر . وكثيراً ما يكون لديه اللفظ بمفرده موجهاً ونطوي على هالة أو ظل مما يرفعه وحده إلى مقام الصورة . ولعل هذا أبين ما يكون في صدد إيراد عباراته لجملة من الأفعال أو المصادر فيها أيضاً معنى الحدث . وقد أورد الجاحظ خبر وليمة دعي إليها مع شريحة أبي إسحق النظام وقطرب النحوي وأبي الفتح مؤدب منصور بن زياد ، ولما كان الداعي بخيلاً لم يجدوا أمامهم فوق الإخوان سوى الخبز . وحين طال عليهم الانتظار عمدوا إلى ما أمامهم من الأرغفة « فاكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة ، ولم يشبعوا فرفعوا أيديهم ، ولم يمدوا بشيء » ، فيتمسوا أكلهم ، والأيدي معلقة ، وإنما هم في تفسير وتنتيف^(٢٦) . ولنا أن نتصور القوم وهم بين الجوع والشبع يعمدون إلى تلك الكسرة من الخبز يفتنونها بأناملهم أو يفتنون جزئياتها كما يفعل العصفور بمنقاره أو القط بأظفاره .

وعلى هذا الصعيد يقص لنا الجاحظ خبراً مشابهاً يتصل أيضاً بتجربة أخرى له مع أحد البخلاء حين خرج مع شيخه أبي إسحق النظام إلى ناحية من المدينة ، وتجاوزوا الخندق ، حتى إذا مروا بمنزل الوليد القرشي ،

لسان العامة كقول أحدهم^(٢٧) : « يا بنحون . . . إن كثرة المضغ تقوي الأسنان » .

وقد يستلهم الجاحظ بعض الصور التعبيرية الحلوة المستمدة من حياة الناس في المكان الملائم من سياق الكلام . ففي محاولة بعضهم لاقناع صاحب لهم بخيل وهم يمازحونه بأن يدعهم مرة إلى طعامه ، أرادوا أن يهينوا عليه الأمر بأنها ستكون دعوة وحيدة في العمر ، ولن يتكلف سواها بعد ذلك ، فقالوا له^(٢٨) : « اجعلها دعوة ليس لها أخت » . وهذا تعبير طريف في اللغة اليومية الدارجة .

وحكى الجاحظ خبر رجل لم يأمن العودة ليلاً إلى منزله ، وخاف أن يتبعه أحد فيضربه^(٢٩) ، ففكر في أن يثق الباب على صاحبه - أبي مازن - يبيت في أدنى بيته أو في دهليزه ، وحين بصره أبو مازن ، وقف واجهاً لا يحير بكلمة ، كأنما أتاه ملك الموت . فأخذ الرجل يبين ماهو فيه ، وأنه إذا انصدع عمود الصبح خرج من عنده مع أوائل المدجلين . غير أن أبا مازن أراد أن يتظاهر بالخيال وأن وجوهه إنما هو بسبب السكر ، وأنه لا يعي ما حوله ، وحين عاد الطارق إلى الكلام لم يجد من صاحبه سوى عبارة واحدة يرددها على مسمعه : « سكران والله ، أنا والله سكران » . ثم أغلق الباب ودخل . والعبارة الأخيرة أوردتها الجاحظ على نحو ما ينطق بها المخمورون .

وقد يجري الجاحظ على السنة شخصه شيئاً من عبارات السوق التي تنطوي أحياناً على قدر من الألفاظ الصريحة . فقد تحدث يوماً بحسبى بن عبدالله بن أسيد مع صبحه ، وأبدى سخطه على الذين شهرها به وعابوا

(٢٢) البخلاء ١١٦ - ١١٧ .

(٢٣) البخلاء ٤٢ .

(٢٤) ينظر في كتاب البخلاء ٣٩ .

(٢٥) البخلاء ٥٤ .

(٢٦) البخلاء ٥٤ .

عقب فيها بدر من سورة الغضب المفاجيء ، ونتر اليد المياغته .. وما كان من تكوص القرشي ومفارقته الصصب .

استملاح العجمة اللفظية

وعل صعيد آخر ، وفيما يتصل أيضا بوجه من وجوه اللغة العربية ، بوسنا أن ننتين ظاهرة أخرى لم يكن بوسعها - تبعاً لطبيعتها - أن تبلغ قوة التيار ، ولكنها ذات دلالة خاصة في مجال طرافة التعبير وجمالته .

فحين تكاثر الأعاجم وتمازجت ثقافتهم مع ثقافة العرب ، نجم عن ذلك التعايش تأثيرات لغوية وتعبيرية متبادلة ، ولا سيما بين العرب والفرس شطري ، المجتمع الاسلامي الجديد . وأصبح من المستحب لدى ذلك الجيل ترصيع الكلام بين الحين والحين بكلمة أو عبارة من لسان الفرس ، باعتبار ذلك مظهراً من مظاهر الحضارة الوافدة التي تجلّت أيضاً في اصطناع شباب ذلك الجيل لبعض ملابس العجم ومآكلهم ومشاربهم ، ومجاراتهم لهم في كثير من تقاليدهم وعاداتهم وسلوكهم ...

وقد لا يبدو مستغرباً بعد ذلك مثلاً أن نجد الجاحظ - وهو من هوني نزعته العربية - قد أدخل قدراً غير يسير من الألفاظ والعبارات الفارسية في كتبه ورسائله . وهذا الترخيص في التعبير ، الصادر عن رجل هو في قمة الفصاحة وذروة البيان له دلالته الاجتماعية ، وله أيضاً دلالة الفنية التي تنطوي عليها طبيعة الأداء وخصوصيته . وقد حفلت كتابات الجاحظ من البخلاء بعدد وافر من الكلمات الأعجمية مثل : البرنكان والسكرجة والجردقة والفالوذج والجوسق والبربند والقلنسوة والشطرنج والقيراط والزرد والقنديل (٢٨) .

مضى معهم . ثم تشعبت بين المتحاذين أطراف الكلام حول مسائل جمة ، ولم يشعروا إلا وقد انتصف النهار واشتد القيق ، فلاذوا قليلاً بظل جدار ، ثم وجدوا أنهم في « ساعة تذيب كل شيء » ، فاقترح الجاحظ أن يقلبوا عند صاحبهم القرشي ، يأكلون ما حضر ، ومن ثم يعودون بعد أن يستريحوا ويبردوا . غير أن الاقتراح لم يرق القرشي . فصاح لئله : « هذا لا يكون أبداً » . ثم وصف الجاحظ حال القرشي البخيل ومعه صحبه ، حين مضوا يحدوثونه في الأمر ، فقال يصوره (٢٩) : « فغضب ونتر يده من أيدينا وفارقنا » .

ولسنا الآن بصدد ما قد يلذهب إليه الظن للوهلة الأولى تجاه كلمة « نتر » من أنها عامية أو غير فصيحة لكثرة دورها على ألسنة الناس ونندرة ورودها على أفلام النثرين ، أو في كلام الشعراء ، ولكن ما يعنينا هو أن الجاحظ نفسه قد عمد إلى تصوير مسلك هذا القرشي البخيل ، من خلال لحظة غضب وانفعال ، بما يوازي تلك الحركة السريعة التي قام بها صاحبها ، وذلك أيضاً بكلمة واحدة هي : « ونتر يده » أذ النتر في معاجم اللغة هو انتزاع الشيء بقوة أو جليده بشدة . وفحوى ما نود تبينه أن كلمة نتر التي تكاد تركز في معناها مرحلة النهاية في هذه الأفضوصة ، أو يتجل في حل عقدة الحدث ، تبدو لآثارها بمنزلة الصورة الواضحة لما تنطوي عليه من دلالة ومن إيحاء .

ولعل دلالتها وإيحائها يكتسبان لدينا مزيداً من الثراء والمضاء حين نطلق لمخيلتنا العنان ، فنتمصور كيف كان حال القرشي مع صحبه في وضع من الهدوء والانسجام والانبساط وما كانوا فيه من تلاصق الكتف بالكتف وتشابك اليد باليد ، ثم انقلاب ذلك الوضع رأساً على

(٢٧) البخلاء ٣٨

(٢٨) يمكن رؤيته هذه الألفاظ وغيرها في كتاب البخلاء تباعاً في الصفحات ٣٦ ، ١٢٠ ، ١٧٨ ، ١٠٨ ، ٣١ ، ١٠٦ ، ٢١ . تحقيق طه الحاجري ، القاهرة ١٩٥٨

نحو ابن السندي مبادرا إلى تلبية دعوته ، ولما وجد ابن السندي أن الرجل جاد في مشاركته زاده انبرى له بقوله : « مكانك ، فان العجلة من الشيطان » . وانتصب ابن السندي واقفا ، واندفع نحو الرجل محاولا أن يثنيه عن عزمه ، ثم راح يعطيه درسا في آداب السلوك وقال له : « الآيين فيما نحن فيه إذا كنت أنا الجالس وأنت المارأ تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حيثن عجبيا لك : وعليكم السلام ؟ فإن كنت لا أكلا شيئا سكت أنا وسكت أنت ، ومضيت أنت وقعدت على حالي . وإن كنت آكل فهاتنا آيين آخر ، وهو أن أبدا أنا فأقول هلم . ونحيب أنت فتقول : هنيئا . فيكون كلام بكلام ، فأما كلام بفعال ، وقول بأكل فهذا ليس من الانصاف ... »^(٣٠) .

ولعل الجاحظ أثر هذه الكلمة الفارسية الحضارية « الآيين » فيها يبدو لنا ، لأنه وجدها معبرة عن واقع حال صاحبها ، ولم يشأ أن يورد على لسان صاحبه البخيل كلمة عربية في نحو معناها مثل : اللباقة ، أو حسن التصرف ، أو أصول التعامل ، أو آداب السلوك ...^(٣١) لأن لتلك الكلمة الدخيلة هالة وظلالا لا تتوفر فيها عداها من الكلمات . إنها كلمة عصرية تنم على التقدم الاجتماعي والتطور الحضاري . وسواء أكان صاحبها عربيا يصطنع مظاهر عصره المتمدن أو فارسيا في أصله يحتفظ بخصائص لغته ، كما يشير إلى ذلك اسمه ، فإن الدلالة الموحية باقية في هذا النمط المستحدث من التعبير .

وهذا التسامح لدى الجاحظ في تقبل بعض الكلمات من لغة الفرس واعتماده إياها في كتاباته قد يعد بدعا في لسان الضاد ، أو تفريطا بمقام العربية من وجهة نظر

وإذا جنحنا للوقوف عند بعض نصوص البخلاء على سبيل التخصيص وجدنا الجاحظ يورد بصدد حكاية العراقي والتاجر المروزي قوله حين تجاهل معرفته بصاحبه العراقي الذي كان يستضيفه ويكرم مثواه : « لو خرجت من جلدك لم أعرفك » . وقد أثر الجاحظ أن يشفع هذه العبارة لأهميتها ، ولأن حل عقدة أقصوصته يتركز فيها بالعبارة الفارسية الأصلية التي فاه بها المروزي بلسانه على هذا النحو : « أكرار پوست بارون بيائي نشناسم » .

على أن للألفاظ الدخيلة في أدب الجاحظ ، ولا سيما في كتاب البخلاء حيزا واسعا ، ونحن واجدون في حكاية إبراهيم بن السندي^(٣٢) ، عددا من الألفاظ الأعجمية ومعظمها في مجال الأطعمة والأشربة التي لم يكن للعرب عهد بكثير منها ، ثم دخلت حياتهم في إبان الفتح الاجتماعي والتقدم الحضاري . فابن السندي هذا - كما حدثنا الجاحظ - « كان في غداة كل جمعة ، يحمل معه منديلا فيه جردقتان وقطع لحم سكباغ مبرد ، وقطع جبن ، وزيتونات وصرة فيها ملح وآخرى فيها أشنان ... » فالجردقتان رغيضان من الخبز الغليظ ، والسكباغ مرق يعمل من اللحم والخل ، والأشنان نوع من الأحماض تنظف به الأيدي .. وكلها ألفاظ أعجمية شاعت على ألسنة ذلك الجيل . على أن ما يهينا في هذا الصدد هو ما ذكره الجاحظ أيضا خلال هذه القصة . فقد بسط ابن السندي زاده الذي أعده بعناية في زاوية من البستان بعيدا عن الأنظار . وكان أن عبر بقربه مار ألقى السلام عليه وهو ماض في طريقه ، فوجد ابن السندي أنه من اللباقة واللفظ أن يقول له : « هلم عافاك الله » . فما كان من الرجل العابر إلا أن انعطف

(٢٩) البخلاء ، تحقيق الحاجري ، ص ٢٤ ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣٠) البخلاء ، تحقيق طه الحاجري ٢٤ ، دار للمعارف ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣١) لد كلمة (الايكيت) في بعض لغات الغرب الحديثة تقارب في دلالتها كلمة (الآيين) .

الطق . فعل حين كان العرب يعدونها من الأمور التي تنتقص من الفصاحة وحسن الأداء . وتعبأ على الخطباء والمتكلمين . . . (٣٣) فإنهم كانوا في الوقت نفسه يشعرون لما لدى القيان والعلماء ، ويرون فيها زينة تطرف الكلام . وفي شعر أبي نواس أبيات من هذا القبيل يقول في بعضها واصفاً أحد سقاء الحمرة من الغلمان في جانة ، وكان ألثغ (٣٤) .

بسأبي ألتشغ لا ججته
فقال في غنج وإخنات
لما رأى مني خلالي له
كم لقي الناث من الناث

فقد أثبت الشاعر عبارة « كم لقي الناس من الناس » كما نطق بها الساقى نظراً واستملاحاً كذلك تنطوي كتب الأدب على طرائف جمّة وأخبار كثيرة تتصل بهذا الموضوع ، من مثل ما جاء في كتاب « الأمازي » من شعر عذّب في وصف مالك بن أمية بن خارجة كلام إحدى الغواني (٣٥) :

وحديث ألهه ، هو مما
تشتيه النفوس يوزن وزنا
منطق صائب وتلحن أحيا
نا ، وخير الحديث ما كان لحنا

ومما علق به « القالي » في معنى اللحن قوله عن ابن الأعرابي : « قد لحن الرجل يلحن لحناً فهو لا حين إذا أخطأ . . » . وكان العرب يتقبلون اللحن من الحسانات الأعمجيات وينتفرون منهن الخطأ ، بل

منزمنة . غير أن ألفاظاً جمّة ، فارسية وإغريقية وهندية وجيشية قد ترغلت في حياة العرب ، ودارت على ألسنتهم ، وذلك وفق عوامل التأثير والتأثير التي تنتظمها سنن اللغات الجارية وقوانينها السائدة . ونحن نقع على هذه الألفاظ في عهود مبكرة من حياة العرب ، ومن خلال الشعر الجاهلي نفسه . بل إن القرآن الكريم قد انطوى أيضاً في بعض آياته على ألفاظ أعجمية مختلفة الأصول ، مثل : « استبرق وقرطاس وسلسيل وسراويل وجهنم وفردوس . . . » ونحوها كانت قد دخلت العربية في أوقات سابقة ، وقد عني بدراساتها وحصرها العديد من فقهاء العربية (٣٦) .

الترخص تجاه اللحن في اللغة

ثم شهد المجتمع الإسلامي في العصر العباسي تسرباً ذا شأن لكثير من الألفاظ الأعجمية نتيجة لما تم من تلاحم اجتماعي وتمازج ثقافي بين العرب والفرس ، فبالإضافة إلى ذبوع كثير من المسميات الحضارية التي دخلت حياة العرب مع أسمائها على صعيد المأكّل والمشارب والملابس وغيرها . . . كانت ألفاظ أخرى تدور أيضاً على ألسنة الناس ، وربما انعكست في كتاباتهم ، وذلك أيضاً على سبيل التنظرف .

والتنظرف في الكلام قد يبدو باللفظ الخاطيء أو المالحون . كما يبدو أحياناً في اللفظ الأعجمي أو الدخيل . والعرب أنفسهم ، على تشدهم المعهود في اللغة وفي الأداء ، كانوا يستطيعون من المرأة الحسنة والفقي المليح ما كان من هذا القبيل ، كالثغفة في

(٣٣) يمكن الرجوع في ذلك إلى كتاب « للعرب » لأبي منصور الجواليقي تحقيق أحمد عبد شاكور ، القاهرة ١٣٦١ هـ .

(٣٤) يمكن الرجوع في هذا الموضوع إلى ما كتبه الجاحظ بأسباب في كتابه : « البيان والتبيين » ٧٠ - ٧٤ تحقيق عبد السلام هارون . القاهرة ١٩٦٨ .

(٣٥) ديوان أبي نواس ، ٢٥ تحقيق أحمد عبدالمجيد الغزالي ، القاهرة ١٩٥٣ .

(٣٦) كتاب الأمازي ، لأبي علي القالي ١ : « طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٥٣ وأيضاً : البيان والتبيين للجاحظ ١ : ١٤٧ .

يجد لتلك الظاهرة اللغوية الأسلوبية مسوغاً نظرياً يضفي به عليها صبغة مذهبية . فالجاحظ ، بجنوحه الموهود إلى التقصي ، ودأبه على بلوغ الاستنتاج العقلي والنظرية المجردة يمضي في هذا المجال ، معتمداً على أخبار مروية بعينها ، ثم يخلص منها إلى اعتماد الفكرة المنشودة .

قص الجاحظ - في كتابه « الحيوان » - مرافقة مرة لاستاذة أبي إسحق النظام ، أحد أعلام الفكر الاسلامي . وكانا يسيران معا في طريق بظاهر البصرة ، فتسلط عليها كلب ، ولزمهما مسافة . . . ثم تخلصا منه بعد لأي ، ومضى النظام في حديثه وقد انعطف به نحو الكلب وكأنه يداعبه^(٣٨) :

« . . . إن كنت سبع ، فاذبح مع السباع ، وعليك بالبراري والغياض ، وإن كنت بهيمة ، فأسكت عنا سكوت البهائم . . »

والذي يعنينا في هذا الصدد ان الجاحظ لم يعمد الى رواية هذا الخبر لمجرد الاطراف فحسب ، بل اتخذ منه منطلقاً لمعالجة قضية فنية ، ومحاولة لاستخلاص نظرية نقدية . فقد بسط رأيه من خلال تعليقه التالي :

« . . . ولا تنكر قولي وحكايتي عنه بقول ملحون من قولي : « إن كنت سبع » ، ولم أقبل : (إن كنت سبعا) . وأنا أقول إن الاعراب يفسد نواذر المولدين ، كما أن اللحن يفسد كلام الاعراب . لأن سامع الكلام إنما أعجبه تلك الصورة ، وذلك المخرج ، وتلك اللغة ، وتلك العادة . فإذا دخلت على هذا الأمر الذي إنما أضحك بسخفه ، وحولته إلى صورة ألفاظ الاعراب الفصحاء وأهل المروءة والنجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب نظمه ، وتبدلت صورته » .

يستملحونه . ومن هذا القليل أيضاً قول شاعر كان يستملح كلام جاريته ، وكانت فيها يبدو أعجبية^(٣٩) :

أول ما أسمع منها في السحر
تذكيرها الأنثى وتأنيث الذكر

ويوضح الجاحظ هذه الظاهرة الاجتماعية المحدثة فيقول :^(٣٧) « واللحن من الجوارى الطراف ، ومن الكواعب النواهد ، ومن الشواب الملاح ، ومن ذوات الحذور الغرائر أيسر » ، ثم يقول : « وكانوا يستملحون اللثغاء إذا كانت حديثة السن ، مقدودة مجدولة ، فإذا أسنت واكتهلت تغير ذلك الاستملاح »

ويبدولنا من جهة أخرى أن نطاق الترخص في اللغة قد اتسع خلال الحقبة العباسية المذكورة ، ولا سيما في مجال النثر بعد أن تفشت العجمة وضعت السليقة ، فلم يعد الخطأ أو اللحن في الكلام من الأمور الخطيرة التي تشين المرء كما كان عليه الحال في العصر السالف ، حين كان مثلاً الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان لا يفتأ يتهبب الارتجال والخطابة على ملا من الناس ، وهو من هو في الفصاحة واللسن ، ويقول : « شيبني صعود المنابر » .

على أن أبا عثمان الجاحظ ، بما اتسم به من سعة أفق ورحابة فكر ، ينتقل بمفهوم الترخص من نطاق الخبر العارض ودلالته المحدودة إلى مجال أشمل ، ومدى أوسع ، وذلك من جهتين : الأولى أنه ارتقى بمبدول الطرف ليغدو من بعد باعثاً فنياً ، يبتغيه القارئ أو السامع في التعبير نفسه بهدف جماليته المتفردة . وقد تم ذلك لأبي عثمان بفضل ما فطر عليه من ميل إلى الدعابة والمرح . ثم حرص الجاحظ - من جهة أخرى - على أن

(٣٦) البيان والبيان للجاحظ ١ : ١٦٥ تحقيق هارون ، مصر ، ١٩٦٨

(٣٧) البيان والبيان ١ : ١٤٦

(٣٨) كتاب الحيوان ١ : ١٣٦

لقد تناول أبو عثمان هذه القضية أيضا في كتاب آخر له ، وهو البخلاء ، وعمد منذ أن استهل كتابه إلى تنبيه جبهة قرائه بقوله (٣٩) :

« وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا ، أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك ، لأن الأعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده . . »

فالجاحظ يرمي من ذلك إلى ضرورة المحافظة على النص المحكي والكلام المروي برغم خطئه أو انحرافه عن القاعدة ، لأنه بذلك يكون أدل على صاحبه ، وعلى طبيعته وشخصيته وفكره وثقافته ويثبت . . . ولا سيما أن أكثر ما يرد أو يروى في هذا المجال صادر عن فئة عامة الناس عرفت بالبخل ، وكان لها في صدد ذلك طرائف ومواقف وأيضاً طرائق تعبير .

أما حين يكون البخل من فئة مغايرة ، مثل فئة العلماء أو الكتاب أو الشعراء أو نحوهم . . . فالأمر يختلف في نظر الجاحظ ، لأن هؤلاء يمثلون وسطاً ثقافياً خاصاً ، ولغتهم تكون تبعاً لذلك مختلفة أيضاً ، وقد انتهى الجاحظ إلى هذا الفارق ، فلم يجعل رأيه مطلقاً ، بل قال مستدركا :

« .. إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء ، وأشحاء العلماء ، كسهل بن هارون وأشباهه . . »

ولعل هذا الكلام يكتب أهمية خاصة حين نلاحظ أن الجاحظ تناول هذا الموضوع ، موضوع الصحة والخطأ في معرض التعبير الأدبي ، في كتاب : البخلاء ، وعلى هذا النحو من التجريد والشمول ، وعمد إلى تنبيه قرائه إلى ذلك في خطبة كتابه . فقد رأى الجاحظ أن نظرت هذه أجد ما تكون بالتطبيق في هذا الموضوع

وأهمية هذا الرأي تنوى في أن الجاحظ ، وهو عمدة الفصاحة ، وقمة البلاغة في لغة العرب ، يكاد يكون متفرداً في مجال النقد الأدبي من خلال هذا المنحى الخاص ، تفردة على صعيد الفكر والأدب واللغة والبيان . إنه لم يشاع اللغويين والنحاة في قصر نظرهم على اللفظ من الوجهة اللغوية ومن حيث صحته وخطئه ، فلم يأنف من الخطأ الأساسي في اللغة ، ولم ينكر الخروج على أصول النحو ، لأن للخطأ أحياناً في اعتقاده وجهها يحسن تقبله ، بل إنه على العكس من ذلك ، استملح هذا اللحن ، كما استملح النظام شيخه الكبير قبله ، فلم يشأ أن يتقعر أو يتفاسح في كلام يتوجه به إلى حيوان أعجم ، وفي معرض التفكه والتطرف ، حين جنح للمباشرة والممازحة مع ذلك الكلب الشارد . . .

ومنطلق الجاحظ: رأيه جمالي فني وليس بنحوي لغوي ، إذ البلاغة لديه هي أن تناسب العبارة مقتضى الحال . وأنه لكل مقام مقال .

كان على الجاحظ أن يختار واحداً من أمرين : فإما صحة اللفظ وفصاحته ، فيستهجن تبعاً لذلك مقالة شيخه النظام لأنها وردت على ذلك الشكل الخاطيء ، وإما بلاغة التعبير وجماله ، فيستحسن كلام النظام ، على ما فيه من خال . . . ولكن الجاحظ ضحى بسلامة اللفظ في سبيل حسن الأداء ، واثراً جمال الأسلوب على صحة اللغة . وفحوى ما ذهب إليه في هذا الصدد ، أن الفصاحة في ذاتها ليست غاية في فن القول وإنما الغاية في البلاغة ، أي في طرافة العبارة ومدى تأثيرها في النفس ومبعل قدرتها على الإيحاء . وهذا قوام العمل الأدبي .

ولكن هل كان هذا مجرد رأي عارض للجاحظ ساقه بصدد خبر مروى طارئ . . ؟

تغير يلحق بها من لحن أو تسكين أو ما شاكل ذلك من كلام المولدين يفسدها ويزيل رونقها .

أما الشطر الآخر من قول الجاحظ في هذه المسألة فهو منصب على كلام من سباهم : (البليدين والعوام والحشوة والطغام) ، ولا بد لنواديرهم وملحهم في رأيه أيضا أن تروى على صورتها ، وكما حكاهما أصحابها ، ولو كانت خاطئة أو ملحونة ، إذ أن أي تعديل في ميناها أو تقويم لاعوجاجها ، من قبيل إعراب كلماتها أو اصلاح ما كان من لحن في لغتها كفيل أيضا بأن يفسد إمتاعها ويذهب بروائها .

وفحوى رأي الجاحظ في الحاليين أن جمال التعبير غير مقتصر على فصاحته ، ولا مرتبط بصحة ألفاظه ، إنه قد يوجد في الكلام الصحيح وجوه في الكلام الملحون . وهو يؤكد ما ذهب إليه في موضع آخر إذ يقول أيضا^(١) :

« ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ . ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء . فالسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والافصاح في موضع الافصاح ، والكتابة في موضع الكتابة ، والاسترسال في موضع الاسترسال »

ثم يضي الجاحظ في تعميق فكرته وتوسيع رأيه بقوله : « وإن كان موضوع الحديث على أنه مضحك وملهي ، وداخل في باب المزاح والطيب ، فاستعملت فيه الاعراب ، انقلب عن جهته . وإن كان في لفظه سخف ، وأبدلت السخافة بالجزالة ، صار الحديث الذي وضع على أن يسر النفوس ، ويكرها ويأخذ بأكظامها . . »

الذي يتصل بظاهرة البخل ، وبكلام البخلاء وطرائقهم ونواديرهم وملحهم . وبتعبير آخر ، أدرك الجاحظ بثاقب فكره ومرهف حسه ، أنه في كتابه البخلاء يتناول موضوعاً خاصاً ينطوي على كثير من الطرافة ، وأن مادة كتابه مستمدة في غالب الأحيان من جماعة شعبية تتحدث غالباً بلغتها غير المعربة ، وألفاظها الملحونة ، فضلاً عن خصوصية تعبيرها وأدائها .

وعلى صعيد آخر من كتاباته الجاحظ نجد هذه القضية ، قضية اللغة المحكية المبسطة والملحونة ، مطروحة أيضا في كتاب البيان والتبيين ، ألصق كتب أبي عثمان بشؤون الفصاحة والبلاغة ، والخطأ واللحن ، وكل ما يتصل بقضايا اللبى والمعنى والأساليب وطرق الأداء . . . إنه يقول في هذا الصدد^(٢) :

« ومتى سمعت - حفظك الله - بنادرة من نوادر الاعراب ، فإياك أن تحكيها إلا مع إعرابها ، وبخارج ألفاظها . فإني ، إن غيرتها ، بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها خرج كلام المولدين والبليدين . . . خرجت من تلك الحكاية وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطعام ، فإياك أن تستعمل فيها الاعراب ، أو أن تتخير فيها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك خرجاً سرياً . فإن ذلك يفسد الامتناع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أريدت له ، ويذهب استعطابهم أياها واستملاحهم لها . »

هذا النص ينطوي على شطرين ، أولهما يتعلق بنوادر الاعراب ، وهذه النوادير لا بد لها في رأي الجاحظ أن تبقى معربة فصيحة كما كانت عليه في الأصل ، لأن كل

(١) كتاب البيان والتبيين ١ : ١٤٥ - ١٤٦ ، وانظر هذا الرأي أيضا في كتاب الحيوان ١ : ٢٨٢

(٢) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

كذلك عاد الجاحظ إلى إثارة هذه المسألة النقدية حين قال (٤٢) :

« وقيح بالتكلم أن يفترق إلى ألفاظ المتكلمين في مخاطبة العوام والجار ، أو في مخاطبة أهله وعيده وأمه ، أو في حديثه إذا حدث ، أو خبره إذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الاعراب ... ولكل صناعة شكل . »

مقومات اللغة المحكية

ولعله بوسعنا الآن ، وبعد استقراء كلام الجاحظ وإيراد نصوصه الجلية بصدد هذه القضية المحادثة أو اللغة المحكية ، أن نخلص إلى جملة من الحقائق الأساسية التي تتمحور حول شخصية المتحدث ، وطبيعة المتلقي ، وطابع اللغة المحكية ، وظاهرة التندر ، ثم الواعية اللغوية .

أ - شخصية المتحدثين أو المتحاورين :

من المعلوم أن شخصية الأديب التي ينطوي عليها العمل الأدبي ، قصصيا كان أو تمثيليا أو نحو ذلك من فنون القول ، لا تكتشف سماتها وتتجل أبعادها إلا من خلال كلماتها وعباراتها . والجاحظ ، من خلال آرائه في هذا الصدد ، يعتقد أيضا أن حوار المتحدثين هو الذي ينعكس على طبيعتهم ، وينبئ عن شخصيتهم ، وبشي بحال نفوسهم ، أي أن لغة المرء صورة لذاته ، من خلالها تنعكس طباعة ، وتتجل أفكاره ، كما أنها تكشف عن ملامح بيشته ، وتشف عن شريحيته الاجتماعية .

وفي هذا الصدد أيضا يعتقد الجاحظ ، تبعا لذلك ، أن لكل طبقة من الناس ، أو لكل فئة أو جماعة متميزة منهم ، لغتها وعباراتها وأساليبها وطرق أدائها ، وأن

اللغة - ولا سيما المحكية - لا بد لها أن تحمل سمات متكلمها وخصائصه الذاتية .

وواقع الأمر ، وعلى حسب معطيات علم الاجتماع وقوانين علم اللغة ، أن هنالك في كل جيل مستويات من اللغة تبعا لوجود مستويات في مقابل ذلك لقطاعات الناس التي تتكلمها . أو لا بد هنالك ، على الأقل وبصورة مجملية ، من وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير داخل مجتمع ، وهذا ما ساد في الأفهام من وجود لغة للخاصة ولغة للعامية ...

ويفضي بنا ذلك إلى أن من مقتضيات الفن التعبيري ، كما ينشده الجاحظ ، أن يحرص الكاتب على إنطاق المتكلم بلغته هو ، بحيث يتكلم المتحدث بلهجته الخاصة ، وطريقة أدائه المتفردة ، وعباراته المتميزة . وإلا كان هنالك نوع من القسر الذي ينطوي أيضا على التزييف والافتعال ، وعلى التكلف والتصنع . وحين يطالب الجاحظ بأن تتم رواية الملح والطرائف والنوادر وما إليها كما صدرت عن أصحابها ، أو كما حكاهها أهلها ؛ فإنما يرمي إلى احترام تلك الخصوصية التعبيرية في اللغة المحكية ، حتى ولو كانت ملحونة أو عامية ، بحيث يمكن الحفاظ على سماتها الأسلوبية المتفردة ، وملاعها المتميزة في الأداء .

وإذا كان مذهب الجاحظ صحيحاً ، وهو صحيح يؤيده واقع تطور المجتمعات ، وتدعمه معطيات علم اللغة وعلم السكان ، فمعنى ذلك أنه يسرى أيضا على لغة المسرح والتمثيل في عصرنا ، إذ لا بد لهذه اللغة أيضا - على حسب مفهوم الجاحظ - أن يخرج الكلام فيها « خرج كلام المولدين والبلديين ... » . فهناك فئات كثيرة من الناس يشكلون شطرا كبيرا من المجتمع

لها « وذلك حين يحال بينهم وبين تلقي ذلك الأداء بصورته المحكية .

جـ - لغة التحدّث والعبارة المحكية :

والحقيقة الأخرى التي يمكن استخلاصها أيضاً من كلام الجاحظ تنصل بالنص نفسه ، أي بطبيعة اللغة المحكية ، وهي تنطوي على مفهوم بالغ الأهمية على صعيد النقد . فالجاحظ ، بفكره الثاقب ، خرج على المفاهيم السائدة في عصره ، ولا سيما في عرف اللغويين والبلاغيين والنحاة . . . الذين افترضوا التلازم المطلق بين مفهومي الفصحى والبلاغة ، أي بين صحة اللفظ وجمال التعبير . فكانوا يطردون من محراب الأدب كل تعبير ينطوي على اللحن أو الخطأ ، دون النظر إلى ما عدا ذلك من عناصر جمالية أخرى ذات شأن في العمل الأدبي . وقد غلبت هذه النظرة أول الأمر على كثير من النقاد العرب بسبب كون غاليته من النحويين ومن فقهاء اللغة وعلمائها ، فضيقوا الأمر على الأدب ونقصه . وربما كان امتداداً لأرائهم تلك ، ازولواهم بالأدب الشعبي ، بل تنكروا له طوال عصور مديدة ، بدعوى هبوط لغته عن الفصحى .

ويبدو أن ابن النديم صاحب « الفهرست » وهو من علماء القرن الرابع الهجري ، أي بعد عصر الجاحظ بأكثر من قرن ، كان ، على جلال قدره ، ضحية هذا الفهم السائد ، حين وصم كتاب « ألف ليلة وليلة » بأنه (٤٣) : « كتاب غث بارد الحديث » .

لقد رفع الجاحظ مفهوم خصوصية التعبير إلى ذروة عناصر العمل الأدبي ، وجعلها عمدة في فن القول ، لأن هذه الخصوصية ناجمة من خصوصية طبيعة المرء المرء نفسه . فكأن لكل امرئ ملامح وجهه ، وبصمات يده ، ونبرات صوته ، فإن له أيضاً منحنى تفكيره

كالذين دعاهم ابو عثمان « بالبلديين والعوام والحشوة والطعام . . . » . وهؤلاء ينبغي خلال رواية شؤونهم والحكاية عنهم ، والمحافظة التامة على خصوصية لغتهم . إذ أن المحادثة أو المحاوراة في مجال القص هي العنصر الأساسي في تحريك الحدث وتطويرة ، بالإضافة إلى أنه وثيق الصلة بالشخصية نفسها ، شديد الانحام بها ، انطلاقاً من أن هذه الشخصية لا تتجلى ملامحها وسماتها إلا حين تنطق ، أي من خلال اللغة المحكية نفسها .

ب - الجمهور المتلقي وطبيعة المخاطبين :

وهذه الحقيقة الثانية التي نستمدّها من مذهب الجاحظ في اللغة المحكية تنصل في الوقت نفسه ، ومن جهة أخرى ، بطبيعة المرء المتلقي ، قارئاً أو سامعاً أو مشاهداً . والجاحظ حين ينطلق من كون اللغة أداة تفاهم ووسيلة تواصل بين المتحدثين والسامعين ، يعتقد أنه من مقومات الأداء الفني قدرة هذا الأداء على أن يبلغ الأسماع والقلوب ، محتفظاً بنكهته ومذاقه وحرارته . وحينئذ يكون للفن تأثيره المنشود في النفوس ، بفضل ذاتيته وتفرده . وهذا هو الهدف البارز الذي حرص الجاحظ على توفّره في العبارة المؤداة ، وهو ما سماه « الامتاع » كما سلف من كلامه . فإمتاع الجمهور هو الغاية لدى الجاحظ ، كما أنه هو الغاية أصلاً من إنشاء العمل الأدبي ، بل الإبداع الفني جملة وفق أسس النقد وأصوله . ولذلك حذر الجاحظ من مغبة تغيير صورة التعبير ، سواء في الملحة والنادرة أو في معرض الجد من الكلام ، لأن هذا التغيير هو الذي « يفسد الامتاع بها » ، أي أن جمهور المتلقين هم الذين سيصيبهم الغبن في النهاية ، فتفوتهم المتعة المنشودة . أو أن ذلك وفق تعبير الجاحظ « يذهب استطابهم إياها ، واستملاحهم

(٤٣) كتاب الفهرست ، الفن الأول من المقالة الثامنة ، ص ٣٠٤ طبعة دار فخر ، بيروت ١٩٦٤

الأدب . وظاهرة التطرف نشأت من جذور اجتماعية واسعة المدى في عصر الجاحظ ، وغدت من أبرز الظواهر التي خالطت حياة الناس داخل المجتمع الاسلامي خلال الحقبة العباسية ، تبعا لشيوع اللهو وتفشي المجون . وأنه في طبيعة أسباب سيادة هذه الظاهرة ، ما نعمت به البلاد من استقرار سياسي في ذلك العهد ، وما استتبع ذلك من ثراء العلاقات الاجتماعية في إطار اتساع المدن وتوطد المجتمع الحضاري . ويغلب على الظن أن الناس ، في ظل هذه الحياة الجديدة المفتوحة ، قد تجاوزوا ، خلال مجالسهم وأسماهم ، نواذر الأعراب والبداء ، مما كان معهودا قبل ذلك الحين ، أو ما كان يتداوله الرواة ، ويعني به المؤلفون قبل هذا العصر .

لقد دخلت هذه الملح والنوادر في طور جديد ضمن الأطار الحضاري السائد ، فاعتنى مفهوم « التندر » الذي كان مقتصرًا على فئة الأعراب أو البداء ، وابتدأ يفيد عبر الحياة الاجتماعية الرحبية معنى « التطرف » ، كما غدا من مقومات هذا التطرف اتساعه بقدر من التمدن ورقة الحاشية .

وهذا ما رمى إليه الجاحظ حين قصر كلامه أو كاد على نوادر المولدين وملحهم وأشعارهم ، في مقابل الاهتمام المعهود بالأعراب ، إذ المولدون هم الشطر الآخر الرحيب من المجتمع العربي - الاسلامي الذي أوجده تلك الحياة الحضارية الجديدة خلال العهود العباسية ، نتيجة لعوامل التمازج الثقافي ، والاندماج البشري بين عناصر السكان الذين اختلفت أصولهم ، وتباينت مصادرهم . إنهم الجيل المستحدث الذي أخذ يتنامى باطراد في مقابل الشطر الآخر المتضائل من ذلك المجتمع الضيق وهو مجتمع البادية .

وأسلوب تمييزه ، وطريقة أدائه . ولعل هذا معنى وجود لغة مكتوبة شاملة هي اللغة الرصينة التي تحكمها الأصول ، وتنظمها القواعد ، إنها اللغة المعتمدة على صعيد الأدب والفكر والتراث . وإلى جانبها ثمة لغة أخرى محكية توازيها ، وتنطوي على شيء من حرية الحركة والتغير والامتداد ، وهي ما يسمى باللهجة ، وهذه تبقى متصلة بأصل اللغة ، كما تلتمح الأغصان بجذع الدوحة الوارفة . وواقع الأمر ، وعلى حسب ما يجرع إليه علم اللسانيات ، أن وجود مستويين من اللغة مختلفين ، أو وجود صعيدين متباينين في مجال التعبير ، هو ظاهرة طبيعية في اللغات كافة . وقد عرف العرب لهجات كثيرة متباعدة ومتقاربة في عهود ما قبل الاسلام ، ثم عرفوا بعده لهجات أخرى متميزة بين العامة في الأمصار ، فكانت هناك عامية الشام ، وعامية العراق ، وعامية مصر ، وعامية المغرب والأندلس . وليس الانتماء إلى وضع علم النحو ، والعرب في عنقوان فصاحتهم وتلق بلاغتهم ، سوى مؤشر ينذر ببروز أخرى مغايرة ، كانت تدب في حياة الناس ، وتوزاي في الوقت نفسه اللغة الأصلية .

ومن ذلك خلص الجاحظ إلى أن اللغة ، سواء أكانت فصيحة أم ملحونة ، صادرة عن خاصة الناس أم عامتهم ، ما هي إلا ظاهرة اجتماعية ، تنبثق من الحياة نفسها وتواكبها في مسيرتها ، ولذلك تغدو جدية بالاعتبار ، ولا سيما من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني .

تحديث التعبير

لعلنا نستطيع الآن أن نخلص في هذا المجال إلى أن افكار الجاحظ التقديرية كانت تدور في مجملها حول محور واحد ، هو جانب التندر أو التطرف أكثر من سواه في

ومرد خطورة هذا الرأي إلى أن ابن قتيبة بمنطقه السليم نزع عن الشعر القديم حالة القداسة وجعله مع الشعر المحدث في كفتي الميزان ، إذ لا فضل لأحدهما على الآخر إلا بالجدوة ، وحصوله هذا المنحى إثمه كانت في حقيقة الأمر لصالح الشعر المحدث ورفع شأنه .

ومضى الجاحظ مع ابن قتيبة في تيار الحداثة إلى شوط أبعد ، ولا سيما على صعيد التطبيق ، من حيث ابتعد ابن قتيبة في كتابه « الشعر والشعراء » نفسه عن كثير مما سبق أن نادى به في مقدمته النقدية الهامة لهذا الكتاب .

فالجاحظ في صدر كتابه البيان والتبيين الذي كاد يقتصره على موضوع الفصاحة والبلاغة عند العرب ، جنح لرواية نماذج من الشعر ما كان لغيره أن يتقبلها من أمثال أبي عمرو بن العلاء ومن كانوا من طيسته . إنه شعر محدث حفل بالفاظ فارسية ، وما كان ذلك هينا على المشتغلين بلغة العرب وأشعارها ، وهم يرون تلك الألفاظ الدخيلة تقتحم عراب أعرق فنون القول عند العرب في منحى هازل عابث . فانتلاقا من مقولة الجاحظ بأنه لكل مقام مقال ، وأنه للجد موضوع وللهزل موضوع قال^(٤٧) : « وقد يتملح الأعرابي بأن يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية فقول العماني يمدح الرشيد : »

من يلقه من بطل (مسرند)

في زعفة محكمة بالسرد

هؤلاء المولدون ، لم يعرفوا ، بطبيعة الحال ، عربيا فحسب ، بعد أن فقدوا الكثير مما كانوا يتسمون به ، من صفاء العنصر السالف . إنهم الخليطة الاجتماعية الجديدة التي وجد الجاحظ نفسه مدعوا إلى أن يهتم بها ويخصها بالقول . وما هذا الاهتمام في واقع الأمر ، إلا وجه آخر من الاهتمام الشامل بالظواهر الجديدة المحدثه منذ مطلع العصر العباسي . وهو يذكر بما كان سائدا قبل حين لدى علماء العربية ورواة أخبارها وأشعارها ، من أجلال لكل قديم وإزراء بكل جديد ، ولا سيما في طور الرواية والتدوين والتقييد وإرساء الأسس الموروثة . غير أن هذه الحال من التعامي والتجاهل ما كان بوسعها أن تدوم أكثر مما دامت ، بعد أن حفلت رحاب الفكر بكل جديد مبتكر ويدع مستطرف . وهكذا بات العلماء يجدون أنفسهم في موقف غير صحيح ، ويتبينون أن سليلتهم لم تعد تجدى . فبلدوا ويتحزجون عن مواقفهم المترزمة إزاء طغيان الابداع المحدث وتألقه . وكان من نتيجة ذلك أن أبا عمرو بن العلاء ، وهو شيخ رواة العربية ورأبهم^(٤٨) ، أخذ يتخلل عن موقفه المجهود ، وراح يقول بلهجة من اقتنع أخيرا : « لقد كثُر هذا الشعر المحدث وحسن ، حتى لقد صميت بروايته »^(٤٩) . ولكن هذه الرغبة لم تترجم إلى حقيقة علمية مطلقة ألا بعد حين ، وفي عصر تال ، وفي جيل الجاحظ وابن قتيبة وجه التحديد . فقد نظر هذا الناقد الرائد ابن قتيبة « بعين العدل على الفريقين » ورأى أن « الله لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم »^(٥٠) .

(٤٤) أبو عمرو ، هو زياد بن العلاء . أحد القراء السبعة ومن الأئمة الرواد في البصرة . رواية كثير لأخبار العرب وأيامهم وأشعارهم . كان استغلا للخليل والاصمعي وأبي حنيفة . وقد تنسك آخر أيامه فأحرق في كتبه . عاش بين ٦٥ - ١٥٤ هـ ، ٦٨٤ - ٧٧٠ م

(٤٥) كتاب الشعر والشعراء ، ١ ، ٦٣ لابن قتيبة ، تحقيق وشرح أحمد عبد شاكر ، ١٩٦٦

(٤٦) كتاب الشعر والشعراء ، المقدمة ، ابن قتيبة ١ : ٦٣

(٤٧) البيان والتبيين ١ : ١٤١ - ١٤٢

الأسمار أو يتغنى بها في المحافل . وتعرف بالتمنط
الفرنجي - العربي (فرانكو - آراب) ، وذلك على سبيل
الاطراف أو الأضحاك أو بقصد التفكه والتظرف .

لقد اعتنق الجاحظ مفهوم الحداثة في فنون القول
وأغنى تيار التحديث في كتبه ورسائله متجاوبا مع منازع
عصره .

وفي هذا المجال من منحى الحداثة أو التحديث لدى
الجاحظ مضى في كتبه ورسائله موليا اهتمامه أدب
المولدين وأخبارهم ، كما خص أيضا بالقول لغتهم
المحكبة التي طرأ عليها تبدل مواز لتبدل تلك الخليطة
الاجتماعية نفسها ، والتي كان من أبرز لغتها اهمالها
لأعراب الكلمات ولتحريك أواخر الألفاظ ، بالإضافة
إلى دوران اللحن والخطأ ، وأيضا العامي والدخيل على
ألستها . كما أضحي لأحاديثها ومعاوراتها أو لطرائفها
ونوادرها منحى خاص أو مذاق طريف غدا جديراً
بالرواية . وذلك كله هو الذي دعا الجاحظ إلى إطلاق
مقولته النقدية : « إن الاعراب يفسد نوادر المولدين » .

أما الجانب الآخر في هذا الموضوع الذي يتصل ببطقة
العوام فهو أن الجاحظ حين خص بالقول أولئك المولدين
وكلامهم ، إنما تناول في الوقت نفسه الوجه الهازل من
حياتهم ، هذا الوجه الذي كان يتجلى في طبيهم

تجول بين رأسه و (الكرد)
لما هوى بين غياض الأسد
وصار في كف الهزبر الورد
آلي يذوق الدهر (آب سرد)^(٤٨)

كذلك أورد الجاحظ أبياتا غيرها من هذا القبيل
لشاعر آخر قال فيها^(٤٩) :

لزم الغرام ثوبي
بكسرة في يوم سبت^(٥٠)
فتمايملت عليهم
ميل زنكي (بمستي)^(٥١) -
قد حسا (الداني) صرفا
أو عقارا (باينست)^(٥٢)
إن جلدي دبغته
أهل صنعاء (بجفت)^(٥٣)

ويبدو أن أمثال هذه الظاهرة الفنية معهودة في أطوار
التمازج الثقافي والأزدهار الحضاري حين تبلغ عوامل
التأثر والتأثير بين الشعوب مدى بعيدا . ومن هذا القبيل
ما نجده في عصرنا الحاضر من جنوح بعض اليافعين إلى
إدخال كلمات أو عبارات أجنبية خلال أحاديثهم
المشتركة ، وذلك على سبيل التعالم أو التفرنج . أو مانقع
عليه أيضا في أحيان أخرى من خضائف الأشعار التي
تنطوى على جمل أو قواف أجنبية ، تركيبة أو أرمنية أو
انجليزية أو فرنسية ، مقحمة في سياق النظم لتلقي في

(٤٨) المرسند في الفارسية : البطل الذي يغلب ويملو . والزعة : الدرع الراسمة المحكمة . السرد : سمر الزرد في الدروع . وأما الكرد فاصلها في الفارسية الكردن أي
الحق ، وما تزال الكلمة شائعة عند العرب المعاصرين في بلاد الشام في قولهم (الكردان وهي تعني نوعا من الخيل الثمين على شكل قتلة مدلاة على الصدر تحمل قطعة من الفضة
المرصعة بالذئب والماس . وأما الكلمة الفارسية الأخيرة (آب سرد) في الآيات فهي الله الهارد .

(٤٩) البيان والبيان ١ : ١٤٦ ، والآيات لشاعر اسمه أسود بن أبي كريمة .

(٥٠) الغرام جمع غريم وهو المطلب للدين ، وهذا جمع لم يذكره الأوائل .

(٥١) الزنكي : الزنجي بالفارسية .

(٥٢) الداني : نبات على الرائحة مسكر . وباينست : الشراب على الريق ، والكلمة أيضا فارسية .

(٥٣) سبي : بالفارسية تعني كثرة السكر وأعدان الشراب .

(٥٤) جفت : فارسية أيضا وتعني ثمر البوط . .

التوشيح ، وهي خاتمة الأسطر فيه ، أو قفله الأخير بمثابة عمدة الموشح وبيت القصيدة فيه . وقد أوضح ابن سناء الملك في كتابه « دار الطراز » هذا الطابع المتميز للخرجة من حيث صفته وأهميته بقوله^(٥٥) :

« والشرط فيها أن تكون حجاجية^(٥٦) من قبل السخف ، قزمانية من قبل اللحن^(٥٧) ، حارة محرقة ، حادة منضجة . . وهي إبراز الموشح ، وملحه وسكره ، ومسكه وعثره . . »

فالخرجة هي الجزء الوحيد في الموشح الذي يباح فيه اللحن ويستملح ، بل يشترط فيه أن يكون عامياً أو أعجمي اللغة ،^(٥٨) وبذلك يستحق العمل الأدبي أن يدخل في فن التوشيح ، « فإن كانت الخرجة معربة الألفاظ على منوال ما تقدمها ، خرج الموشح - في رأي ابن سناء الملك - من أن يكون موشحاً^(٥٩) . وهذا الرأي مماثل لما قاله الجاحظ وهو: « أن الأعراب يبغيض هذا الباب ويخرجه من حده » وأنه « إن كان موضوع الحديث على أنه مضحك ومله ، ودخل في باب المزاح والطبيب ، فاستعملت فيه الأعراب القلب عن جهته . . » . وما يراه الجاحظ من منطلق في أنه^(٦٠) قد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من امتاع الجزل والفخم من الألفاظ

فابن سناء الملك حين تقبل ورود الخرجة فصيحة معربة فهو إنما فعل ذلك لأنها مسوقة في مقام الجد ولا

ومزاحهم وفي مجالسهم وأسمارهم وفي ملحهم ونوادهم . وقد استنتج هذا الأمر من الجاحظ أن يبين أهمية ارتباط الكلام غير العرب بموضوع النادر ، وأن يحكم أيضاً التلازم بين الشكل أو اللفظ الملحون وبين المضمون أو المعنى المازل .

وحين أثر الجاحظ هذا المنحى في صدد اصطلاح اللغة المحكية باعتبارها أداة تعبير ملائمة في مجال الموضوعات المازلة ، فإنه في الواقع قد فتح الباب أمام لون جديد من الطرائف والقصص ، أو غط مستحدث من أنماط الأدب العايب طالما دأب المؤلفون والنقاد من قبل على عدم الاعتراف به ، وعلى طرده من محراب الأدب ، لما قد تنطوي عليه لفته أحياناً من الخلل ، وما قد يعثرها من شوائب . وهذه النظرة القاصرة أو الفكرة المتزمتة قد هيمنت على الأدب العربي في واقع الأمر على أوسع نطاق ، فلم يكن ثمة في رحابه أي حيز ذي شأن لأنماط تعبيرية أخرى مثل القصص الشعبي والزجل . والموشح الأندلسي نفسه ، برغم طرافته ، ظل عدداً من الأجيال يشق طريقة العاثر بصعوبة ، دون أن يعترف به أنصار القريض فناً من فنون القول . حتى أن الوشاحين قابلوا ذلك التجاهل بتجاهل أشد ، حين أخرجوا الموشح الفصيح من دائرة فهم ، واعتبروه بمثابة امتداد للقريض ، وأنه لا شخصية له . بل إنهم أمعنوا في التجدي بعد أن تمكنوا من فهم الجليلد ، وثبتوا فيه أقدامهم ، إذ اشترطوا أن تكون (الخرجة) مسوقة باللغة المحكية ، أي باللهجة العامية . والخرجة في فن

(٥٥) دار الطراز في عمل الموشحات ، ابن سناء الملك ، ص ٣٠-٣٣ ، تحقيق الدكتور جودت الركابي ، دمشق ١٩٦٩ .

(٥٦) حجاجية ، أي نسبة إلى الشاعر ابن حجاج الذي عرف بميمونه ، وقد عاش في بغداد خلال القرن الرابع الهجري .

(٥٧) قزمانية ، أي منسوبة إلى ابن قزمان أشهر زجلي الأندلس .

(٥٨) المراد بالكلام الأعجمي عند ابن سناء الملك هو الأجنبي أو غير العربي .

(٥٩) دار الطراز في عمل الموشحات ٣٢

(٦٠) البيان والبيان ١ : ١٤٥

والملاحظ أن كلام ابن سناء الملك الذي أوردته بعد أكثر من ثلاثمائة عام من كلام الجاحظ حرص فيه أيضا على طابع التلازم مضمون الخرجة المنطوي على المزج والخفة والمرح أو المجون والسخف، وبين الشكل اللغوي الذي يتجلى في عبارة الخرجة، من حيث كونها عامية هزائة للنفس باعثة على الضحك - حتى أن نعت اللفظ في هذا المجال بالسخف قد ورد بنصه أيضا لدى كلا المؤلفين، الجاحظ وابن سناء الملك. وفحوى ذلك أن الخرجة في الموشح، من جهة، والنادرة التي عنها الجاحظ من جهة أخرى هما معا مغترفتان من صميم الحياة اليومية ومنحوتتان من واقع لهجتها العامية المتبدلة.

كذلك يمكن القول أن النادرة والخرجة - من حيث كونها صوري تعبير - هما أيضا من طبيعة واحدة قوامها التطرف. وبعبارة أخرى، إن الصبغة الكوميديّة هي القاسم المشترك لهما. وما التطرف في حالتي النادرة والخرجة سوى التعبير الخفيف المأزول الذي هو أقرب إلى جنس الكوميديا، هذا الجنس الذي يرتكز إلى حد كبير على الحوار السخف الدافق الذي يشكل لغة الحديث في حياة الناس.

حين استملى الجاحظ، بفكره المتفتح وذوقه الرفيع عبارة « إن كنت سبع » برغم خطئها اللغوي البارز، آخذًا بالجانب الجمالي ومضجها بنعصر السلامة اللغوي، فمعنى ذلك أنه جعل الفن في المقام الأول، وأنه للضرورة الجمالية أيضا أحكام. لقد قر في نفس الجاحظ أن التعبير المحكي والبسيط في حياة الناس

سبيا في معرض المديح، هذا الغرض الرئيسي في الشعر العربي. فهو على غرار الجاحظ أيضا يراعي في الكلام أن يكون مناسبًا لمقتضى الحال، وأن: « الخفيف للخفيف والجزل للجزل، والافصاح في موضع الافصاح^(٦١)... »، « ولكل مقام مقال، ولكل صناعة شكل... ». ولما كانت الحمرة والطبيعة والمرح والطرب والغناء والموسيقى... هي الجواء المواتية لمضمون الموشحات، غدا من الطبيعي أن تلعب على الخرجة هذه السمة المرحية وأن تستمد من لغة الحديث ومواقف التبذل ما يضيف عليها الدعابة والطفرة، وبذلك تكون مسك الختام؟ فتترك أثرها في النفوس وتثير الضحك. وقد تستدعي ارتشاش الكؤوس على نعمات العازفين وإيقاع الراقصين. « إنما - كما قال ابن سناء الملك - العاقبة، وينبغي أن تكون حميدة ». ولهذا حسن فيها أيضا أن تكون « غزلة جدا ! هزائة، سحابة، خلابة، بينا وبين الصبابة قرابة...^(٦٢) »

وعلى هذا الصعيد المشترك من تلازم اللحن الموسيقي والخرجة الأعجمية في لغة الموشح قد نجد - كما أسلفنا - شبيها لهذه الظاهرة الموسيقية اللغوية أيضا في بعض أغنيات المرح أو العبث في عصرنا الحاضر.

وما الموشح في حقيقة أمره إلا ظاهرة لغوية أدبية وموسيقية متكاملة أفرزتها حياة المجتمع الأندلسي الحديثة، ولغة الجديدة، ثم انبثق من هذا المجتمع فن الزجل الشعبي، المسرة الأخرى لحقيقة الحياة الاجتماعية واللغوية والفنية في الأندلس.

(٦١) كتاب الحيوان ٣ : ١٢

(٦٢) دلو الطراز في عمل الموشحات ٣٣، ابن سناء الملك

في سبيل لغة ثالثة : ملامح نظرية نقدية

وبعد : فإنه إلى أي مدى ، في ضوء ما تقدم ، وغير المنحى النقدي للجاحظ يستطيع الباحث أن يتلمس ملامح نظرية أو مذهب أدبي على صعيد الفكر الجاحظي ؟

• لعلنا نستطيع استجلاء ملامح هذا المذهب النقدي الجاحظي ومقوماته من خلال الوقوف عند النقاط التالية :

أ - إن الجاحظ ، في فكره النقدي ، قد تفهم بعمق جدلية الشكل والمضمون ، من حيث تلازمها وتفاعلها على صعيد التأثير التبادل والمشارك ، ومن حيث عدم قيام أحدهما إلا بوجود الآخر ، فيها بمنزلة شفرتي المقياس لا يتم القطع بأحدهما بل بكتليهما . وكل محاولة لرواية النادرة على غير صورتها ، كإعراب لغتها المولدة أو تعديل عبارتها المحكية ، إن هي إلا تشوية لواقع الحال ، وإفساد لخصوصية المقال .

ب - استطاع الجاحظ بحسده الصادق ونظرة الثاقب أن يرى في اللغة كائناتاً حياً ، إنها في نظره - وبنتيجة الملاحظة والمعاينة والاستقراء - أداة تعبير غير ثابتة ولا جامدة ، بل متغيرة متبيلة ، وهي قابلة للتكيف تبعاً لتفسير أحوال العصر ومعطيات العيش وطبيعة المجتمع . .

ومن هذا المنطلق الركين الذي صدر عنه الجاحظ ، وهو أن اللغة ظاهرة اجتماعية إنبثقت لديه هذه الرؤية النقدية الهامة التي ترى أيضاً أنه إذا كان فن القول مرتبطاً

اليومية على خطه أو ابتذاله . . . إنما هو المعول عليه في هذا الصدد . أما التفاسيح أو التشدد في تطبيق قواعد لغة الكتابة والحظابة والشعر ، وجعلها تسري بقسريتها أيضاً على الأحذوثة المروية أو النادرة المحكية ، فهذا في رأي الجاحظ بمثابة وضع الأمور في غير مواضعها ، إذ يجعل الكلام معدولاً عن جهته ، واللفظ خارجاً من حده .

ويكاد يكون محور كلام الجاحظ بصدد موضوع التطرف والتوادد المحكية هو أن للموضوعات الجادة والمضامين الرصينة لغتها الفصحى ، وألفاظها الجزلة ، وأنه أيضاً للحالات الهازلة والمواقف العابثة كلماتها الملحونة وعباراتها اللينة . ومعنى ذلك أنه في مجال الكوميديا ومواطن السخر والاضحاح ينبغي محاكاة واقع حياة الناس الهازلة ، واعتماد لغتهم المحكية على علائها ، لأنها على أية حال لغة الواقع وصورة الحياة .

هذا الفهم المحدد والدقيق لدى الجاحظ لطبيعة اللغة المحكية في إطار المضامين الهازلة يقارب إلى حد كبير المفهوم السائد في النقد الحديث حول واقعية اللغة ، باعتبارها وجهاً بارزاً من واقعية الأدب . إذ أن اعتماد لغة الحديث أو الحوار الجارية في معرض مسرح الكوميديا ، وأيضاً اصطناع اللغة الدارجة على الألسن خلال الحياة اليومية ، برغم ما قد تنطوي عليه من خطأ أو ابتذال أو سخف . . . كل ذلك منضو داخل مفهوم مشكلة اللغة للواقع ، ولا سيما في الأدب التمثيلي الهازل أو الكوميدي ، وذلك على خلاف ما ينبغي أن تكون عليه هذه اللغة في الوجه الآخر المقابل ، من فصاحة وروصانة وجزالة ، على صعيد الأدب التمثيلي الجاد أو التراجمي .

وتنطوي على حالات . وهذا الفهم الرحيب لأبعاد الكلمة وظلال العبارة هو الذي جعله - برغم حرصه البالغ على صحة الكلام وسلامة التعبير - يتقبل الخطأ واللحن ، بل يجذبه ويستملحه ، إذا دعا إليه داع من دواعي الفن .

كل ذلك يعني في مفهوم النقد الحديث ، حرص الجاحظ على سمة الواقعية اللغوية التي ينبغي لها في رأيه أن تبسط ظلها على التكلم والمتلقى معا . وما هذه الواقعية اللغوية في حقيقة الأمر سوى وجه آخر متآلق من ذلك المنحى الواقعي الذي حمل الجاحظ لواءه في الأدب .

د- أطلق الجاحظ مقولة نقدية هامة ، حين ذهب إلى أنه « لكل صناعة شكل »^(٦٤) . وفحواها أنه ينبغي أن يكون لكل جنس أدبي شكله الفني الذي يلائمه . إذ الصناعة في مصطلح الأقدمين تعني في مفهوم النقد الحديث الفن بعينه ، أو الجنس الأدبي ، على أساس أن الصناعتين الأثيريتين عند العرب تجليان في الشعر والنثر ، وهذان أيضا أبرز فنون القول ، وبمقتضى ذلك ، فإن ما عناه الجاحظ هو أنه لكل جنس أدبي مخصوص خصوصيته الأسلوبية . وهذا المفهوم إنما ينبثق من المنطلق النقدي الشامل الذي أعتمدته الجاحظ أصلا وهو أنه لكل مقام مقال .

هـ- لقد تناول هذا الناقد العربي قضية اللغة المحكية في مجال التندر والتطرف ، على أنها قضية نقدية تتصل بلون أدبي متميز بغير سائر الأنماط التعبيرية . ثم عمد إلى تحليل طبيعة هذه اللغة وإظهار سميتها الخاصة بها

بالمجتمع وموازيا له ، وأن المجتمع متعدد الطبقات ، فإنه من الطبيعي تبعا لذلك أن تتجلى طبيعة التعبير في أشكال متعددة ، ما دام المجتمع نفسه طبقات متعددة . وهذا ما جنح إليه الجاحظ في قوله بأصرح عبارة وأوضحها^(٦٥) :

« وكلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات . فمن الكلام : الجزل والسخيف ، والمليح والحسن ، والقيح والسبح ، والخفيف والثقيل ، وكله عربي »

أما عبارة أبي عثمان الأخيرة التي تفيد أن جميع هذا الكلام برغم تباين مستوياته عربي ، فإن لها بعدا نقديا آخر قوامه أن صحة الكلام وحدها ، أو حتى فصاحته نفسها ليست العنصر الوحيد في تقويم العمل الأدبي ولو كان هذا الكلام في المقياس العام كلاماً عربياً . وهذا مفهوم دأب الجاحظ على تأكيده من خلال آراء عديدة له سلفت على نحو جانبي أو أساسي . وهذا ما يفضي بنا إلى بسط الأمر في النقطة التالية .

جـ- ويجمل ما خلاص إليه الجاحظ أيضا أن فنية العبارة قضية منفصلة عن صحة اللغة ، وليس بينهما تلازم ولا ترابط . وهذا رأي خطير في مجال النقد الأدبي ، مؤداه أن اللغة الملحونة والعبارات العامية ، شأنها شأن اللغة الصحيحة والعبارات الفصيحة من الوجهة الجمالية وعلى الصعيد الفني . وهذه السماحة في نظرة الجاحظ إلى اللغة ، مؤداه أنها لم يكن متزمتا في التعامل مع الألفاظ ، يعتبرها مجرد أوعية لحمل المعاني ونقل الأفكار ، بل رأى فيها رموزا ترمي إلى دلالات ،

(٦٣) البيان والتبيين ١ : ١٤٤

(٦٤) كتاب المجرى ٢ : ١١٤

أديب قبل أن يكون لغويا ، وفنان قبل أن يكون علما .
 وآية ذلك موقفه السلبى الجرىء تجاه النحلة والرواة ومن
 إليهم . إذ قال^(٩٥) : « ولم أر غاية التحوين إلا كل شعر
 فيه إعراب ، ولم أر غاية رواة الأخبار إلا كل شعر فيه
 الشاهد والمثل » . وهذا الموقف الجلي ينم على أن
 الجاحظ على كونه من أعلام اللغة والرواية لا يعد نفسه
 في زمرة اللغويين والرواة ، بل إنه يقف في الصف المغاير
 لهم ، ويتقدمهم ويأخذ عليهم قصور ذوقهم من الوجهة
 الفنية تجاه مقومات الجمال التي قد تنطوي عليها حلوة
 الأشعار ، وطرافة الأخبار ، حتى لكأن غايتهم لا تعدى
 اقناص الشاهد ، والتماس البرهان . وفي هذا وحده
 إدانة شديدة لهم .

ومجمل القول أنه ما كان لهذه المواقف النقدية التي
 انطوى عليها فكر الجاحظ أن تصدر عن رجل يعيش في
 وسط علمي محافظ ، لم يكن أصحابه المتشددون يتقبلون
 فيه أي تفريط بالعربية ، لغة الجذود الأوائل ، ولسان
 الكتاب المئين ، ولولا أن أبا عثمان نفسه كان ينطوي
 على جملة من الصفات : منها :

١ - المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها الجاحظ على
 صعيد الفكر العربى - الاسلامي ، وأيضا في مجال اللغة
 والأدب .

٢ - افتتاح عقل الجاحظ وبحره الفكري ، وانتماؤه
 إلى تيار الاعتزال الذي كان أبو عثمان نفسه أحد كبار
 أعلامه . وقد عرف المعتزلة في الاسلام برحابة آفاقهم ،
 واتسام عقولهم بقدر واف من حرية الفكر .

٣ - كون الجاحظ عربى المنزع ، وهذا ما عصمه من
 أية شبهة ، ومكنه من أن يقول ما لم يجرؤ على مثله سائر

التي تميزها من حيث النطق والأداء عن الأساليب
 المعتمدة في اللغة الكلاسيكية .

وقد اعتمد الجاحظ في إطلاق آرائه على نماذج تعبيرية
 محددة ، ونصوص أدبية معينة ، يتصل أكثرها بالمضمون
 الساخر أو الموقف الضاحك ، من مثل قصص البخلاء
 ونوادير المولدين ، ثم جنح لشفعها بما تقتضيه من حكم
 أو تعليق على هذا الصعيد النقدي . . .

على أن هذه المسألة الأدبية أو القضية النقدية التي
 تعالج طبيعة الصورة التعبيرية في معرض الملحة أو
 النادرة ، لم تكن - فيها يبدو لنا - طارئة في كتابات
 الجاحظ ، ولا عارضة على فكرة ، بدليل أنه تناول هذا
 الموضوع عددا من المرات خلال أبرز ثلاثة من كتبه ،
 وهي : كتاب الحيوان ، وكتاب البخلاء ، وكتاب
 البيان والتبيين . وهذا الأمر يعني بجلاء أن الجاحظ كان
 يولي هذه المسألة اهتمامه ، وأن مسألة اللغة المحكية في
 معرض السخرية والهزل كان لها - من منحاها الأسلوبى
 وأدائها الفنى - حيز واضح في فكر الجاحظ النقدي .

ولعله بوسعنا الآن القول أن هذه الالتفاتات التي
 وضعت في ذهن الجاحظ تشكل أساسا صالحا لمذهب
 نقدي ، قوامه الترخيص اللغوي لغاية فنية . وهذا في
 واقع الأمر منحنى خطير انتهجه الجاحظ بصدد ظاهرة
 لغوية اجتماعية انبثقت في عصره ، ودارت على لسان
 جيله . وخطورة هذا المنحنى تنوى في أن الجاحظ قد
 جنح ، من غير تحفظ ، إلى التسامح بصدد اللغة
 الدارجة على الأفواه ، كما استحسّن ، دون حدود ، ما
 كانت تنطوي عليه تلك الصيغ التعبيرية المولدة من
 ألفاظ دخيلة أو عامية أو خاطئة . وما ذلك أصلا إلا لأنه

الوقت نفسه وضع الجاحظ اللغة في إطارها الحيوي الصحيح ، حين رأى فيها ظاهرة اجتماعية متطورة ، تتمخض عن اللغة المحكية أو المنطوية التي تنبض فيها حياة الناس ، وتتجلى على ألسنتهم من خلال ما تدور به أحاديثهم ومخاوراتهم واسماهم . وهذه اللغة المحكية - كما يراها الجاحظ كذلك - إنما تنسم أيضا بما تنسم به اللغة المكتوبة الفصيحة من ألق وطرافة وإبداع .

معاصريه أو سالفيه . لقد كان في منجى من أن تصمه تهمة الشعبوية المستفحلة ، وهو في طبيعة خصومها ومناوئي دعائها .

وهكذا أحل الجاحظ الفن في منزلة أعلى من منزلة اللغة ، واكتفى بجعل اللفظ ، أي لفظ - على الصعيد الأدبي - مجرد وسيلة تعبيرية لغاية أسمى وأجل . وفي

مشروع منهج نقدي :

يعرض الخطاب الروائي « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ سيكولوجيا ، وفلسفة ، ورؤية شخصيات الى العالم ، مزجا الستار عن وعيها ولا وعيها المتجسد في سلوكها العملي الدال . والرواية بادخالنا ، كقراء ، الى وعن هذه الشخصيات ولاوعيها في علاقتها ، وعلاقتها بالفضاء والزمان ، فهي تكشف في ذات الآن عن سيكولوجيا السارد ، وفلسفته ، ورؤيته للعالم متجلية في أحكامه التقويمية ، ووجهات نظره حول جميع الشخصيات سواء الدائمة الحضور أو الكثرة الغياب ، وحل وجهات نظرها المتغيرة حسب الأحوال والظروف اذ من خلال مقول الظروف اذ من خلال مقول السارد يبدو اللامقول .

والاشكالية المطروحة هي كيف يتعامل الناقد مع ثنائية الشخصية والسارد لتحقيق الحداثة في النقد العربي الفطامح الى تحديث أنوواته الاجرائية ؟ غالبا ما كان النقد القديم يتتبع الشخصية ويهمل السارد ويسير النقد البنيوي الجينيبي في نفس الاتجاه مضيافا الاهتمام بعلاقة الشخصيات ولايعبر أي اهتمام للسارد الى أن برز الاتجاه البنيوي بعد الشكلائي فاهتم بالبنية السردية ، وزاوية الرؤية ، والمنظور السردية ، ووجهة النظر ، والمكونات الروائية من فضاء وزمان وشخصيات أو ما أسماه الحكاية والمحكمي الا أنه يؤجل الحديث عن السارد والمسروود له . واننا لنقترح لتحديث نقدنا العربي رصد علاقة أخرى بنيوية وجدلية هي علاقة السارد بالشخصية . بما أن السارد يصاحب الشخصيات في حركيتها عبر طول الرواية ، وبما أنه يشكل الظل بالنسبة الى الشخصية فينبغي أن يكون الاهتمام شاملا لكل من السارد والشخصية في علاقتها . كيف ؟ أيصرح بأفكار الشخصية ويسكت عن أفكار الراوي ، أيكشف الناقد عن وجهة نظرها ويلتزم الصمت عن وجهة نظر السارد ؟ اذا فعل فهو أحادي البعد ان اختيار احدهما دون الأخرى امر مستحيل لأنه مهما حاول فانه سيعجز لاحالة لأنها مترابطان ، ومتلازمان ، وكثيرا ماتنصهر هذه في تلك لانهما وجهان لعملة واحدة : الخطاب

حضرة المحترم أنسة السردية الابدائية

وقال يخاطب ربه :

- اغفر لي أفكار يارب ، انما قاسية

مثل الحياة ، وهي جزء منها ليس الا . . . »

نجيب محفوظ

محمد اسير في

الروائي . ان العلاقة بينهما جدلية تتنافي وكل أحادية وثنائية .

وهذا المشروع النقدي غير ثنائي مادام ينسّف صرح كل ثنائية في طموحه أن يكون جدلياً يتعامل مع كل ثنائية كوحدة كينية جدلية ديناميكية اننا سندرس ، كدوريت كون ، علاقة السارد بأي شخصية على مستوى الحكاية المحكي . انه منجج جدلي يعرض وجهات نظر السارد من خلال وجهة نظر الشخصية ابتداء من المحكي الابتدائي حتى نهاية الرواية . انه منهج علمي بنيوي جدلي ممكن . اننا نقترحه في نقد الاعمال الروائية لأنه لايتواءم والأحادية (تناول الشخصية وحدها) ولايتزامن والثنائية (تناول الشخصية وحدها ثم تناول السارد وحده) بل هو يزامن بين الشخصية والسارد ابتداء من الشروع في للممارسة النقدية . ان الناقد في واقع الأمر ، لن يخوض في الحديث عن إحدى وجهتي النظر حتى يجد نفسه يتحدث عن الأخرى . والفصل بين الشخصية والسارد لايتأتى الا في التنظير النقدي ، أما في الممارسة النقدية ، فكل فصل بين مكونين هو تشويه لهما معا .

ان سارد « حضرة المحترم » يجعل وجهات نظر الشخصية هي الأطروحة ، ووجهة نظر شخصية أخرى أوجهة نظره هي التقيض في معظم الرواية . ولن يفوتنا ونحن نستجليها أن تبرز المقاطع السردية القليلة التي تتطابق فيها وجهات نظر الشخصيات بوجهة نظر السارد . ولاسبعا والحالة هذه الا تشكيل التركيب الأطروحة الجديدة - بينها بجلاء لأن التقيض يتواجد في الخفاء . ان السرد يحمل ضمنيا اللامسرد . ومهمة الناقد هي انتاج خطاب نقدي يبرز اللامسرد من خلال المسرد الى أن يقضي له نقد النقد الذي هو التقيض الضروري للتركيب / الأطروحة الجديدة / وتتمظهر الشخصية في الرواية باللغة التي تشكل بصيغها المختلفة سيميائية إيديولوجيتها الرسمية وإيديولوجيا السارد

المستقلة كفعل السرد ، والحكي ، والقص ، والرواية ، والمحكي والحكاية ، ووجهات النظر ، وأحكام القصة والخلف ، والغيب ، والصمت ، وزاوية الرؤية أو المنظور السرد ، والرواية بضمير الغائب التي تشير الى وجود راو ، وشخصية وقارئ ، عمكنين ومحتملين والعلم والمعاصر الذي يساعد على استجلاء تمظهرات الايديولوجيا هو السيميائية ، والجهاز المفاهيمي ، ومصطلحاته الاجرائية الذي اختزله فليب هامون في مصطلحه النقدي الذي أسماه شعرية المعيار .^(١)

تمظهرات الايديولوجيا :

تتمظهر الايديولوجيا في الخطاب الروائي في عدة صيغ ، وتتجلى آثارها في اشارات متعددة : في العقيدة الدينية وميتافيزيقاها ، في الاخلاق ، في السلوكات الخاضعة لعا بعد تشكيلها للنفس ، والذهن ، والوعي واللاوعي ، وفي تحريف رغبات الذات الطبيعية ولأفكار الناتجة عن الرغبات ، وفي العقلانية ، والمثالية ، والرومانسية ، والفردانية ، والسلفية ، والماضوية ، واردة الفرد للقدرة والسلطة ، وفي الخرافة ، والأسطورة ، وفي تقديس الذات الفرد والحكومة ، وخطابها فتوحدها مع الاله المقدسات فتمتزج هذه بتلك ، وتغيم الحدود ، وتتشلى الترخوم ، ويحل خيال المؤدج هذه في تلك فينعمد التمييز ، وفي تقسيم الناس الى مستويات ، وأصناف ومراتب وفق معيار التراتبية ، فيقدس تبعاً لذلك المال ، والرأسمال ، والعمل والملكية والأشياء ، والبشر ويشيئ الانسان ، ويزده في الراحة والحياة ، والحب والجنس ، والعلم والتحرير والحرة ، والمعرفة والسياسة والفلسفة ، والادب ، والفنون والحقوق في اطار الخوض لمعايير العقل العقل ومقاييس العقلانية القائمة ، والتخلي عن الطوباوية الممكنة المؤسسة سعياً وراء طوباوية مستحيلة لا أساس لها ، ونسيان الجسد ، وشروط بقائه ، والقلب وعواطفه ،

١ - فليب هامون « نص وإيديولوجيا » ط ٥ : P.U.F. 1984 وقد كان هذا المرجع القديم أساسياً بالنسبة اليّ في انتاج هذا المقال ، ولهذا لن تشير اليه فيما سيليّ تجنّبا للتكرار .

وفقة وكأها طفل يلعب بمسدس معبأ وكشخص مفتون لا يرى سوى موضوع فنتته . هل بإمكاننا الحديث هنا عن السحر ؟ .

قال الرسول متعجباً يسوما : « ان من البيان سحرا ! » نعم ، لاسحر في التاريخ لا يستخدم اللغة في سحره أو أثناء عملية السحر واليوم نتساءل : أين يكمن سر السحر ؟ في الخطاب أم في المواد الكيميائية ؟ لقد أدرك الرسول أنه كامن في البيان . ان للغة قوة تشبه قوة السحر أو هي ذاتها السحر . رأي لغة هي تلك الساحرة ؟ انها اللغة التي تبعث المتعة ، وتحقق اللذة ، والنشوة في السامع / القارئ ، فيغدو وقد أسكرته اللغة بجمالها ، وبيائها وحقيقتها ، وموسيقاها التي تستحوذ على النفس ، فتؤثر في الاحساس وتثيره فيسمى السامع / القارئ كالمذعن الذي يهتز ، ويترنح ، ويغني ويردد ماقرأه أو بعض مقاطعها ، ويتمايل راقصا منتشبا ، وتجعله اللغة في تغريبه الى عالم من الخيالات ، والاحلام ، والرؤى . انه فعل تخدير اللغة الذي يفوق تخدير الحمرية - والأفيون ، والحشيش ، والمهيروين ، والكوكايين ، والمورفين . يمكن أن يكون تخدير هذه المواد أنيا ثم ينقضي ، ولكن تخدير اللغة يدوم ويستمر مدى الحياة . وكلاهما قاتل فالأدمان يقتل في أقصر لحظات العمر . وتناول كمية عدودة تناولا طيبا قد يساعد على الحياة كذلك النص البياني . فهو كالمخدر يصعب علينا تحديد زمن قتله رغم معرفتنا أن نتيجته الحتمية هي الموت . فالمدلة التي سيومئ فيها الشخص تحت تأثير سحره وتخديره تتغير من شخص الى آخر ليس كل نص بياني قاتلا . فالقاتل هو الخطاب الأيدولوجي الساحر . انه سر سحره كامن في أنه يعقق الخطاب الماضي الموجود في الأذهان . انه ينفذ الى ذهنية الشخصية فيستقر فيها فيغدو مكتوبا ، عفورا منقوشا على رخام الذاكرة فتتأدج الشخصية ، وتتخدر ، فيسرى فيها التخدير سريان السحر في ذات المسحور فتعمل بحسبه فتشخص الأيدولوجيا السائدة وتصيح حبة تسمى وتلتهم شخصيات أخرى لاعلمي بدون شخصية .

والجنون وثورته ، والشغب ارادته في التغيير وتخطيم الانساق ، ورغبته في التحول ، والتموقف بالقول بالقول والفعل المستوول . وتتجلى الأيدولوجيا أيضا في التقويم انطلاقا من قواعد ومحكات ، وفي شكل لغة ، وأقوال ، وآراء ، ووجهات نظر ، وأفكار ، ونظرات الشخصية أو السارد ونظريات ، ومعرفة تقنية ، وجمالية ، وصناعة وفنية وثقافية ، ومهنية وكشائية ، وإنشائية تخضع للقوانين المسطرة ، وللاعراف ، والأوضاع والمواضعات الاجتماعية ، والأذواق ، والرؤى الى العالم والفلسفات . .

شخصية الشخصية الرئيسية :

في الصفحات الأولى من رواية « حاضرة المحرم » يقدم السارد الخطاب الأيدولوجي السائد كأنه إشارة Signe مكتوبة على لافتة تلعب هذه الإشارة في الخطاب الروائي وظيفة اشارية مكثفة كما تلعب اللافتة في الحياة الواقعية الوظيفة ذاتها ، فهي تقرأ وتحفظ ، ولا تحلل ويسير القارئ العابر وفقها دون مناقشتها . انما تبدو كمثمل كحكمه ككتاوتون ، كوثيقة إدارية ، كمذكرة رسمية ، وتتخذ شكل جميع الصيغ التعبيرية القصيرة الثرية والشعرية ، وإن هذه الإشارة لتشكل في الرواية أفق إنتظار بالنسبة الى القارئ . ونظرا للعلاقة الجدلية بين فن التخيل والواقع ، فإن الأيدولوجيا الرسمية تلقي بهذه الإشارة كما يلقي الفلاح بالبذرة أملا في أن تنضج وتؤتي أكلها في أرض وعي الناس حتى تنمو وترعرع وتتفتح وتثمر في لا وعيهم لتجني هي بعد ذلك ، وبسهولة ، ثمارها ولا يهمها حيثل مصير السائرين والعاملين وفقه / والسارد الواعي بهذه الإشارة وبخطورتها هو الذي يتكفل تحت ظل الأيدولوجيا المستقلة التي يساهم الانتهاء اليها الى جانب الثقافة الواسعة والتراكم المعرفي في تجديدها وتفجيرها في وعيه الذي يصارع لوعي المؤدجين المشبهين بالأيدولوجيا الصنم . - مهمة كشف وفضح أثر - ايدولوجيا سائدة الخطر على حياة ومصير الانسان المؤدج الذي يؤنسسه السارد باعطائه صورة شخصية روائية يشكل الخطاب الأيدولوجي القاتل بنيتها المحكية والحكاية ، فتتحرك

والموت في أن واحد أو ينغص اللذة بالموت الذي ينتظر الفتاة الجاهلة انه كالغراش المنمنم ذي المظهر الخلاب ولكنه يخفي تحته هوة سحيقة في قعرها أفاع سامة تلذغ الساقط فيها ، أو حراب استنتها الى فوق تودي بحياة كل من حاول الجلوس عليه . انه كالقصر الملعوم المهدى .

ان الاشارة التي ذكرناها آنفا تومي من الآن فصاعدا الى ما ستتمخض عنه الرواية في خطها الانحداري من وجهة نظر السارد ، والتصاعدي من وجهة نظر الشخصية ذلك الخط الذي يرسم المراحل التي ستقطعها الشخصية المؤدجة والدائمة الحضور في الخطاب الروائي الذي له أيضا سحره الخاص الا أن هذا السحر يبعث النشاط والحياة في القارئ الممكن كالغذاء والدواء والارتواء الجنسي والفكري ، وهذا القارئ سيهتز سكران منتشيا بكأس الحياة انه النص المضاد لآلما قاله ولكن بما يقله والذي نستشفه من خلال ما قبل . انه النص / الحياة رغم عرضه للايديولوجيا السائدة / الموت ان الشخصية في رحلتها التراجيدية التي تلمح الى السقوط والانهيار ثم الموت لانمي تأجلها . ان الرحلة الى الحياة تحمل معها الموت العاجل . وكما قال لوكاش ابتدأت الطريق وانتهت الرحلة . انها رواية أو سيرة الشخصية الاشكالية الذاتية . ان موت يومي في آخر الرواية ناتج عن الحرمان من مباحج الحياة ان هذه الشخصية قدمت للايديولوجيا الرسمية قربانا لمعيد الدولة ولتصلتها باللامرئية هروبا من المقصلة المريعة الخاصة بالسياسيين وذوي الرأي التحرري ، المناضلين والفلاسفة والعلماء المناهضين لها .

والاشارة الساحرة المخدرة والقائلة قول السارد راويا عن عثمان بيومي الذي يرددها بهذه الصيغة هناك طريق سعيدة تبدأ من الدرجة الثامنة وتنتهي متألقة عند صاحب السعادة المدير العام هذا هو المثل الاعلى المتاح لابناء الشعب ولامطمح لهم وراء ذلك تلك هي سدرة المنتهى حيث تتجلى الرحمة الالهية والكبرياء البشري . ثامنة .. سابعة سادسة .. خامسة .. رابعة .. ثالثة .. ثانية .. أولى .. مديرو عام .. معجزتها

ان السارد يستقصي عبر النص الروائي جميع التظاهرات الممكنة للايديولوجيا السائدة ويتخذ لها شخصية كمرآة ذات أوجه متعددة مكسورة تعكس صورا متعددة لها . انه يسردن الخطاب الايديولوجي أو يؤنس السردى الايديولوجي من خلال شخصية الشخصية ليفضح الايديولوجيا المخدرة وأثرها القاتل والمبيد للأفراد والجماعات وتفرقتهم بعد تكتلهم متوسلا بالشخصية / النموذج دون أن يغفل ، كبنوي علاقاتها بالشخصيات الأخرى ، وبالزمان ، والمحيط والظروف والأحوال لتكتمل صورتها وتلتحم بنيتها . ونجيب محفوظ ، ككاتب روائي يخلق شخصية أخرى تكفل بالسرد وهو السارد وعمل الناقد في ممارسته النقدية للعمل الروائي أن يرصد علاقة الشخصية بالسارد كشخصية فلكل منها ايديولوجية أو قد يلتقيان ، بوحي أو غير وحي ، في ايديولوجيا واحدة كما افترقا . وإن نجيب محفوظ لسيميائي كبير اذ تتبع تحليلات الايديولوجيا السائدة والمستقلة وسجل راصدا سيميائياتها التي تشكل عالما كبيرا يغمر المؤدجين ، ويعرفهم تبار ، فيتخطون في أمواجه المتلاطمة كغرفتي يصارعونها كل حسب طريقته حيا في النجاة بحياته ، صراعا ينم عن مغامرة فردانية مؤدجة . والدليل على نهج المنهج السيميائي ذا الرؤية الثاقبة قول السارد في « حضرة المحترم » : « وتراءت دنيا من المعاني والمؤثرات » (ص : ٥) . وليست غاية هذا الفضح هو السخرية فحسب ، بل الغاية هي ادراكه أو وحي حلة مقصلة الخطاب الايديولوجي ومضائه ، وشدة وقعه الذي يشبه وقع الرصاص في الرؤوس والصدور ، سواء جاء على شكل كلمة ، أو جملة أو عبارة ، أو نص ، وفي جميع مرافق الحياة : في الشارع في العمل ، في المقهى ، في وسائل النشر السمعية والبصرية ، ووسائل الاعلام . وخطورته تكمن في اختزاله حياة المؤدجين الذين يغدون حمة الايديولوجيا السائدة ، والمبشرين بها ، والمدافعين الأوائل عنها رغم سلبيها حقوقهم ، وتجهيلهم ، وحرمانهم من ملذات الحياة . انها تحمل في طيها موتهم العاجل . فخطابها ساحر ولكنه كشهريار يمنح اللذة

المتباعدة كالمقاربة والمتجاورة تشكل ثنائيات وترتابة .
ومن أجل الفئات ، والبقايا ، والفصلات ، والنفائات
تستغرق هذه الدرجات حياة الانسان القصيرة
بكاملها ، ويحكم عليها باعدام عاجل قبل الاعداد
المؤجل الذي حكمت به عليه الطبيعة معجزتها تتحقق
في اثنين وثلاثين عاما . وربما تحققت في أكثر من ذلك
ولا يفوت السارد أن يبدل بوجهة نظره المضادة
الاتواصلية ، والكاشفة للحقيقة العارية ، على هذه
الدرجات بصيغة تواصلية : « أما الساقطون في وسط
الطريق فلا حصر لهم » (ص : ١٠) . الموت المعجل
الذي يعلم الناس قبل الموت المؤجل - حسب رؤية
السارد الواعية وعيا ممكنا - يتخذ أشكالا متعددة وألقابا
متنوعة ، مموهة (بالكسر) ، خادعة ، اغرائية ترابية :
صاحب السعادة - المدير العام . ويكني عن الاعداد
السابق وأنه بلغة الفرقان بكتليات سحرية مخدرة لها
مفاهيم في تصور ذهنية المؤجل ميتافيزيقية : « الرحمة
الالهية - سدرة المنتهى - حيث تنتهي حياة الموظف في
الواقع وهو جالس على شوكه الوظيفية وخياله فيها لم يعرفه
ولن يعرفه وإنما يتصوره ويرسم له في خياله صورة غائمة
وعائمة وهلامية - والمثل الأعلى - والمعجزة التي ترتبط في
ذاكرة الشعوب بالأنبياء الذين يجعلهم الخطاب المؤجل
فوق البشر . ومفهوم المعجزة في المحكي مفهوم السني
لاسيا إذا نظرنا الى العلاقة التنضيفية التي وضعت
كلمة « المعجزة » بعد لفظ « مدير عام » . ومعناها أن
هذه المكانة مكانة اهيبة ، وخاصة بالآل أو بني أما الانسان
فهو عاجز عن بلوغها في زمن الأيديولوجيات السائدة
التي تحت على الاهتمام بها وتشغيل الفكر بحلم الوصول
اليها في زمن الوصولية . أما المفهوم الدلالي المعروف فهو
يعني الفعل الخارق الذي يفوق القدرة البشرية وهو
مفهوم ميتافيزيقي خرافي أسطوري . ولا ينبغي من هذه
الألقاب الماكرة ، والمضللة ، والأحكام القيمي المطلقة
التي لاتحدها النسبية الواقعية سوى الفقر والعوز والحاجة
الدائمة الملحة والموت المعجل لأن أجرة العامل .

تتحققت في اثنين وثلاثين عاما وربما تحققت في أكثر من
ذلك . » (ص : ١٠) . ان هذا الخطاب مؤدلج يميز
بين رؤيتين الى العمل / الوظيفية :

١ - رؤية منظور اليها من زاوية الأيديولوجيا السائدة
التي قسمت العمل تقسيما تفتيتيا الى درجات تخفي
وراءها الاستغلال ، والاستلاب وسراب الحياة .

٢ - رؤية منظور اليها من زاوية الأيديولوجيا
العقائدية .

وتبرز الرؤيتان من خلال التقييم الظاهر في النص /
الشعار المؤدلج الذي يرسخ أيديولوجيا الطبقة المالكة
لوسائل الانتاج عن طريق الاعتماد على العقيدة
وتشويهها كما يبدو ذلك من سجل الفرقان ولغته التي
تتخذها كقناة يعبر منها الخطاب المؤدلج الى الأذهان دون
مقاومة لأنه حتى العقيدة تأدلجت وانصهرت
الأيديولوجيتان فشكلتا أيديولوجيا واحدة سائدة .
ويتجلى التقويم وأحكامه من خلال النعوت ، والصفات
والأحوال ، والكتابات والألقاب وفق قواعد الثنائيات
والمراحل الموجودة بين طرفي الثنائية كالسعادة والشقاء
والتألق والانطفاء ، والمثل الأسفل والأعلى والجنة
والنار ، والكبرياء والكبر + الرياء + الدناءة ، والعادي
والخارق ، والتحقق وعدمه ، والقناعة والطموح :
طريق سعيدة - تنتهي متألفة - المثل الأعلى - سدرة
المنتهى - الكبرياء البشري - معجزتها تتحقق (١)
والخطاب المؤدلج يؤكد بسحره الغامض والخيالي
والميتافيزيقي والأسطوري ، التحقق وينفي الطموح
المختلف بصورة اطلاقية : « ولاطمح لهم وراء ذلك
المؤدلجون ، هم الذين يتكبرون هذا الخطاب كبنية
فوقية لما يسيطرونه من قوانين صارمة على الشعب والحامية
لمصالحهم الاقتصادية ومن تشريعات استغلالية اجرامية
وقاتلة بتدبير العمل وجعل القيم المضادة مجرد أوهام :
« ثامنة . . سابعة . . سادسة . . خامسة . . رابعة . .
ثالثة . . ثانية . . أولى . . مدير عام » . والأرقام

الموظف زهيدة ويعمّوس عنها بالخطاب الوهمي المؤدلج ، والروح المجرد ، المثال ، والرحمة والجنة ، والسعادة المرجأة كتمويض عن المادي والمحسوس والسعادة المرجوة الواقعية والضرورية وما الفتات المتذّرر سوى البديل الختمي لهذه الترقية السيزيفية الملهوفة واللاهئة من أجل لاشيءٍ والمحترقة شوقاً الى العدم لاحترق الأجور بنار الأسعار واحترق الماجور :

« اني أشتمل ياربي . . . »

النار ترعى روحه من جلورها حتى هامتها المحلقة في الأحلام . وقد تراعت له الدنيا من خلال نظرة ملهمة واحدة ، كموجة من نور باهر ، فاحتواها بقلبة وشد عليها بجنون ، كان دائماً يحلم ويرغب ويريد ولكنه في هذه المرة اشتعل ، وعلى ضوء النار المقدسة لمح معنى الحياة » (ص : ١) . ان السارد يجعل من بيومي - Bio O Vie من بيومي ولكن = Mais أو Moitie O mi وهكذا يغلّو اسم بيومي من حيث التحليل التجنيسي التصحيقي « حياة ، ولكن . . . »

أو « نصف حياة » أو « حياة ناقصة » - الفراشة التي احترقت لما حاولت المستحيل وهو اقتباس من الشمعة نارها . إنه يحكم عليه بأنه محلق في الأحلام أي رومانسي طوباوي وأنه منبهق بمحرق سحر الايدولوجيا المحرقة بعدما حلت فيه فحل فيها . إنه الحلول الايدولوجي . وقد شبه السارد هذا السحر وهذه الفتنة بالنار المقدسة . ويومي المنبهق بالنور يقدر النار كالبداي والمؤدلج ولكن نورها أعشاه فأرداه أعمى لا يدرك النار البروميتية التي تحمل معنى الحياة الحقيقية وإدراكه خاطيء لأنه يرى معنى الحياة في الموت . والانهار والتقدس يستلزمان التضحية الشيء الذي أفضى به ، في مسيرته الطموحة إلى المجد الزائف ، إلى التفجير ، والادخار ، والحرمان القاتل ، والبخل المتشدد خوفاً مما قد تسفر عنه الأيام المؤجلة المضطربة - وهي دائماً تسفر عن شيء غير متوقع - وهي التي تغرس -

الأوهام ، وتزرع الاستيهامات فتنمو ، وتنضج ، وتثمر ، فتحصد ، وتستحوذ على الانتاج كله فتتجمع الشخصية المؤجلة ، كالأقطة ، المشيم لأن الايدولوجيا المؤسطرة أسطرت الذات فأسقطت الذات نفسها على الأسطورة فأعدمت الحاضر والواقع . ولن تزول الأسطورة إلا بزوال الايدولوجيا المؤسطرة .

يقول السارد عن عثمان بيومي وعن سيرته الذاتية الدالة على الوضعية الاقتصادية الخاصة والعامة في الزمن المؤدلج .

لن تفهم أي سيرة إلا اذا ربطناها بالظروف الاقتصادية لأن السيرة داخل العمل الأدبي ومن ثم ربط هذه البنية السيرية الدالة بالبنية الاقتصادية العامة للمجتمع الذي يعيش فيه . :

« إنه يتفق القرش بغير ضرورة ملحة . وفتح حسابا في دفتر توفير البريد مع أول مرتب قبضه . ولذلك لم يخطر له على بال أن يغير مسكنه أو حارته أو طعامه . وهو يؤمن أن الادخار وسيلة هامة من وسائل جهاده الطويل وشعبية من شعائره دينه ، وأمان ضد الخوف في عالم غريب » (ص : ٢٩) .

إن النص يوضح أن الشخصية تخضع لايدولوجيا التوفير كإضافة أخرى على إيدولوجيا تفتيت العمل والأجرة ، ومضاعفة الحرمان ، وعدم الاستقرار النفسي والتردد ، والخيرة ، والانتقاء المستمر ، والاختيار الدائم ، والعجز عن الاتفاق والثبات في مكان واحد كماء المستنقع ، والتمسك والانتقاء بطعام واحد كالبهيمة إلى حد لا يبغي الغذاء عن الدواء والدواء عن الغذاء لعدم القدرة في اقتنائها معا . والخطاب المؤدلج يصدق / يتفق بالتوفير بنسبة الريح الغامضة والمغربة والفضيلة لتضخيم الرأسمال .

هناك ثلاثة دلائل على مخالفة السارد للشخصية المؤجلة :

الخان وغير الخان إلى أن ماتت حواسه فأضحى جثة لا يغبها في شيء ما تبقى لديها من حركة وعي مؤدج زائف .

إن الايديولوجيا السائدة حرياء معكوسة . إنها تلون بلونها كل ما تمر به من ثقافات كالتاريخ ، والحضارة ، والأخلاق ، والعلوم بشق أصنافها ، والفلسفة ، والأدب . إن هذه الثقافات المؤسساتية تتأدج الى حد يتعذر التعرف عليها كما يتعذر التعرف على الحرياء في الأشياء . لا يدركها من ثم عدا من خبرها ، وخبر حرياتيتها المقلوبة . فالتاريخ مثلا يتشكل بتشكيلها ، وتنصهر الأخلاق في بوتقتها إلى حد أنها تجعل الوظيفة فوق كل المهن الأخرى كالنجارة ، والصناعة ، والسياسة ، والجندي ، والبحرية . . . ، وتضرب حالة من التقديس حولها فتبعدها من الأرض في عليائها بعد أن موقعتها في الساء بحيث يستحيل الآن عليها معرفتها ولجلهها مزجتها بالاله فلا يكاد المرء يميز أحدهما عن الآخر إلا إذا قبض لها كاتب ساخر يضحك ويضحك من المقدسات بعد إزالتها من ساء الوهم إلى أرض الحقيقة والواقع . يقول سارد « حضرة المحترم » : « الوظيفة في تاريخ مصر مؤسسة مقدسة كالعبد » (ص : ١١٣) . وهكذا يعدم التاريخ الحقيقي ، تاريخ الشعوب ، والحضارة التي شيدها ، شقا أو اغتيالاً

إن الايديولوجيا السليمة تستمد قوتها ونورها المفضل ، وبريقها الخادع من العمل المستمر الذي لا ينقطع ولا يتوقف والذي يجهل الراحة ، ولا يفكر فيها ، كما لا يفرق زمنها بزمن العمل الذي يندى فيه جسده عرقاً ، ويرهق فيه ذهنه تفكيراً ، ولا يدرك هذا العمل على العامل / الموظف سوى التنف ، ولا « يرد عليه » أصحاب وسائل الانتاج المتجني للخطاب المؤدج « رزقه » .

الراحة حق من حقوق كل إنسان .

١ - أن طبيعة الحكاية هنا مزدوجة . إن المرء عندما يحكى بضمير الغائب عن شخص آخر أو شخصية تحليلية ، ويعرض وجهات نظره ، وسلوكياته ، وأفعاله ، فإنه يقوم بفعل الحكى كي يستخلص القارىء نقيضها . والرواية بضمير ال « هو » الدالة على الشخصية تتضمن في ذات الوقت ضمير « أنا » السارد ، وضمير « أنت » القارىء ، وكأن الراوى يقول للقارىء دون أن يصرح بذلك : « إني لست مع وجهات نظره وسلوكياته وأفعاله ، وإني لأخالفه في كل ذلك فما رأيك أنت ؟ » .

٢ - سمة الاستاد ، والايغاز ، والاضافة ، والنسبة بضمير الغائب لثيرة ساحة أنا السارد وأنت القارىء . تقييم السارد للعالم بنعته بصفة « خيف » انطلاقاً من معيار الخوف والأطمئنان ، وهي صفة تحتل ضمن ما تحتل من دلالات خافة دالتين تحددان رؤيتين إلى العالم ؛

أ - رؤية الشخصية الحرفية القاموسية الضيقة لوعياها الزائف المؤدج والسلفي : « العزاء الباقي هو العمل ، والثقافة ، والادخار ، وكلها ضاق بتقشفه قال لنفسه : - هكذا عاش الخلفاء الراشدون » (ص : ٧٢) .

ب - رؤية السارد الواسعة لوعيه المحتمل بحيث أن ما يخفيه هو عالم الايديولوجيا المفرقة والمشتتة للناس وبحيث يغدو المخيف هو غياب التضامن التاريخي .

إن يومي يجرم نفسه بل هو مدفوع الى الحرمان لتأديله ، من كل متعة ، ولذة ، وجمال في الأشياء ، والأجسام ، والأجساد ، والأصوات ، والروائح ، والأطياب ، والأطعمة والألحان ، والمشاهد الخلابة ، والأسفسار ، والرحلات ، والاكتشافات ، والاختراعات ، والمناظر الجذابة والمتغيرة حسب الفصول ، والأزمنة والأقطار ، ومن دفعه الشمس ويرد الشتاء وبرودة المياه ولجها صيفاً ، وأنواع الشراب في

لن يناظرل المؤدلج عن شئ أعمته الابدولوجيا التعتيمية عن رؤيته . فقولها مستعارة من قوته ، ونورها مقتبس من نوره فأصبحت قوته من « قوتها » ونوره من « نورها » . ولأجل هذا ولتنوير الظلامية الكاسن في نورها الخادع يدعو السارد الفاروى لدراسة الموظف / العامل دراسة اقتصاد - اجتماع - نفسية كي يتعرف هذا الاخير على واقعة وليغيره ويعمل على تغييره ، وتغيير وضعية العمال التي مستغرى وضعيته . لا يزال الموظف لغزا محيرا ، ومستعصبا على الدراسة التي تقتضي تصافر الجهد ليفرد كل دارس بزأوية وحسب اختصاصه . « وحضرة المحترم » تدرس وفق اختصاصها الابداعي الروائي وعي الموظف نفسه وهو بنية فوقية صغيرة شكلتها الابدولوجيا السيدة البنية الفوقية الكبيرة التي تشكلها معا البنية التحتية المختارة .

لا يمكن للبنية الفوقية المؤدجلة أن تتنقد ذاتها إلا إذا وعت ذاتها ووعت الابدولوجيا السيدة والبنية التحتية المتوخاة في كل أبعادها ، وقارنتها بالبنيات التحتية المناقضة لها .

لا نريد هنا إعادة القول في العلاقة الجدلية بين المادة والفكر .

لن يغير الفكر الواقع إلا إذا كان واعيا به ، وبالفكر الناتج عن الواقع أي ان يعى الفكر ذاته وأن يعى في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه الذآن يعى في ذات الوقت الواقع الذي أنتجه .

يقول السارد بأسلوب المحكي الذاتي المجلوب في خطاب تتعاقب فيه الابدولوجيا الحرة والابدولوجيا السيدة : « وقال لنفسه إن الموظف مضمون غامض لم يفهم على وجهه الصحيح بعد . والموظف المصري أقدم موظف في تاريخ الحضارة . إن يكن المشل الأعلى في البلدان الأخرى محارباً أو سياسياً أو تاجراً أو رجل صناعة أو بحاراً فهو في مصر الموظف . وإن أول تعاليم

أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا أب موظف متقاعد إلى ابن موظف ناشئ . وفروع نفسه لم يكن إلا موظفا معينا من قبل الألهة في الساء ليحكم الوادي من خلال طقوس دينية وتعاليم إدارية ومالية وتنظيمية ، ووادينا وادي فلاحين طبيين يحنون الهامات نحو أرض طيبة ولكن رؤوسهم ترستفع لدى انتظامها في سلك الوظائف ، حينذاك يتطلعون إلى فوق إلى سلم الدرجات المتصاعد حتى أعتاب الألهة في الساء . الوظيفة خدمة للناس وحق للكفاءة وواجب للضمير الحى وكبرياء للذات البشرية وعبادة لله خالق الكفاءة والضمير والكبرياء » (ص ١١٣) إذا كانت الشخصية والفلاحون يقلدسون الوظيفة إلى حد عبادة الموظفين « الكبار » ، فإن السارد يحل الفلاحين ويمجد الأرض ويعظمها ويكن لها كل تقدير . ولكل من السارد والشخصية أحكامه التقييمية . فالسارد يحكم على الفلاحين والأرض بالصفة التي يمددها النعت التخصيصي الذى يفضل قيمة من بين القيم الأخرى : الطيبين - الطيبة . أما الشخصية فهي تحكم على الوظيفة بالأحكام التقييمية الأخلاقية ، والتقنية ، والمعرفية ، والنفسية ، والعقائدية : خدمة للناس - حق للكفاءة - واجب للضمير الحى - كبرياء للذات البشرية - عبادة الله - وفق معايير الخدمة وعدمها ، للناس وللحيوان والأشياء ، الحق أو غيره ، الكفاءة أو العجز ، الواجب أو غيره ، الضمير وعدم الضمير ، الحى أو الميت ، الكبرياء أو الدناءة ، العبادة أو الكفر ، الله أو الشيطان . ويسدو أيضا أثر - الابدولوجيا في تاريخ الموظف الذي يحكم عليه حكما قيميا وفق معيار الجدة والقدم ، والواقع والمثال ، وجود التعاليم وانعدامها ، أخلاقية وغير أخلاقية ، والتنمين أو الانتظار ، الالهى أو الشيطاني ، الالهى أو الانساني ، الطقوس أو غيابها الدينية أو غير الدينية ، إدارية أو لا

إِنَّ الأرضَ إلهةٌ كلُّ الآلهةِ تحتَ الشمسِ .
 ما أحوجَ الوظيفةَ إلى عبادةِ الأرضِ وتقديسِها !
 والفلاحون في استيهاماتهم المقدسة (بالكسر)
 للوظيفة ولتأديجهم يتوقون إلى المستحيل ، والأسطوري
 في يثوبيا تنسيهم الممكن / الأرض / الواقع / الانسان
 / الجميع ، وتشخص أبصارهم إلى « المناصب العليا »
 كما تشخص إلى إله الخلود ، لو كانوا غير مؤدجين
 لعلوا أن أصحاب « المناصب العليا » أقزام لا حول ولا
 قوة لهم إلا قوة الفلاحين ، والعمال ، والموظفين ،
 والحرفيين ، والصناع ، والعمالين - بإختصار - كل
 عمل باليد والفكر ، وقوة الأرض ، وثروتها هو الذي
 يحدد المناصب ، وروايتها ، ولزهدوا في هذه المناصب ،
 ولسخروا من الموظفين « الكبار » الذين يعيشون عالة
 على الفلاحين وغيرهم .

إِنَّ قوةَ الشعبِ هي قوةُ الحكومةِ .

إنها حكومة لم تَعِ ذاتها .

إِنَّ الشعبَ هو الدولة في الحقيقة والواقع .

إذا بخلت الأرض فلنقم على المنصب والوظيفة
 والمآثم .

إذا انتزعت الأرض عنوة أو مراوغة عن طريق
 الضرائب ، والغلاء ، والزيادة في الأسعار وفي ساعات
 العمل ، فالنضال حتى لاسترجاعها فوراً .

إِنَّ الصعودَ في ذلك المقطع السردى مجازي يعني
 صعود الأرواح / النفوس إلى السماء قبل أوانها وقبل
 موت الجسد حسب ثنائية الروح والجسد . وهو أمر
 مستحيل إذا تحطمت هذه الثنائية ، إنه صعود مبكر وغير
 طبيعي ناتج عما عاناه صاحبه من عذاب ولرارة وشقاء
 الجري وراء السراب . إنه بلغة مجازية موت مستعجل
 رغم حركة الأجساد بغية تحقيق الأمال الخادعة ،
 والأماني الضائعة . ووجهة نظر الشخصية المؤدجلة
 (المؤدجلة خبر لوجهة النظر) تنم عن رؤيتها الأحادية

إدارية ، مالية أو غير مالية ، منظمة أو فوضوية : أقدم
 موظف في تاريخ الحضارة - المثل الأعلى - التعاليم
 الأخلاقية الأولى وصايا موظف - فرعون موظف - معين
 من قبل الآلهة - طوقس دينية - تعاليم إدارية مالية -
 تنظيمية . وأن الفلاحين / الموظفين يتطلعون إلى فوق
 مما يدل على أن هناك (تحت) و (فوق) بل توجد كل
 الثنائيات التي ينبغي تدمير قلاعها وحصونها . والسارد
 يدعو إلى أن تقام البحوث حول الموظف لمعرفة واقع
 الوظيفة ، ولأدراك أنها مقدمة دون سائر الوظائف ،
 وأنها تتبع النظام الوراثي منذ الفراعنة . ولو استحضرنا
 علائق الغياب في ذاكرتنا عن فرعون ، وعن تجبره ،
 وطغيانه وتآلمه ، واستبداده الذي سكت عنه الخطاب
 المؤدج واكتفى بالإشارة إلى نظمه كالنظام الاقتصادي
 المتدهور الذي يتخذ الدين والأخلاق أيديولوجيا سائدة
 للاستغلال ، لا تكتمل لدينا دلالات علائق الحضور في
 الجملة الخاصة بفرعون ، ولأدركنا أن التاريخ يعيد نفسه
 بصورة أبشع . وتتمظهر أيديولوجيا السارد المستقلة في
 الحذف ، والبياض الذي تركه مفضلاً للصمت
 والسكوت . يتجلى الحذف في قوله : « إن أول تعاليم
 أخلاقية حفظها التاريخ كانت وصايا » حيث حذف
 « لنا » بين حفظها والتاريخ لأنه يرغب في أن تحفظ لنا .
 ويتجلى صمته وسكوته عما يشبه هذا القول : « كما
 يحدث في مصر الآن » الذي كان بإمكانه أن يأتي بعد
 الجملة التي تحدثت عن فرعون في حذف هذا القول .
 وبقي الصمت مستمرا إلى أن جاء يوسف الفقيده فمزق
 الكمامة ليجهز في حرية واستقلال بهذا القول عنوانا
 لرائعته « يحدث في مصر الآن » . أما السارد « حضرة
 المحترم » فهو يفتقر على الشفرة التي أحدثها في المقطع
 السردى إلى وصف الفلاحين الذين ينحنون لتمتطي
 الحكومة ظهورهم ، ويركعون لها لتأليبهم إياها بدل
 الانحناء لإجلال وإكبار الأرض الجديدة به .

مفيدة زواجاً موفقاً من شأنه تمهيد الطريق للتقدم» (ص ١٥).

يعبر هذا النص عن أن «حضرة المحترم» تقدم بنية ملتزمة، فعل مستوى الحكاية، فإن سلوكه الشخصية يخضع بحرفية بلهاء للخطاب الايديولوجي الرسمي الذي جاء في صيغة الاشارة التي سبق ذكرها. فهي تسيّر وفقه في تفكيرها، وتصورها، ومعرفتها، ورؤيتها للتاريخ، والاقتصاد، والدولة، والدين، والعمل / الوظيفة... وعلى مستوى المضحك، فهذا الشعار في العمل والحياة وكما يتجلى ذلك من بنوده الثمانية التي تطابق عدد الدرجات الثماني المسطرة في الاشارة المؤدجلة والباعة على التادلج، تفريع عن الاشارة المؤدجلة منسجم معها كباقي التفريعات التي ستليها في شكل مقاطع سردية، وحوارات، ومحاكمات وأوصاف، ووجهات نظر السارد والشخصيات التي يوزعها نجيب أيضاً ب تقنية هندسية معمارية ورياضية وفق عدد ٨: فالشخصيات / النساء ثمان:

- ١- أم حسني .
- ٢- سيدة .
- ٣- قدرية .
- ٤- ست سنية .
- ٥- أصيلة الناظرة .
- ٦- أنسية رمضان .
- ٧- إحسان إبراهيم .
- ٨- راضية عبد الخالق، والشخصيات / الرجال كذلك ثمان:

- ١- سعفران يسويوني .
- ٢- حمزة السويوني .
- ٣- بهجت نور .
- ٤- حسين جميل .
- ٥- إسماعيل فائقة .

إلى الوظيفة. إنها تعتبر العمل منفصلاً عن الراحة بكل ما تحمل كلمة «راحة» من شحنات دلالية، وتعد الراحة منفصلة عن العمل مما يجعل الرؤية موسومة بالثنائية حتى. تتجلى هذه الثنائية في ورقة العمل التي اتخذتها الشخصية دستوراً وشعاراً لها ومشروعاً لسلوكها المستقبلي. إنه نص يطفح بالعلائق الاستبدالية اللغوية الدالة على البراكسيت إذ يسود فيها جذر العمل وغياب الراحة. لا وجود ولو لاشارة بسيطة إلى الراحة، والتسلية، والعث الجاد أو الجدل العايب، والاقبال على الحياة والحب. إنه نص تنبثق منه العقلانية المعاشية لتعبيره، والكاشفة عن حضورها المكثف والمستقر في وعي الشخصية كما تنبجس منه البراجماتية والايولوجيا القاتلة والبخيلة التي لا «نفع» فيها ولا «منفعة» ترجى منها لأنها تشغل الفرد الذي يقضي عمره في دراسة لثيل شهادة التخرج إلى الشارع أو القبر قسراً لا اختياراً تخليه التضحية والتموقف من أجل الجميع أو في سبيل الانسان:

- ١- القيام بالواجب بدقة .
- ٢- دراسة اللاتحة المالية التي يشار إليها وكأنها كتاب مقدس .
- ٣- الدرس للحصول على شهادة عليا ضمن الطلبة الذين يعملون من منازلهم .
- ٤- دراسة خاصة للغتين الانجليزية والفرنسية بالاضافة الى العربية .
- ٥- التزود بالثقافة العامة وبخاصة الثقافة المفيدة للموظف .
- ٦- الاعلان بكل وسيلة مهذبة عن تديني وخلقي واجتهادي في عملي .
- ٧- العمل على كسب ثقة الرؤساء ومحبتهم .
- ٨- الاستفادة من الفرص المفيدة مع الاحتفاظ بالكرامة مثل مساعدة أدبية تقدم للذي شأن، صداقة

ومعيار الربح والخسارة : الحصول - المفيدة -
 كسب - الاستفادة - الفرص المفيدة - صداقة مفيدة ،
 والطابو TABOU الخاضع لمعيار المعرفة السطحية
 والعليا : الشهادة العليا . والغاية منها هي الترقية .
 والظل الذي ينوب عن الترقية وفئات الترقية هي
 الشهادة التي يفوق مجهودها مقابلها الذري ، إلى حد
 الزهد في الجانب الأساسي وهو الحياة والانساق وراء
 التفكير في الذات الفردية المؤجلة وطموحاتها الزائفة ما
 دامت بعيدة عن قضايا الناس جميعاً :

« هل ما زال ينقصك تعليم ؟

- الشهادة العليا .

- لماذا ؟

- مساعدة لأبأس لها للترقي « (ص : ١٨ - ١٩) .
 ويختزل معنى حياة الشخصية في الوظيفة ، في العمل
 « المقدس » . فالعمل في نظرها كوني ، إنه يعني الإله ،
 والحكومة ذاتها الواحدة والوحيدة المجسدة لروح
 الإله .

إن الأيديولوجية الرسمية هي التي تتحدث عبر ذات
 الشخصية سواء بصيغة المناجاة أو بصيغة المحكي الذاتي
 المجلوب والتلقائي ، أو في حوارها مع باقي
 الشخصيات وعرض وجهات نظرها . إن الشخصية
 مبشرة بها وتستند ، دون وعي منها ، إليها في كل اتصال
 تقيمه مع غيرها . وهي نموذج للمؤدجين الذين يتم
 التواصل بينهم لترحدهم ووحدهم وانحادهم اللاواعي
 تحت ظل وحدة الخطاب المؤدج (بالفتح وبالكسر)
 بنفاذه إلى ذهنياتهم كما فرق بينهم لدعوته الرومانسية
 والفردانية والمثالية فأمسوا ذاتاً متشظية كل واحدة تسير
 في طريقها الخاص كالكرابك المتابعه محاولة تأكيد
 الذات التي ألغتها الأيديولوجيا الرسمية بتأكيد ذاتها
 هي . وكل تأكيد للذات ما هو إلا تقليد جديد لذاتها في
 صورة تقليد للفرد / الإله كما حدث ذلك لجولييان

٦ - عبد الله وجدي .

٧ - مهندس .

٨ - طبيب .

وسيلتقي عثمان بيومي ، ويتحاور ، ويدلي بوجهات
 نظره وفق وجهات نظر هذه الشخصيات بالتبادل
 لتداخل الشخصيات / النساء بالشخصيات الرجال بناء
 عليها تتغير فصول الرواية .

إن التادلج معاش لهذه الورقة ونستشف ذلك من
 العقلانية الأخلاقية التي تقسم الفرد على تقديم الواجب
 وتوبخه على إهماله فغداً ذلك معياراً يقوم من خلاله :
 القيام بالواجب ، ومن خلال معيار معرفة أو جهل
 التقنية : بدقة ، ومعيار الأمانة والحيانة : بأمانة ،
 ومقياس التقديس والتدنيس : تقديس الوثيقة المالية ،
 وقاعدة الرقاقة واللبونة ، وسيلة مهذبة ، وقانون
 الأخلاقيات : تدني - خلقي - الكرامة ، والمعرفة
 حسب قاعدة العلمي والأدبي : مساعدة أدبية ، وضابط
 النجاح والفشل : زواج موفق ، وسنة التقدم
 والتخلف : طريق التقدم ، ومحك الثقة وعدم الثقة :
 ثقة ، والمح والكرامية : محبتهم .

أما قاعدة العمل فهي التي تهيمن على المشروع .

إن إحدى مقولات سارتر هي أن الإنسان مشروع .
 ولكنه يمكن أن يكون مشروعاً لمشروع لم يجتريه بكامل
 الحرية والوعي . وسيمارس حريته ووعيه عندما سينظر
 في مشروع نظرة نافذة تجعله يميز بين مشروعه كإنسان
 حر ومشروع غيره الذي يستعبده .

وبيومي ليس بمشروع كإنسان مستقل بل هو مشروع
 غيره . إنه مستعبد من طرف المشروع الأيديولوجي
 المسيطر الذي يخضع الناس للعمل فقط : ورقة عمل -
 القيام ب - دراسة (ثلاث مرات) - التزود - يعملون
 من مثازهم - اجتهادي في عملي - العمل على - مساعدة -
 تقدم ...

قال بعض الفلاسفة إننا لا نرى الأشياء إلا حسب تجاربنا . وهذا يعني أن العين زجاجة حسية وحاسنة عضوية تربطنا بالعالم الخارجي . وإذا كانت التجارب هي التي تشكل بنيتنا الذهنية ، فهذا يعني أننا لا ندرك الأشياء كما هي ، وإنما نخلع عليها من تجاربنا ، من ذهننا ، من ذواتنا . إذن فالذهن هو الذي يرى الأشياء من خلال التجارب التي انطبعت على صفحته . والنسيان الذي يصاحب جدلياً عملية التذكر والتفكير هو الذي ينتخب مرجعاً أو موضوعاً من بين المراجع أو الموضوعات ليفكر بها . وإذا كان الخطاب الأيديولوجي السائد هو الذي يشكل بنيتنا الذهنية في جميع مراحل حياتنا التي لا تتجاوز ربع أو نصف قرن ، فانتنا لن نتعامل مع العالم الخارجي إلا عبر هذه الذهنية ، وعن طريقها التي تقلب عملية الإدراك . كان الخطاب المؤدلج ينفذ إلى الدهن في السنين الأولى ، سنين التعلم التقليدي والمؤسسي ، عبر زجاجة العين فشكل إطاراً « ثقافياً » وتراكباً « معرفياً » فأصبح الدهن في مرحلة « النضج » يرسل الخطاب المؤدلج على العالم الخارجي كما ترسل الكاميرا الأشعة التي تتحول إلى صور على الشاشة ، من خلال زجاجة العين ولكن الصور تعود إليك عبر العين فيعيددها إلى العالم مؤدلجة وعبر عضو التعبير أيضاً / اللسان في شكل خطاب شفوي أو كتابي مؤدلج يتولد عن الخطاب الأول حاملاً سماته كالوليد الذي يحمل سمات الأب أو الأم أوهما معاً .

تنتج سمات هذا الخطاب في خطاب بيومي الذي يعرض السارد وجهة نظره : « إنه يحتقر المواظ التي تحث على الكسل ويعدها تجديفاً بذئ الجلال » (ص ٣٧) فليس بيومي هو الذي يحتقر المواظ التي تحث على الكسل / الراحة وإنما الأيديولوجيا السائدة التي شوّهت الخطاب العقائدي عندما أذابته فيها ووجهته في اتجاهها . إننا لنصادفها معاً في كل مقطع سردي يصدر

سوريل في رواية استبدال « الأحمر والأسود » : « قال إن حياة الإنسان الحقيقية هي حياته الخاصة ، التي ينض بها قلبه في كل لحظة ، التي تستأديه الجهود والاخلاص والابداع . إنها مقدسة ودينية ، بها تتحقق ذاته في خدمة الجهاز المقدس المسمى بالحكومة أو الدولة . بها يتحقق جلال الإنسان على الأرض فتتحقق به كلمة الله العليا » (ص ٢٢) . وهذا مقطع سردي مؤدلج يذعن لمعيار الحياة والموت ، الحياة الخاصة أو العامة ، الخفقان أو الممود ، الجهد أو الخمول ، الاخلاص أو الغش ، الابتكار أو التقليد ، التقديس أو التدنيس ، التدين أو الكفر ، تحقق الذات الجماعية أو الفردية ، الجهاز المقدس أو المندس ، الدولة أو الشعب ، جلال أو انحطاط ، الكلمة العليا أو الدنيا .

وتأكيداً لذات الفردية في الفكر المشالي والويعي الرومانسي المؤدلج يفضي بصاحبه إلى جهل العلائق البنيوية الاجتماعية التي تحقق تأكيد الذات تأكيداً اجتماعياً وإنسانياً ، ويؤدي به إلى الكدح كالعبد في الاقطاعية والرأسمالية رغم الاختلاف الجذري الموجود بينه وبين العبد الذي كان جسده يلهب بالسياط ، ويكره على العمل ، ويجبر على إنجازها مهما كانت قساوته ، والألام التي يسببها له ، فينفذه مرغماً . أما المؤدلج فانه ينفذه « إختيارياً » أي يرغمه الخطاب المؤدلج الذي استقر في ذهنه فهدا سجين هذا الخطاب ، وأسير نسقه والنسق الذي صدر منه الخطاب . إنه يشقى دون ضرب أو جلد وإنما برضى تام بوضعه المزري وهو لا يدرك مصير الشقاء ، والتعب ، والحرمان ، والقلق الوجودي الذي يستشعره بين الفينة والفينة . به يفكر ، وبه يشعر ، وحسب قوانينه يسير في عزله أو مع الآخرين . إنه لا يرى سوى العمل الشاق الذي لا ولن يستريح ما دام يعمل حتى في أماكن الراحة .

عمله . يؤدي عن المتأخرين أعمالهم . فالكلام عن نجده لا يقل عن الكلام عن قدرته (ص ٣٧) . وهنا يشير السارد وفق أحكام قيمة تعتمد معايير القدرة والعجز ، والمعرفة والجهل ، والتقنية والتلفيقية ، وقواعد السلوك الأخلاقية كالقدوم والتأخر ، والرسوخ والتذبذب ، والمواظبة والتفاس ، والكفاءة والعجز ، والحضور والغيب ، والعمل والراحة ، والاستقامة والشغب ، والانجاز والامهال ، العبادة وتركها : وتقدم في كل شيء - ورسخت قدمه في عمله - الكفاءة - الاستقامة - أول الحاضرين آخر الزاهيين - في أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة - يؤدي عمله - يؤدي عن المتأخرين أعمالهم - نجده - قدرته .

ويدمج في تصوره العمل بالعبادة كالألوية (عبد الله العروي) ، ولم يترك له فرصة للعبادة الحق ، بل لا داعي لها إذا كان العمل عبادة حسب الدلالة المعاشية لهذا القول : « - لا يخلو عمل الإنسان من عبادة » (ص ٣٨) .

وعثمان بيومي لا يعدد ولو موظفاً بل يعد خادماً للرؤساء بل عبداً لهم . والطرق المؤدية إلى المناصب « العليا » تنفذ حسب معايير الطول والقصر ، والأهمية والتفاهة ، والشرف والدناءة ، والفائدة والخسارة ، والتقدير والتحقير ، والخدمة والتمرد ، والاذعان والتموقف . والسارد يرفض هذه المعايير وهذا الخنوع المفرط الذي يسلب الشخصية كينونتها . ويشير خطاب بيومي الى ذلك .

لكل كلمة نقبض حتى كلمة نقبض ذاتها . اختر كلمتك ولا تدع الكلمة تختارك أو تختار من خالك .

يمحكي السارد عن بيومي قائلاً : « إنه يمتنى لو يكلف كل يوم بعمل كهذا ، إن عمله في الإدارة - على ضخامته وتقدير الجميع له - لن يكفي وحده ، فلا أقل من تقديم

عن بيومي المؤدلس وإن اختلفت الصيغ مما يمنح الخطاب الروائي تماسكه واتساقه . و (ذي الجلال) كناية تشير إلى الإله الذي يتجسد في الفرد / الإله . ويخبرنا الراوي عن بيومي بصيغة المحكي الذاتي المجلوب المؤدلس الذي يطغى في « حضرة المحترم » على المحكي الذاتي التلقائي المؤدلس : « قال لنفسه إن الله لم يخلقنا للراحة ولا للطريق القصير » (ص ٢٧) . طبعاً فوجهة النظر هذه تنسجم مع الخطاب المؤدلس بل هي تفرغ آخر له وهي لا ترغب سوى في العمل المستمر الذي يشبه اللاعمل / البطالة لأن راحته لن تتحقق لا على المدى البعيد ولا على المدى القريب فتبقى الراحة هي اليوتوبيا والأسطورة المعاصرة التي تحتاج الى الطريق الذي يقسم وفق معيار ايديولوجي والذي يستند إلى قاعدة الطول والقصر ، والذي لا نهاية له لأنه ينسب إلى الإرادة الالهية ، ولأنه يناسب حلم الدولة التي ترغب في أن تطول مدة حكمها ، وتستمر وراثته الحكم إلى ما لا نهاية بإبعاد الفكر والتفكير الذي سيتساءل : من يحكم ؟ في الماورائيات والأساطير ، وهكذا تقسو الشخصية المؤدلة على نفسها لأنها مغتربة عن ذاتها ، ومكونات وعيها ، وحاجاتها ، ولا تدرك العامل الاقتصادي المحدد للخطاب المؤدلس والكامن وراء قلقها ، وحيرتها . إنها تعمل / تموت في حين يجبا منتجو الخطاب المؤدلس لتبرير كسلهم ، وعدم إنتاجهم ، وراحتهم ، وتزلفهم ، ولذة عيشهم ، وفراغهم ، ومتعتهم ، وإقبالهم على الحياة اعتماداً على قوته المتجسدة في قوة عمله وقوة إنتاجه : « وتقدم في كل شيء ولكن عذابه لم يخف ، ورسخت قدمه في عمله حتى شهد له سفعان بسيوني - رغم إخفاقه معه - بالمواظبة والكفاءة والاستقامة وكان يقول عنه :

- أنه أول الحاضرين وآخر الزاهيين وفي أوقات الصلاة يؤم المصلين بمصلى الوزارة . وهو يؤدي

وخير تعريف صادق يحدد هوية مثل هذه الشخصية المؤدجة هو ما قالته عن نفسها كاذبة :

- إن الأيديولوجيا السائدة لا تكون صادقة إلا حينما تكشف عن كذبها الذي تعتبره صادقة -

« ما أنا إلا ثور معصوب العينين يدور في ساقية . . » (ص ٣١ - ٣٢) .

« - لا خير في هذه هي الحقيقة . . » (ص ١٠٠) .

« - لا يغرك منظري فمضري ليس في القلب أو الصدر ولكنه يعوق تماماً عن الزواج » (ص ١٠٥) .
وداعية الأيديولوجيا السائدة هذا يرفض إلى حد الحق واليأس ، بناء على قاعدة الإيمان والكفر الحقيقيين أو الزائفين ، الراحة حتى حينما يحيق به المرض أو يشرف على الهلاك كما يتضح ذلك من حوار مع الطبيب البطل الذي يتحدث نيابة عن السارد البطل معارضاً آراء بيومي المؤدجة :

« - ما دام الأمر كذلك فاعلم أن المسألة ليست لعباً . إنها بلغة الطب لا خطر منها ، ولكن عدم الانصياع لكلامي يخلق منها شيئاً آخر ، يلزمك راحة تامة ، شهر على الأقل .

هتف :

- شهر !

- وأن تلتزم بدقة بالدواء والغذاء الموصوف ، لا مناقشة في ذلك البتة ، وسوف أزورك غدا . .

وجع أدواته في حقيقته الصغيرة ومضى وهو يقول :
- احفظ كلامي عن ظهر قلب . .

وغادر الرجل الحجره وهو يتبعه نظرة مغبطة يائسة » (ص ١٤٩) (. . .)

« ولكن الطبيب قال له :

- ما يعني هو صحتك لا وظيفتك !

(. . .)

الخدمات للرؤساء ، وإشعارهم بأهميته وفوائده الشريفة ، ولعل ذلك يقلل من جزعه لقلة ما ناله بالقياس إلى ما يطمح إليه . ولكنه عزاء يتزود به في طريقة الطويل » (ص ٥٩) - لن نتحدث من الآن فصاعداً عن التفريعات لأن كل خطاب هو تفريع لخطاب سابق حتى نهاية الرواية - لا نقف وجهة نظر بيومي عند هذا الحد ، بل نتعدها إلى مستوى اعتبار العمل مرادفاً للبطله . ما البطله ؟

إنها معيار تتجلى فيه التراتبية بين البطل واللا بطل في عصر الأيديولوجيا اللا بطله . إن البطله التي يقيّمها بقيمة تعود إلى معيار الحق والباطل ، هي التسابق ، والتنافس ، والتناحر على المناصب العمل كي لا تقف عجلة الآلة المنتجة واليد التي تسيّرهما ، ووسائل الانتاج المنتجة بشكل من الأشكال عن العمل بالاضراب عنه والذي يأتي كاجابة منطقية عن السؤال :

لن نعمل ؟

والذي يؤدي إلى توقف الانتاج ، والمضفي إلى انهار هرم الرياح ، وتقلص القويض ، وانحطاط الجاه ، وإضعاف القوة ، وإزالة السلطة ، وأنسة الألهة ، وإطفاء الامتتارة ، وبتنزيء تفكير الطبقة العاملة في الحركة في اتجاه الوعي الممكن ، وانتاج خطاب أيديولوجي بطل معاميش للواقع المعيشي . إن الأيديولوجيا اللا بطله تدفع بالفرد المؤدج إلى الزهد في الحياة ، والنظر إليها من خلال الموت العاجل الذي لا يبعه ، ومن خلال الوعود بأن التعويض سيكون في العالم الآخر . والحصله هي الخيال الملهي عن المادي والواقعي الذي يحتاجه الفرد في هذا العالم .

حتى وعود العالم الآخر في الحقيقة والواقع هي وعود من أجل هذا العالم هناك علاقة جدلية بين العالمين . يكتفي استبدال الإله بالجميع لأنه بحث في « خطابه » على الاهتمام بالجميع .

العجز (. . .) لا يزعزع الثقة به - ولا المرض - ولا الموت نفسه - الاصرار على المضي نحوه - وجود النبل والمعنى في الحياة .

وما فعلته الأيدولوجيا السائدة في حرياتها المغلوبة بالتاريخ تفعله بالأدب . إنها تجرده من وظيفته المعرفية ، والتعبيرية ، والتحريرية ، والفلسفية ، والعلمية ، والاجتماعية ، والانسانية ، ومن مخالفتها واختلافه عنها ، ومفارقته ، ومناقضته لها وافترقه عنها . فالك « كاتب » في ظل الأيدولوجيا المسيطرة من المكتبة ، من المنشئين ، ووسيلة من وسائل إنتاجها دون أن يعي ذلك أو يشعر به ، ويصبح نتاجاً في علائق الإنتاج ، ويضحي ما كتبه أداة لترويج خطابه ، وسلعة كاسدة في سوقها الذي يحاول احتضان باقي الفنون غير المؤدجة . ويعرض الراوى هنا مستوى الشخصية المعرفي ، وقدرتها الجمالية في الكتابة والتي بين الأندلج رؤيتها على هيكل الماضوية ، والسلفية : « واهتم بالشعر خاصة ، وحفظ الكثير ، بل حاول نظمه ولكنه فشل . قال إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب من الكبراء ، والتألق في الحفلات الرسمية ، إنه لحسran فنادح أن يفشل في نظمه ، ولكنه على أي حال خير طريق لتفان النثر ، والخطابة لا تقل عن الشعر في النجاح المنشود ، والأسلوب الجزل مطلوب ، قلبه يمدته بذلك ، واللغات الأجنبية مثله وأكثر . جميع تلك المعارف مفيدة ، ولها وقتها الذي ترتفع فيه قيمتها في بورصة المضاربات الديوانية » فليس بالتعليمات المالية وحدها يحيا الموظف « (ص ٢٣) . إن « معرفة » بيومي لا تنحصر في الشعر فحسب كمعرفة ذاكرة كالرواية الذي يرافق الشاعر ، يحفظ عنه ما يقوله ويروده أو كالتظام الذي يتعلم عنده حس الأبداع ، والقدرة في الابتكار ، والخلق الشعري لثياب العواطف ، والاحساسات ، والانفعال النفسي المهرف الذي يحرك خوالج النفس

- المؤمن الحقيقي لا يسعد بالصحة وحدها . .

- لم أسمع بذلك من قبل . . « (ص ١٥٧) .

إن الأيدولوجيا السائدة ضد العلم الذي يدرس الظاهرة وما يحقق استمرارها ويصارع ما يسعى في انهيارها ، وهي تنظر الى الظاهرة من زاوية عقائدية غير علمية . أما أيدولوجيا السارد المستقلة فهي تقرر العمل بالراحة ولو الراحة التي تراكب الزمن الموضوعي ، والزمن الكوني ، والطبيعي ، وأن يفتن بالراتب الموفر والمحقق لراحة العمل ، وراحة الجسد ، وراحة حاجيات المرض ومقتضياته ، وراحة حاجيات العافية ، كما تريد من العمل أن يتوقف ، على الأقل ، وكمرة أولى ، حسب توقف النهار والليل ، والبرودة والحرارة تبعاً لظروف المناخ التي تسمح بالعمل إن وجد . تعبر هذه الأيدولوجيا المستقلة عن نفسها من خلال وجهة نظر السارد : « إن النظام الفلكي لا يطبق على البشر وبخاصة الموظفين منهم » (ص ١٠) .

ويومي لا يتناقض مع ذاته عبر طول الرواية . فطموحه كما حددته له الأيدولوجية السائدة لا يتغير وإن تغير التعبير عنه ولا يتغير الطريق الذي رسمته له . فهو يصبر على المضي فيه : « وظل على إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة ، بالحياة الشاقة المقدسة ، بالجهد والعذاب ، بالأمل البعيد المتعالي . وقال إن العجز أحياناً ن بلوغه لا يزعزع الثقة به ، ولا المرض ولا الموت نفسه ، ما دام الاصرار على المضي نحوه هو المسؤول عن وجود النبل والمعنى في الحياة » (ص ١٥٨) . ويعكس هذا الخطاب المعايير الأخلاقية المتحدرة عن تأدلج بيومي المثالي الذي يجهل في طموحاته الفردية طبيعة الجسد وواقعته في حاجياته عبر مراحل العمر : إيمانه الراسخ بمعتقداته المقدسة - الحياة الشاقة المقدسة - الجهد والعذاب - الأمل البعيد المتعالي -

إنساني ، ولا ينفصل في مضمونه عن الحياة ، والحرية المسؤولة . وهو كلام مقدس كالإنسان وهو الصق به ، بل هو الذي يميزه عن سائر الكائنات . فهو منه وإليه . لا يرمي به عند قدم أي صنم أو إله . لا تفضيل بين الأجناس الأدبية .

كلها تتيح للإنسان فرصة التعبير الحر عن قضايا ، وحرية إبداع أشكال جديدة .

يتناول السارد عمل بيومي ، ومعرفته وتقنيته الشكلية ، وركامه المعرفي الضيق . وينظر بيومي إلى كل ذلك نظرتة إلى الأشياء المطلوبة وفق قواعد نفعية في غياب المنفعة التي يشير إليها جمال الحجرة الضيق كمجاز عن ضيق الشخصية النفسية والمعيشي والحياتي : « كان يعمل بجنون في الوزارة ، ويتبحر في المعرفة في حجرته الصغيرة » (ص ٤٦) . إنه موظف محروم من الفضاء الكافي سواء في الوزارة أو في منزله حيث يسبقه العمل إليه ويسخر منه : « ولذلك راح يترجم للصحف والمجلات ليزيد من دخله وليزيد بالتالي من مدخراته . ونجح في ذلك نجاحاً لا بأس به » (ص ٤٧) ، وعمل الترجمة يخضع لمعيار بيومي في الزيادة والنقصان ، والانفاسق والادخار ، والنجاح والفشل والذي يقوم بالجلد أو باللابأس به ، وتعدد أو قلة القدرات وفق معيار الاستطاعة والعجز .

« أهتلك على نجاحك الذي يقطع بتعدد قدراتك » (ص ٥٠) لا تطابق بين المجهود البدولي والمقابل المادي المخدول . إن الأيديولوجيا المتحكمة هي العزاء الخيالي الذي يتمظهر في اللغة . لا يستهلك بيومي كتعويض عن القدرة الجمالية والأدبية الشكلية سوى الخطاب المؤدلج منذ بداية حياته إلى نهايتها ، ذلك الخطاب الذي يتغير أسلوبه ولغته وفق النظام المنسقي الدال على أحكام القيمة المؤدجلة (بالفتح والكسر) التالية :

لأتصل الشاعر بالعالم وتناقضاته ، وإمساكه بقضايا الناس ، ويستند ذلك عند بيومي إلى معايير المعرفة والجهل ، والاهتمام والاهمال ، والحفظ وعدم الحفظ ، والقلة والكثرة ، والشعر والنظم ، والنجاح والفشل : أهتم بالشعر - حفظ منه الكثير - حاول نظمته ولكنه فشل - ، ورؤيته إلى الشعر رؤية تقليدية تخدم الأيديولوجيا السائدة تأسيساً على معايير الوسيلة أو عدم الوسيلة ، التقرب أو الابتعاد ، الكبراء أو الصغراء ، التألق أو عدم التألق ، الاحتفال أو عدمه ، الرسمي أو العادي : إن الشعر كان وما يزال وسيلة للتقرب من الكبراء - التألق في الحفلات الرسمية ، بل تمتد حتى إلى النثر . وهو يستفيد من الشعر ليسرع في النثر / الخطابة . ومعرفته التقنية في الكتابة / الانشاء معرفة تنأسس على معايير محافظة كالتألق واللونية كما يتضح ذلك من المصطلح التقني التقليدي : الأسلوب الجزل ، ومعيار معرفة اللغة العربية والأجنبية ، والنفعية والوصولية : إن الشعر كان وما يزال خير وسيلة للتقرب من الكبراء - جمع وتلك المعارف مفيدة - ترتفع قيمتها في بورصة المضاربات الديوانية . إن عثمان بيومي امتداد للشاعر القديم البوق ، والداعية والمبشر ، والمقلد ، والوصولي الذي فقد شخصيته ، وسلبت منه كينونته وذابت في كينونة المدحوس ، ولم يبق منه سوى المظهر . ذهب الإنسان وبقي اللا إنسان الذي يتحرك كآلة التي تخضع للتوجيه المسائي . إن الركام المعرفي الماضوي لدى الشخصية المؤدجلة ينبع من / يصب كله في الأيديولوجيا المتحكمة في النفسانيات ، فشلت الفكر كما تشل العنكبوت كل حشرة تدخل في مجال نسيجها ، فتبتلعها . إنها تؤجل بهذا الصنيع الوعي الممكن / الحياة ، وتستعجل الوعي المستحيل / الموت .

والأدب في مفهوم السارد في التراكم المعرفي الواسع فن جميعه الفنون ويختصن عدة أجناس أدبية ، وهو

المراجعة يحدث له في إعداد مشروع الميزانية : « أما هو فكرس كل قواه لأعداد المشروع حتى يبرز للوجود كاملا بلا هفوة واحدة . وتجلت مقدرته في توزيع العمل وتنظيمه ، ومتابعة المعلومات المطلوبة من إدارة الوزارة على حين تعهد هو بالموازنة الختامية وتحرير البيان . . وأعد للمشروع مقدمة مثالية حازت إعجاب المدير بصفة خاصة فتربع على قمة النصر اللين » (ص ٨٠) . إن هذا المقطع السري يعرض قدرة بيومي التقنية الادارية ، والتنظيمية ، والمعرفية ، والبيانية ، والكتانية ، في إصدار الفتاوى ، وتفوقه ، وانتصاره لتجربته ، وخبرته الشفوعة بالعلم والمعرفة في الشؤون الادارية الحكومية وفق معايير النظام والفوضى ، والدقة والملاحظة العابرة ، والكسالم والنقص ، والخطأ والصواب ، والعلم والجهل ، والمثالية الواقعية ، والإعجاب والثفور ، والقيمة والحفيظ ، والانتصار والانزمام ، والخباء والتجلى . ومع ذلك يجنب به القلق الذي ينخر ما تبقى من قواه لأن الترقية بطيئة تعاكسها سرعة الموت التي يحمل جسده المذوق بمرتها القاتلة أكثر من أجساد غير المؤجلين . لا اعتبار بيومي وكأنه لا وجود له . إنه مشياً . قوة عمله هي التي تحظى بالاعتبار . يشياً ثم يحمل كشيء لا نفع فيه في مكان غير لائق به : « كل هذا يحدث وهو ما زال في الدرجة الثالثة ، مع عمره المتقدم ، أمدا جزاء الجهد الحارق والتفاني الجليل ؟ ألم يعلموا بأنه انسان تلخص في خبرة مؤيدة بالعلم والعمل ؟ وأن مذكراته الرسمية وبياناته الخاصة بالميزانية وفتاواه الرائدة في الادارة والمخازن والمشتريات لو جمعت في كتاب لكنت دائرة معارف في الشؤون الحكومية ؟ خبرة نيرة منزوية في وظيفة وكيل ثان للادارة كأنها مصباح كهربائي قوة خسمالة شمعة ثبتت في جدار مرحاض زاوية بقرية (ص ١١٣) . والأحكام التقوية هنا تستند الى قاعدة الحراق والمألوف ، والتافه

١ - أهدى إعجابه : أبدى سعادة المدير إعجابه بأسلوبك في الترجمة (ص ٥٨) .

٢ - محتاز : « دعيت لالقاء محاضرة في جمعية الموظفين ، وقد سجلت نقاطها ، فما رأيك في أن تكتبها بأسلوبك الممتاز ؟ » (ص ٥٨ - ٥٩) .

٣ - جيد : « أسلوبك جيد » (ص ٦٤) .

٤ - مما تغبط عليه : « أما أسلوبك فمما تغبط عليه » (ص ٦٦) .

٥ - فذ حقا : يعني أن تراجع الأسلوب : أسلوبك فذ حقا . . (ص ٨١) .

٦ - مجرد ابتسامة يحظى بها : « وحطي - عند كل لقاء - بابتسامة لا يحظى بها القربون » (ص ٨١) .

ولاغترار بيومي بالابتسامة كحظوة ، فإنه سيرضخ خانعا ، ذليلا ، قانعا ، مقموعا ، لاستغلال أكثر بشاعة وأكثر تأديجا وأدجلة .

أ - سيعمل على مراجعة أسلوب لا مضمون أو محتوى كتاب ضخم سيستغرق فيه مدة شهر كامل .

ب - سيعزز بل سيعمل على تجذير الايديولوجيا السائدة من وجهة نظر تاريخية ماضوية :

« هذه أصول ترجمة كتاب عن الخديوي اسماعيل ، ترجمتها في نصف عام ! نظر عثمان الى الأوراق باهتمام فقال صاحب السعادة :

يجني أن تراجع الأسلوب ، أسلوبك فذ حقا .

تلقى التكليف بسعادة شاملة . وأكب على العمل بهمة وقوة وعناية فائقة ، وفي شهر واحد أعاده الى صاحب السعادة في صورة بيانية كاملة ، بذلك قدم الخدمة التي تلهف طويلا على تقديمها ، وأصبح رصيده عند صاحب السعادة داتنا (ص ٨١) . وهكذا يغترب عنه عمله الذي قرره في ورقة عمل مشروع حياته المؤلدج ، بعد أن مارسه وأنجزه ، واغترب هو أيضا عن عمله فضاعت مجهوداته كلها هباء . وما حدث له في

والجليل ، والعلم والجهل ، والعمل والبطالة أو الكسل ، والمعادي والرسعي ، والعامة والخاصة ، والريادة والتقليد ، والنير والمظلم كما يبدو ذلك من الصفات التي حشرها السارد في هذا المقطع .

ان الصورة الأدبية أكثر الأشكال الأدبية أدبية وتعبيرا عن أيديولوجيا السارد المستقلة .

والصورة الأدبية في هذا المقطع السردى تجسم ، في تعددية وغنى وثراء دلالاتها الخافتة التي نحاول مقاربة بعضها ، ما يلي :

١ - التناقضات التي تسم بمجتمع الأيديولوجيا السائدة .

٢ - الضوء الذي يمكن أن يترسح في ساحة فسيحة الأرجاء يوضع في مكان قد تترده شمعة واحدة ، هذا على مستوى المشبه به . أما على مستوى المشبه :

٣ - أن منتجي الأيديولوجيا السائدة يستفيدون في صمت من معرفة غيرهم استفادة ناقصة لأن الطاقة المستفاد منها ليست في محلها المناسب لها كي تكون الاستفادة أكثر .

٤ - لا أحد يتلقى مكافأة مادية تناسب مجهوده .

٥ - الضياع مصير كل مؤدج .

وسئل بيومي يوما فاجاب بجليا معرفته وتحموها الدالة على معرفة تختص بسير الشخصيات الجاهزة في فردانيته التي تتسجم مع فردانيته ، وباللغات كلغات الهدف منها هو الترجمة .

« ماذا تقرأ ؟ »

- الأدب ، سير العظماء ، الانجليزية والفرنسية .

- هل لك قدرة على الترجمة ؟

- إن أمضي أوقات فراغي في مطالعة القواميس .

(ص ٤٥) .

حتى الفلسفة تلونها الأيديولوجيا الحزبية المعكوسة بلونها فتشجع فكرا وتهمل آخر ، وتعتنى بفلسفة وتهمل أخرى مسخرة في ذلك كل قواها المادية والبشرية حتى ولو كان هذا الفكر خاصا بمفكر واحد ، وهذه الفلسفة خاصة بفيلسوف واحد . حتى الكتب السماوية تلحقها انتقاليته . إنها تشوه في تقلبها الفلسفة النثوية التي تمجد القوى الحقيقية لا القوى الضعيفة المستفيدة من القوى الحقيقية كي تجعل من ضعفها قوة ، وتستبدل عجزها بإرادة وقوة موحدة ، ومتكثلة ، ومتضافرة ، ومتراصة ، وجماعية ، ونضالية . إن نيتشه لا يعتبر قوة لفرد قوة بل ضعفا إلى أن تنضم وتتضامن مع قوى الجماعة . يقول السارد عن فردانية بيومي حامل لواء الأيديولوجيا السائدة « انه يؤمن بأن الله خلق الإنسان للقوة والمجد . الحياة قوة ، المحافظة عليها قوة ، الاستمرار فيها قوة ، فردوس الله لا يبلغ الا بالقوة والنضال » . (ص ٦٥ - ٦٦) . ان بيومي المؤدج يؤمن إيمانا مزدوجا .
أ - إيمانا غيبيا .
ب - إيمانا أسطوريا .

فالإيمان الأسطوري يتجلى في طموحه إلى القوة والمجد الزائفين لأنها فرديان ومستحيلان نظرا لهذه الفردية . فيبيومي ليس في يده شيء كي يحافظ عليه سوى الخطأ الأيديولوجي الذي ينظر إلى الحياة والمجد ، والمحافظة والاستمرار من معيار القوة والضعف ، والإيمان والكفر ، والفردوس والجحيم ، والنضال والانخدال الفردي أو الجماعي .

والإيمان الغيبي ينسب إلى الله الخلق من أجل القوة والمجد . وما الحياة سوى جسر إلى الفردوس . وهذه وجهة نظر مؤدجة أيضا ما دامت تدافع عما تدافع عنه الأيديولوجيا السائدة من غيبيات وأساطير ، وما تشجعه من ذاتية وأنانية في الفرد المؤدج الذي تغدو القوة في

الجنون هو الحرمان من الجنون .

يدل على ذلك المأساة التي تستعمرها الشخصية الاشكالية والتي تنبثق من التساؤلات التي جاءت في صيغة محكي ذاتي تطرح قضية تحديددها بمصطلحات نقدية أكثر دقة . إذا اعتمدنا الجهاز المفاهيمي لدوريت كون قلنا انها صيغة محكي ذاتي مجلوب لأن الناقدة حددت تمظهرها في صيغة « قال لنفسه » أو ما في معناها ولم تول الاهتمام هنا الا الى الشخصية التي ينقل عنها السارد خطابها الى القارئ . إنها قدمت الشخصية عن السارد دون أن تغفل . إنها تجاوزت البنيوية الجينية برصد علاقة السارد بالشخصية ورصد موافقها ولم تقتصر مثلها على علاقتي الشخصيات وحدها . وقد سجلت أيضا التنافر والتناغم بين السارد والشخصية . وفي المقطع السري الذي سنسوقه فلن نحددنا صيغة « قال لنفسه » التي يعرف بها المحكي الذاتي المجلوب لأن السارد لا يجلب عن الشخصية خطابها بقدر ما يسوق خطابه الذي يعبر عن وجهة نظره هو . إنها صيغة المحكي الذاتي المتنافر أو المونولوج التلقائي للسارد في مقابل المونولوج التلقائي للشخصية ، وهو الذي لم تطلق عليه دوريت هذا المصطلح . « وقال لنفسه إنه لا نجاة له الا بالجنون . الجنون وحده هو الذي يتسع للامان والكفر ، للمجد والخزي ، للحب والخدايع ، للصدق والكذب ، أما العقل فكيف يتحمل هذه الحياة الغريبة ؟ كيف يشيم ألق النجوم وهو مغروس حتى قمة رأسه في الوحل ؟ (ص ١٥٦) . وهذا الجنون ، في نفسه للثنائيات ، بشكل مع العقل وحدة والمقلانية المؤجلة أو الايديولوجيا المعقلنة هي التي تراه بلا عقل في جنوبها اللاعقلاني مع أنه جنون عقلاني . وكهيجلي متأخر ، يعتبر بيومي الوظيفة أساسا ودعامة في تشييد صرح الدولة المقدس وهي لا تتميز عن الآلة ، والعمل ، والحياة ، والموت في تصوره المؤدج : « ان

واقع الأمر في تصوره أمرا سهلا مع أنه ضعيف في وحدته وعزلته ، وتفردته ، وأنه يخضع لقوة الخطاب الايديولوجي المهيمن وسلطته . ان بيومي تيولوجي يمجّد العالم الآخر . انه العالم الدائم في نظره . وأن هذا العالم خلق من أجل ذلك . أما في فلسفة نيتشه الجندي فالعالم الآخر خلق من أجل هذا العالم . لا يبدل لهذه الحياة . فإن كانت هنا حياة كانت هناك حياة . وإن وجد هنا جحيم وجد هناك جحيم .

الموت من أجل هذه الحياة حياة في هذه وفي تلك . تتحقق الحياة بارادة القوة الجماعية . ان الضعيف المتدمج في قوة الجماعة قوي . والضعيف في عزلته مهما طلب القوة ضعيفا . ان القوي اذا تخلت عنه الجماعة ضعيف . حول ضعفك الى قوة تتحول القوى الى ضعف . في الجماعة يتحول ضعفك الى قوة .

ان السارد يدرك ، كميثال فوكو ، خطورة سلطة الخطاب الايديولوجي العقلاني على حرية الانسان الشعور الطبيعية ، والبيولوجية والسلوك الناتج عنها . إنها تجعل شخصيته معقدة ، ومضطربة ، وضعيفة الى حد التفسخ والاستلاب والانسانية . انها تخسر انسانيتها الطبيعية واللاواعية والواقعية ، وتتغذى نفسها وتنتشر ، وتتمزق ، وتفقد التوازن والانسجام . وتجردها هذه السلطة القمعية من بعد الحياة في تعددتها ، وعذوبتها ، وجنونها ، وشغفها . وأي حياة يحياها السائر في ظلامية التألدج ؟ هل يجديه البكاء والحسرة ؟ يرحب السارد أيضا ، من زاوية فوكوية ، بالجنون كمرادف للحياة بكل ملذاتها دون أن تتجاوز ملذات الآخر . فالجنون هو الذي يهب الحياة غرايتها وحقيقتها ، وجوهرها ، وجمالها ، التي يعجز العقل - في غياب اللاعقل - عن تحقيقها . والجنون هو الذي يدمر صروح ، الأحاديث والثنائيات وقلاعها .

ورمقته بدهشة فأدرك أنها لا تدري مدى إيمانها ولا مضمونه .

قالت : إنه لمعنى جديد بالقياس الي ، ولكنني سمعت كثيرا أن روح الشعب من روح الله » (ص ١٤٧) .

والموقف اللوكاشي - الماركسي هو موقف السارد الذي يؤمن إيماناً راسخاً في أن وعي الشعب الممكن والواقعي بطروفه المادية والفكرية الواقعية هو الذي سيقيده ، من منظور مادي جدلي ، الى تغييرها بالموقف منها .

الشخصية في علاقتها بالشخصيات - الرجال :

ان السياسة لا تعدّهما من هموم بيومي المؤدلج . انه لا يعتبرها علماً بل لغواً وسفسطة وأوهاماً ضائعة . إنه يتصور نفسه محايداً . والتأدلج أساس هذا التصور . إن الحيات مظهر والانتها كينونة .

إن الأدلجة تعنيم للوعي وتحجير للفكر .

إن التأدلج قد قلب بيومي . إن فكره فكر جلدي ، لاهوتي ، مثالي ، غير مادي وغير جدلي . في حديثه عن السياسيين يعيد الخطاب المؤدلج . لا رأي للشخصية المؤدلجة . فوجّه نظرها في مجال السياسة هي وجهة نظر ذلك الخطاب انه تصور الخطاب للسياسيين وتصور بيومي فرع من تصور الخطاب . والسارد في سرده للخطاب المؤدلج المتفرع عن الايديولوجيا السائدة يتعمى تمامها متناغماً بالشخصية أو يتنافر وإياها كما يتضح ذلك من صيغ الخطاب الثلاث الآتية :

١ - بضمير الغائب .

٢ - بالمونولوج التلقائي .

٣ - بالملحكي الذاتي المجلوب .

وهي صيغ متباينة تجعل تمهي السارد بالشخصية في مستويين مختلفين :

الدولة هي معبد الله . وبقدر اجتهادنا فيها تنقرر مكانتنا في الدنيا والآخرة » (ص ١٦٩) . إنها الدولة التي تجسد الفكرة المطلقة الله الموجود - في نظره - في الساء اللامرئية . إنها الفكرة المجردة من التناقض ، إنها تامة وكاملة ولا تنتظر النقيض . إنها نهاية الجدلية ونهاية الحياة . إنها الموت ما دامت الدولة تمثل روح الله على الأرض ولا تمثلها الشعب المتناضل .

ومن منظور لوكاشي - هيجلي أيضاً فإن بعض أفراد الشعب هم الذين يجسدون روح الله وليست الدولة . فلنقرأ بإمعان دقيق ونأمل عميق هذا الحوار الذي يمكن اعتباره بنية دالة لأنه يعبر عن الصراع النموذجي الذي تلدور رحاه بين أيديولوجيتين يمكن اعتبار الأولى ، حسب المنهج الجدلي ، أطروحة والثانية نقيضها القريب جداً والمرحلي لأن الثانية تبدو كامتداد للاول ويشكلان معاً التركيب الذي ينتظر أو يسعى الى التحول الى النقيض الجديد . فاعتبار الدولة من روح الله لا يختلف اختلافاً جلياً عن اعتبار بعض أفراد الشعب من روح الله . والنقيض الجديد هو أن يكون عدد أفراد الشعب الذين يشخصون « روح الله » كبيراً وفي مستوى تحقيق التغيير والتحويل وتلميع ثنائية الروح والجسد المثالية . ان الاختلاف اللوكاشي الهيجلي اختلاف ضروري ومرحلي ولو أن الهيجلية قائمة في كلا الاعتبارين ويدعمان معاً الايديولوجيا المثالية السائدة . انها يعيدان خطاباً السلطوي المؤسفر في رومانسية حاملة تغلب الحقائق الى أن يقض لها ماركس فيقيمها على حقيقتها فيتحول ، نتيجة لذلك ، منظور لوكاش الى منظور لوكاشي - ماركسي كنقيض جذري للهيجلية والهيجليين .

« الوظيفة حجر في بناء الدولة ، والدولة نفحة من روح الله مجسدة على الأرض !

وفعله هذا في أنسة الأيديولوجيا السيدة فعل من يأخذ بلورة فيتبع جميع تآلفاتها اللاهائية فيسجل منها ما يراه كافيا لتوضيحها وإلقاء الاضواء على حقيقتها . انه يتبع الشخصية الأيديولوجيا السائدة في جميع مراحل حياتها الواقعية أو التي توهم بالواقع . « قال لنفسه ان الجنون منتشر أكثر مما تصور . الاهتمامات السياسية تثيره وتدعشه ، وهو يصير على عدم الاكتراث بها ، ويؤمن بأن للانسان طريقا واحدة ، وأن عليه أن يشقها وحيدا ومصمما بلا أحزاب ولا مظاهرات ، وأن الانسان الوحيد هو الخلق بالشعور بربه ، وبما يتطلبه في هذه الحياة ، وأن مجده يتحقق في تخبطه الواعي بين الخير والشر ، ومقاومته الموت حتى اللحظة الأخيرة . » (ص ٤٩) . إن يسومي يتهم ، في تأدلسه ، ذوي العقول المستقلة والأواء الحرة بالجنون كما اتهم بذلك الجماعات المشاغبة التي تخرج عن المعايير ، وتحرق الضوابط ، وتزيع عن القاييس وتسف التثابثات كلها . إن هذه الاحادية والثباتية في الرؤى إلى العالم والذات في فردانية مؤدجة هي التي اختزلت ركابه المعرفي وحصرته في نطاقها وفي دائرة الأنا فانطوت الذات على نفسها المؤدجة . وهذه وجهة نظر السارد في الشخصية : « أجل انه منغمس دواما في الداخل ، في أفكار محدودة وخيالات تنفثها الغرائز ، في الله ومجده الدنيوي المقدس وصراع الخير والشر والفساد ، عدا ذلك فهو لا يرى من الدنيا شيئا » (ص ١٤٦) وتتمظهر أيديولوجيا السارد المستقلة نسبيا في أحكامه التقويمية على الشخصية . وترتكز هذه الأحكام على معايير الانغماس والانبتاق ، والداخل والخارج ، والأفكار المحدودة والتي لا تخوم لها ، والخيالات الغريزية والمجردة التأملية ، في الله والشيطان ، والمجد والخزي ، الدنيوي والأخروي ، والمقدس والمدنس ، والخير والشر في صراعها وتصلحها ، والفساد والصالح ، والرؤية والعمى .

١ - في الحكي بضمير الغائب وبالمنولوج الداخلي المطلوب يتم التناغم بين الشخصية والسارد .

ب - في الحكي بالمنولوج التلقائي الذي يتميز بالتساؤلات تستقل الشخصية بحديثها دون تدخل السارد رغم عدم وضع كلامها بين مزدوجتين . إنه الأسلوب الحر المباشر : « وفي أوقات الفراغ قربه اليه ، وأفضى اليه بخواطره حتى السياسة صارحة فيها برأيه وأهوائه . ولشدة حماس الرجل جفل عثمان من الأعراض عن اهتمامه أو معالته بحياده البارد ازاءها (...) عجيب استغراق الرجل في هذه الشؤون ، وأعجب منه استغراق زملائه التعساء فيها . ماذا يشدهم اليها ؟ أليست لديهم هموم صميمية تشغلهم عنها ؟ ولكن قال لنفسه بازدرأ غير قليل إنهم أناس لا يعرفون لأنفسهم هدفا محدد ، وإيمانهم الدنيي إيمان سطحي ، ولم يفكروا بما فيه الكفاية في معنى الحياة ، ولا فيها خلفهم الله من أجله . وهكذا تبيد أفكارهم وأعمارهم في هو ومفسطة ، وتهدر قواهم الحقيقية بلا عمل ، تستغلهم الأوهام ، ويمضي الزمان وهم لا يعملون » (ص ٢٥) . إذا كانت الشخصية المؤدجة ذات الموقف الجليدي تعيد ببيغاوية ساخرة الخطاب المؤدج الساهر من السياسة والسياسيين تأسيسا على معايير الكفر والإيمان ، والمعرفة والجهل ، والعمق والسطح في الإيمان ، والتفكير وعدم التفكير ، والجسد والعبث ، والقول والفسفسطة ، والعمل والكسل ، والحقيقة والوهم ، فإن السارد ، على التيقض من ذلك ، يتموقف هادما أحكام القيمة ، وكل ثنائية . فما الحزب ، والأضراب ، والتموقف من الأحداث والأيديولوجيا السائدة سوى مفاهيم وعي ممكن وواقعي .

الرواية فعل .

الرواية تموقف .

يمسك نجيب محفوظ في « حضرة المحترم » على واقع الوظيفة العمل في ظل الايديولوجيا القائمة . وعلى واقع الفشة الاجتماعية المالكة لوسائل الإنتاج والمنتجة للخطاب الايديولوجي القائم . والفشة المستغلة (بالفتح) تعتقد أنها منزلة لا تؤثر ولا تتأثر .

كل وجود مؤثر ومتأثر بوجود وعدم .

كل عمائد يميني مؤدلج .

لا وجود للاستقلال .

العزلة ، التفرد ، الحياء ، أوهم .

ان الفرد يحسه النظام الاقتصادي المتوخي كما تحسه الايديولوجيا المبررة لهذا النظام أو ذاك ولو كان في مغارة لو تحث مياه البحر .

ان المروء من السياسة سياسة .

اذا لم تكن سياسة مضادة لفقد كانت وما تزال سياسة قائمة .

إن السياسة ايديولوجيا والايديولوجيا سياسة .

« عرف الثورات ، ولكنه لم يعيشها ولم يستجب لها .

وقد رأى وسمع ولكنه انعزل وتعجب . لم يحظ بعاطفة عامة واحدة تشده الى الميدان (. . .) واليوم يعرف لنفسه هدفاً دنيوياً والهيا في آن واحد لا علاقة له في تصوره بالأحداث العجيبة التي تجري باسم السياسة » (ص ٢١ - ٢٢) . هذه وجهة نظر السارد في بيومي

الواهم والذي « يعرف » بل يجهل أن غايته لها علاقة بالسياسة والايديولوجيا السائدة هي التي جعلته ينظر اليها من خلالها . وايديولوجيا السارد المستقلة والمختلفة وراء هي المشاركة في النضال ، والوعي بالانتقاء ، واختياره ، دون أن يفرض عليه ، بحرية ، والتموقف من الأحداث لانسانيته التي تمهما حقوق الجميع وحرية في ممارسة امكانياته ، ويذوب الانا في النحن . والنحن ليس المالك لوسائل الإنتاج والمشتت للنحن المريض الذي تنقصه الى أنوات متفرقة كأننا بيومي المنعزل في

فردانيته التي تغتات من ذاته كقدريه : « الاعتماد على النفس خير من مهاجمة الجميع . الله يأمرنا كأفراد ويجاسبنا كأفراد ، وشق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع » (ص ٧٨) . تتردد في هذا الخطاب المؤدلج الأقوال المبتذلة السائرة cliché, S :

الاعتماد على النفس - شق طريقك وسط الصخور خير من تسول صدقة من المجتمع - ووجهة نظر بيومي هذه تطفح بالثنائية بين الفرد والمجتمع واللاهوتية ، والفردانية : الله يأمرنا كأفراد ويجاسبنا كأفراد الشيء الذي يبعده مسافات ومسافات عن وجهة نظر السارد الجدلية . الشخصية تقول « نعم » للايديولوجيا السائدة والسارد يقول لها « لا » . ومفهوم السياسة عند الشخصية المؤدلجة هو ما يحقق رغبتها الفردية العاجلة ، الجزئية ، والآنية ، والإصلاحية السطحية التي تشمل كل المبادئ . وبيومي يريد أن يدرك بلا سياسة ما يدركه غيره لها كالمناصب العليا : « حفلة الإذاعة الأخيرة ، الأسعار ، صراع الأجيال (. . .) وما يدري الا وهم يتكلمون في السياسة ! صكت أذنيه مرة أخرى الصراعات المضطربة بمرمزها الرنانة : الحرية . الديمقراطية . الشعب . الجماهير الكادحة . المذاهب الثورية . . التنبؤات الراسخة عن ثورات الغد . .

وقال لنفسه ان الفرد ينوء بأمله أفلا يكفيه ذلك ؟ ! ولكنهم يؤمنون بأن آمال الفرد رهن بأحلامهم الثورية ! حسن . . أي ثورة تضمن له الشغاف وانجاب الذرية وتحقق كلمة الله في السلوة المقدسة ؟ ! » (ص ١٥٤) .

أيمكن لسياسة مؤدلجة أن تبحث عن سياسة ؟ ان بيومي يحكم على الصراعات السياسية وفقاً لمعيار الاضطراب والحدود ، والرنه والهمس . ان الخطاب المؤدلج يشوه في حربائته المقلوبة كل خطاب . انه

الترقية أو خيالية « المدير العام » وهو منصب سياسي أو مسيس : « لم تكن لديه نية لزيارته ، ولا هو جاء لتنزيهه بدافع حقيقي من عواطفه ولكن خوفاً من أن ينهمر بالجنود ، ولذلك كربه ضميره وورعه الديني . ومضى في طريقه لا يرى شيئاً . ورغبنا عنه ترك ترك تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام . » (ص ٦٢) .

ان هذا الوصف الدقيق لنفسية يومي وحساساته وشعوره . وآماله ، ونوابه ، وسلوكه يكشف هواجس يومي المؤجلة والمؤسسة على معايير أخلاقية . وسلوكية ، وعقلانية ، وذاتية فلنفسها من خلال اللغة الموظفة في المقطع السردى ، نية وعدم نية الزيارة ، دافع حقيقي أو زائف ، والعاطفة والعقل ، الخوف أو الشجاعة ، الجنود أو الاعتراف بحضور أو غياب الضمير والورع الديني .

ما الضمير ؟

بلغة يونج هو الأنا الجمعي . بلغتنا هو الأنا المؤلج الذي يمارس الرقابة الشديدة على اللاوعي ، وهذه النبئية النفسية والذهنية التي يظهرها هذا السلوك حددتها الايديولوجيا السائدة والوضعية الاقتصادية كما حددت رغبته الملطخة بالدم : « ورغبنا عنه ترك ترك تفكيره في الدرجة الخامسة التي ستخلو بعد أيام » . إذا كان يومي يلهث وراء الدرجات فإن الغلاء يسبقه درجات . إذا كان يتمتع التقاعد والاحالة على المعاش لسعفان الذي يدل لقيه « بنسيوني » Pensionne على ذلك ، فإنه يتمتع لحزمة الذي ينبغي أن يتبعه كما يدل على ذلك لقيه « السويقي » Suivie أو Suivant من فصل suivre ، الموت . والسادر يلحم بدل أن يصح وتلك إحدى وظائف الأدب الكبرى : « أما في الوزارة فقد دار الحديث طويلاً حول المريض ومرضه ، قيل إن ضغط الدم نذير خطر ولا علاج ، وقيل إنه ربما اضطر حزمة بك إلى التقاعد أو التنحي على الأقل عن مهام

يستخدم أيضاً لغة الخطاب الايديولوجي النقيض الصادر عن الأحزاب السياسية والمعارضة ليحبر بسهولة الى أذهان المثقفين ليتأدلجوا وليقبلوا ، ولينتمحوا ثلاث كوارث دفعة واحدة فوق كاثرة التأدلج : الزيادة في الاسعار ، الزيادة في ساعات العمل ، تجميد الأجور . انه يراهن عليهم لا على المؤدلجين الذين يشكلون الأغلبية الساحقة والذين ، اعتماداً عليهم ، لا تستجيب الدولة لمطالب النقابات المعارضة . ويبدو أيضاً تأدلج يومي من تقويمه للصراعات السياسية تبعاً لمعايير الأهمية والتفاهة ، والسعادة والشقاء ، والانسان والحيوان ، والأمل واليأس ، والحقيقة والحلم ، والقوة والضعف ، والجهل والمعرفة ، والوحدة والاختلاط . .

« قطع تافه في مراعي التعاسة يعلقون الأمل على الاحلام لضعف نفوسهم وجهلهم بأن الوحدة عبادة . » (ص ١٥٤) .

أنانية ! ما الأنانية ؟

كثيراً ما نمر بنا هذه البديهة ومع ذلك لا ندرك دلائلها الخافتة مثل الوحشية ، وإرادة القوة الفردية ، والتسابق ، والتنافس ، والاجرام ، وإرادة القتل نية أو فعلاً .

النية تساوي الفعل . وحكم النية هو حكم الفعل . إذا نويت القتل فقد قتلت .

تعبير نية القتل عن ذاتها في الرواية في شكل مناجاة تلقائية بين النفس وذاتها لتأدلجها ، ولا يطلع عليها سوى السارد بحكم « الرؤية مع » التي تحول له التساوي ، والتطابق ، والتناغم مع الشخصية فضلاً على تجرته الواسعة التي تسهل عليه التخييل ، والتصور ، والنفاذ الى نفسية الشخصية والتسلل الى وعيها لاستجلاء خفاياها . إن يومي لأدلجته يتنى - كي يحقق مطامحه المستحيلة - الموت لأخيه الموظف ليحل محله ، وكي يعتلي كرسيه لمصلحة شخصية تافهة هي

الذي يجعل فيه السارد بيومي في ظرف حرج كي يختار ، ويتخذ موقفا بطوليا ، ويتزوج ، ويحقق نصف حياته أو بعضها منها ، يتحدث اللامتناهي إذ يفقد ، لتأديج ، الارادة ، والحزم ، والاقدم ، واتخاذ القرار ، والشجاعة ، فيضمحل الفعل البطولي ، ويتلاشى موضوع الرغبة ، وتكبت الرغبة . لو اعتمدنا منهج جرياس البنيوي الوظيفي العائلي لتبين لنا أن في « حضرة المحترم » ذاتا تحمل الايديولوجيا السائدة فيها فتلعب دور المعاكس داخل الذات التي تغدو مزدوجة ، ويصبح الموضوع هو الجنس/ الزواج/ حب/ علاقة/ امرأة ، وهذا الموضوع ثنائي أيضا لانه يلعب دور الموضوع والمساعد في نفس الآن . أو تغدو الايديولوجيا السائدة هي الذات والموضوع في نفس الوقت ، ذاتا ترغب في ذاتها . وهنا ندعم بيومي . في عجز يو-مي يستحوذ على موضوع الرغبة بطل يغيب عنا أن نعتبره في عداد الأبطال أو أن نعترف له بالبطولة . هذا هو ما وقع فعلا لبيومي المؤدج مع الجيل الجديد غير المؤدج نسيا مادام يحقق رغبته ، وإرادته بشجاعة متحديا الظروف ، ومرهضا بإيديولوجيا حرة جادة ، جاءه يوما حسين أفندي جميل وقد علم بعلاقته بأنسية رمضان :

« الحق أنه لولاك لتقدمت لخطبتها .

(.....)

- أنت شاب سيء الظن ، ماذا شاهدت ؟ ماذا شاهدت يامسكين ؟ ولكن هكذا هم المحبون ، ظلما عاملتها كابنة من صليبي ، علاقة هي البراءة نفسها ، كم أخشى أن تكون قد أسأت إلى سمعتها بلسانك وأنت لا تدري ولا تقصد ! فقال الشاب ببراءة وحزن جليل :

- إني أعرف متى وكيف أكتم أحزاني وأحافظ على سمعة من أحبهم ! فقال وهو يتنهد :

.. أحسنت .. أحسنت ..

الرئيسية . سمع تلك الأقوال باهتمام فحقق قلبه بسرور خفي تلقاه بسخط وقلق كالعادة ، ولكنه هيج أحلامه ومطامحه (ص ٦٩ - ٧٠) . وبعد فترة أصبح حمزة السويفي معافى ولكن عاودته أزمة ضغط دم جديدة فعادت الوسواس ذاتها لتنبش كالجوارح كبعد عثمان بيومي فتحنى للمدير أكثر مما تحناه للوكيل الأول : « وتؤكد لديه أن الوكيل والمدير أصغر منه سنا ، وأن الدرجات لن تخلوا إلا بمعجزة مجهولة أو بوفاة عاجلة ، أو بحادث يقع في الطريق » (ص : ١١٠) . ويأمل أن يصاب عبدالله وجدي بمرض الموت : « وجعل يقول لنفسه : عبدالله وجدي في حكم الشباب حقا ولكن عصر المعجزات قد عاد » .

ولكنه في الحقيقة لم يعتمد على المعجزة وحدها ! كان يرمق بداية عبدالله وجدي باهتمام ويتابع ما يقال عن همه في الطعام والشراب بارتياح خفي ، ويردد فيها بينه وبين نفسه :

- ما أكثر الأمراض التي يتعرض لها أمثاله ! (ص : ١٢٩) .

ثم يقتل نية موظفا مثله وهو حمزة السويفي : « وهو يحفظ عن ظهر قلب أن للادارة وكيلين ولكن الوثبة لن تأتي إلا عن طريق حمزة السويفي ، بأن يرقى أو يجمال على المعاش أو ... يموت !! » (ص / ٦٥) . والعبارة التي أكدها « ثلاث نقط استثنائية - تومى الى أخلاقيات بيومي و « يموت » دالة على طموحه الاناني المجرم .

بطل أو لا بطل ؟

إن البطل في الرواية ليس دائما هو الشخصية الرئيسية ، فالبطل في بعض الروايات شخصية ثانوية كرواية « حضرة المحترم » لنجيب محفوظ . والبطولة درجات ، وأشكال تتغير بتغير الظروف والمواقف كمظاهر وتبقى البطولة هي هي وككينونة . في الوقت

وحسن تصرفه وخلقه ، ولم يرتع من بادية الأمر إلى البكالوريا التي تميز بها وحده في المحفوظات ، ولا إلى طموحه إلى المزيد من التعلم الذي سيرفعه درجات جديدة من الامتياز عليه هو بشهادته اليتيمة « الابتدائية » (ص : ٢٥) . إن اللغة هنا تعبير عن طقوس أخلاقية ينتشر فيها الخطاب حسب تغير المتحاورين الذين يخضعون لمعايير تعود إلى الرئيس والمرؤوس ، والنشاط والحول ، والرسمي والمؤقت ، والاعجاب ، والانكار ، والاستقرار والحذر ، والصبر والتسرد ، والحسن والقبح من التصرف والخلق ، والبكالوريا والابتدائية ، والتساوي والتمييز ، والمزيد والاكتفاء بالتعلم ، والارتفاع والانخفاض ، والدرجات القدية أو الجديدة ، واليتم والأسرة .

وهذه رسالة إبلاغية أو طلب يبحث إلى من « فوق » بيومي حسب ترانثية السلم الإداري المجدد لتقسيم العمل / الاقتصاد / الأجرة ويتم عن قواعد إدارية صارمة مؤدجلة (بالكسر) تتحكم في رقاب الناس ، وتفرض عليهم الإذعان لها صاغرين على مستوى الكتابة : « حضرة صاحب السعادة المدير العام . أتشرف بإبلاغ سعادتك (.) مسئلتها الهمة من عبقرية سعادتك ، في ظل مولانا الملك العظيم حفظه الله وأدام ملكه (.)

وتفضلوا بإصاحب السعادة بقبول فائق الاحترام

عثمان بيومي

« كاتب الوارد بالمحفوظات » (ص : ٤١)

وبيومي كما يدل عليه لقبه الإداري المؤدج كاتب الوارد في المحفوظات ، يخضع لمعايير الاحترام الأخلاقية كما تبدو في لغة الرسالة المؤدجلة : حضرة - صاحب السعادة - المدير العام - أتشرف - « كم » - عبقرية ظل مولانا الملك العظيم حفظه الله وأدام ملكه - « وار الجماعة » - فائق الاحترام . وتصدر عن معايير الحضرة

ثم موجة من الأسى محتاحه :

سلكت سلوكا خليقا بالرجال . .

من شدة رد الفعل ، والشعور غير المتوقع بالنجاة اضطربت معدته فغزاه إحساس بالغثان ، قال :

مثلك يستحق أن يسعد بمن يحب . (ص : ١٠٣) .

ويبدو التادلج في اللغة الأخلاقية : أسأت إلى سمعتها ، أو في التمييز بين المرأة والرجل : سلكت سلوكا خليقا بالرجال . فخشية حسين جميل غير مزدوجة ولا معاكس يعترض سبيله . لا يعتبر بيومي معاكسا مادامت رغبته في التخلص من الفتاة .

التراثية :

تعني التراثية أن الموظفين / العمال ، وأرباب الوظائف والمعامل وأن العمل مفتت ويستتبع تفتت العمال ، الموظفين وغيرهم إلى مستويات ، ودرجات ، وسلام ، ومراتب ، ومناصب ، ومكاتب ، وكراسي ، وألقاب تمجد لكل فرد مستواه في عمله / وظيفته أو مهنته أو حرفته لخلق التنافس والتناحر لجلب اليد العاملة وإغرائها . وهذا التقسيم التراتبي توابه اللغة المؤدجلة التي تركز على الثنائيات . وتخضع التصنيفية للتراثية في جميع مرافق الحياة . فمند عنوان « حضرة المحترم » نذكر أن اللقب الذي يحمله عنوان الرواية دال على أن الناس مصنفون وفق تراثية إلى محترمين وغير محترمين حسب معيار « كبار » و « صغار » : « ما عجب اقتتال رجال الدولة الكبار واتباعهم » (ص : ٢١) وتشر هذه العبارة إلى غياب النساء في الدولة . إنها دولة رجال لا دولة نساء ورجال . وتتمثل التراثية أيضا في أن هناك رؤساء وأتباعا ولا سيبا في اللغة / الألقاب ، والشهادات ، والمستويات المعرفية التي يمكن أن تزول بزوال الدولة : « كان سحفاً بسبوني رئيس المحفوظات يتابع نشاطه الرسمي بإعجاب وحذر . أعجب بجلده

ابنها كبيرا من الأكابر . أليس الله بقادر على كل شيء ؟! (ص : ١٤) .

والمجتمع المودلج مقسم وفق التراتبية الى ذوي شأن ومنحط الشأن : « مساعدة أدبية تقدم لذوي شأن » (ص : ١٥) ، إنه مجتمع يميز بين التلميذ والموظف بالشارب :

« - تلميذ ؟! .. ولماذا ترى شاربك ؟

- موظف وتلميذ في مدرسة ليلية » (ص : ٣٩) .

ويتموضع بيومي بين الاغنياء والفقراء ، بين المتنازعين والمنحطين ، بين الكبار والصغار ، بين الأحزاب الموالية والمعارضة ، بين الجاد والهازل ، بين المتمتع والقواد ، بين الدولة والشعب ، بين السعادة والتعاسة ، بين السناء والأرض ، بين المسلح والاعزل ، بين الترقب والغافل ، بين الحكمة والجهل ، بين الراغب والزاهد في الشيء ، بين العامل والحامل ، بين المؤمن والملد ، بين السقوط والارتفاع ، بين الأسرة الكبيرة والصغيرة ، بين المساندة والمعاكسة ، بين غوة والضعف الحزبي :

« إنه لا يملك سحر المال ، ولا يتمتع باستيازات الأسرة الكبيرة ، ولا قوة حزبية تسنده . وليس من الذين يرتضون أن يلعبوا دور البهلوان أو العبد ، أو القواد ، إنه واحد من أبناء الشعب التميمي الذي عليه أن يتزود بكل سلاح ، ويتحين كل فرصة ، ويتوكل على الله ، ويستلهم حكمته الأبدية التي قضت على الانسان بالسقوط في الأرض ليرتفع بعرقه ودمه مرة أخرى الى السماء » . (ص : ٤٢) ، بين الذين يعتمدون على أنفسهم وبين أصحاب الوساطات « لاهل الوساطات » (ص : ٤٣) . وهذه تراتبية الحكومة والسياسة التي تمر منها الميزانية كعمل خطير في مقابل عمل تافه : « والميزانية عمل خطير يتصل بالمدير العام ووكيل الوزارة ، ومجلس الوزراء والبرلمان والصحافة » ،

والغنية ، وأصحاب السعادة أو الشقاء ، المدير العام والخاص ، حصول الشرف وعدم حصوله ، كم وكم ، العبقريه والبلادة ، الظل والنور ، السيد والعبد ، الملك والفقير ، التنظيم والتحقير الحفظ والضياغ ، دوام الملك أو انقضائه ، ضمير الفرد أو الجماعة ، الاحترام ، والاحقار ، الفائق أو السافل ، يقول السارد في خطاب آخر يؤكد التراتبية : « سيدور خطابه الموجه إلى حضرة صاحب السعادة دورة رائعة تعلن تفوقه على الملأ ، فهو يعرض أولا على رئيسه المباشر سعفان بسيوني ليقوع عليه العرض على صاحب العزة مدير الادارة حمزة السويني (.) وبعد ذلك يعرض على حمزة السويني ليقوع بعرضه على حضرة صاحب السعادة المدير العام (.) ثم يوقع عليه بالتحويل إلى المستخدمين لاجراء اللازم (ص : ٤١) ، (٤٢) إذا كانت الابتدائية تقابل البكالوريا ، فإن البكالوريا تقابل أيضا التجارة المتوسطة - جميعهم من حملة البكالوريا !

فأجاب حمزة السويني :

- بينهم اثنان من حملة التجارة المتوسطة .

- العالم يتقدم ، كل شيء يتغير . ها هي البكالوريا تحمل عمل الابتدائية . (ص : ٦) .

حتى الاطفال يصنفون حسب تراتبية تتناول قدراتهم العقلية التي لم يجتاروها وإنما صنعوا وفقها كما صنفت المدارس :

« - الولد ذكي وربما رأيته يوما من رجال الحكومة .

- عليك بمدارس الأوقاف فرميا قبل بالمجان »

(ص : ١٣) .

والأمهات المودلجات يقتلن هذا التصنيف وينسبته للاله ويغدو طموحهن مرتبا :

« وضاعفت الأم من نشاطها مؤملة أن يجعل الله من

القانون والاقتصاد وثقافته العامة وتفوقه الراسخ في اللغات » (ص : ١١٠) . إنه ينظر إليهم من زاوية الثقة وعدمها ، الأولى والأخيرة ، والحجة وعدمها ، معرفة أو جهل القانون والاقتصاد ، والثقافة العامة والخاصة ، والتفوق (أو عدمه) الراسخ أو المتذبذب في اللغات . إن التراتبية كمعياراً ، تراعى الشهادة والكفاءة فحسب للوصول إلى الوظيفة الحساسة بل أيضاً المكانة الاجتماعية حسب الأيدولوجيا الأخلاقية : « - لا تراعى الشهادة والكفاءة وحدها عن الاختيار لها ولكن يضاف إليها المكانة الاجتماعية » (ص : ١٦٨) .

هذا أو أكثر هو ما يحدث في مجتمع مؤدج حيث تسود المحسوبية والوصولية واليزبين الناس الذين يتفوقون في المساهمة في الاقتصاد بالعمل ، ويتساوون في الحاجيات ، ويختلفون في الحقوق والواجبات ، كما يشيع فيه وجود أحزاب مؤجلة استغلاية : « - أعرف ما يقال ، ولا أنكره ، الوساطة .. القرابة .. الحزبية كل أولئك وما هو أشنع ، ولكن الكفاءة قيمة لا يمكن تجاهلها كذلك ، حتى أصحاب المراكز من غير ذوي الكفاءة يجدون أنفسهم في حاجة إلى من يغطي عجزهم من الاكتفاء الحقيقيين » (ص : ١٣٦) . وترقى بيومي ، وهو في فراش الموت ، إلى مدير عام ، حلعه المقدس حيث يتجسد روح الله - في نظره - تبعاً للرؤية المثالية المؤجلة الخاضعة للتراتبية السائلة والمفرقة الناس إلى بشر وغير بشر إلى حد أنه تخيل أنه في نفس مرتبة الفسرد/ الآله وأنه يمارس السلطة . إنه يتقمص الشخصية الأخرى . إنه حرياء . إنه مظهر كينونة . إنه طيف وجود بل عدم وجود . يعد نفسه من أصحاب القوة ، وأصحاب السعادة الفائزين ، مالكي الحجر الزرقاء/ النساء/ الآله/ المثل العليا ، ويبدد الحل والعقد ، وأنه من « أولي الأمر » ، وأنه نبي في مقابل البشر العاديين الذين لا يملكون حجرة في لون التراب ،

(ص : ٤٣) . وإذا أراد يبرمي تغيير الوظيفة فإنه يخضع لمعاييرها التقنية بين الوظيفة ذات المرتب الثابت والراتب المتحرك ، والأطوار العام والخاص : « ولكنها وظيفة ذات مرتب ثابت وسوف تخرج بها من الكادر العام فهل فكرت في ذلك ؟ » (ص : ٥٠) . وتقسيم الراتب تابع لتقسيم العمل وقد يشغل الفرد عدة وظائف براتب واحد وذلك لاستغلال الطاقات والحد من التوظيف . وتخضع الترقية لتقسيم الزمن : « تقرر ترقيةك إلى الدرجة السادسة بمرتب قدره خمسة وعشرون جنيتها . ورغم تضحيتي بعشرة جنيتها إلا أنه فاز بترقية ما كان يبلغها قبل سنوات وسنوات ، فضلاً عن الأهمية التي اختص بها بعمله المزدوج » (ص : ٥١) . والأمل ينقسم إلى منشود وغير مرغوب فيه ، والأول والأخير والناس إلى عاصدين وأفذاذ ، والمجد والسلاج ، العظيم والمبتذل : « هي أمهم المنشود والأخير وبخاصة الأفاذ منهم الذين يعدون أنفسهم لذلك المجد العظيم » (ص : ٥٢) . إن التراتبية تشمل حتى الوكلاء والمديرين : « في طريقه يوجد وكيل إدارة ثالثة ووكيل إدارة آخر ثانية ومدير إدارة أولى » (ص : ٨٢) . وينظر إليهم بيومي بنظرة مؤجلة ومن منظور ينطلق من معيار الصداقة والعداوة ، والظهور والندس ، واللينة والقساوة : « جميعهم أصدقاء - أعداء لما تقتضي به إرادة الحياة الظاهرة القاسية » (ص : ٨٢) ، والمحسوبية مبنية على تراتبية أخرى ترجع إلى قاعدة الانتباه إلى الأسرة وعدم الانتباه ، والقرابة والغربة : « إنه كما تعلم من أقرباء الوكيل » (ص : ١١٠) ، « - لا .. لا ، إنه قريب الوزير ! » (ص : ١١٦) . وتحدد التراتبية سلوك بيومي إزاء الآخرين : « وجلس في الإدارة كوكيل ثان ولكنه شعر باستعلاء على من حوله ، وبأنه أهل للثقة الأولى ، وبأنه الحجة في الإدارة واللوائح والميزانية فضلاً عن دراسة

والمنفذين للأوامر ، المطيعين الأشقياء ، والضعفاء ، الفاشلين ، المتسقين بالأرض وفق التراتبية والميز والتفرقة بين الناس : « تذوق في هدوء نجاحه . إنه صاحب السعادة ، مالك الحجر الزرقاء ، مرجع الفتاوى والأوامر الادارية ، ملهم التوجيهات الرشيدة للإدارة الحكيمة وقضاء مصالح العباد ، وعبد من عباد الله القادرين على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (.....) وقال لنفسه :

- ستتم نعمتك علي ياربي يوم تمكثني من القيام بممارسة السلطان وإعلاء شأنك في الأرض » ! (ص : ١٥٧) . لقد توجّد بيومي بالاله ، والسلطان ، والنبي والملك ، وأولي الأمر . لم يفارقه تأدّجه . إذا كان منذ بداية الرواية يسعى إلى القوة والحكم ، والسلطة تقليداً للاله / الفرد فإنه الآن هو الاله الفرد أو الفرد / الاله . ولن نعيد الحديث عن قدراته وإمكاناته المعرفية والتقنية . ماذا صنعت به الايديولوجيا السائلة ؟ متنبيا أو نبيا ؟

بيومي وعلاقاته بالخصيات/ النساء :

إن الانسان امرأة أوروبجا يصنف ترتيباً بالدرجات ، والاقسام ، والألقاب ، والسلام ، والمؤهلات :

« - أهلا بك من أي قسم ؟

- المستخدمين .

- عظيم ، وما مؤهلاتك ؟

- ليسانس آداب قسم التاريخ » (ص : ١٣٤) .

وبيومي يميز هو ذاته بين حارة وحارة : وحي وحي ، وأسرة وأخرى من زاوية الفقر والغنى ، بين العامة والأعيان ، بين كبار الموظفين وصغارهم بين أصحاب السلطة ومن لا سلطة لهم :

« - ابعدي فكرك عن حارتنا ، عن حيننا كله .

(.....)

- أريد عروسا من أسرة كريمة .

(.....)

- عندك المعلم حسونة صاحب المطنخ البلدي .

فقاطعها بنفاذ صبر :

- لا تفكري في حيننا ، عليك بالامر الكريمة . .

تقصد ... ؟

- الأعيان . كبار الموظفين . . أصحاب السلطة » (ص : ٦٧ - ٦٨) .

إن يسومي يبحث عن المرأة/ الشيء لا المرأة الانسان ، المرأة « المناسبة » تحت معيار المناسب وغير المناسب . والسارد يصدر عن أيديولوجيا رافضة للايديولوجيا البراجماتية . والدليل على ذلك وضعه كلمة - مناسبة - بين مزدوجتين دلالة على رفضه الطبقة والميز والتفرقة والتصنيفية وفق تراتبية مصطنعة ، وتشبيء المرأة/ الانسان ذلك أن « تفكير » بيومي يخضع لمعيار الصعود والنزول ، من الطبقة القديمة الى الطبقة الجديدة ، والثبات والتحول ، والتخلف والتقدم ، والوضاعة والشرف ، والفشل والنجاح : « وثمة خيبة أخرى عاناها في تردده على بيت المدير ، فقد حلم بأن يجد هناك عروسا مناسبة » ومن يعلم ؟ وحلم أيضا بأن خدماته قد تشفع له عند حمزة بك السويفي فيغضي عن وضاعة أصله ، ويقبله في طبقة جديدة تمهد السبيل الى التقدم » (ص : ٥٣) .

إن اللابظولة وليلة التأدّج وتبدو في هروب بيومي من السياسة هروبا رومانسيا ويعتبرها ثروة في حين تعتبرها بظلة شابة ذات إيديولوجيا نقیض حياة :

« - لا تحدّثني عن الصراعات السياسية . .

- ولكنها الحياة الحقيقية .

- ما هي إلا صخب زائف .

- الدنيا من حولنا . . .

فقاطعها بنفاذ صبر :

وأشكالها، وألوانها، وأذواقها، وأصواتها، وموادها تبرز في هذه اللغة : انعكس الضوء الصاعد من الفرح على وجهها فوضحت بعض معالمه - وجهه مستدير - لونه قمحي - ملاحظة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق - ساعدها السوية البضة - كأنها هي التي تنفث رائحة النعناع - ونعاني المرأة من هذه الأحكام التوقعية أكثر من الرجل الشيء الذي يدفعها إلى اقتنائها ضروب التجميل . ومصير تلك المرأة هو البيت / الظلام الحسي والمعنوي انطلاقاً من معايير أخلاقية بالية في المجتمع الأبوي المودلج القامع والكابت الذي يشي المرأة ويسلمها فتتصنم في الزمان والمكان ، وتحطم ، وتحرم حتى من الحركة والابتسامه التي تخمض على شفتي بنت سفعان ، وهي أدنى حركة تولد مع الانسان ، وتتاح للرجل دون المرأة كالنظر كما يبدو ذلك في هذه الوحدة السردية : وقفت دقيقة ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامه كادت تغفل منها حياء وارتباكاً . ثم قول الراوي : وساد صمت كأنه الشعور بالاثم - قال « كان » هذه لا وظيفة لها هنا لأنه فعلاً يوجد الشعور بالاثم الذي يحسه كل رجل دين مؤدلج في كل العصور . وهنا في المقطع السري فالشخصيات المؤدلجة كيبومي ، وسفعان بيسيوني والبت ، هي التي أحست بالاثم حيناً خرقمت المعايير الأخلاقية ، والمواضعات الاجتماعية انصياعاً للطبيعة البشرية ، تعاودهم العقلانية ويستبد بهم الشعور بالذنب ، والحسرة ، والندم على « ما اجترحوه » . ان عثمان بيومي كان ينظر ويعيد النظر إلى الفتاة فندم على ما ظفر منه . إنها جريمة جحيمة . وسفعان الذي يسعفه ويساعده في الزواج لم يطرح هذه القضية على بيومي قبل استضافته ، ولم يصارحه برغبته في تزويجه فتاته . ولكن معيار الكرامة والذناء الأخلاقي الذي يميز بين الفاضل والفواد (الفواد في مجتمع بيومي المؤدلج مدان كالعاهرة لجهل أو تجاهل ظروفيها

الدنيا الحقيقية في أعماق القلب » (ص : ١٤٧) . وذات يوم استضاف سفعان بيسيوني وقدم له ابتسه بطريقة غير مباشرة وهو سلوك جعل الصراحة متعمدة لغلبة الإيديولوجيا الأخلاقية على العلاقات الاجتماعية . وعندما شرع السارد في وصف الفتاة وبيومي والأب من زاوية « الرؤية مع » تجلت الإيديولوجيا المفرقة بين الناس والجناس في أحكام القيمة التي ينعت بها الناس بعضهم بعضاً . إن المؤدلج ينظر إلى المرأة من معيار الصورة والشكل ، ومعيار الجمال والقبح كما تفعل به المرأة المؤدلجة ، وكما يفعل الانسان بأخيه . يقول الراوي : « وظهر في مدخل الشرفة شيخ . فتاة تحمل صينية تفوح منها رائحة الشاي المنعنع . انعكس الضوء السابغ وراءها ، وجهه مستدير ، لونه قمحي ، وثمة ملاحظة ملحوظة مغلفة بغموض وأشواق يساوره قلق . وهو عيل قليلاً ليتناول قذح الشاي رأى عن قرب ساعدها السوية البضة وكأنها هي التي تنفث رائحة النعناع . وقفت دقيقة أو أقل ثم توارت في الظلام وهي تداري ابتسامه كادت تغفل منها حياء وارتباكاً . وساد صمت كأنه الشعور بالاثم ، وتشيع الجو بروح المؤامرة ، وتضاعف قلقه . قال سفعان : ابنتي . .

هز رأسه إعراباً عن الاحترام :

- حصلت على الابتدائية قبل أن تنقطع عن المدرسة .

- واصل هز رأسه في تقدير وأعجاب ، ترامت إليهما أصوات الجوقة وهي تغني التوشيح . ومضى سفعان قائلاً :

- البيت هو المدرسة الحقيقية للبت . .

ولكنه تذكر جهاد أمه الكادح في حياتها المريرة » (ص : ٢٨) .

فالأوصاف النابعة من معيار الجمال والقبح ،

يشكل مرآة تنعكس عليها صورة الآخر . ومن معيار المنوع والمباح ، والجمال والقيح ، والصغر والكبر في السن يحكم على المرأة : « وثوقت الايام علاقته بفناته تماثله في السن تسمى نفسها قدرية ، جذبته بسمرة غامقة - مثل سيدة - ولكنها أعمق في زنجيتها وبدانتها ولم تكن مغرقة في البدانة » (ص : ٣٨) وقدرية هي قدر بيومي الذي يؤمن بأل قدر : « سمع المهمة مرة أخرى ، وسمع صوت القدر » (ص ٦) . ولكن لماذا ينظر الى لون الانسان . أهو الميز العنصري ؟ إنه يقوم قدرية اعتمادا على معايير عقلانية . إن أفكاره المؤجلة تقف حاجزا بينه وبين إدراك أن كليهما في حاجة الى الآخر أو يدركه ولكنها تصده بصورة أو باخرى عن ممارسة حاجته الطبيعية : « قال لنفسه أنها مجنونة بلا شك ، ولذلك فهي بغى . ولكنها كانت الترفيه الوحيد في حياته الشاقة ، ووهبته عزاء لا بأس به » (ص : ٤٨) . وتستند عقلانيته الى معايير العقل والجنون ، والزواج والبغي ، والعذاب والترفيه ، والقلق والعزاء ، - أنها مجنونة - فهي بغى - كانت الترفيه الوحيد - وهبته عزاء لا بأس به - وبما أن الجنس يحرم كباقي الحقوق فإن بيومي يزور قدرية ليلا خشية الرقيب ولا رقيب أحيانا سوى الا يديولوجيا الاخلاقية : ذو دين وخلق - المحافظة على السمعة الطيبة وهي في صيغة القول السائر 3/4 cliche ولكن قدرية من هذه الناحية بطله . أنها لا تخشى أي شيء . أنها غير مؤجلة نسيان لعدم نفاذ الخطاب المؤدلج الى فكرها . أنها تجسد الطبيعة في بدايتها ونفاتها . أنها تعيش من جسدها ، وتحقق الاشباع الجنسي للآخرين ولنفسها مع من تحب . تلك مهنتها التي تستحق الاحبار في عالم المصادفة . ولأجل ذلك فهي ثائرة بشكل عفوي على المعايير الاخلاقية في عالم لا أخلاقي في الحقيقة والواقع . إنه عالم منحط ومتدهور في الكينونة والجوهر . وعثمان بيومي الذي

الاقتصادية والاجتماعية والنفسية) الجمله عن ذلك « حفاظا على سمعته » ولكن الفتاة في حاجة إلى عريس ففضل « أن يعرض سلعته » في تكتم وصمت ربما كان لها تأثير ما على الزبون في سوق الكساد : البيت هو المدرسة ، فأحس أنه تأمر على بيومي فاعتراه الشعور بالذنب .

يشيء بيومي سيلة : « انها الجوهره الوحيدة في حياتي » (ص : ٣٧) ، وتشبهه هي أيضا . ما كان ينبغي لما أن تتنازل عن حبها لها وتهجره لمجرد إدراكها رغبته عن الزواج رغبة في « الهدف السامي » يقص عنها الراوي قائلا : « ولكنها لاتاق ولن تاتي . قطعت ولعلها نسيته . وإذا خطر ببالها لعتت بما يستحق . ويوما مر تحت نافذتها في العاصري فخيّل إليه أن رأسها لاح لحظة وراء القلة المعرضة للهواء للتبرد ، ولكنها لم تكن هناك أو لعلها تراجعت باشمئزاز وعجلة (...) وصادفها صباح الجمعة في الخيمة بصحبة أمها . تلاقت عيناها لحظة ثم حولتها عنه في غير مبالاة . لم تلتفت وراءها . تجلّى له معنى من معاني الموت [ص : ٣١] . هذا السلوك الصادر عن سيدة يدل على أنها أرادت أن تمتلكه كشيء . ولشعورها بالضعف وأرادة القوة رغبته في أن يكون عثمان / الرجل / القوة / السلطة / المال بجانبها و عثمان في إرادة القوة الفردية يهرب أيضا من الضعف / المرأة / الفقر رغبة في صاحب السعادة / مدير عام / قوة / سلطة / مال / اله . كانت سيدة لاتعده من الرجال ولا تعد نفسها من النساء انطلاقا من معيار الزواج التي يكون بها الرجل رجلا والمرأة إمراة ، والطلاق أو عدم الزواج الذي يقلب كل شيء الى ضده . ولكن ماذا قدمت له سيدة من مساعدة ؟ هل جعلته يعي وضعه ؟ إنما لاتستطيع ذلك مادامت مؤجلة مثله . والا يديولوجيا السيدة تكسر هذه الثنائيات . أيدل اسم « سيدة » على شيء من ذلك ؟ فكل منها

ماذا نقول ؟ إننا لانفهم شيئا . وقال معتذرا :
 - لا يجوز أن يراني أحد ..
 - هل ترتكب جريمة ؟
 - الناس ..
 - أنت الثور الذي يحمل الأرض على قرنه ..
 إنه ذو دين وخلق وسمعة طيبة يجب المحافظة عليها .
 وقالت له بإغراء :
 - ممكن أن نتحكر في ليلة كاملة ، يمكن الاتفاق على ذلك ..
 فسألهما بحذر :
 - والثمن ؟
 - خمسون قرشا ..
 وفكر باهتمام . سيبه ذلك راحة حقيقية ولكن الثمن فادح . إنه في حاجة إلى الراحة . قال :
 - فكرة طيبة ولكن مرة في الشهر ...
 - هل تكفي بكرة واحدة في الشهر ...
 - ربما أجيء غيرها ولكن بالطريقة العادية ..
 (...) وهي تعيش بلا حب ولا مجد ، وكأنها تؤاخي الشيطان في غضبها . وكم غاظه أن تعترف له مرة بأنها اشتركت في مظاهرة فحتمت اعتمادا ..
 - مظاهرة ؟
 - مالك ! نعم مظاهرة .. حتى هذا الدرب أحب الوطن يوما ..

قال إن الجنون منتشر أكثر مما تصور (ص ٤٨ - ٤٩)
 إنه يحكم على قدرته من معيار الفهم وعدم الفهم .
 وتحكم عليه بمعيار الإنسان والثور . إنها تعرض ذاتها للاحتكار (مصطلح اقتصادي رأسمالي ليبيرا لي تجاري) كسلعة لها ثمن : خمسون قرشا . لن يشبع رغبته الجنسية سوى مرة في الشهر نظرا لارتفاع السعر . وقيمها وفق معاير الحب والكراهية : والمجد والحزني ، والله والشيطان ، المقاومة والاستسلام ،

يغلب عنده زمن العمل على زمن الراحة عاجز عن ممارسة الجنس / الزواج أضف إلى ذلك أجرته الضئيلة والتي لا تسمح بالاتفاق على قدرية راحته الوحيدة في أقصر أوقاتها ولذلك يؤجل رغبته / راحته / حياته / متعته إلى آخر الشهر ، ويكتب نفسه كما يبدو ذلك في تعبير السارد الذي يصيبه أحيانا رذاذ الأيديولوجيا السليدة فيسكت عن ذكر الجنس ويكتفي عنه بكلمات أخرى فيؤاويه . قدرية لا تعدد الجنس جريمة ، ولكن السارد يسيطر على هذه الشخصية فلا يدعها تعبر بحرية وجنون عن الجنس كي تكسر قيود التاديلج الأخلاقي ، وكي تكتمل صورتها وتبلغ حدا من الانسجام بين أفعالها وأقوالها التي أوجزها السارد بصرامة منطقية وعقلانية المفرطة ، إنها شخصية قد اطفأ الراوي وهجها فجرد النص الروائي من متعته ، ولذته وإقناعه . لا يكفي ما ذكره عن ترمدها ، وثورتها ، وماضيتها النضالي : لقد شاركت في مظاهرة وطنية ضد الانجليز . إنها جديرة بعناية السارد وتستحق التكرير منه قبل المجتمع . إذا لم ينصفها المجتمع فالسارد أحق بأنصافها . ينبغي أن تأخذ بطولتها كل أبعادها النفسية . إنها قمينة بأن تجري عليها الدولة راتبها شهريا وأن يضرب لها تمثال في شارع كبير . إنها غير مشغولة عن جهلها وتسكها ببعض الحرافات .

يتهم بالجنون ، والسحر ، والشغب ، كل بطل استشعر عن وعي أو لا وعي ضرورة ممارسة حريته ، ويلقب بالشيطان .
 لنقرأ هذا الحوار الدال الذي يمتزج بالمونولوج الداخلي التلقائي .
 ألا تحب أن أغضي صباح الجمعة معا في نزهة ؟
 فدهش وقال :
 - إنني أجيئك كاللص متخفيا في الظلام ..
 - مم تخاف ؟

والعقل والجنون ، حتى الزواج ينظر اليه بيومي من أخلاقية : الزواج نصف الدين ويفاضل بينه وبين « ر المنشود ، أو من منظار الأقوال السائرة : إنجاب الذرية . إن الرؤية إلى العالم ميتغريقية .

إنه يشيء المرأة ويتخذ سلماً يرقى به إلى ما يصبو اليه من منظار براجماتي نفعي طوباوي : « معنى يكمل نصف دينه ؟ قبل بلوغ الأمل أم بعده ؟ يجب أن يكون أسيرة وينجب ذرية وإلا حقت عليه اللعنة . فأما العروس التي ترفع إلى العلا الذي يحظى بالعروس الباهر » ص : ٥٣ . لن تحظى المرأة بالعلا بالقدر العلاها . وليس بيومي هو الذي سيحظى بالعروس أو تحظى هي به . وهكذا يعلم بيومي حظين في سبيل المستحيل الذي لا وجود له سوى في الخطاب الأيديولوجي السراب .

مفهوم المرأة عند المؤدلج أنها وسيلة إلى غاية .

« ولكن أي فائدة كان يرجوها من الزواج من كرمته ؟ لأشيء إلا الذرية والمتاعب والفقر ، ولا حب أيضا » (ص : ٥٣) . المرأة ليست إنساناً في نظره بل « سفالة » للصعود : « ولكن الناظرة زوجة صالحة ربما على حين يريد » « مصعبدا » « فإ العمل ؟ » (ص : ٧٥) . وشياً كذلك السكرتيرة واعتبرها شيئاً يقيه من النار التي تلتفحها ألسنتها كل يوم منذ أن اشتعل :

« لعنة الله على اختيار مدير المستخدمين الموفق . وقال لنفسه أيضا : - إنني في حاجة إلى مظلة في هذا الجليم » (ص : ١٣٤ / ١٣٥) .

إن وضع بيومي وضع مأساوي إشكالي : فهو يرجع بين الأشباع الجنسي والمجد الزائف المستحيل التحقق في عالم منهار . فالأيديولوجيا السائدة تكبت وتعد ولا تفني . فالخس الجسدي مبتور لانه يعمل وحده دون إحساس إنساني . فلقد مات في قلدرية بسبب الواقع

المأزوم ومات في بيومي تحت تأثير التادلج الاخلاقي : « قلدرية تلعب دورا ملطفا في حياته المتوترة ولكنها لا تبني رحمة أو حناناً أو مودة إنسانية ، فضلاً عن مضاعفتها مشاعر الأثم . » (ص : ٧٢) . إن بيومي إيديولوجيا تسير على قدمين . لقد أعمته عن إدراك مآثره أنسية كمشروع بطللة ثالثة من حيوية ، واختزال الطريق بلوغ الغاية من أقصر الطرق مكسرة أغلال التادلج أو بعضها . إنها شابة تستجيب لنداء الجسد والقلب الصارخ . إن أنسية تحب التجديد وكأنها من بيئة متقدمة مخالفة لبيئة المحافظة : « لم يعرف ذلك التقليد . ولم تعرفه حارته العتيبة . ها هي أنسية تبشّر بتقاليد جديدة ، وجديدة أيضا مناورتها الظاهرة في النوادر وقدرتها الباردة في فتح أبواب الرحمة » (ص : ٨٦) . فالسارد يحكم على الحارة والتقاليد من معيار التجديد والتقليد وقد حدث في أسلوبه ما يسمى بالتناقض الظاهر L'oximoron لقوله : المناورة الظاهرة المحطمة للثباتية . ويحكم على قدرتها بالبراعة في فتح أبواب الرحمة وهي استعارة جاءت في صيغة عنوان لشيء لم يكتب بعد . ولغته الوصفية تتم عن إيديولوجيته المستقلة التي تحكم وفق معيار الوعي وعدم الوعي ، والرضى والنفور ، والتشجيع والتثبيط في قوله : « وقد ضغط على يدها فتلقت ذلك بإبتسامة وافية راضية ومشجعة أيضا (. .) وسارت إلى جانبته تسيل عينها بنظرة حاملة وظافرة ، مرفوعة الرأس مسددة النهدين ، يوحي منظرها بأنها مندفة في مجرى من المطالب لأفق له ، وأنها تلتهم في نفسها أجل أسرار الحياة » (ص : ٨٧ - ٨٨) . الأوصاف التي توحي بالبطولة هي : نظرة حاملة ظافرة - مرفوعة الرأس - مسددة النهدين - مندفة في مجرى من المطالب لا أفق له - تلتهم في نفسها أجل أسرار الحياة .

إن البطولة هي الإقبال على الحياة :

إننا لا نحمل الأيديولوجيا السائدة معنا فحسب ، بل هي تتأبنا ، وتعترينا ، وتغلغنا ، ونغمزنا ، وتفكر فينا من خلالنا ، وعبرها ننظر الى المحيط والعالم ، إنها محاصرننا ، وتسبقتنا الى الأماكن التي نهرب اليها ، وتلج أخفى الملاجئ المظلمة وأشدها حلكة . إنها تنغص علينا وجودنا وحريتنا ، وراحتنا ، وتكبث رغباتنا ، ومعتتنا ، ولدائنا الطبيعية الانسانية في الوقت الذي يتصل فيه احساس الرغبة العاطفية باحساس ما قبل الرغبة الجسدية . إنها رابعة اثنين اذا هما في الغار اذا اعتبرنا ايديولوجيا الطرف الثاني ثالثة ، إن الموانع الزجرية والنواهي (من النبي المحبى = العقل) الاخلاقية تعاودنا عبر الذاكرة التي تصعد اليها من الأنا المؤدلج فيشرع في التائب . وهكذا تكبت الذات المؤدجة ذاتها وتمارس الرقابة على نفسها وهي في عزلة وتندم .

ما التدم ؟

إنه الشعور الذي يحصل للفرد المؤدلج بعد لحظة التحرر من الأنا المؤدلج لحظة تحقيق رغبة ما حتى الحضور الى موعد ، في غياب الأنا المؤدلج لحظة ما قبل الشروع في الاشباع الجنسي أو أثناءه ، أو بعده حيث يفتى الأنا المؤدلج في غيبوبة اللذة المشروعة والتي يعدها هو أنها ، أو ذنبا ، أو سيئة ، أو موقبة ، أو جريمة ، أو خطأ .

يقول الأنا المؤدلج من خلال بيومي الذي يحقه الشعور بالندم : « سارا صامتين ولكن ثمة إحساس غير مريح ناوشه ، بأن اللقاء حدث شاذ خطأ ، بأنه ما كان ينبغي أن يستسلم » (ص ٨٨) .

ويجعل بيومي من المرأة مجرد فرج . ولتأدلجها ترفض لا لأنه شيئا وصيرها كالمطاط فحسب ، بل لأنها تستند الى معايير أخلاقية تصنيفية لا تقبل المرأة سوى بكر أو متزوجة .

هذه هي ايديولوجيا السارد الحيائية والواقعية والتي يؤكدنها بقوله الذي ينفي كل وهم أو تسويم ميتا فزيقي : « على فرض أنها مستقلب حياته رأسا على عقب وستقيم له في محراب الحياة قبله جديدة أليست هي أندر على إسماعده من النجم القطبي ؟ » (ص ٩١) . والمرأة جذيرة بأن تحدث تغييرا في حياة بيومي إذا وعت معنى الحياة التي تتنا في الحلم الطوباوي وبأن تحول اتجاهه من المستحيل الى الممكن باستعدادها الذي استعار له السارد هذه الصورة « سرعان ما غنت مغائن جسدها لحبا الجهنمي على أوتار فستانها المنقوش بالورد » (ص : ٩١) . إنها تستطيع إذا كانت مزودة بفلسفة الحياة أن تحول نظرته من العقل الى القلب العاقل ، من الموت الى الحياة ، من الروم الى الحقيقة التجريبية ، من العدمية الى الوجودية . لكن بيومي المؤدلج ، هروبي ، ينكمش ، وينطوي في شرنقة التأدلج ، وتقلصت نتيجة لذلك كل خلايا كالحزبون الذي مسته الحرارة . لا يقصد سوى الا مآكن الخالية ، والبعيدة ، المهجورة والمظلمة والدافئة كالرحم : وذلك عندما يصنع كشاعر رومانسي الى همس القلب ، النادرة هيمناته وخفقات الحياة فيه لحضور العقلا نية المؤدجة المستمر الى حد تنغيص المتعة ، واللذة على بيومي وحرمانه من نصف وجوده الذي امتصه العدم ، ومن معرفة أشياء وأشياء ، ومن اكتساب تجارب وتجارب ، وخوض مغامرات ومغامرات : « ولم تكن له خبرة بأماكن اللقاءات السعيدة فافترحت هي حديقة الا زبكية ولكنه اعترض قائلا إنها مكان مكشوف تحقد به الاعين من جميع الجهات . أما حديقة الحيوان فهي بعيدة بما فيه الكفاية ، مهجورة خارج العمران ، ممتنعة عن الرقابة ، يخوض التزام إليها حقولا وخللاء (. . .) لم تكن لديه فكرة عن أصول اللقاء ، ما يقال وما لا يقال ، ما يفعل وما لا يفعل » (ص ٨٧ - ٨٨) .

« يلزما مكان آمن نلتقي فيه .

هفت .

- عثمان أفندي .

فقال بدون مبالاة :

- سيكون مأوى رحيبا لاثنتين في حاجة الى الحب

والمعاشرة .

— اما أن تذهب أو أذهب أنا ؟ (ص ٩٣) .

والناظرة ، تحت وطأة معيار الزواج والطلاق ترغب في الزواج . وهذا دليل على وجود تراتبيه في العلاقات الاجتماعية أوجدتها الايديولوجيا الأخلاقية المهيمنة ، والتي يتولد عنها صنيع الناس فيصنفون تبعاً لذلك المرأة التي تشير إليها هذه الكلمات : متزوجة - طالق - عاهرة - بكر - عانس - ثيب . الخ . في مجتمع مؤدلج ينهي رغبة المرأة بنهاية زواجها بالطلاق فنجرد من إنسانيتها ، وكونيتها رغم براءتها براءة الطالق ، والمطلق (بالكسر والفتح) ، والشاذ ، والخش ، إن للناظرة مؤدجلة أيضا . « والدعارة » مآلها الأخير .

إن الجنس كالخبز والماء والهواء والطعام ، والجسد الذي يتناوله الخبز والماء والهواء ، والطعام في أشكائها المتعددة لا بد أن يفرزه وكل هروب من الجنس اهتمام متزايد به . إن الجنس جدير بالتنظيمات التي تلحق بالألبسة والأطعمة والأعمال المختلفة .

ان لقاء يومي بالناظرة مستحيل الا عن طريق « الزنا ؟ » والكلمة أخلاقية دالة على التحريم . إنها في وضع مأساوي : الزواج ممنوع لأنانية يومي للمؤدجلة و « الزنا » محرم . إن يومي حرياء لا تستقر على لون ولا حال خوفاً من ضياع حلمه الطوباوي غير المؤسس . انه يحكم على الناظرة بنقض الأحكام القيمية الأخلاقية

والجمالية التي تحكم عليه بها أصيلة : « فترت رغبته في المرأة لشدة اندفاعها الأرعن وجودها بنفسها بلا تحفظ إنها لا بأس بها لو تحل محل قدرية ولكنه رأى فيها نارا تقترب مصفرة تود أن تلتهمه هو وأماله المقدسة الموصولة بسر حكمة الله العظيم (. . .) وما دامت الزوجة المجهولة التي سعى إليها طويلا لم تقبله فلا يصح أن ينهزم ويستسلم لتسول الأراميل ، والعوانس ، (ص ٩٧) . تتمظهر الايديولوجيا في الالتجاء الى معايير أخلاقية كالاندفاع والاحجام ، الأرعن أو المهذب ، والجود أو البخل بالنفس ، بجرأة أو تحفظ ، الجميل أو اللباس به ، والنار أو الماء ، الالتزام أو الانصراف ، التمدد أو الاستسلام ، الزواج أو الترمول ، وأصيلة لتأديجها تهرب أيضا من الرقيب الموضوعي ، وتنسى أنها تهرب من الرقيب الذاتي : « صح عزمي على المجيء » ، وقلت لنفسي إذا لمحتني عين قصدت شقة أم حسني كأي جئت أصلا لزيارتها » . (ص ٩٧) . كلا الجنسين يبحث عن الظلمة . لا رغبة تشيع . كل جسد معلول . الوطن مستشفى كبير لا دواء فيه . كل نفس فيه ضائقة الداء / الموت . المرأة في مجتمع التأديج الظلامي هي المرأة الممنوعة والمتمنعة حسب الكلام السائر cliché « كل ممنوع مرغوب » . ولكن أصيلة حجازي الناظرة استسلمت بدافع مركب : رغبة جنسية طبيعية وإرادة الزواج فتقع في « المحذور » كما توقعنا ذلك : « وتبادلا نظرة طويلة تبدت تحت سيالها الغامض امرأة عارية من أثر الكبرياء ، محض عاشقة مهتدة الدفاع (. . .)

أفاق تماما من الدهشة ، صدت نفسه عن أي موضوع وتركزت في الرغبة المتجسدة في صورة امرأة مستسلمة » (ص ٩٧ - ٩٨) . الا أن سارد « حضرة المحترم » يشبه سارد « مدام بوفاري » ، اذ تصببه أحيانا شرارات الايديولوجيا الرسمية فيلتزم الصمت الى حد

عن تغريده المتجسد بنشاط موقور وفرحة كالمعجزة .
وسرعان ما خفت تغريده حتى العدم متراجعا الى نوم
أبدي ، خلفا وراءه صمتا مربيا وراحة فاترة مشبعة
بالأسى (. . .) وقد على جنبه فوق الفراش على حين
انحطت قوة الكنية معرضة قميصها وجبات العرق فوق
الجين وعلى العنق لضوء المصباح العاري . نظر الى
لا شيء لا يشد شيئا كأنما قد أدى المطلوب منه في الحياة
الدنيا . وحانت النفاثة إليها فأنكرها كلية ، كأنها شيء
غريب يخرج من باطن الليل ، غير الكائن السحري
الذي جره الى السعير ، شيء أخرس بلا تاريخ ولا
مستقبل له . وقال لنفسه إن لعبة الرغبة والنفور ما هي
الا تمرين على الموت ، والبعث ، وادراك مسبق لقبول
المأساة بعظمة تناسب المجهول فيما يبدي من لمحات
خاطفة عن ذاته اللانهائية ، ودرجة المدير العام آية
أخرى ولكنها تتجلى للارادة الشاحنة لا للاستسلام
العذب ! وحدها قد تحصن بالبرود العاقل والقاتل
أيضا . وها هي المرأة ترغب بلا شك في العودة الى
موضوعها الهام ولكن من خلال تردد وخجل . تمنى لو
يبدأ هو . ولما يشت نظرت اليه بابتهاال وأسى
وغمغمت :

- نعم ؟

عجب لغرابة صوتها وتطفله على حلقه المقدسة .
ووجد نحوها نفورا ثابتا يوشك أن يصير كراهية . إنها
تريد أن تهدم البناء الذي يشيده حجرا على حجر
(ص ٩٨ - ٩٩) . لقد غدت أصيلة في عين بيومي
المؤدج شيئا أدى دوره فطرح بإهمال ولا مبالاة . ومع
تحليق خياله من المحسوس الى المجرد فقد تحولت الى
جنية ، بعد أن كانت ملاكا ، أو شيطانا ومخلوقة غريبة
« الوعية » أو لعودة درجة المدير العام الى خياله

أن كتب جيرار جنيت مقالا بعنوان : سكوتات فلوير^(٣)
يتجلى صمت سارد نجيب كصمت سارد فلوير في الثغرة
التي أحدثها في سرده ، أو في الحذف الذي قام به في
كتابه ، أو في الغياب الذي يستشعره القارىء من خلال
حضور سردي يشكل مظهرا لتلك الكينونة الغائبة .
فحضور قول يخفي في ثناياه أو يشير بين مقاطعه الى
غياب يحدث ثقيا في وحداته . الى اللامعبر عنه ، الى
المسكوت عنه ، واللايتمل ، واللامعقول وهو وصف
الفعل الجنسي بكل حرية وصراحة وواقعية طبيعية
وعادية .

الا أن سارد « حضره المحترم » سكت خائعا للتأديج
الذي أصابته شظايا الشيء الذي أفضى به الى ممارسة
الرقابة ، كبيومي ، على نفسه هو أيضا حتى في مجال
التعبير الروائي . أيعود ذلك الى كثرة مصاحبة بيومي أم
هي روايب من الماضي تستمر في الحاضر ؟ بهذا الفعل
جرد النص الأدبي من أدبيته ولذته ، وبما كان بإمكانه أن
يعد عنصرا من العناصر المكونة لمتعته فراح يتحدث
انطلاقا مما بعد الفعل الجنسي ، من لحظة الوعي ليعيدنا
عن المعجزة الحقيقية في حياة الانسان ، وليتصدى لتناول
مأساة بيومي والناظرة عندما يعاودهما العقل المتقل
والمكبل بسلاسل الأيديولوجيا وأغلالها الغالبة الى حد
انهار الحياة ليسود العدم . وانه ليغدو ما كان « جنّة »
« جنيا » بالندم الى مستوى يتصور فيه بيومي أنه من
« أصحاب السعير » إذ يعيده تأديجه الى خياله المؤدج
عندما يستيقظ فيه أنه المؤدج ، الى خيال فيلسف
الرغبة والنفور من الجنس بلعبة الحياة ، والموت ،
والعبث ، والرضى ، ورفض المأساة في سبيل المجهول
الذي يتمرد على المعلوم والمعيش . يقول السارد في
صمت : « وأعلن لمن من الألمان اللانهائية للطبيعة

يوجد بجانب امرأة . إن صفحا من هذا النوع تلتزم الصمت عن فضائح الاختلاس والتبذير ، والاستغلال البشع : « الطريق شاق ومرير رغم ما يتمتع به من حسن السمعة فكيف إذا دهمته فضيحة مما ترحب الصحف بالحديث عنها ؟ » (ص ١٠٠) .

ووجهة نظر بيومي المؤدجلة ترد اقتحام المرأة الشجاعة للمحرمات ، والكلام عن الجنس أو الرغبة فيه دون رقابة أو سلطة عقائدية أو عقلانية أو أخلاقية ، الى غريزة المرأة التي تترك بها المجهول الذي لا يستطيع الرجل ادراكه . ليست غريزة المرأة هي التي تترك المجهول ، وإنما هو عدم نفاذ الخطاب المؤدج الى ذهنها ويعبر عنه المؤدجون بقولهم « المرأة ناقصة عقلا ودينا » . إنها المرأة التي تجهل الخطاب « الثقافي » المؤدج فيقت أرض فكرها خصبة لخطاب مضاد ، كما بقيت طبيعتها نقية تعمل عندها ملكة القلب والعقل الذي ينبغي تنقيفه حتى يعمل معا . وهذا ما انتزع من بيومي هذا التعليق المؤدج غير العلمي : « قال لنفسه إن للمرأة غريزة تغنيها عن العقل في معرفة شؤونها الصميمية ، وأنه لو كان للانسان عموما غريزة مثلها لمعرفة المجهول لما ظنل بجهولا حتى الآن » . (ص ١٠٤) . وغريزة المرأة لا تختلف في شيء عن غريزة الرجل . ويتميز عنها بيومي بتأدبها فقط .

تترك الايديولوجيا السائدة كل علم فتروج الكلام الميتافيزيقي والاسطوري عبر وكلائها ووسائل الاعلام البصرية والسمعية ، والشائعات ، والدعايات ، والقبل والقال .

« ألم يملك ما يقال عن الغاء البغاء ! »

- وعدونا بعمل لمن تريد عملا ، أي عمل ؟ عليهم لعنات الدنيا والآخرة ، هل أصلحوا كل شيء فلم يبق الا نحن ؟

الذاكري . والطموح يحدد الارادة تحت تأثير معايير الشموخ والاسفاف ، والاستسلام أو التمرد ، العذب أو المر ، تشييد أو تحطيم البناء الذي شيده التأدلج في فكره المتحجر المحلق في سماء الوهم بعيدا عن أرض الحقيقة والواقع .

وليست هذه هي المرة الوحيدة التي صمت فيها السارد في هذا العمل الروائي . فلقد سكت في استرجاعه للذكرات بيومي وسيدة التي لا تختلف في تأدلجها عن أصيلة التي يدل اسمها على ذلك والذي يحمل معنى الاصاله . واسلوب السرد في « حضرة المحترم » يذكر بأسلوب السرد في مدام بوفاري الزاخر بالحذف والتزام الصمت في لحظات الحديث عن الجنس ، وضحك . لثم شعرها . لم يجرؤ على تجاوز ذلك . ذكرته رائحة شعرها بملاعب الطفولة والصبا ، وكلمة أصابت ظهره عندما ضبطا وهما يلعبان لعبة العريس والعروس لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف (ص ١٩) . فالحذف هنا مزدوج .

١ - بعد عبارة « لم يجرؤ على تجاوز ذلك » إذ سكت السارد عما يلي تجاوز ذلك وهو الى ماذا ؟ فإنه ترك لنا فرصة تصوره . ولكن فرصة التصور تبقى حتى ولو أخبرنا بذلك . واللغة قاصرة فكيف نزيد من قصورها بالصمت .

٢ - كفى عن الجنس بعبارة أخرى عن صمته وأراد أن يملأ الثغرة ولكنه زاد في حفرها بهذه العبارة التي تحول القارئ من موضوع الى موضوع لا علاقة له بالأول « لاحت ظلمات الليل فوق الجبل وترامى غناء من فونوغراف » والصحف المؤدجلة لا هم لها سوى التقاط الأخبار التافهة ، ونشر ما تسميه « فضيحة » وهو حاجة انسانية طبيعية تنتهي عندما تبتدىء حاجة الآخر . وهذا يجعل الانسان يجمجم عن الاقدام على الجنس ، أو أن

في الوسط الجديد « الراقي » الذي يعد الانتقال اليه من « الدرب » وثبة خيالية . (ص ١٢٤) وتستند التراتبية الى المعيار الذي يفرق بين الدرب والوسط الجلسيد . وفي حوار مع قدرية يبدو صراع الأيديولوجيات الفوضوية والسائلة :

« بل إني أأمل أن تصومي وتصلني فنحن في حاجة الى رضى الله عنا .

- إني مؤمنة بالله وأعلم أنه غفور رحيم ..

- إنك سيدة محترمة ، والسيدة المحترمة لا تسكر كل

ليلة !

- إذن كيف تسكر السيدة المحترمة ؟

- يجب ألا تسكر على الإطلاق .. (ص ١٣١) .

إن السارد في عرضه لعلاقة بيومي بقدرية يسخر من « السياسيين » الذين يمتون بظواهر الأمور ومظاهرها ويطبقون عليها مصطلحات اجتماعية دون ، التعمق في معرفة الواقع وأوليائه ، وتفاعل البنات التقليدية بالحديثة سواء على مستوى البنات الفرقة أو التحتية : « وتذكر الآراء التي يعمل بها الزملاء - الملعون بالسياسة والأفكار - هذه الظاهرة^(٤) وأمثالها من خلال حملاتهم على المجتمع والطبقات » (ص ١٣١) . تنتج البداية عن عدم بذل أي مجهود عضلي وعدم ممارسة قدرية الشغل أو الرياضة بعد العمل في مجتمع بطلاني ثل نصفه ومات وأخذ الموت تسرب الى النصف الآخر .

إن طموح بيومي يحدد سلوكه حتى قبل أن يحققه . وهو في القرب من الطموح يمارس التسلل ولو في درجة دنيا . فنظرته الى الناس ترمي الى ما يسهما من ميز وتفرقة ، وتصنيفية ، وملكية ، وأنانية موصومة بالاحتقار ، والاستغلال ، والتشويه الشيء الذي يكشف للقاري حقيقة الخضوع البرجوازي . إن البرجوازية تعبت كطفل كبير يعوض عن حرمانه الطويل

- لعله كلام ، ما أكثر الكلام في هذا البلد !

(...)

- ستتشر الدعارة في كل مكان ..

- والأمراض كذلك .

- وآلاف البنات سيتعرضن للفساد ..

- ماذا تقول لمن لا عمل لهم ؟ (ص ١٢٠ -

١٢١) .

في هذا الحوار تمتزج الأيديولوجيا الشائعة والأيديولوجيا المستقلة الى حد ما ولا سيما في لغة قدرية . ويتضح عن هذا التصديق للشائعات فتستبد لحظة الجنون بيومي فيتزوج قدرية التي تشبه بسبب الوضع المادي : « وقال لنفسه لعلها تعده الطرف الرابع في الصفقة بسبب الخمسمائة جنيه ! » (ص ١٢٣) . ولكن عودة العقلانية تخنق الجنونية : « وجرت المراسم وهو يتابعها بذهول . ما هذا الذي جرى ؟ واجتاحه شعور مزرق بالغلق بلغ حد الرعب تمنى لو يقع حادث من عالم الغيب فيبدد مسحات الكابوس الذي يعاني منه ، ثم لما أدلى باسمه وعمله وقع ذلك من المرأة والقوادين موقع الدهول . إهم سيهمونه بالجنون كما يتهمه الآخرون . ولعله من الانصاف أن يعترف - بدءاً من الآن - أنه مجنون » (ص ١٢٣) . التأدليج يقلب الحقائق فما هو عقل يسميه جنوناً وما هو جنون يسميه عقلاً . ثم يحدد بيومي في كلامه سبلاً من الأحكام التقويمية وفق المعيار الأخلاقي والجمالي : « كهلة نصف سوداء في ضخامة بقرة مكنتزة تحمل فوق كاهلها نصف قرن من الابتذال والفحش » . (ص ١٢٣) . وتتمظهر الأدلجة في القول المبثذل « ست البيت » ، « الوسط الراقي » ، « وثبة خيالية » وتجلج إيديولوجيا السارد المستقلة في وضع كلمة الراقي بين مزدوجتين ليقول : إنه لا يزال متخلفاً : « ها هي لا تالو جهداً في لعب دور ست البيت

وقبلها ثم استطرد :

- سيكون لنا بيتين وبنات » (ص ١٤٣) .

والانسانية والعقلانية في نظر المرأة المؤدجة الطموح طموحاً زائفاً وميلتان الى غاية : الزواج والمال وما فيها من استقرار طفيلي ، وأمان من عواصف الأيديولوجيا الحزبية المقلوبة : « - إنك تبدو لي « إنساناً » و « عاقلاً » لأول مرة » (ص ١٤١) . والسارد يضع الكلمتين اللتين جاءتا في كلام العجوز بين مزدوجتين للدلالة على أنه ليس كذلك أو لتأكيد كذب العجوز . وقدرته على التقيض منه إنسانة . فهي تقول له : « لك العذر ، أنا فاهمة كل شيء ، إنك تريد ولداً ، ولك الحق وربنا يحقق رغبتك .

- أنت طيبة وإنسانة يا قدرية . » (ص ١٥١) قد تكون كذلك أو يقول لها ذلك ليؤدجها .

وإذا كان بيومي يخضع للرأي العام في الانجاب ، فالولد مشياً قبل أن يولد ما دام لم يفكر فيه وفي مستقبله ولا سبياً إذا كان مشرفاً على الهلاك فالمرأة هنا جسر للعبور الى الولد : « - في لحظة بأس ريمت بالدرجة وراء ظهري وترتكز أمني في حلم واحد هو الانجاب » (ص ١٥٢) . وهو حلم فات أوانه ، وهو في ثنائياته يعث بالنساء كما يعث الطفل بالدمى : « - إذا عبت لي يوماً أن أنجب فلن أتأخر حتى يتحقق للعبة وجهها الأبيض والأسود (ص ١٥٥) . واليئمة والعانس العجوز تؤسسان رغبتها على عبادة صنم المال : « - أنت الجانية على نفسك ، طالما قلت لك ذلك . .

- ما الفائدة ؟

- ها هي عقبى الطمع وسوء التصرف !

- اصرخي حتى يسمع ! » (ص ١٥٤) .

الشخصية وعلاقتها بالمثلين / الأشياء :

يعبر البؤس والترابانية بالكلمات / الأشياء عن

المكبوت ، في علم النفس الفرويدي البنيوي فالولد أبو الرجل وهي مقولة مشهورة تشخص النظام الأبوي لكن فرويد ينظر في النتائج وأغفل الأسباب الاقتصادية والاجتماعية التي كانت اهم الاساسي في منح ماركس في علم الاجتماع البنيوي الذي مارسه في نقده لعلائق الانتاج . أما ينشئه فهو قد أدرك بفلسفته العميقة أن الانحلال إذا بلغ أوجه فينبغي للأيديولوجيا المستقلة أن تستغل لأنه معطى يمكن الاعتماد عليه من أجل تحول قريب . : « ومرار الأيام ازداد تعلقه بها وبخاصة عندما علم بأنها يئمة وتعيش مع عمة عانس » (ص ١٣٥) . إنها عارسة لا تعتبر الآخر إلا كسري ومن هنا يعبر الاستبداد عن نفسه من خلال هذا السلوك المتفجر أنانية وتسلطاً . إن بيومي ينسى سنه الذي لا يتلامح وسن الفتاة ولا مع الوظيفة أمل عمره . إنه لا يعي ذاته وقدرته الجسدية . يتخيل إليه أنه شاب ما يزال ويحاول تقليد الشباب وينكر شيخوخته التي تفرض وجودها عليه وتتطلب منه أن يحيطها بالعناية التي تستحقها ، ولكن عودة المكبوت تبرز من خلال سلوكه العابت المتأخر زمنياً . والفتاة كذلك - تحت دافع الحاجة - لم تول أي اهتمام لشبابها ، وحيوته الأنثوية التي لا تنسجم وبرودة جسم بيومي فنسيت نفسها ونسيت بيومي العجوز فيتبدلان الشيء ، ونتيجة لتنافس النساء على الرجال / المال تقول العجوز : « - طلق امرأتك أولاً » (ص ١٤١) . ولقد مسرح نجيب محفوظ في روايته هذه أعجوبة الأيديولوجيا السائدة بتجسيدها في شخص بيومي الذي قال لراضية (سماها نجيب بهذا الاسم دلالة على رضاعها وقبولها لبيومي العجوز) مردداً القول السائر والذي يستحيل على من كان في سن بيومي تحقيقه :

« - معك يا حبيبتي سأبدأ حياة جديدة بكل معنى الكلمة .

Le puits en de vera de la sorte d'une
gueule plus ou moins gloutonne (..) ^(٦)
toujours 2 ffame, de boyaux geants
capables de digerer un peuple”

“Jl songeait violemment (..) a ce dieu
repuet accroupi

auquel dix mille affames don- ^(٧)
naient leur chair sans le sonnaitre.”

“Car les riches avaient pris la ^(٨)
place de Dieu”

لا تنتج الأيدولوجيا السائدة إلا ذاتها .

إن المدير العام هو المنصب الذي بشرت به إشارة
الخطاب المؤدلج الذي ترسب في وعي بيومي ولا وعيه .
إنه الاله مالك السلطة والقوة والنبي الذي يوحى إليه كما
يظهر ذلك من خلال القضاء : « افتتح الباب فترأت
الحجرة مترامية لا نهائية . تراءت دنيا من المعاني
والمثيرات لامكانا معدوداً منظوياً في شتى التفاصيل ، آمن
بأنها تلتهم القادمين وتليهم . لذلك اشتعل وجدانه
وعرق في انبهار سحري . فقد أولا تركيزه . نسي ما
تاقت النفس لرؤيته ، الأرض والجدران والسقف .
حتى الاله القابع وراء المكتب الفخم ، وتلقى صدمة
كهربية موحية خلاقة غرست في صميم قلبه حباً جنوياً
ببهجة الحياة في ذروتها المتسلطة عند ذاك دعاء نداء
القوة للسلجود، وحرضه على الفداء، ولكنه سلك مع
الأخرين سلوك التقوى والابتهاال والطاعة والأمان .
كالوليد عليه أن يذرف الدمع الغزير قبل أن يملئ إرادته .
وتلبية لاغراء لا يقاوم خطف نظرة من الاله القابع وراء
المكتب ثم خفض البصر متحلياً بكل ما يملك من

الفروق الطبقي وفق الدرجات في الوظيفة حيث يتميز
قضاء عن قضاء ، ومكتب عن مكتب ، ومنصب عن
منصب ، وراتب عن راتب تبعاً لتدور العمل ، وعن
نوعية الاقتصاد الذي تسير عليه البلاد والذي يحدد
وضعية الموظف ، وبالملايس / الاشارات الى الحالة
المادية والاجتماعية والنفسية .

« - مكتبك تفحص الكرسي بعناية فان أحقر مسمار
قد يترك بدلة جديدة . . فقال عثمان :

- بدلتني قديعة جداً والحمد لله » (ص ٩ - ١١) .

إن هذا المكتب يختلف عن مكتب المدير العام المتميز
والذي هو امتداد لشخص المدير العام الاله المتسلط ،
التجبر بحيث ينحني له كل من مثل بين يديه . وهو
الأقوى ككل الالهة عبر العصور بالمال الذي يتجلى في
الأشياء المحيطة به دون سائر الموظفين . لماذا يمتزج هذا
الانسان بالاله في تصور بيومي إلى حد تحطيم الثنائية بين
المدير العام والإله ؟ إن يسومي ينظر إلى متسج
الأيدولوجيا السائدة من خلالها . إنه يؤله فتأله ، إنه
يشبه رأس المال الذي أهته شخصيات جيرمنال لزولا .
إن نجيب محفوظ يؤنس الأيدولوجيا السائدة بالشخصية
المؤدلجة التي ذابت في أختها صاحبة رأس المال وقد تأله
كان عبارتي نجيب « الاله القابع وراء » ، و « آمن بأنها
تلتهم القادمين وتليهم » الداليتين على الأيدولوجيا
التحريرية ترجمة لعبارات زولا :

“Le puits avait des hommes ^(٥)
par bouchees”

“La cage avait reparu (..) pour en-
gloutir une autre charge d'hommes
(..)

٥ - اميل زولا ، جيرمنال ، ط ، كتاب الجلب ، 1976 من 29

٦ - نفس المرجع : ص 29 - 30

٧ - نفس المرجع : ص 72

٨ - نفس المرجع : ص 37

بتغير الملاك . وإذا عرف النظام الاقتصادي الثبات ، فبأبقي التغيرات قشور ، وأعراض لا تمس الجوهر لعدم شموليتها وتتوقف عند من انتقلت اليهم وسائل الانتاج ، والذين يقومون بتغييرات لصالحهم ويفرضها تضخيم رأس المال واستثماره ، وتبذيره ، فيقع التهجير الاغرائي أو التعسفي فينتقل « الضعفاء » الذين يعجزون عن بناء مساكن لأنهم متروكون للمصادفة ، فتتركهم الأرض التي ناضلوا من أجلها حسب تعبيرات السارد النوستلجية والموضوعية ويقيم ظلام الثنائيات ويعم : « ضاعت تماماً عواطفه الطفولة البريئة وخيالاتها الجائعة ، طمرت تحت طبقات كثيفة من التراب ، مثل حارة الحسيني ، التي تغير جلدها ، ربوع كثيرة تهدمت وقامت مكانها عمائر صغيرة ، وشيدت زاوية مكان موقف الحمير ، وكثيرون من أهل الحي هاجروا الى أدبع ، كل شيء يتغير ، النور والمياه دخلت البيوت ، والراديو يصخب ليل نهار ، والملاء اللف تتوارى ، حتى الخير والشر يتجددان ويتوعلان » (ص ١١٢ - ١١٣) .

ويومي المؤدلج لا يتطلع من الكتب سوى ما ينصل بالوظيفة وما يساعده على الترقية . إن حضور أنواع من الكتب وغياب أنواع أخرى للدليل على التأدلج المسيطر ، كل ما يتوفر عليه هو كتب القانون وسير العظماء - إرادة العظمة ومثودجها المدير العام - ، وقواميس الانجليزية والفرنسية قصد الترجمة ، وكتب الأدب القديمة . وتغيب عنده الكتب العلمية والأدبية الحديثة والفنية . . . : « ها هي كتب القانون تصطف تحت الفراش وفوق منصة النافلة » (ص ٢٣) .

حتى في بيت قدرية فالأشياء / الكلمات دالة على الترادية ، وعلى المستوى الاجتماعي والتاريخي المحاط حيث يرقص البؤس رقصة الموت الساخر من حياة كهذه : « وذكرته حجرتها بحجرته ولكنها أكثر بدائية

خشوع » (ص ٥) . ثم يقول السارد عن الحجرة ذاتها : « وتفحص الحجرة بعناية بطولها الطويل وعرضها العريض ، سقفها الأبيض الأملس ، ونجفعتها الكرسنال ، وجدراتها المورقة ، مدفاتها الموشاة بالقرميد ، بساطها الأزرق الذي لم يتخيل إمكان وجود بساط في طوله وعرضه ، وطاوله الاجتماعات ذات الغطاء الأخضر ، والمكتب المصدر بأرجله الغليظة الملتوية وسطحه البلوري ، وتحفه الفضية من ورققات ومخابر وأقلام وساعة وسومان وناقضة وعلبة خشبية للسجائر من خان الخليلي » (ص ٦٣ - ٦٤) .

وحارة الحسيني التقليدية ، والمحافظة ، والثابتة على القيم البالية والمثالية امتداد لشخصية بيومي . فهي تنحني كما ينحني هو . وهنا لا نملك سوى أن نكرر ما يسبقنا اليه نجيب من أحكام نقدية حول علاقة الشخصية بالفضاء الذي يستخدم كنوع من المدج للإشارة الى الشخصية المؤدلجة والى السارد غير المؤدلج من خلال التعت التي يطلقها على الحارة : « من نافذته الصغيرة يرى وطنه - حارة الحسيني - كأنها امتداد لروحته وجسده ، حارة طويلة ذات منحني حاد ، مشهورة بموقف الكارو ومسطى للحمير . (. . .) ومن خواصها الحميمية أنها لا تعرف الحمس أو النجوى ، أصواتها مرتفعة جداً ، متوترة بين الحكمة والبداية » (ص ١٢) . وحكم السارد عليها هو حكم إيديولوجيا مندور المستقلة على الشعر القديم الذي يخلو من الحمس الذي يشكل الميزة الأساسية للشعر المهجري . ويشير اللفظ / المنزل أيضاً الى وضعية بيومي الاقتصادية الى الترادية والتفاوت الطبقي في السكن : « في مسكنه - حجرة وحيدة ومراقف - يرى نفسه ، يتجسد له معنى حياته » (ص ١٢ م) .

وعندما يتحول الاقتصاد من المستعمر الى الاقطاعيين أو بورجوازي هذا الوطن ، تتغير الأشياء

أن ضاعت الكينونة في سبيل كينونة أخرى ، والعناية بالمظهر لا تسترد الكينونة الضائعة ، لقد شيئا نفسه هذه المرة .

الكينونة هي جدلية الرغبة والنقص في الإنسان .

لم يرضخ بيومي لتأجله لسنة الطبيعة التي تساعد العلوم على اكتشاف قوانينها للتحكم فيها وإعطائها حريتها ، ومعرفتها ، ومعرفتها حاجياتها ، والطرق المؤدية إلى المحافظة عليها ، وتحقيق رغبتها .

إن الجسد جزء من الطبيعة وهو وحده الكائن الواقعي كجزء منها .

إن الشاب يمارس طقوس الرجال والشيوخ أحياناً في فجر عمره وضحا . والشيوخ في خريف عمره يمارس طقوس الشباب .

إن المؤدلج يستهلك ما لم ينتجه وطنه وإنما ما يستورده عن استعمارهم أمس واليوم كي يتحول الاستعمار إلى استعمار اقتصادي وهو أخطر من كل استعمار « لأول مرة يحظر في ملابس أنيقة . بلدة رمادية من الصوف الانجليزي ، وحذاء انجليزي كذلك ، أما القميص وروابط الرقبة فمن مختارات راضية نفسها ، ولأول مرة يتعطر بالروائح الزكية ، ويحلق ذقنه كل يوم . ولولا الحياء لأقدم على صبغ شعره ، ولأول مرة يستعمل الفيتامينات ويعنى بصحته ونظافته أكثر من أي وقت مضى . » (ص ١٤٢) . إنه يتجاهل وقع الزمن المؤدلج وأخاذه الذي سطرها على جسده كفعل المحررات أو الماء الغزير بالأرض فتحول قبل الألوان وجعل منه جسداً محطاً ، محطاً ، منهاراً وساقطاً ويشرف على النهاية لأن الأيديولوجيا الخداعة أمته عنه بعدما شغلته بالأرواح والقوى والأبعاد الزائفة والبطولات الكاذبة . فحضور الزمن يتكرر في المقطع السردى بصيغة « لأول مرة » ثلاث مرات في وحدة

بأرضها العارية فراشها المرتفع والمرآة وكروسي وحيد يستعمل للجلوس وكمشجب ، وطشت وإبريق . لذلك لم يكن يستطيع خلق بدلته في ليالي الشتاء (...) ورغم تدنيه العميق علمته الشراب ، القدر القليل الضروري . وكان قدح نبذ « السلسلة » الجهنمي - بنصف قرش - يكفي لطمس عقله وبعث الجنون في دمه » (ص ٣١ - ٣٩) .

إن الخمرة بالنسبة إلى المؤدلج الذين يعتقدون أنفسهم عقلاء والأخريين مجرد مجانين ، هي الوسيلة الوحيدة التي تتيح لهم خرق المواضع والضوابط الاجتماعية ، وأخرج عن القاييس السائدة والمقاتلة . إنها تتسلل إلى قاعة الذهن والعقل المستبد لتطرده منها بحيلتها الحوارية والتنويمية كي تستريح النفس من بطشه المؤدلج وتأجله المتسلط ، فتحقق الذات متعتها ، وتقارص جنونها الضروري . فإذا خرجت وقل تأثيرها ، عاد العقل بعقلانيته الضاغطة والاضطهادية بأساطيرها ، ومعالييرها ، وقوانينها ينجني الجنون ، ويخني ، ويقع وينطح وكان كتلة من الرصاص ثقيلة قد وضعت على مادته اللينة فشلت عن الحركة وعن حرية الابداع في القول والفعل وفي ضروب الجنون . ما أقصر عمر لحظة اللذة ! نتعجب ولا ندر أن التألج هو السبب .

إن بيت قدورية لم ولن تصل إليه الكهرباء ، والماء . . . كالسفنيتين من الاستقلال : « تربعت قدورية فوق الفراش وجلس هو فوق الكرسي الخيزران ، وأضاء الحجرة شمعاً واحدة » (ص ٣٩) .

ويومي بعدما أدرك أن الجوهر قد ضاع : شبايه ، رجولته ، وخاض الشيب في شعره ، والعجز في جسده ، فهو يريد أن يسترجع أيام زمان ولكن الزمن خطي وذو اتجاه واحد ، فأنخذ بعني بالشكل والمظهر بعد

سردية صغيرة ثم يؤكد في نهايتها هذا الحضور الذي يشير إلى غياب : « أكثر من أي وقت مضى » .

إن المظهر الواقعي والجدلي هو مظهر كينونة ذاتها لا مظهر كينونة أخرى مخالفة في الزمان والمكان .

النقد والأيديولوجيا :

إن تقنية الروائي أو بنية خطابه الروائي تعبر عن فلسفة السارد ورؤيته للعالم . فالبنية السردية تعبر عن فلسفته . وهذه الفلسفة مجموعة من الأفكار والآراء ووجهات النظر المعاشة للشكل ومكوناته . فهي منبثقة منه ومن وضعه على الورقة . وبما أن الأيديولوجيا هي دراسة الأفكار ، والآراء ، ووجهات النظر ، فإن للفلسفة علاقة بالأيديولوجيا . وهذه العلاقة هي من المثانة بمكان كالعلاقة الموجودة بين الشكل والمضمون التي تدل على العلاقة الموجودة بين اللغة والأفكار ، وبين البنية والفلسفة ، والتعبير والأيديولوجيا . إن الحديث عن الشكل وبنياته هو حديث عن الأيديولوجيا ، واستجلاء تألفات الأيديولوجيا وظلالها في الخطاب الروائي هو أبرز للبنية السردية .

إن النقد في عملية تفكيكه للعناصر المكونة للشكل ، هو في ذات الوقت استجلاء لفلسفة أو أيديولوجيا العمل الروائي . لقد وقفنا على الأيديولوجيا ومظهراتها في الخطاب الروائي كتمارس نقدية تبرز هذه المظهرات عبر لغة الخطاب قصد استكمال التصور عن مفهوم الأيديولوجيا وعلاقتها بال نص الروائي . وهذه الممارسة تنسوخ المنهج البنيوي الجيني الذي يتصل مباشرة بالمضمون ، ويرصد ، بعيدا عن التفسيرات التي قبل فيها الكثير وسودت صفحات الكتب والمجلات حول مفهوم الأيديولوجيا ، تجلياتها في البنيات التعبيرية الدلالية للعمل الروائي . فإذا كانت الأيديولوجيا تعني

فيا تعنيه أفكار وآراء ووجهات نظر الانسان في محيط اقتصادي ، وثقافي معين ، فإننا عرضنا ، ممارسة ، أفكار ، وآراء ، ووجهات نظر الشخصية ، وأفكار ، وآراء ، ووجهات نظر السارد كما سردنا مدى انفصال واتصال أيديولوجيتها . وهذا المنهج يعد أكثر تطورا من المنهج البنيوي الجيني الانتقائي الذي عرفته الممارسات النقدية عندنا في النقد العربي وذلك إما لغموض البنيات الدالة ، أو لتعديدها ، أو لانساع وتشعب علائق الشخصيات فيما بينها وعلاقتها مع المثلين / الأشياء في العمل الروائي .

إن عرض وجهات نظر نقدية جمالية بنبوية أو فكرية للعمل الروائي هو نقد أيديولوجي يتخذ السارد كشخصية وعلاقته بباقي الشخصيات ويرصد تقنيته وبنية عمله الروائي لإبراز أيديولوجية الروائي وتأدله . وهذا النقد نقد أيديولوجي مستقل أو أكثر استقلالا من أيديولوجيا الروائي . وأنه ليتسطر نقدا أيديولوجيا آخر أكثر استقلالا وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية لطبيعة الأفكار الجدلية .

بنية رواية « حضرة المحترم »

من المصطلحات النقدية المضللة ما كانت تعرف به الرواية وتصنف كجنس أدبي يتميز عن باقي الأجناس الروائية التاريخية ، والتعليمية ، والنفسية ، والسيرادية ما أطلقه النقاد في العصر الحديث كـ « رواية الشخصية » و « رواية الحدث » ، ولم تكن وقتها ندرك لها تحوما لأن جهلنا لمظاهر ، وخصائص ، ومميزات ، ومكونات الشخصية الروائية التي تستلزم معرفة واسعة بالانسان في طبيعته وحاجياته ، وسلوكياته الشائنة والمتحولة التي تساعدنا العلوم الاخرى على معرفتها ، يجعلنا نزيد العمل الروائي ، في نقدنا له ، غموضا وإبهاما ، كيف كنا نفهم الشخصية الروائية ؟ كنا

هءف نجىب هو رصء سقوء الشخصىة وانىبارها ، ومونها ، فإن البنىة الروائىة بقىء خاضعة للمنهج الءاروىى فى صعود الشخصىة فى ءرءاء الشرقىة . ورعما من أن الانءءار والسقوء هو غاىة نجىب فهو لم

ىكن انءءارا قاسىا وأكأر مأساوىة وتأئىرا لانه يشبه الانءءار الطبقى الذى لءعن له حق الشخصىة غير المؤءلجة والشخصىة الثرىة . وفصلا عن ذلك فمنهج ءاروىن منهج طبقى ىتبع فى ءاروىن مراحل تطور الكائنات فى نشوءها ، وفورها ، وتطورها ، وانقراضها ، وأن الطبقىة كقوة لها قوانىنها التى تجل فى الانتخاب كى بقى العنصر الافضل ، والاجمل والاصلح والاقوى . أىلتنى نىشه بءاروىن فى إراءة القوة ؟

صىح أن الكأب ، تحت هاجس الواقعىة ، أراء أن بقء الشخصىة العاىل / الموظف المؤءلج كى هو فى الواقع رازحا تحت صخرة الشرقىة الخاضعة للءرءاء الانءءارىة ٨ . ٠٠٧ . ٠٠٦ . ٠٠٥ . ٠٠٤ . ٠٠٣ . ٠٠٢ . ٠٠١ وءرءة المءىر العام التى هى ٠ أى صفر أو لا شىء إء تبءو إىءىولوى السارء المسئلة فى اءبار ءرءة المءىر العام صفرأ أو لا شىء ، وحقى لو قءعت بشكل تصاعءى ٠٠٠ . ٠٠١ . ٠٠٢ . ٠٠٣ . ٠٠٤ . ٠٠٥ . ٠٠٦ . ٨ فإن ذلك لن ىغىر من الصىرورة الزمنىة شىئا .

٣ - عءم تأئر الرواىة عءنا بالملمعة بقءر تأئرها بالءراعىءىا الیونانىة التى خضعت للئظىر الارسطى الذى كان لكأبه « فن الشعر » ولا یزال تأئىر وأى تأئىر فى المءىعین والنقاء الى الیوم . والمأساة الیونانىة ترتبط بالانسان ، وقصوره وهو ىعمل ، وعبر جمىع مراحل حىاته . إنها تخضع بءورها لتطور الشخصىات وتنامى الاءاء (الكل ، هو ماله بءابىة ووسط ونهاىة) أو انقلاء السعاءة الى شقاء أو الشقاء الى سعاءة حسب

نفهمها عل أنها الصورة للشخص كى هو فى الحىاة أو ءون ذلك ، وكنا ، علاوة عل ذلك ، لا نفرق بین الشخصىة فى علم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم التارىخ ، و بین الشخصىة كمكون بین مكونات الخطاب الروائى . إن الشخصىة هى التى ئمءء للعمل الأءىب جنسه . وبناء عل هذه الرؤىة النقلدىة ، ىمكن أن نطلق عل رواىة « حضره المحترم » لنجىب عفوظ مصطلحا أكأر ءقة ىمءء جنسها الأءىب وهو مصطلح « السىرة الذاتىة للشخصىة المؤءلجة » .

فى هذا الجنس الأءىب ىوظف الكأب التقنىة الكلاسیكىة فى الاءاع الروائى الذى كان معروفا عء المءىعین الغربىین الكلاسیكین كسىرفانز ، ویلزاك ، وفلورى . . . وتتمظهر هذه التقنىة فى التجلیات التالىة التى ئمءء بنىة السىرة الذاتىة للشخصىة المؤءلجة .

١ - الرواىة بضمیر الغائب التى تتىح « الرؤىة مع »

٢ - تأئر الكأب بالنظریة الءاروىنىة والتارىخىة التطورىة التى تتجل فى تعاقبىة الأءاء وتسلسها وفق سىرورة الزمن الخطیة حفاظا عل التحامىة البنىة الروائىة وئماسك أجزائها وعناصرها فى وءءة تربط حلقات سرءها ارتباطا منطقیا صارما . ولقء تناول فیها شخصىة وتبعها فى فورها الزمنى كى عرض مراحل حىاتها جمىعها منذ ءءولها الى الوظیفة وهى مرءلة الشباب ، مع فلاش - باك یتىم بذكرنا بمرءلة الطفولة وهى یوم ءءولها الى المءرسة الابتدائىة ، ثم مرءلة الرءولة التى قضاهها فى الوظیفة ، ثم مرءلة الشىخوصة ، ثم الموت . والشخصىة تخضع فى حىاتها العملیة لتنفیء القرار الأىءىولوى الى ءرءاء الشرقىة الانءءارىة وتبعها لذلك فإن البنىة الروائىة تخضع للتطور والتءرج وفق نظریة / إىءىولوى « النشوء والارتقاء » الءاروىنىة . ورعما أن

مجموعة من الأحداث المتسلسلة وفق الممكن/ المحتمل^(١).

٤ - العقلانية الصارمة التي مارست عليه منطقها فاختار ثماني درجات وثمانية بنود في ورقة عمل الشخصية ، وثمانى شخصيات/ النساء وثمانى شخصيات/ الرجال بحيث يمكن أن نستنتج المعادلة التي وضعها نجيب لبناء روايته .

المعادلة التي بنيت عليها الرواية :

المدير العام = ٠

حلم بيومي = المدير العام = ٠

بيومي = ٠

علاقاته بالنساء والرجال والدرجات الذين هم وسيلة لبلوغ منصب المدير العام وتحقيق الحلم : بما أن عدد النساء هو ثمانية وعدد الرجال هو ثمانية وعدد الدرجات هو ثمانية فإن المعادلة الروائية هي :

١ - ٠ × ٨ = ٠

٢ - ٠ × ٨ = ٠

٣ - ٠ × ٨ = ٠

وإذا اختزلنا ذلك كله تصبح المعادلة هي :

$$٠ = ٠ \times (٣ \times ٨)$$

٥ - عدم ممارستها الجنون في الرواية . لو أراد أن يفعل لبداً مثلاً بسقوط الشخصية ثم يطلعنا بالتبادل عن الاسباب التي دفعتنا الى الموت والتي ستبقى هي هي رغم اختلاف التقنية التي ستقدم الرواية في شكل أكثر إثارة وتأثيراً ومتمعة وإقناعاً . وستتكرر إذاك خطية الزمن ورتابته للقبض على انتباه القارئ بشكل أكثر فنية ، فحتى حضور أو غياب الشخصيات ثم حضورها يخضع للسببية وخطيها التعاقبي الواضح .

يتمسك الكاتب في رسم الشخصيات الى معيار ترانتي يقسم الشخصيات الى رئيسية وثانوية ويجعل الشخصية/ الرجل دائمة الحضور دون الشخصية/ المرأة وكان ينبغي الاهتمام بجميع الشخصيات وأن تظهر بالتساوي مع الشخصية الرجل على مسرح التمثيل الروائي . فحضور شخصية باستمرار وغياب أخرى باستمرار يضعف الصراع والتوقف من الأحداث . ويسود في الرواية الوعي وينبغي فيه اللاوعي بالمفهوم الفرويدي . فغيب أحلام النوم ، والاقتصار على أحلام اليقظة يضعف مأساوية جميع الشخصيات ، فهيمنة الأنا المؤدلج لن يبرز بشكل جلي إلا إذا برز ضده ونقيضه وهو اللاوعي أو الأنا اللامؤدلج في الأحلام التومية . لقد اكتفى الكاتب برصد الأفكار العقلية التي تنسجم مع الخيال المؤدلج الذاكري ، ورصد العقلانية وأغفل الجنون . إن بيومي يبدو كشخصية سوية مع أن جدى أن يبدو كجنون يمارس الجنون في أوجه في تعامله مع الشخصيات الأخرى وأن يحقق في الحلم التومى مالم يحققه في اليقظة أو ما يكتبه طول النهار . كما أنه ينبغي أن يسود كشخصية منهاره الأعصاب ، مضطربة ، كثيرة الأحلام ، قليلة النوم ، ومتعددة الكوابيس . وينبغي لهذا الجنون أن يعكس في البنية الروائية ، في شكلها التعبيري كتقنية مجنونة تترجح بين الجنون والعقلانية وانسجاماً مع الشخصية المكتوبة والتي تقمع ذاتها لتأدلجها ، ومع وجهات نظرها ، وأحلامها في النوم واليقظة ، وهواجسها ، وكوابيسها الى أن تتداخل الأزمنة والامكنة والشخصيات ، وتتداخل البنيات السردية الواعية واللاوعية بلغة تسجل زلات اللسان ، والأخطاء في الآراء وفي التعابير ، والتقليد والتجديد ، والعقل والذاكرة ، والعقل والقلب ،

نوع الضربات والاداة التي تمت بها وإذا أردنا التفاصيل سألتنا الخطاب .

٦- ما قام به السارد من حذف وصمت ، والتزام السكوت استجابة لمأجس العقلانية ولا سيما في مجال الحديث عن الجنس كممارسة جنونية .

٧- غياب الحديث عن الأطعمة سوى بعض الاشارات النادرة .

٨- استبدال السارد بالكلمة دون الشخصيات . قليلة هي الوحدات السردية التي نجد فيها المونولوج التلقائي بل تكاد تكون نادرة أو منعدمة بخلاف المقاطع السردية التي يغلب فيها صيغ المحكي الذاتي المجلوب والمتنافر ويندر المتناغم .

والوعى والخيال ، والتصور واللاوعى ، والتذبذب ، والتردد ، والاقبال والاحجام ، وتداخل الشخصيات بالأشياء ، والشعر بالنثر ، فتتعدد الصيغ ، وتتنوع الأساليب وتكثر الأصوات في الذات وفي العالم الخارجى ، وفي النص الروائى . لا ينبغي للكاتب المجنون/ العاقل أن يؤجل المأساة كما يؤجل الموت . ينبغي أن تشرف الشخصية في كل مرة على الهلاك ، والقلق ، والخيرة ، والحزن المتداخل مع النجاة ، والفرح ، والاستقرار المؤقت ، والسرور القصير الأمد . فالخطاب الذي يسقط الشجرة لا ينتظر حتى تمب الرياح كي تسقطها . إنه يضربها بفأسه كل مرة ضربة تدع فيها جرحا عميقا لا يلتئم ثم يوالى الضربات حتى تسقط . من خلال الشجرة الساقطة يمكن أن ندرك

المراجع :

- (١) نجيب محفوظ « حضرة المحترم » ص : دار العلم بيروت 1977 .
- (٢) Philippe Hamon 'texte et ideologie' P.U.F Paris 1984.
- (٣) Philippe Hamon 'Pour statut semiologique du
- Philippe Hamon personnage in "Poétique du récit"
- Philippe Hamon R. Barthes, W. Kayser, W.C. Booth,
- Philippe Hamon Ph. Hamon. Seuil/points, Paris 1977.
- Philippe Hamon "le personnel du roman" Droz. Geneve. 1983. (٤)
- Henri Mitterand "le discours du roman" P.U.F. Paris 1980. (٥)
- Mikhail Bakhtine "Le Marxisme et la Philosophie du Langage" ed. de Minuit. Paris. 1977. (٦)
- Gerard Genette "Figure s 1" ed. Seuil/points. Paris. 1977 (٧)
- Jean Decotignies "Lecture de la Fction, situation ideologique du roma" P.U.F. Paris. 1979. (٨)
- Aristote "La Poétique" Texte, traduction, notes par Roselyne Du pont-Roc et Jeqn Lallot. Seuil. Paris. 1980. (٩)
- E. Zola "Germinal" Livre de Poche. (١٠)



لسان الله الرحمن الرحيم

شكل رقم ١ : بسطة بالخط الكوفي

الفاطمي كتبها أحمد يوسف

بداية الكتابة العربية

حروف الكتابة العبية تبلغ ثمانية وعشرين حرفا ، ذهب بها المنهج العربي التقليدي أنها إنما جاءت بهذا القدر لتكون مثل « منازل القمر » المقسمة إلى ثمانية وعشرين قسما ، ولما كانت منازل القمر يظهر منها فوق الأرض أربع عشرة منزلة ويغيب تحت الأرض أربع عشرة ، كانت هذه الحروف ما يظهر منها مع لام التعريف أربعة عشر بعدد المنازل الظاهرة وهي الألف والباء والحاء المهملة والحاء المعجمة والعين المهملة والغين المعجمة والفاء والقاف والكاف واللام والميم والهاء والواو والياء المثناة تحت ، وما يدغم أربعة عشر حرفا أيضا بعدد المنازل الغائبة ، وهي التاء المشاء من فوق والشاء المثناة والذال المهملة والذال المعجمة والطاء المهملة والظاء المعجمة والنون . « (١) وهذه المنازل القمرية قد جاء ذكرها في القرآن الكريم في قوله تعالى في سورة « يس الآية ٣٩ » .

« والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » .

بداية الكتابة العربية

محمود عليم

وارتباط الحروف الأبجدية العربية بمنازل القمر المتباعدة له جذور ضاربة في تاريخ الشرق الاعتقادي منذ فجر الحضارات ، فعبادة القمر وكان يطلق عليه « الاله سين » « وسين هذا هو سيد الشهر ينظم أيام الشهر والسنة » (٢) وكانت عبادة القمر قائمة في كل مكان نجدها ضد السومريين وهم جنس غير عربي عاشوا في منطقة الرافدين الجنوبية منذ خمسة آلاف سنة قبل الميلاد

(١) أبو العباس الفيلسوف : صبح الأمل في صناعة الأثناء . الجزء الثالث من ١٦ - ١٧ . الطبعة المصورة القاهرة : ١٩٦٣ .

(٢) سيبيو موسكالي : الحضارات السامية القديمة ترجمة الدكتور / السيد بطوب بكو ص ٢٥٥ القاهرة بدون تاريخ .

وكانت ذات العبادة قسائمة عند « الأكاديين » AKKADIANS (٢٧٠٠ ق. م) وهم السلالات العربية التي سكنت المنطقة. وكانت مدينة «أور» أحد مراكز عبادة القمر وكذلك المنطقة الجنوبية من شبه الجزيرة العربية حيث يوجد حتى الآن أطلال معبد في مدينة « الحريصة » بحضرموت — CHATTAM OTITAI ، وكذلك كانت أرض « سيناء » تعرف باسم « أرض القمر » . ويعد إله القمر من أقدم الآلهة ويعتبر أباً للآلهين الشمس وكوكب الزهرة . (٣)

وإذا كانت هناك أسماء مختلفة قد أطلقت على الجنس العربي « على مدى من التاريخ البعيد السابق فهم وأبنا كانت مواطنهم في أرض « الهلال الخصيب » قد احتفظوا في كل مكان حلوا به بلغتهم التي خرجوا بها من موطنهم الأصلي بيد أن هؤلاء الذين بقوا في هذا الوطن ولم يرحسوا في أي هجرة من الهجرات السابقة قد تميزوا بأنهم حافظوا على لسانهم العربي ولغتهم الأم وقد ساعدتهم على ذلك طبيعة البيئة الصحراوية المغلقة المنعزلة القاصرة على سكانها وحدهم ومثل هذه الطبيعة الصحراوية دائماً ما تشكل المحافظة المطلقة على الجنس والعادات والمعتقدات وبنيتها المنطوقة .

وحيث جرت اللغة العربية سلسلة وطيدة على لسان سكان شبه الجزيرة العربية ، ظهرت ملكات فطرية كفيض متدفق أراد الله تعالى له أن يكون شيئاً مختلفاً غير هذا الذي نجده في الفرع « الآرامي » أو « النبطي » أو حتى في الشكل الذي نلقاه في ما سموه « العربية البائدة » التي نجدها في النقوش « الصفوية » أو « الثمودية » و « اللحيانية » أو حتى في هذا الفرع المتأخر من اللغة « الآرامية المسيحية » (السريانية) ذات الكتابة « البسطرنجيلية » وذلك لأن رسم الحروف الأبجدية العربية كان له تشكيله الطبيعي الذي له دوافعه في الوسائل والغايات التي لا علاقة تربطه بالحفظ

« البسماي السومري » أو « المصري الهيروغليفي » أو « الأكادي المسماري » أو « الفينيقي » وكذلك لم يكن للمحرف العربية الأولى أدنى علاقة تربطها بهذه الصورة التي نجدها في الخط « المسند الجنوبي » الذي ذهب فيه رأي ابن « خلدون » في قوله : « وكان الخط بالغاً مبالغه من الأحكام والأثقان والجودة في دوله التابعة لما بلغت من الحضارة والترف ، وهو المسمى بالخط الحميري وانتقل منها إلى الحيرة لما كان بها من دولة المنذر أنسابه التابعة في العصبية والمجدين للملك العرب بأرض العراق ولم يكن الخط عندهم من الاجادة كما كان عند التابعة لقصور ما بين الدولتين » (٤)

ولم يكن رأي « ابن خلدون » هو وحده الذي ذهب بأصول الكتابة العربية إلى الخط المسند فقد ذهب معه الكثير مثل « الفيروز آبادي » صاحب « القاموس المحيط » الذي قال عن هذا الخط ، لقد سمي العرب خطها بالجزم لأنه جزم واقتطع من المسند الحميري ، وهذا ما ذهب إليه أيضاً الألويسي في بلوغ الأرب ، في قوله وسمى خط العرب بالجزم لأن الخط الكوفي كان أولاً يسمى الجزم قبل وجود الكوفي لأنه جزم أي اقتطع وولد من المسند الحميري ومرامر هو السذي اقتطعه » (٥)

وإذا كانت مثل هذه الآراء القديمة لا تجد لها من يعارضها في الماضي فهي في وقتنا الحاضر قد تغيرت بسبب المكتشفات الأثرية الحديثة التي لاحقتها دراسات موضوعية أثرت المادة العلمية باضافات وحقائق جديدة سعى بها أصحابها من العلماء أن يلزموا مادة « النقوش العربية » ARABIC INSCRIPTIONS ، وأصول الكتابة العربية وجذورها وتعايقها في الزمان والمكان مساراً منهجياً مرتبطاً بالموضوعية الأثرية والتاريخية حتى ذهب الرأي العلمي ليقول : « إن الخط العربي لم يقتطع من المسند الحميري كما تقول هذه

(٣) المصدر السابق ص ٢٥٤ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ص ٣٦٦ كتاب الشعب بدون تاريخ .

(٥) الدكتور / خليل عيسى ثامي : أصل الخط العربي وتاريخ تطوره قبل الإسلام - مجلة كلية الآداب المجلد الثالث الجزء الأول من ٣ القاهرة مايو ١٩٢٥ .

ولسنا هنا في موضع مقارنة بين الخط للمسند ككتابة جنوبية موطنها ربوع اليمن وبين الخطوط الشمالية «أرامية» كانت أو نبطية» ولكننا نجد في أنفسنا أنه من الضرورة أن نضع في تصورنا أنه إذا كان هناك موضوع خلاف قائم بشأن رسم الحروف وشكلها بين الخط العربي الشمالي والخط العربي الجنوبي فالأمر ليس كذلك، من الناحية اللفظية والحركة المخطوطة التي يمكن أن نقول عنها أنها كانت متماثلة تماماً مثل الأصول العرقية، ومهما كان من أمر هؤلاء الذين كتبوا بالخط المسند كانوا على وجه التأكيد أحد الفروع الرئيسية المنتمية إلى «العرب العاربة» وأن أنسابهم كما تحدثت عنها الرواية العربية كما يقول المؤرخ «المسعودي» أنها: «متصلة بإسماعيل بن إبراهيم الخليل كما يحكي هشام بن الكلبي» (٨) وأن لغتهم التي كانوا يتحدثون بها كانت هي اللغة العربية التي يتحدث بها أهل الشمال الذين كانت مكانتهم الحضارية بحكم موقعهم الجغرافي تفوق المكانة الجنوبية رغم كل المكتشفات الأثرية التي ظهرت في الجنوب، وذلك لأن الشمال بسلالة العربية كان له تاريخ حضاري مميز وضارب في أعماق الزمان والمكان وفي بعض رأي العلماء أنه كان يرجع إلى القرن الثالث والعشرين قبل الميلاد، ويؤكد ذلك ويثبت أثراً، «أنه قد عثر على نقش مكتوب بالخط المسماري خاص بالملك «نرام سين» NARAM — SIN يسذكر أرض أرام وكانت تقع في الجنوب من الرافدين. (٩) «نرام سين» هو أحد ملوك الدولة الأكادية التي كان شعبها من خرج من الجزيرة العربية.

الرواية، وليس هناك أي علاقة بينها سوى أنها قد اشتقا من أصل عربي واحد كما يظهر في مقارنة الحروف العربية القديمة التي تدل على أنها تختلف عن بعضها اختلافاً شديداً. إذن فهذه النظرية خاطئة، ولعل هذا الخطأ نشأ عن أن العرب في عصر التدوين كان تعرف عن طريق الروايات المتواترة أن اليمن فرضت خطها المسند على بعض الأمم العربية الشمالية فاشتقت منه قلما تكتب به، والمقصود بذلك اللحيانيون والنسويون والصفيون لأنهم اقتطعوا خطين من المسند الحميري فظنت العرب أن المقصود بهذه الروايات هو خطها الذي تكتب به وذلك لأنها كانت تجهل هذه الخطوط السابقة كما أنها كانت لا تعرف علم البحث عن النقوش. (٦)

وقلم «المسند» هو ذلك القلم الذي عرفه ابن خلدون باسم المسند الحميري وهو ذلك الخط الجنوبي الذي عرف عند المستشرقين باسم القلم «الحميري» و«المسند» عند الأسلاميين من كلمة (مسند) ومعناها الكتابة في اللهجات العربية الجنوبية، وهي أدق معنى من مصطلح المستشرقين فإن «حمير» قوم متأخرون بالنسبة إلى العنسيين والسبئيين، و«الحضرميين» و«الفتنانيين» وقد عرفوا قبل الميلاد فيها بعد، ولا يجوز إلحاق المتقدم بالتأخر، والصحيح هو العكس ولصعوبة إثبات أول من استعمل هذا القلم من عرب الجنوب لننسبه إليه، لذلك أفضل تسمية الأسلاميين على تسمية المستشرقين «(٧) وذلك عند قول الدكتور «جواد على».

عربي: ١ / ٢ / ٣ / ٤ / ٥ / ٦ / ٧ / ٨ / ٩ / ١٠ / ١١ / ١٢ / ١٣ / ١٤ / ١٥ / ١٦ / ١٧ / ١٨ / ١٩ / ٢٠ / ٢١ / ٢٢ / ٢٣ / ٢٤ / ٢٥ / ٢٦ / ٢٧ / ٢٨ / ٢٩ / ٣٠ / ٣١ / ٣٢ / ٣٣ / ٣٤ / ٣٥ / ٣٦ / ٣٧ / ٣٨ / ٣٩ / ٤٠ / ٤١ / ٤٢ / ٤٣ / ٤٤ / ٤٥ / ٤٦ / ٤٧ / ٤٨ / ٤٩ / ٥٠ / ٥١ / ٥٢ / ٥٣ / ٥٤ / ٥٥ / ٥٦ / ٥٧ / ٥٨ / ٥٩ / ٦٠ / ٦١ / ٦٢ / ٦٣ / ٦٤ / ٦٥ / ٦٦ / ٦٧ / ٦٨ / ٦٩ / ٧٠ / ٧١ / ٧٢ / ٧٣ / ٧٤ / ٧٥ / ٧٦ / ٧٧ / ٧٨ / ٧٩ / ٨٠ / ٨١ / ٨٢ / ٨٣ / ٨٤ / ٨٥ / ٨٦ / ٨٧ / ٨٨ / ٨٩ / ٩٠ / ٩١ / ٩٢ / ٩٣ / ٩٤ / ٩٥ / ٩٦ / ٩٧ / ٩٨ / ٩٩ / ١٠٠ / ١٠١ / ١٠٢ / ١٠٣ / ١٠٤ / ١٠٥ / ١٠٦ / ١٠٧ / ١٠٨ / ١٠٩ / ١١٠ / ١١١ / ١١٢ / ١١٣ / ١١٤ / ١١٥ / ١١٦ / ١١٧ / ١١٨ / ١١٩ / ١٢٠ / ١٢١ / ١٢٢ / ١٢٣ / ١٢٤ / ١٢٥ / ١٢٦ / ١٢٧ / ١٢٨ / ١٢٩ / ١٣٠ / ١٣١ / ١٣٢ / ١٣٣ / ١٣٤ / ١٣٥ / ١٣٦ / ١٣٧ / ١٣٨ / ١٣٩ / ١٤٠ / ١٤١ / ١٤٢ / ١٤٣ / ١٤٤ / ١٤٥ / ١٤٦ / ١٤٧ / ١٤٨ / ١٤٩ / ١٥٠ / ١٥١ / ١٥٢ / ١٥٣ / ١٥٤ / ١٥٥ / ١٥٦ / ١٥٧ / ١٥٨ / ١٥٩ / ١٦٠ / ١٦١ / ١٦٢ / ١٦٣ / ١٦٤ / ١٦٥ / ١٦٦ / ١٦٧ / ١٦٨ / ١٦٩ / ١٧٠ / ١٧١ / ١٧٢ / ١٧٣ / ١٧٤ / ١٧٥ / ١٧٦ / ١٧٧ / ١٧٨ / ١٧٩ / ١٨٠ / ١٨١ / ١٨٢ / ١٨٣ / ١٨٤ / ١٨٥ / ١٨٦ / ١٨٧ / ١٨٨ / ١٨٩ / ١٩٠ / ١٩١ / ١٩٢ / ١٩٣ / ١٩٤ / ١٩٥ / ١٩٦ / ١٩٧ / ١٩٨ / ١٩٩ / ٢٠٠ / ٢٠١ / ٢٠٢ / ٢٠٣ / ٢٠٤ / ٢٠٥ / ٢٠٦ / ٢٠٧ / ٢٠٨ / ٢٠٩ / ٢١٠ / ٢١١ / ٢١٢ / ٢١٣ / ٢١٤ / ٢١٥ / ٢١٦ / ٢١٧ / ٢١٨ / ٢١٩ / ٢٢٠ / ٢٢١ / ٢٢٢ / ٢٢٣ / ٢٢٤ / ٢٢٥ / ٢٢٦ / ٢٢٧ / ٢٢٨ / ٢٢٩ / ٢٣٠ / ٢٣١ / ٢٣٢ / ٢٣٣ / ٢٣٤ / ٢٣٥ / ٢٣٦ / ٢٣٧ / ٢٣٨ / ٢٣٩ / ٢٤٠ / ٢٤١ / ٢٤٢ / ٢٤٣ / ٢٤٤ / ٢٤٥ / ٢٤٦ / ٢٤٧ / ٢٤٨ / ٢٤٩ / ٢٥٠ / ٢٥١ / ٢٥٢ / ٢٥٣ / ٢٥٤ / ٢٥٥ / ٢٥٦ / ٢٥٧ / ٢٥٨ / ٢٥٩ / ٢٦٠ / ٢٦١ / ٢٦٢ / ٢٦٣ / ٢٦٤ / ٢٦٥ / ٢٦٦ / ٢٦٧ / ٢٦٨ / ٢٦٩ / ٢٧٠ / ٢٧١ / ٢٧٢ / ٢٧٣ / ٢٧٤ / ٢٧٥ / ٢٧٦ / ٢٧٧ / ٢٧٨ / ٢٧٩ / ٢٨٠ / ٢٨١ / ٢٨٢ / ٢٨٣ / ٢٨٤ / ٢٨٥ / ٢٨٦ / ٢٨٧ / ٢٨٨ / ٢٨٩ / ٢٩٠ / ٢٩١ / ٢٩٢ / ٢٩٣ / ٢٩٤ / ٢٩٥ / ٢٩٦ / ٢٩٧ / ٢٩٨ / ٢٩٩ / ٣٠٠ / ٣٠١ / ٣٠٢ / ٣٠٣ / ٣٠٤ / ٣٠٥ / ٣٠٦ / ٣٠٧ / ٣٠٨ / ٣٠٩ / ٣١٠ / ٣١١ / ٣١٢ / ٣١٣ / ٣١٤ / ٣١٥ / ٣١٦ / ٣١٧ / ٣١٨ / ٣١٩ / ٣٢٠ / ٣٢١ / ٣٢٢ / ٣٢٣ / ٣٢٤ / ٣٢٥ / ٣٢٦ / ٣٢٧ / ٣٢٨ / ٣٢٩ / ٣٣٠ / ٣٣١ / ٣٣٢ / ٣٣٣ / ٣٣٤ / ٣٣٥ / ٣٣٦ / ٣٣٧ / ٣٣٨ / ٣٣٩ / ٣٤٠ / ٣٤١ / ٣٤٢ / ٣٤٣ / ٣٤٤ / ٣٤٥ / ٣٤٦ / ٣٤٧ / ٣٤٨ / ٣٤٩ / ٣٥٠ / ٣٥١ / ٣٥٢ / ٣٥٣ / ٣٥٤ / ٣٥٥ / ٣٥٦ / ٣٥٧ / ٣٥٨ / ٣٥٩ / ٣٦٠ / ٣٦١ / ٣٦٢ / ٣٦٣ / ٣٦٤ / ٣٦٥ / ٣٦٦ / ٣٦٧ / ٣٦٨ / ٣٦٩ / ٣٧٠ / ٣٧١ / ٣٧٢ / ٣٧٣ / ٣٧٤ / ٣٧٥ / ٣٧٦ / ٣٧٧ / ٣٧٨ / ٣٧٩ / ٣٨٠ / ٣٨١ / ٣٨٢ / ٣٨٣ / ٣٨٤ / ٣٨٥ / ٣٨٦ / ٣٨٧ / ٣٨٨ / ٣٨٩ / ٣٩٠ / ٣٩١ / ٣٩٢ / ٣٩٣ / ٣٩٤ / ٣٩٥ / ٣٩٦ / ٣٩٧ / ٣٩٨ / ٣٩٩ / ٤٠٠ / ٤٠١ / ٤٠٢ / ٤٠٣ / ٤٠٤ / ٤٠٥ / ٤٠٦ / ٤٠٧ / ٤٠٨ / ٤٠٩ / ٤١٠ / ٤١١ / ٤١٢ / ٤١٣ / ٤١٤ / ٤١٥ / ٤١٦ / ٤١٧ / ٤١٨ / ٤١٩ / ٤٢٠ / ٤٢١ / ٤٢٢ / ٤٢٣ / ٤٢٤ / ٤٢٥ / ٤٢٦ / ٤٢٧ / ٤٢٨ / ٤٢٩ / ٤٣٠ / ٤٣١ / ٤٣٢ / ٤٣٣ / ٤٣٤ / ٤٣٥ / ٤٣٦ / ٤٣٧ / ٤٣٨ / ٤٣٩ / ٤٤٠ / ٤٤١ / ٤٤٢ / ٤٤٣ / ٤٤٤ / ٤٤٥ / ٤٤٦ / ٤٤٧ / ٤٤٨ / ٤٤٩ / ٤٥٠ / ٤٥١ / ٤٥٢ / ٤٥٣ / ٤٥٤ / ٤٥٥ / ٤٥٦ / ٤٥٧ / ٤٥٨ / ٤٥٩ / ٤٦٠ / ٤٦١ / ٤٦٢ / ٤٦٣ / ٤٦٤ / ٤٦٥ / ٤٦٦ / ٤٦٧ / ٤٦٨ / ٤٦٩ / ٤٧٠ / ٤٧١ / ٤٧٢ / ٤٧٣ / ٤٧٤ / ٤٧٥ / ٤٧٦ / ٤٧٧ / ٤٧٨ / ٤٧٩ / ٤٨٠ / ٤٨١ / ٤٨٢ / ٤٨٣ / ٤٨٤ / ٤٨٥ / ٤٨٦ / ٤٨٧ / ٤٨٨ / ٤٨٩ / ٤٩٠ / ٤٩١ / ٤٩٢ / ٤٩٣ / ٤٩٤ / ٤٩٥ / ٤٩٦ / ٤٩٧ / ٤٩٨ / ٤٩٩ / ٥٠٠ / ٥٠١ / ٥٠٢ / ٥٠٣ / ٥٠٤ / ٥٠٥ / ٥٠٦ / ٥٠٧ / ٥٠٨ / ٥٠٩ / ٥١٠ / ٥١١ / ٥١٢ / ٥١٣ / ٥١٤ / ٥١٥ / ٥١٦ / ٥١٧ / ٥١٨ / ٥١٩ / ٥٢٠ / ٥٢١ / ٥٢٢ / ٥٢٣ / ٥٢٤ / ٥٢٥ / ٥٢٦ / ٥٢٧ / ٥٢٨ / ٥٢٩ / ٥٣٠ / ٥٣١ / ٥٣٢ / ٥٣٣ / ٥٣٤ / ٥٣٥ / ٥٣٦ / ٥٣٧ / ٥٣٨ / ٥٣٩ / ٥٤٠ / ٥٤١ / ٥٤٢ / ٥٤٣ / ٥٤٤ / ٥٤٥ / ٥٤٦ / ٥٤٧ / ٥٤٨ / ٥٤٩ / ٥٥٠ / ٥٥١ / ٥٥٢ / ٥٥٣ / ٥٥٤ / ٥٥٥ / ٥٥٦ / ٥٥٧ / ٥٥٨ / ٥٥٩ / ٥٦٠ / ٥٦١ / ٥٦٢ / ٥٦٣ / ٥٦٤ / ٥٦٥ / ٥٦٦ / ٥٦٧ / ٥٦٨ / ٥٦٩ / ٥٧٠ / ٥٧١ / ٥٧٢ / ٥٧٣ / ٥٧٤ / ٥٧٥ / ٥٧٦ / ٥٧٧ / ٥٧٨ / ٥٧٩ / ٥٨٠ / ٥٨١ / ٥٨٢ / ٥٨٣ / ٥٨٤ / ٥٨٥ / ٥٨٦ / ٥٨٧ / ٥٨٨ / ٥٨٩ / ٥٩٠ / ٥٩١ / ٥٩٢ / ٥٩٣ / ٥٩٤ / ٥٩٥ / ٥٩٦ / ٥٩٧ / ٥٩٨ / ٥٩٩ / ٦٠٠ / ٦٠١ / ٦٠٢ / ٦٠٣ / ٦٠٤ / ٦٠٥ / ٦٠٦ / ٦٠٧ / ٦٠٨ / ٦٠٩ / ٦١٠ / ٦١١ / ٦١٢ / ٦١٣ / ٦١٤ / ٦١٥ / ٦١٦ / ٦١٧ / ٦١٨ / ٦١٩ / ٦٢٠ / ٦٢١ / ٦٢٢ / ٦٢٣ / ٦٢٤ / ٦٢٥ / ٦٢٦ / ٦٢٧ / ٦٢٨ / ٦٢٩ / ٦٣٠ / ٦٣١ / ٦٣٢ / ٦٣٣ / ٦٣٤ / ٦٣٥ / ٦٣٦ / ٦٣٧ / ٦٣٨ / ٦٣٩ / ٦٤٠ / ٦٤١ / ٦٤٢ / ٦٤٣ / ٦٤٤ / ٦٤٥ / ٦٤٦ / ٦٤٧ / ٦٤٨ / ٦٤٩ / ٦٥٠ / ٦٥١ / ٦٥٢ / ٦٥٣ / ٦٥٤ / ٦٥٥ / ٦٥٦ / ٦٥٧ / ٦٥٨ / ٦٥٩ / ٦٦٠ / ٦٦١ / ٦٦٢ / ٦٦٣ / ٦٦٤ / ٦٦٥ / ٦٦٦ / ٦٦٧ / ٦٦٨ / ٦٦٩ / ٦٧٠ / ٦٧١ / ٦٧٢ / ٦٧٣ / ٦٧٤ / ٦٧٥ / ٦٧٦ / ٦٧٧ / ٦٧٨ / ٦٧٩ / ٦٨٠ / ٦٨١ / ٦٨٢ / ٦٨٣ / ٦٨٤ / ٦٨٥ / ٦٨٦ / ٦٨٧ / ٦٨٨ / ٦٨٩ / ٦٩٠ / ٦٩١ / ٦٩٢ / ٦٩٣ / ٦٩٤ / ٦٩٥ / ٦٩٦ / ٦٩٧ / ٦٩٨ / ٦٩٩ / ٧٠٠ / ٧٠١ / ٧٠٢ / ٧٠٣ / ٧٠٤ / ٧٠٥ / ٧٠٦ / ٧٠٧ / ٧٠٨ / ٧٠٩ / ٧١٠ / ٧١١ / ٧١٢ / ٧١٣ / ٧١٤ / ٧١٥ / ٧١٦ / ٧١٧ / ٧١٨ / ٧١٩ / ٧٢٠ / ٧٢١ / ٧٢٢ / ٧٢٣ / ٧٢٤ / ٧٢٥ / ٧٢٦ / ٧٢٧ / ٧٢٨ / ٧٢٩ / ٧٣٠ / ٧٣١ / ٧٣٢ / ٧٣٣ / ٧٣٤ / ٧٣٥ / ٧٣٦ / ٧٣٧ / ٧٣٨ / ٧٣٩ / ٧٤٠ / ٧٤١ / ٧٤٢ / ٧٤٣ / ٧٤٤ / ٧٤٥ / ٧٤٦ / ٧٤٧ / ٧٤٨ / ٧٤٩ / ٧٥٠ / ٧٥١ / ٧٥٢ / ٧٥٣ / ٧٥٤ / ٧٥٥ / ٧٥٦ / ٧٥٧ / ٧٥٨ / ٧٥٩ / ٧٦٠ / ٧٦١ / ٧٦٢ / ٧٦٣ / ٧٦٤ / ٧٦٥ / ٧٦٦ / ٧٦٧ / ٧٦٨ / ٧٦٩ / ٧٧٠ / ٧٧١ / ٧٧٢ / ٧٧٣ / ٧٧٤ / ٧٧٥ / ٧٧٦ / ٧٧٧ / ٧٧٨ / ٧٧٩ / ٧٨٠ / ٧٨١ / ٧٨٢ / ٧٨٣ / ٧٨٤ / ٧٨٥ / ٧٨٦ / ٧٨٧ / ٧٨٨ / ٧٨٩ / ٧٩٠ / ٧٩١ / ٧٩٢ / ٧٩٣ / ٧٩٤ / ٧٩٥ / ٧٩٦ / ٧٩٧ / ٧٩٨ / ٧٩٩ / ٨٠٠ / ٨٠١ / ٨٠٢ / ٨٠٣ / ٨٠٤ / ٨٠٥ / ٨٠٦ / ٨٠٧ / ٨٠٨ / ٨٠٩ / ٨١٠ / ٨١١ / ٨١٢ / ٨١٣ / ٨١٤ / ٨١٥ / ٨١٦ / ٨١٧ / ٨١٨ / ٨١٩ / ٨٢٠ / ٨٢١ / ٨٢٢ / ٨٢٣ / ٨٢٤ / ٨٢٥ / ٨٢٦ / ٨٢٧ / ٨٢٨ / ٨٢٩ / ٨٣٠ / ٨٣١ / ٨٣٢ / ٨٣٣ / ٨٣٤ / ٨٣٥ / ٨٣٦ / ٨٣٧ / ٨٣٨ / ٨٣٩ / ٨٤٠ / ٨٤١ / ٨٤٢ / ٨٤٣ / ٨٤٤ / ٨٤٥ / ٨٤٦ / ٨٤٧ / ٨٤٨ / ٨٤٩ / ٨٥٠ / ٨٥١ / ٨٥٢ / ٨٥٣ / ٨٥٤ / ٨٥٥ / ٨٥٦ / ٨٥٧ / ٨٥٨ / ٨٥٩ / ٨٦٠ / ٨٦١ / ٨٦٢ / ٨٦٣ / ٨٦٤ / ٨٦٥ / ٨٦٦ / ٨٦٧ / ٨٦٨ / ٨٦٩ / ٨٧٠ / ٨٧١ / ٨٧٢ / ٨٧٣ / ٨٧٤ / ٨٧٥ / ٨٧٦ / ٨٧٧ / ٨٧٨ / ٨٧٩ / ٨٨٠ / ٨٨١ / ٨٨٢ / ٨٨٣ / ٨٨٤ / ٨٨٥ / ٨٨٦ / ٨٨٧ / ٨٨٨ / ٨٨٩ / ٨٩٠ / ٨٩١ / ٨٩٢ / ٨٩٣ / ٨٩٤ / ٨٩٥ / ٨٩٦ / ٨٩٧ / ٨٩٨ / ٨٩٩ / ٩٠٠ / ٩٠١ / ٩٠٢ / ٩٠٣ / ٩٠٤ / ٩٠٥ / ٩٠٦ / ٩٠٧ / ٩٠٨ / ٩٠٩ / ٩١٠ / ٩١١ / ٩١٢ / ٩١٣ / ٩١٤ / ٩١٥ / ٩١٦ / ٩١٧ / ٩١٨ / ٩١٩ / ٩٢٠ / ٩٢١ / ٩٢٢ / ٩٢٣ / ٩٢٤ / ٩٢٥ / ٩٢٦ / ٩٢٧ / ٩٢٨ / ٩٢٩ / ٩٣٠ / ٩٣١ / ٩٣٢ / ٩٣٣ / ٩٣٤ / ٩٣٥ / ٩٣٦ / ٩٣٧ / ٩٣٨ / ٩٣٩ / ٩٤٠ / ٩٤١ / ٩٤٢ / ٩٤٣ / ٩٤٤ / ٩٤٥ / ٩٤٦ / ٩٤٧ / ٩٤٨ / ٩٤٩ / ٩٥٠ / ٩٥١ / ٩٥٢ / ٩٥٣ / ٩٥٤ / ٩٥٥ / ٩٥٦ / ٩٥٧ / ٩٥٨ / ٩٥٩ / ٩٦٠ / ٩٦١ / ٩٦٢ / ٩٦٣ / ٩٦٤ / ٩٦٥ / ٩٦٦ / ٩٦٧ / ٩٦٨ / ٩٦٩ / ٩٧٠ / ٩٧١ / ٩٧٢ / ٩٧٣ / ٩٧٤ / ٩٧٥ / ٩٧٦ / ٩٧٧ / ٩٧٨ / ٩٧٩ / ٩٨٠ / ٩٨١ / ٩٨٢ / ٩٨٣ / ٩٨٤ / ٩٨٥ / ٩٨٦ / ٩٨٧ / ٩٨٨ / ٩٨٩ / ٩٩٠ / ٩٩١ / ٩٩٢ / ٩٩٣ / ٩٩٤ / ٩٩٥ / ٩٩٦ / ٩٩٧ / ٩٩٨ / ٩٩٩ / ١٠٠٠ / ١٠٠١ / ١٠٠٢ / ١٠٠٣ / ١٠٠٤ / ١٠٠٥ / ١٠٠٦ / ١٠٠٧ / ١٠٠٨ / ١٠٠٩ / ١٠١٠ / ١٠١١ / ١٠١٢ / ١٠١٣ / ١٠١٤ / ١٠١٥ / ١٠١٦ / ١٠١٧ / ١٠١٨ / ١٠١٩ / ١٠٢٠ / ١٠٢١ / ١٠٢٢ / ١٠٢٣ / ١٠٢٤ / ١٠٢٥ / ١٠٢٦ / ١٠٢٧ / ١٠٢٨ / ١٠٢٩ / ١٠٣٠ / ١٠٣١ / ١٠٣٢ / ١٠٣٣ / ١٠٣٤ / ١٠٣٥ / ١٠٣٦ / ١٠٣٧ / ١٠٣٨ / ١٠٣٩ / ١٠٤٠ / ١٠٤١ / ١٠٤٢ / ١٠٤٣ / ١٠٤٤ / ١٠٤٥ / ١٠٤٦ / ١٠٤٧ / ١٠٤٨ / ١٠٤٩ / ١٠٥٠ / ١٠٥١ / ١٠٥٢ / ١٠٥٣ / ١٠٥٤ / ١٠٥٥ / ١٠٥٦ / ١٠٥٧ / ١٠٥٨ / ١٠٥٩ / ١٠٦٠ / ١٠٦١ / ١٠٦٢ / ١٠٦٣ / ١٠٦٤ / ١٠٦٥ / ١٠٦٦ / ١٠٦٧ / ١٠٦٨ / ١٠٦٩ / ١٠٧٠ / ١٠٧١ / ١٠٧٢ / ١٠٧٣ / ١٠٧٤ / ١٠٧٥ / ١٠٧٦ / ١٠٧٧ / ١٠٧٨ / ١٠٧٩ / ١٠٨٠ / ١٠٨١ / ١٠٨٢ / ١٠٨٣ / ١٠٨٤ / ١٠٨٥ / ١٠٨٦ / ١٠٨٧ / ١٠٨٨ / ١٠٨٩ / ١٠٩٠ / ١٠٩١ / ١٠٩٢ / ١٠٩٣ / ١٠٩٤ / ١٠٩٥ / ١٠٩٦ / ١٠٩٧ / ١٠٩٨ / ١٠٩٩ / ١١٠٠ / ١١٠١ / ١١٠٢ / ١١٠٣ / ١١٠٤ / ١١٠٥ / ١١٠٦ / ١١٠٧ / ١١٠٨ / ١١٠٩ / ١١١٠ / ١١١١ / ١١١٢ / ١١١٣ / ١١١٤ / ١١١٥ / ١١١٦ / ١١١٧ / ١١١٨ / ١١١٩ / ١١٢٠ / ١١٢١ / ١١٢٢ / ١١٢٣ / ١١٢٤ / ١١٢٥ / ١١٢٦ / ١١٢٧ / ١١٢٨ / ١١٢٩ / ١١٣٠ / ١١٣١ / ١١٣٢ / ١١٣٣ / ١١٣٤ / ١١٣٥ / ١١٣٦ / ١١٣٧ / ١١٣٨ / ١١٣٩ / ١١٤٠ / ١١٤١ / ١١٤٢ / ١١٤٣ / ١١٤٤ / ١١٤٥ / ١١٤٦ / ١١٤٧ / ١١٤٨ / ١١٤٩ / ١١٥٠ / ١١٥١ / ١١٥٢ / ١١٥٣ / ١١٥٤ / ١١٥٥ / ١١٥٦ / ١١٥٧ / ١١٥٨ / ١١٥٩ / ١١٦٠ / ١١٦١ / ١١٦٢ / ١١٦٣ / ١١٦٤ / ١١٦٥ / ١١٦٦ / ١١٦٧ / ١١٦٨ / ١١٦٩ / ١١٧٠ / ١١٧١ / ١١٧٢ / ١١٧٣ / ١١٧٤ / ١١٧٥ / ١١٧٦ / ١١٧٧ / ١١٧٨ / ١١٧٩ / ١١٨٠ / ١١٨١ / ١١٨٢ / ١١٨٣ / ١١٨٤ / ١١٨٥ / ١١٨٦ / ١١٨٧ / ١١٨٨ / ١١٨٩ / ١١٩٠ / ١١٩١ / ١١٩٢ / ١١٩٣ / ١١٩٤ / ١١٩٥ / ١١٩٦ / ١١٩٧ / ١١٩٨ / ١١٩٩ / ١٢٠٠ / ١٢٠١ / ١٢٠٢ / ١٢٠٣ / ١٢٠٤ / ١٢٠٥ / ١٢٠٦ / ١٢٠٧ / ١٢٠٨ / ١٢٠٩ / ١٢١٠ / ١٢١١ / ١٢١٢ / ١٢١٣ / ١٢١٤ / ١٢١٥ / ١٢١٦ / ١٢١٧ / ١٢١٨ / ١٢١٩ / ١٢٢٠ / ١٢٢١ / ١٢٢٢ / ١٢٢٣ / ١٢٢٤ / ١٢٢٥ / ١٢٢٦ / ١٢٢٧ / ١٢٢٨ / ١٢٢٩ / ١٢٣٠ / ١٢٣١ / ١٢٣٢ / ١٢٣٣ / ١٢٣٤ / ١٢٣٥ / ١٢٣٦ / ١٢٣٧ / ١٢٣٨ / ١٢٣٩ / ١٢٤٠ / ١٢٤١ / ١٢٤٢ / ١٢٤٣ / ١٢٤٤ / ١٢٤٥ / ١٢٤٦ / ١٢٤٧ / ١٢٤٨ / ١٢٤٩ / ١٢٥٠ / ١٢٥١ / ١٢٥٢ / ١٢٥٣ / ١٢٥٤ / ١٢٥٥ / ١٢٥٦ / ١٢٥٧ / ١٢٥٨ / ١٢٥٩ / ١٢٦٠ / ١٢٦١ / ١٢٦٢ / ١٢٦٣ / ١٢٦٤ / ١٢٦٥ / ١٢٦٦ / ١٢٦٧ / ١٢٦٨ / ١٢٦٩ / ١٢٧٠ / ١٢٧١ / ١٢٧٢ / ١٢٧٣ / ١٢٧٤ / ١٢٧٥ / ١٢٧٦ / ١٢٧٧ / ١٢٧٨ / ١٢٧٩ / ١٢٨٠ / ١٢٨١ / ١٢٨٢ / ١٢٨٣ / ١٢٨٤ / ١٢٨٥ / ١٢٨٦ / ١٢٨٧ / ١٢٨٨ / ١٢٨٩ / ١٢٩٠ / ١٢٩١ / ١٢٩٢ / ١٢٩٣ / ١٢٩٤ / ١٢٩٥ / ١٢٩٦ / ١٢٩٧ / ١٢٩٨ / ١٢٩٩ / ١٣٠٠ / ١٣٠١ / ١٣٠٢ / ١٣٠٣ / ١٣٠٤ / ١٣٠٥ / ١٣٠٦ / ١٣٠٧ / ١٣٠٨ / ١٣٠٩ / ١٣١٠ / ١٣١١ / ١٣١٢ / ١٣١٣ / ١٣١٤ / ١٣١٥ / ١٣١٦ / ١٣١٧ / ١٣١٨ / ١٣١٩ / ١٣٢٠ / ١٣٢١ / ١٣٢٢ / ١٣٢٣ / ١٣٢٤ / ١٣٢٥ / ١٣٢٦ / ١٣٢٧ / ١٣٢٨ / ١٣٢٩ / ١٣٣٠ / ١٣٣١ / ١٣٣٢ / ١٣٣٣ / ١٣٣٤ / ١٣٣٥ / ١٣٣٦ / ١٣٣٧ / ١٣٣٨ / ١٣٣٩ / ١٣٤٠ / ١٣٤١ / ١٣٤٢ / ١٣٤٣ / ١٣٤٤ / ١٣٤٥ / ١٣٤٦ / ١٣٤٧ / ١٣٤٨ / ١٣٤٩ / ١٣٥٠ / ١٣٥١ / ١٣٥٢ / ١٣٥٣ / ١٣٥٤ / ١٣٥٥ / ١٣٥٦ / ١٣٥٧ / ١٣٥٨ / ١٣٥٩ / ١٣٦٠ / ١٣٦١ / ١٣٦٢ / ١٣٦٣ / ١٣٦٤ / ١٣٦٥ / ١٣٦٦ / ١٣٦٧ / ١٣٦٨ /

السومرية وقواعد اللغة « البابلية العربية » وهذا ما دلل عليه عالم اللغات القديمة « وليم رايت » W. WRIGHT في كتابه « محاضرات في قواعد المقارنة للغة السامية » قال فيه : ان هناك فوارق رئيسية بين اللغة السومرية واللغة البابلية هي الآتية :

- ١ - اللغة السومرية تعتمد على التركيب المزجي في تكوين ألفاظها على حين أن اللغة البابلية تعتمد على تغيير جميع الكلمات وتصريفها في تغيير معاني ألفاظها .
 - ٢ - جلد أو مادة الفعل السومري غير قابل للتغيير أما جذور الفعل البابلي فإنه يتغير بتغيير الحركات .
 - ٣ - ليس في السومرية صيغ للتعبير عن المذكر والمؤنث بخلاف البابلية ففيها صيغ للتذكير والتأنيث .
 - ٤ - حروف الجر تأتي بعد الاسم المجرور في السومرية على حين أنها تأتي قبل الاسم المجرور في البابلية .
 - ٥ - إذا كان المفعول ضميراً أدمجته السومرية في ثناء الفعل ، أما البابلية فأنها تلتحقه بالفعل في آخره .
- وتتفق البابلية في جميع هذه الاعتبارات مع اللغات السامية ولا سيما العربية . أما السومرية فليس من المحقق بعد معرفة الأسرة اللغوية التي تنتمي إليها . ولعلها شوائب لغوية من العصور التي قبل التاريخ » (١٠)

ويساند هذا الرأي ويعززه ، « ما ذهبت إليه طائفة من العلماء المحدثين على رأسهم العلامة « أولزهاوزن » OLSHAUSEN إلى أن اللغة العربية هي أقرب اللغات إلى السامية الأولى » (١١) وكان الأحرى بهذا العلامة إذا أراد أن يكون منصفاً مع مادته العلمية أن يقول أن اللغة العربية المحدثه هي أقرب ما تكون إلى اللغة العربية الأم وإذا كانت هناك آراء متباينة ازدحم بها حقل أصول اللغة العربية ومكان الموطن الأول للشعب الذي يتكلم بها .

والشعب « الأكادي » هو من هذه السلالة التي يجتم علينا أن نطلق عليه « الجنس العربي » والذي خرج من الجزيرة العربية وانتقل إلى أرض « الرافدين » عندما حل بالأرض العربية تغيير جيولوجي شامل أحال الأرض الخفضاء إلى صحراء قاحلة وفي هذه الأرض الجديدة ويحاذي النهر الكبير استقر هذا الشعب العربي الذي أخذ يزمام أمره زعيم قوى هو الملك « سرجون الأول » SARGON (٢٣٠٠ ق . م) وأسس السلولة « الأكادية مستعيراً مقوماتها السياسية بما كان لدى الشعب « السومري » (٢٥٠٠ - ٢٣٠٠ ق . م) الذي لا نعرف له جذوراً عرقية ، والذي سكن هذه المنطقة قبل أن يحل بها الأكاديون . وإذا كان هذا الملك الأكادي قد أخذ بأسباب الحياة التي وجدها مزدهرة آنذاك في أرض الرافدين ، فهو لم يغير من لغته القومية الذي خرج بها من موطنه الأصلي ، فقد أبقي عليها لأنها كانت لديه حقيقة قومية له ولشعبه ، ولكن ضرورة الحياة حتمت عليه وعلى قومه أن يكتبوا لغتهم العربية بالحروف « المسمارية » CUNEIFORM, SCRIPT التي كانت مستعملة في الكتابة « السومرية » التي كانت تكتب على الرقم « الفخارية » والتي ظلت مستعملة كصحائف مميزة للتدوين حتى إبان عصور الدولة « الأشورية » (١٠١٥ - ٥٥٠ ق . م) والدولة البابلية (١٠٠٣ - ٣٠٠ ق . م) بل وكتب بها أيضاً شعوب ساحل البحر الأبيض حيث استعملتها مملكة أبله EBLA (٢٤٠٠ - ٢١٥٠ ق . م) وكذلك مملكة « أجاريت » UGARIT (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق . م) وكل هؤلاء ينتمى أصلهم إلى العرق العربي .

وإذا كانت الدولة البابلية قد استعملت الحروف المسمارية لكتبت بها لغتها العربية فقد كان ذلك منها اتباعاً أخذته عن السابقين لها رغم ما كان هناك من فروق في الخاصية اللغوية التي تفصل بين قواعد اللغة

(١٠) ج . أ . ديفر : حل رموز الكتابة السومرية والبابلية والعلمية والكلدانية : مجلة الآداب والقرن الجزء الأول من ٧٤ السنة الثالثة لندن ١٩٤٥ .

والمرجع : وليم رايت :

W. Wright: Lectures on the comparative grammar of the semitic languages

(١١) الدكتور إ . علي عبد الواحد وآل : فقه اللغة الطبعة الأولى من ١٥ القاهرة ١٩٤٥ .

تبين أثر الساميين « العرب » في جوانب الحضارة السومرية وتأثير فكرهم الديني في الفكر الديني السومري . « (١٣)

وحق إذا جاء إلى آخر البحث استخلص فيها استخلص نتائج ذات أهمية بالغة ذهب فيها قوله : استنادا إلى كل ما تقدم يمكننا القول بأن الساميين العرب قد وجدوا في وادي الرافدين منذ أزمنة قديمة جدا تسبق العصور التاريخية وأنهم قد تركوا في المناطق الشمالية لبلاد سومر منذ بدايات عصر فجر السلالات ، لذلك فإن ظهور الأكاديين في بلاد الرافدين لا يمثل أول هجرة من الجزيرة العربية أو بلاد الشام إلى العراق كما أنهم لا يمثلون - كما يرى البعض - فتحا أجنبيا بقدر ما كان تحركا شعبيا اتجه من جزء من موطنه نحو آخر تمثل فيه وفرة الماء وخصوبة الأرض وهي في الوقت نفسه كانت حركة لاحقة لأخرى سبقتها في الاستقرار بقرة لا يمكن تعميمها بالضبط . « (١٤)

وإذا كان علينا أن نضيف شيئا موضوعيا إلى هذه الحقائق الأثرية واللغوية المتعلقة بالوجود العربي في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية فهناك واقع آخر على جانب كبير من الأهمية الحضارية ، ظهر واضحا في ذلك التباين الذي يفصل ما بين بنية الفن السومري وبنية الفن الأكادي وهذا ما يمكن التأكد منه والتعرف عليه بوضوح حين نلقى نظرة فاحصة على القطع الأثرية المختلفة الشكل والحامة التي بقيت من التراث الفني لكل من الدولة السومرية والدولة الأكادية . والتي نجدها في متحف بغداد ، ومتحف اللوفر والمتحف البريطاني بلندن . إن هذه القطع الأثرية سوف تعطينا الدليل الموضوعي على أن الفن الأكادي لم يتأثر بالفن السومري السابق له رغم ما كان بينهم من صلات تاريخية ومكانية . ومن ثمة فسوف يمكننا أن نقول أنه مما لا سبيل الشك فيه أن المدرسة السومرية الفنية كانت من خلال خصائصها متباعدة كل البعد ومنفصلة كل الانفصال

وهناك العديد من الدراسات الموضوعية التي أكدت علميا وأثريا أن الوجود العربي كان قائما في منطقة الرافدين قبل قيام الدولة الأكادية العربية (٢٣٠٠ ق . م) أي أن وجود العرب في هذه المنطقة الخصبة كان قائما إبان هيمنة الدولة السومرية (٢٨٠٠ ق . م) التي لا نعرف شيئا عن شعبها ولا عن موطنهم الأصل الذي جاءوا منه ، ولا عن تاريخ دخولهم أرض الرافدين وقد تناول العديد من العلماء في أوروبا هذه الدولة بالبحث والاستقصاء الشامل في دراسات معاصرة ألفت الضوء على هذه الحقبة التاريخية . كما تناولها علماءنا في العراق في دراسات علمية وتاريخية وأثرية ، ومن ذلك هذا البحث القيم الذي كتبه الأستاذ « عبد الكريم عبدالله » ومعه له بقوله : « ما زال إلى الهيكل الحضاري العام لبلاد الرافدين نقاط غامضة إلى جانب معلومات وحقائق أخرى مشتتة تحتاج إلى الجمع والتبويب خاصة بعد كشف التنقيبات الأثرية والدراسات اللغوية الحديثة لجوانب من ذلك الغموض وبقاء تلك المعلومات خارجة عن محور التاريخ الحضاري العام لبلاد وادي الرافدين في الكتب التي تؤلف أو تبحث في ذلك التاريخ . ولعل في تلك الجوانب التي ما يزال الغموض يحيط بها هو الوجود السامي « العربي » في العراق قبل قيام الدولة الأكادية التي غالبا ما يعدها المؤرخون مثله لأول هجرة سامية (عربية) في العراق (١٢)

وبعد ما أتى الأستاذ عبد الكريم عبدالله بالعديد من آراء العلماء مثل « ف . كريستيان » و « جوردن تشيلد » و « أنطون موركات » و « موسكاتي » و « ساجي » و « كرامر » وغيرهم ممن تناولوا هذه الحقبة من تاريخ الشرق القديم ، قال : « نضيف إلى ما تقدم من الاحتمالات والشواهد الجغرافية واللغوية والإدارية التي تعكس ملامح الوجود السامي (العربي) في العراق قبل قيام الدولة الأكادية مع ملاحظة أخرى قد تكون مهمة بالنسبة لخضارة عصر فجر السلالات ومن ثم فإنها ربما

(١٢) عبد الكريم عبد الله : ملامح الوجود السامي في جنوب العراق قبل تأسيس الدولة الأكادية : مجلة سومر من ٥٩ - ٦٠ الجزء الأول المجلد الثامن ١٩٧٢ .

(١٣) المصدر السابق ص ٧٥ .

(١٤) المصدر السابق ص ٧٦ .

الذين دفعتهم عصبيتهم الضيقة من ألفوا القول جزافاً وتشدقوا بأن الحلقة المفقودة إنما هي أبجديتهم « التي سموها أبجدية جبيل وصدقوا ما زعموه لأنفسهم وما دفعه اليهم بعض علماء فرنسا حين قالوا لهم أن أبجديتهم هذه هي أقدم أبجدية ظهرت على وجه الأرض التي تقع بين النيل والفرات وهكذا تطلّوت أحلام الصغار على حقائق التاريخ وأصبح مركب النقص الماروني شيئاً ملموساً^(١٦) .

والشعب الآرامي يرجع بأصوله الى العرق العربي وأنه خرج من موطنه الأصلي من شبه الجزيرة العربية ليظهر في النخوم القريبة من أرض الفرات ، وهو ذلك الشعب الذي عرف عنه أنه كان يحسن ممارسة التجارة ونقلها عبر المسالك والدروب الصحراوية ، وقد أتاح لهم هذا الانتقال من مكان إلى مكان حاملين تجاربهم وحاملين أبجديتهم ، ليفرضوا هذه الأبجدية على الإمبراطورية الفارسية منذ سنة (٦١٢ ق. م) . لقد أخذت الدولة الفارسية الكيانية -ACHAEME- NIDS بهذه الأبجدية للماءمتها في تصريف الشؤون التجارية وجعلوها بجانب الكتابة السامرية التي كانت هي الأخرى معارة لهم . وما برحت هذه الكتابة الآرامية حتى تمكنت من أن تكون هي وحدها لغة (الهلال الخصيب) كله وحلت أيضاً محل اللغة العبرية في فلسطين . . . وأصبحت لغة التجار الآراميين بعد مضي عدة قرون على اللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح ويود عصره في فلسطين^(١٧) . بل وقضت اللغة الآرامية على اللغة الفينيقية في القرن الأول قبل الميلاد بل ووقفت صامدة أمام أبجدية الأغريق وأبجدية الرومان

عن المدرسة الفنية الأكاديمية ، لا في الأساليب التشكيلية والطابع التعبيري وحده بل وفي طبيعة كل منها التي تأتت من أن جلدورهما الفنية مختلفة المصادر .

ومهما كان من أمر ومهما تعددت الآراء واختلفت فيها بينها أو تقاربت ، : « فمن المسلم به الآن لدى معظم المحدثين من علماء الاستشراق أن اللغة العربية قد احتفظت بكثير من الأصول السامية القديمة في مفرداتها وقواعدها وأنه ما تكاد تعدلها في ذلك أي لغة (سامية أخرى) ويرجع السبب في هذا إلى نشأتها في أقدم مواطن (الساميين) وبقائنها في منطقة مستقلة منعزلة . فقلت بذلك فرص احتكاكها باللغات الأخرى ولم تذلل لها سبيل كثيرة للبعد عن أصلها القديم (١٥) » وكان لابد أن يأتي ذلك الحين الذي احتضرت فيه الكتابة السامرية ، وأن تأخذ شعوب الشرق العربي بالحروف « الآرامية العربية » التي من المحتمل أنها قد انبثقت من حروف أبجدية سابقة كانت موجودة من قبل وقائمة عند بطون عربية لم يكشف عنها بعد حتى الآن أو ربما تكون هذه الأبجدية من إبداع « العرب الآراميون أنفسهم » وبلغت ذروتها حين أفسح التاريخ لها مكاناً مرموقاً بين أقرانهم منذ القرن الخامس عشر قبل الميلاد وإذا كان بعض العلماء قد أبانوا عن أصول الحلقة المفقودة للحوارف الأبجدية العربية القديمة وعينوا مكاناً وزماناً معيناً وشعباً بذاته هو صاحب هذه الحروف فقد ذهب البعض الآخر من العلماء وآق رايم على نحو مختلف . وبين رأي هؤلاء وأولئك ظل الأمر مجهولاً لتبقى جلدور الأبجدية « العربية الآرامية غير معروفة وسيبقى الأمر هكذا حتى يتاح للحقيقة اكتشافات جديدة ومن هنا لا يسعنا إلا أن نتنظر وقد أخذتنا السخرية من نظرية هؤلاء

(١٥) الدكتور / علي عبد الواحد وآق : المصدر السابق ص٦٠ .

(١٦) حاشية :

إذا أردت أن تلق على مصدر هذا السخف فهناك كتاب الأب امل اده الذي سماه جبيل مهد الأبجدية - بيروت ١٩٧٣ .

(١٧) جيس هنري برونست : التنصير الحضارة - تاريخ الشرق القديم - ترجمة الدكتور / أحمد ككري ص ٢٠٧ الفقرة ١٩٦٩ .

تكتب بها المراسلات الدولية لعالم « الهلال الخصيب » ، وقد عثر على كتابات عربية آرامية مكتوبة على ورق البردي في أماكن متفرقة ومن ذلك ما كشف في سفارة عن رسالة باللغة الآرامية من أحد ملوك فينيقيا ووجدت نقوش آرامية قديمة في واحة تباه شمال الحجاز ولما قضى قورش على بابل سنة (٣٩٩ ق.م) كانت اللغة الآرامية هي اللغة الرسمية لجميع ولايات (استوايات) الامبراطورية الفارسية التي بلغت شرقاً إلى نهر الأندوس وغرباً إلى نهر النيل . وفي مصر ترأسل الموظفين الفرس والمصريون بالآرامية وهي لغة أجنبية لكلا الطرفين ، وما يدل على دولية اللغة العنور على بردي أرمني في جزيرة الفنتين بأسوان ، وعثر في بابل على ألواح للمحاسبة كتبت بالآرامية وفي آسيا الصغرى عثر على كتابات آرامية من العهد الفارسي^(١٩) .

وإن دل ذلك على شيء فهو يدل على أن اللغة العربية الآرامية قد أصبحت لها مميزات بين لغات العالم القديم . وذلك بسبب أبجديتها التي كانت من السهولة والوضوح بمكان جعل كل لغات الشرق تنقل عنها حروفها لتستعملها في الشؤون التجارية وذلك لأن « اللغة الآرامية وهي اللغة التي كان يتكلم بها التجار الآراميون الذين كانوا يملأون الأنواق البابلية ، قد أصبحت في ذلك الوقت لغة الهلال الخصيب بأسره وكانت الوثائق التجارية تكتب بالآرامية بالقلم والمدا على أوراق البردي إذ كانت الرقم الفخارية في طريقها إلى الزوال شيئاً فشيئاً^(٢٠) .

وموضع النقل في الأبجدية العربية الآرامية أنها كانت الأبجدية الأم لكثير من الأبجديات التي ظهرت في الشرق فاليهود استبدلوا حروفهم الفينيقية فيما بين القرنين

رغم أن كلاهما كان يفرض على الأرض وجوده الاستيطاني .

لقد ظهر العرب الآراميون في التاريخ القديم منذ ذلك الحين الذي كان فيه الشرق مسرحاً لتقلبات تاريخية جسيمة . كان موطنهم هذه الأرض كلها الترامية العريضة التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية يحدّها من الشرق أرض الرافدين ومن الغرب التخيوم السورية ، ومن الشمال الأناضول وكانت في وضعها الجغرافي في هذا المعبر الوحيد لكل غاز خارج من الغرب قاصداً الشرق وكل فاتح خارج من الشرق قاصداً الغرب وبسبب ذلك نزلت بهم كوارث متلاحقة سببت لهم في كثير من الأحيان فقدان حريتهم السياسية ولكن رغم ذلك كله ورغم العتالة الذين كانوا يعيشون من حولهم فقد بقي وجودهم قائماً في الزمان والمكان وذلك بسبب أنهم كانوا أصحاب لغة ذات أبجدية سهلة الكتابة وبهذه الأبجدية المتبكرة مضى « العرب الآراميون يفرضون أنفسهم على الفاتحين الذين احتاجوا إليهم لكي يكتبوا لهم شئون تجارتهم » والآراميون يكونون لغوياً وحضارياً الفرع الشرقي من اللغات السامية الشمالية أي الكتلة الواقعة غربي العراق ، فيما الكنعانيون والفينيقيون يسيطرون على سواحل البحر الأبيض المتوسط بموانئهم كان الآراميون إلى الخلف في سهول سوريا وبوادي الشام يسيطرون على نوع آخر من الموانيء هي سمطات القوافل الواقعة على خطوط التجارة البرية القديمة وأن أحد عواصمهم الكبرى وهي مدينة حران كان معنى أسمها الطرق^(٢١) .

وما أن جاءت نهاية القرن السابع قبل الميلاد حتى أصبحت الحروف العربية الآرامية حروف لغة عالية

(١٨) الدكتور / حسن طافا : الساميون ولغتهم من ١٠٠٢ الأستكفري ١٩٧١ .

(١٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نظرات عابرة في العلاقات بين لغات الشرق القديم (٢) مجلة عالم الفكر المجلد الثاني العدد الرابع من ١٧٦ التويث ١٩٧٢ .

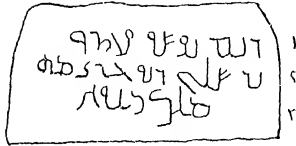
(٢٠) جيمس هنري برستد : نفس المصدر من ٣٦٦ .

25.

إن كل ما نقب عنه العلماء ورجال الآثار وكل ما عثر عليه من نقوش « نبطية » أخذ سبيله إلى دراسات متباعدة وأبحاث مختلفة أثرت المادة العلمية والتاريخية ، قام بها علماء من مختلف الجنسيات مثل « الكونت دي فوجي R. DUSSAUD و « ديسو » DE VOGUE و « وادنجنون » WADDINGTON و « فيتزششتين » WIETZSTEIN و « موريتز » MORITZ و « ليمان » LITTMANN الذي

صاحبه « فهورين سلي » عثر عليه في « أم الجمال » وأرخه « أنوليمان » ترجيحاً بعام (٢٧٠ ميلادية) .

ولا شك أن اتصال بعض الحروف النبطية بعضها مع البعض في هذا النقش قد جعل لهذا الأثر ميزة موضوعية ولغوية ، وخطوة إلى الارتقاء افتقرت إليها الكتابة « الآرامية » السابقة بل وأي كتابة أخرى عثر عليها حتى ذلك التاريخ .



شكل رقم ٤ . نقش فهر وبسلي عثر عليه في أم الجمال

عن : للبحر

النص العربي	النص العبري النبطي
هذا قبر فهر	١ - دنه نقشو فهر
ابن سلي مربي حذيفة	٢ - بن سلي ، ربو حد ميت
ملك تنوخ (٢٥)	٣ - ملك تنوخ

١	٢	٣	٤	٥	٦	٧	٨	٩	١٠	١١	١٢	١٣	١٤	١٥	١٦	١٧	١٨	١٩	٢٠	٢١	٢٢	٢٣	٢٤	٢٥	٢٦	٢٧	٢٨	٢٩	٣٠	٣١	٣٢	٣٣	٣٤	٣٥	٣٦	٣٧	٣٨	٣٩	٤٠	٤١	٤٢	٤٣	٤٤	٤٥	٤٦	٤٧	٤٨	٤٩	٥٠	٥١	٥٢	٥٣	٥٤	٥٥	٥٦	٥٧	٥٨	٥٩	٦٠	٦١	٦٢	٦٣	٦٤	٦٥	٦٦	٦٧	٦٨	٦٩	٧٠	٧١	٧٢	٧٣	٧٤	٧٥	٧٦	٧٧	٧٨	٧٩	٨٠	٨١	٨٢	٨٣	٨٤	٨٥	٨٦	٨٧	٨٨	٨٩	٩٠	٩١	٩٢	٩٣	٩٤	٩٥	٩٦	٩٧	٩٨	٩٩	١٠٠
---	---	---	---	---	---	---	---	---	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	----	-----

شكل رقم ٥ : مفردات من حروف نقش فهر . ابن سلي بالعربي والمقابل النبطي

(٢٥) حاشية :

أصدر قسم الآثار والخطوط بكلية الآداب جامعة الملك سعود دراسة مختصرة عن هذه المواقع الأثرية في كتاب صدر حديثاً باسم «مواقع أثرية وصور من حضارة العرب (١٤٠٤ هـ - ١٩٨٤)»

وحواران وهي في الغالب كُتُابات قصيرة جداً كتبت للذكر أو لتقريب قرايين للآلة النبطية^(٢٧).

ويمكن أن نطلق على المرحلة الأولى من الكتابات العربية النبطية « الكتابة العربية الجاهلية » التي ما برحت حتى أن استقامت حروفها وأصبحت أكثر تقدماً واضبط شكلاً وأدق تعبيراً في نقل حركات الأصوات ، ويمكننا أن نسمي هذه المرحلة المتطورة « الصورة العربية الجاهلية الثانية » وأحسن نماذجها نجده في « نقش النمار » المؤرخ سنة (٣٢٨ م) . ومن ثمة ظهرت نماذج أخرى غيّزت بأن حروفها العربية جاءت أكثر وضوحاً وهذا ما نجده في « نقش زيد » (٥١٢ م) وفي « نقش حران » (٥٣٦ م) .

وبعد نقش النمار أهم المكتشفات الأثرية في تاريخ الخط العربي وذلك لأنه يمثل الحلقة التي بين الكتابة "نبطية العربية" وبين الكتابة « العربية النبطية » أو حتى آخر الكتابة العربية في صورها الأولى ونقش النمار شاهد قبر حجري عثر عليه في بادية الشام وهو من خمسة سطور محفورة على حجر من البازلت على قبر الملك أمريء القيس بن عمرو المتوفى سنة ٢٢٣ بتاريخ مدينة بصرى الموافق ٧ ديسمبر سنة ٣٢٨ ميلادية ، وأبعاد هذا الحجر هي ١,٧٣ متراً في الطول ٤٥,٠ متراً في العرض و ٤٠,٠ متراً في السمك ويوجد الآن في متحف اللوفر بباريس^(٢٨) وقد عثر عليه الأستاذ « ريت ديسو » R. DUSSAUD ، وقام بمساعدة « كلير مون جايو » CLERMONT GANNEAU بدراسته ونشر الأبحاث المتعلقة به وكان رأيه فيه أنه « نص عربي مكتوب بحروف نبطية »^(٢٩).

نشر دراسة عن مكتشفاته في مجموعة المكتشفات النبطية CORPUS, NABATAEAN INSCRIPTIONS ومنهم أيضاً « جون بوركارت » J. BURCKHARDT و « جورج مارش » G. MARSH و « موسكاتي » S. MOSCATI وغيرهم . فهاضل قد اتسع بالعديد من الدارسين الذين دفعوا بالدراسات المنهجية قديماً وأشتهروا بأبحاثهم ومكتشفاتهم . ولا شك أن هذه المادة سوف تثرى بالكثير في الوقت الحاضر حين تنتهي بعثة كلية الآداب « جامعة الملك سعود » من أعمال التنقيب لمنطقة « العلا » و « الحجر » (مدائن صالح)^(٣٠).

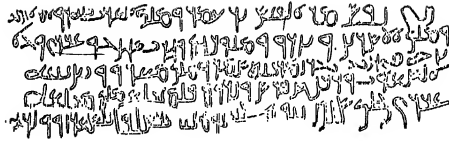
وكان من الطبيعي أن يتحول « العرب الأنباط » عن الكتابة بالحروف « العربية الآرامية » ويأخذوا أنفسهم بصورة أخرى من الحروف جاءت في أول أمرها متواضعة الأداء ولكنها ما برحت حتى استقام شكلها وقد عثر العلماء على العديد من هذه الكتابات « مكتوبة على ألواح حجرية أو منقوشة على صخور الجبال وقد قسمها العلماء قسمين ، الأول : كتابات مكتوبة بخط متقن ومنقوشة بدقة على الألواح الحجرية أو الصخور ، وأكثرها وجد في مدائن صالح (الحجر) والباقي في سلع وفي بلاد حوران كما أنها في الغالب أنها من القبريات ، يكتب فيها اسم صاحب القبر واسم مشيده وأسائه من يدفنون فيه وفي بعض الأحيان يذكر فيها تاريخ النقش بحسب التاريخ النبطي . والقسم الثاني : كتابات وجدت مكتوبة بخط قبيح وأشباه بالخرشة من الكتابة ويطلق عليها الباحثون اسم الكتابات المخربشة وقد وجدت في أودية طور سيناء

(٢٦) الدكتور/ خليل يحيى نقيش المصدر ص ١٥ رقم

(٢٧) الدكتور حسن طائفا / نفس المصدر ص ١٦٥. (٢٨) ريتيه ديسو : العرب في سوريا قبل الإسلام ، ترجمة عبد الحميد الدواعلي ص ٣٣ بدون تاريخ .

(٢٨) ريتيه ديسو : العرب في سوريا قبل الإسلام طبع عام ١٩٥٩ بلجنة التأليف والترجمة والنشر ، ترجمة عبد الحميد الدواعلي ص ٣٣ بدون تاريخ .

(٢٩) الدكتور / حل عبد الواحد وائي : نفس المصدر ص ١٠٤ .



شكل رقم ٥ . نقش النمارة على قبر أمريء القيس (٢٢٨ م)

عن : التجدد

النص : « تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله
ذو أسر التج » .

ترجمها الدكتور / علي عبد الواحد وافي : -

« هذا قبر (نفس) أي قبر في العربية الباللة أمريء
القيس بن عمرو ملك العرب كلهم الذي (ذو بمعنى
الذي له منجته) حاز (أسر بمعنى أو أستولى وليس
التاج^(٣٠) » .

ونقل الدكتور علي عبد الواحد وافي « هذا السطر
كالآتي : -

« هذا قبر أمريء القيس ابن عمرو ملك العرب كلها
الذي تتوج بالتاج^(٣١) » .

وترجم الدكتور / عبد الحميد الدواخلي هذا السطر
عن « ديسوا » كالآتي : -

« هذا قبر أمريء القيس بن عمرو ملك جميع العرب
الذي كلل بالتاج^(٣٢) » .

أما الدكتور « شوقي ضيف » فقد نقل لنا هذا السطر
على هذا النحو : -

وقد قرأ الدكتور « شوقي ضيف » هذا النص على
النحو الآتي : -

١ - تي نفس مر القيس بر عمرو ملك العرب كله ذو
أسر التج .

٢ - وملك الأسدين ونزو وملوكهم وهرب ملحقو
عكدي وجا .

٣ - يزجي في حيج نجران مدينة شمر وملك معدو
ونزل بنيه .

٤ - الشعوب ووكلمهم فرسوا لروم فلم يبلغ ملك
مبلغه .

٥ - عكدي هلك سنة ٢٢٣ يوم بابكسول بالسعد
ذولده .

وهناك قراءات متباينة « لنقش النمارة تفاوتت بعضها
عن بعض واختلفت بعض الكلمات من ترجمة إلى
أخرى على سبيل المثال نأخذ السطر الأول وترجمته عند
بعض الأساتذة المحققين لتبين مدى التقارب
والاختلاف الذي بينهم .

(٣٠) الدكتور / خليل يحيى تامي نفس المصدر ٧١

حاشية :

كتب سيادته النص الأصلي بالحروف العبرية بدلا من الحروف العربية ؟؟

(٣١) وفيه ديسو : نفس المصدر ص ٣٣ .

حاشية :

كتب سيادته النص الأصلي بالحروف العبرية بدلا من الحروف العربية ؟؟

(٣٢) الدكتور : شوقي ضيف : المعجم الجامعي الطبعة الثانية ص ٣٥ - ٣٦ الفقرة ١٩٦٥ .

٥ - في القوة . هلك سنة ٢٣٣ يوم ٦ من كسلول ،
ليسعد الذي ولده .

ويلاحظ أن الكاتب بدأه في السطر الأول بكلمة تي
الأشارية التي للمؤنث وأنها داخلية على نفس ولعلها هنا
بمعنى جسد ، وقد استخدم ذو بمعنى الذي ، وهي لغة
معروفة بين القبائل مثل طيء ، كما استخدم كلمة أسر
بمعنى عصب وعقد ، وهو من معانيها في المعاجم
العربية ، وقد حذف الألف من كلمة التاج ولم يكونوا
يشيئونها حيثئذ وليس في هذا السطر كلمة غريبة سوى بر
التي استخدمها الكاتب بمعنى ابن وهي آرامية ، ونراه في
السطر الثاني يضيف واو إلى نزر ومذحجو وفقاً لكتابة
النبط التي تضيف إلى الأعلام الواو . أما عكدي فلعلها
عكديا ، حذف منها الألف ، وفي المعاجم العكدي :
القوة . ويريد بالأسدين قبيلتين أسد ونراه في السطر
الثالث يستخدم كلمة يزجي من فعل زجا بمعنى دفع أي
بالدفع ، ومعنى حيج في المعاجم أشرف وكأنا
استعملت في النص مصدراً بمعنى مشارف أو حدود ،
وشمر من الملوك الحميريين . واستخدم كلمة نزل بنيه
الشعوب بمعنى جعلهم على الشعوب وفي السطر الرابع
وكلهم بإضافة نون التأكيد إلى الفعل بعد الضمير .
ومعنى العبارة ووكله الفرس والروم وفي السطر الخامس
بالسعد ذو ولده أي ليسعد الذي ولده .

ومعني الدكتور شوقي ضيف مستطرداً - وواضح أن
النص يمثل دوراً من أدوار اللغة العربية الذي نزل بها
القرآن الكريم فكلماته جميعاً عربية ما عدا بر الآرامية
وقد استخدمت فيه آل أداة للتعريف (٣٦) .

« هذا نفس (قبر) امريء القيس عمرو ملك العرب
كلها الذي عقد التاج » (٣٣) .

أما الدكتور « حسن ظاظا فقد نقله على هذا
النحو : -

« هذا جثمان امريء القيس بن عمرو ملك العرب
جميعاً الذي عقد التاج » (٣٤) .

وجاء هذا السطر عند الدكتور / عبد الحميد زايد
هكذا : -

« هذا قبر امريء القيس بن عمرو ملك العرب كلهم
الذي حاز التاج » (٣٥) .

وأدق ترجمة لنقش التمامة إنما نجدتها عند الدكتور /
حسن ظاظا وكذلك عند الدكتور / شوقي ضيف فإذا
كنا قد نقلنا بالتفصيل تصور كل منها ، فذلك لأن
تناولها لهذا النقش كان موضوعياً وشاملاً لأصول اللغة
العربية مما أعطى لهذا الأثر الحضاري ما يستحقه من
القيمة التاريخية واللغوية والعلمية .

تناول الدكتور / شوقي ضيف هذا الأثر العربي
بقوله : « إذا أردنا أن نكتبه ونقربه إلى لغتنا اليوم كتبناه
على هذا النحو : -

١ - هذا نفس (قبر) امريء القيس بن عمرو ملك
العرب كلها الذي عقد التاج .

٢ - وملك قبيلتي أسد ونزارا وملوكهم وشتت مذ
حجا بالقوة وجاء .

٣ - باندفاع (بانتصار) في مشارف نجران مدينة
شمر . وملك معدا وولي بنيه .

٤ - الشعوب ووكله الفرس والروم ، ولم يبلغ ملك
مبلغه .

(٣٣) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٦ .

(٣٤) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ١١٤ .

(٣٥) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٥ - ٣٦ .

(٣٦) الدكتور / حسن ظاظا : نفس المصدر ص ١١٦ / ١١٣ .

وهرب محجو عكدي :

المفهوم من هرب أنه صد بالمجوم وفرق الجمع ،
ومحج مشكلة ، يقول ديسوان المفهوم أنها قبيلة فإذا كان
هذا الملك قد هزمها وشتتها فليس عجيباً أن يولد اسمها
غريباً علينا بما أنها قد اندثرت . ومع ذلك رأى بعض
الباحثين أن الكلمة هي (محاج) وأنا وأردت في بعض
أسماء المواضع في شبه جزيرة العرب ، ذكر ابن هشام في
السيرة النبوية موضعاً قريباً من مكة اسمه مدجلة محاج ،
ويبدو أن المدجلة كانت موضعاً فيه يترسقي منها الناس
وحوض تشرب منه الدواب ، فهذا معناه في لغة
العرب ، وهي في هذا الموضع منسوبة إلى محاج وقد ورد
ذكره مع خلافاً ضئيلة أحياناً في كتاب المسالك
والممالك لابن خرداذبة ، وفي معجم البلدان لياقوت
الحموي وفي اللسان لابن منظور أما (عكدي) فقد
اختلفوا في تفسيرها ، فخرجها بعضهم على أنها من
كلمتين من اللغة النبطية « عد . كدي » الأولى بمعنى
حتى . والثانية بمعنى ذاك الوقت . وهو تخرج معقول
مقبول ، خرجها آخرون على أنها من العكدة وهي القوة
فيكون المعنى أنه شنت هذه القبيلة قوة منه وهو كذلك
مقبول لا سيما أن أصله عربي ، وأنه يستقيم أيضاً مع
السطر الخامس . وهناك من رأى أن تصحح القراءة من
« عكدي » إلى « عكري » بالراء . من العكر بالعربية
وهو الأصل والجذر ، فيكون المعنى أنه شتمهم أصلاً أو
كما تقول في التعبير المحدث « بصورة جارية » والواقع
أن الذين صححوا ليسوا في حاجة إلى تصحيح ففي
اللغة العربية عكد الشيء وسطه ، وعكده اللسان أصله
وكذلك عكدة القلب .

٣ - يزجي :

الباء حرف جر ، في اللغة العربية الزجاء في الأمر
تيسيره واستقامته وسهولته وربما كانت القراءة الصحيحة
هنا بزجاء أي بسهولة وتوفيق ، أو بنجاح كما قلنا .

أما تناول الدكتور حسن ظاظا لنقش النمارة فقد جاء
مختلفاً نصاً وتعليلاً ذهب قوله فيه « وترجه لغة مفهومة
تكون على النحو الآتي :

هذا جثمان امرئ القيس بن عمرو ملك العرب
جميعاً الذي عقد التاج .

وملك قبيلتي الأسد ونزارا ، وملكهم وصد (بني)
محج ؟ حتى اليوم وجاء ،

٣ - بنجاح إلى حصار نجران عاصمة شمر ، وملك
(قبيلة) معد ، وقسم على أبنائه .

٤ - الشعوب ، وجعلها فرساناً للروم ، فلم يبلغ
ملك مبلغه .

٥ - حتى اليوم . مات سنة ٢٢٣ يوم ٧ (من شهر)
كسلول السعادة لأولاده .

ومضى يفسر هذا النص ويعلق عليه بقوله :

١ - يرعمرو :

نلاحظ الصيغة الأرامية النبطية بربداً من ابن .

ملك العرب كله :

بدلاً من كلها أو كلهم ، مما يدعو إلى التساؤل هل
نسي الكاتب الميم ، أم هل نطق هذه اللفظة كلها بدون
حاجة إلى أن تكون الألف مكتوبة لأنها حرف مد ؟

ذو أسر التاج :

ذو معناها الذي ، وهي لغة طائية ومعنية شائعة ،
كقوله :

فإذا الماء ماء أبي وجدي
وبشري ذو حفرت وذو طويت

٢ - الأسدين :

هما قبيلتان كل منهما اسمها أسد ولعل إحداهما هي
أسد بن ربيعة بن نزار ، والثانية أسد بن شريك وهم
بطن من الأزد . وقد قدر بعض المستشرقين أنه يمكن أن
نقرأ هنا الأسدين على افتراض أن أحد الياثين ناقصة .

حجج :

تقول العرب حجبته بالعصا وحجبه وجهه أي ضربه ، وحجج نجران أي ضرب نجران ، وإن كان أحد من فسروا هذا النقش قال أنه مثل مادة حبق وحبك ، بمعنى أحاط بالشيء وضيق عليه ويضاف إلى ذلك أن القراءة نفسها في هذا الموضع فيها صعوبة وقد قرأ بعضهم بدل حجج نجران حرب نجران .

وملك معدو وبين بنيه :

واضح أنه سيطر على قبائل معد ، وأنه وزع السلطان على الشعوب أي القبائل بين بنيه والواقع أن الكتابة هنا مستغلفة أيضا ، وقد قرأها المستشرق الألماني « لينز بارسكي » وملك معدو وبنان ابنة الشعوب وهو يفترض أن امرأ القيس له ابن يسمى بمعد ، والثاني بنان وأنه ملكها على الشعوب أما الفرنسي « رينيه ديسو » فإنه جنح في النهاية إلى أن يقرأ « وملك معدو » أي صار ملكا على معد .

ونزل بنيه الشعوب :

بتشديد الزاي ، أي أنه أقرهم وأنزلهم في الشعوب التي أخضعها ، وجعلهم نوابا عنه هناك فيكون قد قرأ (ونزل) بدلا من (وبين) في القراءة الشائعة .

٤ - ووكلهن :

الضمير المؤنث الجمع في هذا الفعل يعين أن عائده هو كلمة الشعوب . وكل الذين قرأوا هذا النقش جعلوا هذا الفعل مبنيا للمعلوم ، مما أوجد صعوبات في شرح مضمونه ، وانطبق هذا المضمون على الصيغة اللفظية ولذلك تحيروا في الكلمتين التاليتين « فرسو لروم » فظن بعضهم أنها تدلان على الفرس والروم ، وهذا خطأ من الناحية التاريخية ، إذ نعرف أن الفرس والروم كانا في حروب دائمة ، ولم يحدث أن اشتراكا معا في مستعمرة من المستعمرات . ورينيه ديسو يقرأ الكلمة [فارس] ويرد على هذه القراءة أن السياق يحتاج إلى

الجمع حتى يلتزم مع ألفاظ مثل [بنيه] و [الشعوب] و [ووكلهن] ثم أنه في اعتبار هذا المستشرق تكون الواو في [فارسو] من تلك الزيادات النبطية في الأسماء ، ويرد على ذلك أن هذه الواو تأتي في أسماء الأعلام فقط كما رأيناها في (عمرو) و (نزارو) و (محجو) و (معدو) ، وقد استبعدنا أن تكون فارسو علما على الفرس . ويبدون أن الحل هو قراءة الفعل (ووكلهن) إما تخفيف الكاف ، وإما بتشديد الواو والبناء للمجهول مع اعتبار فارس جمعا للمذكر السالم توهم الكاتب وهو نبطي أنه مضاف لكلمة الروم والتي بعده فحذف منه النون وفي هذه الحالة تكون الواو في ووكلهن للحال ، ويكون المعنى أن هذا الملك وضع أبناء أمراء على قبائل العرب وكان قد وكل بهذه القبائل حكام عسكريون من الروم ، فهو يفخر بالوصول بهذه القبائل العربية إلى نوع من الاستقلال الذاتي عندما كف عن حكمها (فارسو الروم) تاركين مكانهم لأبناء هذا الملك ونظن أنه بهذا المفهوم نزيد الفكرة وضوحا في قوله (فلم يبلغ ملك مبلغه) .

٥ - بالسعد ذو ولده :

واضح أن الكلمة الأولى تقرأ (بالسعد) والعبارة فيها كلام كثير ، أقربه أن يكون دعاء بأنه بسعد الذين أنجبهم هذا الملك بالمجد الذي بناه لهم أو أن يكون دعاء تحول إلى صيغة هتاف لمن ولد هذا الملك وكأنا قيل ما أسعد الذي ولد هذا الملك العظيم . والذين قالوا بذلك قريوه من العبارة القصصية عندما يقال (يا سعاد من ولده) وزعم بعض الشراح أن كلمة (سعاد) هنا اسم علم لصنم معروف في الجاهلية ، وأن الباء معه للجر ومن هؤلاء هاليقي ، وبايز ، ويعترض ديسو على ذلك بوجود أداة التعريف مع الرسم ، وهو اعترض بسهولة التجاوز عنه ويكون المعنى أنه قد أنجبه أبوه بعبارة هذا الإله ولكنه صياغة الجملة لا تستقيم تماما مع الذوق

الدكتور عبد الحميد زيدان الذي شرحه وذهب في بعض جملة أنها عربية ذات ألفاظ فصحية وأنها « أقدم ما وصل إلينا مدونة من أساليب عربية ، وقد دفعت هذه الجملة العبرية المستشرق الألماني أنسوليمان » E. LITTMANN إلى أن يقرر أنه نقش عربي كتب بالخط النبطي ويضم الألفاظ آرامية (٣٨) .

كما أن هناك دراسة أخرى لنقش النمارية كتبها الدكتور خليل يحيى نامي جاء في عبارات مختصرة لا تتوازن مع مالها الأثر من أهمية لغوية وتاريخية وحضارية . فعل الرغم من كل العناصر التي تميز هذا الأثر وأنه قد احتوى على حوالي خمسين كلمة عربية تزيد أو تقل كتبت فوق حجر البازلت فقد أجعلها الدكتور خليل يحيى نامي في سطور معدودات تناول فيها المتن وسجله بالخط العبري وهو خط لا صلة تربطه بالأثر العربي وبصاحبه العربي وهو امرى والقيس بن عمرو وهو حين فعل ذلك لم يفصح لنا عن الأسباب التي دعت به أن ينقله هكذا . وبعد ذلك ترجم لنا هذه السطور العبرية الى العربية ثم استخلص من هذا المتن العبري ما جعله يقول أنه وجد « في هذا النقش كلمات عربية كثيرة مثل جاء ، هرب ووكل الشعوب كما وجد أيضا تراكيب عربية فصيحة مثل « فلم يبلغ ملك مبلغه وأداة التعريف « ال » في كلمة العرب والأسديين والشعوب ثم ختم كلامه بهذه العبارة الغامضة وهذا يدل على أن غلبة النفوذ العربي كما يدل على انتشار الكتابة النبطية بين العرب وملوكهم (٣٩) .

وإذا كان « نقش النمارية يمثل مرحلة تاريخية من الكتابة العربية الأثرية (٣٢٨ م) فالنقوش التي جاءت بعد ذلك حتى وإن كانت غير متوازنة في الأداء النبطي

العربي على هذا التأويل ، ثم أننا لا نعرف عن الآله سعد أنه كان معبودا » في هذه المنطقة » .

وهذا النقش أقدم وثيقة مكتوبة بالعربية وصلت إلينا وهو يؤكد أن اللغة العربية كانت هي هي ، منذ ما قبل الجاهلية المعروفة في تاريخ الأدب العربي وهي متأخرة في الزمن بنحو قرنين من الزمان على الأقل بالنسبة له (٣٧) .

وهذا الأسهاب مني في نقل معظم ما كتبه الدكتور حسن ظاظا حول كشف النمارية إنما اقتضاه خشيتي أن يكون اختصاري لسياقه الموضوعي ولتحليله المسهب ، قد يحل بالرؤى الشاملة التي أراد أن ينقلها لنا والتي قصد منها أن يفسر كل كلمة من كلمات هذا النقش ليبلور كل ما يتعلق به من أبعاد موضوعية وتاريخية ولغوية . وإذا كان هناك موضع خلاف بين كل من الدكتور شوقي ضيف والدكتور حسن ظاظا حول كلمات هذا الأثر فهذا الخلاف ومهما كانت أبعادها قد أفاد المائدة العلمية وذلك لأن البنية اللغوية والتاريخية التي تضمنته تسع لتعطي الباحث الحق في أن يختار محور الزاوية اللغوية التي يريد أن ينطلق منها ليوفي معنى كل كلمة من كلمات هذا الأثر . ومن هنا إذا كانت هناك بعض من وجهات نظر مختلفة حول معاني بعض الكلمات فمن حق الباحث أن يأخذ نفسه بوجهة نظره في التفسير الذي يعتقد أنه الأرجح . كما أن له الحق كل الحق أيضا أن يختار القاعدة التي يريد أن ينطلق منها . ومهما كان من أمر في وجهات النظر المختلفة والتباين الموضوعي بين الأساتذة فقد كان له أكبر الفائدة (على نقش النمارية) وهو ذلك الأثر الذي تناوله العديد من العلماء الأجانب الذين عارضوا رأي ديسو مكتشف الأثر . كما أن هناك العديد من علمائنا تناولوه بالبحث والتفسير نذكر منهم

(٣٧) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ٢١٦ .

(٣٨) الدكتور / يحيى خليل نامي : نفس المصدر ص ١٧ .

(٣٩) الدكتور / عبد الحميد زايد : نفس المصدر ص ٢١٤ .

الأولى :

١ - (ينصر) الآله شرحو برامت منعوطي برمر القيس .

٢ - وشرحوير سعد وستر وشريجو .

والثانية :

١ - (بنصر) الآله شرحو برامت برامت منعو وهيء برمر القيس .

٢ - وشرحوير سعد وتوسترو وسر^(٤١) .

ونأتي الى نموذج آخر له أهميته في تطور الحروف العربية المبكرة نجده على نقش ، وجد منقوشا على حجر فوق باب كنيسة بحران اللجا في المنطقة الشمالية من جبل الدروز وهو مكتوب بالعربية واليونانية ، مؤرخ في سنة ٤٦٣ (التاريخ البصري) أي في سنة ٥٦٨ م . أي قبل التاريخ الهجري بحوالي ٤٥ سنة وقد وفق « ليمان » الى قراءته قراءة صحيحة كاملة بعد أن عجز المستشرقون عن ذلك أكثر من نصف قرن^(٤٢) .

فحرفوها العربية متطورة الصورة ولدينا من هذه الكتابة « نقش » « زيد » الذي « كشفه الأثري » زاخو SACHAU سنة ١٨٧٩ ، « وزيد » اسم خربة تقع شرقي حلب والنقش مؤرخ سنة (٥١٢ م) وهو أقدم وثيقة عربية تحمل خطا عربيا والى جانبها خط سرياني وآخر إغريقي وقد كتب على واجهة كنيسة مارسركيس^(٤٣) .

وقد اختلف المستشرقون في قراءة هذا النقش ونشره كل منهم تفسيراً يخالف تفسير الآخر ولكن أهم القراءات هي قراءة « م . ليتسبرمكي » M. LIDZBARSKI وهي :

١ - (ب) الآله شرحوير . . مع قيمو . . برمر القيس .

٢ - وشرحوير سعدو وسترو (سر) يحو .
وهناك قراءتان للأستاذ « أنوليتمان » :

الآله شرحوير | مرمعوو | مدم | المند

٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر

شكل رقم ٦ : نقش زيد سنة ٥١٢ م

عن : ناسي

باسم | مرمعوو | مدم | المند

٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر ٩ سر

حسد
مدم

شكل رقم ٧ : نقش حران سنة ٥٦٨ م

عن : ناسي

(٤٠) الدكتور خليل ناسي : نقش المصدر من ٨٩ - ٩٠ .

(٤١) المصدر السابق ص ٩٠ .

(٤٢) المصدر السابق ص ٩١ .

وهناك نقش آخر له من الأهمية التاريخية والأثرية ما يجعل منه الحلقة الأخيرة من الكتابة العربية الجاهلية الثانية نشره أيضا « ليمان » نقش على قبر « ابن عبيدة » وحروفه مربوطة بعضها مع البعض وهذا يعني أن الكتابة قد استقرت على أن تكون مرتبطة الحروف أنظر (شكل رقم ٨) . ولكن متى ظهر هذا التجديد على الكتابة العربية ، هذا ما ليس لنا به علم وبذلك يكون نقش حران (٥٦٨ م) هو أقدم أثر مؤرخ لدينا فيه الحروف العربية متصلة بعضها مع البعض .

ومحتوى النقش هو :

١ - أنا شرحيل بن ظلمو بنيت ذا الموطول

٢ - سنت ٤٦٣ بعد مفسد .

٣ - خير .

٤ - بعم .

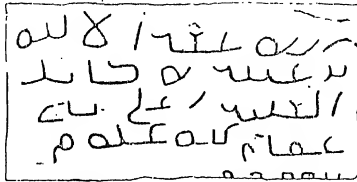
ويقرأ أيضا :

١ - أنا شرحيل بن ظالم بنيت هذه الكنيسة .

٢ - سنت ٤٦٣ بعد مفسد (انبار)

٣ - خير .

٤ - بعام (٤٣) .



شكل رقم (٨) : كتابة عربية متصلة الحروف عثر عليها في أم الجبال الثانية .

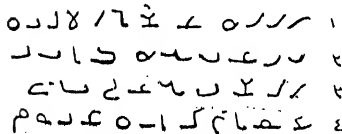
عن : المتجدد

١ - الله غفر لآليه .

٢ - ابن عبيد كاتب .

٣ - العبيد أعلى بنى .

٤ - عمري كتبه عنه م .



شكل رقم (٩) : مفردات حروف نقش ابن عبيد

عندهم ، فهم عرب لهم خصائص لغوية قريبة من الخصائص العربية التي نزل بها القرآن الكريم وإن اختلفت عنها في أداة التعريف وفي بعض الصفات اللغوية^(٤٦) .

ويذكر لنا الدكتور « جواد علي » « لقد بان لنا من دراسة جميع النصوص الجاهلية التي عثر عليها في الجزيرة العربية حتى الآن أنها من حيث استعمال أداة التعريف لا تخرج من حدود مجموعات ثلاث : مجموعة تستعمل (ال) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (الهاء) أداة للتعريف ومجموعة تستعمل (النون) ، أما مجموعة (ال) فتشمل النصوص النبطية وبضعة نصوص كتبت بلهجة عربية قريبة من عربية القرآن الكريم ، وهي النص المعروف عند المستشرقين باسم نص « النمارة » ويرجع تاريخه الى سنة ٣٢٨ م الشكل رقم (٥) ويليهِ نص « زيد » ويعود تاريخه الى سنة ٥١٢ م (الشكل رقم ٦) ونص حران ويرجع الى سنة ٥٦٨ م (شكل رقم ٩) وكتابة أم الجمل الثانية (شكل رقم ١٠) وتشمل هذه المجموعة أيضا عربية القرآن الكريم واللهجات القريبة أو المتفرعة منها المذكورة في كتب اللغة .

أما مجموعة حروف النون فتشمل اللهجات المعنية والسبئية والقبتانية والحضرية والحمرية ، وهي على اختلافها المذكور تتفق كلها في استعمال هذه الحروف أداة للتعريف . وأما مجموعة حروف (الهاء) فتشمل الصوفية والشمودية . وهذا التقسيم هو على ما أظن أجمع وأدق في الزمن الحاضر من تقسيم المستشرقين ويمكن أن يكون أساسا الى دراسات أوسع قد تؤدي بنا الى تقسيم جديد للهجات العرب قبل الاسلام ، على أن نوجه العناية في الوقت نفسه الى البحث في كتابات

وإذا كانت هذه النماذج الأثرية من الكتابات العربية قد عثر عليها في مناطق معينة دون غيرها من الأماكن التي تقع في شمال شبه الجزيرة العربية ، فهذا قد يسر لنا أن نعرف عن يقين الموطن الأصلي للحروف العربية ومسالكها حين انتقلت من مكان الى آخر وما أخذته من أسماء وما تشكلت عليه من صور مختلفة . وإذا كان أغلب النماذج من النقوش العربية قد عثر عليها في هذه المنطقة الشمالية من الشرق العربي فهذا يعني أن هذه المادة الحضارية إنما هي نبت هذه المنطقة المتوسطة ، وليس من مكان غيرها ظهرت فيه ، وهذه حقيقة مطلقة علينا أن نأخذ بها ولا نختلف فيها . وحين تكشف نقوش أثرية جديدة موثوقة بصحتها التاريخية والعلمية . فهذا سوف يثري هذه الحقيقة ويثبتها علميا وأثريا .

ان المكتشفات الأثرية التي نقب عنها علماء الآثار على مدى قرن ونصف من الزمان الحاضر قد زودتنا بدراسات متعددة المناحي العلمية ، كما أعطتنا فيها أعطينا الدليل على أن ليس هناك ثمة علاقة بين الحروف العربية الشمالية وبين الحروف « الشمودية » و « اللحيانية » و « الصفوية » وذلك لأن الشعب الشمودي يرجع تاريخه الى ما قبل الميلاد بعدة قرون وكانت منازلهم « بالبحر » (مدائن صالح) أما « اللحيانيون » الذين كانوا يقطنون أرض العلا فتاريخهم يرجع الى القرن الأول قبل الميلاد « وقد تلاشوا في قبيلة « هذيل » وعدمهم « الهذاني » من بقايا جرهم^(٤٤) أما الصفويون فهم من سكان « الحرة » ، وكلمة الصفويين لا تعني شعبا معينا أو قبيلة معينة إنما هو اصطلاح حديث للدلالة على أن تلك الكتابات التي عثر عليها في تلك الجهات^(٤٥) ورغم تباعد شكل الحروف العربية

(٤٤) نفس المصدر ص ٣٣ .

(٤٥) نفس المصدر ص ٣٧ .

(٤٦) الدكتور / جواد علي - نفس المصدر ص ٣١٦ .

	שני	לחן	עודי	מנצח
א	א	א	א	א
ב	ב	ב	ב	ב
ג	ג	ג	ג	ג
ד	ד	ד	ד	ד
ה	ה	ה	ה	ה
ו	ו	ו	ו	ו
ז	ז	ז	ז	ז
ח	ח	ח	ח	ח
ט	ט	ט	ט	ט
י	י	י	י	י
כ	כ	כ	כ	כ
ל	ל	ל	ל	ל
מ	מ	מ	מ	מ
נ	נ	נ	נ	נ
ס	ס	ס	ס	ס
ע	ע	ע	ע	ע
פ	פ	פ	פ	פ
צ	צ	צ	צ	צ
ק	ק	ק	ק	ק
ר	ר	ר	ר	ר
ש	ש	ש	ש	ש
ת	ת	ת	ת	ת
י	י	י	י	י
כ	כ	כ	כ	כ
ל	ל	ל	ל	ל
מ	מ	מ	מ	מ
נ	נ	נ	נ	נ
ס	ס	ס	ס	ס
ע	ע	ע	ע	ע
פ	פ	פ	פ	פ
צ	צ	צ	צ	צ
ק	ק	ק	ק	ק
ר	ר	ר	ר	ר
ש	ש	ש	ש	ש
ת	ת	ת	ת	ת
י	י	י	י	י
כ	כ	כ	כ	כ
ל	ל	ל	ל	ל
מ	מ	מ	מ	מ
נ	נ	נ	נ	נ
ס	ס	ס	ס	ס
ע	ע	ע	ע	ע
פ	פ	פ	פ	פ
צ	צ	צ	צ	צ
ק	ק	ק	ק	ק
ר	ר	ר	ר	ר
ש	ש	ש	ש	ש
ת	ת	ת	ת	ת

شكل رقم (١٠) : حروف باخط العبري - والعمودي - واللحياني

والسبتي - واليهودي - والعربي

عن : زايد

الفح يجعل الزاي سينا فإذا أراد أن يقول زورق قال :
سورق ويجعل العين همزة فإذا أراد أن يقول مشعمل قال
« مشمثل »^(٤٨)

وهذه الأمثلة تدل على أن الصورة النبطية قائمة حتى
بعد أن جاء الاسلام ، نجدها في الكتابة العربية كما
نجدها على لسان المجتمعات العربية وإذا كان بعض
هذه المجتمعات قد توقعت داخل عصبيتها القبلية ،
فهناك العديد الآخر من هذه القبائل قد اعتدل لسانه
واستقام نطقه وعلى رأس هذه القبائل العربية تأتي
« قريش » التي تميزت بدقة ألفاظها وحسن عبارتها
واستواء كلامها ، وأن اللغة العربية كانت لديهم من
الابتكارات الفنية ، ومن هنا وضعوا المعنى المثالي في
الكلمة المنطوقة وربطوها بأفواههم بحركات عكسة
الاعراب وهو ذلك الشيء الذي كان لديهم وليس عند
أحد غيرهم سليقة فطرية منطقية .

وهذه اللغة المنطوقة التي وصل بها القرآن الكريم إلى
هذا المستوى الرفيع من البيان والأحكام وعلى هذه
القاعدة اللغوية من المستحيل لها أن يأتي مصدرها من
هذا التصور الذي طرحه علينا بعض المؤرخين
العرب ، مثل ما خرج علينا به أبو الحسن البلاذري
المثوفي سنة (٢٧٩هـ - ٨٩٢م) حين تكلم عن الخط
فقال : « حدثني عباس بن هشام بن محمد السائب
الكلبي عن أبيه عن جده وعن الشرقي القطامي ،
قال : اجتمع ثلاثة من طيئه ببقه وهم مرامر بن مره
وأسلم بن سدره ، وعامر بن جدره فوضعوا الخط
وقاسوا هجاء العربية على هجاء السريانية فتعلمه منهم
قوم من أهل الأنبار ، ثم تعلمه أهل الحيرة من أهل
الأنبار ، وكان بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن
عبد الملك بن عبد الجان الكندي ، ثم السكوني صاحب

جديدة تكون سنداً لهذه الدراسات وللتوصل إلى أقدم
لهجة عربية تفرعت منها هذه اللهجات أو ما يسمى
بـ PROTO ARABISCH أو UR
ARABISCH عند المستشرقين أو اللهجات القديمة
التي تفرعت منها سائر اللهجات^(٤٩) وهذه العربية
الأولية أو العربية الأكادية (راجع رأي ولیم ريت في هذا
البحث ص ٦٠ - ٦٥) أو العربية التي نقلها العرب من شبه
الجزيرة العربية إبان هجرتهم الأولى إلى أرض
الرافدين .

ومن هنا يمكننا أن نقول أنه مهما كان رسم حروف
النقوش الأثرية ، ومهما كان هناك خلاف في رسمها فهي
إنما تطرح صورة عربية أخذت لها سمات مختلفة حسب
أسماء من كتبوا بها ، وليس هناك من لم يؤكد أن
أصحاب هذه الحروف المختلفة الأشكال والأسماء
لا ينتمون إلى جنس واحد وهو الجنس العربي الذي أخذ
له أسماء متعددة ، وكان آخرها اسم « الأنياب » الذي
ظل بعض العرب يحملون هذا الاسم حتى بعد قيام دولة
الاسلام ، وعن ذلك حدثنا « أبو القاسم محمود
الزغشري » المثوفي سنة (٥٣٨ هـ - ١١٤٣ م) فقال :
« قال خالد بن الوليد لعبد المسيح بن بقله « أعرب أنتم
أم نبط » فقال : « عرب استنبطنا ونبط استعربنا » ،
ومنه قول أبي العلاء المعري :

ابن امرئ القيس والعداوى

أو مال من تحت النبط .

استنبط العرب في المرامى

بعدهك واستعرب النبط .^(٤٧)

ومن ذلك أيضاً يأتي رأي « الجاحظ » وقد تعرف على
الفروق التي تفصل بين العربي والنبطي والعربي الذي
يتكلم لسان قريش قال : « ومهما كان من أمر فالنبطي

(٤٧) الزغشري : أساس البلاغة ص ٩٢٩ طبعة الشعب .

(٤٨) الجاحظ واليبين تحقيق السنوبي الجزء الأول ص ٦٦ القاهرة ١٣٤٥ هـ ١٩٦٦

دومة الجندل يأتي الخيرة فيقيم بها الحين ، وكان نصرانيا فتعلم بشر الخط العربي من أهل الخيرة ، ثم أتى مكة في بعض شأنه فرآه سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب يكتب فسأله أن يعلمها الخط فعلمها الهجاء ، ثم أراها الخط فكتبا . ثم إن بشرا وسفيان وأبا قيس أتوا الطائف في تجارة فصحبهم غيلان بن سلمى الثقفي فتعلم الخط منهم ، وفارقهم بشر ومضى إلى ديار مضر ، فتعلم الخط منه عمر بن زرارة بن عدس فسمي عمر الكاتب ثم أتى بشر الشام فتعلم الخط منه ناس هناك وتعلم الخط الثلاثة الطائنين أيضا رجل من طابخة كلب فعلمه رجلا من أهل وادي القرى فأتى الوادي يتردد فلقم بها وعلم الخط قوما من أهلها^(٤٩).

وإذا كان هذا هو تصور البلاذري في أصل الخط ، فأصل اللغة كان له عند المؤرخ العربي شأن آخر ، مثال ذلك ما نجده عند ابن النديم الذي يعيد رواية « عباس بن هشام » ثم يضيف عليها ما ظنه صوابا فقال : « فأما الذي يقارب الحق وتكاد النفس تقبله ، فذكر الثقة أن الكلام العربي بلغة حمير وطسم وجديس وإرم وحويل ، وهؤلاء هم العرب العاربة ، وأن اسماعيل لما حصل في الجرم ونشأ وكبر وتزوج في جرحم آل معاوية بن مضايف الجرهمي فهم أخوال ولده فتعلم كلامهم ولم يزل ولد اسماعيل على مر الزمان يشتقون الكلام بعضهم من بعض ويصنعون للأشياء أسماء كثيرة بحسب حدوث الأشياء الموجودات وظهورها^(٥٠) .

ويضيف « أبو عمر الداني » الثبوت سنة (٤٤٠هـ - ١٠٥٢م) على ذات الصورة رواية أخرى نقلها عن « زياد بن أنعم » قال : قلت لعبدالله بن العباس ، معاشر قريش هل كنتم تكتبون في الجاهلية بهذا الكتاب العربي تجمعون فيه ما اجتمع وتفرقون فيه ما افرق هجا بالالف واللام والميم والشكل والقطع وما يكتب به اليوم قبل أن يبعث الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : نعم ، قلت من علمكم الكتاب ؟ قال : حرب بن أمية ، قلت فمن علم حرب بن أمية ؟ قال : عبدالله بن جسدعان ، قلت : فمن علم عبدالله بن جسدعان ؟ قال : أهل الأنبار ، قلت : فمن علم أهل الأنبار ؟ قال : طاريء طرا عليهم من أرض اليمن من كنته ، قال : فمن علم الطاريء ؟ قال : الجملجان بن الموهب ، كاتب هود نبي الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل^(٥١).

وقد نقل هذه الرواية أكثر من مؤرخ نجدها عند البلاذري في كتابه « فتوح البلدان » ، وعند أبو داود السجستان « في كتابه » المصاحف ، وعند ابن قتيبة « في كتابه » المعارف ، وعند ابن دريد « في كتابه » الأتقان ، وعند ابن فارس « في كتابه » الصحابي ، وعند « الجهشيارى » في كتابه « الوزراء والكتاب » كما هي أيضا عند غيرهم .

وحين تأتي الرواية العربية على هذا النحو الذي يرويه هؤلاء الكتاب فليس لنا إلا أن نأخذ أنفسنا بأن هؤلاء الذين ذكرهم « الداني » قد تعلموا الكتابة بعضهم عن

(٤٩) البلاذري : نفس المصدر ص ٤٥١ - ٤٥٧ .

حاشية :

يُنْصَحُ هذا الرأي إلى مفاكر الدكتور / ابراهيم أنيس في كتابه دلالة الاقفاص ص ١٤ الطاعة ١٩٥٦ : أنه حتى وقت قريب كان بعض الباحثين يذهبون في نشأة اللغة لمذهب تنحى إلى السخرية والعجب ، ومن ذلك أن عالما سويديا في القرن السابع عشر كان يؤكد لسمعته في صورة جذية أن الرب في جنة عدن كان يتكلم اللغة السويدية وأن آدم كان يتكلم اللغة الدنماركية ، وأن الحية تتكلم اللغة الفرنسية ١١ وفي العصر الحديث وقف عالم تركي في مؤتمر لغوي سنة ١٩٣٤ يؤكد للمستمعين أن اللغة التركية هي الأساس الذي انشقت منه كل اللغات مستندا على هذا بكلمة تركية معناها الشمس هي جنوش ، لأن الشمس أول ما استقرى نظر الإنسان الأول من بين الحيوانات .

(٥٠) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(٥١) أبو عمرو بن سعيد الداني : المحكم في نقاط المصحف بتحقيق الدكتور / عزت حسن ص ٣٦ دمشق ١٣٧٦ هـ - ١٩٧٠ .

ابن كعب ، وزيد بن ثابت ، ورافع بن مالك ، وأسد بن خضير ، ومعن بن عدي ، وأبو عيسى بن كثير ، والأوس بن خولي ، ويشير بن سعد^(٥٣).

ومن الطبيعي أن يكون هناك العديد من غير هؤلاء كان لهم معرفة بالقراءة والكتابة مثل هؤلاء الذين كتبوا المعلقات والمذهبات ، التي كانت ترفع على أستار الكعبة مكتوبة على القباطي ، كما كان هناك أيضا هذا النفر من الكتبة الذين كانوا يعملون في القوافل التجارية لرحلة الشتاء التي كانت تذهب إلى اليمن ورحلة الصيف التي كانت تذهب إلى الشام ، وإبان الإسلام كان هناك أسرى موقعة « بدر » الذين فلدوا أنفسهم بما فرض عليهم من أن يعلموا كل واحد منهم عشرة صبيان من صبية المسلمين الكتابة والقراءة .

وكان من بين العرب آنذاك من يحسن بجانب كتابة العربية لغات أخرى غيرها كالسريانية والعبرية ومن هؤلاء كان « ورقة بن نوفل » ، « وأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر زيد بن ثابت رضي الله عنه أن يتعلم كتاب اليهود من السريانية والعبرانية فتعلمها وكان يقرأ على النبي صلى الله عليه وسلم كتبهم ويحييهم عنه^(٥٤) . وكان هناك أيضا كتاب الوحي ومن بينهم ، « الخلفاء الأربعة ، وزيد بن ثابت ، وأبي بن كعب ، وخالد بن الوليد وثابت بن قيس^(٥٥) . ويمكننا أن نضيف على هؤلاء « عبدالله بن مسعود وسعيد بن العاص ، وعبدالرحمن بن الحارث ، وأبو خزيمة الأنصاري » وينقل لنا الدكتور/ صبحي الصالح « إن المستشرق بلاشير » BLANCHERE استطاع أن

بعض يقرأون العربية ويكتبونها ومثلهم في ذلك مثل غيرهم ممن كتبوا النقوش الأثرية ، وكذلك كتبه « الحريشة » GRAFFITI التي وجدت في أنحاء متفرقة من هذه المنطقة العربية المتوسطة وأن هذه الكتابة ومهما كان شكلها فهي وحدها النقوش الأثرية التي لها أهميتها التاريخية ، كما أنها هي وحدها التي أثبتت فيها أن الحروف العربية ، كان لها مسالكها الطبيعية ، وأنها كانت في مراحلها الجاهلية على هذا الشكل الذي نراه مسجلا على النقوش الأثرية مستقيمة الحروف منطوقة الصورة متيسرة الكتابة ، زاد عدد من يقرأوها ويكتبها ، وبعض من هؤلاء يذكرهم البلاذري في قوله : « أنهم كانوا حين دخل الإسلام سبعة عشر رجلا كلهم يكتب منهم عمر بن الخطاب ، وعلي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وطلحة وزيد بن أبي سفيان ، والعامري ، وأبو سلمى بن عبدالأسد وأخوه ، وعبدالله بن سعد بن أبي السرح العامري ، وحويظ بن عبدالعزيز العامري وأبو سفيان بن حرب بن أمية ، ومعابرة بن أبي سفيان ، وجهم بن الصلت بن غزية بن المطلب بن عبدمناف ومن خلفاء قريش العلاء بن الحضرمي . . ومن النساء حفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم ، وأم كلثوم بنت عقبة والشفاء بنت عبدالله العدوي ، وعائشة بنت سعيد بن عباد ، وكريمة بنت المقداد ، أما عائشة فكانت تقرأ ولا تكتب وكذلك أم سلمى^(٥٦) .

وفي المدينة « كانت الكتابة العربية قليلا في الأوس والخزرج ، فقد جاء الإسلام وفيهم بضعة عشر يكتبون ، منهم سعيد بن زرارة ، والمندر بن عمر ، وأبي

(٥٣) البلاذري : نفس المصدر ص ٤٥٧ - ٤٨٠ .

(٥٣) الفيلسفي : نفس المصدر ١١٣٣

(٥٤) نفس المصدر ٤/٣ .

(٥٥) الدكتور صبحي الصالح : مباحث في علوم القرآن ص ٦٩ بيروت ١٩٧٣ .

انظر أيضا تاريخ البربري ١٣٣٢ .

لمجاورتهم نهار اليمن المقيمين عندهم ، ولا من حاضرة الحجاز لأن الذين نقلوا اللغة صادفهم حين ابتدأوا ينقلون لغة العرب قد خالطوا غيرهم من الأمم وفسدت ألسنتهم ، وطبيعي أن الفارابي كان يرمي إلى أن فطاحل العلماء لعهد ازدهار دراسات اللغة العربية رفضوا الأخذ بلهجات تغلب وبكر وإياد وثقيف وغيرها ، كما كانت عليه لزمانهم ولم يرفضوا الأخذ عن شعرائهم الأولين فإن طرقة والأخطل وعمرو بن كلثوم مثلا كانوا تغليبيين ، والحارث بن حنظلة كان بكريا ، ولقيط بن معمر كان إياديا ، وأبو عجم كان ثقفيا ، والأعشى الكبير كان يمانيا ، وهلم جرا ، وكان شعرهم في نظر اللغويين معلودا من الفصح ، إذ كانت لغة الشعر القديم في الغالب LINGUA FRANCA POETICA واحدة متداولة خاصة بالشعر^(٥٧) ومعنى آخر كما يقول الدكتور / شوقي ضيف كان الشاعر ، « حين ينظم شعره يرتفع عن لهجة قبيلته المحلية إلى اللهجة الأدبية العامة »^(٥٨) .

وهذا الفيض من الشعر الجاهلي الذي تميز به الشعراء العرب وأنشدوه في أسواق الشعر المتعددة « عكاظ » وكذلك « المجنة » و « المجر » وكان لديهم ولدى من جاء من بعدهم ، سليقة طبيعية تحدث عنها ابن رشيق القيرواني فقال : « ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر ما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يحفظ من المنثور عشرة ولا ضاع من الموزون عشرة »^(٥٩) .

ولم يكن هناك من أحد غير قريش من بين كل العرب في استواء ألسنتهم ومنهم أخذت العربية التي نجد فيها أن الدلالات اللغوية والادراك العقلي هما القاعدة التي تناولها عنهم علم اللغة لتحديد القيم السوية في النطق

يبلغ بكتابة الوحي أربعين رجلا^(٦٠) دون أن يعين المراجع التي استند عليها في تحديد هذا الرقم .

لقد عثر علماء الآثار على العديد من الكتابات الأثرية في أنحاء متفرقة إلا في مدينة « مكة » التي لم يعثر بها حتى الآن على أي شيء رغم أن هذه المدينة قد تميزت بأنها البلد الذي فيه البيت العتيق مركز الثقل لكافة القبائل العربية وموطن قبيلة « قريش » الذين تعالوا على غيرهم بلغتهم العربية المثالية التي جاء القرآن الكريم ليكون على هذه اللغة وعلى أصحابها معجزة دين ومعجزة لغة ومعجزة بلاغة رغم أن الكلمة كانت لديهم صورة طبيعية لحروف ينطقونها ببطء سليمة لا نجد لها نظيرا ولا مقابل عند أي قبيلة عربية أخرى وينقل لنا الأستاذ / فيشر A. FISHER رأى « أبو النصر الفارابي » (٢٥٩ - ٣٣٩ هـ - ٨٧٠ - ٩٥٠ م) في مقدمة كتابه « الألفاظ والحروف » عن ثقل الحاسة اللغوية عند قريش فقال : « لقد كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ وأسهلها على اللسان عند النطق وأحسنها مسموعا وأبينها إبانة عبا في النفس ، وعندهم نقلت العربية ، وهم اقتدى عنهم أخذ اللسان العربي بين القبائل ، وفي رأي الفارابي بأن اللسان الكامل - لم يأخذ لا من لحم ولا من خنزير لمجاورتهم أهل مصر والقيط ، ولا من قضاة وغسان وإياد لمجاورهم أهل الشام وأكثرهم نصاري يقرأون بالسريانية » ولا من تغلب واليمن فانهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان ولا من بكر لمجاورهم القبط والفرس ، ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين غاطلين للهند والفرس ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والخيشة ، ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة ولا من ثقيف وأهل الطائف

(٥٦) نفس المصدر ص ٦٩ .

(٥٧) أ . فيشر : المعجم اللغوي التاريخي القسم الأول من ١٢ - ١٣ الفاعلة ١٣٨٧ - ١٩٦٧ .

(٥٨) الدكتور / شوقي ضيف : نفس المصدر ص ٣٣ .

(٥٩) ابن رشيق القيرواني : السبعة الجزء الثاني الطبعة الثانية ص ٢٠ الفاعلة ١٣٨٣ - ١٩٦٣ .

الزمان المتطاوّل في البقاع الشاسعة من الجزيرة ، وأخرجتها الفطرة السليمة والاحساس المرفه والادراك النافذ ، لغة كاملة معجبة عجيبة ، تكاد تصور ألفاظها مشاهد الطبيعة ، وتمثل كلماتها خطرات النفوس ، تكاد تمتلئ معانيها في أجراس الألفاظ ، وتمثل في نبرات الحروف ، كأنها كلماتها خطرات الضمير ونبضات القلوب ونبرات الحياة فالمعاني المحسة والمعقولة مبنية في الفاظ تدرك الفروق الدقيقة بين الأشياء المتشابهة فتصنع للشبيه لفظاً خيراً ما وضعته بشيئه ، إدراكاً للفرق الدقيق بينها . فإذا وضعت بعض اللغات للضرب مثلاً كلمة واحدة وضعت العربية كلمات تختلف باختلاف آلة الضرب وموضعه في الجسم . وإذا دلت اللغات على صفات الوجه الانساني مثلاً بكلمات مركبة بكل صفة ، دلت العربية على كل حلية في الانسان وكل صفة في عينيه وحاجبه وأنفه وفمه وأسنانه وغيرها بأساء خاصة . وليس هذا مقام التمثيل والتفصيل .

ثم هذا الاحساس الحاد الدقيق المتمثل في المفردات يتجلى في التركيب مدهشاً . فكل كلمة لها في الجملة مكان يحس بها المتكلم أو تحس بها الكلمة نفسها فتعطي أو تأخذ صوتاً مكافئاً لهذه المكانة فالكلمة الاصلية لها أقوى الاصوات وهو الضم ، والآخرى لها الفتح والجهر ، وما أرى هذا إلا ضرباً من الحياة في الألفاظ والتركيب يبين عن أدق الاحساس والطفه .

وإذا اشتملت اللغات على كلمات هي مادتها ، ففي اللغة العربية مادة وقوالب يستعملها صاحبها حين الحاجة فيها مادة ووزن . فخذ المادة أو أخلقها أو استعرها من لغة أخرى ثم صبها في قالب من قوالب الأسماء والأفعال ، وصورها بالقوالب أو الأوزان ما تشاء فلتنتا تدل بالمادة والوزن وبالصيغة والهيئة . فمن سمع

المثالي ، وذلك لأن الحروف كانت لديهم رمزا للفظ واللفظ رمزا للفكر وتغير حركة الحرف يشكل تغييراً في المعنى ، الأمر الذي يؤدي إلى خروج الرمز من التجريد إلى التشكيل وبذلك تكونت البنية الموسيقية لحركة حروف اللغة العربية وأصبح أصحاب هذه اللغة يملكون الكلمة ، « هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيها بينهم ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس ، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة ومحل البلخ والحضارة وكل العلم والصناعة حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التي يتميزون بها في عرف علماء الأجناس البشرية فإذا وجد الفخر باللغة فذلك علامة العربي بين العناصر العامة من أقاربه الساميين ، إلى الغرباء عنهم من الآرين والطورانيين والهاميين ثم يتجلى فيهم دون سائر الأمم تلك الظاهرة الفريدة في تاريخ الأجيال والثقافات وهي العلو في البلاغة حتى تكون البلاغة في قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديداً وديوانياً وتحديداً ربانياً من معجزات الآله التي يتسامى قدرة البلاغة في أمة اللسان والبيان »^(١٠).

وهذه اللغة العربية التي تكلمت بها هذه الأمة أراد الله تعالى لها أن تكون فريدة في نطقها وشاملة في تراكيبها ، جامعة الأصول بحكمة البنية لا تملكها العقول إلا بالقدر التي تسفر فيه عن نفسها وتفصح عن أسرارها ، وفي ذات الوقت تملك هي كل العقول المستتيرة على نحو مطلق ارتباط بها المسلم الرشيد حتى أصبحت بجانب عقيدته جزءاً من وجوده الحضاري ، يسمى اليها ليدرك مضمونها ويتذوق إيقاع سحرها الظاهري ويتعرف على حقيقتها التي ظلت متدفقة العطاء منذ خمسة عشر قرناً هجرياً ، وستبقى هكذا إلى ما شاء الله تعالى . وصفها أحد عشاق التراث الاسلامي فقال عنها أيها هي هذه اللغة المعجزة الفريدة التي « أنضحها

(١٠) عباس محمود العقاد : مطلع النور وطوابع البنية النبوية ص ٩١ الفاعرة بدون تاريخ

و « الأديم » هو الجلد .
 وقوله أيضا :
 لم طلل مثل الكتاب المنسق
 كلا عهده الصليب ممطون
 وقول لبيد :
 وحلا السيول عن السطول
 كأنها زير نجد متونها أقلامها
 والزير « هو الكتب »
 وقول الأحنس بن شهاب الثعلبي :
 لابنة طحان بن عوف منازل
 كما رقت العنوان على الرق كاتب
 والرق هو « الجلد الرقيق » .
 وقول الحارث بن حلزة الشكري البكري :
 لمن الديار عقون بالحس
 آياتها المهاريف العرس
 والمهاريف هي : الصحف .
 وكان لابد لأصحاب هذه النقوش الأثرية أن يكونوا
 هم أصحاب هذه الأصالة الشعرية ، وأن تمتد بهم
 الواعية اللغوية والحس العلمي ليسير بهم التاريخ إلى
 ذلك الحقل الذي تناوله أستاذ اللغة العربية « الخليل بن
 أحمد الفراهيدي » المتوفى سنة (١٧٥هـ - ٧٩١م)
 ليكتب كتاب « العين » الذي أصبحت مادته العلمية فيما
 بعد قاعدة منهجية للمعجمات الضخمة والقواميس
 الموسوعية التي لا نجد لها نظيرا أو مقابلا عند أي أمة من
 الأمم الأخرى قديما أو حديثا ، ويعد الخليل بن أحمد
 « تناول نفس المادة تعليمه » سبويه « المتوفى سنة
 (١٨٠هـ - ٧٩٦م) ومن بعده أصبحت المعاجم أساسا
 للفكر اللغوي الإسلامي حيث تدفق السيل وانصهرت
 السبكة النفيسة في « الجمهرة » لابن دريد ،
 و « التهذيب » للأزهري المتوفى سنة (٣٧٠هـ -

فاعلا أو منعولا أدرك أن هذا الوزن في حركاته وسكناته
 له معنى يلزمه في المواد كلها وبهذا امتازت اللغة
 واستبان خصائصها حتى نفت عن نفسها كل كلمة
 أجنبية ما لم تخضع لأوزانها وقوانينها . للأساء أوزان
 وللأفعال أوزان ، فما لا تزنه هذه الأوزان فهو أجنبي
 وبهذا بقيت على الدهر المتطاوّل خالصة نقيّة صحيحة
 قوية ^(٦١) .

وبجانب كل ما يوجد على مائدة البحث من الأدلة
 التاريخية والأثرية واللغوية على أن الكتابة العربية كانت
 قائمة عند العرب في قديم الزمان ، نجد فيما نجد من
 تراث الشعر العربي الذي كان يعرف في العربية الأكاديمية
 باسم « شبرو » ما يضيف لنا أدلة أخرى تثبت أن الكتابة
 العربية كانت قائمة على صورة مختلفة قبل أن ينشأ
 الشعر الجاهلي الذي عرفناه يلقى على الناس في أسواق
 الشعر الموسمية وأن أوابده كانت تختار لتكتب وتعلق على
 أستاذ البيت العتيق . وفي هذا التراث الشعري نجد
 العديد من الأبيات التي تتضمن كلمات مثل « الرق »
 و « الأديم » و « العيب » وغير ذلك من الحامات التي
 استعملها الكاتب العربي ليكتب عليها وذكرها
 الشعراء . وعلى سبيل المثال نجد قول امرئ القيس
 الذي يقول فيه :

لمن طلل أبصرته فشجاني

كخط الزابور في العيب البياني

و « العيب » هو جريد النخل .

وقول النابغة الذبياني :

كأن جمر الرامسات ذبولها

عليه حصر ثمقته الصوانع
 و « القضم » هو الجلد الأبيض .

وقول المرحش الأكبر عوف بن سعد :

الدار قفر والرسوم كما

ركش في ظهر الأديم قلم

(٦١) الدكتور / عبد الواحد عبد الوهاب مرام : معجم العرب من ١٧ - ١٨٠ سلسلة آثار الثقافة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦ .

٩٨٠م) و« المحيط » للمصاحب بن عباد المتوفى سنة (٣٨٥هـ - ٩٩٥م) و« المجمل » لابن فارس المتوفى سنة (٣٩٥هـ - ١٠٠٤م) و« الصحاح » للجوهري المتوفى سنة (٣٩٧هـ - ١٠٠٦م) و« أساس البلاغة » « الزنجشيري » المتوفى سنة (٥٣٨هـ - ١١٤٣م) و« لسان العرب » لابن المنصور المتوفى سنة (٨١٦هـ - ٤١٣م) و« تاج العروس في جواهر القاموس » للزبيدي المتوفى سنة (١٢٥٠هـ - ١٧٩٠م)، وما برح الأمر والمعالم تظهر على هذا النحو عند غير هؤلاء ممن لم أذكر لأن البحر كان محيطاً .

كان من طبيعة هذا البحر المحيط أن يفيض على هؤلاء العلماء بهذه المعاجم الموسوعية لأنهم ارتبطوا بالكلمة العربية وسبروا أغوارها كما ارتبطت الكلمة بهم، وجاء ذلك طبيعياً إذ أننا عرفنا اللغة العربية أول ما عرفناها في القرن الخامس الميلادي تامة في ألفاظها وصياغتها وحروفها ونحوها وصرفها وأوزانها وفي قوة التعبير بها، وتلك اللغة لم تزل بخصائصها الجاهلية من كلمات وأحكام وصرف ونحو وتركيب لغة الكتابة في كل صقع نزل العرب فكانوا فيه قطاناً أو مهاجرين إلى حين . وعلى الرغم من أن لكل صقع عربي لهجة يتكلمها أهله، فإن أهالي الأصقاع المختلفة يتفاهمون بلغة الكتابة إذا تحدثوا ويفهمونها إذا قرئت عليهم ولو كانوا أميين» (٦٦) وهكذا اتسعت اللغة العربية في واحة أصحاب المعاجم وكذلك في واحة كل من يتكلم بها .

وكان لابد أن يظهر في الفكر الإسلامي نظريات تعالج بنية اللغة العربية وأن يدور حوار بين العلماء عما إذا كانت اللغة « توقيفية » أم هي « اصطلاحية » وكان من بين هؤلاء « ابن فارس الرازي القرويني » الذي توفي سنة (٣٩١هـ - ١٠٠٠م) وكان في طليعة المفكرين

من اللغويين العرب الذين ظهروا على المسرح في هذا الميدان، فقد سجل نظريته في أصل اللغة ونشأتها بكتابه « الصحاحي » ويرى عن أن اللغة توقيف اصطلاح بأدلة كانت موضع التأييد حيناً والمعارضة حيناً آخر» (٦٧) ولم يكن هذا الرأي في جملة هوراي « ابن فارس » إنما كان رأي بعض العلماء سبقوه إليه، وما كان مثل هذا الرأي أن يقبل هكذا دون أن يعارضه بعض علماء اللغة، فاختلفت الآراء متباعدة المناحي، وكان ضمن ما هناك رأي « أبو الحسن الأشعري » المتوفى سنة (٣٢٤هـ - ٩٣٦م) و« أبو هاشم » المعتزلي (٣٢١هـ - ٩٣٣م) و« ابن الحسن بن فورك الأنصاري » (٤٠٦هـ - ١٠١٥م) و« أبو إسحاق إبراهيم الأسفراييني » (٤١٨هـ - ١٠٢٧م) وغيرهم ويحمل الآراء عند هؤلاء تشعبت إلى مذاهب مختلفة :

الأول : أن اللغة توقيف من الله تعالى .

الثاني : أنها مواضعة واصطلاح بين البشر .

الثالث : أن ابتداء اللغة وقع بالتعليم من الله تعالى والباقي بالاصطلاح .

الرابع : أن ابتداء اللغة وقع بالاصطلاح والباقي توقيف .

الخامس : أن نفس الألفاظ دلت على معانيها بذاتها .

السادس : أنه يجوز كل واحد من هذه الأحوال من غير جزم بأحدهما .

واحتج القائلون بالتوقيف، بالنقل والعقل .

الأول : قوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » (البقرة آية ٣١) .

فإن هذه الآية تدل على أن الأسماء توقيفية معلمة من عند الله، وأن الأفعال والحروف كذلك إذ لا قائل بالفرق . والاسم إنما سمي اسماً لأنه علامة على

(٦٧) الدكتور : عمر فروخ : اللغة العربية مصاندها وطوارها وخصائصها العامة مجلة الأدب والفن الجزء الرابع من ٢٠، ٢١ السنة الأولى لندن ١٩٤٤ .

(٦٨) الدكتور / محمد مصطفى وضوان : العلامة اللغوي بن فارس الرازي من ٢٠٨ القاهرة ١٩٧٦

اللغة إلى واقع التواضع عليها بين عباده» (٦٥) ومن هنا فقد كان ابن جني يرى «مذهباً معقولاً ما ذهب إليه» بعضهم في أصل اللغات كلها إنما هو في الأصوات المسموعة كدوي الريح وطين الرعد وخرير الماء وصهيل الفرس ونحوها ثم ولدت اللغات عن ذلك فيها بعد» (٦٦).

ولم يكن هذا الرأي هو وحده الذي التزم به ابن جني فيظهر أنه كان حائراً متردداً لا يكاد يستمر على أمر وهو يشير إلى الرأي القائل بأن اللغة اصطلاحية ويستدل عليه فيقول ما نصه «أنني إذا تأملت حال هذه اللغة الشريفة الكريمة اللطيفة وجدت فيها الحكمة والدقة والارهاف والرقّة ما يملك على جانب الفكر، فقوي في نفسه اعتقاد كونه توقيفاً من الله سبحانه وأنها وحي، ثم يقول وهكذا لا ننكر أن يكون الله تعالى قد خلق من قبلنا وأن بعد مداه عنا، من كان اللطف منا أذهانا وأروع خواطر وأجراً جنانا، فأوقف بين تين الخلتين حسيراً، وأكثرها فانكفى مكتوراً وكأنه بذلك قد أخذ بالرأيتين معا، رأي التوقيف ورأي الاصطلاح» (٦٧).

ومهما كان من أمر فالأراء حول حقيقة اللغة هل هي توقيفية أو هي اصطلاحية لابد أن تطرح على مائدة البحث من خلال البعد الاسلامي الذي يقوم جوهره على أن الله قد أنعم على الانسان بانسانيته وجعله في أحسن تقويم، ومن هنا كان عليه أن يسلم تسليماً مطلقاً بمبدع كل الأشياء التي نراها والتي لا نراها وكانت اللغات أفضل ما وهبه الله للانسان وجعلها له وحده ليميز بها دون غيره، وجعله الناطق الكاتب الوحيد على هذه الأرض كما وضع فيه العقل المدير ليكتشف

مسماء، ومثله الأفعال والحروف وتخصيص الاسم ببعض أنواع الكلام اصطلاحياً للنحاة.

الثاني: أن الله تعالى ذم قوماً على تسميتهم بعض الأشياء من دون توقيف بقوله: «إن هي إلا أسماء سميتونها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان» (النجم الآية ٣٣) فلو لم تكن اللغة توقيفية لما صح هذا الذم.

الثالث: قوله تعالى: «ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم» (الروم الآية ٢٢). والمراد اختلاف اللغات لا اختلاف الألسنة للحيوانات.

وأما العقل فمن وجهين:

الأول: أن الاصطلاح إنما يكون بأن يعرف كل واحد من الخلق صاحبه ما في ضميره، وذلك لا يعرف إلا بطريق الألفاظ والكتابة. وكيف كان، فإن هذا الطريق إن كان اصطلاحياً لزم عنه الدور أو التسلسل، وإذا فلا بد من التوقيف، وهو المطلوب.

الثاني: أن اللغة لو كانت بالمواضعة لجوز العقل اختلافها وأنها على غير ما كانت عليه، لأن اللغات قد تبدلت وحينئذ لا يوثق بها» (٦٨).

وجاء بعد «ابن فارس الرازي» تلميذه «أبو الفتح عثمان بن جني» المتوفى سنة (٣٩٢هـ - ١٠٠١م) «فمهد للمذهب التوقيفي بجديده عن مذهب المواضعة والاصطلاح حيث قال: «إن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف» وأصحاب هذا الرأي لا ينسبون إلى الله تعالى المواضعة على اللغة لأنها تحتاج إلى إيماء وإشارة وهو عز وجل ليس له جارية توميء وتشير لكتهم جوزوا أن ينقل الله تعالى

(٦٤) نفس المصدر ص ٢٠٨.

(٦٥) نفس المصدر ص ٢٣٠.

المصدر المذكورين حتى الإحصاء ص ٤٣/١.

(٦٦) نفس المصدر ص ٢٣١.

المصدر المذكور الإحصاء ص ٤٤/١.

(٦٧) نفس المصدر ص ٢٣٣.

اليونانية ، « التي تسمى لديهم بآل « الفايثا » ونبدأ بالآلف والباء ثم تتوالى فيها حروف كثيرة بلفظها العربي في العصر الحاضر على وجه التقريب . وليس لأسماء الحروف معاني مفهومة في اللغة اليونانية ، ولكنها بهذه الأسماء مفهومة المعنى في لغتنا العصرية فضلاً عن اللهجات العربية الغابرة »^(١٩)

ولكن رغم ذلك الفضل الذي كان يجب أن يذكر بكل احترام فقد أنكرت أوروبا ما قام به العرب والمسلمون من فضل على التراث الانساني ومرجع ذلك الانكار هو الجحود . وكنا على أمل أن يرجع الأوربي المعاصر عن هذا الموقف العدائي ولكننا نراه الآن وقد اندفع سادراً في هذا الخطأ وأخذ نفسه بأحقاد أسلافه وأبقى في ذاته طوية أجداده فهو لا يريد أن يغير موقفه منا لأنه جبل بفطرته على ألا يرجع إلى الحق لأن الرجوع إلى الحق من شيم النفوس المستقيمة وأنى له أن يكون كذلك .

هذه ملامح عابرة عن قصة الكتابة العربية من بدايتها حتى أخذت الحروف الخاصة بها التي عرفت أول ما عرفت باسم الحروف الأرامية ثم باسم النبطية حتى أن صارت متطورة لتعرف باسم الحروف العربية النبطية التي تحولت إلى ما يمكن أن نطلق عليه الحروف العربية الجاهلية ، لتنتهي إلى هذا الشكل التميز الذي عرف باسم الحروف العربية التي استعملها المسلمون في كتابة رسائل الدعوة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الملوك والرؤساء سنة سنة من الهجرة (٦٢٧م) ليدعواهم فيها إلى هدي الله .

بنفسه الحروف ليجعل منها إشارات لتنفل أفكاره إلى غيره من الناس ويليقي بها أفكار غيره ، وليسجل بها عقائده وتاريخه وإبداعه الذهنية والأدبية .

وإذا كانت الكتابة العربية وأشكال حروفها عند بدايتها كان لها شأن متواضع لا يستوي إلى ما كانت عليه الكلمة المنطوقة التي تميزت بالأصالة اللغوية والصورة البلاغية والنبضات الشعرية . فاقدم ما لدينا في هذه الكتابة في غير النقوش الأثرية إنما يأتينا من قصة هذه الصحيفة التي كتبها « منصور بن عكرمة بن عامر » للمشركين من قريش الذين تعاهدوا فيها على مقاطعة الرسول صلى الله عليه وسلم وعشيرته وأصحابه وكل من اتبع هديه . وعلفت على أسرار الكعبة وإذا رجعنا إلى كل الروايات التي ذكرت أنباء هذه الصحيفة فهي في مجملها لا تبلور لنا رواية حقيقية عن شكل الحروف العربية التي كتبت بها إلا إذا ادعى رسم حروف « نقش أم الجمل الثانية » (انظر الشكل رقم ٨) في نفوسنا . وكتابة صحيفة المقاطعة هذه تنسحب أيضاً على رواية ثانية عن صحيفة أخرى لا نعرف لها تاريخاً كتبت قبيل الاسلام ذكرها ابن النديم قال : « كان في خزانة المأمون كتاب بخط عبد اللطيف بن هاشم في جلد أدوم فيه ذكر حق عند عبد المطلب بن هاشم على فلان بن فلان الحميري من أهل وذل صنعاء »^(٢٠) .

من هذا المجلد المتقضب يمكننا أن نقول أن فضل العرب على الكتابة في العصور القديمة لأمر واقع لا يرفضه إلا كل مكابر . وأن هذه الكتابة كان لها أثرها على أبجديات الأمم الأخرى ومثال ذلك الأبجدية



(١٨) ابن النديم : نفس المصدر ص ٥ .

(١٩) عباس عبد القادر : ثقافة العربية ، أسبق من ثلاثة اليونان والعبريين ص ٢٩ المكتبة الثقافية (١)

تولد أغلب أعمال ميشال بوتور الغنية والشديدة التنوع من الرحلات أو خلالها أو من الرغبة في القيام بها . ويعرفنا هذا الأديب المعاصر بمناطق جغرافية ، تاريخية ، أسطورية ، فنية أو أدبية ، حقيقة أو خيالية ، ثم يدعونا لأختيار طريقنا فيها أو في « أطراف هذا العالم الذي لا طرف له »^(١) ، العالم الذي نعيش فيه ، متمنياً لنا - ومقترحاً علينا - رحلة سعيدة .

لنتنزه أولاً بين عناوين كتب بوتور منطلقين من العدد ٣٩ لمجلة « القوس » L'ARC, No. 39 المخصص لهذا الكاتب والذي صممه بنفسه من خمسة أقسام يشكل كل منها قارة يغمرها محيط المجلة ، ومذكرين مشروعه في إيصال كل من سلاسل كتبه إلى خمسة أجزاء . وهكذا نجد أنفسنا على الفور في عوالم مختلفة ولكن متكاملة يستكشف كل منها ميداناً من ميادين الواقع ويتنظر بدوره أن نستكشفه ، نحن القراء ، الرحالة الذين علينا تعلم الغوص في مضائق ومسالك البحار كي نستطيع الوصول إلى الأراضي البعيدة .

مصر والولادة الثانية الرحلة في كتابات ميشال بوتور

مصباح أحمد الصمد

من قصصه الأربع إلى « مواد الأحلام Matieres de rêves من مصنفاته Repertoires إلى زخرفاته Illusttrations علينا أن نكون حساسين « لعبقرية المكان » Le Genie du Lieu لكي نستطيع الارتواء من هذه الينابيع الغزيرة . ولكي ننقل من منطقة لأخرى أو من عالم لآخر علينا إجتياز طرق معالمها « محاورات Dia-logues وإهداءات Envois^(٢) تسهل « الاستكشاف Explorations إنما علينا أن نكون حذرين ، فالمسيرة يجب أن تتم على « مراحل Intervalle ومن خلال التجارب Essais والأحلام Reves لكي نستطيع التنقل بسهولة بين « الشبكات Reseaux وهذا الامتياز

(١) السهم المرتد 185 Boomerang

(٢) تشير هنا إلى تسمية المعاني التي يعتمدها الكاتب في عناوين كتبه حيث أن كل عنوان يحمل معان متعددة بشكل يجعل القارئ يتردد كثيراً قبل أن يعتمد أحدها .

(Quadruple fond) ، جان بيار ريشار (Repertoire IV) وكثيرين آخرين ، هي أمثلة عن « ساكني الحدود » (Illustrations III) الذين يعيشون على التخوم ويستطيعون بالتالي مساعدتنا على اجتياز عوائق الحاضر ونقلنا نحو « الغد » (Illustra- tions IV) أو نحو « وطن الأبناء » .

بوصولنا إلى داخل أعمال بوتور نجد أنفسنا مسافرين في ألف رحلة ورحلة ، فترافق أشخاصاً ومهيمين أو حقيقيين يعيشون أو يبدأون أو ينهون تجوالاً أو رحلة بحرية أو استكشافاً أو حجباً أو حتى مجرد سياحة ، أو نعيش معهم حالة من الهجرة أو النفي أو الحنين أو الحرب أو التشرد .

كل ما في هذه الكتب يتحرك أو يتنقل ، حتى المظاهر أو العناصر الأكثر سكونية^(٣) في العالم ، لدرجة أن « البحار تبدأ بالانتقال »^(٤) ، وأن « الجبل يضم غالبه وينطلق طائراً فوق الطرقات المتصدعة » في خضم هذا (المتحرك) الهائل ، يدعو الكاتب قارئه لاختيار طريقة وللتمسك جيداً وللبقاء يقظاً كي يستطيع الوصول إلى غاية الرحلة ، إذ أن مناجم الذهب محاطة بالرمال المتحركة ، ووحده من لا يسقط يستطيع الوصول إلى « قدس الأقداس » ، إلى « الدرة الثمينة » ، أي إلى الكلمة ، إلى اللغة ، لأن غاية كل رحلة يجب أن تكون إيجاد وسيلة جديدة للتخاطب .

لنسافر إذن في أعمال ميشار بوتور مفتشين عن هذه اللغة الجديدة .



مخصص فقط لمن يتقن اجتياز « المتحرك » Mobile ولن يستطيع أن يقدم عنه تصورات Representation وأن يلتقط اللحظات واللحظات التي تعبر عن الهجرات البشرية ، عن الانتجاع الحيواني ، عن تنقلات الأشياء ، عن التبادل الثقافي وعن الحركة الدائمة للكرة الأرضية .

بعد اجتيازنا العناوين ، نصل إلى الإهداء .

للوله الأولى ، نجد إهداءين فقط مرتبطين بالرحلة ، أو بصورة أوضح بنموذجين مختلفين من الرحلة : « إلى الرحلة في الغرب » (٦٨١٠٠٠٠) لير ماء في الثانية » و « إلى من يقرءون في المنسوخ » (إهداءات) بينما يجيء اثنان آخران « كل هنود المكسيك الجديدة » (في كل مكان : Ou) و « بدائيي أستراليا خلال انتقالهم » (السهم المرتد Boomerang) تحية يوجهها لذَيْن الشعين اللذين يعيش من قبض منهم في حالة من البداوة والهجرة الجماعية .

ولكن إذا تفحصنا بعناية إهداءات كتبه ومقالاته نجدها جميعاً موجهة إلى غماذج مختلفة للرحلة . فكل هؤلاء الكتاب والنقاد والرسامين والموسيقيين الذين تنصدر أسماؤهم كتب بوتور اليسوا « جسورا » نتقلنا إلى ميادين جديدة من الإبداع الأدبي والفني ؟ اليسوا هم من يفتحون لنا أبواب عدد لا يحصى من « العوالم الأخرى » الجغرافية والفكرية ؟

إن أسماء (La Rose des vents) جان رودو (Es- sais sur Les Essais) إيفور سترافنسكي ، سوفون

(٣) وجدنا من اللازم استعمال هذا التعبير المراد به « حافة ما يبدو ساكناً ، وذلك لتبسيطه عن السكون أي ما هو ساكن بالفعل ، وتربط من هذا الانشغال ما أصبح مألوفاً في التعبير بين « الحركة » و « الحركة » .

Matiere de rêves, p. 97

Quadruple fond, p. 24

(٤)

(٥)

سواء للفتيش عن أرض موعودة أو للقيام بجولات مع ما يستوجه ذلك من بحث عن معلومات ولوازم وسلع ومعادن ، الخ . . حملها إلى المكان الذي انطلقنا منه . ذلك ما يجعلنا ننصوّر فترة يكون فيها من الصعب جداً التمييز بين كلمتي « رحلة » و « إقامة » ، ويكون مجرد وجودنا في مكان ما رحلة بحد ذاتها « (١) » .

من جهة أخرى فإن مفهوم الذهاب والإياب التقليدي لا ينطبق إلا على شكل واحد في أشكال الرحلات ، وعملية تنبيه كنموذج وحيد للرحلة يضيق ويبتز تعددية معاني هذه الكلمة :

« إذا أدرنا الارتباط المجازي الأساسي للرحلة بكل ما هو قراءة وكل ما هو بالتالي كتابة ، رأينا من المؤكد أن هذه العلاقة تلعب دوراً كبيراً في إدراكنا للواقع وتأثيرنا فيه ، خاصة وأن كثيراً من التنقلات البشرية هي ذهاب دون عودة » (١١) .

وانطلاقاً من هذه البديعية الأخيرة نجد بوتور يوسع ويشعب معاني كلمة « رحلة » لدرجة أنه يجعلها تشمل أغلب ميادين الحركة والانتقال والتحول والإبداع والاستكشاف ، وأنها تظهر بدورها بصور مختلفة تراوح بين الذهاب والإياب من جهة والتشرد والبداءة من جهة أخرى . ذلك ما يدفعنا للدراسة الشبكات اللغوية لكلمة رحلة في أدب ميشال بوتور وما يجعلنا نشعبها إلى فرعين ندرس في أولها الشبكات المجازية وفي ثانيها الشبكات الارتفاعية .



الشبكات اللغوية لكلمة « رحلة عند بوتور »

إذا القينا نظرة على المعنى الذي تعطيه القواميس والمعاجم اللغوية لكلمة « رحلة » نجده شديد الحصر وغير كاف . لأن كل القواميس تشير إلى أن هذه الكلمة تشير إلى « انتقال إنسان إلى مكان بعيد » (٢) إلى « عملية اجتياز طريق طويل ، غالباً في مركبة ، للذهاب إلى مدينة أخرى أو بلد آخر ، وهي غالباً ما تتطلب استعدادات وتجهيزات مسبقة ، وتفرض غياباً لمدة معينة عن مسكن معهود » (٣) .

بعض القواميس الأخرى توسع قليلاً معنى هذه الكلمة ولكن مع بعض التحفظات « إذا سمينا رحلات كل التنقلات المملة عند عائلات وقيائل بضرورة الفتيش عن الغذاء في بلد أغزر موارد من البلد الذي تقيم فيه ، لارتبطت الرحلة بالعصور الأولى للبشرية » (٤) .

تقليدياً ، يفترض معنى « الرحلة » إذن وجود مسكن ثابت يتنوب عنه المسافر رداً من الزمن بهدف الذهاب إلى مكان بعيد . وذلك ما يستتبع بالتالي نية وضرورة العودة إلى المنزل بعد القيام بمسيرة مستقيمة يكون فيها الإياب عكس الذهاب تماماً ، أو متعرجة إذا اختار المسافر طريقاً مختلفة للعودة (٥) .

أما ميشال بوتور ، فانه يعتبر من الضروري تجاوز هذا « التناقض بين المكان الذي نحن فيه ، الذي نسكنه ، والرحلات التي نقوم بها من مكان لآخر ،

(١) Le Robert, Dictionnaire alphabétique de la langue française volume VI, Paris, 1970

(٢) Le Grand Larousse de la langue française, vol. VII, Paris 1978

(٣) Larousse du XXe siècle, volume VI, Paris, 1945

(٤) تعطي قواميس اللغة العربية معنى أشمل من ذلك إذ تربط لسان العرب بالانتقال والرحلة بالسفر والمجد الثاني . ص ١٦١٠ - ١٦١١ (ولكن كل ذلك يعنى غير كاف كما ستبين في الصفحات التالية .

(٥) هذا ما صرح لنا به الكاتب في المقالة التي أجريتنا معه في منزله في مدينة نيس في ٢٣ يوليو آب ١٩٨٣ .

أولاً - الشبكات المجازية :

إن عملية ارتحال المعنى التي تنطوي عليها كلمة « استعارة » تشكل بالنسبة لبوتور منطلقاً لسلسلة من « التنقلات » . وكما يؤكد ميشال لوني فإن « الاستعارة هي أولاً انتقال ، ارتحال ، حركة »^(١٢) ، وهي « سلسلة من الانقلابات في داخل اللغة ، من تفجر نزوات لغوية يكشف فيها الانتقال الداخلي أو الخارجي مناطق جديدة من المفردات . هي عملية إيجاد معان جديدة »^(١٣) حسب قول بوتور .

اعتماداً على هذه النظرة الأخيرة ، نتوصل لاعتبار أكثر النشاطات الفنية والكتابية وكثير من التحولات اللغوية والتغيرات البيولوجية والعوامل الطبيعية مظاهر لرحلات متنوعة . فمن مجرد قراءة صفحة في كتاب إلى حركة الأرض الدائمة حول الشمس ، مروراً بالكتابة والفنون التشكيلية والأحلام والانفعالات والدورة الدموية ، الخ . . كل ذلك يصبح رحلات في أدب مرحل يخطه كاتب رحالة .

أ - رحلة القراءة :

وعند مطالعتنا لصفحة ما نجد أنفسنا منطلقين في أربع رحلات متواكبة :

أ - « رحلة عمودية على الصفحة ، ونعني بها انجذاب عين القاريء الذي ما إن يفتح الكتاب حتى يجد نفسه متهيئاً لتتبع ما يراه ومستعداً لمرافقة الكاتب في قصته أو براهينه أو خياله .

ب - رحلة اجتياز الصفحة ، وهي تنقل النظر بين الأسطر والصفحات حيث تمر العين من علامة إلى أخرى حسب مسارات متعددة تختارها .

ج - انتقال فكري « من خلال هذه الكوة التي تشكلها الصفحة » إلى أماكن مختلفة البعد قد لا تكون أحياناً سوى منزل الكاتب أو غرفته .

د - وأخيراً المسيرة الفكرية التي ينتقل فيها القاريء « من النقطة التي كان فيها عند بدئه بالقراءة إلى تلك التي يبلغها بعد انتهائه »^(١٤) .

ولكن واجب الكاتب ألا يكتفي بنقل القاريء إلى غرفته ، بل على العكس ، أن يجعله بعيداً ليضعه بين أمواج محيطات كتابته تاركاً له بعض المضائق والممرات التي يجب عليه اكتشافها للوصول إلى بحار أخرى .

ما إن نفتح كتاباً ونبدأ قراءته ، حتى نغادر المكان الذي نحن فيه ونبدأ بزيارة عالم الكاتب . وحتى لو لم يكن هذا العالم سوى قاموس أو دليل هاتف ، فذلك لا يمنع من كونه « مكاناً » مختلفاً ، أو هو يشكل على الأقل « مطاراً ، مدرجاً للطيران أو منطلقاً » يسمح لنا بالانطلاق في بعثات جديدة نحو مطالعات مجهولة^(١٥) .

وكل قراءة تشكل منفذاً يلقي شيئاً فشيئاً كل ما يحيط بنا من أثاث وأشخاص وصحيف ووسائل نقل ليوصلنا بعيداً إلى المدينة التي تدور فيها أحداث قصة نقرأها إلى منعطفات حجاج وبراهين وفيلسوف ما ، إلى عالم سحري يبتدعه خيال شاعر ، إلى ماضي بلد ما يرويهِ أو يحلله

Le C.R.E.U. Cannes, no. 8, trimestre 1978

(١٢)

(١٣) نفس المصدر .

Michel Butor, "Je suis moi-meme plusieurs voyageurs." Le Matin, 17 avril 1979

(١٤)

Repertoire III, p. 219

(١٥)

فترة الكتابة في مكان آخر ، مكان وهمي ، أدبي ، فني ، تاريخي ، نفسي ، الخ . .

والمكان الذي نكتب فيه يتغير بين فترة وأخرى ، وهو ليس بالمكان المغفل ، فليس بالضرورة أن يكتب المؤلف في نفس المكان دائماً . ويوتور يحاول دائماً أن يزيد من تعددية مكان الكتابة ، إذ أنه من النادر جداً أن يكتب عن بلد أو موقع ما وهو فيه . وبهذا الصدد يقول : « إنني في حاجة دائمة لأن أجعل رحلتي ترحل » (١٨) . إنه في حاجة لأن ينقل مكان الرحلة الجسدية إلى مكان الرحلة الكتابية كي يعيش الرحلة مرة أخرى وهو يكتب عنها .

الكتابة هي رحلة . ولكن الطريق البسيط ، الذهاب والإياب ، لا يكفي بوتور كما أشرنا ، لأن ما يفتش عنه هي الشبكات والمتحركات ، ولنقل الشبكات المتحركة . لذلك يلجأ دائماً لنقل كثير من نصوصه من كتاب لآخر ، وغالباً ما ينتقل النص بعد أن تدخل عليه تعديلات عديدة ، كما أنه يدخل في كتاباته كثيراً من نصوص كتاب آخرين . وهكذا يصبح كل من نصوصه ملتقى لأصوات متباينة وأمكنة مختلفة تتجاوز فيها وتلتقي مناطق متباينة ، جغرافياً ، زمنياً وأدبياً . وفي خضم ذلك كله يجد القاري نفسه منتقلاً ليس فقط بين نصوص بوتور بل وأيضاً بين كتابات رابليه وشارتريان وجول فيرن وبوغانفيل وأوديون وبوفون ولافونتين وألف ليلة وليلة وكثير غيرهم .

في عالم كتابات بوتور « يفتح الاستشهاد أبواب عالم آخر ويهره بالواقع » (١٩) ، كما يقول جان رودو . ونزيد

مؤرخ أو حتى إلى عصور مستقبلية تنتقل إليها في مركبات عجيبة بصممها الخيال العلمي .

ولكونه مؤمناً بقدرة النص المقروء على إبراز وتصوير مناطق ومدن ومناظر وشعوب لقاري مهمته فك رموزها وتمثل عبقرتها ، فإن ميشال بوتور يبني أعماله الأدبية على شكل أرخبيل يشمل نصوصاً « جامدة وسائلة وغازية » بطريقة تسمح لكل قاري أن يبلغ بوسائله الخاصة النص الذي ينشده وأن ينتزعه فيه على هواه (١٦) .

نشير هنا إلى أن القراءة لا تكفي بما هو موجود في الكتب أو النشرات ، بل إنها تتجاوز النص المكتوب . فتأمل لوحة أو استطلاع نقوش على جدار أثري أو تتبع خطوط تمثال أو عمل فني آخر ، أو تبنّ طريق نسله على خارطة بلد أو مدينة هي بدورها رحلات تصاحبها حركة الرأس أو تنقل النظر في عملية تتبع وتعميق الاستكشاف .

ب - رحلة الكتابة :

« إذا كانت القراءة عملية عبور ، حتى ولو لم تكن أحياناً سوى عبور خاطف في غيوم بيضاء ، فالكتابة ، التي هي قراءة دائمة التحول ، تمثل بالضرورة رحلة أوضح وأبعد » (١٧) .

الكتابة هي أولاً حركة على صفحة . حركة يد وحركة عين شبيهة بتلك التي تصاحب القراءة . هي إذن تحرك جسدي .

وهي تمنح الكاتب انتقالاً آخر ، فكرياً ، يتعد خلاله بالتدريج عن المكان الموجود فيه لكي يعيش في

Poesie d'Ici, no. 5, 1980

Repertoire IV, p. 28

Jeqn Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, p. 135

(١٦)

(١٧)

(١٨) نفس المصدر ، ص ٢٩

(١٩)

أرضها ينقل معه نظر القاريء وخياله ويجعله يتشبع بالمنظر والإيقاع ويسرح في بياض يغطي الكون بأسره ما عدا عتبة منزل وناراً تقام حولها الأعياد ، في هذا الجو الرائع يتبعّد القاريء عن مكان إقامته ويستطيع المشاركة في احتفال الهنود الحمر ، لابساً قناعاتهم ومشاركاً في رقصهم .

إن كل نص من نصوص بوتور ، بل كل كلمة ، تبدو كصرح أو كموقع أثري علينا تتبع عمراته ودهاليزه ورموزه وخبائاه لكي نتوصل إلى منعة اكتشاف الكلمة - الصرح والنص - الموقع وإلى مرافقة هجرة الكلمات والنصوص ومواكبة تداخلها وتناغمها في عالم أعماله الأدبية .

حد - رحلة الفن :

الرحلة ، كباقي الحاجات الأساسية للجسم ، هي حسب قول بوتور : « أساس كل الفنون » ، ولكن هذه الأخيرة تبدو من جهتها كناية للرحلة وذلك لأنها تحملنا على تغيير مكاننا ، فكراً على الأقل ، ألسنا نقوم بما يشبه البعثة أو الاستكشاف عندما نحاول فهم لوحة أو وشي أو زخرفة أو نقش أو قطعة موسيقية ؟ ويتعدى الأمر ذلك بالطبع بالنسبة للفنان ذاته ، فنرى مثلاً في قصة « استعمال الوقت » أحد أبطالها « يمسك المهارمونيكا ويبدأ بعزف إبحار بعيد على امتداد شواطئ منبسطة مزروعة بأعشاب عالية تمايل عند مروره »^(٢٢) .

« تجوال وحج وسباحة » مماثلة يقوم بها ليون دلون بطل قصة التعديل من خلال أعمال فرانسيسكو بوروميني Borromini وجوان لوتزويريني Bernini الفنية في روما أو من خلال جدرانيات العصور الوسطى وفيسفساء العصور المسيحية الأولى^(٢٣) . أما بوتور نفسه

على ذلك : ليس الاستشهاد فقط بل الاستشهاد الذاتي . أما العالم الآخر « الذي يتكلم عنه رودو فهو قريب جداً بعض الأحيان ، على بعد صفحات قليلة من نفس الكتاب أو في كتاب آخر ليس بعيداً ، وهو أحياناً بعيد جداً ، في أعمال كاتب قديم أو في نص بلغة نجهلها . وفي مطلق الأحوال ، فإن الاستشهاد دعوة موجهة للقاريء ليعمق استطلاعاً لمناطق أخرى .

وبالإضافة إلى رحلة النص ، هناك رحلة الكلمة ، فهي تنتقل من مكان لآخر في الصفحة الواحدة أو في النص الواحد أو الكتاب أو مجمل الأعمال . كلمات كثيرة نراها تكرر أو تتشعب راسمة طرقاً وشبكات وكأنها فراشة تتطاير وتدعونا لتتبعها . « إنني أجبر القاريء على التنقل حول كلمة واحدة »^(٢٤) ذلك ما يقوله بوتور لجورج شاربونييه . نذكر هنا واحداً من مئات الأمثلة لنئين إحدى الدعوات التي توجهها الكلمة للقاريء كي يتبعها :

« ثلج + ثلج

ثلج ثلج ثلج

ثلج + ثلج

عتبة فضاء النار أعاد

ثلج + ثلج

ثلج ثلج ثلج

ثلج + ثلج

القناع يلق ، البيت يلق ، العالم يلق »^(٢٥) .

هكذا نرى ثلج الكلمة يهطل على بياض الصفحة بطريقة تجعل هطول الثلج النازل من سماء الصفحة إلى

George Charbonnier, Entretiens avec Michel Butor, p. 24

Ou. p. 388

L'Emploi du temps, p. 99

La modification, p. 215

(٢١)

(٢٢)

(٢٣)

(٢٤)

نعود قليلاً إلى انتقال الجسد وما بداخله لنسمع الحوار التالي :

« ميشال بوتور : إن انتقال الجسد من مكان لآخر يقابله انتقال شيء ما داخل الجسد ، تحرك قد يكون ممتاً أو منقلاً . . .

ميشال لوني : . . . لا يتعلق الأمر فقط بما نسميه عادة بالجسد ، فهناك مثلاً تقلبات المزاج بالعين الأخلاقي وثورة النزوات من وجهة نظر التحليل النفسي » (٢٥) .

إذا توسعنا قليلاً بهذا المفهوم نتوصل لاعتبار الجسم كعالم صغير ونجد الذراعين والبطن والأحشاء والبطن والأذنين وحددة العين تصبح جميعها عظمات تصل بينها دروب ومسالك ونرى بوتور « يسبح ويطير وينام فيها » (٢٦) .

ونتساءل هنا : أليست المدن والبلدان والعالم بأجمعه سوى جسد هائل يتحرك وينتقل فيه البشر الذين هم « نقط دم يضخها دون توقف قلب المدينة » (٢٧) أو قلب الكون ؟

أ - هذا الجسد المحتوي والمحتوى في آن معا والذي ينتقل حاملا ما يتحرك بداخله ، ليس إلا محطة في رحلة طويلة ، رحلة البشرية التي يدعو الكاتب كلا منا لأن يجهاها في الاتجاهين متأملا على التوالي بطن رجل وامرأة ومركزا على ذلك حتى « يستطيع أن يأخذ الحجم المناسب ، ثم يدخل في رحم هذه المرأة ، يعيش رعشة أصلها - يجتاز مراحل طفولتها وولادتها . . . وهكذا . .

فكم من رحلة قام بها وهو يجمل ويفك رموز لوحات كلود مونيه Cloude Monet وجاك هيرولد Jacques Herold وبيكاسو وفيراد اسيلفا Vieira da Silva أو موسيقى هنري بوسور Henri Pousseur وبيتهوفن وكثيرين غيرهم .

والرقص أيضاً يستطيع أن ينقلنا إلى أماكن بعيدة ويلاذ عربية ، فنرى الراقصين في قصة « بحر الخطاف » Passage de Milan يتطلقون في شرايين بلاد ما وراء البحار حيث ينتقلون بين غابات وطيور تشغلهم لدرجة أن الأشياء والأشخاص المحيطين بهم يتعدون في مدى غامض لا يقاس » (٢٤) .



- تنقلات واكتشافات :

ما نود تبينه هنا هو الرحلة - الدريعة - أي الغوص داخل كلمة ما أو الالتفاف حولها لإظهار معانيها المختلفة . فكلمة « رحلة » مثلاً بما تتضمنه من عملية انتقال توجد إمكانيات لا تحصى لإدخال كثير من الظواهر والعوامل والانفعالات ضمن ميدانها . وهكذا يبدو كل انفعال - بما عثله من تحرك شيء ما داخل جسم الإنسان ومن نقل للشخص المنفعّل من حالة إلى أخرى - رحلة قائمة بذاتها . انطلاقاً من هذا المفهوم نرى الرحلة - كحركة وتغير وانتقال - تصاحب الإنسان منذ تكوينه كجنين حتى ولادته وبلوغه وانفصال بويضته منه تشعب منها رحلته الأرضية في أولاده وأحفاده ، قبل أن يموت ، مبتدئاً رحلته الأبدية ، ثم يتوسع ميدان هذه الكلمة لكي يصل إلى حركة الأرض الدائمة ودوراتها المستمر حول نفسها وحول الشمس .

Passage de Milan, p. 108 et 218

(٢٤)

Michel Butor et Michel Launay, Resistances, p. 110

(٢٥)

Elseneur, p. 24

(٢٦)

Ou, p. 103

(٢٧)

حتى بداية الكون البعيدة (٢٨) . بعد ذلك يأخذ الاتجاه الآخر للرحلة داخلا هذه المرة إلى إحدى بويضات الرجل ومتقللا من جيل إلى جيل « حتى نهاية الزمان المالمحدودة » . (٢٩)

هذه الرحلة اللامتناهية تتواصل من خلال حياة كل إنسان وهي تبدأ حتى قبل الولادة ، في حركة الجنين داخل بطن أمه .

ان استعمال كلمة « رحلة » للدلالة مجازا على حياة الإنسان أو على الموت قديمة جدا ، ولكن بوتور يجددها ويعمقها بإعطائها أبعادا أخرى .

ب - « إذا توسعنا قليلا بنظرتنا هذه نجد أن انعدام الحركة ليس إلا نسبيا على الأرض وبأن الأرض في تنقل دائم بالنسبة إلى الكواكب الأخرى » (٣٠)

حتى الأمكنة الأكثر صلابة والأكثر رسوخا تتحرك بشكل أو بآخر . وجبل فوجي في اليابان « يرتحل نوعا ما على امتداد الأيام والسنين ، ففي لحظة ما هو أجمل ما يكون إذا شوهد من منطقة ما » (٣١) .

وإذا كانت هذه الرحلة تتم « نوعا ما » تحت نظر الزائر أو بسحر ريشة الرسام الياباني هوكوساي Hokusai ، فهناك رحلات أخرى كثيرة يتم فيها الانتقال بطريقة أوضح وأكثر طبيعية كما رأينا سابقا بالنسبة للجبل الطائر أو للبحار المتقلقلة .

في هذا العالم المتحرك يتلقى مفهوم الرحلة تعديلا أساسيا ، فلا تعود عبارة عن « أماكن ثابتة تصل فيها بينها

تنقلات قليلة الأهمية » (٣٢) ، بل تصبح بالأحرى « أمكنة متحركة » . لتوضيح ذلك نقول بأن مشاهدتنا لبلد ما تختلف كثيرا بزيارتنا له بالطائرة أو القطار أو السيارة ، وتختلف كثيرا بالتالي إذا زرنه سيرا على الأقدام . إن مجموعة هذه المشاهدات تعطي صورة متحركة هي الأخرى لأنها تنتج عن تطبيق رؤية شخصية على أماكن متحركة .

ج - إن الأشياء والأدوات التي نستعملها « والتي لا نرى منها عادة سوى وجه واحد هو الاستعمال الثابت » (٣٣) لها بداية ونهاية تقوم بينهما برحلة مزدوجة : نقلها من مكان لآخر ونقل الأجزاء التي تتشكل منها . فكل أداة منزلية ، كانت خزانة أو مقعدا أو آلة موسيقية لها تاريخ طويل : « لقد صنعت وبيعت ووزعت ونقلت قبل أن تصل منزلنا . » (٣٤) كل هذه الأشياء هي بالنسبة لبوتور « أشياء بدوية لحسن الحظ في مجتمع يحلم ببداوة جديدة . » (٣٥) أما حياتها فهي مرتبطة بحياتنا وظروفنا : تأثيث ، زواج ، احتفال ، تجديد ، انتقال أو ذكرى .

حياة الأشياء وانتقالها ترتبط أيضا بتوضيها وتغليظها وقيمة كل ذلك في حياتنا الاجتماعية والعاطفية .

كم من بلاد وممالك تترأى لأعيننا عندما نتابع « انتقال المعاني » الذي يجعل من الجسد « باخرة نباتية » ، من القصة « جسدا » ومن أحداثها « خلايا » وتجعل القارىء « يسبح في أقطار الشعر الفسيحة » .

Michel Butor, Le Miroir ventral. Les Cahiers du chemin, no. 15, avril 1972

Repertoire IV, p. 12

Repertoire III, p. 164

L'Arc, no. 39, p. 22.

Resistances, p. 116

(٢٨)

(٢٩)

(٣٠)

(٣١)

(٣٢)

(٣٣)

(٣٤) نفس المصدر ، ص ١١٦

(٣٥) نفس المصدر ، ص ١١٧

أ - الرحلة كقراءة ، ان رواية الرحلة تحقق وتظهر الرحلة المزدوجة التي تنطوي عليها كل قراءة ، فهي تحمل معها مسيرة عمودية تنتهي بانتقال القاري ، بجعله يغير مكانه الفكري ويغير في النهاية مكانه . (٣٨)

هذه الرحلة المزدوجة ، أو بالأحرى الرباعية كما يتبين من قراءة معمقة لقول ميشال بوتور يمكن أن يضاف إليها تنقلان جسدانيان : انتقال القاري ، عندما يطلع في حافلة أو قطار أو طائرة ، أي في مكان متحرك ، وانتقاله داخل وسيلة النقل عندما يغير مقعده أو ينتقل من مقصورة إلى أخرى . يظهر من ذلك أن مكان القراءة مرتبط بقوة بما يحتويه وما يمثلته الكتاب . وهذا المكان قد يصبح منطلقا لأمكنة متعددة ، فعند تنقلنا مثلا بين مقصورات قطار يسير ، ندخل من خلال صفحات كتاب أو مجلة أو دليل سياحي عددا آخر من المدن والمواقع ونجعلها تتفاعل مع ما نرى داخل القطار وما نشاهده من توافده .

والكتب تلعب دورا أساسيا في تعريفنا بالعالم أو تعريفه بنا . « فقراءة كتاب عن اليابان مثلا تحفزني على زيارتها ، ولكن مطالعة كتاب عن اليابان عندما أكون فيها تجعلني أحدد موقعي وتكشف لي أماكن لم أزرها . بينما القراءة عنها بعد العودة تسمح بتصورها من جديد . . . إن الكتاب وسيلة للتغلب على الوقت ، وعلى المسافة أيضا » . (٣٩)

وكما نقرأ الكتب والنقوش واللوحات فإن المدن والمناظر والمواقع الأثرية نقرأ أيضا ، وميشال بوتور يجب أن « يقرأ ويتذوق » كل مدينة يزورها حتى ولو بدت له

ولكن هل يعني كل ذلك بأن معنى كلمة « رحلة » قد تبدل ؟ أو أنها تنكرت لعمائها التقليدي ؟ على هذين السؤالين يجيب بوتور قائلا :

« إن معنى هذه قد توسع كثيرا عندي . لقد انطلقت من معنى ضيق أو محدد ولكنه مهم جدا لأننا يجب أن ننطلق منه كي نفهم ما تشعب عنه ، وبعد ذلك ، اعتمادا على هذه التجربة الأساسية وهذا المدلول الأساسي ، نستطيع أن نزيد أشياء عديدة في ميادين دائمة التنوع لكي نلقي عليها أضواء جديدة . ولكن يجب أن نفهم جيدا بأنه معنى تشعب منه مدلولات أخرى (٣٥) .



ثانيا - الشبكات الارتحالية

لنناقش مع بوتور هذا المفهوم الأساسي للرحلة كعملية ذهاب وإياب ونحن نلقي نظرة عابرة على مظاهرها المختلفة .

نجد على الفور بأن « تنقلات بشرية عديدة هي ذهاب دون عودة » (٣٦) فيتبادر لنا بالتالي أنه علينا القيام بدراسة أعمق . وذلك ما يدعو الكاتب لاقتراح علم جديد يضاف إلى سائر العلوم : « الارتحالية أو علم تنقلات البشر » (٣٧)

ولكن قبل أن ننطلق في مختلف الدروس المتفرعة عن المعنى الأساسي للكلمة ، لنعد قليلا إلى العلاقة الوثيقة التي تربط ما بين الرحلة من جهة والقراءة والكتابة من جهة أخرى . أو كما يعرف بوتور هاتين الأخيرتين : « معرفتنا بالواقع وتأثيرنا فيه » .

(٣٥) هذا ما صرح به الكاتب في مقابلة أجريتها معه في منزله في مدينة نيس ١٣ آب/ أغسطس ١٩٨٣ .

(٣٦)

(٣٧) نفس المصدر ، ص ١٢

(٣٨) نفس المصدر والصفحة

(٣٩)

والسريرة المنجحة لا تقتصر فقط على « مواد الأحلام » ، بل تنطلق طائفة من أغلب كتب بوتور ، فنرى بطل « التعديل » يقوم « بصيد روحي » ونجد أحمد في « مرور الخطاف » يضع يديه السمراوين على الطاولة ويتوه في بحيرات وصحارى وتضاريس رسمها البخاري في سقف غرفته » . (٤٢)

ج - الرحلة ككتابتة : إذا كان « النص الضخم والغريب » الذي تشكله مدينة أو موقع أثرى يتطلب من الرحالة نفاذ بصيرة وموهبة في الفهم والتألف معه ، فهو ينتظر بالأحرى أن « يترجم » إلى لغة أخرى ، لغة الكاتب ، وأن تعاد صياغته بلغة الأدب .

هذه الترجمة للمدمن - النصوص يقوم بها بوتور وأبطاله بوسائل متنوعة فهو يكتب عن مكان « في مكان آخر ولأجل أماكن أخرى » .

والكتابة عنده تنطلق من الملموس والمعاش والمقروء لكي تؤدي مهمة التأثير على العالم واللغة والانسان .

« لقد أيقنت ، نعم ، لقد أيقنت بأن مصير العالم يرتبط ، بنسبة زهيدة طبعاً ، ولكنه يرتبط بما أكتب ، وعندما أكون في أعماق منفي كتابتي ، فإنني ، أعترف بذلك ، ما زلت أوقن بهذا الارتباط » . (٤٤)

إن الكاتب يحكم على نفسه بالنفي ويهاجر في أقطار كتابته المجهولة لكي يسهم في تحسين مستقبل العالم ، ولكن الكتابة تبدو أحياناً أخرى وكأنها الوسيلة الوحيدة للهروب من وضع مكبل أو من مكان خائق ، وهي

أحياناً « كنص غريب » يجد صعوبة في التعامل والتألف معه . وبالنسبة له فإن الرحلة هي قراءة وتعلم واكتساب أشياء جديدة ينقلها لقرائه ، يعلمها لهم بوساطة الكتابة .

ب - السريرة المنجحة القراءة هي إحدى وسائل معرفة الواقع . ولكن هذا الواقع لا يشمل فقط كائنات وأشياء موجودة أو معروفة في الحاضر أو الماضي ، بل أيضاً ما هو فينا ، في داخل كل منا : مشاعر وأحاسيس ونزوات وانفعالات ... وخيال وأحلام .

وفي أكثر من مكان نرى بوتور يشدد على أنه « لا يمكن وجود واقعية حقيقية إذا لم نعتبر أن الخيال جزء من الواقع وأننا نرى حيزاً كبيراً من المواقع من خلاله » . (٤٥) وهو يؤكد من جهة أخرى بأن « الحلم هو عنصر أساسي من المواقع الشمولي ، من العالم في إطاره الكامل الذي لا تشكل المشاهد التي تراها أعيننا سوى جزء ، سوى برعم منه . » (٤٦)

هكذا نرى الكاتب يقب في سلسلة « مادة الأحلام » وبوساطة تعاقب - أو تشابك - من قراءات استكشافية ومن أحلام متقلبة ، عن مظاهر وعناصر وأماكن تتراوح ما بين نقطة دم بشرية وبين « كوينسي أي مدينة السماء » .

إن الحلم يشكل جزءاً لا يتجزأ من وجودنا ، من معرفتنا للواقع وتأثيرنا فيه ، وهو يتيح لنا زيارة بقاع قريبة أو بعيدة ، ويبيء مع الخيال « رحلة في تناول الجميع : الرحلة الساكنة » (٤٧)

Repertoire II, p. 299

Troisième dessous, p. 247

Raymond Christinger, Le Voyage dans l'imaginaire, p. 276

Passage de Milan, p. 70

Intervalle, p. 157.

(٤٠)

(٤١)

(٤٢)

(٤٣)

(٤٤)

« ينشأ معول الباحثين » الذين يأتي بوتور في طليعتهم .

هذا الكاتب يقدم نفسه أكثر من مرة على أنه « مسوق للثقافة الفرنسية »^(٤٦)، ولكن أعماله تظهر لنا بوضوح أنه يتجول بين ثقافات أخرى ، عديدة ومتنوعة ، ويأته بنشد الاطلاع عليها جميعا وقراءة كل منها داخل ، ومع ، ولأجل الأخريات ، ثم التوصل لدمجها جميعا في ثقافة شاملة يستطيع كل الناس قراءتها والتفاعل معها . و « تقديمها بعد ذلك لكل الاخوة السارقين »^(٤٧) سارقي المعرفة ومرمجي هذه الطريقة الجديدة في القراءة والكتابة ، ولكنه لا ينسى أن يذكر هؤلاء بأن « التعديل الذي يحصل في قراءة نص هو تنقل داخل العالم وتفاعل لأجزاء العالم فيما بينها ، وذلك ما يعطي رؤية جديدة عنه ورؤية جديدة عن الكتاب والقارئ ويبيء بالتالي لفعل جديد . هذا الفعل قد يكون ضعيفا جدا في البداية ، وكثيرون يودون رؤية النتيجة المباشرة لما يقومون به . إنما ليس ذلك بالأمر الأساسي »^(٤٨)

هـ - الرحلة ومفهوم الذهاب والاياب : حركة توجهها صفحات كتاب أو ألوان لوحة أو نقوش جدار ، انطلاق في متاهات حلم أو شروع في كتابة نص ، تبقى الرحلة قبل ذلك كله انتقالا جسديا من مكان لآخر ، ولكنه انتقال عمد تقليديا كما سبق وذكرنا بعملية ذهاب وإياب . وهنا يرى بوتور بأن هذا المفهوم قاصر عن تعريف الرحلة ويقترح إيجاد علم جديد - علم الرحلات Iterologie يقوم بدراسة هذا المجال بطريقة أكثر منهجية . وهويضع في مقاله « الرحلة والكتابة » الأسس المبدئية لهذا العلم .

تشكل في أحيان كثيرة طريق الخلاص التي تنقذ الكاتب - الرحالة من متاهات عديدة .

وامتلاك لغة خاصة للتخاطب هو الوسيلة الضرورية للاستكشاف وللبلد بإعادة تنظيم الواقع . وهذا العمود الفقري ينمو ويصلب خلال عملية الاستكشاف التي تتعمق بدورها كلما اغتنت اللغة وتطورت .

كم من سعادة ومعرفة نبلغها إذا ما توصلنا ذات يوم لامتلاك « كامل امبراطورية اللغة » ، للعودة بالأحرى إلى تلك اللجنة المفقودة ، إلى بابل حيث كل الناس يتفاهمون ببسر وسهولة ، عندها « يستطيع كل منا أن يتنزه داخل هذه الامبراطورية المضنية ، وعندما تنصر امبراطورية الكلمات مضنية فإن الحقيقة كلها تصبح مضنية ، والتاريخ كله يصبح مضنيا ، وعندها فقط نعرف ماذا نريد »^(٤٩)

يجب أن يتولد عن كل كتابة تكشف وجهها أو مظهرها للواقع دون أن تنسخ هذا الواقع . والكتابة ، بما هي من فعل واستكشاف ، عليها أن تهتم ليس فقط بالواقع بل بما ينقصه ، بما يرغب به . والفعل هنا هو إعطاء رؤية أو أكثر لعالم شاسع ومتحرك ، لا حدود للبحث والتتقيب فيه ، يأتي خلاله كل رحالة ، كل كاتب ، بعناصر جديدة يجمعها من مشاعره وآرائه وثقافته وتقلاته ويعرضها في لغة هي في نفس الوقت خاصة وعامة ، مفردة وجماعية .

د - مروج الثقافات الرحلة هي قراءة وكتابة ، ولكنها بالإضافة إلى ذلك استكشاف للوضع والمشاكل والقضايا المعاصرة من جهة ، وللكنوز الثقافية والتاريخية التي

Georges Charbonnier, Entretiens, p. 27

Jean-Marie le Sidaner, Michel Butor, voyageur à la roue, p. 59

Le Matin. op. cit.

(٤٥)

(٤٦)

(٤٧) نفس المصدر ، ص ٦١

(٤٨)

لوسيان ، تاه بين بساتين الشمال حيث كان الأغنياء يتسلون بتقليم شجيراتهم ، تاه في حدائق المدينة المزدهرة بجمهور صاحب ، ووصل تائها إلى حديقتي الشمال الملبئين بالنيام » . (٥٢)

البعض يحن إلى التشرد ، ولكن الآخر يعيشه قسرا ، تلك حال شعوب عديدة تنتقل مطاردة أو مفتشة عن الماء والكلا والطرائد ، وتلك مثلا حال بدائيي أستراليا في « السهم المرتد » Boomerang والهندو الحمر في « أي مكان » و « المتحرك » Mobile وتلك إلى حد ما حال ميشال بوتور ذاته ، الدائم التشرد ، أو كما يعرف نفسه « اللايهودي الثالث » ، أي العابر دائما دون التفتيش عن أرض موعودة ، العابر مفتشا عن عالم أفضل .



١ - تنقلات ذات حد معين واحد

قد يتوقف البدو بسبب عائق طبيعي أو سياسي ، أو « قد يغدو نسيجهم الثقافي متينا وقويا للدرجة تجعل من الضروري الحفاظ على بعض المعالم وصيانة القبور بشكل أفضل . عندها يحصل الاستقرار : بعد التشرد الطويل تنوقف المسيرة في مكان ما » (٥٣) .

هذا المجتمع المستقر والمتمدن يوقف بداوته جغرافيا ويشيد البيوت والأسوار ويرسم حدودا لمطقتة ، ولكن الكثيرين من أفرادهم يتمنون ويحاولون أن يعبروا الحدود . ومع علمنا بأن الابتعاد عن الأسوار أو تجاوز الحدود كان خلال أزمان طويلة مغامرة ومخاطرة كبرى ، فذلك لا ينفي أن أو ليس وإينياس والسندباد كانوا وما يزالون نماذج نجحوا ونحلم بتقليدها .

انطلاقا من هذا المقال (٤٩) ، سنحاول أن نعرض المظاهر المتنوعة للرحلة كانتقال جسدي في مسافة ما ، وأن نتوسع فيها ونزيد عليها بعض الاقتراحات .

نستطيع تمييز أربعة أنواع من الرحلات :

١ - تنقلات غير محددة الانطلاق والوصول : التشرد والبدواة .

« لا يأتون من مكان محدد ، ولا يقصدون مكانا محدد » (٥٠) تلك هي حال الشعوب الدائمة الارتحال بحثا عن حيوانات تصطادها أو عن مراعي ماشيتها . من الصحيح أن بعض الأمكنة التي تمر بها هذه الشعوب تأخذ نوعا من الألفة أو حتى من القدسية ، ولكن ذلك لا يغير من وضعها العام . وقد يضع الموت حدا لمسيرة بعض الأشخاص الذين يدفنون في المكان الذي قضا فيه ، دون أن يوقف لك بدواة القبيلة .

والبدواة مرحلة بها كل الحضارات وكل الشعوب ، وما زالت تشكل إحدى الأساطير التي نحفظ بها في تفكيرنا ونحاول إحياءها في كثير من تصرفاتنا ، « هذا ما يجعل كلا منا يشعر في قرارة نفسه بحنين إلى التشرد » (٥١) وما يجعل « مجتمعاتنا تحلم ببداوة جديدة » وأغلب أفرادها يحلمون بحالة عبور متواصلة .

هذا الحنين للتشرد ، هذه الرغبة في الذهاب إلى مكان غير محدد يظهران كما قلنا من خلال بعض تصرفاتنا وخاصة في أوقات القلق والارهاق . يمثل هذه الحالة بطل قصة « استعمال الوقت » L'Emploï du temps الذي « تاه محروما حتى من صحبة صديقه

Repertoire IV, p. 9-33

(٤٩)

Resistances, p. 117

(٥٠) نفس المصدر ، ص ١٤

L'Emploï du temps, p. 128

(٥١)

Repertoire IV, p. 15

(٥٢)

(٥٣)

ترسم بوضوح من أول قصة كتبها ميشال بوتور^(٥٧).

يسترد الوطن السليب ويعود المخرج أو المنفي إلى بيته بعد غياب قسرى عاش خلاله غربة وحنينا . وهذه العودة قد لا تيسر إلا للأولاد أو الأحفاد ، « للجيل الثالث الذي يعيد برجوعه إلى وطنه الأصلي وصل تلك الروابط التي قطعت أو وهنت . عندها يرشح في تاريخ أجداده »^(٥٨)



تنقلات ذات حدين معينين

هنا تكون نقطتنا الانطلاق والوصول محددين « نترك مكانا محددًا قاصدين مكانا هو الآخر محدد »^(٥٩) . ونقطة الوصول هذه لها في الغالب جاذبية معينة ، فهي مرغوبة وغتارة بناء لخصائص تمتاز بها .

أ - تغيير السكن الشخص الذي ينتقل من منزل لآخر يكون قد زار المنزل الجديد وتعرف إليه وتفحصه « لقد اختاره وقرر أن ينقل إليه كل أثاثه ، متخليًا ببلادته عن منزله القديم »^(٦٠) وهذا الانتقال يتم في الغالب داخل مدينة واحدة أو بلد واحد .

وتغير المسكن هو انتقال ذو فترة قصيرة . إنما خلال هذه الفترة « مظاهر عديدة للأشياء نائمة ومنسية منذ زمن طويل تستيقظ فجأة : وزنها ، حجمها ، قابليتها للكسر ، تنظيمها الداخلي ، طريقة نقلها » . والمظهر الأكثر إثارة للدهشة في هذه الأشياء هو بداوتها التي تخفيها وجهة الاستعمال الوحيدة التي اعتدنا عليها ، الاستعمال الثابت .

وهي عكس الاستقرار تماما : « فقد يحصل أن يطرد شعب مستقر من أرضه على أثر غزو أو كارثة طبيعية . يجعل أفراد هذا الشعب معهم ما يستطيعون من ممتلكاتهم ويرحلون مع بقية أمل بالعودة إلى ديارهم هنا يبدأ حينئذ قوى بالنمو . ولكنهم يفتشون عن استقرار آخر »^(٤٤)

نجد مثالا على ذلك في كتب بوتور بعض قبائل الهنود الحمر التي كانت قد وصلت إلى مرحلة التمدين والتي اقتلعها المهاجرون الأوروبيون من أماكنها وأجبروها على الارتداد غربا . بعد ذلك تجد خروج هذه القبائل ولكن من بقي منها مازال يحفظ حتى اليوم بنحاسة وبأعياده القديمة .

« طالما إن امكانية العودة لم تنعدم ، وطالما أن اللغة المفقودة مازالت تعول في مكان ما ، فذلك هو النفي . وهو ، مع كل عذابة وآلامه ، أحد الظروف المثل للابداع الشعري : صيانة تلك اللغة وتجديدها وترطيبها »^(٥٥) .

النفي الذي يمكن أن يعيشه شعب أو مجموعة أو فرد ، شيء إذن ، بالرغم من كل الحنين الذي يولده في النفس - وقد يكون بسبب هذا الحنين الذي يعذب المنفي - وضعًا تكون فيه في مكانين معا وفي زمنين أيضا ، ويجعلنا « ننقل من عمق تاريخي إلى عمق آخر »^(٥٦) مولدا بالتالي لغة جديدة وإنسانا جديدا .

« إن فكرة المنفي الذي يفتش عن الهته الخاصة

(٥٤) نفس المصدر ، ص ١٦

(٥٥) نفس المصدر ، ص ١٧

(٥٦)

(٥٧)

(٥٨)

(٥٩) نفس المصدر ، ص ١٦

(٦٠)

Repertoire III, p. 64

Jennifer Watteï-Walters, Colloque de Cerisy: Butor, p. 59

Repertoire IV, p. 19

Resistances, p. 116

ب - الهجرة : مكان المغادرة حدد ونعرف تماماً إلى أين نذهب ، ولكننا لا نعلم بعد أين سنسكن بالتحديد . « لقد تلالاً أفق بعيد أمام عيني المهاجر ببريق الدورادو »^(٦١) فحزم أمتعته وسلك طريقه .

« ومعنى أن هاجر الإنسان أنه طرد ، بقسوة أو بلطف ، أي أن البلد الذي افترضه وطنه قد نحل عنه إلى حد ما ، ومهما بلغ الخنين إليه ، فلن يستطيع المهاجر إيجاداً كاملاً . إنه يرغب باكتشاف وطن آخر ، يرغب أن يكون وطنه الأصلي هذا الوطن الآخر »^(٦٢)

وطن لا يسترد كلية ، ولا يفقد تماماً ، والمزحل القديم يسكن الفكر والقلب ، يشحن الشعور بالنفي ويغذي الخنين .



تنقلات ذات حد مزدوج

نسافر ونكون قد قررنا مسبقاً العودة إلى الديار بعد مسيرة محددة تقريباً . « نقطة الوصول تتطابق هنا مع نقطة الانطلاق »^(٦٣)

أ - رحلة العمل وهي النموذج التسام للرحلة المستقيمة ، أي « تلك التي يتطابق فيها الاياب مع الذهاب » خلال هذه الرحلة لا يتم المسافر بالطريق الذي يسلكه وبما يقع على جانبيه ، لأن المهم هو العمل الذي يسافر من أجله والقضايا التي يبني إنجازها . تلك مثلاً كانت حال ليون دلون ، بطل قصة التعديل ، قبل لقاءه مع سيسيل التي أعطت لطريقه معنى وجعلته يربط بين حبه لها ، بين صورتها وذكرائها ، وبين كثير من المناظر والمعالم . قبل ذلك كان يمضي ساعات

رحلاته الدائمة بين باريس وروما متصفحاً كتاباً أو غططاً لما يجب أن يقوم به من عمل أو نائماً ، دون أن يعير أذن اهتمام للمناطق أو المناظر التي يجتازها القطار . وحتى وجوده في روما كان مقتصرًا على تنقلات رتيبة بين محطة القطار والفندق والشركة التي هو وكيلها في باريس .^(٦٤)

ب - السياحة من الممكن أحياناً أن تتحول رحلة العمل إلى نوع من العطلة فقد يستغل المسافر المناسبة لكي « يهرب » من عمله الأصلي ويعيش لحظات هجرة أو تشرذ أو قراءة للطبيعة والآثار .

ولكننا كثيراً ما نترك دارنا بهدف محدد ، هو السياحة ، نكثر من المحطات في طريقنا لكي نستمتع بسحر أكثر من منطقة . وقد تغير الطريق خلال العودة ليتسنى لنا رؤية عدد أكبر من الأماكن . خلال رحلة كهذه الأخيرة - التي نستطيع تسميتها « دائرية » - نزيد عدد نقاط الانطلاق ونقاط الوصول ونتجول بينها مستعينين ببعض المعالم »^(٦٥)

بعد العودة من سياحة ما ، يبدأ كل مكان قام السائح بزيارته يشغل مكان معين من قلبه ، ويبدأ السائح بالتعلق بكثير من الأماكن للدرجة أن يتولد لديه حينئذ متعدد لمناطق أقام فيها ولو لمدة قصيرة .

إنما ليس كل مكان قادراً على إعطاء المعلومات وتقديم الغذاء النفسي اللذين يجمع بهما السائح . عندها نجد نفسك في غربة مزعجة لا تجني منها سوى بعض المشاهدات والمعلومات عن عادات وتقاليده مختلفة عما في بلدك .

(٦١) نفس المصدر ، ص ١١٤

(٦٢)

(٦٣)

(٦٤)

(٦٥) نفس المصدر ، ص ١٨

و « كلام اللهجة التاريخية » يقودنا إلى ما يمكن تسميته باللهجة المكائنة ونعني بها التقلبات أو التمرجات التي نلاحظها في منظر ما خلال مشاهدة واحدة . وهذه اللهجة المكائنة « ليست غائبة عن أعمالابوتور الذي يرى في لوحات هوكوسي جبل فوجي « دعوة لرحلة يعرض الجبل المقدس في كل محطة منها شيئا جديدا وخطفا »^(٧٠)

أما الأماكن التي تتكلم ، فقد تكون مدنا أو مواقع أثرية ولكنها قد تكون أيضا مناطق موسيقية أو فنية أو أدبية . ومن هذا المفهوم الأخير أطلق بوتر على نفسه اسم « الحاج الأدبي المشغوف » *Lepelerin litteraire* و *passionné* وينظر الحاج فإن المكان الذي يزوره يجبره عن تاريخه وعن العلاقات التي يقيمها مع باقي العالم ويجعله يعيش حالة من التواصل التاريخي والجغرافي .

« عندما أقول عن منظر بأنه شاعري ، فذلك يعني أنني أجد نفسي محمولا به . وهذه البيوت التي أراها ، أو هذه الأمواج التي أعجوزها ، تجبرني هي على تركها ، تعرض أمامي كل أنواع الشواطئ الأخرى . يجتوي هذا المكان على عدد لا يحصى من الأماكن الأخرى ، ولا يبقى كما هو ، لا يقفل على ذاته ، بل يصبح مركز انطلاق في رحلة . كما أن وصفه يضحى هو الآخر أساسا لرحلة طويلة في التاريخ والفكر »^(٧١)

هـ - الاستكشاف : غرضي لاكتشاف مكان مجهول أو غير معروف جيدا ، متعززين لمجازفات ومخاطر نذهب إلى الجهة الأخرى من الأفق ، الطبيعي أو العقلي . نوسعه »^(٧٢)

جـ - الفسحة : تغادر منزلك دون أن تنوي الابتعاد عنه كثيرا . ما تشده هو التنزه أو التجوال ، أي أن تروح عن نفسك في محيط منزلك أو في شوارع مدينتك . ولكن هذا التطواف قد يتحول أحيانا إلى نوع من التشرذ أو الضياع ، كما حصل لجاك ريفل - بطل قصة « استعمال الوقت » - عندما وجد نفسه تائها في شوارع مدينته التي تحولت إلى مئاة لم يستطع إيجاد وجهته فيها ثم التخلص منها إلا بعد جهود مضنية .

د - الحج : « المعنى الأساسي لهذه الكلمة هو الرحلة إلى مكان مقدس أو زيارة قبر مقدس أو مكان ظهور عجائبي . يجلب الحاج معه تسلا ولا ويأمل بجواب عليه ، يشفاء للروح وللجسد . . . ثم أصبحت تعني زيارة الأماكن التي تتكلم ، التي تحدثنا عن تاريخنا وعن أنفسنا »^(٧٣)

الحج يقتضي إذن ذهابا وعودة . وسواء زرنا « وصلة بين السماء والأرض كما هي حال مكة والقدس وروما »^(٧٤) أو بين ماضينا وحاضرنا أو بين حضارات مختلفة ، فإننا ننوي منذ الانطلاق العودة بعد أن نكون قد تشبعنا بتأثير المكان المنشود .

إن المعنى الشائع لهذه الكلمة « رحلة فردانية أو جماعية إلى مكان مقدس لأسباب دينية وبنية التقوى »^(٧٥) توسع كثيرا عند بوتر كما رأينا ، وأصبحت تشمل زيارة كل مكان يتكلم ، « كل مكان يأتينا بأقوال لرحلة تاريخية أساسية تتميز من بين عصور أكثر غموضا وأشد ظلاما »^(٧٦)

(٦٦) نفس المصدر ، ص ١٩

(٦٧)

(٦٨)

(٦٩)

(٧٠)

(٧١)

(٧٢)

Repertoire III, p. 29

Selon le Robert, dictionnaire de la langue française, volume V

Repertoire IV, p. 19

Repertoire III, p. 164

Repertoire II, p. 9

Repertoire IV, p. 20

الرحلات العمودية : الانتقال في المكان ملازم دائما لانتقال في الزمان ، وكل زيارة لكان ما نصب في تعرف على ماضيه وتفهم لحاضره واستشفاف لمستقبله . يضاف الى هذه الأبعاد الثلاثة نسج شبكات عديدة من الاتصال بين هذا المكان وأماكن أخرى قريبة أو بعيدة من الناحيتين ، الجغرافية والتاريخية .

وعملية استكشاف مكان ما تضيف بعدا آخر هو « بعد العمق » ، إذ أن الرحلة يسعى للتغلب عن أكبر عدد من طبقات هذا المكان ، فيهيئ فيه أو يصعد واسعا أو متابعا طرقا مروحية أو سلمية أو لولبية .

أ - الرحلات الارتقائية : يتميز هذا النمط بتوسع تدريجي للأفق أو لأسلوب البحث . من نقطة الوصول نعيد تحديد نقطة الانطلاق » . (٧٧)

وتوسيع الأفق يتأتى عن دراسة كل مكونات المكان المقصود ، أو حسب قول بونور عن « استنطاق هذه الهضاب المختلفة والمسكونة ، استنطاق التضاريس والحيوانات والطيور ، تفصيل المكان ومحيطه » ، (٧٨) ثم اعطاء عدة « نظرات » عنه والتوصل أخيرا « لفتحته ثقافيا على كل ما هو غريب عنه ، خارجه أو حتى داخل حدوده » . (٧٩)

ولكن هذا الاتجاه الارتقائي يجب أن يرافق باتجاه معاكس : الغوص الى الأسفل .

ب - الرحلات المبطية : وفيها يضيق الأفق تدريجيا وبصورة مؤقتة لكون الرحلة يمر في مها وكهوف قبل أن

وسواء كانت تهدف لاكتشاف مناطق مجهولة من عالمنا أو تاريخنا أو جسدنا أو بعض كواكب الكون الأخرى ، فإن كل أشكال الاستكشاف تسحر بونور الذي لا يكف عن الكلام عنها في مجمل أعماله أملا أن تتوصل مدن أخرى مثل روما لاكتشاف بلاد جديدة مثل أميركا وأن يكون هو أحد رواد العصور القادمة .

فالرواد ليسوا بالضرورة من يسعون لاكتشاف مناطق طبيعية فقط ، بل هناك من ينقب في مجالات قريبة ، « من يرى بلدانا مجهولة تظهر من بين غبار العصور الغابرة » (٧٣) ومن يقوم « ببعثات نحو مطالعات لم تعرف بعد » (٧٤) و « من يخرون محيطات الأعمار » (٧٥) ومن يبتعدون « نيلًا من الحان لا تنضب » (٧٦) .

ولكن هذه الجولات والبعثات التي تتكلم أحيانا عن جيمس كوك أو عن كريستوفر كولومبوس وماجلاان ورواد آخرين في مناطق جغرافية أو فكرية ، تصبح أحيانا متواضعة لدرجة أنها لا تهدف الا التفتيش عن غرفة للسكن (استعمال الوقت) ، زيارة حي من مدينة معروفة (التعديل) ، الغوص في عيني حبيب (وصف الفنان كفرد في : l'artiste en jeune singe por- trait de أو تأمل ملامح وجهه لاستطلاع تعابيريه استعمال الوقت) .

في كل مكان وداخل كل انسان هناك مناطق مجهولة لا تحصى . والاستكشاف لا ينتهي .



Repretoire III, p. 22

(٧٣)

Ibidem, p. 219

(٧٤)

Matiere de rêves, p. 131

(٧٥)

Second sous-sol, p. 25

(٧٦)

Repertoire IV, p. 24

(٧٧)

Ou, p. 30

(٧٨)

Andre Helbo, Michel Butor, vers une littérature du signe, p. 14

(٧٩)

تتكلم عنها ، الأفلام التي تعرضها ، الذكريات التي احتفظ بها ، والنقص التي تجعلني أتعرف عليها .^(٨٢)

نعيش إذن في مدتنا نوعاً من تعددية المكان ، ولكن ذلك ما يحدث أيضاً ، ولعل نطاق أضيق ، في منازلنا وفي غرفتنا الخاصة من خلال التلفزيون والمذياع والمطالعات .

ولكن هذه التعددية ما زالت جزئية وغير كافية . ويبقى علينا اجتياز مسافة طويلة للوصول الى تلاقٍ أعمق وأشمل . وما نشاهده أمامنا عن الغير يغزنا على الانطلاق والتعرف عن قرب . ما نراه هو أصوات تنادينا وتدعونا الى الزيارة والاكتشاف والتلاقي .



لقد حاول بوتور ، كما رأينا ، أن يبين « كثرة مظاهر هذه الحركة الاسمية للجنس البشري ، التي يقع بداخلها الاستقرار الذي نعرفه »^(٨٣) حاول ولم يزل لكونه مقتنعاً بأن الحركة معادلة للفعل ، للتطور ، للحياة ، فالتوقف عنها يعني الموت ، و « الانسان رحالة بجوهره ، بطبعه . وقبوله بالرحلة هو قبول لقدره . . أما امتناعه عن سلوك الطريق فانه يعني الاستسلام لأن الجمود لا يحمل أي مظهر إيجابي » .^(٨٤)

ولقد وضع هذا الكاتب أسساً « للرحلات » كعلم جديد دون أن ينفني رغبته في رؤية كثيرين غيره يمتنون هذه الأسس ويرفعون فوقها البناء .

إنها بذور تنتظر جهد العاملين ومعاول المتفبين وبعثات المستكشفين .



يصعد مرة أخرى ويبلغ الجهة المقابلة من الأفق . « هي إذن عملية ارتقاء معكوسة وعاكسة تحدد فيها نقطة الوصول نقطة الانطلاق بعد أن تحدث فيها انقلاباً ، بعد أن نجبرها على الاعتراف » .^(٨٥)

أما المهاوي والكهوف فهي الشقوق والسرديات التي تفتح أمام أبطال « استعمال الوقت » و « التعديل » و « وصف الفنان كقرود شاب » ، وهي عمليات البحث والتفتيق و « الصيد الروحي » التي يقومون بها ، وهي النباتات والحيوانات والمعادن التي نجدها بكثرة وتنوع في أغلب كتب بوتور .



تعددية المكان : يعبر ميشال بوتور في إحدى مقابلاته عن رغبته الشديدة في « تكاثر المكان ، في تخليص المكان من نواقصه » . ثم يضيف : « لقد غنيت دائماً أن أكون في مكان آخر ، في مكانين في آن واحد ، أتمنى أن أكون في كل الأماكن في نفس الوقت » .^(٨٦)

هذه الرغبة التي تبدو طوباوية للرحلة الأولى تحققت الى حد ما . فالتقدم العلمي والتقني ووسائل الاعلام والاتصال فتحت نوعاً ما المسافة التي نعيش فيها وأدخلت اليها عدداً كبيراً من أماكن أخرى بعيدة وقريبة . فلقد غدا اليوم كل مكان مركزاً لأماكن عديدة ونقطة تقاطع لكثير من الدروب التي تمر في مناطق أخرى .

« يوجد في مدينتي كثير من المدن الأخرى تدخلها بوسائل متنوعة : لوحات الاعلانات ، كتب الجغرافيا ، الأشياء التي تستورد منها ، الجرائد التي

Repertoire IV, p. 24

J.M. Le Sidaner, op. cit. p. 68

Repertoire II, p. 49

Le Matin, 17 avril 1979

Raymond Christinger, op. cit. p. 93

(٨٥)

(٨٦)

(٨٧)

(٨٨)

(٨٩)

من ملتقى الحضارات الى الولادة الثانية

لقد هربت .

كان عليّ أن أهرب .

في كل لحظة أمضيها هنا .

يقول في المنظر : كان عليك أن تهرب »

« في أي مكان » ص ٣٨٥ .

١ - الهروب : تعرفنا كتب ميشال بوتور على مناطق جغرافية متباعدة ومتنوعة . وبين هذه المناطق الطبيعية يتحرك الكاتب أو أبطاله مدفوعين بعوامل عديدة وآملين الوصول إلى أهداف مختلفة ، ولكنهم . في كل رحلة يقومون بها ، يبحسون المكان الذي يزورونه لسلسلة من الأبحاث والدراسات تنتهي بكشف كثير من خواصه ومن علاقاته بالأماكن الأخرى .

هذه الرحلة المتواصلة التي شكلت باريس نقطة انطلاقها الأولى وما زالت تشكل عصبها الأساسية ، تعاضمت وتشعبت لكي تبلغ كولومبيا البريطانية والبرازيل واليابان وسنغافورة والبيرو وأستراليا ، وما فتئت تتوسع وأعدة بلدان ومناطق جديدة .

وإذا ما تتبعنا هذه الرحلة من بدايتها نجد بأن أبطال بوتور هم الذين بدأوها ، بمعنى أن القصص الثلاث الأولى^(٨٥) تعرض شخصيات مختلفة أدركت أنها تعيش في محيط خائف فانطلقت تدرس محيطها وتحاول تبين مشاكله وخلفياته ومعرفة القوانين التي تتحكم بحياتها ، ثم تخرج من هذا الإطار الضيق لكي تتابع البحث في البلدان القريبة منها جغرافيا وتاريخيا وثقافيا .

بدأ بوتور كتابة قصته الأولى في مصر حيث كان يدرس اللغة الفرنسية في مدرسة المنيا خلال العام

الدراسي ١٩٥١-١٩٥٢ . ولقد تحدث عن ذلك أكثر من مرة فيما بعد فقال :

« عشت بعيدا عن باريس للمرة الأولى في حياتي ، وهناك شعرت بضرورة تشكيل نوع من نموذج مصغر لباريس . كنت بحاجة لإعادة تشكيل ما كانت عليه حياتي في باريس » .^(٨٦)

وأعادة التشكيل هذه تتم من خلال بناء سكنية تؤخذ « كعينة عن مجمل المدينة » هذه العينة تبذل كمجموعة طبقات يعيش ساكنوها دوما اتصال فيما بينهم ودون أن يعرف بعضهم البعض الآخر الا لماما ، لدرجة أنه عندما يتكلم أفراد عائلة ما عن باقي الجيران يشيرون اليهم برقم الطبقة فيقولون مثلا « سكان الثالث » أو الخامس ، الخ . وحتى أفراد العائلة الواحدة يعيشون متباعدين يفرق كل منهم في عالمه الخاص ، فساكن الطبقة الأولى « الهادئون والبسطاء ، كما يبدو ، والذين يعيشون في تفاهم تام ، كما يبدو ، ليسوا في الحقيقة سوى أربعة مستوحدين يزورون بعضهم أحيانا ويلتقون حول مائدة الطعام فقط »^(٨٧)

في هذا المحيط الراكذ يفقد التخابط دوره ومضمونه ويصبح الحوار الذي يدور من حين لآخر عبارة عن كلمات جوفاء لا تواصل بينها ولا قيمة لها ، مما يجعل ساكن هذا المكان الضيق « يتلاقون ، يتبادلون التحية ، يتجنب بعضهم البعض الآخر ، لا يدورون ماذا يقولون ، يدخل كل منهم منزله ، يتناول طعامه وينام بينما كل شيء يتحرك من حوله » .^(٨٨)

هذه العزلة والانطوائية تجعل الحياة رتيبة وعملة ، لا بل انها تحول كل غرفة الى « جحر » وتجعل أغلب

Passage de Milan (1954), L'Emploi du temps (1956), La Modification (1957)

Magazine litteraire, no. 110, mars 1976 (consacre a Butor)

Georges Charbonnier. Entretiens. p. 50

Passage de Milan, p. 44

(٨٥)

(٨٦)

(٨٧)

(٨٨)

عندها نسمع في القصة صوت قطار يمر وكأنه يعلن من جهته بأنه البديل للمترو . على السكان الخروج من تحت الأرض ، عليهم التعرف على العالم .

ونسجل في نفس الوقت مرور طائر الخطاف من فوق المبنى ليعطي الوجه الآخر للإنذار : من لا يستجيب للنداء مصيره الشلل والموت .^(٩١)

لقد سبق لبعض السكان أن غادروا المبنى وزاروا بلادا بعيدة حملوا منها لدى عودتهم بعض التحف أو الأشياء التي تجعلهم مختلفين عن جيرانهم ، فعند ساكن الطبقة الوسطى « غرفة واسعة فيها خزائن كتب وخزانتان أخريان مليتان بأقمشة قبطية وبورق البردي ، وفوقها لوحتان لرسم من القرن السابع عشر تظهر إحداهما قطعة رائعة من الصوان تبين كيف استطاع فلاح الأقصر رغم تقنيته البدائية أن ينقش التماثيل الملكية في عهد السلالة الثامنة عشرة »^(٩٢) هكذا استطاع أحد السكان أن يفتح في منزله نوافذ على العالم من خلال الكتب واللوحات والمصنوعات المحلية لما وراء حدود المبنى . بينما نجد شخصيات أخرى تعيش حالة اغترابية داخل هذا البناء ، يشدهم حنين قوي إلى وطن يملكون بالعودة إليه ، وطن جميل ، مشمس ودافئ .

أهم هذه الشخصيات أحمد ، المصري الذي يعمل خادما في أحد المنازل والذي يسميه بعض السكان « علاء الدين » . أنه إذن من يحمل الغانوس السحري الذي يفتح أبواب الشرق الساحر أمام سجناء المبنى الباريسي . ولكنه يعيش في عزلة خائفة واغترابا لينا تزيد من حدتها المقارنة المائلة دائما أمام عينيه بين عالين : عالم ضيق ، مطر ، عاصف ورطب وعالم كان

السكان إلى « حشرات تتململ » ، ويطلق تأثيرها السيء الأشياء أيضا .

« هذا الازيز الخفيف والذي يشبه صوت الخفافيش هو صوت سيارة كسولة تمر .. أياها القديسون ، أيها الملائكة ، من منكم قريب مني ليضع يده على أجفاني ، ليهديء هجوم النظرات التي يعود ظنينا ليحوم فوق جراحي .. اسهروا علينا أنتم يا من تعيشون في النور ، أنتم يا من تسافرون »^(٩٣)

هنا تنطلق الكلمة السحرية من قلب الضياع ، أن ما ينقذ من العزلة والملل والرتابة والعذاب ، أن ما يحمل النور المخلص ويفتح الطريق أمام هؤلاء السجناء ، ما هو سوى الرحلة ، السفر بعيدا .

ولكن من الطبيعي ألا تبدأ الرحلة على الفور ، فما زال الوقت مبكرا .

« في هذه القصة ، يقول بوتور ، أداة لأسلوب الحياة في مبنى باريسي في الخمسينات ينبغي أولا أن نشخص المرض .. ينبغي أن ندرس هذا المحيط قبل أن نتطرق للقيام بأعمال أخرى . »^(٩٤)

إذا كان معظم الأشخاص والأشياء يتحركون متتقلين في هذا المبنى ، فذلك لا يعني أبدا أنه ثابت ومتماثل ، إذ أن مرور المترو من آن لآخر يجعل كل ما فيه يهتز : المصابيح والصور المعلقة على الجدران والطاولات والثريات والمصعد . وكأن الكاتب يريد بذلك أن يقول : انهمضوا يا سكان هذا المبنى من سباتكم . غادروهم لتطلعوا على غيره والا فانه سينهار عليكم .

Georges Chabonnier, Entretiens, p. 80 et 81

(٩١) نفس المصدر ، ص ١٢

(٩٢)

Passage de Milan, p. 67

(٩٣) طائر الخطاف هو تليز شوم ورمز للموت عند المصريين القدماء وعند عدد من الشعوب الأخرى

(٩٤)

يساهم ببناء مستقبل تزول فيه حدود التفرقة ويكون صورة لبابل ما بعد الطوفان حيث الكل يتعاونون ويتفاهمون .

في قصته الثانية « استعمال الوقت » يصور الكاتب شاباً فرنسياً يمضي دورة تدريبية في مدينة بلستون الانكليزية ، التي هي في الواقع مدينة مانشستر . وسرعان ما نكتشف بأن هذه السنة تصبح فترة نفي وضياح وحنين ، والأهم من ذلك كله ، فترة استكشاف للمدينة وللذات في نفس الوقت .

خلال اقامته في هذه المدينة يكتشف جاك ريفل Jac-ques Revel أنه يتحرك عشوائياً داخل متاهة ثلاثية : متاهة في المكان والزمان والذاكرة . فهي متاهة مكانية من حيث تشابه شوارعها وساحاتها وحدائقها يشعر فيها وكأنه « سحيق في فخ أقفلت فتحة ، بين أنياب المنازل التي يرى صريرها ويسمع »^(٩٦) وهي متاهة زمانية لا يميز فيها ساعة من ساعة ولا لحظة من أخرى :

« أحسست وكأنني ثابت في مكاني . وكأنني لم أصل إلى هذه الساحة ، كأنني لم أقطع مسافة طويلة ، كأنني أجد نفسي ليس فقط في نفس المكان ، بل وفي نفس اللحظة التي تدوم للأبد والتي لم يكن أي شيء يعلن نهايتها »^(٩٧) .

كل ذلك يجعل الزائر المقيم يضعف في متاهة ذاكرته ، فعندما يحاول أن يستعيد فترة إقامته في هذه المدينة ، يقاسي الأمرين قبل التوصل إلى تبيين بعض منها :

« من الصعب جداً على أن أحدد في أية لحظة حصلت

وطنه وما زال يسكن قلبه ، عالم الدفء والنور والشمس والقمر والنجوم .

ولكن قصة « عمر الخطاف » تنتهي بسفر مزدوج ، أو بالأحرى بهروب شابين من سكان المبنى ، هروب يجدان نفسيهما مرغمين عليه بعد أن يشبه بقية السكان بأن أحدهما ارتكب جريمة قتل أنجيل ، أجل فتيات هذه البناية ، وهذه الفتاة كانت تتميز بجمال خاص ، مختلف ، فهي « الوحيدة الحقيقية بين تلك الهياكل العظمية المتشحة باصفرار حي مربع »^(٩٨) ، و « من المؤكد بأن هذه العذراء لها مظهر طائر عظيم يستطيع الانطلاق كالسبل عندما يريد . كما تشعر بأن جسداً آخر يجنح خلف ياضها ، جسداً داكناً ، مندفعاً يهوي الرقص البدائي » .^(٩٩)

جمال غريب كهذا لا يمكنه العيش في المبنى الباريسي لأنه يجسد الشباب والاشعاع والحيوية والمرح في عالم لا يملك الا مكشائيات ولا الحق للاستمتاع بهذه الصفات . وهذا العالم المحشو بالبياض يحتاج لكثير من الأبحاث والاكتشافات قبل أن يصبح جسداً حقيقياً ، جسداً أسمر ، خلاصياً ، تنصهر فيه حضارات وشعوب مختلفة . أما « البلد الأبيض » فهو حسب قول ميشال بوسور « كل بلد يرفض تعاليش الحضارات والشعوب » .^(١٠٠)

هنا يظهر الهدف الأساسي للرحلة في أعمال ميشال بوتور : التفتيش عن هوية حضارية مفتحة تتيج لحاملها أن يتعرف أكثر على تاريخه من خلال أضواء جديدة تكشف نقاط ووسائل التلاقي بين الشعوب ، وأن

(٩٣) نفس المصدر ، ص ١٩٣

(٩٤) نفس المصدر ، ص ١٧٠

(٩٥)

(٩٦)

(٩٧) نفس المصدر ، ص ٣٥

J. M. Le Sidaner. op. cit. p. 57

L'Emplot du temps, p. 23

إذا نظرنا ببساطة إلى هذه القصة نقول : إنها رحلة في القطار بين باريس وروما يقوم بها رجل في الخامسة والأربعين قرر أن يهجر زوجته وأولاده الثلاثة وأن ينصر عشيته الإيطالية لتعيش معه في باريس كما اتفقا على ذلك مسبقا .

ولكن دراسة متفحصة للقصة تبين بأنها أشد تعقيدا وأكثر عمقا ، فهي ليست رحلة بين امرأتين أو عائلة لاستعادة الشباب بقدر ما هي رحلة بين مدينتين وتغلا بين عهود وحضارات عديدة .

في المسافة بين باريس وروما يكشف ليون دلون - بطل القصة - شيئا فشيئا بأن تعلقه بعشيقته لم يكن إلا مظهرا من مظاهر شغفه بمدينة روما . وهذا الاكتشاف يتم بعد عملية « صيد فكري » تقوم بها « آله العقلية » من خلال رفاق الطريق والأشياء الموجودة في المقصورة والمناظر التي يشاهدها من التوافد . هذه العملية تعمق فتجعله يتذكر أو يتخيل أو يحلم ، في اللحظات التي يغلب فيها النوم ، برحلات أخرى تشابك وتتداخل لتوصله في النهاية إلى اكتشاف خبايا نفسه ودوافعه الحقيقية .

لقد كان منذ شبابه مشغوبا بروما ، « هذه المدينة التي كنت (١٠٠) تحلم بها منذ سني دراستك الثانوية ومن أولى زياراتك للمتاحف » (١٠١) وبعد تلك الفترة ازداد تعلقه بهذه المدينة وأصبح يحيطها بهالة من القدسية حتى أضحت « المدينة الأزلية » و « مركز الأصالة والجمال والحب » و « مدينة الإشعاع والشباب » .

تلك الحادثة الصغيرة التي كانت مدار أحداث عديدة بيننا . . . لدرجة أنه ، في ذاكرتي ، كل تلك الأسابيع التي يربعي عددها . . . تندغم في واحد فقط ، طويل ، سميك ، كثيف وغامض » (٩٨) .

تلك الماتاة المثلثة لم تكن وليدة جهل الزائر للمدينة ، بل هي موجودة في تكوينها وفي جوهرها . فهي « مدينة الدخان والضباب والملل ، مدينة المطر والوحول والرتابة ، مدينة الصدا واللعة » (٩٩) وهي بذلك صورة عن مدن شمال أوروبا التي يفترض الكاتب بأن معرفتها ودراستها بتعمق شرطان أساسيان قبل انطلاقه إلى بلاد أخرى تكون نقيضا لهذا المحيط الخائق .

أما الوسيلة التي يستعملها بطل القصة لفهر هذه المدينة ، قهرها بالمعرفة والاستطلاع فهي الكتابة ، وسيلة الانفاذ ورحلة الفهم والفعل . وهكذا نراه يمضي النصف الثاني من سنته التدرجية في استعادة ورواية حياته هناك . بهذه الطريقة يجد نفسه يغوص في أعماق المدينة الغامضة ، يكشف أسرارها ويتبين طريقة للخلاص والانجاء التالي الذي عليه أن يسلكه لتسابعة البحث وتعميق الاستكشاف . هذا الانجاء تشير إليه بعض الأفلام الوثائقية التي كان يداوم على مشاهدتها في إحدى دور السينما والتي كانت تعرض مدنا ومواقع أثرية في بقاع مختلفة من العالم . المحطة التالية يجب أن تكون روما .

مدينة روما هي البطل الأساسي للقصة الثالثة - وهي القصة الأكثر شهرة في أعمال ميشال بوتور - « التعديل La Modification » .

(٩٨) نفس المصدر ، ص ٣٧ - ٣٨

(٩٩) نفس المصدر ، ص ١١٣

(١٠٠) تسجيل هنا بأن أحد مظاهر التجديد في هذه القصة - التي تنتمي هي وتسمى بوتور الأخرى إلى تيار « اللغة الحفينة » "Le Nouveau roman" هو استعمال الرواية فيها لعصير المخاطب للكلم من نفسه وكذلك يقوم بمحاكاة تأدية بطلاني أن يتوصل من خلالها إلى الإحاطة بطريقة مشاهرة والتكرار وتصرّفه .

La Modification, p. 228

(١٠١)

وكثير غيرها . وهكذا استطاع بوتور الرحالة أن يعود إلى مسقط رأسه بعد دورة مر خلالها في انكلترا وإيطاليا . وهو يتكلم عن هذه العملية فيقول :

في قصة التعديل مدينتان ، ولكن المرور في بلستون هو الذي أتاح لي أن أتكلم عن باريس مجددا ، يضاف إلى ذلك المرور في هذه المدينة الأخرى - روما - الذي سمح لي ، بعملية معقدة جدا ، أن أضاع باريس في جيبتي ، وهكذا استطعت تجاوز التناقض بين أن أكون في مكان أو أن لا أكون فيه ^(١٠٤) .

إذا كانت القصتان الأوليان قد شددتا على ضرورة السفر بعيدا ، فإن قصة التعديل تلمد الطريقة الواجب اعتمادها في المكان المقصود .

هذه الطريقة تقضي بدراسة المكان جيدا ، باستكشافه أفقيا وعموديا ، بإظهار خواصه وخصائصه من خلال كل شارع وأثر وموقع ، وإيجاد « الممرات القوية » التي توصل إلى أماكن أخرى ، ثم كتابة كل ذلك ، إدخاله في كتب تجمع حضارات وثقافات مختلفة وتساهم في الحد من تناقضاتنا وبسهولة التقارب بين الشعوب .

٢ - نقاط الالتقاء ، اللامراكز بعد دراسته للحجم الذي تمثله أسطورة روما في خلفيات تفكيره ، وبعد دراسته لجغرافية هذه المدينة وتاريخها وارتباطها بما حولها ، يتوصل مسافر ميشال بوتور ^(١٠٥) إلى اكتشاف مذهل حيث يقول :

« وهكذا لتتزع من وجدانكم إحدى أكبر موجبات التاريخ ، تلك التي كان للعالم فيها مركز ، ولم يكن ذلك

كل هذه الصفات التي ألصقها بها ، جعلت من روما نوعا من الأسطورة التي سيطرت على تفكيره وتحكمت بمشاعره وتصرفاته وعلاقاته لدرجة أنه ، بوعي أو دون وعي ، أخذ يعتبرها تلك اللجنة المفقودة التي لا تتحقق السعادة إلا بالعودة إليها .

بعد تفكير وتركيز طويلين تقوده « آلة التفكير » إلى الخلفية الأساسية لتعلقه هذا . إنها رغبة مكبوتة « بالعودة إلى الشرعة الرومانية القديمة ، إلى تنظيم إمبراطوري للعالم حول مدينة مركزية واحدة » ^(١٠٦) .

عند اكتشافه لهذه الخلفية السلطوية ، يدهش ليون دلون إذ يجد أن مشروعين كانا قائمين في رأسه قد سقطا معا . فعشيقته فقدت جاذبيتها وروما القديمة فقدت بريقها لأنه لم يعد ممكنا للمدينة أن تتحكم بمصر « العالم الذي أصبح أوسع من ذلك بكثير بالنسبة لكل منا والذي اختلف توزيعه عن الماضي » ^(١٠٧) .

أهمية روما ليست إذن في انغلاقها بل في انفتاحها ، وليست في تعصبها بل في تلافقها وتفاعلها مع بقية المدن والحضارات . وهذا ما تبيته آثارها ومعالمها التاريخية حيث يدل كثير منها على الحضارة اليونانية أو المصرية أو الآسيوية . فهي ليست إذن « رومانية » صرفة ليست بالتالي المدينة الوحيدة التي تتلاقى فيها عهد وثقافات مختلفة ، على سبيل المثال ، واحدة من تلك المدن الأخرى التي يظهر فيها هذا التلاقي .

هكذا تأخذ مدينة باريس مكانا مشابها لروما التعددية ، وتبدأ معالمها بالظهور تباعا من متحف اللوفر إلى المسلة المصرية إلى قوس النصر الروماني والبنابرتي

^(١٠٢) نفس المصدر ، ص ٢٧٧

^(١٠٣) نفس المصدر ، ص ٢٧٨

^(١٠٤)

Magazine littéraire no. 110, p. 17

^(١٠٥) نفي بكلمة « مسافر » هنا كل من يقوم برحلة في أعمال بوتور سواء كان ذلك الشخص الكاتب ذاته أو أية شخصية في كتبه ، إذ أننا نلاحظ استمراره الرحلة من خلال شخصيات متعددة ومتنوعة .

تجاوز مفهوم المركز ، نجده يتوجه إلى « لا مراکز » ، أي إلى أماكن كانت تدور في فلك معين ولكنها استطاعت أن تحتفظ باستقلالية معينة وأن تشكل نقاط إشعاع فكري وحضاري :

« مانطوفا Mantova هي إحدى الأماكن ، خارج روما ، حيث يظهر بكل وضوح مدى المجاسد الروماني ، أي هذا النوع من اليأس الذي غمك أوروبا في لحظة بدأت تشعر بسقوط القسطنطينية واكتشاف اميركا ، بأن صورة الامبراطورية كوحدة للعالم أخذت تهتز نهائيا »^(١٠٨).

عناصر جديدة ، فرضت نفسها إذن ، ومنذ مدة طويلة ، على الفكر الأوروبي ، فتركت تأثيرها عليه وشقته قبل أن توقظه من سبات طويل كانت تهدده فيه أحلام الوحدة واللحمية . وهذه العناصر تدعوه للتفتيش عن غيرها بين أطلال هذه الامراکز :

يوجد في حضارة وفكر فيراري Ferrare شي ، ما لم يكتشف بعد واتجاه مختلف ذو تناغم تام مع بعض حاجتنا ، كما لو أن هذا النور الساطع الذي خفت مدة طويلة قبل أن يظهر لنا من جديد ، يدعونا للاستعانة به كي نتقدم^(١٠٩).

هذا النور الكامن في آثار فيراري كما في مدن أخرى كثيرة ، يمثل القوة الدافعة والشجعة للمسافر كي يتقدم بخطى ثابتة ليس فقط نحو اكتشاف خبايا الماضي ، بل نحو المستقبل أيضا ، إذن أن معرفة الماضي لا معنى لها إذا لم يكن مصيها في بناء مستقبل أفضل .

هذه النار التي ينشدها المسافر دفقا وصحة ومعرفة إذ يقول : « كنت بحاجة لتغيير الهواء وللاستمتاع

المركز الأرض في وسط دوائر بطليموس فقط ، بل روما في وسط العالم . فأنتم تلاحظون بأن هذا المركز انتقل بعد انهيار روما إلى القسطنطينية ثم إلى أساكين أخرى . . . »

ومع كل التأثير الذي مارسه على كل الأحلام الأوروبية ، فإن ذكرى الامبراطورية لكل منا أوسع بكثير وموزعا بشكل مختلف عما عهدناه^(١١٠).

انطلاقا من هذه البقطة الفكرية يحزم المسافر حقائبه ويسيرا موهودا بعقلية مفتحة تتخلصت إلى حد كبير من وهم الامبراطورية الرومانية المقدسة . ينطلق إلى الجوار الجغرافي والثقافي ليتفحص مناطق تقع في حوض البحر المتوسط ، ويكتب نتائج استكشافاته في الجزء الأول من « عبقرية المكان » :

لقد أيقن خلال رحلته إلى روما أن هذه المدينة المتعددة الوجوه وثيقة الصلة بحضارات مجاورة عليه دراسة آثارها وأطلالها على ما يجلب منها بعض الأضواء التي تحدد ملامح شئ نصيبه الحقيقية والتي تمكنه من الاجابة على أسئلة تلح على تفكيره : « من أنت ؟ أين أنت ؟ إلى أين أنت ذاهب ؟ عم تبحث ؟ » .

يسافر الكاتب بنفسه في هذا الكتاب محاولا إيجاد بعض الأجوبة . يسافر وهو موقن بأن « المجتمعات لا تبقى معزولة عن بعضها البعض ، فهي تلتقي ، تتحارب أو تتاجر . وليست عناصرها « الواقعية » فقط هي التي تتجابه ، أسلحة أو منتجات ، جنودا أو بضائع ، بل الخيالية منها أيضا ، ألهتها^(١١١).

يزور في البداية سلسلة من المدن كانت تشكل ذات يوم جزءا من الامبراطورية الرومانية القديمة . فلكونه

La Modification, p. 277

Repertoire II, p. 17

Le Génie du lieu, p. 97

(١٠٦)

(١٠٧)

(١٠٨)

(١٠٩) نفس المصدر ، ص ١٠٤

بالشمس » ، يجدها أحيانا مزج للعناصر في شراب حقيقي أو خيالي . قصورة بابل التي يتأملها في مدينة سالونيك تشكل « ينبوعا أو على الأقل منبعا يتفجر منه جزئيا بعد ترسب وتقطير ، هذا السائل الذي يروي الظمآن »^(١١٠) ظمأً للاكتشاف والمعرفة ، للاطلاع على مكونات نقاط العبور أو الالتقاء وأماكن تعايش الثقافات المختلفة .

في قرطبة يلاحظ المسافر أن « كل شيء يعيدنا إلى الخلافة ، إلى تلك الفترة التي كانت فيها المدينة البيزنطية الغرب »^(١١١) ، وهكذا فإن زيارة الغربي إلى هذه المدينة تجعله « على اتصال مع كل ما تقدمه إفريقيا المتوسطة والاسلام من غنى حضاري »^(١١٢) .

أما في اسطنبول ، فإنه يبين وجود مدن ثلاث ذات مبان مختلفة تعود كل منها إلى عصر معين . وأقبح هذه المدن هي « ليفربول الشرق » أي المدينة الصناعية والمصرفية ، المدينة السوداء التي تمت على الضفة اليسرى للقرن الذهبي ثم « تتمدّد في الجهة المقابلة في اسطنبول القديمة ، في المدينة العثمانية الكبرى التي نخرها السوس منذ قرون ، ممددة جذورها إلى جوفها ، مدخلة محصاتها في أحشاء نسيجها المهترئ والتالف ، سالبة قوتها »^(١١٣) .

والمدينة الثالثة التي وجدت قبل الاثنين معا ، هي القسطنطينية « التي لم تولد من توسع بيزنطة ، بل من الانتقال الإداري إلى هذا المكان لعاصمة الامبراطورية الرومانية المستشرقة »^(١١٤) . ولكن بالرغم من التنافر

الظاهري بين أجزاء المدينة ، فإن هناك « ممرات فورية » تجعل المسافر يشعر وكأنه موجود في أكثر من زمان ومكان . فجزرها أو نفقها ليسا فقط وسيلة اتصال بين آسيا وأوروبا ، بين العصر العثماني والبيزنطي ، بين الاسلام والمسيحية وبين الحاضر والماضي .

وسالونيك أيضا هي نقطة التقاء بين الشرق والغرب ، فمنذ تأسيسها « لم تتوقف عن كونها مدينة حدودية » ومحطة عبور تتجاوز فيها آثار بيزنطية وروما وأثينا ، بالإضافة إلى « شواهد عديدة على يونان منقولة من انكلترا أو فرنسا أو ألمانيا »^(١١٥) . ثم إن لها علاقات وثيقة مع الاسكندرية المعاصرة أو التي لمع فيها البطالسة ، كما أنها « تشبه كثيرا مدينة ماري التركمانية » كل ذلك يدفع المسافر لأن يعتبرها « نقطة انطلاق أو ميناء ربط » .

ما نلاحظه إذن أن مدن مانتوفا وفيراري ودلف واسطنبول وقرطبة وسالونيك وبالرمو (التي يفسد لها الكاتب مقالا منفصلا)^(١١٦) كانت بشكل أو بآخر أجزاء من الامبراطورية الرومانية أو البيزنطية . ولكن زيارتها تظهر بأنها محطات على طريق تقود بالضرورة إلى مصر ، طريق متعرجة تصل الغرب بالشرق تجعل المسافر الأوروبي يتخلص شيئا فشيئا من أساطيره القديمة حول مركزية روما أو غيرها ، ويتزود تدريجيا بما يقيه « هذه الهالة من الأوهام التي تحيط بكلمة الشرق »^(١١٧) .

(١١٠) نفس المصدر ، ص ٥٧

(١١١) نفس المصدر ، ص ١٩

(١١٢) نفس المصدر ، ص ١٦

(١١٣) نفس المصدر ، ص ٣٤

(١١٤) نفس المصدر ، ص ٣٧

(١١٥) نفس المصدر ، ص ٤٩

(١١٦)

(١١٧)

وهكذا تدخل تفرعات أفقية وعمودية ، جغرافية وتاريخية لكي يستطيع المسافر الاستمرار في سفره الاستكشافي نحو مصر . هذه التفرعات تمر في مدن تمت إلى حضارات ثلاث : الرومانية واليونانية والشرقية : من هنا تتوضح للمحطات التالية : دلف عاليا ، مانتوفا ، فيراري ، بتعمقه في دراسة الحضارات القديمة يتخلص من كثير من أوهامه ويصل إلى مصر بعقلية منفتحة تجعلك يراها على حقيقتها بعيدا عن تأثير أفكاره المسبقة .

٣- الولادة الثانية قبل أن نتكلم عن وصوله إلى مصر ، نجد من الضروري زيادة محطتين على جولة ميشال بوتور في نقاط الاتصال : الأولى في بالرمو والثانية في ألمانيا .

في معرض حديثه عن بالرمو ، لا يكف عن إظهار إعجابه بموقع جزيرة صفلية :

« لقد شكلت هذه الجزيرة على امتداد الأزمنة القرية مكانا للالتقاء وليس للعبور ، فالإيوناني القديم والبيزنطي والعربي والنورماندي والقوطي يتلاقون فيها ويتفاعلون في لطف مناخها » (١٢٠) .

ومع كل ذلك ، يشكو الكاتب - الرحالة في نفس المقال من ضيق المجال الذي يتحرك فيه :

« لم أستطع بعد تجاوز حدود الامبراطورية الرومانية القديمة ، كم أتمنى الافلات من أسر هذا النطاق » (١٢١)

تشكل رحلته إلى مصر العبور الأول خارج الحدود . ولكن التحضير لها يتم من خلال رحلة « وصف الفنان Portrait de l'artiste en jeune singe : كقرود في :

وإذا ما قارنا بين التسلسل الزمني لزيارات بوتور لهذه المدن (ألمانيا - مصر : ١٩٥٠ - ١٩٥١ ، سالونيك وقرطبة : ١٩٥٤ ، بالرمو ودلف واسطنبول : ١٩٥٥ ، مانتوفا وفيراري ١٩٥٧) وبين تدرجها في الكتاب (قرطبة ، اسطنبول ، ماليا ، سالونيك ، مانتوفا ، فيراري ، مصر) فإننا نجد اختلافا كبيرا ولكنه معبر . فالباب الذي نلج منه إلى هذا الكتاب هو قرطبة والذي نخرج منه مصر ، وكل باب هو كما نقول إحدى النقاط (١٢٢) « عائق وعمر ، إغلاق وفتح » ، وهو يختار عن قصد لكي « يؤمن عبورا إلى مستوى آخر » ، إلى حالة فكرية أخرى . وبناء على ذلك فإن الوصول إلى مصر ، أو التوصل لفهم أسطنبول مثلا ، يفترض المرور بمدينة خلاسية تقوم بينها وبين هذين المكانين علاقة قرابة ، والقرابة هنا هي الحضارة الإسلامية التي أثرت وما تزال في هذا البقاع .

بعد اجتياز « البيزنطيين » ، الغربية والشرقية - قرطبة واسطنبول - نصل إلى سالونيك ، هذه المدينة المحفوظة بآثار بيزنطة الشرق والتي تكمن أهميتها الأخرى في موقعها كنقطة عبور بين عدة عصور وبلاد .

« مع كونها لا تمثل جزءا من اليونان بكل معنى الكلمة ، فإن سالونيك ، الواقعة في منتصف الطريق بين أثينا والقسطنطينية ، هي المكان المثالي للشعور بهذه البديعية المجهولة تماما ، إنه بين الحضارة الهلنستية وعصرنا الحاضر لا يوجد فقط هذا الطريق الذي يمر بروما وبعض النهضة الروماني ، بل أيضا ، وبشكل أكثر وضوحا ، طريق آخر يمر عبر الامبراطورية الشرقية والكنيسة الشرقية وحضارات الشرق » (١٢٣) .

التي يزور فيها ألمانيا والتي لا تنشر إلا بعد تسع سنوات (في ١٩٦٧) من «عبقريه المكان» (١٩٥٨).

الرحلة إلى ألمانيا ، بلاد «الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة» كانت بمثابة «تمهيد» - حسب تعبير الكاتب - للانطلاق نحو مصر . فلقد أعطته ، عدا «تعلم قليل من الألمانية والاطلاع على قسم من ألمانيا» ، فرصة للقراءة والاطلاع والتعمق في النحت والموسيقى والرسم والفلسفة وعلم المعادن والكيمياء ، بالإضافة إلى طريقة جديدة في البحث والدراسة .

كانت مهمته في ألمانيا أن يساعد أحد الأثرياء على تذكر ما تعلمه سابقا من اللغة الفرنسية وأن يوسع دائرة إلمامه بها . وهكذا أقام في قصر البارون الواقع في مقاطعة بافريا «على طريق سياحي شهير جدا ، الطريق الرومانطيق» ، أي الذي سلكه أغلب الرومانطيقين الألمان ، من أمثال ويلهلم هابنيس وكارل فيليب موريتز وهوغر فون هوفمانشتال ، في مسيرتهم نحو جنوب أوروبا ، وبصورة خاصة إيطاليا ، والذي يوصل في النهاية إلى الشرق مع هرمان هسه Hermann Hesse وكثير غيره^(١٢٢).

ولكن الشرق كان موجودا في القصر من خلال بذور يجب حفظها والعناية بها لكي تنمو فيها بعد في موطنها الأصلي الذي ينبني الوصول إليه من طريق يختلف عن الاتجاه الرومانطيق لثلاثا يبلغ المسافر الشرق الذي تتخلله أوهام الرومانطيقين «وطنا وشبابا للروح» كما سماه هوفمانشتال^(١٢٣). الطريق الجديد يجب أن يوصله

إلى الشرق الحقيقي الذي يعلم ويخبر عن ماضيه وماضي أوروبا ، والذي تتلاقى فيه حضارات شتى : من الفرعونية إلى الهيلينية والرومانية والمسيحية فالإسلامية ، الشرق الذي مازالت كثير من هيروغليفيات تنتظر من يكتشفها وفك رموزها . وهذا ما يجعل الكاتب يحلم بالقدوم وكأنه شامليون آخر ، مهمته ليس فقط أن يفتح أبوابا على مستقبل مصر أو أوروبا ، بل على مستقبل أفضل للعالم بأسره .

هذا الحلم الطموح يحفزه على التفتيش عن أشياء تمهد لرحلته القادمة . ويبدأ البحث في مكتبة القصر الغنية حيث يجد الترجمة الفرنسية لكتاب توماس مان «يوسف في مصر»^(١٢٤) ، وترجمة «ألف ليلة وليلة» التي قام بها إلى الفرنسية انطوان غالان^(١٢٥). تسيطر قصص الكتاب العربي على تفكير الشاب الفرنسي المقيم في ألمانيا للدرجة أنه يتخيل نفسه مكان الصعلوك الثاني الذي يحمله أحد السحرة إلى قرد يستعيد فيها بعد هيبته البشرية بفضل معرفته بالكتابة التي يفهم بها وضعه للآخرين^(١٢٦). وتلقي هذه القصة الضوء على عنوان الكتاب : «وصف الفنان كفر دني» ، أي كانسان ينشد الخلاص والتغيير من خلال عملية الكتابة ، مشيرين هنا إلى أن الآلهة الفرعوني «توت» كان كثيرا ما يرمز إليه بشكل قرد .

أما الطريق المختلف الذي سلكه ، فيمر في المجر ، «هذه البقعة الاسبوية الباقية بعد أمواج الغزو وراء حاجز جبال الكويات المليئة بالنسبة لي ، بين غاباتها

Portrait de l'artiste en jeune singe. p. 95

(١٢٢)

(١٢٣) للزمزم من المعلومات من نظرة الرومانطيقين الألمان إلى الشرق ، انظر الجزء الأول والثاني من :

Marcel Brion: L'Allemagne romantique, tomes I et II, Albin, Michel, Paris, 1976 et 1978

Thomas Mann, Joseph En Egypte

(١٢٤)

Antoine Galland, Les Mille et une nuits.

(١٢٥)

(١٢٦) ألف ليلة وليلة . الجزء الأول . وقصة الصعلوك الثاني تروي بين اليلتين ١٣ و ١٥

شارع سافر، تسمى سبيل الفلاح، ذلك ما جعلني الي الدعوة بسعادة» (١٢٩).

وبالرغم من شعوره بالغربة في السنة الدراسية التي أمضاها في ألنيا، فإن إقامته هناك كانت ذات فائدة ودروس عظيمة.

لقد وجد في البداية صعوبة كبيرة بالتلازم مع هذا المحيط السديمي والصحراوي. ولذلك كان يتنظر نهاية الأسبوع بفارغ الصبر كي يستقل القطار إلى القاهرة حيث يمضي بعد ظهر الخميس والجمعة بكامله «محاولا تنشق قليل من هواء الغرب».

ولم يطل به الأمر على اعتياد الحياة هناك، فأخذ يجد لذة كبرى في التعرف على عادات وتقاليده يتيته الجديدة «في ألنيا، هذه المدينة الصغيرة ذات الثمانين ألف نسمة يومها، الواقعة في وسط مصر، على بعد مائتين وخمسين كيلو مترا جنوبي القاهرة، على ضفة النيل الغربية، وأحد أكبر أسواق القطن، التي لا تحتوي على أي أثر مهم وعلى أبي بناء لأكثر من قرن مع أنها تعود لأكثر من خمسة آلاف عام» (١٣٠).

أخذ يتأمل المدينة والجوار بسعادة وواقعية ويصف موقعها ومنازلها ذات الأثاث البسيط والمتواضع، باستثناء بيوت بعض الأغنياء الذين كانوا يأتون بأناتهم الفخم والشمين من القاهرة أو مباشرة من بعض عمالات لندن وباريس «لأنه لم يكن في المدينة في ذلك الوقت طاولة واحدة للبيع» (١٣١).

وقصة الطاولة هذه التي كلفه الحصول عليها جهدا ووقتا كبيرين في بداية العام الدراسي، طرحت لديه

وشعائها، بقصور مسكونة بالأشباح والسحرة، كالذي تحكي عنه قصة جول فيرن، مع أساطير مصاصي الدماء» (١٣٢)، طريق مدينة بودابست المزدوجة، وطريق أحد فلاسفتها، «الدكتور هـ». الذي رتب في البداية رحلة الفرنسي الشاب إلى ألمانيا، وشخصية «الدكتور هـ». مزدوجة من جميع الوجوه، فهو غربي وشرقي، طبيب وكيميائي، واقعي وخيالي في آن واحد، وهو بذلك يذكّرنا بشخصية «جانوس» الإله الروماني ذي الوجهين الواقف على مدخل روما في أحد كوابيس قصة «التعديل» ولكنه هنا جانوس مختلف، بشري، واقعي، يمنح المسافر الفرصة لزيارة ألمانيا، «أرض الفلاسفة»، ويعطيه في الوقت ذاته «كلمة السر» ويده على «الباب الخفي» الذي يدخل منه إلى «كهف الكنوز الفكرية»... إلى مصر.

يشرح جورج غودان، أحد الذين كتبوا عن ميشال بوتور، هروبه إلى مصر بالعبارات التالية:

«بما أن كل كتاب يمكن أن يصبح إنجيلا، فإن كل دليل تتملكه الرغبة أن يصبح مع الوقت سيديا. وكل ثقافة تحمل في داخلها بذرة استبداد يجب إتلافها بالانفتاح على ثقافات أخرى. ولذلك كان على بوتور أن يهرب، أن يتبعد ليس فقط عن القصر وعن ألمانيا، بل عن كل تلك الثقافة ليجد أخرى، ثقافة مصر، وكثير غيرها فيها بعد» (١٣٣).

أما بوتور فإنه يعيد رغبته في الذهاب إلى مصر إلى أقدم من رحلته إلى ألمانيا:

«راغباً آنذاك ببعض البعد والعزلة وقليل من المغامرة، متحمسا بمصر من سبيل ماء مقابل منزلي في

Portrait de l'artiste en jeune singe, p. 21

Georges Godin. "Portrait de Butor en Jeune étudiant" Metaphores, no. 1, Nice, avril 1980. p. 83-84

Le Genie du lieu, p. 114

(١٢٧)

(١٢٨)

(١٢٩)

(١٣٠) نفس المصدر، ص ١١٣

(١٣١) نفس المصدر، ص ١٣٨

وحضارية تجعله يتخلص من عقد وأساطير تربيته الأوروبية .

« لقد كانت مصر وطننا ثانيا لي ، وحدث لي ما يشبه الولادة الثانية في هذا البطن الممدود الذي يمتص بفمه دلتا البحر المتوسط ومعايير حضارته ، مخزننا هذه الأخيرة ومازجا لها في عملية تخمير بطيئة » . (١٣٣)

هذا المولود الخلاسي ، الأوروبي - المصري ، يصبح قادرا بحكم هويته الجديدة وانتمائه المزيج على أن يرى الأمور بشكل يختلف عن بقية الأوروبيين . وأن ينظر إلى العالم بطريقة أكثر موضوعية وتجرد . وللدلالة على هذا التطور في شخصيته نورد نصا مطولا بعض الشيء ولكنه ضروري ومعبّر :

« إن كل فرنسي جاوز مرحلة دراسته الثانوية قادر على تقديم ملخص غير دقيق لتاريخ البشرية يظهر فيه اليونانيون والرومان (والعبريون الذين تنسب لهم التوراة والمذهب الكاثوليكي إلى حد ما ، مع أن هذا الميدان كثيرا ما لا تبدو رغبة لذكره) ثم العصر الوسيط المسيحي ، فعصر النهضة ، وأخيرا أوروبا المعاصرة مع علومها التي تكتسح باقي العالم .

« صورة تدعي أنها كافية وأنها تنطوي على كل التفسيرات دوغا حاجة لإدخال هذه الشعوب الأخرى وتلك الحضارات الأخرى الغربية الأطوار والتأففة والمضحكة ، التي لا تستحق أي اهتمام » .

« لدرجة أن حضارات عظيمة ومجيدة كالفرعونية والإسلام لا تظهر إلا بشكل ملحقات بشكل حواشي في أسفل الصفحات أو بشكل رسوم هزلية .

مقارنة بين طريقتين مختلفتين في الحياة : الأوروبية والمصرية الريفية . فبينما يعتاد الأوروبي على سلوك وتصرفات ترتبط بمقاعد وكراسي وطاولات وما إلى ذلك ، تتمحور طريقة الريف في مصر من جلوس ووقوف واستلقاء حول البساط أو الوسائد المفروشة على الأرض ، ذلك ما يجعله يقول :

« ألا ترى معي بأن الحديث عن شيء بسيط جدا كالطاولات يطرح على الفور قضية حضارة كاملة ذات أسلوب آخر ويطرح فترة تاريخية بأكملها ؟ إن إدخال أدوات كهذه في محيط غرب عنها ، أو بالأحرى تبني نمط أوروبي في الحياة ، أي ضمن تربية تقتضي بين أشياء أخرى وجود مثل هذه الأدوات ، يستتج اختلالا واضطرابا عميقين حتى في التصرفات العادية » (١٣٤)

ولكن ما يغيه بوتور من إقامته في مصر ليس إيجاد الاختلال ، بل على العكس التركيز على التلاقي وإظهار ما لمصر من أثر في صهر الحضارات ومن تأثير حتى على العقلية الغربية . ذلك ما يفسر اهتمامه الشديد بالقاهرة وما تحمله ، وما يبين الهدف من زيارته المتكررة لها ومغضيته كل أيام العطل المدرسية فيها .

كان يبحث بين آثار مصر عن معلومات عن أصله وأصل الديانة التي نشأ عليها ، عن تجديد أو تحسين لطرح المشاكل التي شغلت خلال مدة طويلة ، عن شعاع يضيء بعض خفايا أوروبا ، « بنت الامبراطورية الرومانية » ، عن طريقة جديدة لقراءة وتحليل التاريخ ، تاريخ الشرق وأوروبا معا ، وعن كل ما من شأنه « الدعوة لتوسيع وتحديث المعارف التي ورثها من طفولته » . الهدف من كل ذلك إعادة تكوين ثقافية

(١٣٣) نفس المصدر ، ص ١٤٢

(١٣٤) نفس المصدر ، ص ١١٠

ولكن المنطقة التي يحاول بوتور اكتشافها ليست فقط الإمبراطورية الرومانية أو مصر أو الشرق أو أية منطقة أخرى في العالم ، فظموحه أوسع من ذلك بكثير :

« إن الأرض بكاملها هي التي أحاول أن أكتشفها ، أحاول أن أراها » (١٣٨) . وبناء على ذلك يكون اكتشاف لأحد أجداده في مصر خطوة على طريق طويل سيحاول خلاله اكتشاف أجداد آخرين في بقاع مجهولة . ولكن اكتشاف الماضي ليس هدفا بحد ذاته ، بل هو ، على العكس ، طريق يوصل للمستقبل ، « لوطن الأبناء » . اكتشاف مزدوج إذن ، وهدف عظيم لا يمكن تحقيقه إلا بالانطلاق من أرض صلبة وبتحديد نقطة الانطلاق ونقطة الوصول وهذا ما يجعل من الطبيعي جدا العودة إلى باريس ، إلى المدينة الأم التي غادرها المسافر وكل شيء فيها يهتز ، ويجعل من الضروري تقوية أساساتها بما حمل عقله ويده من دورته حول المتوسط .

تتم العودة إلى باريس هذه المرة من خلال قصة « درجات » Degues حيث يحاول المسافر تعميق معرفته بمسقط رأسه ، ومن خلال مشاهد التعليم الثانوي ، بالأحداث والتواريخ التي تؤثر على عقلية سكانه .

بعد أن غادر المدينة كملبد ، « كترد في » ، يعود إليها أستاذا غني التجربة ، قادرا على إدخال « بصيص من نور في قلب هذا الظلام الدامس الذي تختبئ فيه » (١٣٩) .

الجديد في هذه القصة من ناحية الشكل - وكل قصة ليشال بوتور تحمل تجديدا شكليا - هو التناوب في كتابتها

« من الطبيعي أن هذه الصورة قاصرة عن اقناع أبسط فلاح مصري لأن أول ما يتبادر إليه هو عصر الفراعنة كلغز ، وأول ما يمه هو الإسلام كماض وحاضر وتقاليد لدرجة أنه يجد نفسه مضطرا لوضع التاريخ الأوروبي ضمن إطار أوسع منه بكثير » (١٣٤)

هكذا نرى هذا الأوروبي ، ابن المطر والضباب والدخان ، ابن الإمبراطورية الرومانية الهرمة ، ينطلق ليفتح عن أجداده في زواياها وأقطارها ، فيجد أول هؤلاء الأجداد في مصر ولكنه جد خلاسي وليس أبيض ، لذلك يستطيع أن يطلعه على بعض أسرار الرمال والصحراء ، أن يدق جسد وروحه (١٣٥) ، أن يقدم له المعدات اللازمة للحفر والتنقيب في العالم وتاريخه ، بعد أن يبرهن له بأن العالم لا يبنى على مركز واحد وأعلمه بأن عليه ، كي يفهمه جيدا ، أن ينظر إليه من زوايا مختلفة ، وأن يبحث بدل المراكز عن شرايين وأوردة - تستقبل وتضخ دم ثقافات وحضارات متنوعة ليصب في قلب بابل جديدة .



قصة « درجات » أو تجديد (١٣٦) وسائل الاستكشاف : يصل مستكشف منطقة جغرافية أو أدبية إلى نقطة يجد فيها أن المعدات التي يحملها لم تعد كافية ويدرك بأن التقدم ومواصلة البحث أصبحا مستحيلين ، « عندها يبدو من الضروري العودة إلى نقطة الانطلاق للإتيان بمعدات أحدث وأكثر ملائمة لهذه المنطقة التي أصبح الآن يعرفها بشكل أفضل » (١٣٧)

(١٣٤) المصدر السابق ، ص ١٩١ - ١٩٢

(١٣٥) يصرح بوتور في إحدى مقالاته : « عندما ذهبت إلى مصر للمرة الأولى ، كان لعم اكتشافي (بين أخرى كثيرة) أنه من الممكن الآن نشر بالرد ، اتساعا يبرهن على ذلك ، وأن ذلك لا يشكل جزءا من العقاب الذي يطردنا من الجنة ، إنه توجد أماكن على الأرض لا تنشر فيها بالبريد أبدا ، حتى ولو كنا مردها .

(١٣٦)

J.M. Le Sidaner. op. cit. p. 53

m. Butor. Degres Ed. Gallimard, Paris, 1960

(١٣٧)

Degres, p. 117

(١٣٨) كما صرح لنا في المقابلة المذكورة آنفا .

(١٣٩)

بعض دروس الجغرافيا تعرف « بمناطق العالم : الاستوائية والمدارية والمعتدلة والقطبية » أو « بكل المعادن المختبئة في جوف الأرض » ، بينما تدعو دروس اللغة الطلاب إلى اكتساب « معرفة تامة بالعالم الآخر الذي هو الانسان والقيام برحلات قراءة في أعمال كتاب من بلاد ولغات مختلفة ؛ هوميروس ، رابليه ، مونتاني ، ماركو بولو ، شكسبير ، فولتير وكثيرين غيرهم . هذه الدروس ترسم دروسا لبعثات واستكشافات مستقبلية ، لرحلات جماعية إذن ، لأن قصة « درجات » تلعب دورا لانتقال من المفرد الى الجمع ، الأمر الذي يثبت الرحلات السابقة ضروريته وحتميته .

لقد اكتفى المسافر في البداية بـ « أنا » صريحة (استعمال الوقت) ، « وصف الفنان كقرد فني » ، « عبقرية المكان » أو مضمرة كما في قصة « التعديل » حيث يتكلم بطل القصة عن نفسه مستعমা ضمير المخاطب « أنت » ، الذي يتحول في النهاية الى « أنتم » . (يظهر جمع المخاطب هذا مرة واحدة حين يقول ليون دلون : « وهكذا تنزع من ضمائركم إحدى أكبر موجات التاريخ ») . وفي الصفحات الأخيرة من « عبقرية المكان » ، حين يذكر المسافر زيارة قام بها إلى الأقصر مع زملائه الفرنسيين في المنيا ، تظهر « نحن » للمرة الأولى شاملة هذه المرة فلاحا مصرية دعاهم لشرب الشاي في منزله بعد أن تعرف على ميشال بوتور الذي كان قد التقاه على الباخرة بين مرسيليا والإسكندرية .

« كنت أدرك جيدا بأن هذا التفاهم السليم والثقي بيننا برغم بقاءه أخرس ، (١٤٢) لكي يستطيع الارتقاء

من شخصيات ثلاثة يستعمل أولهم ضمير المتكلم « أنا » وثانيهم ضمير المخاطب المفرد وثالثهم ضمير الغائب « هو » .

يبدأ الرواية الأول ، وهو أستاذ في إحدى مدارس باريس الثانوية ، كتابة القصة بهدف « تبيان روابط القرى » داخل أحد الصفوف ، ولكنه لا يتأخر في اكتشاف أن هذه الروابط لكونها تتعلق بخارج المدرسة ، تسمح لنا بتجاوز حدود مدرسة أو مدينة وبالتوصل إلى « فهم تاريخ وواقع البشر لأن علاقات القرى ليست فقط وسيلة لتعريفنا بأشخاص منسيين ، بل هي تتيح لنا أيضا أن نعود للوراء فنبتج الحدود ونعيد تأليف التاريخ » . (١٤٠)

أما لائحة الدروس التي تعطي في مختلف الصفوف الثانوية فتشمل تواريخ وعصورا وأحداثا ومناطق يركز عليها مناهج المرحلة الدراسية وتشكل بالتالي حيزا مهما من تفكير الطلاب والأساتذة .

تبدأ اللائحة بركوية الأرض ودورانها حول نفسها وحول الشمس ، ثم تذكر « الاكتشافات الجغرافية العظيمة في عصر النهضة ، من رحلة فاسكودي غاما إلى كوكود ، إلى اكتشاف كريستوفر كولومبس لجزر الهند الغربية ودوران ماجلان مع طاقمه حول العالم ووصول ماركو بولو إلى الصين » (١٤١) بعد ذلك يعيدنا التاريخ إلى بلاد اليونان القديمة وأساطيرها ، وإلى مصر الفرعونية وسلالات ملوكها ، مروراً « بعصر بيزنطة الذهبي » ، « بالفتح العربي » ، بالإمبراطوريتين الرومانية والإسبانية اللتين تصدعتا الواحدة تلو الأخرى وبالغالل الحصيب و« إمبراطوريات آسيا القديمة » ، الخ . . .

Jean Roudaut, Michel Butor ou le livre futur, p. 85

Degres, p. 26

(١٤٠)

(١٤١)

(١٤٢) بل هذا الفلاح المصري جهدا كبيرا كي يفهم بوتور أين حصل للعالم الأول ، واستطاع أن يتوصل لذلك من خلال اسم الباهرة التي ألقها إلى مصر « اندريه ليون » .

الأخرى عن « الأمريكيتين المقسمتين الى ثلاث مناطق » (ص ٢١٦) وعن « حضارات ما قبل كريستوفر كولومبس وحالة أميركا عند اكتشافها » (ص ١٧٦) ، و « الخصائص المناطقيّة للولايات المتحدة » (ص ٣٦٧) ، و « الغرب الأوسط والغرب الأقصى الأمريكيتين » (ص ١٠٩) ، و « تجارة الرقيق من افريقيا الى أميركا » (ص ١١١) الخ . . بالإضافة الى نصوص عديدة أشهرها كلمة مونتاني Montaigne الشهيرة في القرن السادس عشر : « لقد وجد علمنا أحمأ جديدا ، ومن يلدي إذا كان هذا آخر إخوته » (ص ٣١٩) ، كل ذلك لم ينجح في تشييد برج ترى منه أميركا بشكل جيد .

هل فشلت المحاولة إذن ؟

على العكس تماما ، فلقد حقق المسافر فتحا جديدا أو بالأحرى أوجد منعطفا جديدا . ولقد رأينا بأن هروب بطل « استعمال الوقت » من انكلترا كان بمثابة انتصار على المدينة ، كما أن تعديل مشروع ليون لدون كان نتيجة غوصه في أعماق أسطورة روما ، بينما كانت إقامة الشاب الفرنسي في المانيا خطوة على طريق مر في المجر وأوصله الى مصر حيث علم بعض الفرنسية لعدد من التلاميذ ولكنه تعلم ما جعل منه انسانا آخر يعود الى وطنه بعقلية منفتحة أدركت أنه ما من حضارة يحق لها الادعاء بمركزيتها أو الاكتفاء بذاتها ، وأن الفهم الحقيقي والتطور الحقيقي هو نتاج تفاعل بين الحضارات والشعوب .

والفشل الظاهري في « درجات » ما هو الا إعلان رفض من طرف الكاتب . للربط التقليدي بين كلمتي « اكتشاف » و « فتح » ، رفض بالتالي للوصول الى

إلى مستوى الكلام ، لكي ينمو الى حوار حقيقي ، فيجب أولا أن تنشأ هيكلية تستطيع العودة اليها والاعتماد عليها . (١٤٣)

في نهاية كل قصة أو كتاب نجد إذن ضمير جمع يطفو ليكون لحظة إدراك ومعرفة توصل اليها الرحلة المزدوجة ، الجسدية والفكرية ، لمنفى ، لمهاجر أو مستكشف .

أما في « درجات » ، فإن هذا الجمع يبدأ بالعمل . فالقصة تبدأ كما ذكرنا ، بـ « أنا » ، تتابع بـ « أنت » ثم تنتقل الى « هو » لكي تنتهي بسؤال : « من يتكلم » هذا السؤال الذي ينطوي على أجوبة لا حصر لها يفترض إذن وجود حشد كبير من المشاركين في رحلة الكتابة - والرحلة الأخرى - ويعطي الكلمة لكل من يجد في نفسه الاستعداد للمشاركة .

توصلنا إذن قصة « درجات » الى نوعية من الكلام الذي يشترك فيه أكثر من شخص ، وهذه النوعية الجديدة تجدد تكريسها الصارخ والمتنوع في المحطات التالية للرحلة وتبدأ بالظهور من خلال كتاب « المتحرك » (١٤٤) Mobile الذي يحاول إعطاء صورة شاملة عن الولايات المتحدة الأميركية . والرحلة الى أميركا تظهر هنا منطقية جدا ، لأن الراوية الثالث في « درجات » يتمنى أن تكون هذه القصة « برجا نستطيع أن نطل منه على أميركا » ، بينما نرى أن الدرس الرئيسي الذي يركز عليه الرواة الثلاثة ، مع أنه خارج منهاج الصف الثاني الأول ، هو « اكتشاف وغزو أميركا » . ولكن كل ما جاء في هذا الكتاب عن العالم الجديد ، من هذا الدرس « الذي كان عليه أن يلعب دور نقطة الانطلاق والارتكاز » (ص ١٧٥) الى السردوس

(١٤٣)

Le Genie du lieu, p. 208-209

(١٤٤) نتمند هذه الترجمة لعنوان الكتاب المذكور مع الإشارة إلى أنها ليست الوحيدة الممكنة ، وكلمة قد تعني أيضا : المحول واليات أو الخاظر ، كما أنها تلعب إلى شركة موبيل البرولية وتذكر بالأشكال الفنية المتحركة التي أشهر بها التماثيل الأميركية كالدور .

« هذا المضارع الوسيط الذي يسبح وينتقل بين وجود ذلك الماضي الذي يعنيه وهذا الحاضر الذي نوجد فيه ، يتفحصه كل منا ويكتبه إذا كان كاتباً ، ويعيد تشكيله وهو يقرؤه إذا كان قارئاً »^(١٤٨) .

والقصة التي نتكلم عنها تلعب نفس دور المضارع المذكور : فهي « تسبح » بين بلدين : مصر التي تحدث عنها في صفحاتها الأولى ، وأميركا الغائبة الحاضرة ، في الأخيرة ، و « تنتقل » بين طريقتين في التعليم : واحدة « تصك المجموعات البشرية كقطع النقد »^(١٤٩) ، وأخرى « تنمي خصائص ومواهب كل فرد »^(١٥٠) تسبح بين « عديدين » للرواة : المفسر والجمع ، بين نوعين أدبيين : القصة والكتابة التصويرية ، بين عقليتين : عقلية اعتاد عليها الغرب ، متكبرة ومتسلطة ، وثانية ينادي بها الكاتب - الرحالة ، تتفاعل مع شعوب وحضارات أخرى ، تتعرف على نتائجهم وتعرف بأماكنهم الجغرافية والثقافية ، وهي تنتقل أخيراً بين أماكن متناثرة في شتى بقاع الأرض وبين صنفين من البشر : راكد سجين ضمن حدود ضيقة ومرتحل باحث متطور متجدد .



رفاق وأدلاء : في كل مراحل هذه الرحلة يرافق المسافر شخصيات وهمية ، أدبية ، تاريخية أو أسطورية ، ويستعين بأعمال أدبية وفنية تشكل في مجملها شبكة واسعة ومتكاملة من المعالم التي تساهم في تسهيل وأغناء وتعميق الاستكشاف .

أميركا « كاستعمر يجهد للقضاء على معالم البلد الذي يغزوه »^(١٤٥) ورفض لممارسات أسلافه الأوروبيين الذين هاجروا الى أميركا حيث طردوا الهنود الحمر من أرضهم الأم واستعبدوا السود الذين كانوا يأتون بهم من أوروبا . أما الوجه الآخر للفشل الظاهري فهو الدلالة على رغبة بالوصول كمكتشف يريد أن يتعلم ويعلم ، كإنسان متخلص من كل الأفكار المسبقة ومن كل ثقل ورغب ذكريات « الفاتحين » الأوائل تجار الرقيق ومبيدي القسم الأكبر من السكان الأصليين لقارة أميركا . من هنا تركيزه على شخصيتي كرسوفر كولومبس وماركو بولو ، وذلك لكون الأول من فتح طريق الاكتشافات البعيدة والثاني أول أوروبي قدم في كتابه « وصف العالم » وثائق جغرافية وعرقية عن بلاد وشعوب الشرق الأقصى . ونستطيع القول بأن هذا الرحالة يهدف من جهة الى « ردم هذه الهوة الرهيبة بيننا وبين غرائزنا ، بيننا وبين باقي العالم »^(١٤٦) والى تخلصنا من مصير الغزاة الذين يقولون باب الخلاص أمامهم وأمام الآخرين ، ويعمل من جهة أخرى على « انبثاق نور جديد من بتابع مازالت مجهولة ، يتابع تعيد الشباب للحضارة الأوروبية الهرمة وتتيح لنا إيجاد شباب ما لا نعرفه في حضارتنا الا هراً »^(١٤٧) . يفتش إذن عن طريق مختلف يوصله الى العالم الجديد .

باقتربنا من نهاية هذه المرحلة من رحلة بوتور الطويلة والمستمرة ، نورد ما ذكره أحد الرواة الثلاثة لقصة « درجات » عن المضارع الذي يستعمله لسرد الأحداث :

J.M. Le Sidaner, op. cit. 57
Repertoire II, p. 181

Degres, p. 253
Resistances, p. 28

(١٤٥)
(١٤٦)
(١٤٧) نفس المصدر ، ص ١٨٠
(١٤٨)
(١٤٩)
(١٥٠) نفس المصدر والصيغة

يجاورونهم أو يرافقونهم . كل ذلك يبين التأثير الكبير الذي مارسه اليهودية وما تزال على التفكير الأوروبي .

هذا التيار المزيج ، اليهودي المسيحي ، يظهر من خلال كتب بوتور على علاقة وثيقة بتيار آخر أقدم منه ، نعتي به الأساطير اليونانية الرومانية القديمة المرتبطة بدورها بأساطير مصر القديمة . ولقد رأينا كيف أن مدينة روما تجسد التقاء كل هذه التيارات . أما بالنسبة لرفاق الرحلة ، فمن المهم أن نلاحظ أن ظهور زكريا مصحوبا بعرافة وثنية في حلم ليون دلون يفتح الطريق أمام مركب طويل من الباباوات والأباطرة وأهنة الأساطير الذين يلعب ظهورهم دورا أساسيا في تعديل خطة ليون دلون ويجعله يتوقف عن رؤية عشيقة ويقرر العودة إلى زوجته وأولاده . أما جاك ريفل بطل « استعمال الوقت » ، فإنه يتأمل طويلا زجاجيات الكاتدرائية القديمة التي تمثل قابيل وبابل وسدوم وعمورة وروما الأباطرة المسيحيين ، ثم يقول : « كأن الرسامين القدماء أرادوا أن يبينوا ، من خلال تصويرهم للقراءة الرسمية للتسورة ، بأنهم يكتشفون فيها شيئا آخر » (١٥٢) . هذا « الشيء الآخر » ليس سوى الانعكاسات الأسطورية والثقافية لحضارات أخرى متفاوتة البعد جغرافيا وتاريخيا والتي تساهم بوسائل مختلفة في تشكيل العقلية الأوروبية .

« إن المقارنة مع أساطير الآخرين (هؤلاء الآخرون قد لا يكونون سوى أعداد أو إخوة) هي وحدها التي تتيح لنا فهم أساطيرنا والتعايش معها . ذلك ما يجعل جغرافيتنا ترتسم أمامنا بديناميا ومنحدراتها وسدودها . وكلما تعمقنا في معرفتها كلما استطعنا تحسينها » (١٥٤)

وتظهر في القصة الأولى لائحة للمرافقين الرئيسيين الذين يحددون اتجاهات المراحل التالية : تضم اللائحة راهبين شقيقتين ويهوديا وشابا مصريا وكاتبا ورساما .

الراهبان اولاهما حسب القصة ابنا اوغسطين - وهو اسم ذو دلالة مزدوجة ، إذ انه يذكر اولاً بالامبراطور الروماني الشهير اوكتافيوس اغسطس ويذكر ثانياً بالقدس اوريليوس اوغسطينوس أحد أشهر دعاة المسيحية في الغرب - وهما نموذج لرجل الدين الموجود أيضا في القصتين التاليتين . ففي « استعمال الوقت » يعطي أحد الرهبان معلومات مهمة عن بلسون وكنائسها لجاك ريفل الذي يصرح بدوره : « لقد نشأت على تربية كاثوليكية رومانية ولكنني محوت من نفسي منذ مدة طويلة اغلب مبادئ « التاريخ المقدس » التي غرست في ذهني » (١٥١) أما في « التعديل » ، فهناك أيضا راهب بين ركاب الدرجة الثالثة التي يسافر فيها ليون دلون ، ويلاحظ هذا الأخير ارتباطه وعصبية فيقول : « من المحتمل أن قرارا ما ينتظره هو الآخر . . وربما قرر التخلي عن طوقوس وعن ثوبه الكهنوتي » (١٥٢) وفي « عبقرية المكان » نرى مظاهر مختلفة للمسيحية في كل المدن التي يزورها المسافر .

والشخصية الرمزية الثانية التي تمثل اليهودية ، أي العهد القديم ، نجدها أيضا في الكتب الثلاثة المذكورة حيث تظهر باستمرار بعض الأسماء التوراتية مثل قابيل وزكريا ويوسف وموسى (عليهم السلام) . وهذه الأسماء وغيرها تلازم تفكير المسافرين لدرجة أن بعض هؤلاء يتخيلون وجودهم أو يرون في أحلامهم أنهم

L'Emplot du temps, p. 74

(١٥١)

La Modification, p. 90

(١٥٢)

L'Emplot du temps, p. 79

(١٥٣)

J. M. Le Sidaner, op. cit. p. 34

(١٥٤)

قصة بوليسية تروي ضمن القصة الرئيسية ويؤلفها كاتب وهمي يقول عنه جاك ريفل : « لقد كان نصيري لي ضد المدينة ، كان ساحرا معتادا على المخاطر استطاع أن يزودني بسحر قوي لكي اخرج منتصرا من تلك السنة ، من تلك الإقامة التي لم أكن أدرك قوة سموها ومكائدها ولم أكن أدرك صعوبة دحرها » (١٥٦) .

أما الانتصار على المدينة ، بمعنى خروج المسافر منها محتفظا بقدرة على التفكير والتحليل ومحددات اتجاهه التالي ، فلم يتحقق إلا بعد دراسة مستفيضة للأعمال الفنية المميزة فيها ، من رسم ونقش وزخرفة وموسيقى ومسرح وحتى بعض الأفلام السينمائية الوثائقية .

واختيار العمل الفني يتم دائما على أساس أن يكون « متعدد التفسيرات ، متحركا ومنتوجا ، » (١٥٧) وأن يشكل « نقطة تآلق » و « مركز توليد لا يكف عن الإشعاع » (١٥٨) في اتجاهات وإبعاد متفاوتة يتوجه نحوها المستكشف في المراحل التالية .

في المراحل التالية من الرحلة يبدو المسافرون وكأنهم ينتقلون داخل مكتبة غنية ومتحف شاسع . ففي « التعديل » تشكل « أنياد » فرجيل و « رسائل الامبراطور يوليانيوس المرتد » و « الدليل الأزرق » لمدينة روما وكتاب « تعليم اللغة الإيطالية » و « دليل السكك الحديدية » بين فرنسا وإيطاليا بالإضافة إلى قصة تشتري من محطة القطار في باريس ، يشكل كل ذلك العدة اللازمة لليون دلون في محاولته للتعرف على « أساس وحجم أسطورة روما » ، بينما يراه يستنتج من جهة أخرى بأن كثيرا منا يستطيعون بوساطة كتاب « التوصل

الرفيق الثالث للمسافر يتمحور حول شخصية الشاب المصري أحمد ، هذا الشاب الأسمر الذي يظهر في « استعمال الوقت » ، دأكا أكثر ، من خلال ملامح شاب إفريقي يطلع بطل القصة على كثير من أسرار المدينة البريطانية ، ثم يعود للظهور في « وصف الفنان كقرء فني » من خلال الشاب الفرنسي ذاته هذه المرة ولكن كبطل من أبطال « ألف ليلة وليلة » ، هو صورة للغريب ، للمختلف عن الآخرين ، ولكن هذه الشخصية هي الوحيدة التي تتغير كليا وتتطور النظرة إليها تطورا إيجابيا ، فينبا يبدو في القصة الأولى غريب الأطوار وشبه معزول عن الآخرين ، يصبح شيئا فشيئا المعلم والدليل ، فهو في ألمانيا يطلق كلمة السر التي تفتح طريق الشرق ودروبا أخرى ، وهو في مصر يذكر الفرنسي بسقط رأسه باريس ، « بالشانزليزيه وخاصة ساحة الكونكورد التي توسطها مسلة مصرية » ، (١٥٥) وهو في باريس من جديد ، يلتفت نظر المسافر إلى أن عليه زيارة أماكن أخرى والتعلم من شعوب كثيرة مازال يجهلها .

أما الشخصيتان الأخيرتان في لائحة القصة الأولى فهما الكاتب والرسام ، وهما موجودتان بزيارة في جميع كتب بوتور . فالسافر يستعين بهما دائما في تحضير وبدء الرحلة ، ويصطحبها خلافا ثم يعود لمناقشتها معها .

يقوم بوتور ، كما ذكرنا ، برحلات لا حصر لها في أعمال الأدباء والرسامين والنحاتين والموسيقين ، ولكن هذه الأعمال تلعب من جهة أخرى دورا مزدوجا كأدلاء و « أدوات تفكير » ففي « استعمال الوقت » مثلا نجد

(١٥٥)

Le Genie du lieu, p. 108

(١٥٦)

L'Emploi du temps, p. 57

(١٥٧)

Lucien Dallenbach, Le Livre et ses miroirs chez Butor, p. 13

(١٥٨) نفس المصدر ، ص ١٦

هي منه ، حتى تفقد جاذبيتها ويخفت برقيها ويموت الحب .

أما العلاقة بين المسافر ورفاق دربه فهي متبادلة في كل القصص باستثناء « التعديل » حيث « يجد نفسه أمام نماذج بشرية متنوعة يعطي لكل منها وهو يفكر أو يحلم أسما وسيرة ، مما يشكل رابطا بينه وبينهم ولكن دون مبادلة » (١٦٢) إنما ذلك لا يمنع من مساهمة هؤلاء الأشخاص في تعديل مشروع المسافر وانعطاف الطريق التي يسلكها .

« نقول لنفسك : « لو لم يكن هنا كل هؤلاء الناس ، لو لم تكن موجودة هذه الأشياء وهذه الصورة التي تعلقت بها أفكارني مما سبب تكوين نوع من الآلة الفكرية يجعل مراحل وجودي تنساب الواحدة فوق الأخرى خلال هذه الرحلة المختلفة عن الأخريات .

« لو لم توجد هذه المجموعة من الظروف ومن توزيع اللعب ، فمن الممكن أن هذا الشرح الواسع في شخصيتي لم يكن ليحدث هذه الليلة وإن أوهامي كانت تستمر لبعض الوقت » (١٦٣) .

كما أن كل مكان يملك القدرة على أن يكون ملتحق طرق ، فإن كل شخص يشكل « رابطا » بين عدة مجموعات بشرية وعدة تيارات ثقافية تساهم بتكوين عقلية هذه المجموعات .

وإذا كان سكان المبنى الباريسي قد فقدوا الاتصال فيما بينهم وغرق كل منهم في عزلة شبه تامة ، فذلك لم يمنع بعضهم على الأقل أن يتوصلوا في نهاية القصة لتطوير طريقة تفكيرهم ولفتح أبواب بانهم ، في محاولة لجعله متينا ، على الخارج الذي زوده فيما بعد بأساسات

الى « السماح لهذه الحرية البعيدة عن متناولنا ، السماح لها ، ولو بمقياس صغير جدا ، أن تتكون وأن تتربص » (١٥٩) .

ولكن معالم الطريق من الكتاب الدليل الى الكتاب المحرر كانت ، بين عوامل أخرى ، مجموعة أعمال فنية منها ما هو معلق على جدران مقصورة القطار أو في منزل ليون ومنها روايت متحف اللوفر وقوسا النصر في باريس أو اثار روما أو بعض مقطوعات مونتيفردى الموسيقية . كل ذلك ، بالإضافة الى مكتبة قصر البارون و« المتحف الألماني » وكتب وآثار « عبقرية المكان » ، يشكل شبكة متكاملة هدفها التوضيح والتعريف والتوجيه .

إلى جانب الشخصيات الرمزية التي ذكرناها هناك مجموعة كبيرة من رفاق الدرب تساعد بتوجيه وتعميق الاستكشاف . فافريقي « استعمال الوقت » يلعب - عدا عما ذكرناه سابقا - دور « المرشد الى حقيقة ممنوعة عن المسافر . وسليبيته تصبح مثلا ، فهو لا يعلمنا الحرية فقط ، بل يحذرنا أيضا من كل أشكال العبودية التي قد نمارسها » (١٦٠) ولكونه يشترك مع الفرنسي في « حقه الأسود » على مدينة بلستون ، يصبح الاثنان معا « منفيين فقدوا الا من الجسدي والروحي الذي يؤمنه الاستقرار في الوطن الام » . (١٦١)

والحبيبة أيضا تلعب دور الدليل ، ليس ذلك فقط ، بل إن الحب مرتبط في قصص بوتور بهذا الدور ، فما ان تتوقف عن تزويد المسافر بمعلومات عن المكان الذي يقصده ، وما ان يفك ارتباطها التعريفي بالمكان الذي

La Modification, p. 274

Georges Raillard. L'« temple, postface de l'Emplol du temps, p. 493

(١٥٩)

(١٦٠)

٤٨٨ نفس المصدر ، ص

Michel Letris, Le Realisme mythologique de Michel Butor, postface de La Modification, p. 298

La Modification, p. 274

(١٦١)

(١٦٢)

(١٦٣)

كذلك ، فكل من يلتقيه المسافر يقدم ، بصورة مباشرة أو غير مباشرة ، ايضاحات عن نفسه وعن المسافر والمكان ، وكل رفيق يظهر كموجه أو دليل أو شبيه ، مما يجعل مجتمعا مصغرا يتشكل في الطريق ويتحرك مزودا بكتابة ويمتحف نحو شعوب أخرى وأماكن أخرى وأزمنة أخرى تحاول رحلات ميشال بوتور أن تجمعها في كتب يكون كل منها مصغرا عن تلاقي الحضارات على طريق مستقبل أفضل .

أصلب بكثير ، ولم يمنع أيضا ركاب قطار باريس - روما ، بالرغم من صمتهم المطبق أغلب الوقت ، أن يكشفوا للمسافر الرئيسي الزوايا المظلمة في شخصيته وذلك بظهورهم الواحد تلو الآخر كأنعكاسات أو كاجزاء من هذه الشخصية المتصدعة التي ترى أحلامها ورغباتها وقلقها وهمومها ومشاعلها ومختلف نماذج ثقافتها وعواطفها تتوالى أمامها .

ما من أحد يسافر وحيدا عند بوتور ، حتى ولو بدا

المصادر والمراجع :١ - كتب :

- Butor, Michel:
 - Passage de Milan, Editions de Minuit, Paris, 1954.
 - L'Emplod du temps, Minuit, Paris, 1956.
 - La Modification, Minuit, Paris, 1957.
 - Le Benie du lieu. Editions Bernard Crasset, Paris, 1958.
 - Degres. Editions Callimard, Paris, 1960.
 - Repertoire II, Minuit, Paris, 1964.
 - Portrqi de l'artiste enjeune singe, Callimard, 1967.
 - Repertoire III, Minuit, Paris, 1968.
 - Ou (Le Genie du lieu 2), Callimard, Paris, 1971.
 - Repertoire IV, Minut, Paris, 1974.
 - Matière de rêves, Callimard, Paris, 1975.
 - Second sous — sol, Callimard, Pgris, 1976.
 - Troisième dessous, Callimard, Paris, 1977.
 - Boomerang (Le Ceinie du lieu 3), Callimard, 1978.
 - Quadruple fond. Gallimard, 1981.
- Butor, Michel et Launay, Michel: Resistances. Presses universitaires de France, Paris, 1983.
- Charbonnier, Georges. Entrectiens avec Michel Butor. Gallimard 1967.
- Colloque de Ccrisy — la — Salle tenu en ete 1973 sous la direction de George Ralliard: "Michel Butor". Union generale d'editeurs. Paris. 1974.
- Dalenbach, Lucien. Le livre et ses miroirs dans l'oeuvre de Michel Butor. Archives des lettres modernes, Paris, 1972.
- Rossum — Guyon, Francoise van. Critique du roman. Gallimard, 1970.
- Roudaut, Jean. Michel Butor ou le livre futur, Gallimard, 1964.
- Sidaner, Jeqn — Mqrie le, Michel Butor, voyageur a la roue, Editions Breches, Paris 1979.

٢ - مقالات ، دوريات ، مقابلات :

- L'Arc, No. 39. Numero special consacre a Butor. 1969.
- Butor, Michel, "Palermc", L'Arc No. 6. printemps 1959 theme du voyage. 23 a out 1983.
- Magazine litteraire, no. 110, mars 1976, consacre a Butor.
- Obliques, no. 4-5 1976, numero special: Michel Butor.
- Romantismc, no. 4, 1972, cons a cre au voyage."

٣ - معاجم :

- La Grande Encyclopedie Larousse. 10 volumes, Paris, 1972.
- Larousse du XX^e siecle, 6 volumes, Paris, 1964.
- Le Grand Larousse de la langue francaise, 7 volumes, Paris, 1978.
- Le Robert, dictionnaire analogique et alphabetique de la langue francaise. 6 volumes. Paris, 1970.

* * *

صَدْرُ حَدِيثًا

كتاب (تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم)
لمؤلفه الأستاذ عبد المنعم السيد عشري ، ظهرت طبعته
الأولى في مصر ، وقامت بنشره الهيئة المصرية العامة
للكتاب خلال ١٤٠٥هـ (١٩٨٥م) ، وهو يقع في
(٣٢١) صفحة من القطع الكبير ، ويضم مقدمة
قصيرة وسبعة فصول (أو مقالات على حد تعبير
صاحبها) . ثم صفحة واحدة ذكر فيها سبعة مراجع
فقط ، وانتهى الكتاب بفهرست للموضوعات . كذلك
فقد إحتوى الكتاب على ٣٥ صورة فوتوغرافية وأيضاً
١٢ شكلاً توضيحياً . كان أقصر فصل في الكتاب هو
الأول (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) ، بينما
نجد أن الفصل السادس (الانسان) هو أطول الفصول
وأضخمها . فقد شغل أكثر من ثلث الكتاب كله . أما
بقية الفصول فمقاربة الأحجام . كانت الفصول على
التوالي : عن الآيات الكونية في القرآن الكريم ،
الأرض ، السحاب والمطر ، النباتات ، الحيوان ،
الانسان ، ثم السماء . والمؤلف من الذين مارسوا
تدريس علم الفيزياء في الكليات والمعاهد العلمية قرابة
أربعين عاماً ، وله كتاب صدر قبل الذي نحن بصدده
الآن ، هو (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت
بنشره نفس الدار . ثم هو قد تفرغ بعد إحالته على
التقاعد لاختراع الكتاب الحالي ، والذي جاء ثمرة
لتخصصه العلمي ، وحميته الإسلامية ، فذلك واضح
من مقدمة الكتاب .

مقدمة الكتاب لا تتعدى الصفحتين ، بين فيها
المؤلف الدوافع التي دفعته الى تأليف هذا الكتاب
والهدف الذي ينشده من وراءه . أما الدوافع فإيمانية تمت
يوماً بعد يوم خلال عمله التخصصي ، وأما هدفه فهو
السعي إلى (إظهار أن كل ما في الوجود من أصغره إلى
أكبره .. من الالكترون إلى المجرة .. من الفيروس إلى
الانسان .. كل هذه المخلوقات من أدها إلى أعظمها

تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم

تأليف : عبد المنعم السيد عشري
عرض وتحليل : كرم السيد غنيم

ليست بكثرة عناوين ، بل بوضوح المحتوى وعدم غموض أسلوبه في الوقت الذي يجب ألا يفقد الكلام فيه العمق مع الإيجاز غير المخجل .

في قول الله تعالى « وإذا قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة ، قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ، قال إني أعلم ما لا تعلمون . وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة فقال أنبؤني بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين » (البقرة / ٣٠ ، ٣١) . تكلم المؤلف في شرح هاتين الآيتين مستمداً ذلك من تفاسير مشهورة ، ثم استخلص أن الله تعالى علم آدم الأجناس التي خلقها ، وألممه معرفة ذواتها وخواصها وصفاتها وأسمائها ، ثم عرض مجموعة تلك الأشياء على الملائكة ، فلما عجزوا عن أن ينبئوا بأسمائها أصبحوا في موقف التسليم بأن آدم عليه السلام إنما خلق ليخلف الله في الأرض ، ويكون سبباً في عمارتها . وتدل الآيات أيضاً على فضل العلم ، إذ لو هناك أفضل منه لأظهر الله فضل آدم به لا بالعلم ، فالعلم هو القوة التي تحقق للإنسان الغرض من استخلاف الله له على الأرض ، ولا ينفى على أحد ضروره في كل مناحي الحياة من زراعة وصناعة وتجارة وارتقاء وحضارة وغيرها .

وإذا كان الغرض من خلق آدم هو الاستخلاف على الأرض ، فإن الابتلاء هو خير وسيلة لأشرف غاية ، فإن الإنسان لا تكتمل لشخصيته الانسانية ذاتيتها المستقلة الا بقدر ما يتصارع في نفسه من نوازع الخير والشر ، ويقدر ما يعانينه من التجارب والمقاساة ، وما يغالبه من مشاق ومتطلبات الحياة . وجاء ناموس الأنبياء ، وهو استخلاف الإنسان في الدنيا ، ومعه ناموس إعطاء الجزء على قدر العمل ، وهو أساساً في الآخرة ، إلا أن الله يظهر أجزاء منه في الدنيا .

أما كون الدين الاسلامي دين الفطرة ، فالفطرة أولاً

دليل على أن خالقها أجل من أن يحيط به وصف الواسفين ، ومعارف العارفين . بهذا يلتقي العلم والقرآن . . .) . ثم أوضح المؤلف خطته المتبعة في تناول مسائل الكتاب ، حيث تمهد بتبسيط المعلومات والمعارف الكونية ، كي يستطيع القاريء استيعابها ، ثم يتبع ذلك بذكر بعض الآيات القرآنية التي تشير الى تلك المسائل ، ويسوق شروح المفسرين لها . الأساس الثالث في هذه الخطوة المتبعة هو الالتزام في التفسير العلمي بمنطق الآيات القرآنية ومعانيها والسياق الذي وردت فيه ، وهذا دفعه الى ربط الآيات على الدراسة بالآيات التي قبلها مباشرة .

كانت المقالة الأولى (أو الفصل الأول) في هذا الكتاب أقل المقالات حجماً ، كما أشرنا آنفاً . فهي لم تعد عشر ورقات ، وتعد مدخلاً لموضوع الكتاب ، فهي (عن الآيات الكونية في القرآن الكريم) . تضمن العرض عناوين جانبية هي : استخلاف الله الإنسان على الأرض - الجزء على قدر العمل - دين الفطرة - الحقائق الكونية والعلمية في القرآن - القرآن - منزلة العلم في القرآن الكريم - العلم ووسائل تحصيله - الإنسان مستصالح للدارين . قبل أن أبين عن مضمون هذا الفصل ، أود الإشارة الى أمر أراه من الأهمية بمكان كبير ، ذلك هو اضطراب الفقرات وعدم تسلسلها على النمط المنطقي ، وعليه فاني أرى أنه كان من اللائق إيراد الفقرات في تسلسل هو : القرآن - منزلة العلم في القرآن - وسائل تحصيله - استخلاف الله الإنسان على الأرض - دين الفطرة - الحقائق الكونية والعلمية في القرآن . وكل من « الجزء على قدر العمل » ، « الإنسان مستصالح للدارين » ، لا داعي لوجودها ، فسياق الكلام في الفقرات المختلفة يدل عليها . ثم إن كثرة العناوين الجانبية تفتت الكلام وتضيع رونقه ، وتضعف من الترابط الفكري للموضوع ، فالعبرة

المذكورة في الآية القرآنية « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة ، لعلكم تشكرون » (النحل / ٧٨) . إذاً فالسمع والبصر والعقل هي أجهزة العلم والتعلم وتدير أمور الدنيا وتكشف خباياها . وهذا المنهج القائم على منطق النظر والاستقراء هو المنهج الصحيح في لغة العلم الحديث . ثم أشار المؤلف إلى أدوات المشاهدة الحسية وما استعانت به من أجهزة علمية حديثة .

الفصل الثاني (أو المقالة الثانية) كان عن الأرض ، واستغرق التثنية وثلاثين صفحة ، بدأه المؤلف بإعطاء نبذة عن الأرض ، فلما انتهى منها اتجه إلى إيراد بعض الآيات القرآنية التي تتعلق بالموضوع ، وساق شيئاً من تفسيرها مقتبساً إياه من بعض كتب التفسير التي ذكرها في نهاية الكتاب . ما أهمية الأرض بالنسبة للإنسان ؟ أو بمعنى آخر : ما هي أوجه انتفاع الإنسان بالأرض ومكوناتها في حياته الدنيا ؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال هي صدر الفصل ، حيث أكد المؤلف ما هو معلوم بالبديهة في أن الأرض مقرنا الذي نعيش فيه ، والذي ارتبطت به حياتنا . كيف ذلك ؟ لأن من هوائها نتنفس نحن ومساكن الأحياء ، ومن مائها الذي يجري في أنهارها وبحيراتها وينابيعها نشرب ونسقي الحيوان والنبات ، ومن زرعها . . . ومن بحارها . . . ومن باطنها . . . وفي دروبها . . . يتجه المؤلف بعد هذه النبذة إلى تفصيل عدد من الأمور هي : شرح ضرورة هواء جو الأرض وبعض العمليات المختلفة التي عمادها غاز الأكسجين . أول هذه العمليات الحيوية التنفس ، ما هو المقصود بالتنفس وما أهميته بالنسبة لأي كائن حي ؟ وكيف يتنفس الحيوان وكيف يتنفس النبات ؟ ؟ ؟ بعد هذه الأجابات انتقل إلى عملية الاحتراق : ما هو المقصود بالاحتراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاشتعال على الأرض ؟ ما هي الأركان الثلاثة

ليست عقلاً صرفاً ولا عاطفة محضاً ، بل هي مزيج منها ، فلا غلبة لأحد الجانبين على الآخر ، وهنا تكون الفطرة سليمة ، تشدد الله وتعرف سبيلها إليه « فأقم وجهك للدين حنيفاً ، فطرة الله التي فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (الروم / ٣٠) .

عن الحقائق الكونية والعلمية في القرآن ، يوضح المؤلف أن القرآن يحفل بالآيات التي تنبه الأذهان إلى ظواهر الكون تدليلاً على باريه ومصوره ، وإظهاراً لعظمته وقدرته ، وتبياناً لرحمته بخلائقه . . . وحتماً على اكتشاف الأسرار والقوى الكونية وتطبيقها وتسخيرها واستغلال كنوز الكون وثرواته فيما يعود على الإنسان بالخير . ومن الآيات القرآنية الزاخرة بهذه المقاهيم أورد المؤلف الآيات : الأنبياء / ٣٠-٣٣ ، السجدة / ٤-٩ ، القمر / ٤٩ ، الحجر / ١٩-٢٢ ، فصلت / ٩-١٢ ، البقرة / ١٦٤ ، الرعد / ٢-٤ ، فاطر / ٢٧-٢٨ ، يس / ٣٧-٤٠ ، القصص / ٢٢ ، ٧٣ ، الروم / ١٧-٢٧ ، الفرقان / ٥٣ ، ٥٤ ، الأنعام / ٩٩ ، يس / ٧٨-٨٠ ، الواقعة / ٥٨-٦٠ ، الواقعة / ٦٨-٧٠ ، الواقعة / ٧١-٧٤ ، الطارق / ٨-٥ .

بعد ذلك يعود المؤلف ليتكلم عن القرآن ، تعريفه ومحتواه وعظمته ، وهو الأمر الذي كان يجب عليه إيراده قبل تعرضه للكلام عن الآيات الكونية والعلمية في القرآن . وفي معرض حديثه عن أن القرآن لم يفرط في أمر من الأمور كبيرها وصغيرها إلا أحصاها ، ودلل عليها وبه الأذهان إليها ، واستدل على ذلك بالآيات : النحل / ٨٩ ، الأنعام / ٣٨ ، الروم / ٥٨ ، ٥٩ ، الأعراف / ٥٢ ، العنكبوت / ٤٩ . بعد ذلك عرج صاحب الكتاب على بيان منزلة العلم في القرآن الكريم ، ثم تعرض لبيان وسائل تحصيله ، وهي

من الكلام للتعريف بالموضوع ، لا نجد بدأ من الإشارة إلى أمرين للتعريف فات المؤلف الانتباه إليهما ، والعناية بهما .

الأمر الأول : أنه لم يتناول عرض النصوص القرآنية في هذا الفصل - وكذلك الفصل السابق وبقية الفصول اللاحقة - مرتبة حسب ورودها في المصحف ، فلا السور متوالية ، ولا الآيات المذكورة من سورة واحدة متتالية ، بل نرى نصاً من سورة تقع بعدها في ترتيب المصحف الشريف ، ونرى أيضاً آية تكلم عنها المؤلف ذات رقم معين ، وانتقل إلى الكلام في نفس الفصل عن آية أسبق منها في الموقع داخل السورة ذاتها ، أي لم تأت الآيات مرتبة حسبما توجد في السورة . وقد يلجأ الكاتب أحياناً إلى شيء من هذا الذي أخذته على المؤلف ، ولكن عند الضرورة التي يستدعيها تناول موضوع ما ، وهو ما لا نراه ملحقاً في هذا الكتاب الذي نعرض له . ولبيان ذلك نشير إلى النصوص القرآنية التي عرضت في هذا الفصل ليتضح ما رأيناه ، وهي : الأعراف / ٥٤ ، فصلت / ٩ ، ١٠ ، الحديد / ٤ ، ٥ ، ٦ ، السجدة / ٤ ، ٥ ، ٦ ، النمل / ٦١ ، الرعد / ٣ ، الحجر / ١٩ ، ٢٠ ، الزمر / ٥ ، الإسراء / ١٢ ، فاطر / ٤١ ، النحل / ١٥ ، النازعات / ٣٠ - ٣٣ .

الأمر الثاني : شيوخ نقل النصوص التفسيرية من هنا وهناك ، وعرضها دون الإشارة إلى مصادرها ، كل في حينه وأيضاً عدم الرجوع إلى مصادر تفسيرية معتمدة ومشهورة خلاف التي ذكرها في نهاية الكتاب ، وهذا أمر خطير أبان المؤلف في مقدمة الكتاب عن عزمه في تفاديه ، ولكنه وقع فيه على امتداد الفصول السبعة التي احتواها الكتاب .

كما هو واضح من إشارتي السابقة إلى النصوص القرآنية التي وردت في الفصل الحالي ، فهي اثنا عشر نصاً ، بداه صاحب الكتاب بقول الله عز وجل : إن

التي يجب أن تتوفر لتتم عملية الاحتراق ؟ ما أهم المواد القابلة للاحتراق وكيف نستخرجها من باطن الأرض ؟ . ثاني الأمور الضرورية على سطح الأرض هو الماء : ما أوجه ضرورة الماء ؟ ليس فقط الكائنات الحية بل كذلك للعمليات غير الحية المتعددة والتي تتم في كوكبنا الأرضي ؟ . ثالث هذه الأمور هو التربة : ما هو وجه الضرورة في وجود تربة تغطي سطح الأرض ؟ وما أهم مكوناتها ؟ وما دخل ذلك في نمو النباتات ؟ ثم توسع قليلاً في مسألة النبات فشرح أهمية الماء والأملاح والطاقة الشمسية في عملية نمو النباتات ، ثم اتجه الإنسان إلى التفكير في استخدام « أسمدة » مختلفة الأنواع لتحسين خواص التربة لتنتج لإنتاجاً زراعياً أكثر وفرة . الأمر أو المسألة الرابعة التي حاول المؤلف عرضها مؤثراً تبسيط الكلام فيها هي : اتخاذ الأرض مصدراً لبناء دور السكنى ، وفي معرض حديثه تناول الإشارة إلى الطريقة الجيولوجية لتكوين الأحجار الجيرية المستخدمة في بناء الدور . ثم بين أهمية ملح الطعام للإنسان وفي عدد من الصناعات . وبعده قفز إلى حديثه عن بعض الفلزات التي يستخرجها الإنسان من الأرض ، وهي هامة وضرورية في حياته المعيشية والحضارية أيضاً ، ومنها الحديد والنحاس والألمنيوم والذهب والفضة . وفاته أن يتكلم عن أهمية هواء جو الأرض في نقل الإنسان وخلافه من الكائنات الحية بين المساكن وبعضها ، (بوساطة الطيران أو ركوب الهواء) ، وكذلك انتقال الموجات الصوتية عبر هذا الوسط ، فتدرك الأمر وأعطى فكرة عنه في نهاية الجزء العملي من هذا الفصل .

نأتي إلى الآيات القرآنية التي أوردها المؤلف ، وهي التي بين فيها المولى عز وجل الحكمة من خلق الأرض ، وما أراده بخلقها على الصورة التي عليها من نعم للعباد ، وإظهار قدرته في هذا الخلق . وقبل التقاطت نفث

العجيب والفعل البديع بعد ذلك فقال : ^(١) وجعل فيها رواسي من فوقها ، ^(٢) وبارك فيها ، ^(٣) وقدر فيها أقواتها » وحاول المؤلف أن يشرح شيئاً عن كل منها . أما النص الثالث ، فيوضح أن المقصود بقول الله فيه « يعلم ما يليج في الأرض وما يخرج منها وما ينزل من السماء وما يعرج فيها » هو « ما يليج في الأرض » من معادن وعناصر ونخامات وخلافه وكذلك البلور ، وما يخرج منها « كالزروع وكالمعادن المختلفة ومختلف المواد الجامدة والسائلة التي يستخرجها الإنسان من باطن الأرض ينتفع بها . » وما ينزل من السماء « من مطر ، وما يعرج فيها » من أبخرة . أما المعية في قوله تعالى : « وهو معكم أينما كنتم » فالمقصود بها معية القدرة واليجاد والتكوين والتصرف والتدبير . وفي معالجته للجزء من النص الكريم وهو قوله تعالى « يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات الصدور » يوضح أن المقصود بالإيلاج هنا هو جعل قصر الليل في طول النهار وطول الليل في قصر النهار ، وهذا حادث في الفصول المختلفة من الشتاء والصيف ، ويختلف حسب خطوط العرض في الفصل الواحد .

في غضون شرح النص الرابع وهو الآيات الكريمة ٤ ، ٥ ، ٦ من سورة السجدة ، وقع اضطراب في الكلام فورد الجزء « أم يقولون افتراه بل هو الحق من ربك لتنزلن قوماً ما أتاكم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » ، قبل ورود الآيات الثلاث الأولى من سورة السجدة ، وليس له مكان في سياق الكلام ، وفي السطور السابقة لوقوع هذا الاضطراب مباشرة يقول (...) إن هذا القرآن الذي أنزل على محمد لا شك أنه من عند الله ، فإهو يشعر شاعر ولا مسجع كاهن ولا هو مما اختلقه محمد ﷺ (...) ، وكلمة (مما اختلقه محمد) هذه توهم بأن محمداً قد اختلق أشياء أخرى ، إلا أن القرآن ليس من بينها ، فكان الأحوط أن يكون

ربكم الله الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ثم استوى على العرش يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً ، والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين » (الأعراف / ٥٤) . أوضح المؤلف - نقلاً عن بعض المفسرين - الحكمة في ذكر « ربكم في صدر الآية » ، ثم قال في معنى خلق السموات والأرض في ستة أيام : أي في ستة أطوار مرت على الخليقة يعلمها الله سبحانه وتعالى ، ويجب أن نقف - أي نمسك - عن تحديدها ، فانها لم تحدد بأخبار صحيحة ، ولا يعقل أن تكون الأيام الستة في هذه الآية من جنس إيماننا ، فان هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي يعلمها هو . فقد أبان الله عن يوم القيامة في الآية (٤) من سورة المعارج بخمسين ألف سنة ، وأبان عنه في الآية (٤٧) من سورة الحج بألف سنة من إيماننا نحن . ثم أبان المؤلف عن الحكمة في خلق السموات والأرض في ستة أيام وهو التقدير على خلقها في لحظة واحدة بالأمر « كُنْ » . بعده فصل معنى الاستواء في قول الله تعالى « ثم استوى على العرش » وأنه عموماً يقصد به استقامة أمر السموات والأرض وانفراده بتدبيرهما والتصرف في شئونهما . ثم تكلم في تعاقب الليل والنهار من منطلق القول الألهي : « يغشى الليل النهار يطلبه حثيثاً » ، وعالج الأمر من الناحية الفلكية . ورجع ليكرر ما ذهب إليه المفسرون الذين نقل عنهم مقصود الاستواء على العرش ، وذلك في ص ٢٩ . النص الثاني . يقول الله فيه : « قل أنتم كنتم تكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنبأداً ذلك رب العالمين ، وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين ، وخلال استرساله في شرح هاتين الآيتين يقول : ثم إنه تعالى لما أخبر عن كونه خالقاً للأرض في يومين أخبر أنه أنى بثلاثة أنواع من الصنع

عند تناوله للجزء من الآية « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين » ، ولكنه لم يف بالموضوع . في صدر كلامه عن النص السابع (الحجر / ١٩ ، ٢٠) يقول : سبقت هاتين الآيتين آيتان شرح فيها المولى عز وجل دلائل سماوية في تقرير التوحيد ، حيث قال : « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين ، وحفظناها من كل شيطان رجيم » (الحجر / ١٦ ، ١٧) ثم أتبع الدلائل السماوية بدلائل أرضية فقال « والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون ، وجعلنا لكم فيها معايش ومن لستم له برازقين » (الحجر / ١٩ ، ٢٠) . وفي النص العاشر (فاطر / ٤١) يتكلم عن إمساك السموات والأرض في قول الله تعالى : « إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا » ويشرح ناموس الجاذبية ويبيان معناها وبعضاً من أطراف المسألة . في النص قبل الأخير (النحل / ١٥) يبين أن النعم المذكورة هنا ، والتي يمن الله بها على خلقه هي : « وألقى في الأرض رواسي أن تمتد بهم » ، « وأنهاراً » ، « وسبلاً » . أما في النص الأخير (النازعات / ٣٠ - ٣٣) فيكرر ما سبق أن أشار إليه في عرض النصوص السابقة .

في نهاية هذا الفصل يجب أن نشير إلى أمور هي : تعدد مواقع التكرار والاعادة في جنبات الفصل ، وكذلك وقوع عدد من الأغلاط المطبعية والأخطاء العلمية ، وهذه وتلك سوف نفصل قولنا فيها آخر هذا التحليل . كما أن من أضرار النقل والاقتباس دون عناية بسياق القول هناك في التفسير ، تكرر لفظ « وقد سبق » للإشارة إلى أمور يظن المؤلف أنه أوردها سابقاً ، ولكن لم يجد أن أوردها . وكان من الأخرى به أن يحذف هذه الكلمة من موقعها ، ويضع ملخصاً لما تشير إليه (أنظر في هذا الأمر الصفحات ٢٨ ، ٣١ ، ٣١ ، ٤٦ ، ٤٩) .

التعبير باستخدام كلمة (ولم يختلف محمد) أو (ولا اختلف محمد) . في النص الخامس عدد المؤلف خمسة عشر مظهراً من مظاهر القدرة والحكمة والعظمة في الخلق والتدبير والتصرف في الكون . مسألة بسط الأرض التي وردت في النص السادس (الرعد / ٣) يقول المؤلف فيها : « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فإن أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطة . أما إذا التقطت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركية فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي بسطها ، فهي فيما ترى العين مبسوطة ، ولا شك أن الأرض كرة ، ولكن نظراً لكبرها فإن أي جزء صغير محدود من سطحها تراه العين مسطحاً مبسوطة . أما إذا التقطت صورة للأرض من موضع على بعد كبير منها ، كمركية فضاء ، لظهرت أنها كروية . والمقصود من قوله « وهو الذي مد الأرض » أي جعلها متسعة متمدة في الطول والعرض لتثبت عليها الأقدام ، وتمهد الطرق ، وتمد عليها خطوط السكك الحديدية ، وتقام المباني وتسير المركبات ويعدده أورد كلاماً مكرراً عن الجبال الرواسي ، وفي نهايته يلخص القول . . . فالجبال إذاً بروز للقشرة الأرضية ، فكانت الجبال حافظة لما تحتها مانعة له من الاضطراب والزلازل والثوران) . ثم أوضح كيف جعل الله الأنهار في الأرض ، وأشار إشارة لطيفة فقال : « وقد جعلت الآية الأنهار بعد الجبال الرواسي لأنها تنشأ منها ، فالسحاب عند قمم الجبال يبرد وتتجمع القطرات الرفيعة المكونة له مكونة قطرات كبيرة تنزل مطراً مدراراً كما يحدث في أماكن كثيرة مثل جبال الحبيشة التي ينبع عندها النيل الأزرق مكوناً أحد رافدي نهر النيل . وحاول أن يعالج عملية الإخصاب في النبات

قطرات الماء حول دقائق صغيرة من الغبار والحب ، تكون معلقة في الهواء ، وتعتبر هذه الدقائق نويات (أو كنويات - حسب ما ذكره المؤلف) لقطرات الماء . ودقائق الغبار هذه توجد في كل مكان ، فهي توجد فوق البحار المائية ، كما توجد فوق سفوح الجبال العالية . ويعدّه يتحدث عن المصادر الطبيعية لبخار الماء ، وتعرض لأهميته ، ووصل إلى طريقة تكون السحاب ، والفرق بينه وبين الضباب ، فالأول في طبقات عالية من الجو ، بينما الأخير يتكون قريباً من سطح الأرض . وفي معرض حديثه عنها أشار إلى أنواع السحب وهي : السحب الطبقيّة ، السحب الركابية ، السحب البيضاء ، والسحب الممطرة ، معطياً فكرة سريعة عن كل نوع . ثم انتقل إلى تعريف المطر وأشار بإيجاز إلى طريقة سقوطه ، وذكر أربعة عوامل تسبب نزوله ، وتكلم في تقدير كمياته ، وتوزيع مناطق غزارته وندرتة في العالم^(٢٢) . وفي نهاية هذا الجزء من الفصل تحدث في فقرتين اثنتين عن الشحن الكهربائي للسحاب ودوره في حدوث البرق والرعد . وقد تحللت الفصل صور فوتوغرافية أغلبها غير محدّد التفاصيل ، ومنها ما يمكن تسميته « صور تذكارية » وليس « صوراً علمية » .

ساق صاحب الكتاب في هذا الفصل تفصلاً قرآنيّاً تتعلق بالسحب والأمطار ، هي على الترتيب : النور / ٤٣ ، الحجر / ٢٢ ، الواقعة / ٦٨ - ٧٠ ، البقرة / ١٩ ، ٢٠ ، البقرة / ١٦٤ ، الأعراف / ٥٧ ، الروم / ٤٨ ، الرعد / ١٢ ، ١٣ ، فاطر / ٩ .

في النص الأول « ألم تر أن الله يريحي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصبب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء ، يكاد سنا برقة يذهب بالأبصار »

وفصلاً كهذا يحتاج إلى صور أو أشكال توضح بعض مسأله وتزيد الموضوع بياناً ، فهو زائر بالجبال ، مليء بالأهبار ، غني بالأزواج ، . . . وهو ما لم نجده ، عدا صورة تيمية واحدة ، أوضحت أهمية أملاح اليوناسيوم الموجودة في التربة في نمو النبات ، ولوان موضعها اللائق هناك في الفصل الخاص بالنبات .

ومن الانتصاف أن يحمّد للمؤلف صنيعة الجليل في الاتيان - أحياناً - بالآيات السابقة على كل نص من النصوص الاثني عشر التي حاول معالجتها في الفصل ، وذلك ليربط بينها وبين الآيات محل المعالجة ، وهذا أمر نوه إليه في خطته العلمية لتناول الموضوعات الكونية ، ويأتي أحياناً أخرى بالآيات اللاحقة لآيات النص المراد شرحه ، عساه أن تتم ما يريد أو تحلّي الروية شيئاً ما . ومن حسناته أيضاً إكثار الاستشهاد بآيات قرآنية عديدة في شرح النص الواحد . وهذه أمور نبه إليها علماء الدين ومفكره عند التصدي للحدّث عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم ، أو إن صح تعبيرنا : التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن^(٢٣) .

شغل الفصل الثالث : مساحة أقل قليلاً من تلك التي شغلتها المقالة السابقة . وفي فصله هذا يتناول مؤلفنا موضوع (السحاب والمطر) ، مقدماً له - كما فعل سابقاً - نبذة علمية ، تتلوها معالجة تسعة من النصوص القرآنية المتعلقة بالموضوع .

بدأ المؤلف فصله بحديث عن بخار الماء في الهواء ، محدداً طبيعته ، حيث أنه يوجد مختلطاً بالهواء بكميات صغيرة أو كبيرة حسب الظروف . هذا البخار شفاف لا يرى . فإذا رأينا ضباباً في صباح يوم رطب ، فهذا الذي نراه ليس ببخار ماء ، ولكنه بخار تكثف إلى قطرات دقيقة من الماء . وعندما يتكثف البخار إلى ماء تتكون

(٢٢) انظر على سبيل المثال : غنيم (كارم السيد) : التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن . السليم الماسر (٣٦) ١٩٨٣ ، ص ٢٢ - ٢٦ .
(٢٣) الموضوع مفصل تفصيلاً لكلياً وقرآنياً أكثر وضوحاً في كتب منها : حسب النبي (د/ منصور) : التكون والاعجاز العلمي للقرآن . دار الفكر العربي مصر ١٤٠١ ، ١٩٨١ ، ص ٣٩٧ .

حدوث الشرارة الكهربائية في غطوطها ليكونا غازين هما أكسيدان من أكاسيد النيتروجين ، اللذين عند اتحادهما مع الماء يكونان حمضين ، وبذا يفسد طعم الماء . فلون التفرغ الكهربائي الذي يسبق المطر تكرر في الهواء تكراراً كافياً لتنتج عنه اتحاد النيتروجين مع الأكسجين مكونين الأكسجينين سابقين الذكر ، ولذا الحمضان الناتجان عنها في ماء السحب وحوله ماء حمضياً لا يسيغه الناس . وهذا هو موضع المثل الذي بين به الله على الناس من أنه يكيف التفرغ الكهربائي الذي يصاحب المطر بالقدر الذي ينزل به المطر ولا يؤج به الماء . في النص الخامس « إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ... » وعند معالجة الجزئية الخاصة بـ « الفلك » نجد أنه يتوسع شيئاً لبيان عدة وجوه يدل بها جريان الفلك على وجود الصانع الأعلى سبحانه وتعالى وهي : خلق الخمامات الأولية ووسائل صناعة السفن - خلق ظاهرة الطوف - خلق خاصية اطمئنان الإنسان لركوب البحر - خلق ناموس الحاجة المتبادلة بين أفراد الجنس البشري وبعضهم . ثم اتجه لبيان كيف أن إنبات الزرع بالمطر الماطل من السماء يعتبر إحياء للأرض . وعند « تصريف الرياح » في نفس الآية ، فقد تعرض لأسباب حركة الرياح في طبقات الجو ، ثم عرج على تسخير السحاب ، وانتهى إلى أن هذه الأمور الكونية الثمانية التي تناولتها الآية الكريمة لتدل دلالة قاطعة على وجود الصانع الحكيم سبحانه وتعالى ، وعلى كونه قادراً مريداً واحداً . في النص قبل الأخير « هو الذي يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينشيء السحاب الثقيل ، ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خفيته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد

يوضح المؤلف أن المقصود هو سوق السحب برفق إلى حيث يريد الله سبحانه ، ثم يؤلف بين قطع السحاب ، حيث تتقارب وتتجاذب نظراً لاختلاف شحناتها الكهربائية ، ثم يشاركهم فوق بعضه ، وهذه الظروف تؤدي إلى حدوث البرق والرعد ونزول المطر . أما عن الجزئية الخاصة بـ « البرد » في الآية ، فقد تكلم فيها عن طريقة تكونه وسقوطه وأنواعه . في النص الثاني : « وأرسلنا الرياح فأتقنا فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم به لخازنين » . يصدر المؤلف معالجته العلمية بكلام لطيف هو : سبقت هذه الآية الكريمة آية أخرى يقرر فيها المولى عز وجل أن ما من شيء ينتفع به العباد إلا وعنده خزانته . فخرائن ملكه مليحة بما يحبه الناس من الثغائن والنعيم والمخلوقات التي لا حصر لها . وهو لا يحبس ما في خزائنه عن عباده ، ولكنه يعطيهم إياها إذا بذخوا عنها ، وسعوا إلى كسبها من وجوهها بحسب السنن التي وضعها ، والنظم التي قدرها ... ثم فصل بعض ما في خزائنه من النعم فقال : « وأرسلنا الرياح لواقح .. الآية » . ورد في غضون الشرح أقوال بعض المفسرين في معنى اللواقح ، إلا أنه كرر كلاماً عن أسباب حدوث البرق ، وحاول عقد مقارنة بين التلقيح الكهربائي في السحب والتلقيح النباتي . أما الجزئية الخاصة بعدم قدرة الإنسان على اختزان هذا الكم الهائل من الأمطار ومياه السحب فلم يوفقها المؤلف ما تستحقه من بيان (*) . في النص الثالث يقول ربنا سبحانه : أنه لو شاء لجعل المطر النازل علينا أجاجاً ، ولأيضاح ذلك استعاد المؤلف كلاماً عن توزيع الغازات في جو الأرض ليصل إلى غاز النيتروجين ، وأنه يمثل أربعة أخماس حجم الهواء ، وأن الأكسجين يمثل خمسة . ومن خواص هذين الغازين أنها يتحدان عند

(*) يستطيع القارئ أن يتزبد في هذه المسائل من كتب مثل : الفناء (د / حمد جمال الدين) : الله والكون . الهيئة المصرية العامة للكتاب بمصر . ط ١ ، ١٩٧٦ ، ص ١٧٢ .

تعرض للأمور التالية : كيف أن نزول الماء من السماء هو السبب في إنبات النبات ، كيفية تراكب الحب في سنبلة ، الفروق بين الزروع والثمار وحكمة تقديم الأولى على الأخرى ، وكيف تكون الثمار متشابهة وفي الوقت ذاته غير متشابهة ، وهذه كلها أمور وردت في شرح النص الثالث . أما قول الحق تبارك وتعالى « انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينع » فلم يتعرض له المؤلف بمثل ما تعرض له في كلامه عن النص الرابع ، إلا أن النصين من سورة واحدة أحدهما رقم (٩٩) والآخر رقم (١٤١) ، وعند عرض النصين معاً نجد أن الله أمر في الآية الأولى بالنظر في بليغ صنع الثمار والاستدلال على وجود الصانع الحكيم ، وفي الآية الأخرى أمر الله تعالى بأكل الثمار « كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده » والانتفاع بها . وفي هذا تنبيه على أن الأمر بالاستدلال بها على الصانع الحكيم مقدم على الأذن في الانتفاع بها لأن الحاصل من الاستدلال بها سعادة روحانية أبدية والحاصلة من الانتفاع بها سعادة جسمانية سريعة الانقضاء ، والأول أولى بالتقديم .

عند شرح النص الخامس (يس / ٣٥ ، ٣٦) أوضح المؤلف أن « ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم » المقصود بها ليأكلوا من ثمر الجنات (الحدائق والبساتين) وما عملته أيديهم مما غرسوا وزرعوا ، أو مما صنعت أيديهم من شراب وسكر ومرعى وما إليها . هذا وإن كان الكلام هنا لم يف بالتفصيل المناسب لهذه المسألة ، فإنك تجد التفسير أكثر عند شرح « الأزواج » ، فلم يذكر عنها إلا أنها الأصناف والأنواع !- وفي شرحه للنص الثامن « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسمون » بينت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن

المحال ، يبين المؤلف أن الله سبحانه ذكر قبل هاتين الآيتين مباشرة قوله تعالى « وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال » ، فلما خوف الله تعالى العباد بانزال ما لا مرد له اتبعه بذكر هاتين الآيتين ، وذكر فيها أموراً أربعة تعتبر دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته هي : البرق ، السحاب الثقيل (وهو ما لم يذكره سابقاً عند تعديد أنواع السحب ! ! أوريا يقصد به « السحب المظرة » التي ذكرها هناك) ، الرعد ، والصواعق .

موضوع الفصل الرابع من هذا الكتاب هو « النبات » ، وقد بدأه صاحبه بتفصيل حاجة الإنسان ثم الحيوان إلى النبات . وأشار إلى دور النبات في دورة النيتروجين ، ووعد بتفصيل هذه المسألة في الفصول اللاحقة ، ثم شرح دور النبات في دورة الكربون في الطبيعة . وبين كيف تتوقف بعض الصناعات على الخامات النباتية . وعند كلامه عن الفحم الحجري وتقطيره نجد صورة لمجموعة من الأشجار ، فضل إرجاء التعليق عليها إلى نهاية هذا التحليل ، هذا مع العلم بأن كلامه عن الفحم (ص ٨٢ ، ٨٣) وأصله وكيفية تكونه لم يأخذ حظه من التوضيح اللازم (*) .

بعد تلك العجالة العلمية (أو « العملية » كما يجلو للمؤلف مراراً أن يسميها) ، اتجه صوب الآيات القرآنية فأورد سبعة عشر نصاً هي : المؤمنون / ١٨ - ٢٠ ، الحج / ٦٣ ، الأنعام / ١٤١ ، يس / ٣٥ - ٣٦ ، الواقعة / ٦٣ - ٦٧ ، ق / ٧ - ١١ ، النحل / ١٠ ، ١١ ، طه / ٥٣ ، ٥٤ ، الرعد / ٤ ، السجدة / ٢٧ ، الشعراء / ٧ - ٩ ، الزمر / ٢١ ، الواقعة / ٧١ - ٧٤ ، يس / ٨٠ ، البقرة / ٦١ ، عبس / ٢٤ - ٣٢ . ونرى أنه من الملفت لنظر القارئ في معالجة هذه النصوص معالجة تفسيرية أن المؤلف

(*) انظر في ذلك : إمام (د/ عبد السيد) : حديث الاسلام من الأشجار . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بمصر ١٤٠١ ، ص ٢٣١ .

الانتفاع من الأغنام والماعز (اللحم - الألبان - الصوف - الأشعار - الأنواع المختلفة) ، الانتفاع من الدواجن (اللحم الأبيض - البيض) ، الانتفاع من الأسماك (البروتين - الدهن) ، الانتفاع بالاسفنج ، الانتفاع بالمرجان والشعاب المرجانية ، الانتفاع بأصداف الرخويات وقواقع البحر - الانتفاع باللائع الطبيعية (وطريقة تكوين اللؤلؤ وأهمية اللؤلؤ وقيمتها) ، انتفاع الإنسان من الحشرات خصوصاً دودة الحرير ونحل العسل (أسهب المؤلف في شرح فوائد العسل ومنافعه الصحية وفوائده الطبية للإنسان ، لكنه أسسك عن شرح طرائق النحل في تعرفها على طريق العودة الى خلاياها ، وهو ما كان من اللائق إبراده أثناء الحديث عن خلايا النحل وجمع العسل من رحيق الأزهار) .

ينتقل بنا المؤلف بعد ذلك الى النصوص القرآنية التي تتعلق بالموضوع فيتناول منها تسعة هي - حسب ورودها في الفصل : النور / ٤٥ ، النحل / ٥ - ٨ ، النحل / ٦٦ ، النحل / ٦٨ ، ٦٩ ، الأنعام / ٣٨ ، النحل / ١٤ ، العنكبوت / ٤١ - ٤٤ ، النحل / ٧٩ ، ٨٠ ، الرحمن / ١٩ - ٢٣ .

النص الأول « والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع ، يخلق الله ما يشاء ، ان الله على كل شيء قدير » يوضح المؤلف أن هذه الآية الكريمة تتعلق بخلق الحيوان ، وهي دليل من الدلائل على وحدانية الله ، وقد تقدمها دليلان آخران على وحدانية الله تعالى ، أحدهما في الآية (٤٩) الخاصة بتسبيح المخلوقات وصلاتها ، والآخر في الآية (٤٣) الخاصة

بالسحاب والبرد والبرق ، وهما في نفس السورة القرآنية ، وأشير الى أهمية الماء للكانات الحية ، ثم بينت طرائق مشي الحيوانات ، وشرح المؤلف فيها طريقة الحركة في الزواحف . ولاحظ في هذا النص الكريم

كل الثمرات . . . نجد إشارة لطيفة جديرة بالتسجيل هنا ، تلك هي أن الله سبحانه قد بدأ في هذه الآية بذكر ما يكون مرعى للحيوانات ، واتبعه بذكر ما يكون غذاء للإنسان . وفي آية أخرى عكس هذا الترتيب فبدأ بذكر ما كوك الإنسان ، ثم بما يرعاه سائر الحيوانات ، فقال في سورة طه (الآية ٥٤) « كلوا وارعوا أنعامكم إن في ذلك لآيات لأولي النهى » ، والترتيب المذكور في الآية المتقدمة ينبه على مكارم الأخلاق ، وهو أن يكون اهتمام الإنسان بما تحت يده من أنعام أكمل من اهتمامه بحال نفسه ، وأما الترتيب المذكور في الآية الأخرى فالمقصود منه ما هو مذكور في قول الرسول ﷺ : « إبدأ بنفسك ثم بمن تعول . كذلك فهناك معالجة علمية لموضوع استمداد الإنسان الطاقة من الشجر الأخضر ، وهو المنصوص عليه في قول الله « الذي جعل لكم من الشجر الأخضر نأراً فإذا أنتم منه توقدون » (يس / ٨٠) (النص الخامس عشر في هذا الفصل) ، فتعرض المؤلف لبيان أن الطاقة التي يحصل عليها الإنسان من الأشجار هي في الأصل طاقة شمسية ، وأشار الى الفهم المستخرج من باطن الأرض ، وهو أشجار طمرت ومرت عليها عصور . أما الصورة التي أراد بها المؤلف إيضاح عملية البناء الضوئي في النبات فسوف نرجيء التعليق عليها إلى نهاية التحليل . وفي النص الأخير (البقرة / ٦١) الذي يحكي قصة بني إسرائيل مع سيدنا موسى في التيه ، أعطى المؤلف أفكاراً علمية عن نباتات الثوم والبصل والعنبد وفوائدها الطبية ، ثم تعرض لمثل هذا بالنسبة للعنب عند شرحه للنص الأخير في هذا الفصل .

جاء الفصل الخامس عن « الحيوان » ، وشغل مساحة أكبر مما شغله أي من الفصول السابقة . عُد المؤلف في قسمه الأول من الفصل فوائد الحيوان : الانتفاع بالماشية (اللحم الأحمر - الألبان - الأسباح) ،

الرجوع إليها ، فالنصدي للكتابة في مثل هذه الأمور القرآنية ليس بالأمر السهل ، ولا هو قاصر على عدد محدود من المصادر . في الفقرة الأولى من شرح النص الثامن في صفحة ١٥٣ ، يقول المؤلف : (وقد سبق أن عرفنا أن جسم الطيور مُحَوَّرٌ للطيران) ، وهذا ما لم يرد في الكتاب من قبل ، بل هو قد ذكر إشارة سريعة إلى هذه التحورات ، بعد العبارة المذكورة ، بينما نجده يشرح بالتفصيل كيفية طيران الطائر ، ثم يقع فيما وقع فيه مرات كثيرة من تكرار وإعادة لبعض المسائل كما حدث في صفحة ١٥٦ عن أصواف وأشعار الأنعام . كما أنه ذكر أحد الآراء في البحرين والبرزخ الواردين في : « مَرَجَ البحرينِ يلتقيان ، بينهما بَرْزَخٌ لا يبينان » في النص الأخير من هذا الفصل ، فإين الآراء الأخرى في هذه المسألة ، والتي أجلاها بعض العلماء المحدثين^(٥٥) .

نأتي إلى أكبر فصول الكتاب حجيا ، وهو السادس في الترتيب ، وموضوعه « الإنسان » ، واستهله صاحبه بنبذة سريعة عن الإنسان ، ثم فصلها حين تكلم عن تطور الجنس البشري ، فتناول الجوانب التالية : تنازع البقاء الحاصل على الأرض ، وانقراض الحيوانات التي لم تملك قدرات تكيفية لمواجهة صروف الحياة العسيرة عبر الأزمان ، آدم وحواء : السلالات البشرية المختلفة الأشكال والألوان ، العوامل التي أدت إلى وصول الإنسان إلى المستوى الحاضر ، آدم وحواء خلق خاص من خلق الله ، بيان بعض قدرات ومواهب الإنسان ، ما هو العقل ؟ ما هي المدينة ؟ ، هل الفقرة العاقلة المدركة في الإنسان يمكن تحسينها ؟ ، أوجه الشبه بين الإنسان والحيوانات المحيطة به ، خصائص الجنس

قول الله فيه « يخلق الله ما يشاء » ثم لاحظ قوله تعالى في النص الثاني « ويخلق مالا تعلمون » (النحل - ٨) . وهو النص الذي وضع فيه منافع ضرورية للإنسان من الحيوان وآخرى أقل ضرورة . وهنا أشار إلى ابتكار وسائل المواصلات الحديثة في قول الله تعالى « ويخلق مالا تعلمون » ، فلما وردت بعد الخيل والبغال والحمير ، ومن قبلها ذكرت الأنعام من ابل وبقر وغنم ، فهو سبحانه الخالق لحاماتها الأولية من معادن وخلقة ، وهو سبحانه الخالق للعقول المفكرة والمخترعة ، وهو سبحانه الذي شاء بانبلاج هذه الأسرار بعد أن كانت حبيسة الغيب . في النص الثالث شرحت كيفية تكوين اللبن من بين الفَرْثِ والدَم ، وفي الرابع شرح النظام العام في خلايا النحل وذكرت الأشكال الخلقية لأفرادها . ولكن المؤلف غفل عن بيان السبل الدلّل !! فلم يوضح فيها شيئا^(٥٦) . وانتقل بعده إلى شرح كيفية بناء النحل لخليته ، وزود ذلك بصور فوتوغرافية سماها أشكالا ، إلا أن هناك فرقا هاما بين ما يسمى « صورة » وما يسمى « شكل » ، وهو ما لم يفتن له المؤلف الجليل أثناء عرضه للصورة في الكتاب . ولم ينس المؤلف أن يتكلم عن جمع الرحيق ، وعملية ارتشافه وتحويله إلى عسل ، ثم تعرض إلى تركيب العسل وهو كلام تكرر من قبل في هذا الفصل .

أما النص السادس : وهو الخاص باللحم الطري ، والخلية المستخرجة من البحار ، فلقد تكلم المؤلف فيه عن المرجان ، وأعاد كلامه عن اللؤلؤ ، حيث أنه تعرض لـ بالتفصيل في صفحات سابقة من نفس الفصل . كما أنه لم يفصل القول في سورة النكبات ، وهو موجود في مراجع متفرقة ، نرى أنه كان يجب عليه

(٥٥) النظر في بيان ذلك بحثاً قديماً هو : حلمي (د / محمد عبد الحافظ) : العلوم البيولوجية في خدمة تفسير القرآن الكريم . مجلة عالم الفكر الكويت ، ١٢ (٤) ١٩٨٢ ، ص ٩٩٣ .

(٥٦) لإجلاء هذا الأمر انظر كتاباً منها : الطوري (د / محمد رشاد) : وجهنا من الله كل شيء حي ، الحية المصرية البومة للكتاب ، ط ١ ، ١٩٨٥ ، ص ١٧٣ .
عصر (د / عبد العليم عبد الرحمن) : الظواهر الجغرافية بين العلم والقرآن ، الدار السعودية للنشر والتوزيع ، ط ١ ، ١٩٨٤ ، ص ٢٢٢ .

البشري (الخصائص البيولوجية والخصائص المدنية) ، تحديد موقع الانسان في عالم الاحياء من حوله وبيان قدراته التكيفية مع ظروف البيئة المتغيرة . جاء خلق الانسان بعد اجراء أحداث وتغيرات جسام في كائنات الطبيعة ، انقراض على اثرها ما انقرض وبقي ما استطاع الحياة ، ثم خلق الله الانسان ، مذهب الانتشار وأصل مدنية العالم ، الكيفية التي بدأ بها الانسان تعلمه . ومن الجوانب أيضاً : خصائص الباحثين والمكتشفين ، معيار نجاح الاكتشاف ، علاقة الانسان بالبيئة والمجتمع في صياغه شخصية وتحديد الشكل الحضاري له ، الحجم التعديدي لأصحاب المواهب والعباقرة في أي مجتمع ، موقع اللغة في موكب المدنية والحضارة ، أثر اللغة في المجتمع ، أهمية الكتاب والكلمات في حياة المجتمعات والناس عموماً ، الجوانب الروحية في حضارة الانسان ومدنيته ، أنواع الخلق : الخلق الطبيعي - الخلق الحيوي - خلق النفس البشرية .

يقول المؤلف في صفحة ١٦٠ - الفقرة الثانية ، ما نصه : ولا يحسب أحد أن أول من عمر الأرض من البشر هما آدم وحواء ، بل عمرها قبلها بالعديد من السنين نوع من البشر متوحشون يعيشون في كهوف كالحيوانات ، ويتقاتلون مع الحيوانات ، وربما يصرخون كالحيوانات ، وقد انقرض كل هؤلاء ، ومن الانصاف أن نطلق على كل فرد منهم (الانسان البدائي) ، ولعل سائلاً يقول : وماذا نطلق على الانسان المعاصر لنا اليوم ، هذا يطلق عليه (الانسان العصري) أو (الانسان الحديث) .

يفهم من كلام المؤلف أنه قد سبق ظهور آدم وحواء على الأرض نوع مختلف من البشر ، وإذا كنا نطلق على البشر لفظ (بني الانسان) ، وهوشائع لدى الناس على اختلاف مشاربهم ، إذا فهناك انسانان ، انسان قبل آدم وحواء ، وإنسان ظهر بمهبط هذين الأيوين . فهل هذا

كلام يرضاه العقل والدين ، وهل في الاسلام ما يشير الى هذه الفكرة !! ، نعوذ بالله من هذا ، وأدعو للمؤلف بالمغفرة . كما أننا في نفس الصفحة نجد المؤلف - وهو ذو الخبرة الطويلة في العلم وصاحب المهمة الدينية كما بان لنا من مقدمة الكتاب - لا يتورع عن ايراد قصة خرافية تحكي كيف حصل الفيل على خرطومه ، ولم يضع فيها رأيه الشخصي ، ولم ينفيها ، بل أثبتها وكأنه من أنصارها ، وأرى من جانبي أن ذلك الصنيع مناف لأصول الكتابة العلمية ، لا سيما الذي يتعرض منها لمسائل عقيدية . ولا يجب أن يكون مكانه كتاب علمي يتعرض لمسائل قرآنية كالذي بين أيدينا الآن ، بل موضعه هناك في القصص الأساطيري .

عرض المؤلف في هذا الفصل ستة وثلاثين نصاً قرآنياً لتحدث عن أحد عشر جانباً من الجوانب المتفرقة في الانسان ، فكانت النصوص التسعة الأولى متعلقة بخلق الانسان ، والنصوص الثلاثة التي تليها متعلقة بتعليم الانسان وتعلمه ، ثم تحدثت النصوص الثلاثة التالية عن مسؤولية الانسان عن أعماله ومحاسبته عليها ، والنصين السادس عشر والسابع عشر أوضحا أن الانسان خلق ضعيفاً ، والنصان التاليان هما بينا غفلة الانسان عن النعم سبحانه ، وكذا ظلم الانسان لنفسه . أما النصوص الأربعة (من العشرين الى الثالث والعشرين) فتتعلق بتناسل الانسان ، وبيان أنه سنة لتعمير الكون ، والنصوص الثلاثة التي تليها تحدد علاقة الانسان بالدي . النصوص من السابع والعشرين حتى الثلاثين تعالج مسألة النفس البشرية . ثم تقررت حقيقة الموت في النصوص القرآنية الثلاثة التالية ، وأتبعها المؤلف بتصنيف يؤكدان حقيقة البعث ، وانتهت النصوص كلها بنص يعطينا لقطات من أحوال الحياة الآخرة .

فياً يتعلق بخلق الانسان ، فإن الله سبحانه قد أبان

للذهن وحكاية لما كان متداولاً في الفلسفات المختلفة عند قدماء المصريين والبابليين واليونانيين من تصور للخلق على نسق ما يفعل الإنسان الصانع من مادة سابقة يشكلها ويصوغها في هيئة معينة ؟

في إجابته عن هذا السؤال ، يقول المؤلف في ص ١٨١ : . . . وليس من الواجب - بعد ما أوضحناه - أن نأخذ بحرفية الآيات ، وأن نفهمها على ظاهرها وأن نتصور أن الله تعالى قد خلق الإنسان من طين ، أو حرق الطين فجعله صلصلاً وشكل منه الإنسان ، إنما هذه الآيات تقريب للأذهان ، ومثال لما يفهمه الناس بطريق الحس والخيال . كيف يجول المؤلف لنفسه أن ينتهي إلى هذه النتيجة ، وهو الذي أخذ يشرح عناصر الإنسان وعناصر التربة بغية الوصول إلى أن أصل كليهما واحد ، يعني أن الإنسان خلق من طين ؟ ! إن ذلك ليس نبأ إلى الله منه ، ونودلو اطلع عليه صاحبه ليستعيده أو ليحكيه عن غيره من المفكرين ثم يبرأ هو منه أيضاً .

تكلم المؤلف في هذه الجزئية ذاتها عن مراحل الخلق « فإذا سويته ونفخت فيه من روحي » أي أن التسوية أولاً ، ثم النفخ في آدم . ثم الأمر بسجود الملائكة ، وهذا السجود ليس عبادة وإنما احترام وتوقير . ثم عند تعرضه للآيات ٥ - ٨ من سورة الطارق « فليَنظُر الإنسان مم خلق ، خلق من ماء دافق ، يخرج من بين الصلب والترائب ، إنه على رجعه لقادر » ، أخذ يوضح المؤلف الصلب والترائب ، ويشرح عملية الاخصاب في الإنسان ، ورسمها في شكل إضاحي ، ثم في النص التالي له ، أخذ يشرح خلق الأجنة ذكورا وإناثا . ولم يحذف تكرارات كثيرة وجدناها في صفحات هذه الجزئية التي انتظمت تسعة نصوص قرآنية . وفي النص السابع يشرح كيف أن الرحم في الأنثى قرار مكين ، ثم بعده يبين المقصود بالظلمات الثلاث ، وشرح من أجل ذلك عملية تكوين الأغشية الثلاثة في رحم الأنثى حول

عن أمور عديدة في هذا الموضوع ، نجدها في نصوص قرآنية منها ما أورده المؤلف : ص ٧١ - ٧٤ ، الحجر ٢٦ - ٣١ ، البقرة ٣٠ - ٣٤ ، الطارق ٥ - ٨ ، الشورى ٤٩ - ٥٠ ، الحج ٥ ، المؤمنون ١٢ - ١٦ ، الزمر ٦ ، التين ١ - ٤ . في معالجة هذه النصوص ، تعرض المؤلف لعدد من الأمور الخطيرة ، وهل أخطر من خلق الإنسان ومن قبله خلق السموات والأرضين ؟ ! بدأ صاحب الكتاب هذه الجزئية من الفصل بشرح (تكوين الإنسان) ، فكانت جوانب حديثة كما يلي : المادة الحية الأولية (البروتولازم) ، البناء المستلوجي للجسم الانساني ، الخلية : الوحدة البنائية لجسم الإنسان ، الأعمال الفسيولوجية للخلية الحية ، أهمية الغذاء لحياة الخلية ، التركيب الكيميائي لمحتوى الخلية ، عناصر الجسم الأولية ، عناصر تركيب التربة . ومن هنا خلاص المؤلف إلى النتيجة الأزلية وهي : أن الإنسان الأول - أي آدم عليه السلام (هناك في الجزء العملي من هذا الفصل وضح في كلامه أن الإنسان الأول لم يكن آدم ، بل هو إنسان قبل مجيء آدم وحواء إلى الكوكب !!) وكذا سائر البشر . مخلوقون مما يتكون منه الطين . إذ أن العناصر التي يتكون منها الإنسان هي ذات العناصر التي يتكون منها الطين . ولكن لما كان هناك بُؤن شامع بين الإنسان والطين ، أظهرها أن الطين جاد لا حياة فيه ، أما الإنسان الحي فهو كائن له كل مظاهر الحياة . وجب علينا التصديق بحدوث هذا الخلق بالقدرة الإلهية دون التفكير في كيفية الخلق ، إذ أنه حدث بطريقة لا نفهمها ، وهي فوق عقولنا ، وهي من الأمور الغيبية التي استأثر بعلمها الله وحده ، حيث يقول عز من قائل : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم . . . » ثم عرض المؤلف لسؤال خطير هو : هل خلق الإنسان حقاً من صلصال أو صلصال كالفخار أو حمأ مسنون أو طين ؟ أم أن هذا الوصف تقريب

عامة يستطيع القارئ الواعي أن يصل إليها ، تلك هي موقع الفصل بين دفتي الكتاب ، فإن موضعه الملائم هناك عند الحديث عن السحب والأمطار والظواهر الجوية والنجوم والأرض وما شابه ذلك ، وأن يكون ختام الكتاب هو فصل « الانسان » . الأمر الثاني هو أن الفصل الحالي يعد خلاصة لكتاب سابق للمؤلف عنوانه (الكواكب والنجوم والمجرات) ، قامت نفس دار النشر بطبعه سنة ١٩٨٣ ، أي قبل نشر الكتاب الذي يراجع الآن بنحو عامين .

يستهل المؤلف الفصل بنبرة عن السماء يقول : نفتتح هذه النبرة بالقاء بعض الضوء على جوانب الموضوع بعرض معاني السماء التي جاءت في نصوص الكتاب الكريم ، لحل في عرضها ما يزيدنا بصيرة بالقرآن ، ويوجب على ما يتردد في أذهان كثير من الناس : ما هي السماء ؟ . وعند الاجابة على هذا السؤال شرح المؤلف أربعة معانٍ للسماء : ١ - جاءت السماء بمعنى ما يعلو الانسان « قد نرى قلبه وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها » (البقرة ١٤٤) . وهنا أبان كيفية ضيق الصدر حين الصعود في طبقات الجو .

٢ - جاءت بمعنى السحاب « وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » (البقرة ٢٢) . وهنا أعطى فكرة عن تكوين السحب والأمطار . ٣ - وجاءت بمعنى القبة الزرقاء التي تعلو الأرض وتلامسها عند الأفق . وهنا شرح أن هذه القبة ليست حقيقية ، وبين سبب زرقاء السماء ، فقال : والجو هو السبب في زرقاء السماء ، فعندما يدخل ضوء الشمس جو الأرض تقابل جزيئات الغازات المكونة للجو ، وكذا دقائق الغبار والهباء المنتشرة فيه ، وهذه تحدث « تشتتا » في الضوء لا يكون واحداً للأطوال الموجية المختلفة . فالجزيئات والدقائق تشتت الضوء الأزرق ، (أي الأطوال الموجية القصيرة) بدرجة أكبر مما تشتتت بها الأضواء الأخرى الأطول

الجنين . أما النص الأخير ، والذي ذكر التين والزيتون وطور سين . . فإنه شرح خواص هذه النباتات ، عل الرغم من أن الموضوع هنا ليس موضعها !! .

في الجزئية الخاصة بمسؤولية الانسان أعماله ومجازاته عليها إن خيراً فخير وإن شراً فشر ، يتعرض المؤلف لنصوص قرآنية منها « هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكوراً » ، ويوضح أن حياة الانسان على الأرض لا تحتل الا جزءاً يسيراً جداً إذا قيس بعمر الأرض ، وحتى يبين ذلك تكلم في المسائل الجيولوجية عن الكوكب الأرضي . وعندما وصل الى بيان غفلة الانسان عن النعم الأعلى ، وأن من صفاته الظلم وأول من يقع عليه الظلم هو نفسه التي بين جنبيه ، يشرح في معنى « وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها » مثاليين : المثال الأول : تركيب الانسان نفسه ، فهو مكون من أجهزة ولكل جهاز وظيفته ، ثم المثال الثاني : اللقمة التي يتناولها الانسان في فمه ، منذ الخطوات الأولى لنشأتها على الأرض ثم تناولها ثم هضمها والانتفع بها في جسده .

وفي صفحة ٢٥٢ تحدث عن نوع من أنواع النفس البشرية (النفس المطمئنة ، وصفاتها الأربع ، ثم في الصفحة التي تليها تحدث عن النفس الانسانية كما عرفها علماء النفس . وعند التعرض لمسألة الموت أتى ببعض النصوص القرآنية التي تتحدث عن هذه الحقيقة ، ثم أوضح ان الموت نوعان : الموت المعادي والموت العلمي والحقيقي ، وهو لا يكون يتوقف الأجهزة والأعضاء عن أعمالها فقط ولكن يكون بموتها .

وعموماً ، فالفصل تغلب عليه كثرة النقول من كتب التفسير دون وزن الأقوال أو انتخاب أفكار منها ومناقشتها ، وهذا لما يؤخذ على صاحب الكتاب .

اختتم الكتاب بفصل عن « السماء » . وقبل الدخول في الفصول نود الاشارة الى أمرين : أحدهما يعتبر بدئية

السنة الضوئية ، وأعطى تعريفا لهذه الوحدة وأمثلة ليائها . وذكر أن « هالي » (والذي يحمل اسمه أحد المذنبات الشهيرة) هو أول من بين في سنة ١٧١٨ م أن النجوم ليست ثابتة في مواضعها ، فقد لاحظ أن (الشعري اليمانية) وبعض نجوم لامعة أخرى قد تحركت بقدر القطر الظاهري للقمر - وهو بدر - عن المواضع التي عنت لها في كتالوج بطليموس القديم . وترسل المؤلف في شرح الحركات ، ثم انتقل إلى تقدير أقطار النجوم لتحديد أحجامها ، وساق أرقاما يترشح الانسان عند رؤيتها وتصورها . وذكر خاصيتين هامتين أخريين هي الحرارة والاضاءة فقال : درجة حرارة النجم تعين كمية الطاقة المنبعثة من وحدة المساحات من سطح النجم ، فإذا وجد نجمان متساويا الحجم فأكبرها سخونة يشع كمية طاقة أكثر ، وإذا وجد نجمان متساويان في درجة الحرارة فأكبرها يشع طاقة أكثر . ولذا « فاضاءة » النجم (سطوعه الذاتي) تتوقف على عاملين : درجة حرارته وحجمه . وفي تفصيل الجزئية تعرض المؤلف لمقاييس الاضاءة ، ومنحنى $H - R$. يعادله بالعربية منحنى الحرارة - الاضاءة لبيان الارتباط بين درجة الحرارة النجم واطعته .

الفئة الثالثة من الأجرام السماوية (المجرات) ، وهي تظهر في كل جزء من السماء فيما عدا امتداد (الطريق اللبني) ، حيث يتدفق الغبار والغاز في مجرتنا المجرات الأخرى خلفه . وترى في الكون مئات الملايين من المجرات ومنها ما تنشط عن رؤيته بأصخم تلسكوباتنا ، ومنها ما لا تجدي التلسكوبات الضخمة في الكشف عنه . . . وقد قام ايدوين هوبل من مرصد جبل ويلسون بدراسات مستفيضة للمجرات ، وتعرف على ثلاثة تراكيب أساسية للمجرات القريبة هي : البيضاوية والحلزونية وغير المنتظمة . وبعد أن جال وصال في هذا الميدان انتهى إلى مما قد تقدم نستطيع أن

موجية كالأحر وغيره . وبما أن الضوء الأزرق يشتت بدرجة أكبر فسمألنا ترى زرقاء ، إذ أن ما يصلنا منها يتكون من هذا الضوء المشتت . ٤ - كما أنها جاءت بمعنى السقف المحفوظ والسقف المرفوع وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون » (الأنبياء ٣٢) ، « والطور ، وكتاب مسطور ، في رق منشور ، والبيت المعمور ، والسقف المرفوع » (الطور ١ - ٥) .

بعده أخذ مؤلفنا في تفصيل القول عن الأجرام السماوية ، وقسمها إلى ثلاث فئات : الأولى : الكواكب ، الثانية : النجوم ، الثالثة : المجرات . في الفئة الأولى (الكواكب) ذكر أن الأقدمين كانوا يسمونها (الطوافات) أو (الجولات) ، وأن عددها تسعة تدور حول الشمس ، وأسماؤها مرتبة حسب ترتيب بعدها عن الشمس كالآتي : عطارد - الزهرة - الأرض - المريخ - المشتري - زحل - أورانوس - نبتون - بلوتو . هذه الكواكب السيارة هي أقرب الجيران لنا في هذا الفضاء الكوني . ثم تكلم عن دوران الكواكب السيارة في أفلاك حول الشمس ، وأحجام هذه الكواكب بالمقارنة بأبعادها الشاسعة عن بعضها ، ووحدة قياس المسافات الموجودة بين كواكب المجموعة الشمسية فقط . ثم قسم هذه الكواكب حسب قربها من أهمها الشمس إلى « كواكب داخلية » و « كواكب خارجية » ، وبين النظام العام لدوران الكواكب حول الشمس . الفئة الثانية من الأجرام السماوية هي (النجوم) : يعتبر بعد نجم عن الشمس أحد مميزات الأكثر صعوبة في تعيينها ، ليس هذا فحسب ، ولكنه أيضا من أكثرها أهمية فكل التغيرات التي تتناول النجم أثناء حياته يمكن تمييزها من معرفة كمية ونوع الطاقة التي يشعها ، ولكن كمية الطاقة التي يشعها نجم في الفضاء لا يمكن معرفتها إلا إذا عرف بعده . ثم تكلم في الأبعاد الشاسعة بين النجوم وبعضها ، وأن الوحدة لقياسها هي

الغاز تتحول طاقة الوضع الناشئة عن التجاذب الى طاقة حرارية وترتفع درجة الحرارة ، وعندما تبلغ هذه الدرجة في مركز النجم خمسة ألف درجة مطلقة يتحول (النجم البعد) الى (نجم يافع) ، يمكن تعيين موضعه على المنحنى $H - R$ (الحرارة - الاضاءة) وفق اضاءته ودرجة حرارته .

وفي قول الله تعالى « أنتم أشد خلقاً أم الساء بناها ، رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليلها وأخرج ضحاها ، والأرض بعد ذلك دحاهها . . » (النزاعات ٢٧ - ٣٤) ، يوضح المؤلف أن الله سبحانه بعد أن قرر أنه بنى الساء ، شرح لنا كيفية البناء فقال (رفع سمكها) ، وفي شرح ذلك قرر المؤلف أقوالاً وتفصيلاً أوردته في الصفحات السابقة عن القبة الزرقاء حولنا ، وساء الكواكب ، ثم ساء النجوم ثم ساء المجرات . إذا كانت الصفة الأولى رفع الساء ، فإن الصفة الثانية هي « فسواها » أي جعلها خالية العيوب ، والصفة الثالثة هي « وأغطش ليلها وأخرج ضحاها » . . وإنما أضاف الليل والنهار الى الساء لأنها إنما يحدثان بسبب غروب الشمس وطلوعها ، ثم غروبها وطلوعها ، إنما يحصلان نتيجة لدوران الأرض حول محورها . وأخذ المؤلف بعد ذلك يشرح صفات وكيفية خلق الأرض في الآيات الكريمة ، وهذا ليس محله المناسب وإنما موقعه هناك في الفصل الخاص بـ (الأرض) .

في سورة ق (الآيات ٦ - ١١) يقول الحق تبارك وتعالى « أفلم ينظروا الى الساء كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج هبيل ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . . » ، ومن روايت ما جاء به المؤلف قوله : « ومن الملاحظ أن الله تبارك وتعالى ذكر في الأرض ثلاثة أمور كما ذكر في الساء ثلاثة أمور في الأرض : المد والقاء الرواسي والانبات فيها . وفي الساء : البناء والتزيين

نقسم المادة في الفضاء النجمي الى ثلاث مجموعات رئيسية : السدائم المضيئة ، السدائم المظلمة ، الغاز والغبار في الفضاء النجمي (وهو الموجود بين السدائم) . وكانت آخر جزئية في هذا القسم من الفصل هي شرح فكرة أكدها اينشتاين بأن « الفضاء محدود ولكن لا حدود له » (المجموعة المحلية هي مجموعة من حوالي سبع عشرة مجرة ، مجرتنا إحداها وتكون المجموعة جمعا صغيرا نسبيا) .

انتقل المؤلف الى الآيات القرآنية عن الساء والتي تبين بديع صنع الله سبحانه في خلقها وعظيم قدرته وأحكامه في تدبير أمرها ، وأورد ثلاثة عشر نصا هي على التوالي : فصلت ١١ - ١٢ ، النزاعات ٢٧ - ٣٤ ، ق ٦ - ١١ ، الرعد ٣ ، الواقعة ٧٥ - ٧٦ ، نوح ١٣ - ١٦ ، الذاريات ٤٧ ، يس ٣٨ - ٣٩ - ٤٠ ، الفرقان ٦١ - ٦٢ ، الجن ٨ ، الأنبياء ٣٠ ، الملك ٣ - ٥ . في شرح قول الله تعالى في الآيتين ١١ - ١٢ من سورة الدخان « ثم استوى الى الساء وهي دخان » ، يوضح المؤلف السدائم المضيئة والأخرى المظلمة ، وهو ما سبق أن أوضحه في القسم الأول من هذا الفصل ، إلا أنه عند تصويره لميلاد نجم من النجوم كان رائعا ، فلنلتقط منه لقطات : الغاز والغبار في الفضاء النجمي هو المادة الأولية التي تتكون منها النجوم ، وهو الذي سماه المولى عز وجل « دخان » ، وبما لا شك فيه أن درجة حرارة الدخان وقت أن تكونت منه النجوم كانت أعلى بكثير من درجة حرارته الآن . . ولكن المولى - جل شأنه - وضع من السنن الكونية ما يتم معها تخلق النجوم من الدخان ، كان تنزع كتلة من الغاز نفسها من سائر الغاز الذي يكون السديم - مثلا بأن تقوم بحركة دوامية - ثم تبدأ في عملية تقلص ، ومثل هذه الكتلة المتقلصة من الغاز يطلق عليها نجما بدئا ، لأنه ليس ساخنا بدرجة كافية حتى يشع ضوءا مرئيا ، ولكن باستمرار تقلص

بالشمس وحركاتها ؟ ثم كان اجلاؤه لمعنى قول الله عن الجن « وَأَنَا كَسْنَا السَّاءَ فَوَجَدْنَاهَا مَلَكُوتَ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا » ، فأخذ يشرح الشهب والنيازك ، ويعطي أمثلة على ما ذهب إليه . أما بيانه المقتضب في معنى قول الله : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ » ، جاء خلاصته ما أوضحه في أول الكتاب ، وهو ما فصله عليه الفسيولوجي في الكائنات الحية .

في نهاية هذا التحليل لهذا الكتاب الجليل يجب علينا أن نبين أموراً هامة هي :

١ - الكتاب تنقصه خاتمة .

٢ - نسيان شرح اشارات مذكورة في بعض الصفحات ، فمثلا في صفحة ٢٩٣ عند الكلام عن النجوم العملاقة الزرقاء والنجوم العملاقة الحمراء ، وضع المؤلف إشارات رقمية ، ومن المفهوم أنها سوف تشرح ، أو يعطى لها معنى في ذيل الصفحة ، وهذا ما لم يحدث !! ونجد أيضا في صفحة ٣١٢ « شكل » ، فلا رقم الشكل ذكر ، ولا الشكل نفسه عرض في الصفحة نفسها أو حتى ما حولها .

٣ - نظرا لعدم مراجعة الكتاب مراجعة دقيقة وكذلك نظرا لكثرة النقول من كتب التفسير ، فإني أجد تكرارات كثيرة جدا في غير أهمية ، فبينما أجد كلاما في موضع أجده في موقع آخر ، والأمثلة على ذلك كثيرة منها : ص ١٦ ، ص ٣٥ ، الفقرة الثانية ، ص ٣٨ - الفقرة الأخيرة ، ص ٣٩ - الفقرة الثانية ، ص ٤٠ - الفقرة الأولى ، ص ٤١ - الفقرة الأولى ، ص ٤٤ - الفقرة الرابعة ، ص ٧٠ - الفقرة الثانية ، ص ٧٤ - الفقرة الأولى ، ص ٧٦ ، ص ١٤٥ - الفقرة الأولى ، ص ١٤٩ - الفقرة الثانية ، ص ١٥٦ - الفقرة الأولى ، ص ١٨٧ - الفقرة الثالثة ، ص ١٩٠ - الفقرة الثالثة ، ص ١٩٨ - الفقرة الثانية ، ص ٢١٠ - الفقرة الثانية ، ص ٢٧١ - الفقرة الثالثة ، ص ٢٩٢ - الفقرة

وسد الفروج . وكل واحد في مقابلة واحد ، فالمد في مقابلة البناء ، لأن المد وضع والبناء رفع ، والرواسي في الأرض ثابتة والكواكب في السماء مركوزة في أفلاكها ومزينة للساء ، والانبثاب في الأرض شقها وهو على خلاف سد الفروج وإعدامها .

أما في (العمَد) التي تحفظ الساء كما هي في مواقعها وبنائها ، وذلك حسبما يقول الله تعالى في سورة الرعد « الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها » ، في ذلك يوضح المؤلف أن المقصود بهذه العمد هو قوى الجاذبية التي تتجاذب بها النجوم والكواكب ، وهناك قوة مضادة ناشئة من سرعة الدوران هي قوة الطرد المركزية ، ويتعادل هاتين القوتين يستطيع كل جرم سماوي الاحتفاظ بموقعه وعدم الانفصال في الفضاء الكوني اللانهائي . وعند وصوله الى النص السابع في هذا الفصل ، نجده يوضح كيف أن الله سبحانه بنى الساء « والساء يبنائها بأيدٍ وإنا لموسعون » ، فلقد دلت البحوث الفلكية على أن المجرات تنهائى معا في جوع ، كل منها يطلق عليه « جوع مجرى » . وكل جمع من المجرات هو مجموعة مفيدة داخل نفسها ومتماسكة بتأثير قوى الجذب المتبادلة بين جميع أفرادها . وقد اقترح أحد الفلكيين أنه بسبب المسافات الكبيرة التي تفصل بين جموع المجرات يتوقف التجاذب ، ويحل بدلا منه تنافر ، إذ أن جموع المجرات يبدو أن كلا منها يتجنب الآخر . وقد دلت التجربة على أن الجموع للمجرة تتبعد عنا ، وأن سرعة ابتعاد كل جمع تزداد كلما ازداد بعده عنا . والنتيجة الطبيعية لتفسير هذه الحقيقة أن الكون أخذ في الاتساع . وعلى هذا النحو أخذ المؤلف يشرح : « والشمس تجري لمستقر لها » ، « لا الشمس ينبغي لها أن تدارك القمر » ، « ولا الليل سابق النهار » ، « تبارك الذي جعل في السماء بروجا » ما هي البروج ؟ وما أحوالها ؟ وما أنواعها ؟ وما أسماؤها ؟ وما علاقتها

الأولى ، ص ٢٩٣ - الفقرة الثانية ، ص ٢٩٥ - الفقرة الثانية ، ص ٣٠٣ ، ٣٠٤ ، ٣٠٥ ، ٣٠٦ ، ٣٠٧ ، ص ٣١٤ - الفقرة الرابعة ، ص ٣١٥ . ففي هذه المواضع يقول المؤلف كلاما في مكان تجده قد قاله في مكان آخر وهكذا . .

٤ - مراجع الكتاب : ذكر المؤلف سبعة مراجع في نهاية الكتاب (ص ٣١٩) ، بطريقة بدائية لا تتناسب وجلال ثقافته وطول خبرته ، ولنضرب على ذلك مثالا بذكر مرجع منها : الجواهر في تفسير القرآن الكريم ، تأليف الأستاذ الحكيم الشيخ طططاوي جوهري ، وفي مرجع آخر يذكر : المصحف المفسر تأليف محمد فريد وجدي . فالأول أستاذ وحكيم وشيخ ، والآخر لم يجد له لقباً يضيفه عليه !! . كذلك فالطريقة العلمية لذكر المراجع لم تتوفر ، وقد اتفق أهل العلم والثقافة على نظم في ذكر المراجع أشهرها : اسم المؤلف مبدؤا باسم عائته ، ثم بقية الاسم بين حاصرتين : عنوان الكتاب أو البحث أو المقال . دار النشر ، رقم الطبعة ، السنة ، الصفحات إجمالاً إذا كان كتاباً ، ورقم الصفحة المقصودة إذا كانت جملة (دورية أو غير دورية) . وذلك على غرار ما ذكرناه في ذيول بعض صفحات هذا التحليل .

٥ - لما كان المؤلف قد عزم عن الرجوع الى المراجع والمصادر العلمية الضرورية فلم يفتش فيها عند التعرض لمثل المسائل التي تعرض لها في هذا الكتاب ، لكنه اكتفى بالنقل من قلة من كتب التفسير ، فاني لم أجد بدا من الإشارة الى مراجع يستطيع القارئ أن يرجع اليها عند طلب الزيادة أو التحقق العلمي أو الوقوف على أمور معينة . سواء ذلك في المجالات الفلكية أو البيولوجية أو الجغرافية أو غيرها .

٦ - الصور والأشكال : هناك فرق بين « الصورة » وبين « الشكل » ، فالأولى تكون مأخوذة بآلة تصوير

(كاميرا) أي أنها فوتوغرافية ، ثم الوسيلة الثانية من وسائل الايضاح هي « الأشكال » ، أي تخطيط جسم أو عملية ما ، والمتقن البعادي - ناهيك عن أصحاب التخصصات العلمية المختلفة - يعلم ذلك ، فلا تطلق على صورة فوتوغرافية لفظ (شكل) ، كما لا تطلق على شكل تخطيطي لفظ (صورة) ، فالدقة في التعبير إحدى عناصر الكتابة الجيدة ، سواء كان القالب الذي يحتويها مقالاً أو كتاباً . نقطة أخرى ، لكنها خطيرة بشأن الصور ، يجب التنبيه اليها ، تلك هي عدم جدية الصور ، فتجد مثلاً في فصل (الحيوان) عند الحديث عن الدواجن وصناعات الدواجن صوراً للمؤلف ، وهويوزر بعض المذابح الآلية أو مصانع الدواجن (أنظر صفحات ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١) . فهذه صور « اليوم » ذكريات وليس محلها كتاب علمي - وإن كان موجهاً للمثقفين لا المتخصصين - لا سيما وهو يتعرض لمسائل في غاية الأهمية ، فليس بعد القرآن الكريم أهمية تعدله .

ولما كان الكتاب اسلامياً فلا داعي إذا لظهر نساء غير محتشعات على صفحاته (أنظر صفحة ٥٢) ، فلا الصورة تعطينا تفصيلاً فلكياً ، ولا هي تمجبت ظهور امرأة ترتدي سروالاً قصيراً (شورتا) . وعدم وضوح تفصيلات الصور أمر شائع في كفة ما جاء منها ، أنظر على سبيل المثال : صفحات ٥٥ ، ٨٣ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، وغيرها . في صفحة ٨٣ صورة لبعض الأشجار كتب تحتها (الغابات التي طمرت وكبوت الفحم) ، فكيف أنها طمرت ونحن نراها عياناً على صفحات هذا الكتاب ؟ في صفحة ١٠٥ صورة ملتقطة من كتاب أجنبي عن التركيب النسيجي لورقة نبات (قطاع طولي منها - لم يذكر المؤلف ذلك) ، وحولها كلام باللغة الانجليزية ، فلم يترجم المؤلف هذا الكلام ، ولم يعطنا فكرة في تعليق قصير أسفل الصورة . في صفحة ١٢٤

في بحث سابق^(٥) ، هذا مع اقتناعنا بأن يكون المنهج كما يلي :

أ - عرض مفاهيم من القرآن تشير إلى الظواهر الكونية أو البيولوجية .

ب - تتبع آراء المفسرين مع وضوح مواضع الاقتباس .

ج - صياغة المفاهيم القرآنية المفسرة في شكل قواعد وقوانين جزئية .

د - التطبيق العلمي (أو العملي) لما ورد في القوانين المصاغة من المفاهيم القرآنية المفسرة .

هـ - استنباط التوافقية بين المنهج العلمي الحديث ، ومنهج القرآن وأسلوبه في معالجة الظواهر الكونية ، مع إيضاح سبق القرآن وشمولية اشارته وصدقها المطلق ، وصلاحيه الانتفاع بها للانسان البدائي ولانسان عصر الفضاء ومن بعده على السواء .

فهل سلك المؤلف في معالجة الظواهر الكونية - التي ساقها من القرآن في هذا الكتاب - هذا المنهج ؟ ! الاجابة بالنفي طبعاً .

٨ - شيوع كثير من الأخطاء المطبعية والأغلاط العلمية ، وها هي بعض هذه وتلك :

٩ - بناء على ما تقدم ، فإننا نوصي في نهاية هذا التحليل أن يراجع الكتاب مراجعة علمية وطباعة دقيقة

من المؤلف ذاته ، أو من غيره من المختصين ذوي الكفايات العلمية الرفيعة ، ولا نظن أن دار النشر المسؤولة عن الكتاب تنفذ هؤلاء ، فهي كبرى الدور في مصر ، حتى يكون الكتاب على المستوى اللائق بجلال موضوعه ، وذلك عند إعادة طباعته .

ولا يفوتنا أن نذكر للمؤلف مجهوده المشكور الذي بذله في مجال الاعجاز العلمي في القرآن الكريم ، وندعو الله له بالجزاء الحسن ، وأن يغفر له ما لم يتنبه إليه . وعلى الله قصد السبيل .

صورة لرجل زنجي ينفخ في قوقعة اظنه ينادي بذلك على أناس آخرين ، أو ربما يستنفر بعض الحيوانات . في صفحتي ١٤٠ ، ١٤١ صور لأقراص الشمع في خلايا النحل ، وكلها متقاربة ، ولا تعليق مفصل يصاحب كل صورة من الصور الأربعة ولاحتقتها في الصفحة التالية وكان يكفي صورة واحدة من هذه الخمسة ، مذيلة بتعليق مركزف ومعقم . في صفحات ١٦١ ، ١٦٢ ، ١٦٣ يأتي المؤلف بصور لحيوانات عملاقة يقول أنها من العصور البائدة ، فمن أين أتى بها ؟ في صفحة ١٩٣ شكلاً تخطيطياً لخطوات الاخصاب في أنثى الانسان ، ونسي المؤلف أن يكتب تعليقاً على الجزئين السفليين من الشكل ، كما فعل مع الأجزاء الأربعة العلوية في نفس الشكل !!

معنى هذا أن صفحات عديدة قد أهدرت في صور لا أهمية لها ولا طائل من وراءها ، وإذا كانت المجالات والمطابع تعطي أهمية قصوى لكل مساحة ورقية ، فالورق باهظ الأسعار ، والطباعة مرتفعة التكاليف ، فكيف بهذه الدار وهي كبرى دور النشر في مصر - تسمح بنشر مثل هذه الصور ، مع علمنا بأن القليل منها مجدي .

٧ - منهج التوفيق العلمي : كونك تنقل فقرات من كتب علمية وتنسجها في نسق منتظم ، فهذا ليس بتأليف ولا ابداع ، وكونك تقتبس أو تقتطف سطورا طويلا من كتب التفسير ، فهذا أيضا ليس بتأليف ولا ابداع ، وإنما التأليف والابداع هو التغلغل في أعماق المسائل التي تتعرض لها ، موضحا رأيك فيها ، أو آراء المتخصصين على أعلى مستوياتهم ، وهذا يستدعي الرجوع مراجع حديثة متعددة ، وإذا كان لمعالجة المسائل الكونية في القرآن مناهج أو برامج محددة القسمات فقد فصلناها

(٥) فهم (كلام السيد) : التحقيق العلمي للآيات الكونية في القرآن ، المسلم الماسر (٣٦) ١٩٨٣ ، ص ٢٢ - ٦٢ .

الكلمة	موقعها	التصحيح المقترح
فطرت	الآية ٣٠ من سورة الروم ، ص ٩	فطرة
مؤكسد	السطر الرابع من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	مؤكسح ، أي أنه مرتبط ارتباطاً مؤقتاً بالأكسجين وليس متصاعلاً تفاعلاً يؤدي إلى تغييره
بأكسد	السطر ١٢ من الفقرة الرابعة ، ص ١٨	يتأكسج
السداد	السطر الثالث من الفقرة الثالثة ، ص ٣٩	أسدية مع سدلة
تلاب أنواع	السطر الثاني من الفقرة الثالثة ، ص ٣١	ثلاثة أنواع
الفصائل	السطر الأخير من الفقرة الأولى ، ص ٤٩	الشعب
العائلات	السطر الأخير من الفقرة الأولى ص ٤٩	الفصائل
التشععة	السطر الأخير ، ص ٥٤	المشعة
خلائه	السطر ١٤ من الفقرة الثانية ، ص ١٥٢	كلايه
يجمدعات من		
العدد نسي		
المحيطيات	السطر ١١ ، ص ١٣٧	يجموعات من العدد تحتوي على محيطيات
يخصي	الآية ٤٥ من سورة النور ، ص ١٣٢	يخصي
المطوائف	السطر السادس ، ص ١٤٣	الأعداد . لأن المطايف هي الترجمة الصحيحة لكلمة Classes
ترشق	في عنوان الصورة الواقعة في ص ١٢٨	ترشف أو ترشف
ليتمحص	السطر الخامس من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	ليتمحض أو ليتخفف
جماعات -		
جماعة	السطر ١٩ من الفقرة الثانية ، ص ١٤٦	مراتب ، مرتبة
الالكروبيات	السطر ١٠ من الفقرة الأولى ، ص ١٥٩	الالكرونات
ولكن الانسان		
العصري هو		
سلفا	السطر الثاني ، ص ١٦٣	ولكن الانسان المعصري هو خلفها
وشاهد الفقرة	السطر السادس من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٣	رشات الفقرة
قانون الترتبة		
العكسي	السطر الخامس من الفقرة الثالثة ، ص ٢٧٨	قانون الترتيب العكسي
حي	السطر الثاني من الفقرة الأولى ، ص ٢٧٩	في حين
وما لها		
من فروج	السطر قبل الأخير في سورة ق ، ص ٢٩٧	وما ذا من فروج

« لقد حصلت القطيعة يوم أظهر لنا لبني
شتراس ، بالنسبة للمجتمعات ، ولاكان
بالنسبة لللاوعي ، أن « المعنى » لم يكن ، على
وجه الاحتمال ، سوى نتيجة سطحية أولمغان ،
أوزيد ، وأن ما يترقنا في العمق ، ما يوحد
قبلنا ، وما يستحقنا في الزمان والمكان ، كان هو
النسق .

إن الطريقة التي يفكر بها الناس ويكتبون
ويحكمون ويتكلمون (وحتى النقاشات في
الشارع والكتابات اليومية) بل وحتى الطريقة
التي يستشعر بها الناس الأشياء والكيفية التي
تأريها حساسيتهم ، وكل سلوكهم ، تحكمها -
في جميع العصور بنية نظرية ، نسق ، يتغير مع
العصور والمجتمعات ، إلا أنه يظل حاضرا في
كل العصور وكل المجتمعات » (١) .

ميشيل فوكو

الكتاب الذي نحن بصدده يتضمن نصين للفيلسوف
الفرنسي ميشيل فوكو . الأول تحت عنوان (نظام
الخطاب) قام بترجمته أحمد السطاتي ، والثاني تحت
عنوان (إرادة المعرفة) ترجمة عبدالسلام بنعبد العالي ،
بالإضافة الى عرض ثالث حول (نيتشة ، فرويد ،
ماركس) مثيل يُناقش ساهمت فيه نخبة من المفكرين .
في النص الأول ينطلق فوكو من تصور معين : البحث
عن علاقة الخطاب بالسلطة ، أنه يشعر بمدى خطورة
الخطاب ، لذلك يرغب (وهي رغبة جماعية) في أن
يكون « في الخطاب كمنفعة رهيبية أو كمنجى عرضي ،
لا أن يكون ذلك الذي يصدر عنه الخطاب »

إن هذا الاحتراس مرتبط بالرغبة ، رغبة أن لا توجد
بداية ، لكنه أيضا نذير خوف وتوجس يصدر عن تفرد
قد يحصل في الخطاب .. لكن السلطة ترد على هذه
الرغبة - الاحتراس ، إذ تعمل على سن مجموعة من

نظام الخطاب وإرادة المعرفة ميشيل فوكو

ترجمة: أحمد السطاتي وعبد السلام
بنعبد العالي
عرض وتحليل : علوط محمد

فالمجنون لا يعتد بخطابه ، لأن خطاب العقل لا يولي العناية والاصغاء ، انه نوع من الصخب ، أعزل ومسلم ، حتى ولو كان يمثل دور الحقيقة ذات القناع لخطاب العقل . فعلاقة الطبيب بالمريض / المجنون تكشف عن هذا البعد ، فدور الطبيب ليس سوى ارهاق السمع للكلام الحر ، فكيف يكون هذا الاصغاء قبولاً بخطاب المجنون ، مع علمنا أن الصمت لا يتأتى الا مع التوقف الصامت العارض بين أجزاء الكلام ، لا سيما اذا كان الاصغاء يتعلق بخطاب يقع تحت استغلال الرغبة .

المبدأ الثالث هو منظومة الصدق والكذب ، انه ايضا طريقة خارجية لممارسة الرقابة . ان مجال تشكيل ارادة الحقيقة (الكيفية التي نوظفها للبحث عن الحقيقة ، ومجموع النوايا التي تهدف منظومة معرفية) ينظر إليها فوكو على أساس أنها منظومة من البند ، منظومة تاريخية قابلة للتعديل ، وذات طابع اكرهي قانوني ، خطاب الصدق هو الخطاب الذي نجله ونباهه . الخطاب الذي يجب أن ننصاع له باعتباره يمتلك السيادة . ان طرد السفطانيين من طرف افلاطون تأسيس لمنظومة الصدق ، حيث انتقلت الحقيقة من طور فعل خاضع ، فُعل فُعال وصائب ، انتقلت من طور التعبير الى طور العبارة ، والعبارة بالذات . اتجهت الحقيقة صوب معنى العبارة وصورتها وموضوعها وعلاقتها بمصادرها .

يحدد فوكو في اطار هذه المبادئ الثلاثة (الكلمة المحظورة ، تركة الجنون ، ارادة الحقيقة) مايل : ان المنظومة الثالثة اعم واشمل ، اذ تستعمل اليها المنظومتين الاولى والثانية لتصبأ فيها . خطاب الصدق تنصل من الرغبة والسلطة ، أصبح حديثه عن الحقيقة مقتنعا ، لايعترف بها . لم يعد خطاب الصدق عند قدماء اليونان ذلك الخطاب الذي يستجيب لرغبة ويمارس سلطة على ارادة الحقيقة ذاتها . هكذا ظلت الحقيقة اماناً خادعة ،

القوانين ، تجرد الخطاب من سلاحه ، وقد تسمح له بنوع من الحرية ، ولكنها تنظّل تستمد أصولها من السلطة . يطرح فوكو هذا الرد بنهكم ، وهو نوع من التهكم التصعيدي ، ليكشف لنا أن تعارض الرغبة والسلطة مؤشر على قلق واحد ، يتمحور حول ماهية الخطاب في بعده المادي والوجودي ، هذا القلق المحفوف بمجموعة من المعارك والانتصارات . الاستيهامية التي قلم الاستعمال الطويل أظافرها . تبقى الاشارة الى أن هذا الطرح الاستهلاكي لا ينفذ بعيدا عن مجال السلطة وعلاقتها بالخطاب ، خاصة إذا توقعنا عند الثبرة للمحمية التي تطيع هذا الاستهلال ، وفي مناطق أخرى من النص يكامله لصالح سلطته الذاتية .

يضعنا فوكو بعد هذا ، أمام مجموعة من الطرق الاجرائية التي بوساطتها السيطرة على الكلام ، مراقبته وانتقاه ، تنظيمه وإعادة توزيعه ، واسقاط ما فيه من رعب وخوف بأن كل مجتمع له طريقه الخاصة (النموذج الذي يتناوله فوكو هو المجتمع الغربي) ، وذلك حين يوزع مجموع هذه الطرق إلى ثلاث مجموعات : المجموعة الاولى تمارس اجراءاتها من خارج الخطاب ، في حين تمارس المجموعتين الأخرتين سلطتها من داخل الخطاب . كل مجموعة تتوزع عبر مبادئ فصلها فوكو بشأن عبر هذا النص .

في المجموعة الأولى ، هناك ثلاثة مبادئ للحظر وممارسة الرقابة : منطقتان يحظر فيها الكلام (الحياة الجنسية والحياة السياسية) في هذا المجال تظهر أصرة الخطاب بالرغبة والسلطة . ذلك أن التحليل النفسي يبين لنا أن الخطاب هو موضوع الرغبة ، كما يبين لنا التاريخ أن الخطاب هو السلطة ذاتها « ان الخطاب موضوع الرغبة ومكان السلطة ، وليس الشكل الذي يعلن أو يشير إليها » .

المبدأ الثاني في الحظر هو ثنائية العقل / الجنون :

وقع عليه التعليق) . يقول فوكو في هذه النقطة بأسلوب شيق « ضرب من لعب النقد الذي يحدث اللاتجاهية عن آثار ليس لها أي حظ من الوجود ، وحلم غنائي لخطاب يولد مرة بعد أخرى في كل نقطة من نقاطه جديدا بريثا ، ليعاود الظهور ، مرارا وتكرارا ، بكل نضارة ، انطلاقا من أشياء وعواطف وأفكار » ، مثال ذلك الأوديسية التي تتكرر في ترجمة Berand ، ونصوص متعددة ، وفي رواية أوليس . باختصار . ان وظيفة التعليق هي أن يقول في النهاية ما كان قد قيل هناك بصمت . . . وأن يقول للمرة الأولى ما سبق أن قيل (في هذه النقطة بالذات يلاحظ التدفق اللغوي والمجازي في كتابة فوكو حين يسعى إلى تأكيد هذه العودة والتكرار . راجع ص ١٧ ، ١٨) .

ثانيا هناك مبدأ آخر لتطويق الخطاب : (مصطلح يوظفه فوكو قصد الحديث عن طبيعة الخطاب المراقب ، بعد أن تم إخضاعه للمراقبة والحظر = ممارسة السلطة على الخطاب) . هذا المبدأ هو مفهوم المؤلف . ان المؤلف ليس ذلك الذي ينطق أو يكتب نصا . بل هو مبدأ لجميع الخطابات وتفاصيل ووحدة لدلالاتها وبؤرة تماسكها . كان ضروريا أن تستند الخطابات لمؤلف بالنسبة لعصوور معينة ، خاصة الخطاب العلمي (اسم المؤلف مقابل نظرية ما) لكن الأمر اختفى منذ القرن السابع عشر . لكن بالنسبة لخطابات أخرى تميز موقف المؤلف ، وأصبح البحث عنه ضروريا (الخطاب الأدبي مثلا . .) يفرق فوكو بين مفهوم المؤلف كـ « أنتجة النقد ، وبين المؤلف الحقيقي الذي يقطن في الخطاب كـضمير مهمته أن يكون شاهدا وحجة على الحقيقة (نموذج الخطاب العلمي) ، وبالمقابل فان هناك نصوصا تروج بحاجة إلى مؤلف (الحديث اليومي) ، لكنها ليست خطيرة ، لأنها معرضة للنسيان . ان المؤلف يقوم بوظيفة معينة مجددها له عصره ، قد

والذين حاولوا مواجهة ارادة الحقيقة هذه بالحقيقة قلة يجب النظر اليهم باعتبار (نيتشه ، آرتو ، باتاي . . مثلا) .

كما يلاحظ فوكو أيضا أن ثمة اجراءات أخرى تتمثل في سعي ارادة الحقيقة لكي تفرض على الذات العارفة (قبل إجراء أية تجربة) وضعا معيناً ، ونظرة معينة ، ووظيفة معينة ، إنه الاستعمال التقني الذي يجعل لانتشار المعرفة هدفا نفعيا حقيقيا (لتذكر المبدأ اليوناني القديم : ليكن الحساب قضية تخص المدن الديمقراطية ، حيث نتعلم منه علائق المساواة . . .)

اننا هنا بصدد سلطة اكراه ترمي الى ممارسة نوع من الضغط على باقي الخطابات (يطبق فوكو هذا الأمر على مجموعة من الممارسات الاقتصادية والسياسية ليظهر كيف تتحول الى قواعد وقوانين تعليمية في خطاب محدد) ثم يسعى بعد ذلك الى تبيان اجراءات المجموعة الثانية .

في هذه المجموعة هناك أولا مبدأ التعليقات والشروح : في هذا الصدد يقارن فوكو بين مجموعتين من أنواع الخطاب . هناك الخطابات التي تقال يوميا وتداول وينتهي أمرها بانتهاء الفعل ذاته الذي نطق بها . وهناك الخطابات التي هي أصل لعدد من ضروب الفعل الجديدة للكلام ، حيث يعاد تناولها وتحويلها والحديث عنها . هناك أيضا خطابات قيلت ، وأخرى تقال ، وتستظل جاهزة للقول أبدا بقطع النظر عن صياغتها (النصوص الدينية أو القانونية أو الأدبية والعلمية . . .) النصوص الثانية على العكس من الأولى نصوص أمهات ، تأتي لتسجل السواد على البياض ، ولتلتحق بعد ذلك بالتعليق والشروح التي قد تحتل مكان الصدارة (مثلا بورخيس : يعتبره فوكو يلعب في اطار محاولة المحو الجذري لهذا التفاوض بين الأصل والتعليق ، لكنه يسقط في الحرفية والتكرار لما

تخصيص الخطاب بفئة معينة ، واقصاء فئات أخرى .
تقلص عدد الذوات المتكلمة (مما يسمح بالقول بوجود
خطابات مباحة للجميع لا تفرض فيها هذه السلطة) .
إذا كان فوكو يطرح نموذجاً لهذا الاحتكار بـ (شوكون)
امبراطور اليابان وامتلاكه للرياضيات ، والملاح
الانجليزي (ويليام آدمز) فالأمثلة لا تنقص في مختلف
المجتمعات ان عملية انتقاء المتكلمين تفرض نوعاً من
الطقوس المصاحبة للخطاب لتحديد مفعوله في التلقي
وإعطاء القيمة الإكراهية للخطاب .

يستشهد فوكو في هذا الصدد (جماعات الخطاب)
التي كانت تشكل نوعاً من مصادرة الخطاب عن التلقي
(وهو أمر يتعلق بصيغة وتقنية إنتاج الخطاب) . إذ لم
تعد لدينا مثل هذه الجماعات ، فإن لدينا ما يؤكد
خطورها بشكل آخر ، وبصوغها انطلاقاً من مفهوم
التملك للخطاب عن طريق سبع قواعد معينة (نظام
النشر ، شخصية الكاتب ، الصبغة الرسمية
للكتابة ...) وهكذا نكون بصدد جماعة خطاب
مكشوفة ، ثم يستبدل بذلك الفارقة الالامائية بين ما
نطلق عليه عملية (الخلق) ، واستعمال نظام السني
وصولا إلى صيغة معينة . وحتى لا يخطأ بالحررة غير
الخاصة للطقوس ، فانه لا يمكن استبعاد هذا
الاقصاء . أبرز مثال يقدمه فوكو في هذه النقطة - حسب
رأيه - هو صور بث الخطاب الطبي بين الطبيب
ومريضه .

ثانياً : مبدأ انتقاء المتكلمين / المذهب : فخطاب
العقيدة والدين والفلسفة مثلاً يؤكد على طريقة البث
والبث السالفة الذكر ، ذلك أنه يكفي الالتجاء إلى
استعمال مشترك لمجمل الخطاب الواحد ، وبفضل هذا
الاستعمال تتحدد الانتماءات (حتى ولو كان للمتزمون
كثرة : ذلك أن خطاب العقيدة والمذهب يسمى إلى
الذيرع والانتشار) بفضل توفر الشرط الوحيد ، وهو

يتعدد هذا المؤلف ، لصالح ظهور مؤلف مغاير ، لكن
الوظيفة لا تتغير ، والتي هي حصر مباحة الخطاب (هذا
المصطلح ينسجه فوكو في صياغة تلحم بين مبدأ التعليق
ولعبة الهوية التي تلبس التكرار وصورة الذات ، مثلما
أن لعبة الهوية تلبس صورة الفردية ، وصورة الأنا ص
٢٠) . المبدأ الثالث : يتضح في مجال الفنون
(Disceines) هذا المبدأ يتعارض مع مبدأ
التعليق ومبدأ المؤلف . كل فن يشكل منظومة خاضعة
لمجموعة من القواعد والتعريفات والتقييدات . يستشهد
فوكو في هذا المجال بعلم النبات وعلم الطب) .
يستعين المؤلف في هذا الصدد بمفهوم النمط ، إذ يجب
على أية قضية لكي تنتمي إلى فن من الفنون أن تنخرط
في نمط أفق نظري معين . يقول فوكو : « أن علم النبات
والطب وعلى غرار سائر الفنون كلاهما صنعة أخطاء ،
وصنعة حقائق ، وليست الأخطاء واسباب أو اجساما
غريبة . بل هي وظائف إيجابية وفعالية تاريخية » ،
وهكذا يعود ليربط بذكاء مبدأ الحصر هذا في مجال الفن
بمنظومة الصدق . فلكي تكون القضية تنتمي إلى جملة
من الفنون ، عليها إضافة إلى ما ذكر ، أن يقال عنها انها
صادقة . . أي أن تكون في دائرة الصدق (نموذج
مانديل ، وهو عالم بيولوجي : لقد كان يقول الصدق ،
لكنه لم يكن في (دائرة الصدق) . وهكذا يخلص إلى أن
الفن مبدأ لمراقبة الخطاب ولانتاحه . . انه صورة لترهين
جديد مستمر للقواعد عن طريق لعبة الهوية .

في المجموعة الثالثة التي تسمح بمراقبة الخطاب
نلاحظ أن عملية المراقبة لا تتعلق بحصر مباحة
الخطاب ، أو السيطرة على ما في حوزته من سلطة ،
ولكن بتحديد شروط استعماله :

أولاً : مبدأ انتقاء المتكلمين / الطقوس : هذا المبدأ
يقوم بتحديد شروط استعمال الخطاب ، وفرض جملة
من القوانين على الذين يتناولونه . الهدف بالطبع هو

قراءة في مرحلة ثانية ، ولعبة تبادل في مرحلة ثالثة ، وهذا التبادل ، وهذه القراءة لا تعتمد سوى الرموز ، وهكذا يلغي الخطاب ذاته حلالا يضع نفسه ضمن نظام الدال .

ضمن هذا التصور العام الذي طرحه فوكو لحد الآن ، يقرر على أن كل حضارة تقف من الخطاب موقفين : موقف التقديس الظاهر ، الذي يخفى موقفا تاليا وهو الخوف من هذا الخطاب ذاته ، وكتيحية ، فأنها تعمل على ممارسة الحظر والرقابة عليه قصد السيطرة عليه .

وصولا الى هذه النقطة بضعنا المؤلف امام مشروعه الذي يطرح في هذا العرض والذي قرر الاشتغال به :

- ١ - اعادة النظر في ارادة الحقيقة
 - ٢ - إرجاع صيغة الحادث للخطاب .
 - ٣ - تجريد الدال من كل سيادة .
- هذا الطرح يقتضي مجموعة من الالتزامات :
- ١ - مبدأ القلب : ويسفره بالبحث عن الدور السلي لتطيف الخطاب وتقطيعه للوصول الى مبادئ التطفيف التي تحدد مصدر الخطابات ومبدأ وفرعها أو استمرارها ، وعند الوصول الى هذه النقطة يستلزم البحث عن مبادئ منهجية أخرى .
 - ٢ - مبدأ الانفصال : الخطاب يتضمن منظومات من التطفيف تشكل سيادة . هذه المنظومات ذات طبيعة قمعية . لذلك يجب أن نرفع من شأن الخطاب ، بأن ند إليه الكلمة والاعتبار . اذ يجب التعامل مع الخطابات باعتبارها ممارسات قائمة على الانفصال .
 - ٣ - مبدأ النوعية : لكي يتحقق هذا المبدأ يستلزم ادراك أن الخطاب عنفٌ نُوقِعُ بالأشياء ، وممارسة نرفضها على الأشياء ، إذ ليس العالم في حال تواطؤ مع معرفتنا ، وليس وجها مقروءا علينا الا أن نتطلع ونفك رموزه ، هذا التصور الجديد يحق الاضطراب لحوادث الخطاب .
 - ٤ - قاعدة المحيط البراني : وذلك بأن تكون مسيرتنا في

الاعتراف بنفس الحقائق ، وتوافق خطاباتهم مع الخطابات الثابتة الصلاحية . ستكون المراقبة هذا على مضمون العبارة وشكلها وليس على الذات التي تحدث ، البدعة أو السنة نوع من الخروج عن الخطاب سواء بالمبالغة المفرطة والتعصب أو بالخروج التام ، ذلك أن الانتهاكات تتراوح داخل مساحة الخطاب والحدود المسموح بها للذوات المتحدثة . هكذا يربط المذهب الأفراد بأنماط من التعبير في حين يمنعها عن غيرهم ، ويحدد الخطاب أنواع الارتباطات بين الأفراد . وهذا تكون مهمة المذهب مزدوجة : إخضاع الذوات المتحدثة الى خطابات وإخضاع الخطابات الى جماعات .

ثالثا : التملك الاجتماعي للخطاب : يرى فوكو أن كلا من التربية والفلسفة تعملان على الحفاظ على تملك الخطاب ، يقول عن التربية : « أن كل نظام تربوي ما هو الا وسيلة للحفاظ على تملك الخطاب ، أو احداث تغيير يضمن ملائمة مع ضروب المعرفة والسلطة التي تفوز جميعها بكل خطاب » ، وهكذا يكون نظام التعليم أيضا نوعا من اضافة صبغة الطقوس على الكلام ، وتكون الكتابة في نهاية المطاف نظاما وإخضاع مضارع لما يسبق . ورغم أن فوكو يبدو تجريديا في هذا التوزيع ، فانه لا نفوته الملاحظة الى أن أنواع المراقبة المذكورة لاتعمل منفصلة ، بل تعمل بشكل كلي . الفلسفة بدورها (وهذا ينحو كلام فوكو نحو التعقيد قليلا . .) تقيم نوعا من التواطؤ مع العالم . تؤسس به امكانية الحديث عنه ، وامكانية الحديث فيه . يتقصد فوكو الفلسفة في هذا المجال انطلاقا من مفهوم اللوغوس الذي ينهض عليه الفكر الغربي ، ليصل الى أحكام تستند الى التحاليل اللسانية في خلفيتها البنيوية ، وليقرر أن الخطاب ، سواء تعلق بمجال فلسفة الذات ، أو فلسفة التجربة الأصلية . أو فلسفة الوساطة الشمولية ، ليس سوى لعبة : لعبة كتابية في مرحلة أولى ، ولعبة

يظل سعى فوكو دؤبياً من أجل إقامة نظرية معرفية متينة على التصورات السابقة . وهذا بالطبع ماطبقه على تركة الجنون والجنس والمراقبة والعقاب . في هذه المحاضرة نجد صدى لكتبه التي سبقت والتي ستأتي فيما بعد . لقد أكد فوكو أنه لا يقول فقط . . بل يمارس القول من خلال اعماله المتنوعة التي تناولت دراسة وظائف النبذوالخطر ومنظوميتها . مفسراً كيف تحدث ، وكيف يتم الحفاظ عليها ، وكيف تختار الحقيقة ، ثم كيف تأسس خطاب الصدق والكذب ، والاشتغال على قياس مفعول الخطابات في مجال الممارسة (مثلاً دور الخطاب الطبي والنفسي في مجال ممارسة العقوبة . .) . أيضاً يركز هذا المشروع على دراسة إجراءات الحصر (مبدأ المؤلف ، والتعليق والقرن) وهو ما قام به في تاريخ الجنون والطب العقلي في القرن السادس عشر والتاسع عشر وأيضاً في مجال النقد الأدبي ، والتاريخ الأدبي ، كل هذا سعياً وراء الكشف عن عملية تطهير الخطابات ، لكن هذا العمل لا يكتمل الا بتظافر كل من الوصف العينيولوجي ، والوصف النقدي . فوكو في نهاية المطاف ، يقدم اعترافاً بالامتنان والفضل لمن استفاد منهم ، من أساتذته (ديموزيل ، كانكلسهم ، جان هيبوليت) . هذا الأخير الذي ينظر إليه على أنه هيجلي ، حاول أن يثبت كيف تمت هذه الاستفادة في الوقت المعاصر الذي تسعى فيه الفلسفة الى انقلاط من كل ما هو هيجلي .



في النص الثاني المعنون (حفريات المعرفة) يقدم لنا فوكو تصوراً غير معاد لمجهود علماء التاريخ (المؤرخون = استعمال مطلق) ، مؤكداً على نوعية الأدوات المستعملة للبحث في تاريخ المعرفة ، وموضحاً مراتب ومستويات التحليل المختلفة . انطلاقاً من الدراسة التي تستند الى حركة التراكم

الخطاب تنطلق من الخطاب ذاته نحو الشروط الخارجية للامكان ، لا أن ترتد الى الخطاب بحثاً عن نواة أو صلب غيبوه .

هذه المفاهيم السابقة تمجداً ضابط لها تؤطره مفاهيم أربعة أخرى :

مفهوم الحادث - مفهوم السلسلة - مفهوم الاطراد - مفهوم شرط الامكان . ويلاحظ ان هذه المفاهيم تتعارض في حدودها (الحادث / الخلق والابداع) و (السلسلة / الوحدة) و (الاطراد / الطرافة) و (شرط الامكان / الدلالة) . لقد ظلت هذه المفاهيم (الدلالة ، الطرافة ، الوحدة ، الابداع) تهيمن على تاريخ الفكر التقليدي لمدة طويلة .

يضيف فوكو في النهاية ملاحظتين :

١ - الأولى تتعلق بالتاريخ : ذلك أن مهمة المؤرخين التقليديين كانت تسعى إلى بناء وحدة من خلال فحص لمختلف العناصر والظواهر ، لكن الدراسات المعاصرة اليوم أصبحت ترمي الى تأسيس وحدات نوعية تشكل سلاسل متعزلة ومنفصلة تتمتع باستقلال ذاتي .

٢ - المشاكل النظرية والابستمولوجية التي تنتج عن مفهومي السلسلة والحادث ، حيث الحادث ينشأ في أحضان التشتت المادي مفعولاً له ، ومفعولاً فيه ، وذلك حين ينحو باتجاه نزعة مادية للاجسمي . ثم مشكل التصور الذي يرى أن العلاقات التي تقوم بين السلاسل منفصلة ، بحيث ينبغي اعداد نظرية في المنظومات القائمة على الانفصال خارج فلسفات الذات والزمن .

ان التنظير الذي يقدمه فوكو لا يخلو من شوائك تتمثل في الثالوث (الصدف ، الانفصال ، الواقعة المادية) بحيث أن كل نظرية تسعى لإقامة زحزحة في الفكر يجب أن تحترس من مخبة السقوط في آلية هذه المفاهيم .

ان التحليل في شكله القديم كان يسمى الى اقامة (ذاكرة) تقوم على أثريات الماضي محولا باعها الى وثائق . أما اليوم فان التاريخ هو ما يحول الوثائق الى أثريات . أن تصوروا على هذا المستوى يترتب عنه نتائج أربعة :

١ - المفعول السطحي الناتج عن إبراز تعدد المستويات الانفصالية ، دون وعي يخلق تاريخ و زمن خاصين بهما .

٢ - المكانة العظمى التي أصبح مفهوم الانفصال يحتلها في الدراسات التاريخية ، حيث انتقل من كونه حاجزا في الدراسة الى مفهوم اجرائي .

٣ - الغاء فكرة التاريخ الشامل ، وبداية تكون التاريخ العام ، ذلك أن الأول يضم جميع الظواهر حول مركز واحد ، بينما الثاني يرسم فضاء تشتت وتبعثر .

٤ - مجموعة المسائل المنهجية التي أخذت تطرح في إطار التاريخ الجديد (تكون الوثائق المسقة والمنسجمة ، وضع مبدأ الاختيار بينا ، تحديد مستوى التحليل والعناصر الهامة فيه ، تعيين منهج التحليل ...) .

ان قراءة هذه المستويات في التحليل الذي يطرحة فوكو تتطلب رؤية يتداخل فيها مجموع من العلوم (المناهج ، التاريخ) ، الانثربولوجيا ، البيئية . . . وان بلورة مثل هذا التوجه تستدعي ليس عملا فرديا ، بقدر ما تستدعي عملا تاريخيا جماعيا . ذلك أننا بصدد تأسيس تحول إبستمولوجي لازل لم يكتمل بعد .

ان فوكو من خلال هذه المحاضرة يقدم عرضا مكثفا لمجموع هذه التصورات ملء بالاحالات الى مجموعة من الحقول المعرفية ، ويعمد الى التنظير والملاحظة والتقصي ودراسة الوثائق وأرشيف الماضي . . ان عملا مثل هذا لا يمكن أن نتقدم بالحكم عليه الا بعد « قراءات » بالغة الوعي والدقة والتصور .



والاشباع والكلم ، أسس علماء التاريخ تحليلا منتظما ومتوصلا ، يقوم على التعاقب الخطي ، وسبر الأغوار ، مما دفع الى نشوء مستويات أخرى من التحليل . هذه المستويات أصبحت تشكل مراتب تصاغ في شكل (سلاسل = ص ٥٠) وظواهر تنحو نحو الانفصال (ص ٥٠) . ونلاحظ هنا انها نفس المفاهيم التي تمت الإشارة اليها سابقا فيما يتعلق بنظام الخطاب .

حول مفهوم السلسلة يوضح فوكو أن الاسئلة التقليدية للتاريخ ، تقوم على الوصل بين الأشياء واقامة علاقات تربط بين الوقائع غير المنتظمة ، وفرض تعاقب ضروري عليها . في حين أننا نجد أن الاسئلة المعاصرة تدعو الى الفصل بين الأجزاء واقامة مراتب للتحليل معزلة .

وحول مفهوم الانفصال . انتقل البحث من رصد الوحدات المنسقة التي كانت تنتظم عبر عصور وحقب الى دراسة تقوم على تبيين عواقب الانفصالات داخل هذه الوحدات ويعطى فوكو أمثلة لأنواع من هذه الانفصالات .

١ - الأفعال والعتبات الإبستمولوجية التي وصفها باشلار (البحث في تشكيل المعرفة ونموها)

٢ - تحول المفاهيم وانتقالها من ميدان الى آخر (مع تطبيق حول المصطلح)

٣ - المستوى الصغير والمستوى الكبير .

٤ - إعادة التوزيع التراجمي للوقائع

٥ - وحدات الصرح البيئي للأنساق الفلسفي

المهدف بالطبع من هذا العمل هو الوصف التاريخي لتنين الوقائع قصد بناء تحليل ينطلق من الاتصال الى تأسيس انفصال في رؤيتنا للمعرفة (يستلم فوكو في هذا الصدد مجموعة مفاهيم مساعدة : العتبة ، الفصل ، القطيعة ، التحول) .

داروين ، فرويد ذاته) نبشه أقام جدلا طويلا ينتقد عبره الاعماق الفكرية ، وأغوار اللاشعورية لكشف الخنوع والنفاق ولباس الأفتنة ، ثم أخيرا تعدية ماركس للسلط كشفها عن الحقائق التاريخية المستمرة .

لقد طرح التأويل مع هؤلاء مبدأ التشابه ، وأصبح تأويلا لا نهائيا على عكس القرن السادس عشر على أن كل تأويل سابق أو لاحق يظل مخلقا ، قابلا للفحص ، مما ينتج عنه (وهذا ما يرغب فوكو في الوصول اليه) تشكيل وظهور انفصال في المعرفة .

إن التفكير حول الموضوع الذي ينصب عليه التأويل ، يقودنا الى الحديث عن العلامة . . . اذا حدث أن توقف التأويل ، فلأنه لم يبق هناك ما يؤول من جهة ، ذلك أن عناصر الحقيقة في التأويل هي بدورها تأويلا . وهكذا فإن التأويل لاي هؤلاء ينصب على تأويل سابق ، وهنا يجد التأويل ذاته مرغما على أن يؤول ذاته الى مالا نهاية .

لقد سعينا هنا الى توضيح مجموعة من التصورات التي يقدمها فوكو في هذا الكتاب - رغم الكشافة المعرفية العميقة لهذا المؤلف - ونحن نأمل أن يكون هذا العرض معرض استفادة . . . ذلك أن المؤلف في هذا الكتاب يضع الخطوط العريضة للمشروع المعرفي الذي ظل يشغل عليه طوال حياته ، والذي سيفصح عن نفسه في كتاباته ومصنفاته التي خلفها بعد رحيله . ونذكر أن للنص الأول من الكتاب ترجمتان لكل من صالح هاشم في مجلة الكرمل عدد ١٠ ، ومحمد بسيلا من المغرب في كتاب مستقل بالإضافة الى الترجمة التي نحن بصدها مما يبين أهمية هذا النص وقيمه في الحقل المعرفي الفلسفي والعلمي المعاصر .

في العرض الثالث (نبشته ، فرويد ، ماركس) ، والذي هو عبارة عن مائدة مستديرة موضوعها : تقنية التأويل عند ماركس ونبشته وفرويد يقدم لنا فوكو تطورا للتأويل على هذا الشكل :

لدراسة تقنية التأويل ينبغي إقامة نوع من الموسوعات التي تضم تاريخا لتقنيات التأويل منذ الاغريق الى الآن . ان صبيغة اللغة تستدعي التأويل ، لا يمكن أن نطمئن الى المعنى المقول . كما لا يمكننا أن نتوقف عند الصياغة اللفظية للكلام . إذ أن ثمة خطابات أخرى ذات طبيعة لا لغوية .

ان كل حضارة ، وكل نمط ثقافي له تقنية خاصة في التأويل ، لهذا نقف على منظومات متعددة للتأويل . في القرن السادس عشر كانت تقنية التأويل تقوم على مبدأ التشابه الذي شكل منظومة مضبوطة تتحكم فيها خمسة مفاهيم : (التلازم Convenientia ، التعاطف Sympatheia السوزاي Emulatio ، الأثر Signature ، والتجانس)

منطق التشابه يقتضي داخل نظرية الدليل (Signe) الالتجاء الى إجراءات : هناك الانتقال الجانبي من تشابه الى آخر (Cognition) ، والمعرفة المعقدة التي تنتقل من تشابه سطحي الى تشابه أكثر عمقا (Divinatio) .

تغيرت تقنيات التأويل في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر انطلاقا من النقد الذي وجهه بيكون وديكارث لبدا التشابه ، لكن في القرن التاسع عشر نجد ماركس ونبشته وفرويد امكانية قيام تأويل جديد ، يمكن رصده في كتب هؤلاء المفكرين وما أحدثته في الفكر الغربي من صدمات . لقد كشف فرويد على ثلاثة جروح نرجسية في الثقافة الغربية (كوبرنيك ،

العدد التالي من المجلة
العدد الثالث - المجلد السابع عشر
أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر
قسم خاص عن
«علوم الصحاري»

ترحب المجلة باسهام المتخصصين في الموضوعات التالية :

(أ) علوم الصحارى

(ب) الهجرة والهجرة المعاكسة

(ج) الدراسات المستقبلية

(د) المسرح

(هـ) الحاسب الآلى

(و) الأمن الغذائى

(ز) الثقافات فى العالم الثالث

(حـ) الجنون فى الادب

(ط) التجديد فى الشعر

لبرات ٣	سوريا	٥	الخليج العربي
ملينا ٢٥٠	المتاهرة	٥	المعمودية
ملينا ٢٥٠	السودان	٤٠٠	البحرين
قرشا ٢٥	ليبيا	٤٥	اليمن الشمالية
باية ٤٠٠	مستط	٤٠٠	اليمن الجنوبية
نغانير ٥	الجزائر	٣٠٠	المراة
مليم ٥٠٠	تونس	٢٥	لبنان
دراهم ٥	المغرب	٢٥٠	الأردن

الاشتراكات :

البلاد العربية ٢٥٠٠ دينار

البلاد الأجنبية ٢٠٠٠ " "

تمول قيمة الاشتراك بالربا الكويتي لحساب وزارة الاعلام بموجب حوالة مصرفية فخالصة الصاري
على بنك الكويت المركزي، وترسل صورة عن الحوالة مع اسم وعنوان المشترك إلى :

وزارة الاعلام - المكتب الفني - ص.ب. ١٩٣ الكويت

مطبوعة بحكومة الكويت

الشمس
٢٥٠ فلس